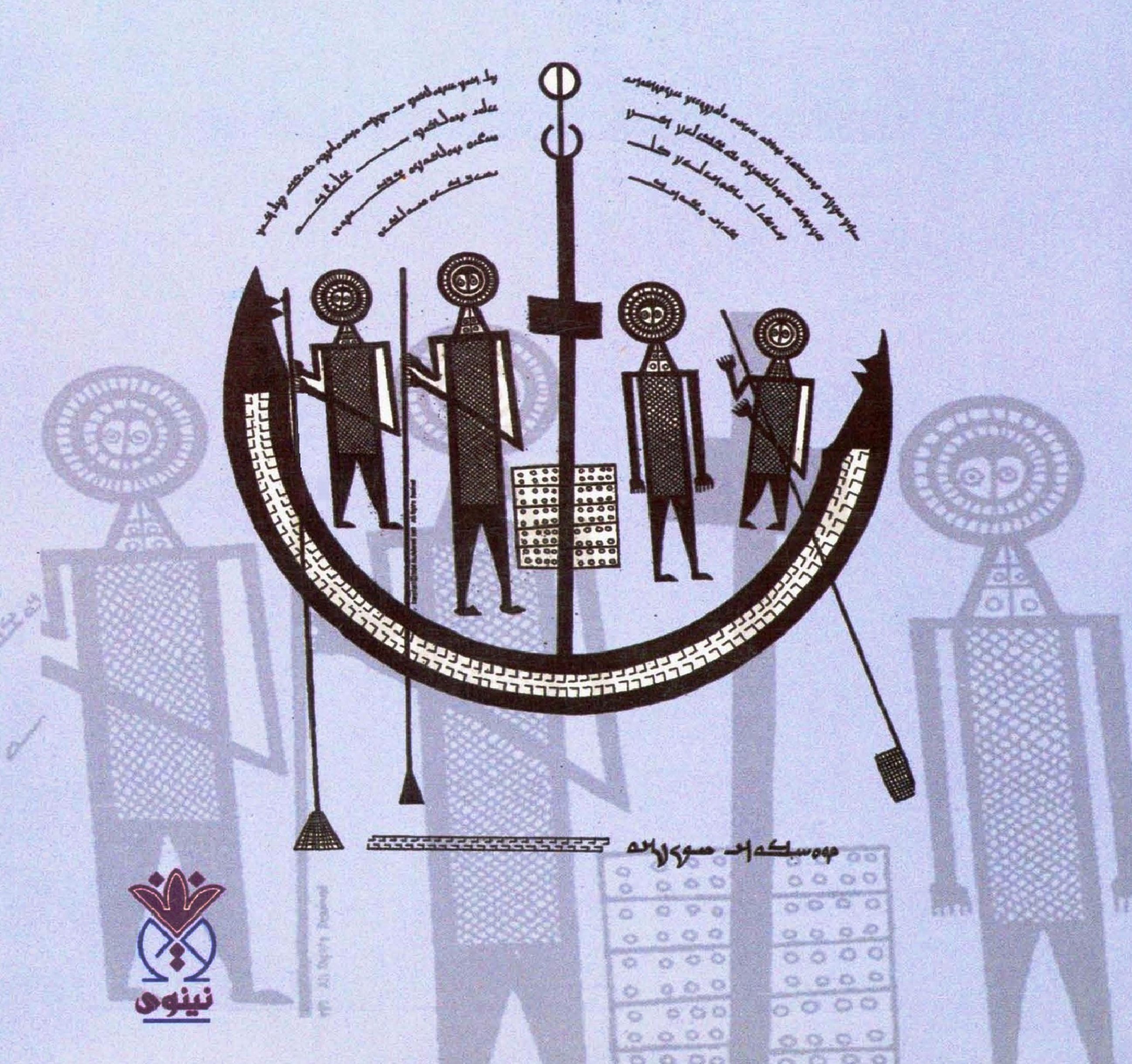
خزعل الماجدي

المثولوجيا المندائية



نينوى

الميثولوجيا المندائية



اسم الكتاب: الميثولوجيا المندائية

اسم المؤلف: د. خزعل الماجدي

عدد الصفحات: ٦٠٨

القياس: ١٧ * ٢٤

١٠٠٠/١٠/٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

الإخراج والطباعة

علي نصر - مركز الفوال

تصميم الغلاف: م. سوسن الحلبي

د. خزعل الماجدي

الميثولوجيا المندائية

إلى مروان

ولدي وحبيب روحي وعقلي

الذي خطفه الإرهابيون في بغداد

أهدي لعينيه اللتين تقطران ألماً وتمتلئان أملاً

هذا الكتاب الذي كتبته في البلاد الغربية بينما هو يئن

في قيود ظلام الوطن الممزق بالاحتلال

والمُهين لأبنائه بالقتل والخطف والتشريد

مُقدِّمة

منذ صباي، كنت أنظرُ إلى الديانة المندائية باحترامٍ وإعجاب. وكان يدفعني الفضولُ بقوةٍ لمعرفة أسرارها وخفاياها لسبب ما زلت أجهله حتى هذا اليوم. وكان حبي لهذه الديانة مدعاةً لصداقات كثيرة انعقدت، مع الزمن، بيني وبين أبناء هذه الديانة في العراق.. لقد شعروا بحبي لهم وقد غمروني بالتقدير والاحترام.

ولعل نقطة التحول الإيجابية المهمة، في علاقتي مع هذه الديانة وأهلها، كانت يوم ألقيت محاضرتي (الأصول السومرية للديانة الصابئية المندائية) في نادي التعارف الخاص بهم عام ١٩٩٦ والتي استغرقت أكثر من خمس ساعات، ثم نشرتها في كتابي (جذور الديانة المندائية). وقد أحدثت المحاضرة ثم الكتاب ضجةً في الوسط المندائي وانقسم المندائيون حولهما بين متحمسٍ ومعارض، وصدرت حولها ردود وبيانات اضطررت بعدها إلى إلقاء محاضرة جديدة، في المكان نفسه، لتوضيح ما التبس من القصد.

بعدها ازداد إطلاعي على الدراسات والكتب الموسعة حول هذه الديانة في اللغات الأجنبية وعرفتُ الكثير من خفاياها، وتعززت نظرتي السابقة لأصولها الرافدينية. فقد توغلتُ في أعماق نصوصها الدينية والأدبية وتجلّت لي، يوماً بعد آخر، صورتها الحقيقية وأدركت أن (المندائية) هي آخر الصفحات المشرقة لحضارة وادي الرافدين قبل الإسلام، لكن جذورها الثقافية كانت تمتد إلى ما قبل السومريين، رغم أن الدراسات الأجنبية تتحاشى البحث في هذه الجذور وتحاول زرعها في أماكن أخرى غير وادي الرافدين!!

لن أبالغ إذا قلتُ أن التراث المندائي هو أول وآخر تراث رافدينيٍّ أصيل، فقد بدأت به الحضارات الرافدينية مع الشعب الناصورائي الذي أسس مدينة (أريدو) وقد اخترق التاريخ، منذ الألف الخامس قبل الميلاد، بصمتٍ وبصعوبةٍ بالغةً منفياً هناك على حافات الأهوار وعند فم

الخليج حتى تم تدوين أصوله الشفاهية في القرون الميلادية الأولى باللغة المندائية (التي أصبحت لغته في الألف الأول قبل الميلاد) ووضع هذه الأصول في مخطوطات كثيرة، فُقد بعضها، وتناوب على إدامتها نسّاخ عظماء أوصلوها، بأعجوبة، إلى العصر الحديث.

كان إطّلاعي على التراث السومري والأكدي والآشوري والبابلي قد زودني بعدّة جيدة للخوض في مغاور الديانة المندائية فقد أضاء لي هذا التراث الكثير من جوانب هذه الديانة التي كان إغواؤها لا يُقاوم، فهي تحملُ، من جهةٍ، ذلك التراث بكلِّ أطيافه وتحمل، في الوقت عينه، لوناً جديداً هو نزعة التوحيد التي تنفرد بها المندائية دون غيرها من صفحات وادي الرافدين.

كان هناك هاجس قوي يدفعني للقول، دائماً، أن جذور التوحيد الأساسية موجودة في وادي الرافدين لكني كنتُ أفتقر إلى الأدلة التي تؤكد ذلك، حتى أطّلعت بعمق على هذه الديانة فتأكد ظني تماماً حيث أدركتُ أنها كانت ديانة التوحيد السرية في وادي الرافدين والتي تبلور التوحيد فيها في منتصف الألف الأول قبل الميلاد وظلت تنمو تحت العقائد الدينية متعددة الآلهة لكنها لم تستطع تقويضها لأنها ديانة مسالمة ومحدودة الانتشار، فظهرت ببطءٍ إلى العلن بعد سقوط بابل وتعرّف عليها اليهود والفرسُ والإغريق وأخذوا منها.. وسرعان ما أصبحت (المندائية) التي ترجمها الإغريق بصيغة مصطلح (الغنوصية)، سمة العصر الهيلنستي الدينية ثم الفلسفية.. أما أهلها المساكين فكانوا يزدادون عزلةً وفقراً قرب الأهوار والأنهار الصغيرة في جنوب العراق.

لقد أعطت المندائية الروحَ للغنوصية التي أنعشت الفكر الهيلنستي، وهي أعظم فترة اختلاطٍ للعقائد العالمية، لكنها لم تُذكر بخير ولم يلتفتُ أحد إلى أهلها ولم ينصفهم التاريخ، بل أن اليهودية ثم المسيحية تدينان بالكثير لها. لكنها طُويت في ثناياهما وضاع إرثها فيهما.

هكذا تبددت روح المندائية، بصمتٍ، في عقائد الهيلنستية والتوحيدية وازدادت هذه الديانة عزلةً وغموضاً منذ ذلك اليوم وحتى وقت قريب.

ورغم أن علماء الأديان والآثار واللغات السامية بحثوا فيها وسلطوا الضوء عليها ولفتوا الانتباه لها، لكن خلفياتهم التوراتية والإنجيلية لعبت دوراً كبيراً في محاولة إرجاع هذه الديانة إلى جذورٍ يهودية ومسيحية باعتبارها فرقة هرطوقية منهما نبتت في أرضهما (فلسطين والأردن) ثم

رحلت إلى (وادي الرافدين) في القرون الميلادية الأولى، وقد ساهم هذا في إعادة تضبيب وتمويه أصول هذه الديانة وأهميتها.

أعتقد أن الوقت قد حان لوضع دراسات علمية دقيقة ومقارنة لسبر أغوار المندائية في لغتها وديانتها وأصولها الأنثروبولوجية دون أية خلفيات أو دوافع دينية أو أيدولوجية بل بدافع علمي محض، وهو ما سيعطي لهذه الديانة مكانتها الحقيقية.

لقد كان إغواء الأساطير المندائية، قياساً لأبحاثي في هذه الديانة، هو الأقوى، فقد دأبتُ على جمع وتبويب وتصنيف هذه الأساطير في مجاميع متجانسةٍ ثم بدأتُ بتحليلها وفق الآليات العلمية المتبعة في علم الأساطير (المثولوجيا). ومن هنا كانت فكرة هذه الكتاب.

تختلفُ الأساطير المندائية عن أساطير العالم القديم وعن أساطير بيئتها القديمة في وادي الرافدين، فهي منطقة وسطى وحلقة صلةٍ ما بين تلك الأساطير والأساطير الغنوصية في شكلها الهيلنستي. إنها أساطير غنوصية نيئة لم تطبخها حرارة التحولات الجديدة في العالم القديم، بعد أن حرك مياهه الراكدة غزو الاسكندر المقدوني للشرق عام ٣٣٤ ق.م، في حين أصبحت الأساطير الغنوصية ناضجة أو صلبةً في القرنين الأول والثاني الميلادي. أما الأساطير المندائية فقد احتفظت ببراءتها وعفويتها وظلت هكذا حتى يومنا هذا، ولذلك نرى أن دراسة الأساطير المندائية بعمقٍ أمرٌ لا بد منه لفهم الأساطير الغنوصية وتحولاتها.

ظهر الاهتمام بالأساطير المندائية مع مؤلفات الليدي دراور التي ترجمت بعض الكتب المندائية التي تضم هذه الأساطير وعلّقت عليها تعليقات بسيطة مثل (آدم الخفي، حران كوثيا وتعميد هيبل زيوا، تتويج شيشلام ربّا) لكن كتابها (أساطير وحكايات) الذي يشكل الجزء الثاني من كتابها (الصابئة المندائيون في العراق وإيران)، الصادر عام١٩٣٧ كان هو أول كتاب أساسي في هذا المجال والذي ترجمه كلٌ من (نعيم بدوي وغضبان الرومي)، لكن هذا الكتاب لا يعد كتاب أساطير بالمعنى الحقيقي للكلمة لأن عيوبه معروفة فهو ليس بالكتاب التحليلي بل هو مجرد سرد للأساطير الشعبية المندائية على لسان رجل صابئي اسمه (هرمز بن الملاّ خضر) وهي حكايات شعبية شفاهية فقد بعضها أصله الأسطوري. وتحولت إلى نوعٍ من الحكايات المشوشة الذاكرة. وهي، مع ذلك، مفيدة. ولكننا لا نضعها في حقل المثولوجيا نصوصاً أو دراسةً.

المحاولة الوحيدة الجادة هي كتاب كورت رودولف (خلق الآلهة والكون والإنسان في الديانة المندائية) الذي صدر بالألمانية عام ١٩٦٥ والذي ترجمه بإعدادٍ وتصرفٍ الدكتور صبيح مدلول السهيري. والكتاب دراسة جيدة في حقلها لكنها لا تتناول إلاّ أساطير الخليقة وهو جزءٌ من الأساطير وتهمل أساطير العمران وأساطير الخراب وأساطير الموت، أي أن الكتاب يتناول الربع الأول من حقل الأساطير المندائية فقط.

إننا اليوم نقّدم هنا، في كتابنا هذا، أول محاولة شاملة في تحليل ودراسة كلّ الأساطير المندائية من خلال علم الأساطير (المثولوجيا)، وسيعرف قارئ الكتاب حجم ونوع ما ذهبنا إليه من تقديم صورة شاملة للمثولوجيا المندائية بتبويب علمي دقيق وبملاحقة لكل التفاصيل وتحليل دقائقها الصغيرة وربطها بأصولها الرافدينية القديمة. ونحنُ نرى أن هناك انعكاسات متبادلة بينها وبين أساطير الأديان الأخرى كالبارسية والزرادشتية والأساطير الغنوصية مررنا عليها حيثما استدعت الضرورة ذلك.

يبحث الفصل الأول من الكتاب في التعريف بالصابئة المندائيين ويتبع أصلهم وتاريخهم من عدة وجهات نظر، فيبدأ بوجهة نظر المندائيين أنفسهم وكيف ينظرون إلى أصلهم وتاريخهم من خلال كتبهم المقدسة والتاريخية مثل (كنزا ربا ودراشة إد يهيا وكتاب حران كوثيا) ويؤشر الأماكن والأحداث التي أسطروا فيها تاريخهم وشطحوا فيها بخيالهم متأثرين بروايات التوراة بشكل خاص. ثم يطرح الفصل وجهة نظر العلماء العرب المسلمين في القرون الوسطى بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين وما شاب رواياتهم من مغالطات وتعميمات خاطئة. ثم نطرح وجهة نظرنا الخاصة حول أصلهم وتاريخهم.

وكذلك بحثنا في هذا الفصل الأسطورة والمثولوجيا وتصنيف الأساطير لكي نعرّف القارئ بهذا الحقل وعلمه ومررنا على أساطير وادي الرافدين ثم الأساطير المندائية وعلاقتها بها وبالأساطير الغنوصية. أي أن هذا الفصل هو فصل تمهيدي للدخول في موضوعنا الرئيسي.

الفصل الثاني ـ يتناول القسم الأول من الأساطير المندائية وهي أساطير الخليقة (التكوين) التي تشمل (الثيوغونيا) وهو نشوء الآلهة والكائنات الإلهية من نورانية وظلامية وأرضية، وقسّمناها إلى عدة حقول عن (الحي العظيم) و(كائنات النور) و(كائنات الظلام) و(خلق

الإنسان) بدوراته الأربعة منذ آدم وحتى فناء الأرض القادم بالريح.

وقد وضعنا لهذا الحقل آليات تحليل جديدة حيث حاولنا الإمساك بالإيقاع المشترك لكل هذه الكائنات عبر سلاسل ودوائر ثيوغونية دقيقة كشفت لنا الكثير من أسرار تلك الكائنات وأضاءت فهمنا لأساطيرها التي سنتناولها.

أما أساطير خلق الكون(الكوزموغونيا) فقد تناولت خلق عالم النور وكائناته، وقد شملت مجموعة من أساطير كائنات هذا العالم في أربع دورات خلقية هي الحياة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة وأسطورة نزول مندا إد هيي إلى عالم الظلام ثم أسطورة نزول هيبل زيوا إلى هناك.

وتناولها بالبحث والتحليل أساطير خلق عالم الظلام وعالم الأرض وكائناتهما في أربع دورات خلقية هي الأخرى. وفي خلق الإنسان (الانثروبوغونيا) تناولنا خليقة آدم بغرا (الجسدي) وآدم كاسيا (الخفي) وخلق حواء (بغرا وكاسيا) وولادة أبنائهما وانتقام مندا إد هيي من كائنات الظلام التي تحيط بهم.

وفي الفصل الثالث تناولنا أساطير العمران في عوالم النور والظلام والأرض والإنسان. حيث تم اتقان هذه العوالم وظهور مصائرها وقوانينها في عدد من أساطير هذه الكائنات مثل (نطفتا، هيبل زيوا، يوشامن، أباثر، بثاهيل، الكوشطا، شهلون، شلمي..).

وظهرت أساطير عالم الظلام في إتقان عالم الكواكب وأبراجها وتحديد وظائفها وكائناتها أما أساطير الأرض والإنسان فتجلى في معرفة الأسرار والعناصر ونزول الماء الحي إلى الأرض وتعليم الناس المعرفة والتذكير بالحساب والنظام ونزول سام زيوا ويوخابر كوشطا إلى الأرض..إلخ

في الفصل الرابع تناولنا أساطير الخراب حيث تبدأ عناصر العمران بالتفكك تمهيداً للزوال وينطبق هذا على العالم المخلوق لاحقاً والذي تدب فيه الحياة الدنيوية مثل الأرض والإنسان، رغم أنه يطال شيئاً من عالم الظلام المهترىء أصلاً لكن الخراب ثم الموت لا ينالان العالم الأزلي الذي هو عالم النور والخلود.

لقد اهتزّ عالم الظلام بدءاً منذ نزل إليه الأثري العظام وقد ساء أمر الكواكب والأبراج إلى الدرجة التي بدأت فيها بجعل الشر منهجاً أساسياً لها أما خراب الأرض فقد تجسد في أسطورتي هجوم مندا إد هيي وابن نباط ربّا عليها.. وظهر الخراب البشري في إنحراف الناصورائيين (وهم

النخبة المندائية) وظهر نداء الحياة لهم ونصائح الأثري العظام وتكررت صيحات النذير وتحذيرات مندا إد هيي. لقد انحرف الإنسان عن النهج الإلهي الذي خطط له.

في الفصل الخامس تناولنا أساطير الموت أو النهاية، وهي أساطير مشوقة جداً في الديانة المندائية. فقد تحدثنا أولاً عن مثولوجيا الموت والآخرة والخلاص وبحثنا في طبيعة كلٍّ من هذه المفردات وفيما إذا كان هناك حسابٌ وعقابٌ وثوابٌ وجنة ونار وحشر وفناء عند المندائيين.

أما أساطير الزمان الكبير وأدوار العالم المتجسدة في العود الأبدي ثم الفناء في المندائية فكانت لنا وقفة طويلة جداً معها فقد فصلنا مثولوجيا الأدوار الأربعة للخليقة وتوقفنا عند الدور الرابع ومن ظهر فيه من الأسماء الكبيرة التي شكلت علامات هامة في تاريخ المندائية والعالم ثم أتينا على أسطورة الفناء المندائية التي يرتفع في نهايتها كلٌّ من يوشامن وأباثر وبثاهيل إلى عالم النور رغم خطاياهم التي جرّت على عام النور كل هذه المتاعب، تمهيداً لنهاية العالم والفناء الأخير له.

كذلك تناولنا جوهر الديانة المندائية الميتافيزيقي وهو دورة الروح (نشمثا) وتتبعنا مسيرتها من وإلى عالم النور والتي نرى أنها أساس الغنوصية بأكملها. وأخيراً بحثنا، نظرياً، في أسطورة العود الأبدي والرحلات بين عالمي النور والظلام وأخيراً كشفنا فكرة العود الأبدي في الطقوس والشعائر المندائية وبشكل خاص في الأعياد المندائية.

كانت رحلتنا في هذا البحر المثولوجي اللجب محفوفة بالمخاطر والمتع أيضاً فقد أطّلعنا على واحدةٍ من أعظم الرحلات الروحية للإنسان في التاريخ عبر هذا الدين الذي يمثل بحق واحداً من الكنوز البشرية بسبب ما يعكسه من مرايا الإيمان والتطهر والمثالية والخوف والجمال والحب ومن الأغوار الميتافيزيقية لتجربة الإنسان في أكثر أشواطه حنيناً لعالم نوراني طهراني مثالي لا يُنال.

إننا نسجلُ، بأعجاب، تلك المجالدة الروحية الكبرى وذلك الشوق العنيف الذي لم يُتعب رجال هذا الدين الخصيب وتطلعهم الأبدي إلى عالم النور والحق والخير والجمال الذي أرادوا له أن يتحقق على الأرض، وحين لم يتحقق ظلوا في ثبات أكيد على استلهام قيم هذا العالم رغم كل ما حصل من تبدلات في القيم والمفاهيم.

إننا ندعو إلى المزيد من الاهتمام بهذه الديانة العريقة وإلى البحث في كنوزها وعجائبها فهي، انحدرت إلينا من أزمانٍ سحيقة لكنها حاضرة اليوم بيننا في طائفةٍ هي من أكثر طوائف الأرض

سلاماً. وندعو للحفاظ على أبناء هذه الطائفة الذين يمثلون، اليوم، أصغر وأعرق ديانةٍ على وجه الأرض مثل سلالة نادرةٍ من الزهور.

ولا بد لنا أن ننوّه بأننا جعلنا من حلمنا في ظهور هذا الكتاب حقيقةً رغم الظروف السيئة جداً التي نمرّ بها على مستوى بلادنا (العراق) وعلى المستوى الشخصي، فقد كرسنا وقتنا في أصعب أزمان الغربة التي عشناها لتأليف ونشر هذا الكتاب ونحن في معاناة شديدة التعقيد لنيل مكان آمن على وجه الأرض بعد أن أجبرنا وطننا على الهرب منه ومن الموت الذي مازالت تدور رحاه فيه.

لا بد أن نشكر من قدم لنا العون في غربتنا هذه وعلى رأسهم الاستاذ جمال المباركي رئيس تحرير مجلة (الصابئي المندائي) والصديق العزيز مؤيد الجيزاني. كذلك أتقدم بالشكر إلى الاستاذ ماجد فندي المباركي على الصور والأشكال التي أعاد رسمها من أصولها المندائية والتي وضعناها في هذا الكتاب. كذلك نود أن نتوجه بالشكر للصديق الروائي كريم كطافه الذي قام بالتنضيد الالكتروني لهذا الكتاب.

شكراً للعاملين في مكتبة (الجامعة اللاهوتية في كامبن Theological Uninersiteit ـ Campin) وللسيد أمين المكتبة فليان بوتنشتاين Wiljan Puttenstein الذي غمرني بلطفه وهو يعيرني الكتب المندائية والكتب التي تبحث في ديانتها، وشكراً لهولندا التي منحتني الأمان والحرية.

د. خزعل الماجدي
دكتوراه في التاريخ القديم ١٩٩٦
دكتوراه في فلسفة الأديان ٢٠٠٩

مخيم درونتن / هولندا
٢٠٠٦/١٢/٢٥
a_khazal@hotmail.com

الفصل الأول

المندائيون والأساطير المندائية



«عندما كان شيتل راعي العصر جاء الناصورائيون إلى العالم في ذلك الوقت نشأت كلّ الأفعال والصنائع.

لقد نشأ الرجال ذو الفطنة أولئك الذين تفردوا بأنفسهم وتنحّوا عن العالم»

كنزا ربّا اليمين ٥ : ١٠

المبحث الأول
المندائيون: أصلهم وتاريخهم

لا يمكننا معرفة المندائيين على حقيقتهم ما لم نميِّز بين ثلاثة مصطلحات تكاد تسبب، فرط ترابطها وتداخلها، التباساً كبيراً. والمصطلحات هي (الناصورائيون، المندائيون، الصابئة) وقد تعمدنا وضعها بهذا الترتيب بسبب من تسلسل ظهورها التاريخي.

الناصورائيون:

الناصورائيون ومفردها ناصورائي تطلق اليوم على المتمكن من أمور الدين والعالم بأسراره الخفية سواء أكانت له صفة كهنوتية أم لم تكن[1].

فالناصورائي لا يشير إلى مرتبة دينية، بل إلى علم ديني عميق. فقد يكون كاهناً أولا يكون ويبقى شرطه الأول تعمقهُ في الأمور الدينية رغم أن هذا لا يحصل، غالباً، إلاّ مع من انخرط في سلك الكهانة. لكن الناصورائيين، في الماضي البعيد، كانوا هم الجذور الأولى للمندائيين، فلم تكن هذه الديانة معروفة باسم المندائية، بل هي ديانة الناصورائية (ناصوراثا) التي ترد كثيراً في كتبهم المقدسة وتعني حرفياً في اللغة المندائية الآرامية (مهنة الكهانة).

وقد اجتهد الكثير من العلماء في تفسير هذه الكلمة وردّها أغلبهم إلى أحد الفرق التي نوّه عنهما أبيفانوس (Epiphanus) أسقف سلامينا (قبرص) في حدود ٣٦٧ م في كتابه، وهو يغادر فلسطين، وقال بأن هناك أربع فرق تعيش بين شرق الأردن والبحر الميت، هي: الساميسايين وهم موحدّون ومعمدّون ومعلمهم هو الحسح، والأوسيون الذين كانوا يهوداً وأصبحوا فرقةً خاصة، والنزاريون وهم فرقة مسيحية تمارس الختان وتلتزم براحة السبت وترفض القضاء والقدر والفلك وأكل اللحم والأضاحي الحيوانية ولكنهم لا يعمّدون بالماء. أما الناصورائيون فهم الفرقة الرابعة التي كانت يهودية ثم أصبحت مسيحية. ويرى ماكوخ أن بعضهم هاجر من شرق الأردن، بسبب التعصب اليهودي، وسكن جنوب وادي الرافدين أيام حكم الملك الفرثي ارتبانوس

الثالث قبل تدمير اورشليم عام ٧٠ م على يد الرومان، وقد طوّروا أبجديتهم عن النبطية ثم كتبوا بها كتبهم ويرى الكثير من الباحثين أن هؤلاء هم الذين كوّنوا الناصورائية التي أصبحت تسمى لاحقاً بالمندائية[٢].

وقد توسع البحث كثيراً عن أصول الديانة الناصورائية/ المندائية في الدوائر الهرطقية اليهودية المسيحية وتعدى هذه الفرق الأربع إلى فرق كثيرة ضمن ما يسمى بنظريات الأصل الغربي للديانة المندائية.

ولا نريد أن نقدّم هنا عرضاً مسهباً لهذه النظريات، لكننا نودّ القول أن هناك الكثير من القسر والعبور على الحقائق التاريخية في تفاصيلها.

وقد كنّا نرى دائماً أن أجداد المندائيين الأوائل (وهم الناصورائيون) ظهروا في وادي الرافدين في أزمان مبكرة تصل إلى السومريين، وفصلّنا ذلك في كتابنا حول (جذور الديانة المندائية). وبأمكاننا اليوم تقرير ما هو أبعد من ذلك فقد قادتنا فرضيتنا إلى استنتاج جديد وهو أن الناصورائيين هم أحد شعوب وادي الرافدين الذين ظهروا في السهل الرسوبي الجنوبي بين دجلة والفرات وكانوا يؤمنون بعقائد الخصب القديمة التي أصبحت تدور حول الإله الذكر الأب وليس حول الإلهة الأم (سيدة عقائد عصر النيوليت الشمالي)، فعندما حصل الانقلاب الذكوري في وادي الرافدين في العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) ظهرت حضارة (حلف) الشمالية أولاً ثم ظهرت أول حضارة جنوبية وهي حضارة (أريدو) التي هي أول مدينة في التاريخ والتي شهدت لأول مرة (في الألف الخامس قبل الميلاد) ولادة المدينة والسلطة الذكورية والديانة الذكورية التي مجّدت الخصب الذكوري المتمثل في الماء الجاري الذي كان السومريون يسمونه (إنكي)، لكنّ الناصورائيين سمّوه (إيا) وهو الاسم الذي أصبح لاحقاً مرادفاً لإنكي السومري من جهة ومعبراً عن إله الماء البابلي/ الأموري من جهة أُخرى.

لم يعد هذا الإله معبراً عن الماء والخلق فحسب بل أصبح معبراً عن عالم النور الذي كان يقف بمواجهة العالم الأسفل المظلم الذي تناسلت فيه الكواكب. وهكذا أصبح (إيا) الذي تحوّل مع الزمن إلى (أي) ثم (هيّ) الدال على النور والحياة خصوصاً أن اسمه ترادف مع (آي) أو (آيا) إلهة الشمس. وهكذا جمع الحياة والنور تماماً.

لقد أرتفع الإله (هيّي) عن وظائفه الخصبية المباشرة وأصبح مصدر نور الكون كلّه ومنه ينتج الماء الحي الذي يمنح الحياة في العوالم كلها. ربما تولّت حيوات بعده (أخذت صفة التأنيث) لتعيد التوازن إلى ارتفاعه الذكوري، أخذت هذه الحيوات مهمة الإلهة الأم القديمة وهكذا أحتوى الدين الناصورائي على توازن فريد بين الأب الذكري النوراني والأم الإنثى الخصبية.. لكن التوازن احتفظ دائماً بأرجحية أبوية، فيما نُفيت الإلهة الأم القديمة التي كانت تمثل الأرض (أر) كسيدة لعالم الظلام تحت اسم (روها) التي تلد ولداً يسمى (أور) الذي يذكّر هو الآخر باسم الأرض.

ونرى أن الناصورائيين هم شعبٌ سكنَ في بداية عصر الكالكوليت (العصر الحجري النحاسي) في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد في السهل الرسوبي بين دجلة والفرات، وربما كانوا هم من أسس أول مدينة في التاريخ وهي مدينة (أريدو) التي كانت عند فم الفرات وهو يصب منفرداً في الخليج العربي. وهناك ظهر أول معبد في التاريخ وعُبد فيه إله الماء (إيا)، الذي كان السومريون يسمونه (إنكي). ونرجّح أن الـ(ناصورا) أو (نسّار) هم الشعب الذي أسس حضارة أريدو وأسس لديانة الماء الأولى.

يرى ليدز بارسكي أن كلمة (ناصور) تنتسب لكلمة (يلاحظ) ومن هذا يستنتج بأن الناصورائيين كانوا (ملاحظين). ويفترض مستشرق آخر أنها قد تكون مشابهة لأصل كلمة (نصر) السريانية ومعناها (الزقزقة والتغريد كالطيور والنطق بأصوات مبهمة كالساحر والتغني وترتيل الأدعية) وكلا هذين الفرضين، في أصل المعنى يتفقان ورأي الصابئين، فالناصورائي عندهم كان مراقباً للنجوم والبروج والعلامات[٣].

ونود أن نضيف رأياً آخرلرأيي المستشرقين ونقول أن كلمة (ناصور) هي في أصلها (نَصَّر) التي تقترب كثيراً من الجذر العربي (نَظَر) وبهذا يكون معنى الناصورائيين هو (الناظرين) وهذا يقترب كثيراً من رأي ليدز سباركي حول معناها الذي هو (يلاحظ) فالملاحظة والنظر هما شيء واحد ولكن المعنى الحرفي للكلمة هو نظر وليس لاحظ. وبذلك يمكن القول أن الناصورائيين هم الناظرين في السماء (وهم بذلك الفلكيون)، أو الناظرين في أمور الدنيا (وهم بذلك المتبحرون) وهذا يطابق تماماً المعنى الاصطلاحي للناصورائيين اليوم.

(الناصوراثا) هي حرفة الكهانة الموروثة أباً عن جد والتي لها شروط صارمة يتقيد بها رجال الدين، رغم أن الناصورائية اليوم قد تطلق على رجل الدين أو الرجل الذي يعرف عن الدين المندائي كل شيء. ويُشار في المخطوطات المتأخرة إلى الناصورائيين بوصفهم أعلى من طبقة العامة فيقال بمهارته في الرقية، فيقال (يا له من ناصورائي حقيقي).(٤)

المندائيون:

أما كلمة مندائي ومندائيون فمشتقة من اللفظ الآرامي (مدعا) أو (مندا) الذي يعني الـ(عارف)، وبتقريب لفظة (مدعا) نستطيع القول أنها تشير إلى الـ(مدّعي) والـ(الداعية) والـ(دعوة) وهو الذي يعرف شيئاً ويدعو إليه. ومثلها كلمة (مندا) التي تشير إلى الـ(منادي) والـ(نداء) وهي الدعوة إلى شيء يعرفه أيضاً.

وعندما بدأت كلمة (مندا) بالظهور لم تحلّ بديلاً عن كلمة (ناصورا) بل أصبحت كلمة (ناصورائي) تشير إلى الطبقة العارفة المتبحرة في العلوم والمطلعة على الأسرار والناظرة في الشؤون الروحية التي تعرف القراءة والكتابة باللغات القديمة، أما كلمة (مندائي) فأصبحت تشير إلى طبقة دعاة هذا الدين والمنادين به وهي طبقة العامة التي تمارس الطقوس دون أن يكون لها التبحر في أسرار هذه الطقوس وأسرار هذا الدين، وهي التي تتلقى معرفة الدين المندائي بصورة شفاهية لأنها، في الغالب، تجهل القراءة والكتابة باللغة الآرامية تحديداً والتي أصبح التراث الروحي لهذا الدين، كلّه، مكتوباً بها.

ورغم أن هناك نظريات كثيرة وضعت حول الأصل الغربي (فلسطين والأردن) للمندائيين قبل وبعد القرن الميلادي الأول، لكننا نجدها غير مقنعة. فأغلبها يرى أن الديانة المندائية كانت، في بدايتها، فرقة هرطقية خرجت من اليهودية أو المسيحية أو من كليهما والحقيقة أن المندائيين، ورثة الناصورائيين، أعرق من ذلك بكثير فهم سكان وادي الرافدين القدماء كما أوضحنا.

لقد اجرى الباحث الامريكي المتخصص في الدراسات المندائية (ياموجي) استقراءً واسعاً لما يتيسر من مصادر ومن شواهد أركيولوجية وغيرها سواء كانت آرامية أو إغريقية أو فارسية أو يهودية، بشأن المعتقدات الدينية للآراميين حين كانوا يستوطنون في جنوب ما بين النهرين وجنوب

غربي إيران في الفترتين السلوقية (الأغريقية) والفرثية (وهي فترة الحكم الفارسي القديم الثانية والتي تزامنت مع بداية المندائية) وخلص إلى القول: أنه ربما نفترض أنهم ورثة تقاليد ما بين النهرين وإيران، وأنهم كانوا على تماس بالأغريق والفرثيين واليهود، لكنّ المصادر الفعلية للمقارنة هي شحيحة حقاً. إذ ليس هناك سوى القليل جداً من المصادر المتيسرة فقط، بل وأن ما تيسر منها يكاد لا يمس القضية التي نحنُ بصددها.(٥)

إننا نرى أن بعض الشواهد التي ترد في التراث الروحي للمندائية، مشيرةً إلى اليهودية أو المسيحية أو بعض الأسماء والمفردات والأعلام، لا تذهب بنا بالضرورة إلى فلسطين أو الأردن بل إن احتكاك المندائيين باليهود والمسيحيين قد حصل على أرض وادي الرافدين في أزمان متفاوتة، فالمندائيون عرفوا اليهود بعد السبي البابلي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وخصوصاً عند انتشار اليهودية بعد سقوط بابل في جنوب العراق ووسطه. وكذلك عرفوا المسيحية منذ القرن الميلادي الأول حين قدم المبشرون إلى وادي النهرين وبشروا بها. وأصبح هذان الدينان منافسين مزعجين لها ومن هنا الإشارات الغاضبة ضدهما، ومن هنا، كذلك، تسربت بعض المفاهيم والأساطير والعادات والطقوس المشتركة بين هذه الأديان الثلاثة.

الصابئة:

أما كلمة صابئة وصابئون فلم تعرف هذه الكلمة على نطاق واسع إلاّ بعد الإسلام وكانت متداولة قبل الإسلام بشكل محدود جداً، فالعربُ كانوا يسمون من يخرج من دينٍ إلى دين آخر بأنه (صابئي) وهم يقسّمون الأديان الموحّدة (غير الوثنية) إلى اثنين هما الصابئة والأحناف. والصابئة أقدم من الأحناف لأنهم أتباع آدم وشيت وهرمس ونوح (أنبياء ما قبل الطوفان) أما الأحناف فهم أتباع إبراهيم الخليل الذين نشروا دينهم بصعوبة وسط الصابئة الذين انحرفوا عن أنبياء ما قبل الطوفان. ومن الطبيعي أن وجهة النظر هذه مهلهلة ولا قيمة لها أمام معطيات البحث العلمي، وإن صحّ أن عرب الجاهلية اعتقدوا بهذا فهو أمر طبيعي أمام محدودية الأفق الجغرافي والعلمي بحيث أنهم لا يعرفون شيئاً دقيقاً عن أديان العالم آنذاك.

ما يهمنا هو القول أن مصطلح (صابئة) العربي الإسلامي هو خاطيء من أساسه ولا يشير

أبداً إلى مجموعة دينية معينة بل هو مصطلح عام يشير إلى الخارجين عن الأديان الوثنية القديمة.

ونحنُ نجزمُ تماماً أن هناك حادثة مغيبة في التاريخ هي التي أدرجت المندائيين في عداد الصابئة، بل أن كلمة (الصابئة) لم تعد تدل إلاّ عليهم بمرور الزمن. لكنّ هذه الحادثة لا يذكرها أحد لا المندائيين ولا المسلمين. إنها تشبه حادثة المأمون مع ما يسمى بصابئة حرّان، ولكنها حدثت في بداية الفتح الإسلامي للعراق!!

إن المصادر الإسلامية المبكرة وصفت الصابئة بطريقةٍ مناسبة لعرض القرآن الكريم حيث هم مع الموحدين من يهود ومسيحيين ومجوس، وقد ركزوا على أن أماكنهم هي الموصل وواسط بشكل خاص. لكن المصادر الإسلامية بعد الربع الأخير من القرن التاسع للميلاد، أي بعد وفاة المأمون صاحب الحادثة الشهيرة في لقائه مع الوثنيين الحرّانيين ومطالبته لهم بأن يجدوا اسماً لدينهم يعترف به القرآن أو أن يدخلوا الإسلام فما كان منهم إلا ادعائهم بأنهم صابئة وهكذا أطلق عليهم خطأً صابئة حرّان وهم فرقة وثنية تعبد الكواكب. ومنذ هذه الحادثة خرج العلماء المسلمون عن التفسير الحرفي للقرآن ووصلوا، فيما بعد، إلى أن مصطلح الصابئة يشمل كل الوثنيين من عبدة الأصنام والكواكب أي أديان الحضارات القديمة كلّها.

أما المعاني غير العربية، لشرح كلمة (صبأ) العربية فأغلبها دقيقٌ لأنها تُجمع على أن (صبأ) هي الاغتسال بالماء والتعميد، وخصوصاً اللغات الآرامية والسريانية والمندائية والعبرية.

لا يذكر الكتاب المقدس للمندائيين (كنزا ربّا) كلمة صابئة مطلقاً وكذلك (كتاب يحيى) وبقية الكتب الدينية. ولذلك نرى أن كلمة (صابئة) اطلقت عليهم من خارجهم حسب تصنيفات خاطئة وفهم خاطيء. ربما ساعدهم هذا الإسم على التعايش مع الدين الإسلامي والمسلمين بشكل خاص لأنه ذُكر في القرآن وانطبق عليهم، لكنه مصطلح غير دقيق أبداً فهم الناصورائيون المندائيون وليس الصابئة المندائيين!!.

أولاً: التاريخ المندائي ـ كما يراه المندائيون من خلال تراثهم الروحي:

ترك المندائيون ما يقرب من الثلاثين مخطوطة وملفوفة تمثل، في مجملها، التراث الروحي لهم. وهو تراث عظيم نرى أنه يشكل آخر كنوز وادي الرافدين بعد كنوز الرقم الطينية لحضاراته

القديمة. وتتعدى أهمية هذا التراث المجال الرافديني لتقفز وتكون حاسمةً في التراث الروحي للإنسان وفي تاريخ الأديان وهو ما يفسر إقبال العلماء المتزايد لدراسته والبحث فيه.

هناك القليل من هذا التراث يشير إلى تاريخ المندائيين، ويمكننا اعتبار مخطوطة (حرّان كويثا) أوسعها ثم تأتي الكتب الأخرى مثل (كنزا ربا، دراشة إد يهيا، القلستة) وسنحاول أن نسلط الضوء على هذا التاريخ الذي نعدّه أسطورياً بسبب ما يحتويه من خلط بين التاريخ والأسطورة. فهو ليس بالتاريخ الحقيقي، بل هو أشبه بسيرة جماعية تشوبها الأساطير والتناقضات والمعجزات وغير ذلك. ولكننا يجب أن نعرف من هذا التاريخ الأسطوري كيف سارت أحداث هذه الجماعة العريقة. ويمكن تقسيم تاريخهم الأسطوري هذا، كما يرونه هم، إلى المراحل الآتية:

أ ـ البشرية الأولى: يعتقد المندائيون أن الملاك الخاطيء (بثاهيل) هو الذي خلق الأرض ثم خلق جسد الإنسان على غراره بالتعاون مع أم الظلام (روها) والكواكب السبعة، أما روح الإنسان فقد هبطت من عالم النور. وبذلك دبت الحياة في آدم، وبنفس الطريقة خُلقت حواء، ثم أنجبا ثلاثة أبناء هم (هيبل وشيتل وأنوش). وهناك ما يشير إلى أن الأرض التي خُلق فيها آدم وحواء هي سرنديب (التي يرى البعض أنها سيلان). وبعد ألف عام انتقلت روح آدم إلى عالم النور ثم روح حواء. وأصبح رأس السلالة هو هيبل الذي شهد بعد ٢١٦ ألف سنة الكارثة الأولى التي أعدتها الـ(روها) للقضاء على البشر عن طريق الحرب والسيف، وكان الناس في هذه البشرية على دين آدم وفي زمن شيتل انتقل نسل آدم إلى مدينة (الطيب) في العمارة الحالية في العراق.

ب ـ البشرية الثانية: في البشرية الثانية تم خلق (رام) و(رود) وكان شيتل بن آدم راعياً لهذا العصر وقد تناسل البشر من جديد حتى وصلوا إلى نهاية هذا العصر بكارثة النار والحريق الذي أعدّته قوى الظلام للقضاء على البشرية الثانية التي طال أمدها ١٥٦ ألف سنة. وفي هذه البشرية ظهرت الناصورائية.

ج ـ البشرية الثالثة: في البشرية الثالثة تم خلق (شرباي) و(شرهبيل) وكان أنوش بن آدم راعياً لهذا العصر، وعاد البشر للتكاثر من جديد وكانت الناصورائية هي دينهم. لكن قوى الظلام دبرت الكارثة الثالثة لهم عن طريق الطوفان فأنقذ(نوح) الذي كان قد أنجب سام من (نهوريثا) الحياة على سفينته. وكان عمر هذه البشرية ١٠٠ ألف سنة.

د ـ البشرية الرابعة : أصبح نوح ونهوريثا رأس هذه البشرية وأصبح سام الجد الأعلى للمندائيين فيما ولد (حام ويام ويافث) من نوح وامرأة الظلام ـ روها ـ وهم أجداد البشر الآخرين من غير المندائيين. وتخبرنا الكتب المندائية أن هذه البشرية ستفنى هي الأخرى بالعاصفة والريح وستفنى معها الأرض بسبب الخطايا وعدم وجود مرشد نوراني لهذا العصر يعيش مع البشر. لكنّ الكتب المندائية تشرح ما حصل في هذه البشرية منذ نوح إلى ما بعد ظهور الإسلام بقليل وكما يلي :

١ . من نوح إلى بهرام :

بعد وفاة نوح أصبح سام (سام بر نو) أي سام بن نوح هو الواعظ الناصورائي الأعظم ولذلك بدأت الروها وعالم الظلام بتدبير خطة لجرّه إلى عالمهم لكنه كان قوي الإيمان وقد أنجب سام من (انهوريتا) زوجته ثمانية أبناء واستمرت سلالته ، ولا نعرف فيما إذا كان(دنانوخت) قد جاء بعده أو قبله ، ودنانوخت هذا هو ناصورائي كبير يقابل شخصية هرمس أو إدريس أو أخنوخ الذي علّم الناس فنون الحضارة. ويرتفع دنانوخت إلى عالم النور ويعود ثانية بحكمة عظيمة ويتعلّم الناس حكمة الحياة لا حكمة الكتب.

ويعتقد بعض المندائيين أنه انتقل إلى مصر وهناك بنى الأهرام وكان أحد الأهرام قبراً لابن دنانوخت (هرمس) الذي اسمه (ساب بن هرمس) ويقال أن كلمة صابئي جاءت من (ساب) وأن دين المصريين القدماء كان هو دين الصابئة أو أنهم أخوة في الدين ، وكان هناك أيضاً اليهود قوم موسى حيث يبدأ الصراع بين الصابئة واليهود. وفي أور في وادي الرافدين يظهر ناصورائي عظيم اسمه (بهرام) وهو إبراهيم الخليل وكان له أخ اسمه (حرّان) بدرجة دينية كبرى (ريش أمه) ويصيب مرض جلدي بهرام يضطره للعزلة ثم الختان فيعزله أخوه من سلك الكهانة فيغادر إلى الصحراء ويتبع بهرام غير المؤمنين والمجذومين والناقصين ومن مشوهي القمر الذي يسبب العاهات. ومن هنا يبدأ النصف الثاني من حياة بهرام الذي يقف المندائيون ضده ويعتبرونه خارجاً على دينهم ، ويقال أنه بشّر بالحنفية بالضد من الصابئية.

٢ . من مصر إلى حرّان :

في مصر تفاقم العداء بين اليهود بقيادة موسى والمندائيين بقيادة (أردبان ملكا) الذي كان أخ

فرعون مصر (فيروخ ملكا)، وقرر أردبان الخروج بقومه، وعندما خرجوا من مصر انفتح البحر الأحمر لهم بطريق بري فسلكوه وخرجوا من مصر. أما (فيروخ ملكا) فقد قاتل اليهود لكنه هُزم فهرب وحين دخل طريق البحر الأحمر انطبق الماء عليه وعلى جيشه. وصل (أردبان ملكا) إلى تلال ميديا (تورا مندائي) واستوطنوا هناك وتوقف موسى عن ملاحقتهم. وفي حرّان كان هناك ٦٠ ألف ناصورائي استقروا فيها وسميت (حران كويثا) أي حران السفلى. وفي هذه الأثناء خرج اليهود من مصر واستقروا في مدينة (أورشلام) التي بنتها الروها والكواكب السبعة لهم.

٣ . من حرّان إلى أورشليم :

في أورشليم ظهرت معجزة حين ولد للشيخ(أبي صابا زكريا) والعجوز(أنشبي) الطفل (يهيا يهانا) (الذي يُعتقد أنه يحيى بن زكريا) حيث ألقت كائنات النور بنطفته من حوض يردنا وألقت بها في رحم أنشبي وجاء أنوش أثر، وحمله إلى (فرات زيوا) في جبل روان الأبيض ووضعه تحت شجرة تحمل أثماراً تشبه الأثداء، ثم عُمِّد في يردنا وعلمه (أنوش أثرا) الأبجدية وجعله يقرأ كتاب الأرواح، وحين بلغ يحيى الثانية والعشرين عاماً ألبسوه كسوة من الماء المضيء ووضعوه في سحابة (أنن زيوا) وأرسلوه إلى الأرض فحلّ في أورشليم فتعرفت عليه أنشبي وبدأ(يهيا) يعظ في أورشليم، فآمنت به أمه وامرأة تدعى (مرياي) إبنة حاكم بابل في أورشليم وأفزع اليهود بتعاليمه وإقبال الناس عليه فطلبوا منه مغادرة أورشليم فسخر منهم، وذات يوم أقبل عليه عيسى بن مريم فعمّده في اليردنا وكان عيسى ناصورائياً أيضاً مثل يحيى ولكنه بعد أن تعمّد على يد (يهيا) خرج على ملّتهم واتخذ له ملّة جديدة. ثم تزوج يهيا (أنهر) فولدت له ثلاثة توائم هم (هندام وشارات، بهرام ورهيمات هيي، أنصاب وسام وأنهريوا وشار). وذات يوم كان (يهيا) يتكلم عن الشمس المحاطة بهالاتها والقمر الذي في طور الخسوف ورياح الدنيا الأربع الممسكة ببعضها وكانت هذه الإشارات دالة على اقتراب نهاية حياته. وجاء اليوم الموعود حين هبط (مندا إد هيي) بهيئة طفل عمره ثلاث سنوات وطلب من (يهيا) أن يعمّده في يردنا فاعتذر منه بسبب تعبه ثم نام (يهيا) واستيقظ وحين أراد الهبوط في النهر هربت أمواج النهر أمامه تاركةً الأرض جافّة ورفعت الأسماك رؤوسها من الماء وصلّت وكانت الطيور تحوم فوق رأسيهما فتوسل (يهيا) للطفل أن يكشف عن شخصيته ففعل وأخذ الطفلُ بيد (يهيا) فغادرت روح (يهيا) جسده وصعدت تاركة

جسده على الشاطيء فأخذ(مندا إد هيي) قبضة تراب وألقاها فوقها وغطاها فكان قبر (يهيا).
وظهرت في هذه الفترة (مرياي) وهي الأميرة البابلية التي هجرت اليهودية وانضمت إلى المندائية وتنسب الروايات هذه الأميرة إلى أبيها الملك البابلي نبوخذنصر، ويتهم اليهود مرياي بعدّة تهم منها الزنا والسرقة لكن الناس تتبع مرياي وتقيم لها عرشاً على نهر الفرات وتحميها من اليهود ثم يهبط عليها نسرٌ أبيض هو (أنوش أثرا) ليرفعها إلى عرشها في الأعالي.

وفي هذه الفترة أيضاً يظهر يسوع بن مريم (يشو مشيها) الذي أصبح ناصورائياً لكنه حرّف كلام النور وبدّل الشعائر والتعميد مع أصحابه في جبل سينا وأطلقوا على نفسهم اسم (كريستيانا) أو (مشيهيا) وليس النصارى.

وبعد وفاة (يهيا) وظهور المسيح حلّ الكذب في العالم. أما معجزات المسيح في شفاء المرضى وقيامة الموتى فينسبها المندائيون لأنوش أثرا الذي هبط على الأرض حينها.

٤ . من أورشليم إلى حرّان إلى بابل:

قتل اليهود ٣٦٠ ناصورائي أو (ترميذا) من المندائيين فأخرج الربُّ المندائيين إلى حرّان وأخرج اليهود إلى (سوف زابا) في جنوب العراق عند البصرة، وقامت الروها ببناء (بابل) المسوّرة بسبعة أسوار لكنّ قوى النور خرّبتها ونُصِّب أحد أحفاد (أردوان ملكا) عليها وكان هذا نصرٌ للمندائيين فرحلوا إليها من حرّان. أما أورشليم فقد جاءَها هيبل زيوا وأحرقها.

كان (بهيرا بر شيتل) هو قائد المندائيين وأصبح لهم ٤٠٠ مشكنة أو مندي في بابل وعاشوا فيها بسلام مدة ٢٨٠ سنة.

٥ . من الفرس إلى العرب:

يذكر كتاب الكنزا ربا اسم (١٤) ملكاً من ملوك الفرس ويرى ليدزبارسكي أنهم من ملوك الغساسنة وقد كانت نهاية حكمهم في ٦٢٨ م، وهناك رواية عن انشقاق الناصورائيين في مدينة الطيب (إشكندا) حيث أرسل أدونايي (إله اليهود) زوجته (شوربيش روها) إلى ريش أما مندائي اسمه (قيقل) فتغويه ويغير تعاليم دينه ويحصل انشقاق بين الناصورائيين والمرشحين للكهنوتية، وحين يسترد (قيقل) وعيه يحرق كلامه وتعاويذه.

ويسمي الكنزا ربا دعاة الحرب من الفرس (أوهر بابايا) حتى يجيء الفتح العربي ويسمى

محمد بن عبد الله عندهم بـ(ملك العرب). ويروى أن (أنوش بن دنقا) من جبل أرسايي قدم على القائد العربي وأوضح له دينهم وكتبهم فحصل على الأمان لأتباع دينه. وإلى هذا الحد تتوقف الكتب المندائية بالحديث عن الماضي. وتبدأ التنبؤات بالمستقبل.

لا شك أننا نحتاج إلى معرفة ما حصل للمندائيين بدقة بعد مجيء الإسلام وكيف عاشوا في ظل تلك الظروف المعقدة من صراع العرب والمسلمين مع الأقوام المجاورة لكن هذا التاريخ لم يكتب بعد من أي جهة مندائية أو غير مندائية وهو، من وجهة نظرنا، صيدٌ ثمين للباحث المتمرس في هذا المجال. لكننا نذكر أن الحضارة العربية الإسلامية احتضنت بعض العلماء من الصابئة وأغلبهم من صابئة حران وهم غير المندائيين تماما. كان الحدث الأبرز، مع الخلافة العباسية، هو إدّعاء الحرانيين على أنهم صابئة وهو ما خلط الأوراق وألصق بالصابئة المندائيين تهمة عبادة النجوم التي كانت للحرانيين. والمهم هو معرفة أحوال المندائيين ذاتهم وليس ما كُتب عنهم من قبل العلماء المسلمين.

أما ذلك التاريخ الذي عرضناه سابقاً فلاشك أنه تأريخٌ مشوبٌ بالأساطير والمبالغات والأخطاء وهو لا يصلح أن يكون تاريخاً حقيقياً للمندائيين ولذلك نعتبره أقرب الى التاريخ الأسطوري وسنحاول كتابة تاريخ آخر لهم في الصفحات اللاحقة.

لا بد لنا من معرفة صور الصابئة والمندائيين في التراث العربي الإسلامي لكي نربط الجزء المفقود من سيرتهم التي توقفت، لكننا نحذّر هنا من أننا سنكون أمام طريقة قروسطية إسلامية في البحث التاريخي. وهي بلا شك طريقةٌ مشوبة، هي الأخرى، بالعقائدية والكثير من المغالطات والتعميمات.

ثانياً: الصابئة ـ كما يراهم العلماءُ المسلمون القروسطيون

(صبأ) في اللغة العربية، تعني خرج من دين إلى دين آخر، كما تصبأ النجوم، أي تخرج مطالعها كما يقول ابن منظور. وكانت العرب تسمي النبي (ص) الصابئ، لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام، أي أنهم استخدموا المعنى اللغوي للكلمة حيث لم يتبلور، بعد، المعنى الاصطلاحي لها.

وبعد قرونٍ حين سيتبلور المعنى الإصطلاحي للكلمة فإن مصطلح (صابئة) لن يدلّ على طائفة دينية معينة بل سيشير إلى عدة طوائف لكلّ واحدةٍ ما يميزها من العقائد والطقوس وتشترك مع غيرها بمجموعة صفات. فالصابئة إسم إصطلاحي عام لا يدل على دينٍ أو على طائفةٍ أو مذهب معين بل تقع تحته عدة أديان وطوائف كما سنرى.

ويمكننا تتبع مادة التراث العربي الإسلامي التي تناولت الصابئة تاريخيا حسب القرون الميلادية :

١ . القرن السابع الميلادي :

ورد اسم (الصابئين) في ثلاث سور من القرآن الكريم وكما يلي :

أ ـ سورة البقرة/٦٢ : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ب ـ سورة المائدة/٦٩ : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون (هكذا وردت) والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ج ـ سورة الحج/١٧ : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد.

وكان القرآن قد وضع حداً فاصلاً لأي اجتهاد يُخرج الصابئة من الأديان المعترف بها، حيث جاء ذكرهم مع الأديان الكتابية وتميزوا عن الوثنيين، وتذكر الأخبار أن أحد المندائيين الكبار وهو (أنوش بن دنقا) من جبل أرساي قد جاء إلى القائد العربي وأطلعه على المخطوطات المندائية القديمة ليثبت له أنهم دين كتابي موّحد فحصل منه على الأمان لأتباع دينه.

وربما هناك حوادث أخرى جرت فيها مطابقة المندائيين مع الصابئة المذكورين في القرآن ليضاف لهم لقب جديد هو الصابئة الذي أصبح سائداً بين المسلمين وخصوصاً أولئك الذين يحيطون بهم. ويقيناً أن هذه الحوادث كانت تحمل الكثير من التفاصيل لكننا نجهلها. وهكذا أصبح المندائيون في بطائح العراق يسمون (صابئة). وتطابق قسراً معنى جذره العربي (الخارجون من دين إلى دين) مع معنى جذره الآرامي (الذين يتعمدون أو يصبغون بالماء).

تبنى الفقهاءُ والعلماء والمؤرخون المسلمون في القرن السابع الميلادي بل في القرن الهجري

الأول ما أملاه القرآن الكريم عليهم من اعتبار الصابئة من الأديان الكتابية وخصوصاً في زمن النبي وذلك بسبب قربهم الشديد من القرآن الذي ذكر الصابئة منذ وقتٍ مبكر، وبسبب كونهم أول جيل مسلم من العلماء. ولتأثيرهم الكبير على الحركات الإسلامية العلمية اللاحقة مثل التفسير والحديث والفقه.(٦)

رأي مؤرخ الأساطير (عبد الله بن عباس) –عاش منتصف القرن السابع الميلادي ـ أن الصابئة فرقة مسيحية وأشار إلى عدم جواز مناكحتهم أو مآكلتهم.

أما مفسر القرآن (مجاهد بن جرير) فقد رأي أن دينهم ليس مميزاً وأنه يقع بين اليهودية والمجوسية. أما الحسن البصري فقد رأى أنهم يبدون كالمجوس ويعبدون الملائكة وأنهم يقرأون الزبور ويصلون باتجاه القبلة، ودينهم على ذلك بين اليهودية والمجوسية.

٢ ـ القرن الثامن الميلادي:

طغت على هذا القرن آراء فقهاء المذاهب الإسلامية فقد رأى أبو حنيفة أن الصابئة قبيلة تقرأ الزبور ودينهم هو بين اليهودية والنصرانية. وأتفق معه في ذلك كلٌ من الأوزاعي الممثل الرئيسي للمدرسة الشامية في الفقه، ومالك بن أنس، الفقيه ومؤسس المذهب المالكي، ولكنهم اعتقدوا أن الصابئة ليس لهم كتاب مقدس.(٧)

أما محمد بن إدريس الشافعي (المتوفى ٢٠٤هـ) فقد رأى أن الصابئة، والسامرة مثلهم، يؤخذ من جميعهم الجزية ولا تؤخذ الجزية من أهل الأوثان، ولا ممن عبد ما استحسن من غير الكتاب.(٨)

ورأى ابن حنبل أنهم جنسٌ من النصارى.

٣ ـ القرن التاسع الميلادي:

يتميز هذا القرن بانقلاب مهم جداً أثّر على نظرة العلماء المسلمين للصابئة ويمثل هذا الانقلاب دخول وثنيي حرّان الذين يعبدون النجوم والقمر تحت اسم (صابئة حران) وأصبح الخلط وارداً بين صابئة القرآن، الذين كان يُظن أنهم المندائيون غالباً، وصابئة حران وهو ما شوش نظرة الإسلاميين للصابئة.

كان ذلك الحدث الكبير قد جاء عندما صادف الخليفة المأمون، في آخر أيامه (٨٣٢ـ٨٣٣م)

في بلاد الروم وهو متوجه للغزو، مجموعة من الناس في حران يرتدون ملابس بيضاء وشعورهم طويلة فسألهم المأمون إن كانوا يهوداً أو نصارى أو مجوس، فأجابوا بالسلب فظن المأمون أنهم زنادقة فقالوا له نحن نؤدي الجزية، فقال لهم بأن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب. وخيّرهم بين دخول الإسلام أو اتخاذهم ديناً كتابياً يعترف به الإسلام وأمهلهم حتى يعود. فلما ذهب غيروا هيئتهم وملابسهم وتنصّر بعضهم. حتى قام شيخ من حران بأخذ رأي أحد الفقهاء وأغدقوا عليه المال ليخرجهم من هذه الورطة، فأشار عليهم بأن يقولوا للمأمون بأنهم (الصابئون) فهذا الدين مذكورٌ في القرآن فادّعوا بأنهم (صابئة) وبقوا على دينهم الوثني رغم أن المأمون توفي قبل أن يعود لهم، وظلوا هكذا بعد وفاته.

منذ هذا التاريخ أصبح المؤرخون يطلقون عليهم الحرّانيون أو صابئة حرّان وكان بعضهم يعتقد أنهم الصابئة الحقيقيون لأن هناك فيهم من أشتهر في البلاط العباسي وأصبح بريق اسمه يُلفت الانتباه للدين المنحدر منه.

لكن حادثة المأمون هذه لا يذكرها سوى كتاب واحد هو (الفهرست لابن النديم) على لسان كاتب مسيحي هو (أيشع القطيعي النصراني) في كتاب مفقودٍ له اسمه (الكشف عن مذاهب الحرنانيين) ولا توجد هذه الرواية في كتب المؤرخين المسلمين الآخرين.

المؤاخذة الكبيرة التي تؤخذ على العلماء المسلمين أنهم كانوا ينقلون عن بعضهم آراءً، دون تمحيص أو معاينة واقعية، عن قومٍ يعيشون معهم ولم يتعبوا أنفسهم في تقصي حقيقتهم فكانت التعميمات المبتسرة والسريعة هي السائدة في إطلاق الآراء عن الصابئة. ثم جاء التشويش الذي قامت به قضية (صابئة حران)، وهم من بقايا أديان وادي الرافدين القديمة التي أعيد صياغتها وفق شكل هيلنستي وقد يكونون من الغنوصية المعتمدة على الدين البابلي الكلداني المهتم بالكواكب وتقديسها، وهو الأمر الذي يخالف ما يذهب إليه المندائيون في بطائح العراق.

٤ ـ القرن العاشر الميلادي:

يتميز هذا القرن بظهور المؤرخين المسلمين الكبار الذي ذكروا الصابئة وهؤلاء أيضاً أعادوا تركيب الآراء الفقهية والدينية السابقة عن الصابئة، فها هو محمد بن جرير الطبري (توفي ٣١٠هـ) يفسر تسمية الصابئين، حسب ماورد في الآية ٦٢ من سورة البقرة، بكلام طويل خلاصته «أولاً:

أنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم، ثانيا: منزلتهم بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم، ثالثاً: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله ولم يؤمنوا برسول الله، رابعاً: يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة، ويصلون الخمس، خامساً: فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، سادساً: قبيلة من نحو السواد (العراق) ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى».[٩]

وأهتم أحمد بن الطيب وأبو بكر زكريا الرازي بموضوع الصابئة أيضاً، لكن أول دراسة مطولة عنهم وضعها المؤرخ المسعودي وهي الدراسة التي مثلت أكبر خلطة فكرية وتاريخية عنهم فقد وسّع المسعودي دين الصابئة وجعل منه دين أغلب الحضارات القديمة بطريقة تخلو من الدقة تماماً: «فقد أطلق مصطلح الصابئين على عدد من الفرق القديمة وكذلك المعاصرة له والمنتشرة في رقعةٍ واسعةٍ تمتد من الصين إلى مصر ومن سوريا إلى اليونان. وحسب رأيه أن الشمنية (تسمينه وشرامانا) الصينية والمصريين والحرانيين والإغريق القدماء كلهم صابئة. كذلك الأقباط قبل العصر المسيحي والامبراطورية الرومانية القديمة قبل تحول قسطنطين كانوا على الدين الصابئي. وبناءً على ذلك فقد ربط بشكل عام الصابئة بالوثنية وعبدة النجوم. وهو يعتقد أن الصابئة هم وثنيون بشكل عام. وفي الجانب الآخر فأن اهتمامه الشخصي بأهل حران (صابئة حران) والمعلوما ت التي استقاها من هؤلاء الناس أنفسهم، أعطته غزارة بالمعلومات عن طقوسهم ونظام معتقداتهم ومعابدهم وأنبيائهم وفلسفتهم»[١٠]

وهكذا انطلت اكذوبة أن الحرانيين هم الصابئة على واحد من أكبر المؤرخين المسلمين وترتب عليها أنه شوه مصطلح (صابئة) وجعله يشمل الوثنيين القدماء جميعاً من أصحاب الحضارات القديمة أو ما نطلق عليه اليوم(العالم القديم). وهكذا اعتبر المسعودي أن الحرانيين يمثلون من جهة بقايا تلك الأمم، ويمثلون الصابئة من جهة أخرى. وهكذا لم يدقق في مصطلح الصابئة بل عممه تعميماً قسرياً.. وبذلك أفسد التفسير الإسلامي لمعنى واصطلاح دين الصابئة، رغم غزارة معلوماته عن الحرانيين وعقائدهم إذ أن خطأه القاتل كان في أنه أخذ بأطلاق كلمة (صابئة) على القدماء جميعاً وهكذا شمل العالم الوثني القديم كله بهذه التسمية.

يقف المؤرخ حمزة الاصفهاني (القرن العاشر الميلادي) على العكس من المسعودي إذ إنه

رأى الحرانيين هم من ذرية الكلدانيين الذين ما زالوا يعيشون في حران والرها وأنهم تبنوا اسم الصابئة في زمن الخليفة المأمون وكانوا قبل ذلك يسمون بالكلدانيين كأسلافهم الذين عاشوا في نفس المنطقة. وقد أيّد أبو عبد الله موسى الخوارزمي رأي حمزة الاصفهاني. وكان لمثل هذه الرأي نوعاً من الدقة العلمية.

في هذا القرن ظهرت بوادر اضطهاد الصابئة وممارسة العنف ضدهم فقد قام محتسب بغداد والقاضي والفقيه الشافعي أبو سعيد الحسن بن يزيد الأصطخري (توفي٣٢٨هـ) أيام القاهر العباسي بأصدار فتوى القتل بحقهم «فقد رأى أنهم يخالفون اليهود والنصارى وأنهم يعبدون الكواكب، فعزم الخليفة على ذلك، حتى جمعوا بينهم مالاً كثيراً له فكفّ عنهم»[11]

ويبدو أن الشافعيين كانوا الأكثر سلبية في الحكم على الصابئة فقد اشترط أبو علي الماوردي الشافعي (توفي ٤٥٠هـ) أخذ الجزية منهم «إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم، وإن خالفوه في فروعه»[12]

وهكذا ظهر القرن العاشر قاتماً فيما يخص الصابئة، رغم أنه يشكل ذروة الحضارة العربية الإسلامية. وكلّ ذلك متأتٍ من كسل المؤرخين والفقهاء في عدم معرفتهم الميدانية لطبيعة الديانة الصابئية التي تعيش بينهم فلم يكلف أحدٌ نفسه في السؤال الدقيق عنهم وعن كتبهم، ثم تكوين فكرة صحيحة عنهم، فقد انشغلوا بالنقل عن بعضهم وبجعل الإشاعة الجماعية مصدراً أساسياً من مصادر كتبهم وأحكامهم. بل أن بعضهم، وخوصاً الفقهاء منهم خالف النص القرآني عندما أخرجهم من طائفة الأديان الموحِّدة التي ذكروا معها كالشافعي والماوردي. أما المسعودي فقد جعل الحرانيين نموذجاً للصابئة (وهذه أول مغالطة) ثم جعل من أديان العالم القديم من اليونان حتى الصين صابئة (وهذه المغالطة الثانية) وبذلك تكون الحقيقة قد ضاعت تماماً.

وقد وقع مؤرخ الثقافة الإسلامية محمد بن اسحق ابن النديم، الذي كتب موسوعته الثقافية الكبرى (الفهرست) في ٩٨٧ م في ذات الخطأ الذي وقع فيه المسعودي فقد أطلق مصطلح الصابئة على عبدة الأوثان وعبدة الكواكب بصورة عامة. وقسّم ابن النديم الصابئة في عصره إلى مجموعتين هما: الصابئة الحرانيون الكلدانيون وصابئة البطائح المغتسلة التي قال أن مؤسسها هو (الحسيح الكسائي) والتي لاحظ علاقتها مع المانوية. وقد جر هذا التقسيم أخطاءً كثيرة وصل

تأثيرها إلى المؤرخين المعاصرين وما زال.

٥ ـ القرن الحادي عشر الميلادي:

ظهرت في هذا القرن محاولات موسعة وجدلية تختلف عن تلك التي ظهرت في الفترات السابقة وقد شكّل قطباها الرئيسيان عالمان كبيران هما البيروني والقرطبي.

رأى أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (المتوفى ٤٤٠هـ) أن الصابئة، في عصره، على نوعين:[١٣]

١ ـ **صابئة حرّان**: وهم الحرّانيون الذين يعيشون في حرّان واسمهم (الحرّانية) وهم الأكثر شهرة والمعروفين باسم الصابئة لكنهم ليسوا الصابئة الحقيقيين، وبذلك يكون البيروني قد وضع يده على الحقيقة، بل أنه أطلق على الحرانيين اسم (الوثنيين) أو (عبدة الأوثان) وهم بقايا أتباع الدين القديم للغرب بعد أن تبنى الأغريق القدماء المسيحية عزلوا أنفسهم وبقوا ملتزمين بدينهم وأصوله القديمة، وأشار البيروني إلى أن الحرانيين تبنوا اسم الصابئة عام ٢٢٨هـ تحت الحكم العباسي، وذلك بهدف اعتبارهم من بين الذين تُتقبل منهم رسوم الذمة. وأشار إلى معتقداتهم وطقوسهم ومعابدهم.

٢ ـ **الصابئة الحقيقيون**: وهم الذين يعيشون على الدوام في منطقة واسط، في سواد العراق، وأشار البيروني أن هؤلاء يختلفون تماماً عن الحرانيين ويعارضون مذاهبهم ولا يتفقون معهم إلاّ ببعض القضايا. وأسماهم «الصابئة الحقيقيون» وقد أصاب في هذا تماماً. ورأى أنهم بقايا الأسرى اليهود في بابل الذين نقلهم نبوخذنصر من أورشليم إلى ذلك البلد والذي فضّلوا البقاء في بابل ولم يعودوا إلى اورشليم بعد سقوط بابل. وأن لدينهم متطلبات محددة قاسية وهذا ما جعلهم يستمعوا إلى مذاهب المجوسية ويتبنوا بعضها، وبذلك أصبح دينهم خليطاً من العناصر المجوسية واليهودية، تماماً مثل السامريين (من السامرة) الذين انتقلوا من بابل إلى سوريا وبالارتباط مع معتقداتهم وطقوسهم قال بأنهم يدّعون انحدارهم من أنوش ابن شيث وفي صلاتهم يتجهون نحو الشمال كان هذا اجتهاداً معقولاً من البيروني فقد أصاب تماماً عندما فصل بين الحرانيين والمندائيين، وهو ما ندعوا له اليوم علمياً. لكن البيروني ظل ضحية فكرة المسعودي حين أطلق مصطلح الصابئة على عبدة الأوثان بشكل عام.

أما ابن حزم القرطبي (توفى ٤٥٦هـ) فقد وقع أيضاً في خطأ المسعودي ولكنه ربط بين شعب النبي إبراهيم والصابئة حين قرر أن دين الصابئة هو أقدم الأديان ولكنه أنحرف عن مساره وبدأ أفراده يعبدون الأصنام والكواكب، لذلك أرسل الله إبراهيم لإعادة التوحيد لهذا الدين وسمي دين إبراهيم بالدين الحنفي.

لقد جعلهم ابن حزم من ضمن الثنوية القائلين بقدم الأصلين، مثل المجوس، لكنهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر، ويصورونها في هياكلهم ويقربون الذبائح والدخن، ولهم صلوات خمس في اليوم والليلة تقترب من صلوات المسلمين، ويصومون شهر رمضان ويستقبلون الكعبة البيت الحرام ويعظمون مكة والكعبة، ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير وعلى نحو هذه الطريقة تفعل الهند ب (البددة) في تصويرها على أسماء الكواكب وتعظيمها، وهو كان أصل الأوثان لدى العرب.. حتى آل الأمر مع طول الزمن إلى عبادتها. (١٤)

ويتضح جهل القرطبي الواضح بالدين الصابئي لكنه لفت الأمر إلى علاقتهم بالنبي إبراهيم.

٦ ـ القرن الثاني عشر الميلادي:

ظهر في هذا العصر محمود بن عمر الزمخشري (توفي ٥٣٨هـ) الذي عرف بتفسير القرآن وقد رأى أن الصابئة هم الذين بدلوا دينهم قياساً على فعل (صبأ) وهم فرقة مسيحية منفصلة عبدوا الملائكة.

ويعتبر مثل هذا الرأي انتكاسة خطيرة للجهود الحثيثة للوصول إلى رأي دقيق حول الصابئة فقد عاد بنا إلى التفسير اللغوي للكلمة وألصق بها الملائكة.

أما أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (توفي ٥٤٨هـ) في كتابه الشهير الملل والنحل، فقد وقع في أخطاء العلماء المسلمين السابقين مثل اعتبارهمَ الصابئة فئة (تركوا الطريق الحق) وهو طريق الأنبياء وأنهم وثنيون ويعبدون الأصنام واعتبار المصريين القدماء والأغريق والهنود صابئة وحين قسّم الصابئة تاريخياً قال بأنهم على نوعين (١٥)

١ . **الصابئة الأوائل**: وهم الصابئة الذين كانوا في عهد إبراهيم والذين كانوا بحاجةٍ إلى بعض الوسطاء بهدف فهم الله وأوامره وأحكامه وطريقه وهم على أربعة أنواع:

أصحاب الروحانيات: وهم أتباع آدم وشيت وإدريس ونوح، وهم أقدم الصابئة ويرون أنه

عندما ظهر إبراهيم الخليل كان الناس على دين الصابئة بينما كان دين إبراهيم الخليل هو (الحنيفية) التي جاءت لتصحيح الدين بعد أن حرّفته الصابئة. ويعتقد العلماء المسلمون أن أصحاب الروحانيات هم أصل الصابئة وأقدمهم ويرى بعضهم أنهم المقصودون في القرآن الكريم ولذلك يسمونهم (صابئة القرآن)، كذلك يرى الكتاب المعاصرون أنهم الأقرب لما يسمى اليوم بـ(المندائيون) وهم الصابئة المعاصرون والفرقة الوحيدة المتبقية من الصابئة.(١٦)

<u>أصحاب الهياكل:</u> وهم الذين جعلوا للروحانيات (الأرواح) هياكل ثم عبدوا هذه الهياكل باعتبارها آلهة وجعلوا الله ربّ هذه الآلهة.

<u>أصحاب الأشخاص</u>: وهم الذين صوّروا الأرواح والهياكل على شكل أصنام وعبدوها تقرباً إلى الله، وبذلك يكون أغلب ديانات العالم القديم واقعة تحت هذا الإسم.

أصحاب الحلول: وهؤلاء يرون أن العالم مسيطر عليه من قبل الكواكب التي حلّ فيها الله ليدير العالم وأنها أشبه بأعضائه السبعة. ويندرج صابئة حران في هذا النوع.

٢ . **الحنفاء**: وهم أتباع النبي إبراهيم الذين جاءوا ليصححوا ما انحرف عنه الصابئة من دينهم القديم، والجدير بالذكر أن كلمة حنيف مشتقة من الفعل (حنف) الذي يعني أيضاً (ينحرف ويبتعد عن) وبذلك يكون مشابهاً في المعنى للفعل (صبأ) ويتطابق هنا معنى الصابئة والحنفاء (الأحناف).

لكن القرآن الكريم يعطي للأحناف معنى توحيدياً خالصاً ويربطه بالإسلام.

نكتفي بهذا القدر من تتبع الصورة التي رسمها العلماء والفقهاء والمؤرخون المسلمون للصابئة لأن ماجاء بعد القرن الثاني عشر للميلاد لم يختلف في جوهره عن الآراء التي تعرفنا عليها سابقاً. ونود وضع خلاصة عامة لما عرضناه من أفكار ظهرت في تلك القرون الخمسة:

١ ـ كان من عادة العلماء العرب المسلمين العودة دائماً إلى الأصل اللغوي للكلمة واعتبار معناها موجهاً إصطلاحياً في أحيانٍ كثيرة فمفردة (صبأ) التي كانت تعني (الخروج من دين إلى آخر) في المعجم العربي هيمنت بظلالها على المعنى الاصطلاحي لكلمة (صابئة) ولم يذهبوا إلى أصلها في لغة قوم ذلك الدين(الارامية المندائية) حيث تعني اغتسل وتعمد بالماء (صبأ، صبغ، سبح)

٢ ـ في القرن السابع الميلادي ألزم القرآن الكريم جميع المسلمين باحترام الصابئة لأنهم دين

كتابي فتقيدوا بذلك ولم يخرج عن هذا الموقف أحد من العلماء أو العامة إلاّ القليل.

٣ ـ في القرن الثامن الميلادي ظهرت آراء المدارس الفقهية حيث بدأت المغالطة الأولى فأبو حنيفة يرى أن كتابهم هو الزبور ومالك ينفي وجود كتاب مقدس لهم، والشافعي رأى أنهم من ضمن أهل الكتاب، وابن حنبل رأى أنهم جنسٌ من النصارى.

٤ ـ في القرن التاسع الميلادي وتحديداً بعد عام ٨٣٣م حصلت حادثة المأمون مع الحرانيين الذي اعتبروا أنفسهم صابئة تخلصاً من تهديد المأمون، وبدأت المغالطة الثانية التي جرّت على الصابئة اعتبارهم عبدة هياكل ونجوم وخلطت، عند العلماء المسلمين، دينهم بالمعتقدات الحرّانية الوثنية. دون أن يُتعب هؤلاء العلماء أنفسهم في تقصي الحقيقة.

٥ ـ في القرن العاشر الميلادي، سار المؤرخون وراء المغالطتين الأولى والثانية واستشرى، بذلك، فهم مشوش عن الصابئة لم يسلم منه كبار المؤرخين مثل الطبري وابن الطيب والرازي وسرعان ما انزلق المسعودي في تعميم مصطلح الصابئة على كل أديان العالم القديم الوثنية قبل ظهور التوحيد، فكانت المغالطة الثالثة وظهرت بوادر العنف والاضطهاد في ما أفتاه الاصطخري وما أراد أن ينفذه الخليفة القاهر ضد الصابئة.

٦ ـ في القرن الحادي عشر الميلادي، حاول البيروني تصحيح المغالطة الثانية لكنه أبقى على المغالطة الثالثة وأدخل ابن حزم القرطبي مغالطة رابعة عندما اعتبر الصابئة هم شعب إبراهيم الذي انحرف عن طريقه القديم وأن دينه الحنفي جاء ليصحح ذلك.

٧ ـ في القرن الثاني عشر الميلادي كرّس الشهرستاني ملاحظة القرطبي ووسعها. دون أن يعالج شيئاً من هذه المغالطات.

وهكذا نجد أن العلماء المسلمين افتقروا إلى الحدّ الأدنى من مستلزمات تقصي حقيقة الصابئة، وتناولوهم بعقل نظري شمولي شوّه صورتهم وأبعدها عن الحقيقة. فقد حلّقوا في خيالٍ عجيب عندما اعتبروا أديان العالم القديم الوثني، كلها، صابئية. ولم يتعب أحد نفسه في قراءة ودراسة كتبهم أو التقرب من عبادتهم ومعرفتها عن كثب، خصوصاً أن اللغة الآرامية (والمندائية إحدى لهجاتها) كانت معروفة جداً للعلماء آنذاك.

ثالثاً : أصل المندائيين ـ كما يراه العلماء الغربيون المعاصرون :

منذ حوالي أربع قرون وحتى الآن، نشأت في دوائر البحث العلمي الغربي نظريتان أساسيتان حول أصل المندائيين والديانة المندائية وعلاقتها بالأديان التي حولها. النظرية الأولى هي نظرية الأصل الغربي والمقصود به الأردن وفلسطين وتنقسم إلى فرضية الأصل اليهودي وفرضية الأصل المسيحي. أما النظرية الثانية فهي نظرية الأصل الشرقي والمقصود به وادي الرافدين وإيران وتنقسم إلى فرضية الأصل الرافديني وفرضية الأصل المانوي. وقد خضعت كل هذه النظريات والفرضيات إلى تمحيص وتدقيق وتعديل من خلال علوم وتاريخ الأديان واللغة والآثار والأنثروبولوجيا.

١ . نظرية الأصل الغربي :

هذه النظرية هي النظرية الأكثر إتساعاً والتي جذبت إليها أغلب علماء الآثار والاستشراق واللغات القديمة، وقد دارت في فلك الدوائر الهرطقية اليهودية والمسيحية التي نشأت قبل وبعد القرن الميلادي الأول في فلسطين والأردن، وأرجعت نشوء الديانة المندائية إليها. وقد بدأت بواكير هذه النظرية بالظهور منذ أن كتب مبشرو أو رموز(الجيزويت) وهم من المبشرين البرتغاليين تقريرهم عام ١٥٥٥ بعد زيارتهم لمناطق الخليج العربي، ولكنه لم ينضج إلاّ بعد حوالي ثلاثة قرون ونصف على يدي الألماني مارك ليدزبارسكي في العقود الأولى من القرن العشرين وسار على نهجه كثيرون من أمثال كورت رودولف وماكوخ والليدي دراور (السيدة إيثيل ستيفانا دراور). وخلاصة هذه النظرية ترى أن منشأهم (الصابئة) كان في الغرب، بين طوائف البحر الميت أو في شرقي الأردن حيث كان التعميد يمارس هناك على نطاقٍ واسع قبيل ظهور المسيحية وبعد ظهورها وأثناء انتشار الحركات الغنوصية هناك.

رأى ليدزبارسكي أن وطن المندائيين الأول «كان يقع في الأصل غرباً، وأكثر من هذا حاولتُ أن أحدد موطنهم على نطاق ضيق : عبر المناطق الأردنية غير بعيد عن جبل حوران»[١٠] وقد نفى أن يكون المندائيون تابعين ليوحنا المعمدان لكنهم ربما تعرفوا عليه هناك، أما هجرتهم إلى الشرق فقد بدأت في القرن الميلادي الأول قبل تدمير المملكة اليهودية عام ٧٠م. وفي ما بين النهرين تأثروا بعبادتي الكواكب البابلية وآلهة الأمومة السورية، وأن سجالهم مع اليهود ذات

جذور قديمة تمتد إلى وطنهم الأصلي أما سجالهم مع المسيحية فمتأخر ويمتد إلى صراعهم ضد التبشير المسيحي.

هذه هي خلاصة نظرية ليدزبارسكي التي أصبحت أساس نظرية الأصل الغربي برغم الإضافات والحذوفات المتنوعة عليها، فقد رأت الليدي دراور، مثلاً، أن نشوء المندائية يرتبط بالفرق اليهودية المنشقة ما قبل المسيحية كالنصرائيين **Nasaraeans** وقالت أن الناصيروتا **Nasiruta** المبكر (أو المندائية البكر(**Mandiasmus _ Ur** في الألمانية) كانت طائفة أزدهرت في يهوذا والسامرة ثم في توطد اليهودية البارثية في الأردن القديم، وتأثرت هجينياً بقوة بالمجوسية واليهودية الغنوصية، ورأت أنه بعد تدمير القدس من قبل الرومان واستيطان قسم كبير من اليهود المسيحيين شرقي الأردن قام اليهود واليهود المسيحيون بتهديد الناصوريتا وهاجر هؤلاء إلى ملجأ لهم في المحيط البارثي الصديق وتلال ميديا. كما رأت الليدي دراور أن هناك علاقة أو اتصال بين المندائيين والكسائيين ووثنيي حرّان القروسطويين (صابئة حرّان) [١١].

وهناك من رأى أن المندائية ظهرت من الجوّ العام الذي أشاعته الغنوصية أثناء انتشار الثقافة الهيلنستية في أطار ما يعرف بالحركات التلفيقية أو التوفيقية (**Syncretism**) التي ظلت تعيد انتاج الأديان الشرقية القديمة في صيغة عالمية هيلنستية، وقد كان موضوع (الخلاص) والبحث عن (مخلّص) هو غاية هذه الحركات، ولا شك أن المندائية واليهودية والمسيحية أزدادت غنىً في جوّ هذا الجدل الخصيب. ولعل المندائية بجوهرها الغنوصي الفريد شكّلت الحافز الأول لظهور هذا الجدل من ناحية واستطاعت أن تحافظ على خصوصيتها من الاندماج في الغنوصيات اليهودية والمسيحية.

يرى جين دورسيه، أن الناصورائيين المندائيين الذين وجدوا ي فلسطين هم من أتباع الغنوصي المعروف ساتورنيل (Saturninus) أحد ممثلي الأشكال الأولى للغنوصية وتلميذ (ميناندر) الذي كان بدوره تلميذاً لسيمون الذي يُنسب إليه وضع أولى الأفكار الغنوصية، طبقاً للمصادر المسيحية الأولى، عاش ساتورنيل ودعا إلى أفكاره في أنطاكيا، أيام الامبراطور الروماني هدريان. فطبقاً لما يرويه إيرناووس وكتّاب المسيحية الأوائل كان ساتورنيل يبشر بأسطورة للخلق تتماثل كثيراً مع الرواية المندائية في السماء والأرض، ويصوّر فيها آدم على غرار ما تصوره

الرواية المندائية حتى تسعفه (شرارة) الحياة من إله السماء، وأن هذه الشرارة تعود لتصعد إلى السماء لتنضم إلى الكائنات الروحية التي تنتسب إليها. لكنّ المؤرخين يذكرون إلى جانب ذلك أن تلاميذ ساتورنيل كانوا يتمسكون بالعزوبة مستندين إلى أنه كان يشدد على أن الزواج والإنجاب إنما هو شرٌّ وفي هذا ما يختلف تماماً مع المندائية التي ترفض العزوبة [١٢].

٢ . **نظرية الأصل الشرقي :**

تعتبر هذه النظرية أقل حماساً بالنسبة للعلماء الغربيين رغم أن الزمن يجري لصالحها ويتزايد اليوم أعداد مناصريها. فهي تؤكد على أن المندائيين من سكان وادي الرافدين القدماء وأن تراثهم الرافديني والبابلي، بشكل خاص، تفاعل مع التراث الفارسي بعد سقوط بابل وخصوصاً المعتقدات الزرادشتية والفرثية ومع الجماعات اليهودية والمسيحية الموجودة في وادي الرافدين. وقد بدأت هذه النظرية بالظهور مع الباحث سايمون عام ١٦٨٥ ا لذي أشار للعلاقة مع المانوية ومع تايشن عام ١٧٨٤ الذي أشار لأصلهم الكلداني. ولكنها لم تنضج إلاّ على يدي المستشرق الروسي (الأوكراييني) دانيل خوالسون (D. Chwolsohn) في منتصف القرن التاسع عشر ١٨٥٦ معتمداً على المصادر السريانية والعربية.

يرى الباحثون في هذا الإطار أن البيئة الهيلنستية في وادي الرافدين متمثلة ببقايا الدين البابلي والزرادشتي والغنوصية والهيلنستية هي التي تغري بالتطلع إلى بدايات المندائية في هذا المناخ «ومع أن فكرة البحث عن أصول هؤلاء المندائيين بين من بقي من هؤلاء البابليين، أو بين من أندمج معهم من الجماعات الارامية تظل تغري المرء، فإن الافتقار إلى البيّنات المادية، لا يسمح للمرء بأن يقطع بشيء، كما لاحظ ياموجي عن حق»[١٣].

وقد ذهب باركي إلى أن المندائية فرقة غنوصية نشأت من الأوفاتية **Ophites** وهي فرقة غنوصية تعتبر الشيطان تجسيداً لحكمةٍ إلهية.

وقال براندت أن الطبقة القديمة للمندائية تحتوي عناصر الشرك من البيئة الدينية الساميّة الفلسفة الكلدانية أما مفاهيم الغنوصية واليهودية والفارسية فهي الطبقة الثانية التوحيدية التي تمت صياغتها في حدود ٣٠٠ ـ ٦٠٠ م[١٤].

رابعاً : أصل وتاريخ المندائيين ـ من وجهة نظرنا :

سنقدم هنا خلاصة شديدة لوجهة نظرنا حول أصل وتاريخ المندائيين، وهي وجهة نظر لم تتكون بين ليلةٍ وضحاها، بل عملنا على بنائها وتطويرها منذ أكثر من عشرين عاماً بعد دراستنا لحضارات العالم القديم وبعد إطلاعنا على أصل وتاريخ المندائيين في التراث المندائي والتراث الإسلامي والتراث العلمي المعاصر.

ومنذ أن صدر كتابنا (جذور الديانة المندائية) وحتى يومنا هذا ونحنُ نحاول تطوير نظرية خاصة حول أصل وتاريخ المندائيين، وقد توصلنا إلى نتائج جيدة عسانا نستطيع إخراجها في كتاب مستقل، وسنقدّم هنا خلاصة شديدة لها.

نرى أن أصل المندائيين متجذرٌ في وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التاريخ وهم أحد شعوب هذا الوادي التي نزحت من شماله إلى جنوبه في العصر الحجري النحاسي، ولا نعتقد أنهم هاجروا من مكان آخر أو إلى مكان آخر، فهم خميرة الطبقات الحضارية التي مرت به ولكن هذا لم يحل دون اتصالهم وتفاعلهم مع شعوب وادي الرافدين الأخرى أو مع الشعوب المهاجرة إليه أو المجاورة له. ونرى أن تاريخهم ينقسم إلى المراحل الآتية :

١ . عصور ما قبل التاريخ :

في الألف السادس قبل الميلاد أصبح السهل الرسوبي المحصور بين دجلة والفرات في وادي الرافدين الجنوبي مهيئاً لاستقبال هجرات الأقوام النيوليتية (الحجرية الحديثة) التي ازداد حجمها في حقبة عصر النيوليت شمال وادي الرافدين. وحين هاجرت هذه الأقوام المتعطشة لأرض زراعية خصبة، انقسمت إلى ثلاثة فروع كبرى أصبح الفرع الوسطي منها يسمى (سونارتو) وهو الذي حلّ في أغلب الأراضي المحصورة بين دجلة والفرات ولكنه استقر أولاً في أرض قريبة من حافات الخليج العربي على نهر الفرات وبنى هناك أول مدينة في التاريخ اسماها (أريدو) ويعني اسمها (الأرض) وكان هذا الشعب الكالكوليتي النزعة (الحجري النحاسي) قد شهد بدايات الانقلاب الذكوري وإزاحة المرأة من مركز المجتمع وتحويلها إلى الهامش وإحلال الرجل والعبادة الذكورية مكان عبادة الإلهة الأم الانثوية الشمالية الأصل. فهو لم يعد يعتقد بأن خصب الحياة يأتي من المرأة والأرض بل كوّن له عقيدةً دينية جديدة، ظلت تحمل رواسب العقيدة القديمة،

وتقضي هذه العقيدة بأن الماء هو أساس الخصب ولولاه ما حصلت الزراعة وما عاش الإنسان والحيوان والنبات وأن هذا الماء الصالح للشرب والزراعة هو ماء الأنهار الذي أصبح يمثله الإله (إيا) ومعناه (حي) فهو أصل الحياة كلها. ولذلك أصبح الفرات الذي أقاموا عليه مدينتهم الأولى (أريدو) نهراً مقدّساً لأنه يضمّ (إيا)، وكان اسم الفرات آنذاك (بارتو) أي (نهر الشمس) لكنهم أعطوه اسماً آخر يتناسب مع اسم مدينتهم (أريدو) فأسموه (أردو) أو (يردو) الذي تطوّر إلى (يردنا) ومعناه (نهر الأرض).

كانت شعوب (سونارتو) المهاجرة إلى السهل الخصيب تضمّ شعوباً متباينة ونحنُ نرى أن هناك ما تبقى من اسم هذه الشعوب (سونارتو) في مفردة ظلت في بعض المرويات التاريخية والدينية كالتوارة عن وادي السهل الخصيب الذي يسمى (شنعار) وشنعار هي تصحيف لكلمة بائدة قديمة جداً هي (سونارتو) التي نرى أنها تحولت إلى (شنعارتو) ثم (شنعار).

كان من ضمن شعوب سونارتو الشعب الذي بنى (أريدو) وهو (نسار) أو (ناسار) أو (ناصور) أو (ناصر) الذي بقي مقطع (نصّر) في الكثير من أسماء ملوك وادي الرافدين يشير إليه مثل نبوخذنصّر، شليمانصّر..إلخ ونرى أنه شعب الناصورائيين الذي هو الاسم القديم للشعب المندائي، وقد طوّر هذا الشعب الكثير من فنون وعلوم الحضارة قبل ظهور حضارة العبيد وحضارة سومر وفي حدود الألفي سنة قبل ظهور السومريين حضارياً وسياسياً. ويمكننا أن نسمي الناصورائيين شعب أريدو أو (الأريدويون) أو مناصرو الإله (أيا) (ناصور أيا) أي (ناصورايا).

٢ . العصر السومري:

جاور الناصورائيون، في أريدو وفي مدنٍ أخرى، شعبٌ آخر هو الشعب الأموري الذي رأينا في كتابنا (المعتقدات الأمورية) بأنه هو الشعب الذي أسس حضارة (تل العبيد) التي سبقت الحضارة السومرية وبدأت بالظهور في حدود ٤٥٠٠ ق.م وقد ظهر الشعب السومري لاحقاً بحضارته الفريدة في حدود ٣٥٠٠ ق.م ونقل هذا الشعب عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية في حدود ٣٢٠٠ ق.م.

لم يكن الشعب الناصورائي قد توصل إلى اكتشاف الكتابة كما هو حال الشعب الأموري صاحب الحضارة العريقة المعروفة بحضارة تل العبيد. لكن الشعب الناصورائي طوّر العجلة

والسفينة الشراعية وله منجزات أخرى.

وفي كتابنا (جذور الديانة المندائية) توصلنا إلى وجود علاقة واضحة بين الديانتين السومرية والمندائية يبدو أن سببها هو هذا التجاور بين السومريين والناصورائيين وقد رأينا أن اشتراك الديانتين بالبيئة المائية ووجود عالمي النور والظلام وظهور الكثير من الآلهة وأسماء الكائنات النورانية والظلامية وتشابه الطقوس وبعض الأساطير هو ما دفعنا إلى القول بأن الديانة السومرية هي لبّ الديانة المندائية، واليوم نضعُ صياغة دقيقة لهذا الاستنتاج ونقول أن العلاقة المشتركة بين الديانتين السومرية والمندائية يكمن في الديانة الناصورائية لشعب حضارة أريدو الذي دارت ديانته حول عبادة الماء الحي وكان الإله (إيا) أو (حي) هو جوهر هذه الديانة وأساسها.

وبطبيعة الحال لم تكن الديانة الأريدوية (الناصورائية) آنذاك كما هي الديانة المندائية الآن، فقد كانت ديانة شفاهية ولها نظام كهنوتي وأسطوري معين، لكن طقوسها كانت صارمة وقد حفظت، هذه الطقوس، الناصورائية أكثر من أي شيء آخر. ومن البديهي القول أنه لا يوجد نصّ واحد ناصورائي كتب بالمسمارية أو على ألواح الطين وهو ما يشكّل النقطة الأضعف في نظريتنا وما يجعلها أقرب إلى الفرضية طالما غابت تلك النصوص الكتابية التي نفترض أن يكون لها بعض الحضور بعد استقرار الكتابة والتعامل بها، لكنّ الحفريات لا تقول كل الحقيقة دائماً بل بعضها.

٣ . العصر الأكدي:

كان الأكديون قد أضافوا إلى الديانات العراقية القديمة عنصراً حاسماً وقوياً هو عبادة الإله الشمس المتمثل بالإله (شامش) الذي أصبح مع مجموعته الكوكبية بمواجهة آلهة الحياة والمياه والخصب. وكان هذا التطور دافعاً لنشوء عقيدتين متنازعتين هما العقيدة الشمسية الأكدية والعقيدة الخصبية التموزية. وتُظهر أساطير عشتار وتموز الصدام العنيف بينهما حيث تمثل إنانا (عشتار) عبادة الكواكب ويُظهر تموز عبادة الخصب (الأرض والمياه) وبموت تموز وانبعاثه الدوري تكون العبادة الشمسية قد بدأت بالسيادة على الأديان الرافدينية.

وكان من آثار هذه النقلة الروحية على الديانة الناصورية أنها جمعت النور والحياة في عالم واحد بمواجهة الظلام الذي يضمّ الكواكب المعتمة التي لا تُضاء إلاّ بأشعة عالم النور الخارج عنها. وكان هذا الحلّ التوفيقي كفيلاً بنمو خصوصية نادرة لهذه الديانة المستترة المنزوية والتي

بدأت تخشى جلجلة الأباطرة والملوك الكبار الذي يستندون إلى ديانات تلجأ إلى القوة والدمار في كثير من الأحيان.

٤ . العصر البابلي (القديم والحديث) :

كان ظهور الديانة البابلية القديمة (الأمورية الجوهر) استمراراً لسيادة العقائد الشمسية بصيغة توفيقية هي الأخرى، فالإلهة مردوخ الذي هو الإله القومي للبابليين هو إله شمسي (يمثل المشتري) وكان يسمى (ثوير الشمس) حل محل شامش الأكدي وأضاف له عناصر خصب تموزية وعناصر عرفانية من إبنه (نبو).

تمسك الناصورائيون بما توصلوا إليه من فصل حادٍ بين عالم النور والحياة وعالم الظلام وظهرت أساطير خليقتهم وتراتيله. وظلّوا في ذلك المكان المائي الرحيب في جنوب العراق بعيداً عن جعجعة الصراعات السياسية في وسطه وشماله، وربما نشير هنا، بشيء من الحذر، إلى السلالة البابلية الثانية التي كان اسمها (سلالة القطر البحري) التي حكمت بعد السلالة الأمورية وكانت منطلقةً من تلك البيئة المائية ومن المدن السومرية القديمة.

أما العصر البابلي الحديث (الكلداني) فهو عصر انتصار الآرامية ثقافة ولغةً وديناً، وقد حافظت الآرامية على الجهاز الروحي البابلي القديم لكنها أجرت تعديلات حاسمة فيه لا مجال لذكرها هنا، لكننا نذكّر، مرة أخرى، بالمحاولة الجريئة والكبيرة التي حاولها آخر ملك بابلي وهو (نبونائيد) لجعل التوحيد عقيدة للديانة البابلية تقوم على أساس تفريد سين (القمر).

شعر المندائيون أن الكلدانيين يتجهون بقوة نحو تعظيم الكواكب حتى في دعواتهم التوحيدية فتمسكوا هم بعقيدتهم المضادّة للكواكب والممجِّدة لعالم النور والحياة من خلال النور الحي والماء الحي اللذين أصبح يمثلهما الإله (هيّي ربّا) أو (الحي العظيم) سليل (إيا) العريق. لقد وقفوا في كل تلك العصور متمسكين بعقيدتهم هذه أمام صعود وسقوط العقائد والأديان والآلهة. لكننا يجب أن نؤكد على أن عناصر ذكورية كثيرة جداً دخلت إلى عقائدهم المائية التي كانت، ذات يوم، تميل نحو شكل أنثوي خصبي. لقد أُهينت الأنوثة وأصبحت نجاسةً ومثّلت الروها (أم الظلام) أكثر أشكال العهر والانحراف والرذيلة.

وفي هذه الفترة، ومنذ مجيء اليهود أسرى إلى بابل بعد أن سباهم نبوخذنصر أصبح التنافسُ

قائماً بين ديانتين تدّعيان التوحيد. لكن الديانة المندائية الغائصة تحت سطوح الماء وفي عتمات الباطن مثّلت بامتياز مصدر الغنوصيات المشرقية البكر التي لم تمسّها بعد لفحات أفلاطون أو الهيلنسيات القادمة. لقد كانت المندائية أم الغنوصيات وأصلها، وقد خرجت هذه الغنوصية من شرنقة دينية بكر، ولم تخرج من مدارس فلسفية دنيوية وأكاديمية.

كان لكنهة العرافة (بارو) وكهنة التعزيم (أشيبو) في الديانة البابلية الأثر الكبير في تطوير الطقوس المندائية منذ العصر البابلي القديم وسيتطابق مفهوم (بارو) مع (ناصور) من خلال نظرهما الوئيد في صفحة النجوم واستطلاع القادم.

لقد أعطت اللغة الآرامية غطاءً لغوياً جديداً للناصورائيين، فقد تحولت الآرامية إلى لغة تخاطب العالم القديم في الشرق الأدنى كله، وكان أن تبنى الناصورائيون هذه اللغة فتحولوا إلى ما نسميهم بـ(المندائيين) وأصبح اسم ديانتهم (المندائية) حسب اسم هذه اللهجة الآرامية التي سبقت اللهجة السريانية (وهي آرامية) بقرون كثيرة. وربما بدأ تدوين تراثهم الروحي في هذه المرحلة باللغة المندائية على الأطباق أو لفائف الجلد والورق.

٥. العصر الفارسي الأخميني:

كان دخول الفرس الأخمينون إلى وادي الرافدين يعني دخول العقائد الثنوية الإيرانية (المؤمنة بعالمي النور والظلام كالزرادشتية وغيرها) وتفاعلها مع الديانة البابلية المهزومة بل وتأثيرها على الأديان الرافدينية آنذاك، من يهودية ومندائية وغير ذلك، كان ذلك يعني بداية عصر جديد يبدو لا سامياً في أقل حدوده ويبدو بنكهة أخرى ستعمل على إحداث تغييرات نوعية في الأنظمة الروحية لهذه البلاد.

تشجّع المندائيون على إظهار أدبهم الديني القريب من الأدب الديني الفارسي ولكن بحذر شديد فقد كان الكتمان سبيلهم الأول في حفظ دينهم.

٦. العصر الهيلنستي:

بعد غزو الاسكندر المقدوني لبابل وسقوط الامبراطورية الفارسية بيده جاء السلوقيون إلى وادي الرافدين وتعرّف الإغريق عن كثب على تراث بابل الذي كانوا يحملون شوقاً هائلاً له وكان من ضمن ما تعرّفوا عليه ذلك الدين السريّ والغامض (المندائية) والقابع على فروع الأنهار

السفلى لدجلة والفرات، وترجموا كلمة مندائية بـ(غنوصية) أي العرفان. وهكذا عرف فلاسفتهم الغنوصية وبدأوا بالتنظير لها وعادت الغنوصية بلبوس إغريقي إلى الشرق قبيل القرن الميلادي الأول وكأنها استمرار سرّي لفلسفة أفلاطون وتلاميذه.. لكنها في حقيقة الأمر (المندائية) النائمة في صدور الرافدينيين القدامى، بل أنهم أرجعوها إلى نواة هرمسية مدغمة بأساطيرهم وهكذا أعلنت المندائية عن نفسها في العصر الهيلنستي بالصيغة الغنوصية.

ولعل من أكثر الأمور حسماً في نهاية هذا العصر هو تأسيس مدينة (ميشان) أو (دست ميشان) في مكان كان المندائيون يزدحمون فيه وربما جاء اسمها من المندائية، حيث (مي) تعني ماء و(شان) تعني القصيّ أو البهيّ، وبذلك تصبح المياه القصية أو البهية وهو اسم يعطيها دقةً في الموقع الجغرافي حيث توجد في أقصى الجنوب بين المياه وفي المستوى الروحي حيث الماء والبهاء والعمق (الأسرار) وهي صفات مندائية.

وميسان هي منطقة الهيلنستية الرافدينية بامتياز لأن فيها تمّ خلط عقائد الأغريق مع العقائد المندائية والرافدينية القديمة وهو ما أثّر إيجاباً على الإغريق الذين عرفوا الغنوصية لأول مرة وعلى المندائيين الذي تعرفوا إلى حضارة جديدة نوعية ومختلفة. وفي هذه المدينة ظهر الأنباط الرافدينيون ومنحوا المندائيين خط الكتابة مثلما كان قد منحهم الآراميون لغة جديدة وهنا بدأ التدوين المندائي واستقرت الأبجدية المندائية.

٧. العصر الفرثي:

كان الفرس الفرثيون قد انتزعوا وادي الرافدين من السلوقيين في حدود ١٥٠ ق.م لكنّ الثقافة الهيلنستية استمرت طويلاً بعد هذا الحدث لدرجة أن الملك الفرثي (أردبان الثالث) في بداية القرن الميلادي الأول كان يتكلم الأغريقية بطلاقة وهو الذي كان من أكبر مناصري المندائيين والديانة المندائية للدرجة التي اعتبروه ناصورائياً مخلّصاً لهم من اضطهاد اليهود الناشطين في جنوب وادي الرافدين. وأن مدينة (أرتميسيا) في أسفل بلاد الرافدين مع مدينة (ميشان) واصلتا النمو بالتقاليد الهيلنستية اقتصادياً وثقافياً.

وحين وفدت المسيحية إلى وادي الرافدين، بلغة وكتابة سريانية آرامية تمّ تطويرها في شمال وادي الرافدين، ازداد الصراع ضراوة بين اليهودية والمسيحية والمندائية والزروانية الفارسية

والغنوصية الوافدة من الإغريق ومن الاسكندرية.

كان هذا المناخ المحتدم كفيلاً ببلورة نتائج جديدة أثر على كل هذه الأديان والمعتقدات التي كانت تعيش كلها تحت ثمار اللغة الآرامية. لقد أكمل اليهود كتابة التلمود البابلي، وظهر الغنوصيان المسيحيان الكبيران(بار ديصان) و(مرقيون) في وادي الرافدين ثم ظهر النبي ماني ليعبِّر عن خلطة بابلية مندائية مسيحية زرادشتية محكمة وليتحول إلى أكبر الغنوصيين المشرقيين منحدراً من أب مندائي وبيئة مندائية وليهاجر تلميذه (توما) إلى بلاد مصر حاملاً كلّ هذا الجمال الروحي إلى هناك، وهو ما كشفت عنه آثار نجع حمادي في مصر.

أما الفرثيون المندائيون فقد تبادلوا تأثيراً أشد وأقوى فقد ظهر الملك أردبان (أو أرتبانوس الثالث) الفرثي وكأنه المؤسس الجديد للمندائية وقد وقع كتاب (حران كويثا) في شرك سحره لدرجة أنه أعاده إلى زمن موسى ومضى به إلى حرّان في القرون الميلادية الأولى وهو يقود المندائيين ويخلّصهم من مصائبهم الكبرى وهو وهمٌ جاء من تقليد سفري التكوين والخروج في التوراة من قبل مؤرخ مندائي مبتديء هو مؤلف هذا الكتاب الذي سبب كل هذا اللبس في التاريخ المندائي.

أما التراث الفرثي الديني فقد أثر بقوة في بعض العقائد المندائية وساهم في إعادة صياغتها وخصوصاً الديانة الزروانية الفرثية الطابع. ومثل ذلك فقد أثرت المندائية في الديانة الزروانية وأعطتها بعداً غنوصياً جديداً عمّقت فيها فكرة الخلاص. ونعتقد أن هذه الفترة شهدت انتشاراً للمندائيين في مدن إيران الجنوبية كالأحواز والمحمرة وعبادان والبسيتين وغيرها.

٨ . العصر الساساني :

تراجع الاهتمام الفارسي بالمندائية في هذا العصر بسبب التحوّل العقائدي (دوغما) في الزرادشتية وتحوّل كهّانها المجوس إلى حرّاس عقائديين لا مفكرين، وكانت تعوزهم الثقافة بمعرفة الأديان الأخرى. لكنّ هذا العصر، من ناحية أخرى، يعتبر العصر الذهبي لتدوين المخطوطات المندائية والأقداح الفخارية المندائية ذات الطابع السحري والعرافي.

لقد ظهر قبل القرن الميلادي السابع واحدٌ من أعظم مدوني المخطوطات المندائية وهو (زازي د ـ كواستا) الذي بدا وكأنه قد نسخ ودوّن كل التراث المندائي لكن ما عرفناه من مدوناته هي مخطوطات (قلستا، آلمه ريشايا ربّا، آلمه ريشايا زوطا، ديوان تفسير بغرا، ديوان ترسر ألف

شياله، ديوان مصبتّا ديهبل زيوا) ويمكن أن يكون قد دوّن الكتب الروحية الأخرى.

واستمر في هذا العصر انتشار المندائيين في المدن الإيرانية الجنوبية المحاذية لمدنهم في وادي الرافدين.

٩ . العصر العربي الإسلامي :

عند دخول المسلمين إلى العراق أصبح المندائيون، مثل غيرهم من الأديان الموحِّدة، من أهل الذمة حسب الشريعة الإسلامية وجرتِ معاملتهم برفقٍ مرةً وبعنفٍ مرة أخرى. وعندما كان يتولى حكام متزمتون ولاية المدن التي يسكنونها كانوا يقعون أحياناً تحت تأثير مزاجهم المتعنت. لكن، الصورة العامة للمندائيين (الذين أصبحوا يعرفون بالصابئة) كانت جيدة وخصوصاً في العصر العباسي وعندما أصبح منهم ومن صابئة حران أقطاباً في (بيت الحكمة) في عصر المأمون وبعده.

لقد عرضنا صورة موجزة عن آراء الفقهاء والعلماء والمؤرخين بالصابئة وقسّمناهم إلى مرحلتين قبل وبعد حادثة المأمون مع صابئة حران. لكننا بحاجةٍ جدية للتحري عن تاريخهم الحقيقي خلال هذه الفترة وعن تجمعاتهم وأقطابهم الروحيين وتطور طقوسهم وعقائدهم ومخطوطاتهم.

١٠ . العصر الحديث :

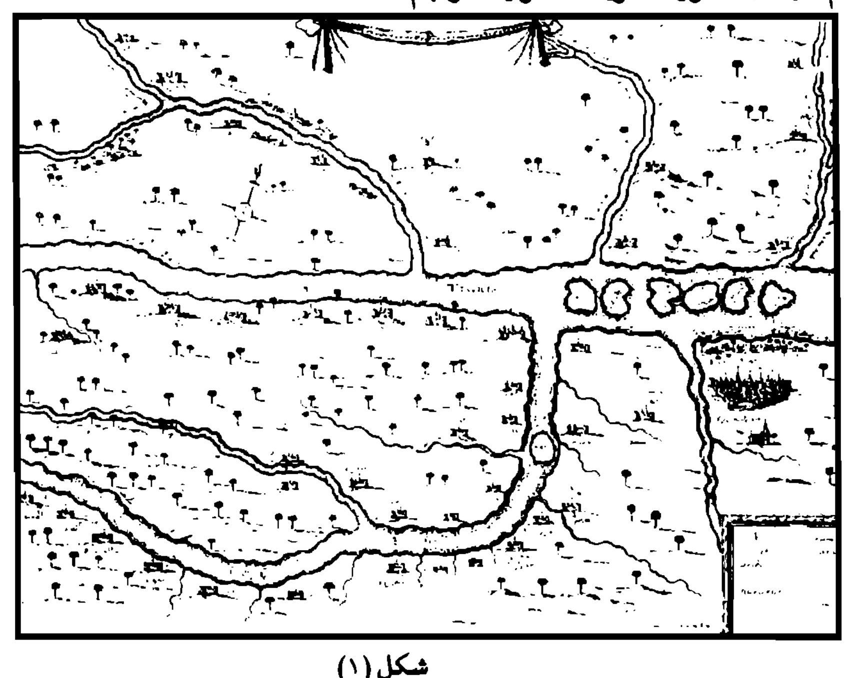
وهو الذي يبدأ من عصر النهضة مروراً بالقرون اللاحقة. في هذه الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين يمكن تتبع جهود الرحالة والمستشرقين الذين زاروا العراق والأحواز ودوّنوا ماله علاقة بهم مثل ما فعله (ذفنوت) الذي وضع خارطة مفصلة لمواقع العوائل المندائية في جنوب العراق والأحواز.

كذلك يتم تناول جهود العلماء والباحثين الذين طوّروا نظرياتهم من خلال الزيارات الميدانية والإشارة إلى التقارير والبحوث والنظريات التي وضعها الغربيون حول المندائيين وأصلهم والعلماء الذي ذكرناهم في الفقرة السابقة.

١١ . التاريخ المعاصر :

ويبدأ من بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. وتبدأ معه النظريات الناضجة الكبرى عن المندائيين في الغرب مثل نظريات ليدزبارسكي ودراور وماكوخ ورودولف. أما ميدانياً في ظل نشوء

العراق الحديث وإيران الحديثة بدأ عصرٌ جديد من عصور التاريخ المندائي يمكن تلمّس أحداثه وتدوينها في ظل المملكة العراقية والجمهوريات العراقية المتعاقبة وفي ظل دولة إيران الشاهنشاهية ودولة إيران الإسلامية، وتعقب هجرتهم المعاصرة إلى المنافي الجديدة وأسبابها، وتدوين وترجمة كتبهم.. وكتابة تطور النظريات الغربية حولهم.



شكل (١)

خارطة قديمة وضعها م. ذفنوت M. Thevenot في القرن السابع عشر، توضح مواقع العوائل المندائية في جنوب العراق والأحواز

المرجع: Thevenot, Melchisedech: Relations de diverses voyages, Paris 1663, le Partie, No.15: vera Delneatio Civitatis Bassorae.

يبدو لنا ولكم بأن ما عرضناه في هذه النقاط الأحد عشر هو مخطط موجز لكتاب قادم، وسيكون من سعادتنا الكبرى لو أنه تحقق وأكتمل ونُشر مقدمين بذلك خدمةً متواضعة لهذه الديانة الرافدينية العريقة ولأهلها الطيبين المسالمين معتبرين أن تراثها الروحي والأدبي هو آخر الكنوز العظيمة التي أظهرها وادي الرافدين للعالم.

المبحث الثاني
مدخل إلى الأسطورة والمثولوجيا الرافدينية

أولاً: الأسطورة:

لعلّ أكبر مشكلة في فهم المعنى الدقيق للأسطورة والمعنى الدقيق للمثولوجيا يكمن في فرز الأسطورة، أولاً، عن الأنماط التي تشبهها وتتداخل معها كالملحمة والخرافة والحكاية الشعبية.

فالأسطورة هي (حكاية مقدسة) أو هي (تاريخ مقدس) يكون على شكل سردي شعري ويكون محورها إله أو كائن إلهي وتتحدث، في الغالب، عن موضوعات كبرى كالخلق وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر، وهي ذات قدسيّة وسلطة عظيمة في عصرها وعلى من يؤمن بها. وهي بلا مؤلف لأنها نتاج خيال جماعي لا فردي يمتاز بالثراء الروحي.

والأسطورة هي الجزء الحكائي من الدين أي قصص هذا الدين التي تدور حول الإله أو الآلهة أو الكائنات الإلهية وليس حول الناس وتاريخهم، فالدين يتكون من ثلاثة أجزاء الأول هو العقيدة وهو الجزء الفكري والثاني هو الأسطورة وهو الجزء القصصي عن الإله والثالث هو الطقوس وهو الجزء العملي. أما الفقه والأخلاق والشرائع فتكوّن، عادة، المكونات الثانوية لأي دين.

إن الأسطورة تموت بموت الدين الذي تتبع له ولا يعود لها أية قيمة دينية إذ تتحول إلى نوع من الأدب ولا يعود الإيمان بها موجوداً، لكن الأسطورة قد تنتقل من دين إلى آخر ولكنها، عند ذاك، تتحور وفق شكل الدين الجديد الذي انتقلت إليه ويصبح لها شكلٌ آخر رغم أن جوهرها الأساسي يبقى ماثلاً.

إن نظرتنا للأسطورة تتغير وفقاً لما نحنُ عليه من ثقافة وإيمان، فالكثير من الجهلة ينظرون إلى الأسطورة على أنها مجموعة أكاذيب وترهات. والكثير من المؤمنين المتزمتين ينظرون بقدسية إلى أساطير دينهم ويسمونها معجزات وينظرون بسخرية إلى أساطير الأديان الأخرى ويسمّونها

تفاهات. والكثير من أنصاف المثقفين ينظرون إلى الأساطير على أنها حقبةٌ منتهية من حياة الإنسان. أما العلماء فينظرون باحترام شديد لها ولا ينطوي هذا الاحترام على تقديس أو تسفيهٍ مغاليين لها، بل هي نظرة موضوعية لإحدى أهم نتاجات العقل البشري في الماضي.

وبعضهم يرى أن الأساطير اختفت من حياتنا الحاضرة لكنّ بنية إنتاج الأساطير في عقولنا ما زالت تتحكم بنا اليوم وبقوة. وهذا ما يدفع بقوة لفهم ودراسة الأساطير دراسة علمية عن طريق علم دراسة وتحليل الأساطير المسمى بالـ(مثولوجيا).

هناك من ينظر إلى الأسطورة باعتبارها واحدةً من أعظم إنجازات العقل البشري، فهي خزانته منذ أقدم العصور، إذ تضمنت العلم البدائي الذي جعل الإنسان يفسر ويحلل ما حوله وتضمنت الفلسفة الأولى التي جعلت الإنسان يتأمل الكون ومعناه وغاياته وما وراءه، وتضمنت الأدب الأول الذي عبّر به الإنسان عن مشاعره الأولى بمجازات واستعارات جزئية وكلية، ولم يصف ما يراه كما هو بل سمح لخياله أن يصوغ ما يقصّه بطريقة جذابة ومشوّقة، كذلك فقد تضمنت الأسطورة الروح الديني محكياً. وهكذا اجتمعت في الأسطورة أسس (العلم والفلسفة والأدب والدين) في صورتها الأولى الأشدّ قرباً إلى الناس وقتذاك، فهي إذن صفحة من صفحات العقل البكر للإنسان، التي تخفي نضارته وطفولته وأول تشوقاته لفهم وتفسير ما حوله. (١٥)

وتعمل الأسطورة على تبسيط الدين والمعتقدات الدينية، بل والطقوس في صيغة قصصية يفهمها الجميع، ولعل هذا أحد أسباب ظهور الأساطير في تلك المجتمعات القليلة التعليم والقليلة الثقافة. إن القصّ هو أبسط الوسائل لتقريب أعقد التصورات والمعتقدات الدينية كذلك فهي المقنعة لفهم معنى الطقوس التي يمارسها الإنسان المؤمن.

كذلك تعمل الأسطورة على ربط الإنسان بآلهته وعدم نسيانهم بل ومشاركتهم القداسة. ورغم أن الأساطير نماذج عليا بالنسبة للإنسان لكنها تتيح له مشاركة الآلهة باستعادة قصّها أو الاستماع إليها و«على الإنسان الديني في المجتمعات الابتدائية أن يحترس من نسيان الأساطير قوام (تاريخه المقدس): إنه إذ يعيد الأساطير في الحاضر فإنه يُدني آلهته ويشارك في القداسة. ولكن ثمة أيضاً (تواريخ إلهية) مفجعة لأن الإنسان يضطلعُ بمسؤولية جسيمة حيال ذاته وحيال (الطبيعة) حين يعيدها في الحاضر على وجه دوري»(١٦)

إن الإنسان حين يستعمل الأساطير في حياته اليومية فإنه يعلنُ عن رغبةٍ دفينة لديه بأن يشارك (المقدس) بل ويكون جزءاً منه أو يُشهر عن المقدّس الذي فيه ليراه في مرآة المقدس الذي حوله.

الأسطورة إذن هي هذه المرآة المقدسة التي تمكنه من رؤية المقدس الداخلي والخارجي والإحساس به. هذا بالنسبة لمن يؤمن بها (أو بالدين التابعة له) أما الذي لا يؤمن بالدين التابعة له فهي مرآة صادقة لتجليات إنسان كان ذات يوم يودُ كشف مقدّسه الداخلي أو الخارجي، إنها جرأة لا نستطيعها الآن ولذلك نقف أمامها بالكثير من التأمل والدهشة.

لا يوجد دين على وجه الأرض، سواء أكان بدائياً أم متطوراً، مشركاً أم موحداً، يخلو من الأسطورة. فهي الرئة التي يتنفس بها الدين وهي تفصح عن أدق مكنوناته بطريقة رمزية خفية. إنها السجل السريّ لذلك الدين لأنها تحوي شفراته ومجازاته على شكل سرد قصصي شعري خيالي قد يبدو، للوهلة الأولى، غير نافع أو أساسي في ذلك الدين لكنه يحمل أهمية استثنائية فيه.

تختلف الأسطورة عن الخرافة في أن بطل أو أبطال الأسطورة هم من الآلهة أو الكائنات الإلهية حيث يكون أبطال الخرافة من البشر أو الجنّ أو العفاريت، وتكون الخرافة مثقلة بالخوارق والمبالغات والأحداث البهلوانية، في حين تعبّر الأسطورة عن تناسق عميق ودفين وتتوازى أحداثها في إيقاع واضح وتأخذ خوارقها منطقاً معقولاً ومتوازناً. وتظهر الأسطورة كجزءٍ مقدس وعضويٍّ من الدين الذي تكون جزءاً منه، في حين لا تكون الخرافة جزءاً من الدين وليس لها أي علاقة عضوية به.

وتختلف الأسطورة عن الحكاية الشعبية في كون الأخيرة خالية من أي دور مركزي للآلهة والكائنات الإلهية فهي غير مقدسة وخارجة عن المنظومة الدينية العضوية حتى وإن كانت، في بعض الأحيان، ذات موضوعات دينية. لكنها على العموم فن أدبي دنيوي شعبي تجود به خيالات الناس عن ما يمر به الناس من أحداث وموضوعات تصلح لأن تكون مادةً للعظة والتندر واستنباط الدروس. إن الحكاية الشعبية تخلو من البعد الروحي وتندرج في ما هو يومي وعادي لكنها تكتنز بعفوية أفعال الناس ومسعى حياتهم. أما الأسطورة فعكس ذلك تماماً، فهي ترفع الحادثة العادية إلى المستوى القدسي وتكسبها بعداً يرتقي بها إلى كونها الأصل وكذلك تبدو التفاصيل الأخرى وكأنها تاريخ مقدس. ويقول مرسيا إلياد إن «رواية تاريخ مقدس تحاول إماطة

اللثام عن سرٍّ، لأن أشخاص الأسطورة ليسوا بكائنات بشرية: إنهم آلهة أو (أبطال) أسسوا حضارات، ولذا فأن حركاتهم تؤلف أسراراً وليس في وسع إنسان أن يعرفهم لو لم يُكشف له أمرهم. وعلى هذا فأن الأسطورة هي تاريخ ما قد جرى في ذلك الزمان، حكاية ما صنعت الآلهة أو الكائنات الإلهية في بدء الزمان، وإن (قول) أسطورة هو إعلان ما حدث منذ الأصل. وعندما (تُروى) أسطورة، أي تُكشف، فإنها تصبح حقيقة دامغة. إنها هي أساس الحقيقة المطلقة»[١٧]

وتختلف الأسطورة عن الملحمة في كون الأخيرة ترتكزُ على سيرة بطل من البشر يمكن أن يكون بطلاً قومياً أو شعبياً وتظهر الآلهة، أحياناً، كعامل مساعد له. وتمتاز الملحمة بطولها وكثرة أحداثها والأزمات الطبيعية والمفتعلة التي يمرّ بها البطل لكي يحوز شيئاً أو يصل إلى شيء. وقد تمتلك الملاحم الكبرى نسقاً داخلياً متوازناً لكنها قد لا تكون كذلك دائماً. الملحمةُ تثير فينا الحماسة والمتعة والخيال ولكنها لا تثيرُ فينا القدسي والروحي، وهذا هو فرقها عن الأسطورة.

الأسطورة والتاريخ:

ويطيب لنا أن نؤكد على التلاقي والاختلاف بين الأسطورة والتاريخ لحاجتنا الماسة لذلك في كتابٍ كهذا، وقد ذكرنا شيئاً عن التاريخ المقدس واعتبرنا الأسطورة تاريخاً مقدساً أي التي تروي تاريخ الآلهة أو تاريخ الروح. وهذا يعني أن التاريخ متى ما كان روحياً إلهياً فإنه يلتقي مع الأسطورة، لكنّ التاريخ عندما يصف الأحداث اليومية التقليدية لحياة الناس والشعوب بأنه يتقاطع كلياً مع الأسطورة. إن الأسطورة في أساسها مضادة للتاريخ، فهي تحاول تخليص الإنسان من المسرى الآلي لحركة التاريخ وتسعى لنقله إلى (سكون الزمان) حيث يتوقف التاريخ ويشعر الإنسان أنه ينتمي للأبد وليس للتاريخ.

لقد قدّمت الأسطورة حلولاً كثيرة للإنسان التقليدي لكي يتحمل عبء التاريخ وكيفية حماية نفسه من التاريخ وبشكل خاص في الطقوس الدورية ومنها الأعياد الدينية فحين تُقرأ أسطورة الخليقة البابلية في أحد أيام عيد رأس السنة البابلية (أكيتو) فإن ذلك يعني إلغاءً سنوياً دورياً للتاريخ الكرونولوجي واستحضار ولادة الكون من قبل الآلهة وتجديد ولادة الزمان في وهلةٍ لا تاريخية، إنه استعادة للتاريخ الاسطوري الذي صنع فيه الآلهة العظام الكون والإنسان وحدّدوا مصيرهما. لقد قدّمت الأسطورة عزاءً للمحتفلين بأنهم أبناء تلك الوهلة اللاتاريخية

وأنهم جاءوا من لحظة سرمدية وقذفوا في تاريخ لعين آسر يمكنهم التخلص منه عن طريق أعياد طقسية أسطورية تستعاد فيها الأحداث ثانهية وتُمثَل على شكل دراما دينية لمدة أثني عشر يوماً.

لقد عملت أغلب الشعوب القديمة على التخلص من التاريخ عن طريق الأسطورة أو على جعل التاريخ تجلياً أسطورياً إلهياً بابتكار ما يسمى بـ (التاريخ الأسطوري) الذي لا تحكم أحداثه الحقيقة الواقعية بل الشحنة الروحية والإلهية التي يتبناها ذلك الشعب.

كان العبريون، كلما حلّت بهم كارثة تاريخية، كانت في نظرهم عقاباً ينزله بهم (يهوا) الغاضب من عظم الذنوب التي كان يقترفها شعبه المختار. ما من هزيمة عسكرية كانت عبثاً، وما من عذابٍ كان لغواً، لأن وراء الحدث دائماً كانت إرادة يهوا. حتى ليمكننا القول إن هذه الكوارث والنكبات التي كانت تنزل بهم كانت (ضرورية) لأنها مقدّرة من الله حتى لا ينحرف الشعب اليهودي عن مصيره المرسوم له عندما يتخلى عن موروثه الديني الذي عهد به موسى إليه.[١٨]

أما المندائيون فكانوا يعتبرون أي كارثة تاريخية تحل بهم فهي إنما مدبرة من عالم الظلام ومن الروها والكواكب السبعة فهم الذين يغوون أعداءَهم من جهة ويديرون الخطط للإيقاع بالناصورائيين ولإغواء الروح (نيشمتا) لكي تنسى أصلها السماوي. إنهم يعتبرون الكوارث التي تحل بهم جزءاً من الصراع الأبدي بين عالمي النور والظلام. أي أن المسببات الحقيقية لمسرى التاريخ تهملُ ويصارُ إلى ابتكار تاريخ أسطوري تتحكم به قوى خفية ن عالمي الظلام أو النور.

إن كل الأعياد المندائية، على سبيل المثال، هي استعادة طقسية أسطورية للماضي الأزلي يوم كان عالم النور موجوداً بكائناته وآلهه فالتعميد الأول حصل هناك والزواج الأول والولادة الأولى وكل شيء. لذلك أصبح لهذا (الماضي المقدس) الخارج من ربقة التاريخ القدرة على تجديد الزمان من خلال هذه الأعياد. لكن المندائيين ابتكروا شيئاً آخر وهو أن المستقبل يمكنه أن يجدد الزمان، أي أن المستقبل يمكن أن يعيد للزمان نقاءه وكماله كما كان في الماضي وبذلك أصبح تجديد الزمان ممكناً بالعودة إلى الماضي الأسطوري (حيث يلغى التاريخ رجوعاً) أو بالذهاب إلى المستقبل الأسطوري (حيث ينتحر التاريخ أماماً). وفي كلا الحالين يتوقف التاريخ الكرونولوجي لصالح التاريخ الأسطوري وتصنعُ الأسطورة تاريخاً ساكناً إذا صح التعبير. هذا التاريخ المعلق في

يدي الأزل (الماضي) والأبد (المستقبل).

والسؤال هو: كيف يُصنعُ تاريخ المستقبل؟

إن صناعة تاريخ المستقبل تتم عن طريق التنبوء بالأحداث من جهة ثم الوصول إلى انتحار التاريخ في آخر الشوط من جهة أخرى. فقد وضع المندائيون في (حران كويثا) تاريخاً اسطورياً فذاً في الماضي وفي المستقبل. وكان رسم مصير البشرية الرابعة في كتاب كنزا ربّا اليمين ونهاية الأرض وفنائها نوعاً من تاريخ المستقبل الذي يضمن صعود الأرواح الخيرة إلى عالم النور وهبوط الأرواح الشريرة إلى جحيم عالم الظلام. إنها لحظة فريدة قادمة ستكون خارج التاريخ الكرونولوجي أيضاً.

هكذا تنشط الأسطورة ضد التاريخ الكرونولوجي ولصالح تاريخ مؤسطر البداية والنهاية أما ما بينهما فالأعياد الأسطورية كفيلة بألغاء الأحداث المزمنة التقليدية. وبذلك يكون كفاح الأسطورة ضد التاريخ قد امتص التاريخ كله لصالح الأسطورة ونتج عن ذلك ما يسمى بـ(التاريخ الأسطوري) الذي تضعه الشعوب لنفسها وتدوّنه على شكل كتب مقدسة مثلما فعل المندائيون والعبريون والهنود والصينيون والأغريق وبطبيعة الحال شعوب وادي الرافدين ومصر.

ثانياً: المثولوجيا:

المثولوجيا هو علم دراسة الأساطير، يتكون هذا المصطلح من مقطعين: الأول هو (مِث Myth) المشتق من الجذر اليوناني **Muthas** أي حكاية أو من الجذر **Mythos** الذي يعني قصة غير واقعية. أما المقطع الثاني فهو (**Logy**) الذي يعني العلم أو الدراسة العلمية وهو مشتق من الجذر اليوناني (**Logos**) الذي كان يشير إلى مبدأ استعمال العقل دون غيره في الدراسة والتحليل. وبذلك يكون المعنى الحرفي لمصطلح ميثولوجيا هو الدراسة العلمية للأساطير.

كان أفلاطون أول من استعمل هذا المصطلح بصيغة **Mutholagia** للدلالة على فن رواية القصص الخيالية التي نسميها اليوم بالأساطير. ثم شاع استعمال المصطلح في الثقافة الأوروبية المعاصرة.

وقد ظهرت، تاريخياً، ثلاث حُقب لدراسة الأسطورة أو الميثولوجيا، الأولى تضم مجموعة

من الفلاسفة الأغريق والرومان مثل زينوفون ويوهيميروس رأى فيها الأول أن الآلهة تشبه البشر لأن البشر انتجوا هذه الآلهة ولو انتجتها الحيوانات لكانت الآلهة على أشكال الحيوانات، والثاني رأى في الأساطير تاريخاً مشوشاً فقد كان الآلهة ملوكاً وأبطالاً رفعوا إلى منزلة الآلهة بعد موتهم.

أما الحقبة الثانية فقد بدأت منذ عصر النهضة وحتى القرن التاسع عشر ويدأها فرانسيس بيكون الذي رأى في شخصيات الأساطير مجازات فلسفية وعقلية وطبيعية، وكذلك رأى توماس تايلور أنها روايات مجازية أما دي برويه فرأى أن الأساطير المصرية هي بقايا عبادة الحيوانات لانتشار العنصر الحيواني فيها، ورأى كروزر أنها نوعٌ من أنواع التعاليم الدينية المبسطة أو المصورة وهكذا.

في الحقبة الثالثة ظهرت المدارس العلمية الحديثة للمثولوجيا والتي قادها علماء كبار منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ووضعوا الأسس العلمية لدراسة الأسطورة وتنقسم هذه المدارس إلى:

١ . **المدرسة اللغوية**: رأي (ماكس مولّر) أن الأساطير صورٌ فكرية يتم رسمها بواسطة اللغة وهي ليست صور عادية بل هي صور مرضية، ولذلك قال بأن الأسطورة هي مرض لغوي. إنها، في الأساس، إنحرافات لغوية تمّ التعبير عنها بواسطة صور وحكايات غير قياسية أي مريضة هي الأخرى. وقد رأى بأن نوع المفردات اللغوية وجنسها هو الذي يحدد نوع الأسطورة وأبطالها. وأن الشمس هي الموضوع المركزي الذي دارت حوله الأساطير وأن أغلب الآلهة لها علاقة بالشمس فيما رأى آخرون من مدسته أن الطقس هو الموضوع المركزي.

٢ . **المدرسة الأنثروبولوجية**: أوجد (إدوارد تايلور) علاقة بين الأساطير والرموز في المجتمعات البدائية بسبب عبادة الأرواح السائدة فيها، فالآلهة والكائنات العليا ترمز أو توازي أو تعادل ما في الطبيعة من مادة وهكذا تظهر الأساطير مثل حقول رمزية موازية للحقول المادية للطبيعة وبهذا يحصل الإنسان على توازن بين الروح والمادة. أما هربرت سبنسر فرأى أن أساطير الطبيعة نوع من عبادة الأسلاف التي نشأت عن سوء فهم اختلطت فيه شخصياتهم مع مظاهر الطبيعة والحيوانات وبذلك اتّخذت هذه أسماء الأسلاف ونشأت أساطيرها.

أما (وليام روبرتسون) فرأى أن الطقوس والشعائر هي الثابتة والملزمة وهي التي نشأت قبل الأساطير المتغيرة وغير ملزمة التصديق. وعلى دارسي الأساطير دراسة الشعائر أولاً لكي يصلوا

إلى تفسير الأسطورة.

وخرج عن الطور (أندرو لانج) فرأى أن هناك فرقاً بين الدين والأسطورة لأن الدين ظهر نتيجة تأمل واعٍ بينما الأسطورة ظهرت نتيجة خيالٍ شارد وهذا يعني أنه أخرج الأسطورة من الدين، وأختلف مع تايلور فأخرج الآلهة من الأرواح وقال أنها لا تنشأ منها.

أما (السير جيمس فريزر) فقد عزا إلى السحر نشوء الأسطورة والدين، وقد وضع في موسوعته الأسطورية الانثروبولوجية دورات النباتات والأساطير وآلهتها وخلط بين الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية.

وفصل (كلود ليفي شتراوس) بين الأسطورة والسياق الاجتماعي الذي ظهرت فيه ورأى أن الأسطورة لغة رمزية ونظام رمزي إشاري كامل وأن التفكير الأسطوري ليس متخلفاً أو سابقاً على المنطق بل هو تفكير منطقي شديد التماسك. وركزّ شتراوس على شكل الأسطورة وأهمل مضمونها وراهن على فهم مغزى الأسطورة من خلال تحليلها إلى وحدات صغيرة ترسل إشارات متجانسة ضمن رسالةٍ واحدة بعضها يصعِّد الحدث وبعضها يخفضه ومن هنا ينشأ الصراع. ويرى شتراوس ضرورة دراسة الأساطير مجتمعة وليس كل واحدةٍ على حدة.

٣ . **المدرسة الوظيفية**: يرى (مالينوفسكي) أن الأسطورة ظهرت نتيجة حاجة عملية أملتها ظروف الإنسان وإرادته في صنع قضيةٍ محددة. أي أنه يجعل من الغايات العملية سبباً لنشوء الأسطورة ولا يحمّلها الأبعاد النفسية أو الانثروبولوجية أو الدينية بل يحمّل الحاكم والكاهن والزعيم مسؤولية ظهور الأساطير لأنها تعطيه سقفاً عقائدياً وشعبياً لاستمرار دوره، إن هناك أسباباً وظيفية وراء نشوئها وليس أيّ شيء آخر.

٤ . **المدرسة النفسية**: بدأها (سيغموند فرويد) عندما وجد تشابهاً كبيراً بين الحلم والأسطورة وقال بأن كليهما مشحونان بالرموز لكن الفرق بينهما أن الحلم فردي والأسطورة جماعية فهو يكشف عن مدفونات الفرد وهي تكشف عن مدفونات الجماعة. أما (كارل غوستاف يونغ) فرأى أن الأساطير نصوص حلمية لا شعورية للمجتمعات القديمة ويمكن تحليلها نفسياً للكشف عن الرموز الإنسانية المشتركة التي ما زالت تلعب دوراً خفياً في تحريك حياة الفرد أو الجماعة. لكنّ (أريك فوم) رأى أن الأسطورة مكانٌ للصراع بين النظام الأمومي والنظام الأبوي،

ففي كل أسطورة أمٌّ مهزومة أو غالبة وأب غالبٌ أو مهزوم.

وهناك مدارس أخرى في طور التشكل تحاول فك ألغاز الأساطير وتحليلها والوصول إلى مستوى معقول من الحقيقة يُلقي الضوء على التجربة الروحية للإنسان.

لقد لاحظنا أن المثولوجيا استخدمت أدوات لغوية وأنثروبولوجية واجتماعية ونفسية من أجل تحليل الأساطير والوصول إلى جوهر ما تعنيه أو تعبر عنه، وكلّها أدوات علمية نضجت في حقولها أولاً ثم استخدمتها المثولوجيا لتشكّل عدة بحثية خاصة بها. ومع ذلك فما زال هناك متسع كبير في العلوم الإنسانية الأخرى لكي توفر عدداً وآليات جديدة لإغناء حقل المثولوجيا العلمي.

إن مناهج البحث الحديثة ما بعد البنيوية يمكن أن تقدِّم أيضاً، في هذا المجال، خدمات كبرى فالتفكيكية يمكن أن تمنح للمثولوجيا آفاقاً كبيرة وكذلك التأويلية (الهرمونانيتكا) والسيميائية (السيميولوجيا) والأمبريقية (التجريبية)، كلها أدوات بحث تصلح للمثولوجيا مثلما تصلح للأدب.

إن نقلة هائلة تنتظر علم الأساطير (الميثولوجيا) من خلال احتكاكه بالعلوم الإنسانية الحديثة من جهة وبمناهجها من جهة أخرى وهو ما سيحمله لنا المستقبل وما ستنتجه العقول المتحفزة الجديدة من آفاق لم نكن نفكر بها سابقاً.

ثالثاً: تصنيف الأساطير:

قد تكون من أولى مهمات المثولوجيا هو وضع تصنيف للأساطير يكون تحليلها بموجبه أكثر يسراً، كما يعمل ذلك على وضعها في خانات متشابهة يسهّل المقارنة بينها وإن كانت متباعدة في الزمان والمكان.

لقد جرت محاولات كثيرة لتصنيف الأساطير لا نود عرضها بإسهاب أو بإيجاز لأن كتابنا هذا لا يمكن أن يتناول كل شيء عن الأساطير وهو المخصص لدراسة وتحليل الأساطير المندائية فقط. لكننا نود أن نشير إلى الفساد الكبير الذي دب في حقل تصنيف الأساطير بسبب خلط الباحثين والمصنّفين بين الأساطير والملاحم والخرافات والحكايات الشعبية وهو ما نحذر منه دائماً.

جرى تصنيف الأساطير أولاً حسب هويات الشعوب التي أنتجتها فنقول بأن هناك أساطير سومرية وبابلية ومصرية وهندية وصينية وإغريقية.. إلخ ثم جرى تصنيفها حسب مضامينها فنقول

أن هناك أساطير كونية وتعليلية وحضارية ورمزية وبطولة مؤلهة. أو أساطير خليقة وطوفان وعالم أسفل وخصب..إلخ ثم جرى تصنيفها حسب مكونات الطبيعة فنقول أن هناك أساطير الإنسان والحيوان والنبات والكواكب والأنهار والجبال..إلخ

ثم جرى تصنيفها حسب ارتباطاتها فنقول أن هناك أساطير سحرية وأساطير عرافة وأساطير أرواح وأساطير طواطم وأساطير بطولة وأساطير موت وأساطير شعبية..إلخ

والحقيقة أن كل هذه التصنيفات لم تكن مقنعة لأنها لا تقوم على أسس دقيقة ولا تضع الأساطير في مكانها الصحيح. وقد قدّمنا في أكثر من كتاب محاولات متواضعة لوضع تصنيف شامل للأساطير يرتكز على أسس علمية وحاولنا أن نعمل بهذا التصنيف ونرسخه في الكتب والإصدارات التي ننشرها فوجدناه سهل التطبيق وقد أعطانا نتائج جيدة على مستوى التحليل والمقارنة وتصنيفنا يستند على أساسين بديهيين هما :

أ ـ تصنيف أساطير العالم على أساس جغرافي تاريخي نتمكن من خلاله فرز هويات هذه الأساطير وحصر التقاربات المكانية والزمانية بينها ، وقد عرضنا هذا التصنيف في كتابين سابقين ولا بأس أن نعيده هنا سريعاً مع بعض الإضافات :

١ ـ أساطير ما قبل التاريخ وتشمل أساطير الباليوليت والميزوليت والكالكوليت وتعتمد على تحليل الصور والآثار واللقى.

٢ ـ أساطير جنوب وشرق المتوسط (الأساطير السامية وما رافقها) وتشمل الأساطير الرافدينية من سومرية وأكدية وبابلية وآشورية وآرامية وعيلامية وأمورية وكنعانية/ فينيقية، المصرية، العربية قبل الإسلام، اليمنية، الفارسية.

٣ ـ أساطير شمال المتوسط (الأساطير الإيجية والأوربية القديمة) وتشمل الأساطير الكريتية، الحيثية ـ الحورية، الأغريقية، الرومانية، الأوروبية القديمة كالجرمانية والسلتية والتيوتونية والسلافية والفينو أورغية والأوقيانوسية.

٤ ـ أساطير الشرق الأقصى وتشمل الأساطير الصينية، اليابانية، الهندية.

٥ ـ أساطير أمريكا القديمة وتشمل أساطير المايا ـ يوغتان وغواتيمالا ، الأنكا ـ بيرو ، الأزتيك، المسكيك.

٦ ـ الأساطير البدائية المعاصرة وهي أساطير الأقوام والقبائل البدائية التي ما زالت تعيش على سطح الأرض وتشمل أساطير الأقوام البدائية في استراليا ونيوزلندا، الهنود الحمر والأقوام البدائية في اميركا، الآسيوية، الأفريقية تحت الصحراء.

٧ ـ أساطير الديانات الموحّدة: وهي أساطير الديانات المندائية، اليهودية، المسيحية، الإسلام.

ب ـ تصنيف الأسطورة بذاتها على أساس دوري يبدأ بالخلق وينتهي بالموت، ويأخذ هذا التصيف بنظر الاعتبار مضمونها المتساوق والمرتبط بالذي بعده، ولذلك تبدو الأساطير مترابطة وكأنها تشكل أسطورة كبرى واحدة تبدأ بالخلق ثم العمران ثم الخراب ثم الموت. إن هذه المحطات الأربع يمكن أن تضم كل الأساطير في دائرة واحدة متسلسلة مترابطة. فكأن الأساطير تشكل دائرة تدور فيها الأحداث الأسطورية في سياق قدري يبدأ من نقطة ويستمر بأخرى وينتهي بالأخيرة وهكذا. وتصنّف الأساطير في هذا التصنيف الدوري كما يلي:

١ أساطير الخليقة (التكوين) Gensis وتشمل:

أ ـ أساطير نشوء الكون (النشكونية) Cosmogony أي خلق الكون وعوالمه.

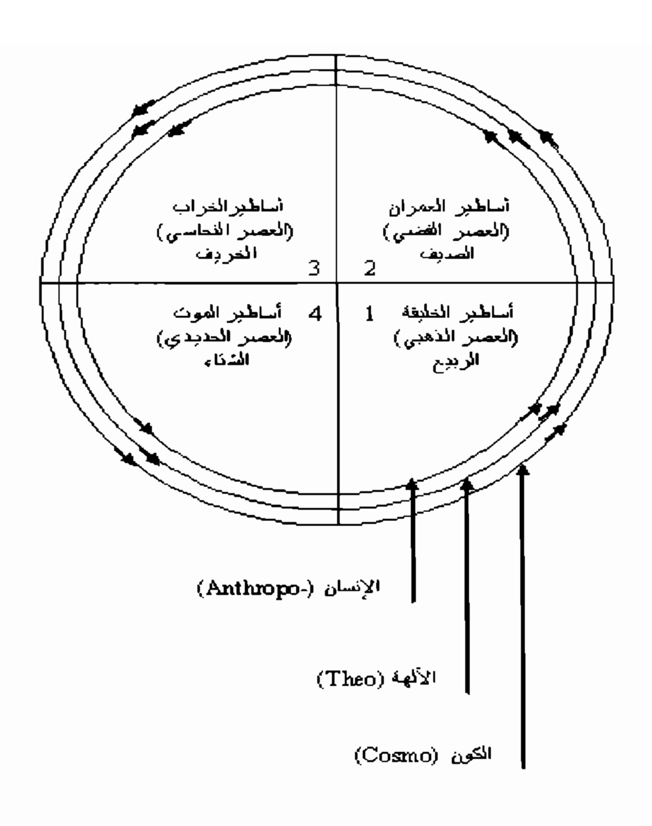
ب ـ أساطير نشوء الآلهة (الثيوغونيا) Theogony أي ظهور الآلهة وأنسابها.

ج. أساطير نشوء الإنسانAnthropogony أي أساطير خلق الإنسان.

٢. أساطير العمران: Construction or Organization وهي أساطير عمران الكون والآلهة والإنسان بعد الخليقة ومنها أساطير المكان ونشوء المدن والمعابد والتكريس والأبطال المؤلهين.

٣. أساطير الخراب: Deconstruction or Deorganization وهي أساطير الخراب والتحلل وبدايات الموت والاضطراب والعقابات الجماعية للبشر من قبل الآلهة وتضم أساطير خراب الكون والآلهة والإنسان.

٤. أساطير الموت والفناء Death وتسمى أيضاً الأساطير الاسكاتولوجية Eschatology فهي تشمل أساطير موت وغياب الكون والآلهة والإنسان وتضم أساطير الطوفان والحريق الأكبر والعواصف والزلازل ونهاية الأرض وغيرها.



شكل (٢)
التصنيف الدوري للأساطير
الذي نقترحه

في هذا الشكل الذي يمثل التصنيف الدوري للأساطير الذي نقترحه في هذا الكتاب نلاحظ ثلاث دوائر أساسية هي دوائر (الكون Cosmo ، الآلهة Theo ، الإنسان Anthropo) تنقسم إلى أربع قطاعات تمثل أنواع الأساطير. في القطاع الأول تظهر أساطير الخليقة للكون والآلهة والإنسان وهي بمثابة أساطير العصر الذهبي أو أساطير ربيع العالم. وفي القطاع الثاني تظهر أساطير عمران الكون والآلهة والإنسان وهي بمثابة أساطير العصر الفضي أو أساطير صيف

العالم. وفي القطاع الثالث تظهر أساطير خراب وعذاب الكون والآلهة والإنسان وهي بمثابة أساطير العصرالنحاسي أو أساطير خريف العالم. وفي القطاع الرابع تظهر أساطير موت الكون والآلهة والإنسان وهي بمثابة أساطير العصر الحديدي أو أساطير شتاء العالم.

إن التساوق الذي يميز دائرة الأساطير هذه هو الذي يدفعنا للعمل بها كمنهج مثولوجي. وسنطبقها في هذا الكتاب على الأساطير المندائية تطبيقاً كاملاً.

رابعاً: أساطير وادي الرافدين ـ أصولها . تاريخها . تلازمها:

نحن من المؤمنين بأن الأساطير الرافدينية التي وصلتنا مدونةً على الألواح الطينية كانت تمثل المرحلة الأخيرة من صياغاتها المتكررة. فقد نشأت تلك الأساطير من أنوية (جمع نواة) صغيرة كانت تلخِّص جوهر الإله المعني في الأسطورة مع حدث واحد أساسي يمثله جوهرياً، ثم كبرت كلّ نواة بفعل التداولات الشفاهية التي كان يقوم بها الكهان والمتعبدون ونمت لكل نواةٍ سيقانٌ وجذور وأغصان وثمار، وبذلك اكتملت شجرة كل أسطورة شفاهياً على مر المئات من السنين. بعدها بدأت هذه الشجرة بالتهذيب ودخلت مرحلة النحت والتزويق والتعديل حتى جاء التدوين فأعطاها شكلها الأخير وبذلك تكون الأسطورة نتاج خميرة معتّقة بقيت تعمل لمئات بل وربما لآلاف السنين حتى ظهرت بالشكل الأخير المدوّن الذي وصل لنا. وربما، تكون وهي في طريقها إلى هذا الشكل الأخير، قد تبرعمت وانتجت أسطورة جانبية من جذعها الأصلي نمت هي الأخرى في اتجاه جديد وربما نحو إله آخر أو شعب آخر مجاور.

يمكننا القول والحالة هذه بأن تاريخ أية أسطورة يمر بالمراحل الآتية:

١ ـ نواة الأسطورة: الإله والحدث الأولي الذي يجسد أحد صفاته

٢ ـ خلية الأسطورة: تفاصيل الأسطورة

٣ ـ تهذيب الأسطورة: الحث والتعديل والتزويق الذي يجري عليها جماعياً

٤ ـ تدوين الأسطورة: الشكل الأخير لها عن طريق كتابتها

٥ ـ نهاية الأسطورة: وتكون بنهاية الدين التي هي جزء منه وقد تتحول إلى نمط أدبي دنيوي أو تكون جزءاً من ذلك النمط كأن تتحول إلى حكاية شعبية أو خرافة أو ملحمة شعبية.

الاساطير الرافدينية بدأت، من وجهة نظرنا، من أنوية صغيرة ظهرت في الثقافات النيوليتية

في شمال وادي الرافدين وهي ثقافات (جرمو، حسونة، الصوان، سامراء) وفي العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) ظهرت التفاصيل السردية للأساطير مع حدوث أنقلاب كبير فيها زحزح الإلهة الإم والإلهة العذراء من مكانهما. وخضعت الأسطورة منذ الألف الخامس قبل الميلاد وحتى تدوينها إلى النحت والتعديل الجماعي الذي هذبها حتى استقرت الكتابة في مرحلتها الرمزية في حدود ٢٥٠٠ ق.م فبدأ تدوين الأساطير وثبت شكلها عند ذاك.

كانت الأساطير النيوليتية تتركز حول الإلهة الأم التي كشفنا عن اسمها آنذاك في كتبنا السابقة ورأينا أن اسمها هو (م) الذي كان يلفظ بحركات إعرابية مختلفة وكانت هذه الأساطير تؤكد على الخصب الانثوي فالأرض أنثى والسماءُ أنثى والكائنات نتاج هذه الأم العظيمة.

أما في الأساطير الكالكوليتية فقد بدأ مركز الأساطير بالتغير نحو الأب (ب) والإبن (س) وشيئاً فشيئاً وضعت الأم الكبرى في الهامش بل وتحولت إلى غولةٍ ومصدر للظلام والشر والقبح والمرض كما في (تيامت) وأحياناً تحولت إلى رجلٍ شرير وقابل للهزيمة مثل (يم) الكنعاني. وقد قرّب الإله الأب ثم الإله الإبن الإلهة العذراء (بت) أو (ست) التي كانت تجلب المتعة لهما. إذ لم تعد خصائص الأم الخصيبة مغرية كما كانت، وهكذا أصبحت العذراء تابعة للأب أو للإبن.

وفي هذه المرحلة ظهرت أساطير الشعوب الرافدينية التي نزحت من الشمال الرافديني إلى السهل الرسوبي وكوّنت لها كيانات كبرى مثل (السومريون، الأموريون، السوبارتيون..إلخ) لكن الأساطير السومرية وحدها هي التي أُنقذت من الضياع بسبب تدوينها في الألف الثالث قبل الميلاد وما بعده، ولم تنج كلّ أساطير سومر من الضياع بل أن الجزء الأكبر منها لم يدون أو تلفت ألواحه أو لم يعثر عليه حتى الآن.

هكذا أصبحت الأساطير السومرية أول أساطير وادي الرافدين المدونة بل وأول أساطير العالم المدونة، وقد دلت الدراسات المقارنة على أنها كانت أصل الأساطير الأساسية في العالم القديم بأكمله.

إن الأساطير السومرية تمتاز بالعمق والعفوية والصدق وبالتحامها الفطري مع الطبيعة ومع رغبات الإنسان ومكنوناته. وهي بالإضافة إلى هذا كله مدونة بطَريقة (العفوية الجماعية) التي نعني بها احتواءها على نضج وروح الجماعة البشرية الواعية واللاواعية فهي تكتنز بالنماذج العليا (الاركيتايب) وبالرموز المشحونة، والأهم من ذلك بطريقة القول الجماعية المميزة والتي

تبدو وكأنها أناشيد وأغانٍ كان يرددها الناس ويعيدون تكرار بعض مقاطعها. ولذلك نقول أن هناك فرقاً شاسعاً بين الأساطير السومرية والأساطير الأغريقية، فالأخيرة كتبها شاعرٌ أو شاعرين هما (هوميروس وهسيود) وجمعاها من حكايات الشعب ولكنهما تدخلا في صياغتها، وأعلنا أسميهما كمؤلفين لهذه الأساطير عبر (الإلياذة والأوديسة وأنساب الآلهة وغيرها) وهو ما أفسد عفويتها الفطرية الكاملة وهي تنتقل بين أفواه الناس والكهّان وجعلها تأخذ شكلاً أبدياً محدداً، وفعل مثلهما أوفيد الروماني في (مسخ الكائنات وفن الهوى) بشكل خاص فقد ظهرت لغته الأدبية والشعرية هو أولاً ثم ظهرت مضامين الأساطير.

أما الأساطير السومرية فهي مثل الينابيع البكر، إنها مثل أول شقشات الفجر تنفتح وكأنها أزهار برّية. وضعها الكهان النساخ دون تدخل كبير منهم، لقد نقلوها من مراحلها العفوية الأخيرة وهي تكتمل شكلاً ودوّنوها دون أن يدّعوا أن لهم أي فضل تأليفي (مثل هوميروس أو أوفيد)، أنها أساطير الشعب السومري، أساطير دينه القديم الذي يجب المحافظة على قدسيته وتقديم الخدمة له دون الإعلان عن نوع هذه الخدمة.

هكذا جمعت الأساطير السومرية مدونةً أما أساطير الشعوب الرافدينية الأخرى التي تعايشت مع السومريين مثل السوبارتيين والأموريين فقد انتظرت زمناً آخر لتظهر أساطيرهم مدوّنة في المتون الأكدية والبابلية، على التوالي، بسبب الظهور السياسي لهذين الشعبين لاحقاً. أما الشعوب الأخرى التي لم يكن لها وضع سياسي راسخ، مثل الناصورائيين، فقد ظلّت أساطيرهم شفاهية حتى قرون قريبة قبل الميلاد اضطروا إلى تدوينها بلغةٍ وكتابةٍ جديدتين اسمها الآرامية التي أخذت خصوصيتهم فسميت بالمندائية فتحول سم الدين والشعب، كليهما من ناصورائي إلى مندائي.

إن الأساطير الأكدية ثم البابلية والآشورية قدّمت الشكل الأخير المعلن والظاهر للأساطير السومرية وهو شكل معاد الصياغة ومضاف له الكثير من قبل هذه الشعوب الثلاثة (الأكديون، البابليون، الآشوريون). أما الطبقة السرّية للأساطير السومرية الناصورائية فقد قدمتها لاحقاً الأساطير المندائية في شكل فريد ونادر.

كانت الأساطير السومرية قد انقسمت إلى حقلين كبيرين سيطر على الأول الإله الذكري الحاكم وصاحب السلطة والقوة (إنليل) إله الهواء والطقس ومن تبعه وسيطر على الثانية الإله

الذكري الرحيم والمعني بالحياة والخصب (إنكي) إله الماء والحكمة ومن تبعه (أنظر شجرة أنساب الآلهة السومرية في كتابنا ـ متون سومر ـ). وقد جسّدت أساطير كلٌ من الإلهين وتصادمهما المتن الرئيسي للأساطير السومرية.

في الفترة الأكدية صعد إله الشمس (شمش) من الحقل الإنليلي وصبغ لون الأساطير الأكدية وصعدت معه عشتار بثيابها الحربية وصعدت رموز القتال الإلهية (نيركال، زيابا، أرشكيكال.. إلخ) وعاد الأكديون صياغة وترتيب بعض الأساطير السومرية بالإضافة لأساطيرهم الخاصة المنحدرة من السوباريين.

أما في الفترة البابلية فقد صعد إله شمسي آخر هو (مردوخ) وحل محل إنليل السومري وأخذ صفاته، ويبدو أن ملحمة الخليقة الإنليلية المشظاة (وغير المدونة) قد أُعيد لحمها وتسقيطها كملحمة خليقة مردوخية بابلية. وكذلك أُعيد صياغة أسطورة نزول إنانا بطريقة عشتارية جديدة وكذلك غيرها من الأساطير بل أن ملحمة سومرية مشظاةً، هي الأخرى، مثل ملحمة جلجامش تحوّلت إلى ملحمة جديدة حيّة بابلية صارت سلوى الحكّائين البابليين ومصدر البطولة والمغامرة للكثير من ملاحم الأبطال في العالم.

واستمر النسج والتلاحم في أساطير وادي الرافدين في المرحلة الآشورية حيث تم استبدال القليل من الأسماء البابلية بأخرى آشورية مثل استبدال مردوخ بآشور في ملحمة الخليقة الآشورية وصار التأكيد على الإيقاع الحربي والقتالي في الأساطير منسجماً مع حياة الآشوريين وفتوحاتهم العسكرية.

كانت الأسطير الرافدينية مثل سبيكةٍ من الذهب والفضة والنحاس والحديد، أربعة عناصر سومرية وأكدية وبابلية وآشورية، جمعت دورة الزمان واختلطت أشكالها في أيقونات خلاسية أخّاذة.

وكان سقف هذه الأساطير الظاهرة يقطرُ الندى. والضوء على باطن استمر سرياً وصامتاً هو الباطن الناصورائي المندائي حيث كانت تجري تحولات من نوع آخر فالآلهة تتوارى لصالح إله واحد وتتحول إلى ملائكةٍ وكائنات نورانية يُعاد سبك حركتها فتتوارى فيها الأشكال القديمة للآلهة وتظهر اسماءٌ هجينة جديدة حتى إذا ما جاءت المرحلة الآرامية بعد الدولة البابلية الحديثة وسقوطها ليتم التخمير الأخير لهذه الأساطير والعقائد السرية وتظهر، بعد ذلك، قرابة القرن الميلادي الأول بألوان جديدة لتغزو الشرق والغرب على شكل عقائد وأساطير غنوصية كان اسمها الأصلي هو (مندا) الذي دفن تحته اسماً متوارياً هو (ناصورا).

المبحث الثالث
الأساطير والمثولوجيا المندائية

أولاً : الأساطير المندائية وعلاقتها بالأساطير الرافدينية :

رأينا في الصفحات السابقة كيف أن الأساطير المندائية نمت بسريّة تحت أدمة الأساطير الرافدينية وقد أخذت منها الكثير بل وتواشجت معها. فالإلهة الأم المندائية وهي (روها) أُزيحت، هي الأخرى، من مركزها إلى الهامش ودفع بها لتكون في عالم مظلم هو عالم الظلام وماء الظلام الذي هو ماء الأهوار، إذ كانت الأهوار المحيطة بالمندائيين مكان الشر والظلام وكان ماؤها الأسود مادةً للتعبير عن إلهة سوداء معتمة هي (روها) بل لعلنا نجد العلاقة اللفظية حتى هذا اليوم بين كلمتي (روها) و(الأهوار) حيث روها هي مقلوب كلمة أهوار. وإذا كانت الإلهة الأم عند السومريين هو (نمّو) التي تعني (مياه الأم) وعند البابليين هي (تي آمت) أي (أم الحياة) وكلتاهما كان يشير إلى البحر، فإن الإلهة الأم عند المندائيين أشارت إلى المعاني كلها فهي (مياه الأم) أي الهور وهي أم الحياة لأن في اسم روها ما يدل على الحياة من المقطع (ها) وهكذا عبّر المندائيون عن بيئتهم تماماً.

أما الإله الأب عند السومريين فهو (أبسو) أي (ماء الأب) أو (ماء العمق) وهو كذلك عند البابليين فقد نزع عنه جلده وعبّر عن نفسه في شخصية الإله (إنكي) السومري أو (إيا) البابلي. وهو ما طابق المندائيين تماماً فهو (هيّي) أو (حي) الذي هو الإله (إيا) والذي أصبح إله عالم النور، لأن إيا والحي يدل على النهر والنهر يدل على النور (نهر/ نور) في المندائية كذلك نشير إلى ضمّه لأنثى الشمس الإلهة (آيا) وتطابقها مع اسمه.

أصبحت الأهوار الممتدة باتجاه الجنوب رمزاً لعالم الظلام الذي تتزعمه (روها) وأصبح النهر الذي هو نهر الفرات (برات: كلمة تحمل علامة الشمس) ولذلك سمي برات زيوا، هذا النهر

الذي ينبع من الشمال والذي هو مكان (إيا) الأول هو رمز النور. ولقد أسموه (يردنا) تيمناً بأول أرض ومدينة لهم وهي (أريدو).

أما أبناء روها فهم الكواكب السبعة وهو ما ينطبق تماماً على أبناء العالم الأسفل عند السومريين والبابليين فهي تهبط كل يوم إلى مقرّها في عالم الظلام الأسفل نهاراً (باستثناء الشمس) ثم تصعد ليلاً (حين تهبط الشمس) إلى الأعلى. فهم أبناء الظلام وأبناء الأرض السفلى (أور) التي كانت إلهة الأرض فأهانتها الآلهة الذكور وهمّشوها، أما المندائية فحولتها إلى ذكر بشعٍ هو (أور) ولعلها هي نفسها (روها) فهناك تقارب بين اسمها اسم ابنها (اور).. الأرض المذكّرة المهانة.

قلنا أن حقلي الأساطير السومرية مكوّن من حقل إنليل الهوائي الكوكبي المظلم المميت وحقل إنكي المائي المشع الحي. وهذا بالضبط هو تقسيم حقلي الأساطير المندائية فالحقل الأول هو عالم الظلام والحقل الثاني هو عالم النور، لكن المندائيين أضافوا عالماً جديداً بينهما هو عالم الأرض (وهو بمفهوم السومريين والبابليين الأرض العليا أو المسطحة في حين كان العالم الأسفل هو الأرض السفلى).

أن أسطورة الخليقة المندائية تتمثل في خلق كائنات النور والحياة وتمرد بعضها ثم هبوط مندا إد هيّي أو/ وهيبل زيوا إلى عالم الظلام والصراع مع (روها) و(اور) ثم خلق العالم والإنسان. وهي تشبه، إلى حد كبير، أسطورة الخليقة البابلية حيث خلقت الآلهة الجديدة فتمرد بعضها وطلبوا من (مردوخ) الصراع مع (تيامت) وكائناتها ثم خلق العالم والإنسان. ربما يكون الفرق الوحيد بينهما أن الأسطورة البابلية قتلت (تيامت) وصنعت من جسدها الكون ومن دم خادمها الإنسان، في حين أن الأسطورة المندائية كانت أكثر رحمةً بالإلهة الأم القديمة (روها) فسجنتها وقيّدت ولدها (أور)، وقامت بخلق الكون والإنسان من قبل إله متمرد هو (بثاهيل) الذي صاحب (روها). أما روح الإنسان فقد نزلت من عالم النور.

هكذا مجّدت المندائية الإنسان أكثر من غيرها وكانت رحيمةً مع الإلهة الأم. وهكذا عمّقت الشق بين الحياة والموت بصيغة النور والظلام فنشأت الباطنية أقوى وكان هذا هو جذر الغنوصية الكبير.

هناك أساطير مندائية كثيرة، سنجدها في هذا الكتاب، ذات جذور سومرية وبابلية وهناك أسماء لا حصر لها من كائنات النور والظلام تعود إلى أصول بابلية أو آرامية لكننا نود أن نؤكد هنا أن الصياغة الأخيرة للمندائية كانت صياغة آرامية. كان الكلدانيون من الآراميين لكنهم عندما حكموا الدولة البابلية الحديثة امتثلوا للإرث الأسطوري البابلي الآموري الذي كان قد تأسس قبل أكثر من ألف سنة من تأسيس دولتهم. أما الأساطير الآرامية فلم يحتفى بها كثيراً بل أصبحت من حصة الآراميين الآخرين ومنهم المندائيين.

إن (بيت مندع) الآرامي الذي كان في جنوب وادي الرافدين كان في مناطق انتشار المندائيين منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت الأساطير الآرامية منتشرة في أكثر من (٢٥) إمارة آرامية في وادي الرافدين تمتد من الشمال إلى الجنوب. إن أغلب الأساطير الآرامية كانت تشدد على انقسام عالمي النور والظلام من جهة وإلى توحيد الإله (أدد) من جهة أخرى.

لقد توقفنا طويلاً عند الأساطير الآرامية في كتابنا (المعتقدات الآرامية) ونرى أنها كست الأساطير المندائية بغلالة بعض أسمائها ومضامينها.

إن أسطورة الفناء الآرامية تؤكد على أن نهاية العالم ستكون بواسطة الريح وهو ما تكشف عنه أسطورة (دير عَلاّ) المكتوبة بخط آرامي على جدار جصّي مهترىء. وكذلك أسطورة الفناء المندائية التي تؤكد على أن نهاية العالم ستكون بواسطة الريح، وهذا مؤشر مهم جداً في تشابه الأرثين.

وإذا أردنا الذهاب أبعد من ذلك فيمكننا القول أن أسطورة الفناء المندائية التي تمثلها دورات العالم الأربع أو ما أسميناه بالبشريات الأربع تؤكد على أن الفناء الأول كان بالسيف والثاني كان بالنار والثالث كان بالماء (الطوفان) والرابع سيكون بالريح، وبهذا تكون الأسطورة المندائية قد جمعت أمشاج كل الأساطير الرافدينية وصاغتها في سبيكة أسطورة الموت أو الفناء، فالبابليون والسومريون يضعون الفيضان حداً لنهاية العالم، والآراميون يضعون الريح حداً، وربما وضعت شعوب أخرى مثل السوبارتو وغيرهم السيف والنار حداً لنهايته.

الدراسة المقارنة الدقيقة بين الأساطير المندائية والأساطيرالرافدينية ستلقي الضوء على الكثير من العلاقات بينها.

ثانياً : المثولوجيا المندائية :

قليلة جداً هي الدراسات والكتب حول الأساطير المندائية. فلم نعرف حتى يومنا هذا كتاباً واحداً مكرساً حول المثولوجيا المندئية في كل لغات العالم، لكن هناك دراسات تتناول بعض المظاهر الأسطورية، ولعل أشهرها هو كتاب كورت رودولف: خليقة الآلهة والكون والإنسان في الديانة المندائية، الذي صدر بالألمانية عام ١٩٦٥.[١٩]

واعتقد أن حقل المثولوجيا المندائية هو واحدٌ من أصعب حقول الدراسات في هذا المجال بسبب من اختلاف الأساطير المندائية عن الأساطير التقليدية وانتشارها في أكثر من كتاب واندغامها باللاهوت والطقوس بطريقة ملفتة.

وكتاب رودولف كتاب مهم للغاية ويتناول أساطير الخليقة فقط ويركز على خلق الأرض والإنسان، لكنه يهمل بقية الكون ولا يركز على الثيوغونيا (خلق الآلهة) أو خلق الكائنات الإلهية الأخرى.

إن المثولوجيا المندائية حقل واسع للغاية وهو مليء بالخفايا والكنوز بسبب مادته البكر والباحث فيه يجب أن يعدّل الكثير من طرق بحثه لأنه سيفاجأ بطرق وأساليب جديدة في بناء الأسطوة تختلف عن ما ألفه في الأساطير الأخرى.

كما نودُّ القول أن الأساطير المندائية تختلف عن مجمل الأساطير الغنوصية فهي، كما سنرى، أساطير الغنوصية البكر.. ولذلك فهي تختلف عن الأساطير الغنوصية اللاحقة التي نضجت وبدأت تحول المسى السرديللأحداث إلى مفاهيم ذهنية وفلسفية.

لقد قادنا تحليل ودراسة اساطير المندائية إلى الوقوف على خصائص مثولوجية فيها لا توجد في غيرها وهي:

١ ـ التماثل الفريد في البنية العميقة للثيوغونيا، حيث تتوازى خطوط خلق الكائنات الإلهية وتكوينها في عوالم النور والظلام والأرض. فقد عملنا على كشف هذه البنية وقمنا بوضع التوازنات بين مكوناتها.

٢ ـ التكوين الخاص لعالم النور والحافل بالطبقات والأسماء والأحداث فهو عالم ثري يندر وجوده في أساطير أخرى بهذه الكيفية العميقة والمكتنزة.

٣ ـ عدم ظهور مبدأ التناسل الجنسي بين كائنات النور بل أن هذه الكائنات التي تتكون كسلالة من الآباء والأبناء تبدو لنا مثل صفوف من الأخوة في أساطير أخرى أو في أسطورة واحدة وأشهر الأمثلة على هذا العلاقة بين (مندا إد هيي وهيبل زيوا وأنوش أثرا) فهؤلاء يظهرون كجد وأب وأبن مرةً وكأخوان مرة أخرى أو كأبٍ وأخوين في مرة ثالثة وهكذا.

٤ ـ الروايات المتعددة لحدث واحد وهو مايشير إلى تعدد المصادر الأسطورية واللاهوتية من جهة وإلى الفترات التاريخية المختلفة لكتابة هذه الأساطير.

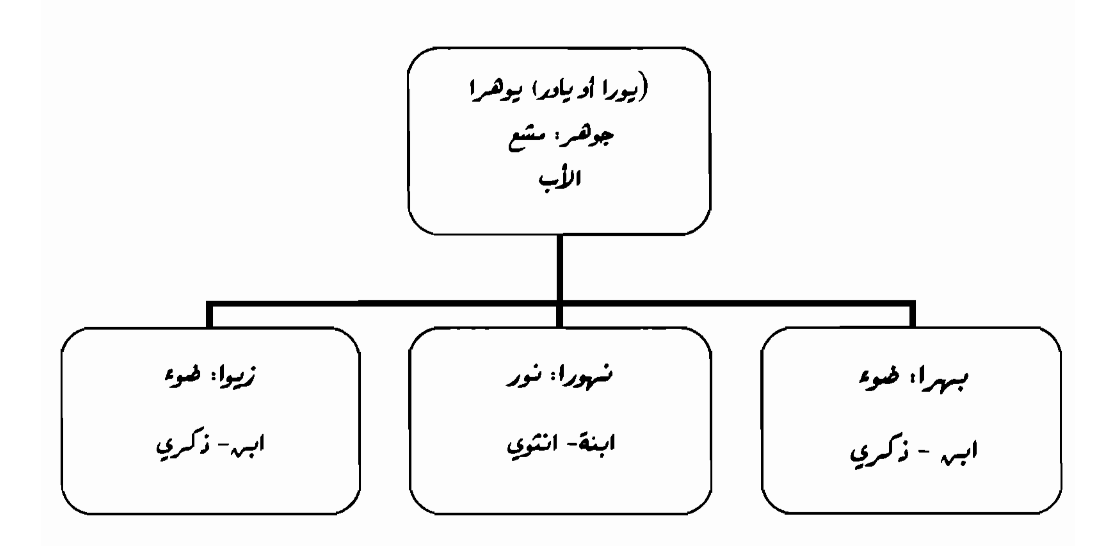
٥ ـ الشكل الرباعي لمبدأ الضوء حيث يجب التمييز تماماً بين أربعة أشكال له وهي :

أ ـ يورا (ياور) : وهو (يوهرا) بمعنى (جوهر) وأصل هذه الكلمة آرامية من (يهر وأرا) بمعنى يلمح ، يشع وكلمة إيرثا تعني اللمعان والجلال.

ب ـ نهورا : وهو (نور) المرتبط لغوياً بالنهر وهو مبدأ أنثوي.

ج ـ بهرا : وهو (بهر) أي (باهر) الذي يدلّ على الضياء بصيغة الإبن وهو مبدأ ذكري.

د ـ زيوا : وهو (ضوء) بصيغة الابن المذكر.



الشكل الرباعي للضوء في المندائية

إن الذي لا يميز بين هذه الأشكال الأربعة للضوء وما تشكله من أسماء الكائنات النورانية لا يستطيع سبر أغوار الأساطير المندائية بسبب من هيمنة هذه الأشكال عليها بصيغ مختلفة.

١ ـ سياة مبدأ الانبثاق في الخلق وليس التوالد. فالخالق (هيّي) يخلق الحياة الأولى ومنها تحدث انبثاقات ذاتية متمثلة بالحيوات الثانية والثالثة والرابعة تباعاً، وتظهر هذه الصيغة في أماكن أخرى.

٢ ـ النمط الفريد في خلق الإنسان (آدم) الذي لا يشبهه خلقٌ آخر في كل المثولوجيات التي عرفناها وولادة أبنائه كذلك بل وتسيّد كلّ واحدٍ منهم على عصر من عصور البشرية وطريقة ظهورهم ورفعهم إلى عالم النور، فهي ميزات ليس لها مثيل تُسَجل للمندائية بثرائها وبمعانيها العميقة وسنناقش تفاصيلها في حينها.

٣ ـ كلّ الرُسل في المندائية هم من عالم النور، وكلّهم أدّوا عملهم الأكبر قبل خلق الإنسان وكان آخر عمل لهم هو خلق الإنسان وتعليمه (العرفان) ولا يظهرون إلاّ نادراً بعد خلق الإنسان لأسباب إسكاتولوجية في الغالب.

وقد قسمنا الأساطير المندائية، حسب منهجنا، الذي عرضناه تحت العنوان السابق، إلى أربعة أقسام كبرى هي:

أساطير (الخليقة، العمران، الخراب، الموت)، ودرسنا في كل قسم من هذه الأقسام ما حصل مع (الكائنات الإلهية، عالم النور، عالم الظلام، الأرض، الإنسان، أي أننا في الخليقة مثلاً سنتناول خليقة الكائنات الإلهية وخليقة عالم النور وخليقة عالم الظلام وخليقة الأرض)

التي تشكل ثالوث خليقة الكون ثم خليقة الإنسان.

وقد وضعنا هذا الجدول المبسط لفهم إجرائنا:

الأساطير Myths	الكائنات الإلهية Theo ـ	الكون Cosmo ـ			الإنسان Anthropo
		عالم النور Almi ale Nhura	عالم الظلام Almi ale Hshukh	الأرض Tibil	
الخليقة Gensis	خليقة الكائنات الإلهية	خليقة عالم النور	خليقة عالم الظلام	خليقة الأرض	خليقة الإنسان
العمران Construction	عمران الكائنات الإلهية	عمران عالم النور	عمران عالم الظلام	عمران الأرض	عمران الإنسان
الخراب Deconstruction	×	×	خراب عالم الظلام	خراب الأرض	خراب الإنسان
الموت Eschatolog	×	×	×	موت الأرض	موت الإنسان

شكل (٣)

جدول الاساطير المندائية

وبذلك سنكون أمام التسلسل الآتي للمثولوجيا المندائية:

١. أساطير الخليقة: Gensis

أ- خليقة الكائنات الإلهية

ب- خليقة الكون وتشمل (عالم النور، عالم الظلام، الأرض)

ت- خليقة الإنسان

٢. أساطير العمران: : Construction

أ ـ عمران الكائنات الإلهية

ب ـ عمران الكون وتشمل (عالم النور، عالم الظلام، الأرض)

جـ عمران الإنسان

٣. أساطير الخراب: **Deconstruction**

أ ـ خراب الكون ويشمل عالمي الظلام والأرض

ب ـ خراب الإنسان

٤. أساطير الموت (الفناء) **Eschatohogy:**

أ ـ موت الأرض

ب ـ موت الإنسان

هذه هي الصورة الشاملة للأساطير المندائية والتي يمكن تحليلها ودراستها ومعالجتها مثولوجياً وهو ما سنقوم به في كتابنا هذا.

كنزا ربّا : كنز الأساطير :

يعتبر الكتاب المقدس للمندائيين (كنزا ربّا) أي (الكنز العظيم) كنزاً حقيقياً للأساطير المندائية فهو يضمّ أغلبها وخصوصاً في كنزا ربا اليمين، رغم أن كنزا ربا اليسار يحتوى هو الآخر على أساطير هبوط وصعود الروح. يسمى كتاب الكنزا أيضاً باسم (سدرا ربّا) أي (الكتاب العظيم) ويسمى أحياناً باسم (كتاب آدم).

تعني كلمة (كنزا Ginza, Genza,Genzo) المندائية الـ(كنز) وهو الشيء الغالي والنادر والثمين المخبأ في مكان بعيد، وعندما نقرأ كتاب الكنزا نفهم منه بأن هذا الكنز هو الروح أو الأرواح (نشمثا أو مانا) وهناك مكان مخصص لحفظ هذه الأرواح في عالم النور يسمى دار الكنز وهناك حارس إلهي يحرس هذه الدار هو مندا إد هيي (ويظهر أحياناً هيبل زيوا) ويسمى (كنزاوري) أي (أمين الكنز) ومنه اشتقت كلمة (كنزورا) أو (كنزبرا) أو (كنزفرا) وهي درجة دينية كهنوتية. ولهذا الكنز حراس يحرسونه من الأثري.

علينا أولاً معرفة أن المندائيين لا يرون في كتابهم المقدس بشكل خاص بأنه منزلٌ من السماء على آدم أو غيره، لأنهم من الغنوصيين (العرفانيين) الذين يرون بأن المعرفة الإلهية (العرفان) لا تنزل على الإنسان على شكل كتبٍ مقدسة أو وحيٍ إلهي بل تكون هذه المعرفة موجودة ضمناً في الروح (نيشمثا أو مانا) التي تحلّ في جسد الإنسان أما الكتب أو النصوص المقدسة فلا يكتبها أو

ينطقها الأنبياء أو الرسل بل آدم وحده الذي هو رأس الذرية البشرية، كتب هذه المعرفة التي سكنت في روحه وربما استقى بعضاً منها من رسول النور (مندا إد هيي).

إن الإنسان يكتشف الله عن طريق المعرفة وليس عن طريق الوحي، هذا ما يقرره المندائيون والغنوصيون بشكل عام. ولذلك يكون العرفان هو السبيل إلى كشف الإله الواحد الأحد والاتصال به أو حتى الوصول إليه أثناء الحياة أو بعدها.

فالوصول أثناء الحياة يتم عند بعض الغنوصيين، والمتصوفة بشكل خاص، في لحظة النشوة الصوفية التي هي لحظة المعرفة الكبرى حيث ترتقي روح المتصوف إلى الخالق وتتصل بها فتحدث النشوة. أما الوصول إلى الخالق بعد الموت فيصير عندما تغادر الروح جسد الإنسان وتصعد إلى خالقها وتذوب فيه.

المندائيون يتفقون مع الحالة الثانية التي هي حالة ارتقاء الروح ولكنهم لا يرون في الزهد أو التصوف سبيلاً إلى الوصول للخالق أثناء الحياة بل يرون ضرورة إبقاء الروح عارفة بالخالق عن طريق التعميد والإيمان والناصورائية التي هي أسلحة الروح ضد النسيان والخطيئة.

يأتي كتاب الكنزا ليشرح كل هذه الأمور وليؤكد على الخليقة النورانية للإنسان من خلال نزول الـ(مانا) في جسد الإنسان من عالم النور لتكون وسيلة لربط الإنسان بهذا العالم من جهة ولإكتساح ظلام الجسد والأرض والعالم من حولها من جهة أخرى.

يرى كوندوز أن كتاب الكنزا ربما يكون قد جُمع في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. (٢٠) ويرى ليدزبارسكي أن نشأة كتاب الكنزا بشكله الحالي تمت بعد ظهور الإسلام حيث بدأ المندائيون بجمعه في كتاب واحد ليكون الكتاب المقدس لهم أسوة بـ(أهل الكتاب) من يهود ومسيحيين الذين كان الإسلام يعترف بتوحيدهم وبكونهم أصحاب أديان موحّدة معروفة. (٢١)

ظلّ الكتاب مجموعاً ومكتوباً بالسريانية المندائية حتى ترجم لأول مرة على يد السويدي ماثيس نوربيرج في مستهل القرن التاسع عشر ترجمة غير دقيقة، ثم ترجمه بيترمان سنة ١٨٦٧م ترجمة غير دقيقة هي الأخرى، أما ليدزبارسكي فقد ترجمه إلى الالمانية ١٩٢٥ترجمة دقيقة تعدّ اليوم الأفضل في كل الترجمات.

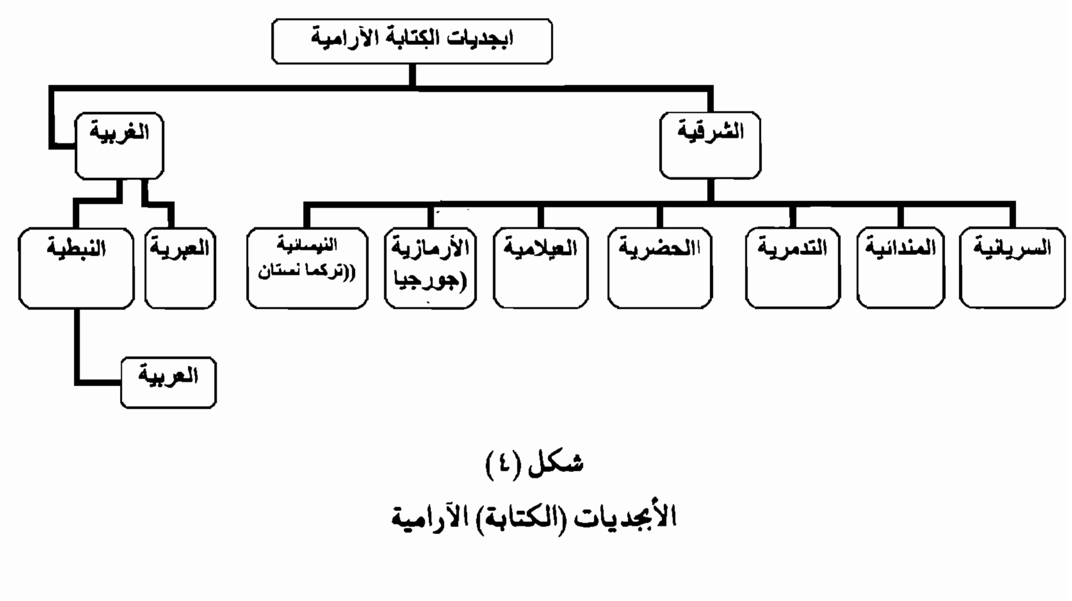
أما الترجمات العربية للكتاب فقد ظهرت حتى الآن ترجمتان في عام ٢٠٠٠ كانت الأولى

عن المندائية في بغداد من قبل الاستاذ الدكتور يوسف متي قوزي والاستاذ الدكتور صبيح مدلول السهيري. لكن، إعادة صياغتها الأدبية ذهبت بترجمتها الحرفية الدقيقة وحذفت منها الكثير ولذلك نعدها ترجمة وصياغة غير دقيقتين. أما الترجمة الثانية فكانت في سدني/استراليا من قبل كارلوس جلبرت وكانت عن الترجمة الألمانية وقد حفلت بكل التفاصيل دون حذف أو تحوير. ويبدو أن هناك القليل من الأصل المندائي لم يترجم فيها وهي التي سنعتمدها في كتابنا هذا.

الميزة المدهشة لنصوص الكنزا هي في اسلوبها القريب من النصوص الرافدينية، فقد اشرنا في اكثر من مكان إلى التناظر الكبير ين بعض نصوص الكنزا مع نصوص رافدينية من حيث الأسلوب وطريقة الكتابة والبلاغة والتكرار وغير ذلك. وهو ما يعزز رأينا في أن هذه النصوص هي امتداد للنصوص الرافدينية فهي الطبقة الآرامية المندائية لها النابضة من أعمق طبقاتها إلى سطح تحولاتها الكبرى.

لقد حملت هذه النصوص خميرة الروح الرافديني وشكّلت في الوقت نفسه، المنطقة الحرجة للتحول من القص المقدس إلى النص المقدس. هذه المنطقة التي جرت فيها أعظم التحولات من أساطير الأديان متعددة الآلهة إلى الكتب المقدسة للأديان الموحّدة (السماوية).

تنقسم الأبجديات الآرامية (الكتابة الآرامية) إلى مجموعتين أساسيتين هما الشرقية والغربية.(٢٢) وتنقسم كلٌّ منهما إبجديات فرعية كما هي هذا الجدول المبسط :



شكل (٤)
الأبجديات (الكتابة) الآرامية

وصلتنا الأبجدية المندائية من خلال قنوات مختلفة أقدمها ما نقش على نقود مسكوكة في الكرخة (ميسان). ومنقوشة على رقىً أو عوذ (حروز كما تدعى بالعامية العراقية أيضاً أو قماهي كما تسمى بالمندائية) من الرصاص، ومخطوطة على أوانٍ فخارية، وأخيراً مخطوطة على الورق في الكتب الدينية المندائية. وباستثناء الكتب الدينية المحفوظة لدى المندايين أو لدى بعض المتاحف والمكتبات في أوروبا وأمريكا والمتحف العراقي، وأقدمها استنسخ في القرن السادس عشر من مخطوطات أقدم لم يعثر عليها إلى الآن، ولا يثير استنساخها على هذا النحو خلافاً بين الباحثين، فإن تحديد تاريخ الأخريات أثار جدلاً لم يحسم تماماً.[٢٣]

شكل (٥)

الكتابة المندائية

جزءٌ من لفيفة مخطوطة القلستا (القسم الأول من الكتاب الأصولي للصلاة المندائية)

المرجع: Drower.E.S, The Canonical Prayerbook of the Mandaeans, Leiden 1959

ثالثاً : الأساطير المندائية ـ والأساطير الغنوصية :

قلنا، في أكثر من مكان، أن المندائية هي أصل الغنوصية وهي شكلها النيئ الأول قبل أن تتحول إلى فلسفة وتيارات فكرية غلّفت العصر الهيلنستي ثم أنبتت بذرة التوحيد الذي أصبح وعاء اليهودية والمسيحية فيما بعد.

بعد سقوط بابل ٥٣٩ ق.م استمرت الديانة البابلية الكلدانية ديانةً لشعوب وادي الرافدين لكنها اختلطت بعقيدتين وفدت رياحهما قبيل وبُعيد سقوط بابل. لقد أتت الديانة اليهوذية مع أسرى السبي الأول والثاني لأهل يهوذا وكانت ديانة تفريدية وليست توحيدية، عمل في بابل الكاتب عزرا على عادة صياغتها مع الكثير من الأحبار والكهنة الكبار المسبيين، ثم ولدت اليهودية في بابل بعد أن كانت ديانة يهوذا واحدة من تنويعات الديانة الكنعانية.

أما العقيدة الوافدة الثانية فهي الديانة الزرادشتية التي كانت، آنذاك، آخر حلقت الديانات الثنوية الفارسية والتي أصبحت ديانة الغزاة الفرس الأخمينيين لوادي الرافدين والشرق الأدنى وكانت هذه الديانة تؤمن بعالمي النور والظلام وبوجود إله وإلهة على رأس كلٍّ منهما وبالصراع الدائر بينهما.

كانت الديانة البابلية الكلدانية قد تحوّلت إلى ديانة كوكبية بدت وكأنها تخرج من العالم الأسفل المظلم حتى أن (مردوخ) كان يرمز إلى كوكب (المشتري) وأبنه (نبو) إلى (عطارد) وأبنته (عشتار) إلى (الزهرة)..إلخ وهكذا وصمت الديانة البابلية بكونها إبنة الظلام، أما الديانتان الوافدتان فقد ظهرتا وكأنهما تمثلان المضاد الأكبر للديانة البابلية. فاليهودية تبنت أدوناي ويهوا ووصف الأول بأنه إله الشمس والثاني بأنه إله العاصفة والطقس والزرادشتية تبنت أهورا مزدا سيد النور والشمس وأناهيت ربّة الخصوبة.

وهكذا بدأت تتقوض أركان الديانة البابلية من جهة وتتبلور الزرادشتية واليهودية من جهة أخرى. ولكن نبتاً سرياً خصباً كان ينمو تحت كل هذه الأنقاض والأديان المعلنة، وهو (المندائية) التي هي الخميرة المعتقة الأصلية لعقائد وادي الرافدين إذ أنها تجمع في نسيجها مادة الديانتين الجديدتين فعالما النور والظلام فيها وجذور التوحيد فيها لكنها لا تكشف عن نفسها لأنها إذا أعلنت تعاليمها وأسرارها فستموت : هكذا قرر كهنتها وعرَفانيوها الكبار آنذاك.

عندما أتى الاسكندر المقدوني برياح الهيلينية إلى وادي الرافدين تخصبت كل عقائد وادي الرافدين بالثقافة الكلاسيكية الأغريقية ولكنها لم تفقد خصوصيتها الروحية. فإذا كان قد طُوبق بين (زوس) الأغريق و(مردوخ) البابلي وبين (أفروديت) الأغريقية و(عشتار) البابلية وهكذا بقية الآلهة، فأن بقية الأديان أثارت فضول الأغريق كالزرادشتية واليهودية، أما المندائية فقد كان إغواؤها كبيراً وسحرها أخاذاً لأنها لم تكن مألوفة أبداً في الثقافة الأغريقية أو محيطها.. وهكذا صعدت من القيعان السرية لها رائحة الدهشة، وتعرفوا لأول مرةٍ على شيء اسمه المندائية الذي ترجموه إلى الغنوصية وكان يعني في الحالين (العرفان) أو (المعرفة الإلهية).. ونقلوا أفكار هذه الديانة إلى فلاسفتهم الذين نظروا إليها كديانةٍ خلاصية وناظروها مع عقائد الخصب السرية والخلاصية كالأورفية والإليوزيسية، لكن المندائية كانت تنفرد بغنوصيتها العميقة فاصبحت الفلسفة الغنوصية، بعد حوالي قرنين، واحدة من أكبر التيارات الفلسفية الهيلنستية وتمت دراستها وإشاعتها في الاسكندرية والرها وحرّان. أما هي (المندائية) فكانت تتناسل ذاتياً في الكرخة وميسان والطيب.

من النقوش السريانية المكتشفة في المناطق المجاورة للرها نتعرف على أن صور وأشكال العبادة البابلية المتأثرة بعقيدة العرفان (الغنوصية) بدأت تتخذ بالتدريج أشكالاً أكثر تجديداً. ومن الأهمية بمكان اكتشاف الحركة التوفيقية السريانية –الاغريقية فيها إذ أن التمازج بين المصطلحات الفنية واستعارة بعضها من الأغريقية ممتع ومفيد، فهنا نجد كلمات مستعارة مثل: **Bolos** أي البرد و**Hula** أي المسألة، وناموسا **Namosa** أي الشريعة أو القانون ومثل هذه التعابير قد ازدادت أهميتها في الفترة اللاحقة.[٢٤]

فوجيء الأغريق أن آلهتهم ضعيفة جداً قياساً إلى آلهة الشرق الغنية المكتنزة ولم تعد محدودية المساحة التي كانت هذه الآلهة تغطيها مغريةً قياساً إلى التوسع الشامل لهم وتكوينهم لإمبرطورية عالمية فكانوا بحاجة لآلهةٍ أكثر تجريداً وأكثر عالمية فوجدوا ضالتهم في آلهة شرقية عريقة مثل (مردوخ وآمون وأهورا مزدا والإلهة السورية ديا).

كما أن الشرق تفاعل بجدية مع الفكر الأغريقي الفلسفي بشكل خاص والعلوم الأغريقية المنظمة والواقعية وبذلك بدأت الأفكار اللاهوتية السميكة المحيطة بالفلسفة والعلم في الشرق

تتقشر تدريجياً ويعاد صياغتها. فالتنجيم البابلي أصبح يتجه أكثر فأكثر نحو علم الفلك أما شحنته الفلسفية والدينية فكانت توضع في عالم الظلام المزدكي أو المندائي وتزداد من جهة أخرى المفاهيم الفكرية والذهنية للثنويات المتضادة كالخير والشر والمادة والنور والملائكة والشياطين.. إلخ

وهكذا نشأت الحركة التلفيقية أو التوفيقية **Syncretism** التي كانت سمة العصر الهيلنستي المهمة فكانت عقائد الشرق والغرب تُقصُّ وتقطّع وتُمتنج وهي تختلط مع بعضها حتى يُصار إلى ظهور عقائد جديدة كانت في بدايتها واضحة الخلط لكنها سرعان ما تبلورت عن عقائد نوعية مثل الغنوصية والأفلوطينية والأبيقورية والرواقية.

وكانت الرواقية، بحق، هي سمة العصر الهيلنستي الفلسفية بما احتوته من تأكيدات على اللوغوس وهي الروح أو الكلمة الخالقة للكون والتي تحل في أدق التفاصيل وبشيء من صفاء النفس يمكن اكتشافه وهو يسري في داخل الإنسان وفي الكون. لكن هذه الرواقية كانت تجري كتعاليم ظاهرية وكأنها امتدادٌ للمثالية الاغريقية المخططة بروح الشرق أما النسغ السري الباطن فكان في الغنوصية (التي كانت قد ظهرت بسبب المندائية ولكن الأغريق أعادوا تصنيعها فلسفياً) وكان أهم ما في الغنوصية آنذاك، هو بحثها عن (الخلاص) ومحاولة تشخيصها لطبيعة (المخّلص) القادم. وصارت الأفكار الخلاصية هي سمة العصر وبدا أن هذا المخّلص سيكون عالمياً وانشغل الجميع بالبحث عنه أو بصياغته وبعثه بالقوة.

كان اليهود يرون في المسيح الذي بشّر به أرميا هو المخّلص القادم، وكانت الأوساط الرسمية البابلية تنظر إلى (نبو) إله الحكمة كمخلص قادم، أما الإيرانيون فقد نظروا إلى الـ(فارقليط) كمخلص قادم والأوساط الشعبية في وادي الرافدين ما زالت تحن إلى (تموز) كمخلص أبدي، أما المندائيون على تخوم الأنهار الجنوبية في وادي الرافدين فكانوا ينظرون إلى عالم النور وإلى رسوله (مندا إد هيي) ليقوم بهذه المهمة ولم ينظروا إلى فرد بشري أو نبي ليقوم بها، لقد كانوا الأكثر مثالية بين هؤلاء جميعاً.

ولم يفز بهذه المنافسة سوى (يسوع) الذي هو عيسى بن مريم رغم ظهور أكثر من أثني عشر مدّعياً كمخلص. وعندما نمت المسيحية بعيداً عن اليهودية وصار لها أهلها واصطدمت أول ما اصطدمت فكرياً بالغنوصية على قاعدة الأفكار الخلاصية. فقد شعر الغنوصيون أن المسيحية

سرقت أفكارهم الخلاصية فقام المسيحيون بالصراع معها من خلال طروحات جوستين (١٠٠ ـ ١٦٥م) ثم إيرانوس (١٣٢ ـ ٢٠٢) ثم هيغسبوس (١٥٠ ـ ١٨٠) في فلسطين، ثم كليمانص (١٥٠ ـ ٢١٥) في الاسكندرية ثم هيبولبتوس (١٧٠ ـ ٢٣٦)... وغيرهم. كلّ هؤلاء شكلّوا الدرع الواقي للمسيحية بوجه الغنوصية. وكان من الواضح أن الغنوصية قد أثرت تأثيرات كبيرة في المسيحية وفي طريقة ظهورها الأولى.

وهكذا تضمّخت الغنوصية بروائح وشموس عصرها وبدت كما لو أنها مطبوخةً، أما المندائية فقد ظلت غنوصية نيئة تقبع في الأدراج السرية للمياه بعيدة عن الظهور والتداول وضاع حقها في كونها الأم الكبرى للتيارات الغنوصية والخلاصية والباطنية التي ظهرت في المرحلة الهيلنستية.

تؤكد الغنوصية على ما يلي:

١ ـ تتم المعرفة على شكل إلهام وكشف وليس عن طريق التعلم والتحليل مثل الفلسفة والعلم، فهي تتم من خلال الرؤية المباشرة للحقيقة.

٢ ـ نوع هذه المعرفة هي معرفة إلهية وضعها الله في القلب الطاهر أو يصل إليها المؤمن بالتنزه عن المادة والشر.

٣ ـ هناك أسرارٌ خفية لا يعرفها إلاّ العرفانيون (الغنوصيون) هي التي تنير لصاحبها طريق الخلاص وتمكنه من التغلب على القوى الشريرة.

٤ ـ أهم عمل غنوصي هو تحرير (تخليص) النفس أو الروح الإنسانية من أسر الجسد الدنيوي ويتم ذلك بتذكيرها بأصلها الإلهي. فاذا عرفت ذاتها عرفت خالقها (الله) لأنها جزءٌ منه وبذلك تعرف الروح ما يلي (من أين جاء الإنسان، كيف أصبح إنساناً، أين كانت روحه قبل أن يُخلق، أين وضع بعد خلقه، أين نحنُ ذاهبون، كيف نذهب في الطريق الصحيح، كيف ستنبعث الأرواح..إلخ)

هذه الأسئلة تكتشفها الروح لوحدها عندما تدرك ذاتها وقد يقوم الوسيط السماوي بأيصال هذه المعرفة لمن يمتلك روحاً طاهرة عارفة.

٥ ـ يسمى هذا الوسيط السماوي بـ(المخلص) ويعتبر الجسد البشري بمثابة العالم الأسفل

فيهبط (المخلص) إليه ليعرّف الروح بأجوبة هذه الأسئلة (العرفان) لكي يسهّل لها طريق الصعود إلى العالم السماوي وهو (الخلاص). وقد يكون الخلاص قبل الموت عن طريق النشوة العرفانية حث ينكشف النور الإلهي ويلتحم به العارف، أو بعد الموت حيث تصعد الروح (مع المخلص) إلى السماء وتلتحم بالله إلى الأبد.

٦ ـ لا يصل كل إنسان إلى الخلاص ويساعده المخلص، بل الذي طبّق الجانب العملي من العرفان والذي يكون بأداء مجموعة من الطقوس والشعائر مثل التعميد أو التسلح بالأسماء السرية (حفظ هذه الأسماء) وأداء الصدقات وغيرها.

٧ ـ العرفان هو معرفة الباطن أما العلم فهو معرفة الظاهر، ومعرفة الباطن هو معرفة الأسرار التي صار السحر والتنجيم والعرافة والكيمياء أساسها في حين أن الباطن هو الأسرار الإلهية الخفية. أما العلم فهو معرفة الظواهر العيانية وإدراك أسبابها ونتائجها وهو متاح للجميع.

٨ ـ يطغي على الأدبيات العرفانية الأسلوب الأسطوري الفلسفي، حيث تتحول أساطير الخلاص القديمة إلى لغة فلسفية تعم فيها المفاهيم الذهنية مثل وجود الإله المتعالي والمادة وبينهما الإله الصانع أو الوسيط، وأسطورة مصدر الشر التي تُرجع الشرّ إلى الكائن السماوي الذي ارتكب الخطيئة الأولى التي تضطره للإتحاد مع المادة فتولد الكائنات المكبّلة بالشر (المادة) ويصار إلى تخليصها من هذا الخطأ وكل هذه الأفكار ضمّتها المندائية في متونها كما سنرى.

٩ ـ لا نعتقد أن المدونة الهرمسية **Corpus Hermeticum** هي مصدر هذه الفلسفة الغنوصية كما يذهب إلى ذلك أغلب الباحثين، بل نعتقد أن المدونة المندائية **Corpus Mendean**، ونعني بها الـ(كنزا ربّا) هي المصدر الأول للفلسفة الغنوصية. أما المدونة الهرمسية التي تُنسب إلى هرمس فهي مدونة إغريقية متأخرة قياساً إلى المدونة المندائية.

مصادر ومراجع الفصل الأول

١ ـ عليان، رشدي: الصابئون حرانيين ومندائيين، جامعة بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد ١٩٧٦ ص٧١ (هامش١٤).

٢ ـ Yamauchi,Edwin M, Gnostic Ethics and Mandaean Origins, 62 _ Cambridge, Harvard Vniversity Press,1970,P.60

٣ ـ دراور، ليدي: الصابئة المندائيون (الكتاب الأول)، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، ط٢، مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٧ ص٤٤.

٤ ـ نفسه ص ٤٣.

٥ ـ سباهي، عزيز: إلى أي قومٍ ينتمي الصابئة المندائيون، انترنيت: إتحاد الجمعيات المندائية: الرابط: www.mandaeanunion.org

٦ ـ كوندوز، س: معرفة الحياة، ترجمة الدكتور سعدي السعدي، مركز الحرف العربي، غوتنبرغ. السويد، ١٩٩٦، ص٣٧ ـ ٣٨.

٧ ـ نفسه ص ٣٩.

٨ ـ الشافعي، محمد بن إدريس: كتاب الأم ٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص,٢٩٣

٩ ـ الخيون، رشيد: مندائي أو الصابئة الأقدمون –تأليف عبد الحميد أفندي بن بكر أفندي عبادة، ملحق: دار الحكمة، لندن ٢٠٠٣ ص١٣٥.

١٠ ـ كوندوز، س: المرجع السابق ص٤٧.

١١ ـ البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد ٧، دار الكاتب العربي، بيروت ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

١٢ ـ الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت ص١٤٣

١٣ ـ كوندوز، س: المرجع السابق ص٥٧ ـ ٥٨ وانظر البيروني، الخوارزمي ابو الريحان محمد ابن أحمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت).

١٤ ـ عليان، رشدي: المرجع السابق ص٣٩.

١٥ ـ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

١٦. عليان، رشدي: المرجع السابق ص٤٧.

١٧ ـ ليدزرارسكي، مارك: كنزا ربا (كلمة عن الدين المندائي)، ترجمة كارلوس جلبرت، منشورات الماء

الحي، سدني / استراليا ٢٠٠٠ ص٦٧٥.

١٨ ـ كوندوز، س: المرجع السابق ص ٣٤. وانظر:

Drower, E.s. The Mandaeans today, The Hibber Jornal 1938 - 39

١٩ ـ سباهي، عزيز: أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المندى، دمشق/١٩٩٦ ص١٧٢ وأنظر:

Doresse, Jean, The secret Books of Egyptian Gnostics, The Viking Press, New York,1970 p.19

١٣ ـ نفسه ص٦١

١٤ ـ كوندوز، س: المرجع السابق ص١٦.

١٥ ـ الماجدي، خزعل: بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٨ ص٥٨ ـ ٥٩.

١٦ ـ إلياد، مرسيا: المقدّس والعادي، ترجمة د. عادل العوّا. صحارى للصحافة والنشر ـ بودابست (هنكاريا) ١٩٩٤، ص٨٨.

١٧ ـ نفسه ص٨٢.

١٨ ـ إلياد، مرسيا: أسطورة العود الأبدي، ترجمة نهاد خياطة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ١٩٨٧ ص١٨٢.

١٩ ـ **Rudolph,K., Theogonie, Kosmogonie and Anthropogonie in den mand. Schriften, Gottingen 1965**

٢٠ ـ كوندوز، س: المرجع السابق ص٧٢.

٢١ ـ ليدزبارسكي، مارك: المرجع السابق ص ٦٨٧.

٢٢ ـ **Naveh, Joseph, Early History of the Alphabet, Leiden, Brill 1922, 126 - p.125**

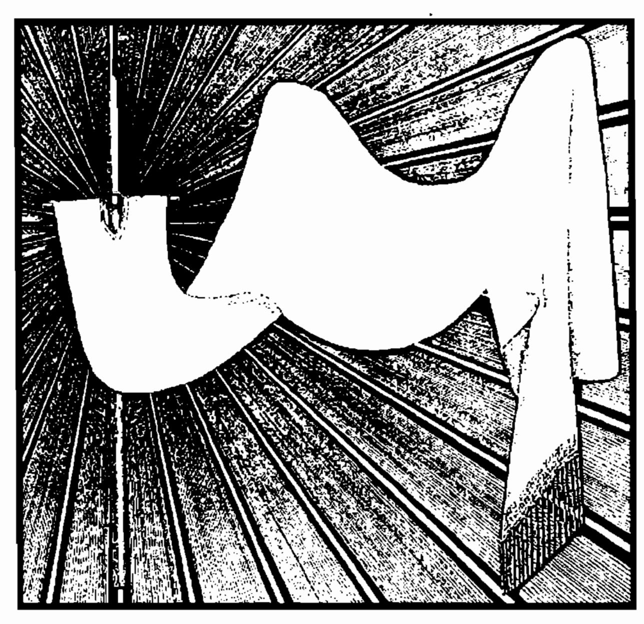
٢٣ ـ سباهي، عزيز: المرجع السابق ص١٨٢.

٢٤ ـ نغرين، جيو وايد، ماني والمانوية، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسّان للطباعة والنشر، دمشق د.ت) ص٢٣.

الفصل الثاني

أساطير الخليقة (التكوين)

Gensis Myths



الدرفش (شعار المندائيين) في غلالة من النور

«لم يسبق النور أيما وجود وما من شيء كان لولاه

ولم يكن هناك ثمة شيء موجود عندما لم يكن البهاء موجوداً

ما من شيءٍ كان قبل أن يوجد الحيّ العظيم

ولم يكن هنالك ثمة حدٌّ للضياء

ما من شيء كان قبل وجود الماء»

كنزا ربّا اليمين: ٣

المبحث الأول
الثيوغونيا المندائية
Mandaean Theogony

(خليقة الكائنات النورانية والظلامية والأرضية)

آثرنا البدء بتكوين (خليقة) الكائنات الإلهية (النورانية) والشيطانية (الظلامية) والآدمية الأرضية(لأن خليقتها تعّد المفتاح الرئيسي لفهم وتحليل الأساطير المندائية.

الثيوغونيا هو علم نشوء الآلهة والكائنات الإلهية من ملائكة وشياطين وعفاريت وأرواح صالحة وضارة وهو أحد مكونات علم الأساطير (المثولوجيا)، وتكاد الثيوغونيا تشكل عملية فك شفرة وأنساب وتسلسل الآلهة وأشباهها في أي دين أو أساطير.

ولعل الخطوة الحاسمة في الثيوغونيا هو ضبط انحدار وتسلسل الآلهة والكائنات الإلهية في شبكة متراصّة دقيقة من الأنساب. ثم فحص صفات كلّ مفردةٍ أو إله منها بشكل دقيق لكي يتم فهم موقعه وعلاقاته ومدى تأثيره في الأساطير التي تحيط به.

تمتاز المثولوجيا المندائية بوجود وفرة هائلة من الكائنات الإلهية التي تلعب الدور الأساسي في أساطيرها فبالرغم من وحدانية الديانة المندائية وإيمانها بخالق واحد للكون والإنسان والكائنات لكنها تنطوي على حشود وطبقات من الكائنات الإلهية فيها وهي عبارة عن أُثري وملائكة وأرواح وملاخيا وعفاريت وجن وشياطين شكلت عماد الأساطير التي نحنُ بصددها.

إن هذه الكائنات تلعب دوراً حاسماً في الأساطير المندائية وتُذكر في الكتاب المقدس (كنزا ربّا) وهي ليست مادةً للتراث الديني الشعبي كما في الأساطير الإسلامية بل هي أساس المتن المثولوجي الرسمي المندائي.

ورغم أننا لا نستطيع معرفة كل أسماء هذه الكائنات ولكننا حاولنا معرفة أغلبها وتنظيم خرائط أنساب خاصة بهم جميعاً.

وقد كان من الصعب التوفيق، في الديانة المندائية، بين التوحيد الذي يتمثل في (الحي العظيم -هيّي ربّا -) خالق الكون ورب الكائنات كلها وبين ذلك العدد الكبير من الكائنات الإلهية العليا والسفلى التي لها حكايات خاصة أقرب إلى الأساطير. لكنّ الحل الحاذق والذكي يظهر أولاً في تنزيه الخالق العظيم (هيّي ربّا) وعدم إشراكه في هذه الحكايات إلاّ بما يُظهره خالقاً آمراً ناهياً مشرفاً على المجريات دون الخوض في تفاصيلها، وثانياً في إسباغ صفات التوحيد الكثيرة عليه لكي لا يختلط مع غيره، وخصوصاً الكائنات الإلهية الكبرى، ولكي يتم وضعه، من خلال هذه الصفات والكُنى، في أعلى قمة الخليقة معتصماً بنزاهته وأزليته وصفاته المطلقة.

لنبحث أولاً في ماهية الحي العظيم ومكانته وصفاته وأسمائه. لكي ننصرف، فيما بعد، إلى تفاصيل الخليقة وأساطيرها وأسرارها.

أولاً: هيّي (الحيّ):

في المعجم المندائي ترد كلمة(هي) بمعنى (حي) وجمعه(هيّي) بمعنى (أحياء) أما كلمة (هيا) فتعني (حياة) وجمعها (هياي) وتعني(حيوات)، وقد اضطربت ترجمة كلمة (هيّي) الى العربية كثيرا ودارت بين احتمالين هما (حي) أو (حياة) ولايوجد مايحدد تذكيرها أو تأنيثها، والحقيقة أن (هيّي) هو الاسم الأصيل للخالق في صيغته المندائية، وهو يعني باللغة المندائية الآرامية (أحياء) وهو كل ماهو حي، فهو الإله الذي لا يموت، والحياة هنا صفةٌ لا تشير إلى ما هو حيٌّ فقط بل تشير إلى الخلود أي أن (حي) هو الخالد الذي لا أول ولا آخر لحياته ولا يعرف الموت.

المندائيون ينزّهون (هيّي) تنزيهاً عظيماً يندر أن نجد شبيهاً له في بقية الأديان فهم يسمونه بعدة أسماءٍ تدل على التوحيد ويطلقون عليه صفات كثيرة وأساسية لكنهم، مع ذلك، ينكرون أن أحداً يعرف اسمه الحقيقي.

أسماؤه:

وهي الأسماء الحقيقية للخالق المنزه ويمكننا أن نصنفها الى ثلاثة أنواع:

١ - **الأسماء القديمة**: وهي الأسماء الأصيلة له:

أ - هيّي: الحي

ب ـ قدمايي: الأزلي، الأول، القديم

ج ـ ربّا: العظيم

ومن هذه الأسماء يركبون أسماءً مزدوجة مثل (هيّي قدمايي) أي الحي الأول و(هيّي ربّا) أي الحي العظيم.

٢ ـ الأسماء المحدثة: وهي الأسماء المتأخرة:

أ ـ مَلكا إد نهورا: ملك النور

ب ـ إلاها: الله

وهي أسماء حديثة لا تستعمل كثيراً وخصوصاً (إلاها) والأول أقرب إلى الصفة والثاني متأثر بأديان أخرى.

٣ ـ الاسم السري:

١ ـ برصوفا ربّا إد إيقاره: سيماء النور العظيم. وهو اسم سريّ ذكرته المراجع وكشف عنه هرمز بن الملا خضير لليدي دراور.

الصفات الحسنى:

أحصينا أكثر من مئة صفة في كتاب الكنزا اليمين وبشكل خاص الكتابين الأول والثاني هي بمثابة الصفات الحسنى له وهي كما يلي:

١ ـ رب العوالم قاطبة

٢ ـ ذو الوقار والجلال

٣ ـ الله الرب العليّ

٤ ـ ملك النور السامي

٥ ـ ذو الحول الشامل

٦ ـ الذي لا حدود لقدرته

٧ ـ النور البهي

٨ ـ الضياء الساطع الذي لا ينضب

٩ ـ الرؤوف التواب

١٠ ـ الغفور الرحيم

١١ ـ منقذ جميع المؤمنين

١٢ ـ ناصر كل الطيبين

١٣ ـ العزيز

١٤ ـ الحكيم

١٥ ـ البصير

١٦ ـ العارف

١٧ ـ الذي على كل شيء قدير

١٨ ـ رب عوالم النور كلها (العليا والوسطى والسفلى)

١٩ ـ ذو السيماء العظيم

٢٠ ـ الموقّر

٢١ ـ الذي لا يُرى ولا يُحد

٢٢ ـ لا شريك له بملكه ولامنازع له في سلطانه

٢٣ ـ الذي لايخذل من يعتمد عليه

٢٤ ـ رب الملوك جميعاً

٢٥ ـ لا وجود بدونه وما من شيء لولاه

٢٦ ـ أزليٌّ ليس له بداية

٢٧ ـ أبدي ليس له نهاية

٢٨ ـ لا قياس لسطوعه ولا حساب لنوره ولا حدوذ لبهائه

٢٩ ـ الروعة بذاتها

٣٠ ـ الضياء بجلاله

٣١ ـ العظمة بكمالها

٣٢ ـ الحياة برمتها

٣٣ ـ الوفاء بنقاوته

٣٤ ـ المحبة بنفسها

٣٥ ـ الرأفة الرؤوم

٣٦ ـ العفو الشامل

٣٧ ـ العيون التي لا تنام

٣٨ ـ ذو السيماء البهيج

٣٩ ـ ذو الوجد الجميل المبارك

٤٠ ـ ذو العقل الفطن

٤١ ـ المعرفة والوحي

٤٢ ـ كل أسماء العظمة

٤٣ ـ ذو الحول الشامل

٤٤ ـ المبارك بكل النعم

٤٥ ـ الأول منذ النشوء

٤٦ ـ الخالق كافة المخلوقات الحية

٤٧ ـ الصانع الأشياء المبدعة

٤٨ ـ الصادق في حكمته

٤٩ ـ الخفي غير السافر

٥٠ ـ العليّ على حشد الأثري برمتها

٥١ ـ رب الآلهة بأسرها

٥٢ ـ ملك الملوك

٥٣ ـ الرب العظيم على كافة الملوك

٥٤ ـ الوهج الذي لا يتغير

٥٥ ـ النور الذي لا ينضب

٥٦ ـ الجمال والبريق والعظمة في آن واحد

٥٧ ـ الحياة والبقاء

٥٨ ـ السطوع والبهاء

٥٩ ـ النور والضياء

٦٠ ـ النور لا الظلام

٦١ ـ الحياة لا الموت

٦٢ ـ الطيبة لا السيئة

٦٣ ـ اللطافة لا التمرد أو السخط

٦٤ ـ الوديع بدون سمٍّ أو مرارة

٦٥ ـ الجالس على عرشه في أقصى الشمال

٦٦ ـ القوي

٦٧ ـ الوسيم

٦٨ ـ الزاهي

٦٩ ـ المستودع الأصلي لكافة الأضواء

٧٠ ـ أب كل الأثري

٧١ ـ مشرح الصدر

٧٢ ـ الحقيقة المطلقة التي تسكن في الأجواء العالية الشاهقة

٧٣ ـ الإله العظيم

٧٤ ـ رب جميع الأشياء الكبرى

٧٥ ـ البهاء

٧٦ ـ جبل شامخ

٧٧ ـ القدير

٧٨ ـ الرحيم

٧٩ ـ الرحمن

٨٠ ـ الحكيم

٨١ ـ رب الحمد

٨٢ ـ المخلّص جميع المخلوقات الطيبة

٨٣ ـ الواهب جميع المخلوقات الوديعة

٨٤ ـ المخلّص الأرواح

٨٥ ـ الدافع كل الأضرار

٨٦ ـ الحافظ برعايته المخلصين

٨٧ ـ المحفّز كل المختارين

٨٨ ـ المرسل، كل دعاء وتسبيح، للماء الحي

٨٩ ـ التوّاب

٩٠ ـ الطبيب الذي يشفي أصدقاءه الأرواح

٩١ ـ الجبار ذو الحول الشامل

٩٢ ـ الصادق الذي يقود المخلصين إلى الإستقامة

٩٣ ـ الرب العظيم ذو الرحمة الشاملة

٩٤ ـ المفرّق بين الحياة والموت

٩٥ ـ باسط السماء

٩٦ ـ مكثف الأرض

٩٧ ـ رب جميع الأرواح (رب النشمثا)

٩٨ ـ المرسل مبشري الكوشطا

٩٩ ـ المفرّق بين النور والظلام

١٠٠ ـ المرسل للماء الحيّ

١٠١ ـ البريء المعصوم

الصفات الأساسية:

يذكر كتاب الكنزا ربا خمس صفات أساسية للحي العظيم كما يلي: «إن خمس صفات كبيرة وعظيمة تميزه؛ الصفة الأولى هي بهاؤه الذي يغمر الأثري والملوك على السواء. الصفة

الثانية هي شذاه العبق الذي يستنشقونه جميعهم. الصفة الثالث هي حلاوة صوته التي تغمرهم بالسرور. الصفة الرابعة هي حديث لسانه الذي أوقظهم إلى الحياة ثم جعلهم يؤمنون به. الصفة الخامسة هي جمال هيئته المتكاملة التي تحثهم على الكبر والنمو كالأثمار تحت الشمس»[1]

يمكننا أن نلخص هذه الصفاة بـ(البهاء، العطر، الصوت، الكلام، الجمال) فهي الصفات التي تغمر عالم النور الذي يقف (هيّي) على قمته.

ويظهر الحي متربعاً على عرشه في (وطن الشمال) الذي يشكل مكان نجمة القطب الثانية حيث يوجد بعدها عالم النور الذي يتوِّجه الحي بجلاله وهو «مرتدٍ ثياب الروعة التي لا يعرفها الملأ على الأرض، لم تقل أية امرأة بعد: نحنُ نرغب في أن نصنع الرب العرشٌ حُلّةً، ما من واحدةٍ قالت هذا وليس في وسع أبناء البشر كذلك أن يفصّلوا الد\ثار الذي يضعه هو على كتفيه. إن الثوب الذي يرتديه لا يهترأ بسب الاستعمال لا يستطيع العث والعفن أن تنالا من بطانته»[2]

ويجب أن لا نتوهم أن نور الكواكب وخصوصاً الشمس أقوى من نوره، بل هي كواكب معتمة لكن ضوءَها يأتي منه لأنه هو الذي يمنحها هذا الضوء فتعكسه على البشر والأرض «ليس للشمس أمامه أن تغرب ومصابيح مدينته لا تنطفئ أبداً ليس للتيجان على رأسه أن تصدأ وليس للأوراق التي تزين إكليله أن تسقط تلك الأوراق التي تتدلى من رأسه. عبير زكيّ الرائحة يضوع بين أوراق الأكليل الذي يغشي سيماءه، عندما تغمر تلك الرائحة الأثري برمتها ينتشي قلب هذه بالسرور»[3]

ليس هناك آلهة تشارك (الحي) عالم النور أو أيّ عالم آخر في الكون لكن هذا لا يعني أن الآلهة لا ترد في الكتب المندائية المقدسة، ففي الكنزا ربّا وهو الكتاب المقدس لهم ترد عبارة أن الحي هو (رب الآلهة بأسرها)[4] وكذلك (هو مسبّح ومرتفع وعظيم دونه جميع الآلهة)[5] ويعكس هذا البيئة المشركة التي ظهر فيها الدين المندائي وهي بيئة الآلهة المتعددة فكأنه بذلك يردّ على عبدة الآلهة بتوحيده للحي، كذلك يشير الكنزا ربّا في بعض مقاطعه إلى أن «الحياة برمتها تفنى وتزول وجميع الآلهة).[6] وهذا يعني أن الآلهة، من وجهة نظر الكنزا ربّا، ليست خالدة بل هي زائلة وفانية. أما الحي العظيم فهو الباقي الأزلي (الأول الذي انبعث من ذاته) وبالمندائية يقال عنه (أدمن نافشي أفرش).

جذور هيّي :

كنا وما زلنا نؤمن أن الديانة المندائية ولدت في وادي الرافدين وأن شعبها الناصورائي هو أحد شعوب العراق القديم مثله مثل السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين، لكن هذا الشعب لم يكوّن له دولة أو كياناً سياسياً ذات شأن لعزوفه عن مغريات السلطة والجاه، ولا شك أنه حمل تراثاً روحياً عظيماً شفاهياً متداولاً في تلك العصور لكن تدوين هذا التراث حصل مع سيادة اللغة الآرامية في العالم القديم وبذلك تمّ تدوينه بلهجة آرامية هي المندائية وهنا تغيّر اسم هذا الشعب من الناصورائيين إلى المندائيين. كان الشعب الناصورائي قد اتخذ من الإله (إيا) إله الماء الإله المركزي الأكبر له ونبذ، بمرور الزمن، آلهة وادي الرافدين المعروفة.

وكان اتخاذه من (إيا) له مبررات كثيرة، منها، أن هذا الشعب كان يسكن في مناطق يكثر فيها الماء قرب روافد دجلة والفرات وأهوار الجنوب العراقي، ثم أن أعرق إله ظهر مع أول حضارة في السهل الرسوبي كان هو الإله (إيا) أو (إنكي) بالسومرية الذي كان إله مدينة (أريدو) أول مدينة في التاريخ في حدود ٥٠٠٠ ق.م. وحين اتخذ السومريون من (إنليل) الإله المضاد لـ(إنكي) إلهاً قومياً ظلّ الناصورائيون متمسكين بـ(إيا) لاعتقادهم بأن الماء هو أصل كل شيء.

نرجّح أن يكون (إيا) هو جذر (هيّي)، فالتصويت الآرامي لـ(إيا) كان هو (هيّي) الذي أصبح يعني الحياة أو الحي بالإضافة إلى (الماء).

ولا نستبعد أن تكون الإلهة (آيا) قرينة إله الشمس قد شكلت الوجه الأنثوي للإله (إيا) بحكم تقاربها اللفظي، وهكذا احتوى الإله (هيّي) الآرامي المندائي على وجهين مندمجين تماماً هما (إيا: الماء) و(آيا: ضوء الشمس). وأصبح (هيي) ذكراً وأنثى في الوقت نفسه أو أنه ليس بالذكر أو الأنثى بل إله كامل يجمع المتضادات كلها.

والحقيقة أن هذا الاستنتاج يتعزز تماماً عندما نعرف أن اللاهوت المندائي يجد أن عالم النور هو النموذج الأمثل لكل عوالم الكون وأن هذا الكون يتكون ببساطة من (الماء والضوء) من (إيا وآيا) بل أن هذا الاستنتاج يلقي الضوء على المشكلة اللاهوتية المعقدة التي نناقشها لاحقاً بين (الحي والحياة) اللذين يبدوان متماهيين في بعضهما على مدى الثيوغونيا المندائية.

إن الإله القومي لأي شعب هو الذي يلقي الضوء على شخصية هذا الشعب ونرى في إله

الماء (إيا) مفتاحاً مهماً لفهم الماضي الأسطوري للدين المندائي.

كان الإله (إيا) إله الخلق والمعرفة والسحر والطب والفنون، كان يسمى (ماء الحياة) فهو سرّ الحياة وهو سبب الخلق، وكان المتعبدون البابليون وغيرهم يتوسلونه بالتعاويذ والرقي فهو الذي يطرد الشياطين وينقذ الناس من الأمراض، ولذلك كان يسمى (بل شفتي) أي ربّ التعاويذ. (٧)

الإله (إيا) خلقَ كلّ شيء حي، وهذا يعني أن السماء والأرض والعالم الأسفل والهواء والأشياء الجامدة ليست من اختصاصه بل الأشياء الحية كالإنسان والنبات والحيوان وهو مسؤول عن نتاجها الحي والمعرفي فهو إله الحكمة والفنون والسحر والطب وغير ذلك. ورغم هذا كله فأن سلالة (إيا) البابلية خرجت منها الكواكب وسيدة العالم الأسفل. وبذلك يشكّل (إيا) محور الآلهة وهو الوريث الحقيقي للإلهة (نمّو) السومرية أم الآلهة و(تيامت) البابلية وزوجها (أبسو) الذي هو والد (إيا).

إذا كان الماء الأول الهيولي في الأساطير الرافدينية(مثل نمّو وتيامت) يمثل هاوية سحيقة لمياه بدئية غير منتجة للحياة بسبب سكونها فإن (إيا) هو الماء الحي، الماء الجاري المنتج للحياة والمسؤول عنها. وحين انشغل الرافدينيون القدماء بالآلهة الجلجلة الجعجعة مثل إنليل وآشور ومردوخ وشمش وهي الآلهة القومية للسومريين والآشوريين والبابليين والأكديين على التوالي، أهملوا ذلك الإله العظيم (إيا) فكان من نصيب شعب رافديني سكن في السهل الرسوبي منذ أقدم الأزمان ذلك هو الشعب الناصورائي الذي هو أصل المندائيين، وهذا الشعب كان قليل العدد لا يحب الحرب وينشد السلام ويحب الحياة الحقة وكان قد انزوى، مع الزمن، قرب مصب النهرين وعند الأهوار وظلّ بعيداً عن ساحة الحروب الطاحنة التي خاضت فيها شعوب الرافدين فيما بينها أو مع الشعوب الغازية لها.

أعلى الناصورائيون شأن (إيا) ونزّهوه عن الشرك وأسبغوا عليه صفات التوحيد وتصوروا عالمه النوراني الخالص في شمال الكون عند النجم القطبي، وحين بزغ الآراميون منذ الألف الأول قبل الميلاد تقريباً حتى سيادة اللغة الآرامية في الشرق الأدنى في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً تحولت كتبهم(الشفاهية على الأغلب) الى هذه اللغة الآرامية(التي ربما كانت لغتهم الأصلية منذ أريدو) وقد أصبحت وبلهجة خاصة منها أسموها المندائية التي تعني (العرفان) وهي

ترجمة تقريبية لمعنى (ناصورا) التي تعني (النظر) و(الملاحظة) و(المعرفة).

كان الشعب الناصورائي الأقرب إلى الشعب السومري الذي بنى حضارته في مدن جنوب العراق، بشكل خاص، وهناك تأثر الناصورائيون بالسومريين وأخذوا منهم الكثير في ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم رغم أننا نرجح اليوم ان حضارة أريدو التي سبقت ظهور سومر وكانت هي الأصل الأول للمندائيين. وقد حاولنا في كتابنا (جذور الديانة المندائية) تقصي العلاقة المشتركة بين الديانتين السومرية والمندائية دون أن نخلط بين الشعبين من حيث الأصول والتاريخ.

ثانياً: سلسلة الثيوغونيا المندائية:

استلزم منا تنظيم سلسلة الثوغونيا المندائية خوضاً صعباً في مراحل الخليقة المندائية وما ظهر فيها من كائنات إلهية وشيطانية، وكان لا بد، من أجل ذلك، وضع تسلسل دقيق مترابط بين هذه المراحل. بل ودفعنا مثل هذا التسلسل الدقيق إلى الذهاب بعيداً حتى نهاية الشوط حيث تمّ تدمير الجنس البشري ثلاث مرات وبانتظار التدمير الرابع. وقد كان هذا متساوقاً، تماماً، مع الهندسة المتقنة الخفيّة التي وضعها المندائيون، بوعي أو بدون وعي، لمسيرة الكائنات العليا والدنيا معاً.

لقد استطعنا تنظيم وهندسة هذه السلسلة الثوغونية من خلال قراءة معمقة للتراث الروحي المندائي وكتبه الدينية وخصوصاً كتاب الكنزا ربّا الذي نعده كنزاً حقيقياً لواحدةٍ من أعظم الصفحات الروحية للبشرية، لكن إهمالها المتعمد من قبل الدارسين وتكتّم أهلها عليها وعدم توسّع الدراسات المندائية، في الغرب والشرق، هو الذي جعل هذا التراث في الظّل وغابت عنه البحوث الدقيقة الوافية التي تسبر أغواره البعيدة.

إن سلسلة الثيوغونيا المندائية هي مفتاح فهم المثولوجيا والديانة المندائية وبدونها سيصعب على أي دارس، مهما كانت حذاقته، فهم وتتبع الأحداث والشخصيات الإلهية وغيرها، بل أن هذه السلسلة ستكشف عن البنى الخفيّة للديانة المندائية وتقرّبنا من حلّها تماماً كما سنرى.

تتكون سلسلة الثيوغونيا المندائية من أثني عشر دائرة ثيوغونية (موضحة في الشكل٤). تنتمي أربع دوائر منها إلى عالم النور تمثل سلسلة الخليقة الرئيسية في عالم النور، وتنتمي أربع منها، موازية للأولى، إلى عالم الظلام تمثل سلسلة الخليقة فيه، أما الدوائر الأربع الأخرى فهي لعالم

الأرض الذي نشأ فيه الإنسان حيث سلسلة الخليقة البشرية ذات الجوهر الإلهي والجسد الظلامي وحتى يتم فيها فناء البشريات الأربع كما سنرى.

١ . ثيـوغونيا النــور :

تتكون ثيوغونيا النور من أربع دوائر متصلة ببعضها هي دوائر الحي (الحيـاة) الأول والثـاني والثالث والرابع، وقد خرجت أغلب كائنات النور من هذه الدوائر، وسنتناول هذه الدوائر على أساس ظهور كائناتها من بعضها وتناسلها الخاص وعلى أساس تواليها وتسلسلها عـن بعضـها، ولن نتحدث عن طبيعة الخليقة الإلهية والكونية أو البشرية لأن ذلك سنتناوله في مكان آخر.

لا بد من التنويه أولاً إلى أن عملية الخلق في ثيوغونيا النور تتم عبر عدة وسائل وهي :

١ ـ الكلمة (قالا) : فعندما يقول الكائن الإلهي الموكل بعملية الخلق فأنه بمرد كلامه سيكون الخلق متدفعقاً وكلمة الخلق هي (ميمرا).

٢ ـ النداء (قرا) : عندما ينادي فإن ذلك يعمل على خلق ما يريد.

٣ ـ التفكير: حين يفكر في خلق شيء فإن ذلك الشيء يُخلق.

٤ ـ الانبعاث (الانبثاق) : حيث تتوالد الأشياء والمخلوقات من بعضها.

٥ ـ الإنبات (نباط) : حيث تنبت الأشياء وتتبرعم.

٦ ـ الإنارة (نهورا) : عندما يسلط الضوء أو النور على شيء فإنه يولد

٧ ـ التفتح (برا) حيث تتفتح الأشياء وتخلق غيرها.

٨ ـ الجبروتية (أنروب) : حيث يتضخم الكائن ويكون كائنات أخرى.

تشرع عملية الخلق الأولى بقيام الحيّ العظيم (هيّي ربّا) بخلق الـ(مانا) مـن كلمتـه أو نـوره أو ندائه داخل وعـاءٍ كـوني دخـاني، نـرجّح أن يكـون (تنّـا). وهكـذا يكـون (مانـا) داخـل (تنّـا) ثـم تكون، في عـالم النور، عمليـات خلـق معقّـدة يسـمى فيهـا هـذا الوعـاء بـالثمرة (بيرا) أو (بهثـا) وغيرها. وفي النهاية يظهر نهر (برياويس) الذي يظهر منه الحي أو الحياة (هيّي) وهي الحياة الأولى. ويبدو أن مغزى هذه العملية هو نقل الحي العظيم من حالة السكون الى حالة الحركة.

أما تنّا الذي كان وعاءً للنور فأنه يصبح، بعـد ذلـك، مـادةً للظـلام حيث تخرج منه دائـرة الظلام الأولى التي تنتهي بخلق نهر مضاد أسود اللون هو نهر سينياوس الذي تظهر منه (قن) وهي

الحياة المضادة أي أم الظلام أو الظلمة الأولى أو الظلام الأول وسنتابعها فيما بعد.

١ ـ دائرة الحياة الأولى (هيّي قدمايي)

تبدأ الخليقة الثيوغونية عندما يتحرك الحي العظيم وينقل من سكونه الأزلي الى الحركة، وحركته تعني أنه سيكون بداية الخلق عن طريق مانا الذي يظهر بصفة (مانا ربا) في غلاف كوني عظيم هو (كنّا) الذي سيتحول إلى (تنّا).

تتكون دائرة نشوء الحياة الأولى، أي التي تنتهي بظهور الحياة الأولى، من ١٢ عنصرا. في البدء يظهر، من الحي العظيم، (مانا) على رأس هذه الدائرة محاطاً بغلاف هو (تنّا) ويتكون بشكل (مانا ربّا) أي (مانا العظيم) الذي سيكون على رأس عالم النور.وهناك نموذجان لهذه الدائرة يُظهران اثني عشرعنصراً تكوّن مادة الدائرة تبدأ بحركة (مانا العظيم) وهو أشبه بالروح العظمى وتنتهي بظهور (الحياة الأولى).

في كتاب(كنزا ربّا) هناك نموذجان لخليقة عالم النور في دائرة الحياة الاولى وهما:

١. في الكنزا اليمين/ الكتاب الأول: حيث يكون (مانا) مرتبطاً بسلسلة من الظهورات والانبعاثات، مع الثمرة (بيرا) والأثير (أيرا) والحرارة الحيّة (إيشاثا هاتيا) والنور والتي تؤدي على ظهور الماء الحي الذي تظهر في نهايته الحياة الأولى العظمى.

إن هذه السلسلة من الظهورات التي بدأت بـ(مانا) وانتهت بـ(الحياة) تشكل النموذج الأول في خليقة عالم النور.

٢. في الكنزا اليسار: الكتاب العاشر: حيث يكون (مانا) مرتبطاً بسلسلة أخرى مختلفة حيث تحل محل الثمرة (بيرا) الموجودة في النموذج الأول (البهثا) التي نرجّح ترجمتها بـ(تنّور) يكون فيها البهاء متأججاً ثم تبدأ سلسلة من الظهورات عن طريق الإنارة حيث يسقط البهاء فيتأجج الشيء ويظهر منه ما يليه وهكذا تظِهر (نبتا) أو نباط ثم (تنّا) التي تبدو مثل وعاء يُظهر دخاناً أو ضباباً وحين يتقد البهاء على(تنا) تظهر الينابيع (مامبوغي) وينشأ الاتحاد (اللاوفا) الذي لا تنفصم عراه ثم يظهر الماء الحي الذي يكون مكاناً للحياة.

وقد عملنا على وضع هذين النموذجين المختلفين مع بعضهما ليشكلا خلية أو دائرة النور التي هي بمثابة نواة عالم النور، وتضج هذه النواة/ الدائرة بملايين من الكائنات النورانية الصغيرة

تكون على نوعين: (المانات) التي تظهر من (مانا) و(الثمرات) التي تخرجُ من الثمرة الكبرى.

أما الكائنات النورية المكونة لدائرة النور الأولى فهي:

١. آيَر (أثير): هواء عالم النور ومنه ريح الشمال، وارض آير بمعنى ارض عالم النور

٢. ياور(جوهر): يوهرا بمعنى الضوء الساطع.

٣. إيشاثا هاتيا (حرارة حيّة): الطاقة الموجودة في الأشياء وهي النار الخلاّقة الهادئة.

٤.نبطا (بهاء): النطفة الأولى وهو التدفق (الإفراز) الأول للحياة.

٥. لاوفا (إتحاد): وتعني إتحادالأثري أو الكائنات النورية مع بعضها أو مع عالم النور أما المعنى الطقسي لها فيعني (يعطي) أو(يأخذ) ويكون عن طريق وجبة دين

٦. مامبوغي (ينابيع): ينابيع الماء في عالم النور.

٧. بيرا (ثمرة): وهي الوعاء الذي يسكن فيه الـ(مانا) أي الروح، وهي بمثابة المساكن النورية.)

٨.نهورا (نور): النور الذي هو أساس عالم النور

٩. ميّا هيّي: الماء الحي

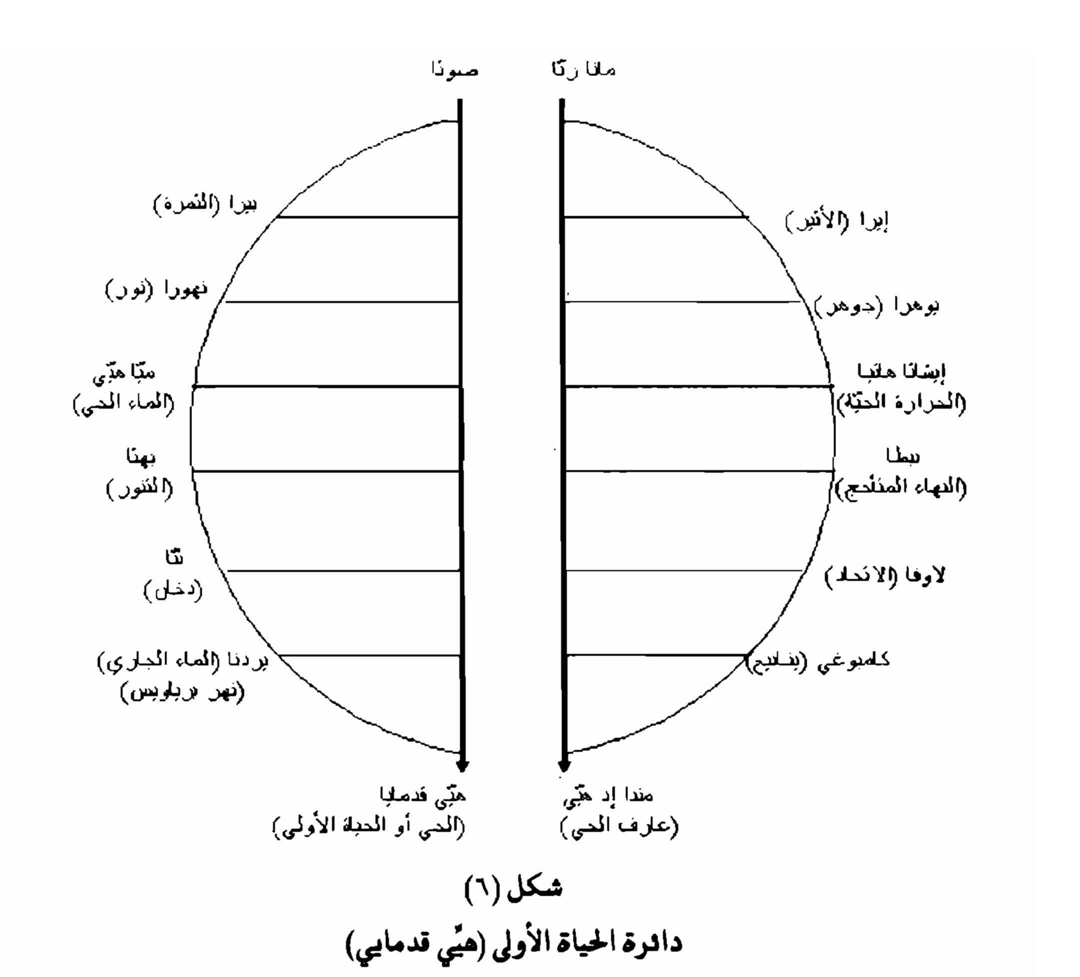
١٠. بهثا (تنّور): وعاء كوني

١١.تنّا (دخان): وعاء كوني احتوى الروح في البداية ثم أصبح مادة التكاثر أو البذور في عالمي النور والظلام

١٢.يردنا (ماء جاري): ماء النهر الجاري أو الماء الحي، ويردنا تحديدا هو النهر السماوي ذو المياه البيضاء الذي يحيط بأرض النور(آير) وطقسيا هو مياه النهر الذي يجري فيه التعميد.

ويكون مانا ربّا وصوثا في بداية الدائرة أما في نهايتها فتظهر الحياة الأولى ومنداإد هيّي(عارف الحي) الذي سيكون بمثابة راعي عالم النور الأول.

الحياة الأولى ساكنة ومندمجة بالحي العظيم خالقها لكنها بعد هذه الحركة الخلقية الأولى تصبح متحركة ودائرة الحياة الأولى هي دائرة العالم النوريّ الاول وتعتبر مسرحاً للخروج من النور الخالص إلى الخليقة الحيّة المتحركة.



شكل (٦)
دائرة الحياة الأولى (هيّي قدمايي)

تقف الحياة (هيي) في نهاية هذه الدائرة بعد أن خرجت من يردنا (الماء الحي) الذي انتهت إليه حركة النور. والحياة هي نفسها الحي (هيّي) الذي بدأت به الخليقة لكنها صيغةً ثانية ودورٌ ثانٍ يلعبه الحي، مرةً أخرى، بالكثير من التفاصيل الخاصة بالخلق وقد انتقل من السكون إلى الحركة. ودليلنا على أن الحياة هي الحي نفسه هو أن الكائنات النورانية تخاطب الحياة بقولها (يا أبي) وليس (يا أمي). ونعتقد أن هذا الأجراء كان ضرورياً لمنع تدخل الحي في كلّ التفاصيل ولمنع الإيحاء بوجود (الأبن) أو (العقل الثاني) الذي اصطلح عليه في الغنوصيات الغربية بشكل خاصة.

تسمى (الحياة) باسم (الحياة الأولى) أو (الحياة العظمى) أو (الحياة الكبرى) تمييزاً لها عن الحي وعن الحيوات الثانية والثالثة والرابعة.

وتتضح علاقة (الحياة) بـ(الحي) من خلال (مانا) الذي كان مركز الدائرة الأولى. حيث أن (مانا) يفكر بـ(صَوثا) أي بمقابله الأنثوي (صَوثا تعني في حالة التأنيث: ضوء، زينة، نظام، بهاء) فتُخلق (صوثا) وتنجب من (مانا) الساكن في الثمرة (مانا العظيم) أو «مانا المشع العظيم أو مانا الثمين أو (مانا الأول) في المانات — من الممكن أن مانات تعني هنا الحاويات أو الأوعية والأجهزة والأدوات (الأوائل) والتي ينشأ منها (الثواني) و(الثوالث) و(الروابع) أي المقصود على التوالي: الحياة الثانية، الحياة الثالثة، الحياة الرابعة أي بمعنى الثمار ـ وربما المقصود الخَلّق أو المساعدون مما أدى هذا كله إلى عملية الخلق».(٨)

ويوضح هذا النص تلك العملية:

«إني أتحدث مع هيئتي (دموثاي) قائلاً:

«تعالي نحن ـ أنتِ وأنا ـ نريد أن نبنى (نخلق) معاً
نحنُ نريد أن نبني نداءً مستتراً
نبني في الثمرة التي هي آية في الروعة
إلى أن نخلق ثمراً، إلى أن نخلقَ أعواناً
نحنُ نريد أن نبقى تحتَ ظلِّ البهاء الوفير
ونحفظ بعضنا البعض الآخر على وجهٍ بالغ الكمال
ربما سوف نصنع أثري من قبلنا
وتمدح هي إيّانا كما لو كنّا نحن من العظماء.
عندما فاه هو بهذا
فكّر في الرفيقة (صوثا)
إنه جعل يفكر في الرفيقة
التي تكمن في الثمرة العجيبة
هو تكلم وفكّر:
إني أريد أن أخلقَ رفيقةً على جهتي اليمنى
ومصابيح على جهتي اليسرى
إني أريد أن أخلقَ مبعوثي الحياة

الذين يكونون في الخفاء في عهدتي
بعد ذلك ردّت الهيئة
وتكلمت قائلة إلى مانا العزيز :
- إذا خلقت أنت مبعوثين
فسوف يمتد النقص في نبتةٍ أصلك إتّساعاً
إن النقص في نبتة أصلك يمتد اتّساعاً
بسبب الرذيلة في العالم
سوف يكون الكذب فيها
وتنشأ رجةٌ في العالم»
ثم أعقبت أنا وتكلمتُ قائلاً :
إلى هيئتي التي تفوق في غرابتها كلّ وصف :
- لقد فكرنا وأمعنّا في التفكير وها نحنُ أولاء نريد الآن أن لا نزرع غرسةً
يخرجُ منها النقصان والعوز
منها يخرجُ النقصان والعوز
وتنشأ رجّة في العالم
إني انحنيتُ وركعتُ خاشعاً أمام رفيقتي
واستلمتُ منها كوشطا ثمينة
نحنُ دخلنا في أجهزةٍ واختفينا محتجبين
ورضيت هي بأن تكون رفيقتي
عندما جاء الأوائل إلى الدنيا
فكّروا في الثانية
عندما جاء هؤلاء أيضاً
فكّروا في الثالثة
عندما جاء هؤلاء أيضاً
فكّروا في الرابعة
من هؤلاء الأخيرين
نتج النقص والعوز

جاء منهم النقصان والعوز
فنشأت رجّة في العالم»[٩]

يلخص النصّ السابق أحداث الخلق في الحياة الأولى رغم أنه لا يعطي الدور الواضح للـ(حياة) وهذا أمرٌ مألوف في النصوص المندائية التي تركّز أحياناً على شخصيّةٍ ما فتهمل غيرها، لكننا من خلال قراءة مجمل النصوص نعرف تماماً أن مثل النص السابق يوضح دور (مانا العظيم) الذي هو بمثابة الراعي الروحي الكبير لدائرة النور الأولى والذي يرافق ظهور الحياة الأولى بصيغتها المتحركة.

ويجب التنويه إلى أن الخلق والولادة في عالم النور لا يعني شأناً جنسياً ولا تدل كلمات الأب والإبن والإبنة على توالد جنسي بالمعنى المعروف بل على الأسبقيات والتتالي.

٢ ـ دائرة الحياة الثانية (هيّي تنينايا)

(يوشامن)

الحياة الأولى تُنجبُ سلسلتين من الكائنات الروحية الأولى هي كائنات ضوئية (زيوا) متصلة مع بعضها وهي:

١. ياور زيوا: جوهر الضوء الذي سيرافق أعمال الحياة الثانية وقد يسمى (سام زيوا)
٢. بهاق زيوا: بياض الضوء الذي سيرافق أعمال الحياة الثالثة ويسمى (نصاب زيوا)
٣. هيبل زيوا: واهب الضوء الذي سيرافق أعمال الحياة الرابعة وهو ابن مندا إد هيي.

تقوم (الحياة الأولى)، بطريقة لاجنسية، بأنجاب إبنها العظيم (مندا إد هيي) (عارف الحي) الذي يمثل أكبر الكائنات الروحية وأعظمها دوراً في سلسلة خليقة الكائنات والكون والإنسان والذي ظهر مرافقا لها في الدائرة الأولى، ويعتبره المندائيون مؤسس الديانة الديانة المندائية ورسولها الأولى والأكبر وهو (المخلّص و(المرسل) و(المولود الأول للحياة أو لـ(مانا) وهو (العرفان) و(المعرفة الحيّة) التي يبشر بها الدين المندائي. ويُنجب (مندا إد هيي) ثلاثة أبناء هم:

١. هيبل زيوا: ومعناه الحرفي(واهب الضوء) الذي سيلعب دوراً كبيراً في العمليات اللاحقة
٢. شيتل زيوا: ومعناه الحرفي(الشتلةُ) أو(الغرس الطيب).

٣. أنوّش أثرا: ومعناه الحرفي الانس الثري بالضوء.

وسيكون كل من هؤلاء الأربعة رعاة لكل دائرة أو عصر من عصور النور الأربعة على التوالي.

وتقوم الحياة بإنجاب ملايينَ من الأُثري (الأثرياء بالضوء) وهم الكائنات الضوئية الخيّرة والملكي (الملوك أو الملائكة) وهم كائنات ضوئية حياتية بعضها خيّر وبعضها الآخر ليس كذلك (ربما لأنه يتبع الحيوات الثانية والثالثة والرابعة وهي حيوات النقص والعوز) وكذلك تنجب الحياة (الشكينات) وهي مساكن الضوء التي كان يسكن فيها الأُثري.

وتسمى الحياة الأولى باسم الحياة الغريبة (نخرايا) بسبب انفرادها وتفردها قياساً للحيوات الأخرى فهي الكاملة بينما الأخريات يشوبها العوز والنقص تدريجياً أي أنه يزداد مع الثالثة ثم مع الرابعة.

الحياة الأولى تفعل ما فعله (مانا) تماماً فهي تنادي هيئتها أو شبيهها (دموث هيي) أو (شرّات) ويسمى في بعض النصوص (صوثا هيي) أو (شريك الحياة) أو (شعاع الحياة) ويجري ذلك في تنّا (الدخان والضباب) أو نطفتا (نطفة عالم النور) وينتج من هذا التزاوج الكائنات الروحية الحياتية الآتية:

١. نبطا ربّا: النطفة العظمى وهو التدفق (الإفراز) العظيم للحياة

٢. براث إنانا: سحابة النور

٣. شهرات إنانا: مركب النور

٤. مار أد ربوثا: سيد العظمة، أب الأثري جميعا

٥. ياور ربّا: الجوهر العظيم

٦. تروان نهورا: أرض النور تروان

٧. نطفتا: النطفة

٨. سيمات هيّي: صفة الحياة أم الملائكة وكل العوالم

٩. كنّات ربتي

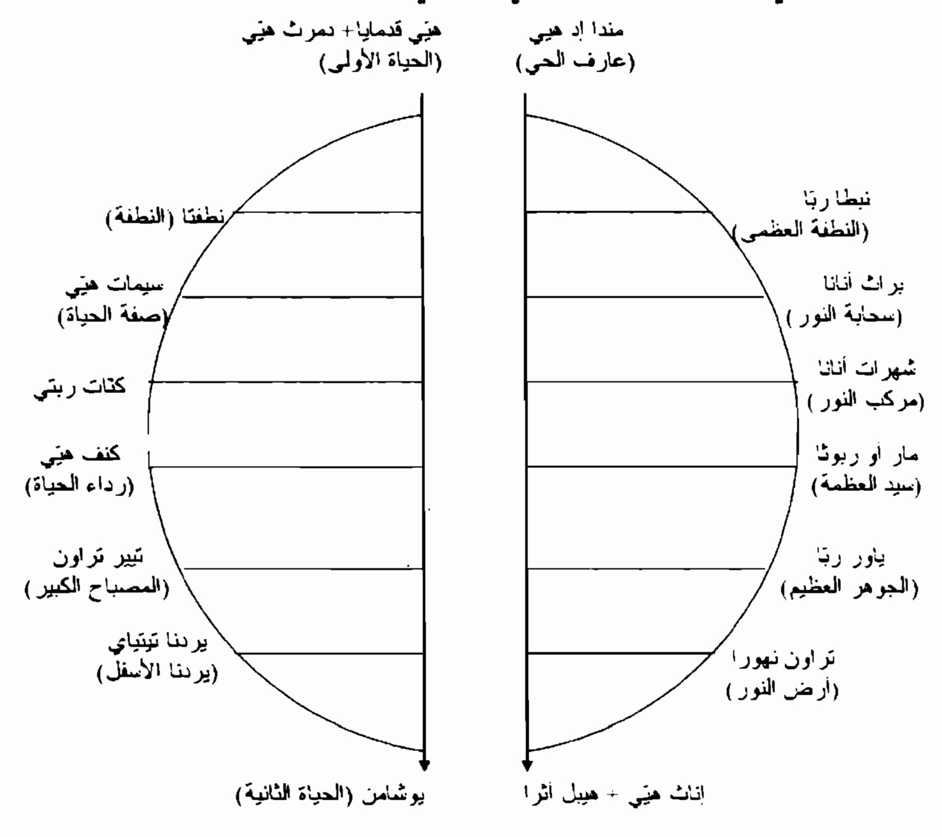
١٠. كنف هيّي: رداء الحياة

١١. تييرتروان: المصباح الكبير

١٢. يردنا تيتياي: يردنا الأسفل

إن الفاعلية الثيوغونية الأساسية هنا هي في تكوّن الحياة الثانية (يوشامن) من الحياة الأولى، لقد بدأت هذه الحياة الثانية بالظهور من (هيّي) و(دموث هيّي) حيث تظهر ك(أثرا دائم وأبدي) من الماء الحي (يردنا) وتنشأ معها أثري بدون عدد. فتتخذ هذه الحياة الثانية لها مسكناً ثابتاً وتؤسس لها شكينات وتكوّن نهراً، وهكذا تنفصل عن الأولى وتتطلع لتأسيس مسكن لها خارج عالم النور (ومن هنا تبدأ الخطيئة الأولى) بحيث يوصف تصرفها هذا كأنه (تمرد) و(عصيان) وهو ما سيوصف بـ(الخطيئة الأولى).

ورغم الفعاليات الكثيرة التي شرحناها للحياة الأولى (هيي ربّا) وهي تُنجب الحياة الثانية (يوشامن) لكن دائرة الفعاليات الرئيسية يمكن وضعها في المخطط الآتي الذي يضع الكائنات الرئيسية العشرة التي تتكون منها الدائرة وهي كما يلي:



شكل (٧)

دائرة الحياة الثانية (يوشامن)

٣ . دائرة الحياة الثالثة (هيّي تليثايا)
(أباثر)

ويحصل الشيء ذاته لاحقاً فتنجب الحياة الثانية (يوشامن) ثلاثة من الأثري يظهر بينها (أباثر) الذي يسمى الحياة الثالثة فيزيد مَساحة الخطيئة ويتطلع إلى السكن خارج عالم النور ويقوم كل من الأثري (ياور زيوا) و(بهاق أو نصاب زيوا) و(هيبل زيوا) بمساعدة كلّ من (يوشامن) و(أباثر) و(بثاهيل) بل والتوازي معهم أحياناً لدرجة أن هيبل زيوا وبثاهيل سيطلق على كلٍّ منهما اسم (جبرائيل (كبرإيل) أي رجل الله وتعني (الرسول).

من ناحية أخرى تخلق الحياة الثانية لها أربعة أبناء هم أبناء السلام (أربا كبري بني شلاما) وتضعهم في عالم السلام وهم حسب الكنزا.

١. إين هيي : نبع الحياة
٢. شوم هيي : اسم الحياة
٣. زيو هيي : ضوء الحياة
٤. نهور هيي : نور الحياة

أما حسب (كتاب القلستا) فهم:

١. رهوم هيي
٢. إين هيي
٣. زمر هيي
٤. شوم هيي

وقد ذكرت الليدي دراور بأن هذه الأسماء هي الأسماء السرية للحياة العظمى، وهؤلاء هم الشهود في عملية التعميد، وقد كوّنت الحياة الثالثة (أباثر) لهم عالم أبناء السلام ثم أعطته إلى الحياة الرابعة (بثاهيل) وقام بثاهيل يرمي هذا التكوين في عالم الظلام.

وتكمن فلسفة دوائر النور المتتالية في أنها تمهد لظهور الحياة أو الدائرة المادية لاحقاً والتي تكتمل بظهور البشرية الأولى وهذا يعني أن المندائيين ليسوا مثاليين فقط بل أن مثاليتهم تتكون من

طبقتين الأولى نورية والثانية روحية. وقد جعلت هذه الروحانية المركبة أو العالية الديانة المندائية ضاربة في أقصى أشكال النزعة المثالية والخيالية التي انتجتها البشرية وحولت أهلها إلى ما يشبه الملائكة في سلامهم وروحانيتهم ونبذهم للعنف والطمع وحياة الشهوات.

تتكون دائرة الحياة الثالثة من الكائنات الآتية :

١. يوخابر (يوكابر): كلمة الحياة.

٢. سام مانا سميرا: وهو التدفق (الإفراز) الثاني للحياة أو (ضوء الحياة العظيم) الذي ظهر من كنّا نشماثا (وعاء الأرواح) والذي سيعود لها ثانية يوم الحساب ويسمى أيضاً (يو سمير) أو (مانا سمير) الذي يأخذ صفة المخلّص، وقد يسمى (سار).

٣. سمير

٤. بهرام ربا : بهرام الكبير

٥. هامغاي زيوا: ابن هامغاغي زيوا.

٦. يوفين أو يوفافين (يوفانين).

٧. سندرياويس: نهر الحياة

٨. يوسمير كنّا : زهرون : إكليل الحياة

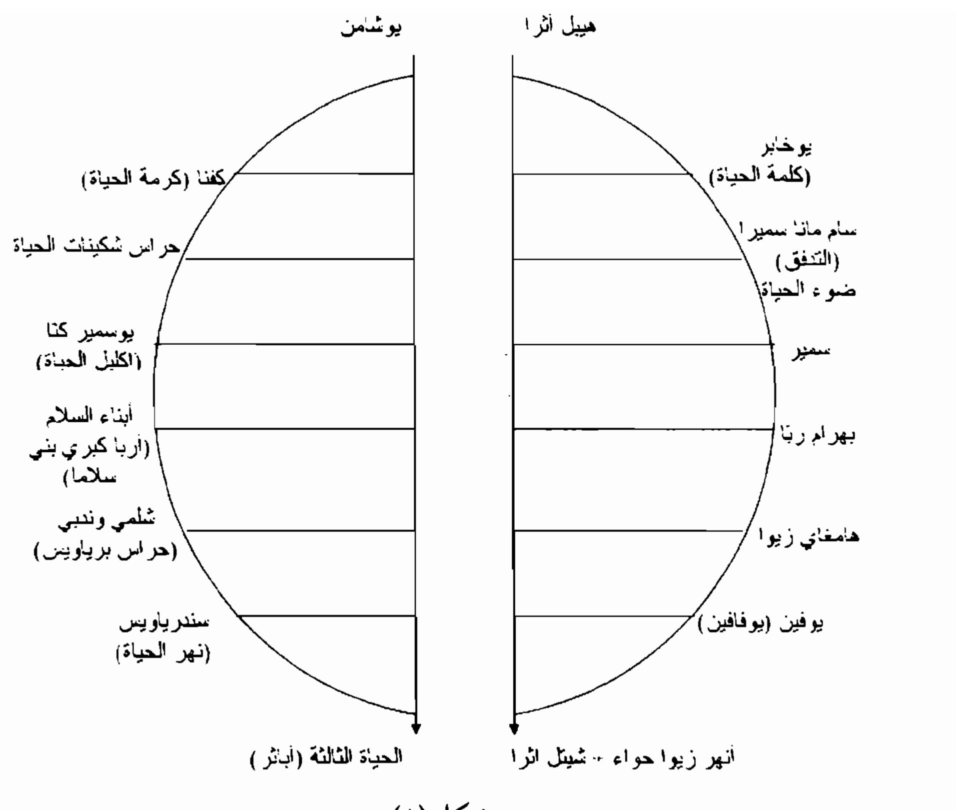
٩. شلمي وندبي : حراس برياويس

١٠. كفنا : كرمة الحياة

١١. أبناء السلام : أربا كبري بني شلاما(اين هيي، سوم هيي، زيو هيي، نهور هيي)

١٢. حراس شكينات الحياة : اليمين(بارياغ إثرا)، اليسار(إنان نصاب)

وإذا كان مندا إد هيي راعي دائرة الحياة الأولى فإن هيبل أثرا الذي سيكون (هيبل زيوا) هو راعي الحياة الثانية، أما راعي الحياة الثالثة فهو شيتل أثرا وسيكون راعي الحياة الرابعة هو أنوش أثرا.



شكل (٨)

دائرة الحياة الثالثة (أباثر)

٤ . دائرة الحياة الرابعة (هيّي اربيايي) (بثاهيل)

هي الدائرة الأخيرة من دوائر عالم النور، وهي الدائرة الثيوغونية الأخيرة التي ظهرت من حركة عالم النور الذي أنتج أربع دوائر للحياة. وقد لاحظنا أن النقص يزداد من دائرة لأخرى وهذا يسبب الخطيئة التي قضت بأن تتطلع الحياة (ابتداءً من الحياة الثانية يوشامن) إلى مسكن خارج عالم النور.

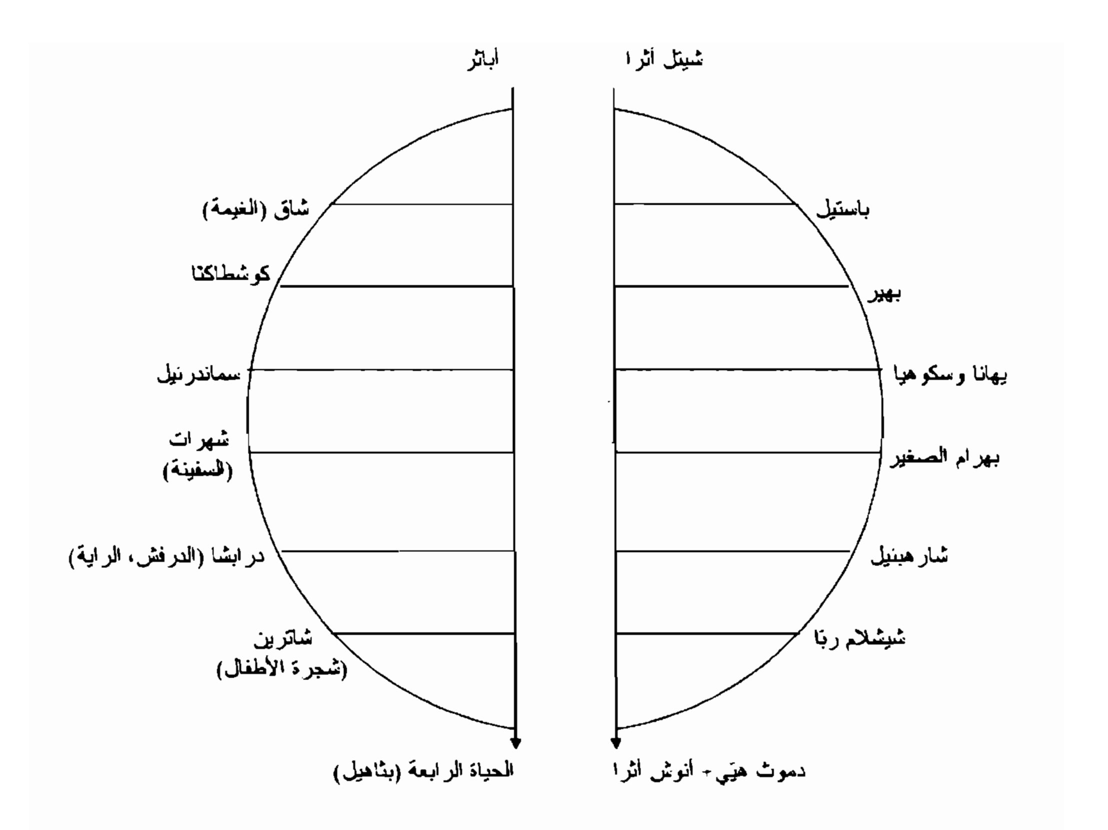
ولذلك نلاحظ أن الحياة الثانية ستكون في أسفل عالم النور أو على حافته السفلى أما الحياة الثالثة فستكون خارج عالم النور، فهي في أول طبقات عالم المطهر الذي تفصله عن عالم النور

المياه الفاصلة (هفيفي ميًّا) والنجم القطبي، ويتكون عالم المطهر من ثلاث طبقات أولها عالم الحياة الثالثة (أباثر) وثانيها عالم الحياة الرابعة (بثاهيل) ثم الجنّة المندائية وهي (مشوني كوشطا) التي تمثل عالم القسط والعدل.

نشأت دائرة الحياة الرابعة (بثاهيل) من ولادة نورية للحياة الثالثة (أباثر) عندما نظرت في المياه فظهرت صورتها في الأعماق وغاصت هذه الصورة وكوّنت (بثاهيل). والحقيقة أننا لا نمتلك معلومات كثيرة عن مكوّنات دائرة الحياة الرابعة (أو التي أنتجتها)، لكنّ (بثاهيل) ولد وهو يرتدي سبعة ثياب ملونة وهي إشارة إلى علاقته بعالم الظلام لأن هذه الألوان تظهر في عالم الظلام وليس في عالم النور. وقد كان راعي هذه الدائرة هو(أنوش أثرا) وبه تنتهي رعاية دوائر النور.

ظهرت مجموعة من الكائنات التي ربما كانت في دائرة النور الرابعة وهي:

١. باسقيل
٢. بهير
٣. يهانا وسكوهيا
٤. بهرام الصغير
٥. شارهبئيل
٦. شيشلام ربا
٧. شاق(الغيمة)
٨. كوشطا كنّا
٩. سماندرئيل: روح تفتح الأزهار
١٠. شهرات: السفينة، العظيمة، العرق الخفي
١١. درابشا: الدرفش وهو الراية المندائية
١٢. شاترين: شجرة الأطفال



شكل (٩)
دائرة الحياة الرابعة (بثاهيل)

٥ ـ ثيوغونيا الروح (نشمثا)

عالم الروح موجود ضمن عالم النور ولكننا أفردنا له فقرة خاصة لنتتبع كيفية نشوء وتسلسل كائنات الروح لكي يتمّ فهمنا للطريقة التي نزلت بها الروح (نشمثا) من عالم النور إلى جسد الإنسان وجعلته يتطلع إلى الأعالي، وستعود هذه الروح إلى مكانها في عالم النور بعد موت الإنسان جسدياً.

والحقيقة أننا اصطلحنا على كلمة (نشمثا) التي تعني حرفياً (نسمة) بكلمة (الروح) في حين أنها تعني نسمة النور القادمة من عالم النور وأصلها(مانا) التي هي جوهر عالم النور وهيّ سرّ الخليقة وهي قبسٌ من الحيّ العظيم (هيّي ربّا) أو الله.

تظهر الروح من مانا، أو هي نفسها، وهي ذاتها (نشمثا) وخلال تطورات الحياة في عالم النور الاول تنقسم (مانا) إلى شكلين الأول ذكري هو (آدم كاسيا) أو (أدكاس مانا) والثاني أنثوي هو حواء كاسيا (أنانا دنهورا) أي (سحابة النور).

تعني (آدم كاسيا) آدم المختفي أو السريّ وكذلك حواء كاسي أي السريّة، ويبدو من كلمة أنانا دنهورا (سحابة النور) أن هذه السحابة هي مسكن لآدم كاسيا أي أن حواء النورية هي مسكن أو سحابة آدم النوري فهي تحتويه وتحتضنه. وهذا أمرٌ في غاية الدهشة حيث تنفرد الديانة المندائية بوصف الشكل النوريّ النموذجي المثالي لعلاقة الذكورة بالأنوثة (أو الرجل بالمرأة) فتكون المرأة هي حاضنة الرجل، هي الحاملة له وهو ما لا نجده في كل الأديان الشمولية الذكورية النزعة التي تضع المرأة تابعاً للرجل. ولكننا يجب أن نتذكر أن مريم العذراء، في المسيحية، هي التي حملت بعيسى الذي وصف على أنه الرب بصورة الإبن.. ولا نستبعد مطلقاً أن تكون الصيغة المندائية هي الأصل الحقيقي لهذه الصورة.

ومع تطورات أحداث دوائر الحياة سينتج من اتصال آدم كاسيا بحواء كاسيا روح ذكرية اسمها (هيبل) وروح أنثوية اسمها (أنهر زيوا حواء) ومن هذين سينتج روح ذكرية اسمها (إنان نصاب زيوا شيتل) وروح أنثوية هي (أنهرا زيوا) ومن اتحاد أو تلامس هذين يظهر الزوج الثالث وهما (بار هيي) ويسمى بار أنوش آدم وهو أنوش ومقابله الانثوي (دموث هيي)..

وهذه الأزواج الروحية الإلهية (النورية) سيكون لها دورٌ كبير في خلق كل من آدم وحواء وأولادهم هيبل وشيتل وأنوش على الأرض لاحقاً، وهي موجودة أولا في عالم النور في دوائره الأربعة.

ومثلما تماهى المانا مع الحياة الأولى في الدائرة الأولى يتماهى مانا، مرة أخرى مع أدكاس (آدم كاسيا) أي (آدم الخفيّ)، فيظهر مانا ومنداإد هيي بصورة (ادكاس) وهو الصورة النورانية أو الضوئية أو الروحية أو الخفية لآدم الذي سيظهر على الأرض فيما بعد، ويؤكد ما ذهبنا إليه النص الآتي من كنزا ربا اليمين:

«إن اسمي هو الرئيس (أداكاس)، المانا المستتر الخفيّ الذي جاء قادماً من مقامه. نبطا (برعم) هو اسمنا وعالم القانون يسمونني وروحاً يدعونني ولقب المانا يعطونني والوافي بوعد الوفاء

يلقبونني ونوراً يسمونني وزفرة الحياة (النفس) يُطلق عليّ وتنّا (ضباب) هو أسمنا، الطاقة الحية (الحرارة الحية) هو اسمنا، إنني من هو اسمه المستتر الكامن من دار الحياة: أنا هو أدكاس زيوا الذي جاء من المكان المستتر الخفيّ»[١٠]

ويسمى أدكاس الرسول أو المرسل (أدكاس ـ مالالا) حيث تكون رسالته هي إيصال نشمثا (الروح) إلى الأرض لتدخل إلى جسد آدم بأشراف وحضور مندا إد هيي.

إن آدم كاسيا في عالم النور يقترن بحِواء كاسيا (الخفية) التي تسمى (أنانا د نهورا) وهي (سحابة النور) وينتج منهما سلالة ضوئية في عالم النور مكوّنة من هيبل وشيتل وأنوش الضوئيين وزوجاتهم.

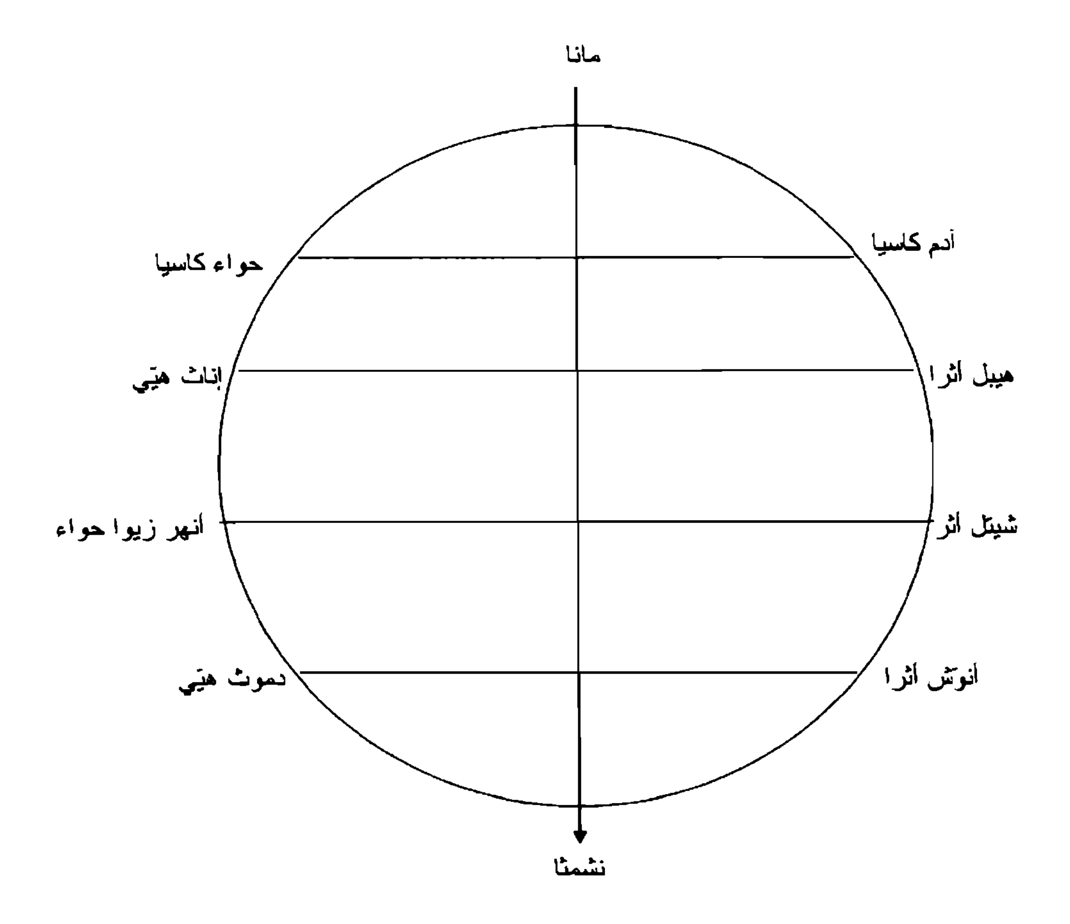
حيث يظهر هيبل مع إناث هيي (إنثى الحياة) ويظهر (إنن نصاب زيوا شيتل) مع (أنهر زيوا حواء)، ويظهر أنوش (بار هيي) مع (دموث هيي) التي هي صورة الحياة أو مثالها.

لقد صادفنا في دائرة الحياة (هيبل أثرا وشيتل أثرا وأنوش أثرا) أبناء مندا إد هيي لكننا نصادف هنا شكلاً آخر لهم من نسل آدم كاسيا (أدكاس) وهو ما يوحي بتماهي أدكاس مع مندا إد هيي.

يظهر أدكاس أباً لثلاثة توائم هم الذي ذكرناهم ولكن هؤلاء لا يعرف دورهم في عالم النور وتُظهر بعض نصوص كنزا ربّا اليمين أبناء أدكاس في وظائف محددة:

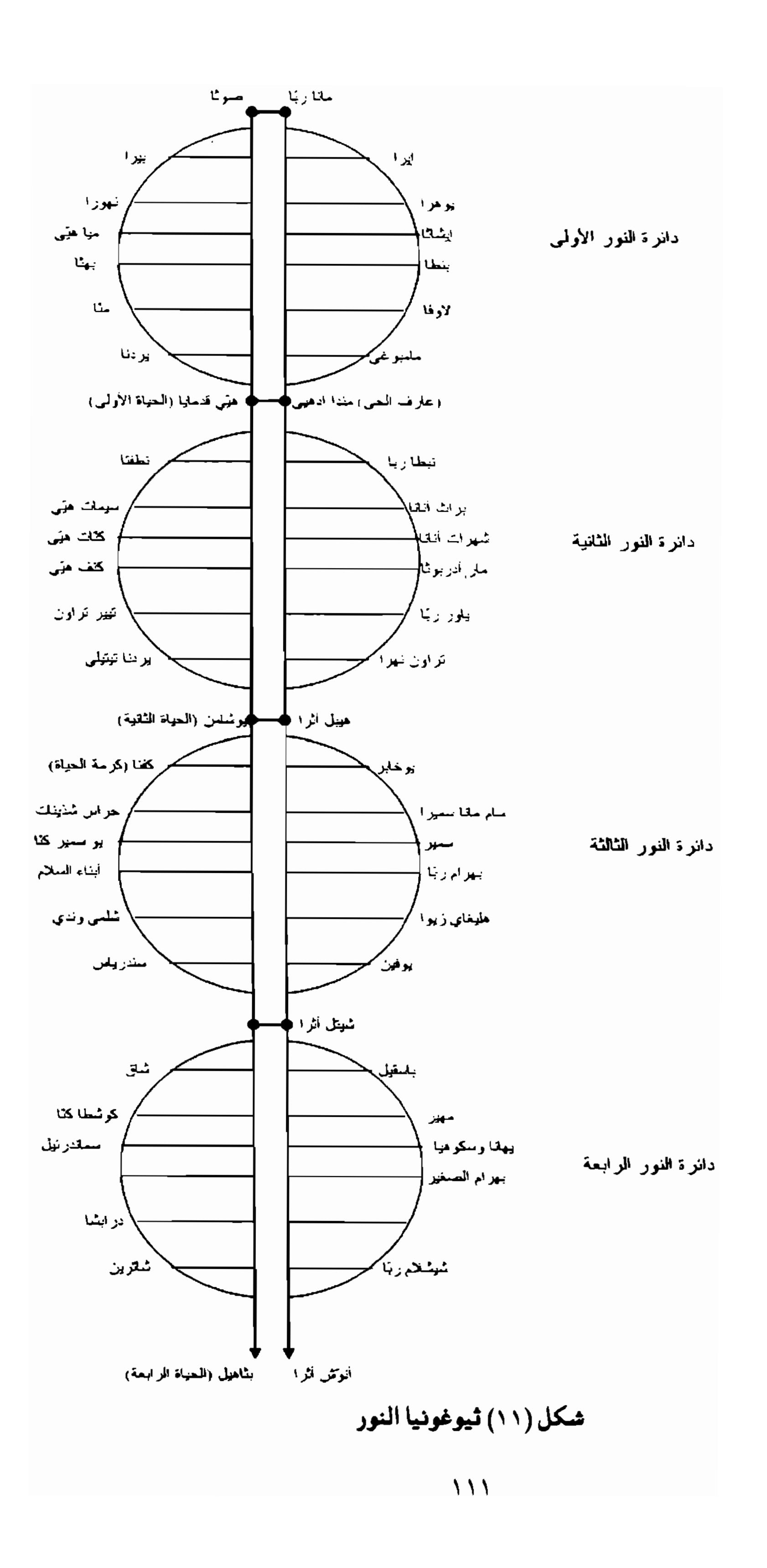
«هيبل، سيد الأرض الذي خاف منه العالم المنظور
شيتل، الغرس الطيب، الأثرا الذي ثبّت الكاملين
أنوس، الأثرا الوديع، الذي ثبّت ذريته
آدم، ملك الأثري، الذي تمجده كل العوالم»[١١]

وتذكر دراور فيتحقيقها وترجمتها لكتاب (ألف وأثنا عشر سؤال) أن الزوجين السماويين (آدم كاسيا) أي (آدم ـ قدمايا) و(حواء كاسيا) يسكنان في مشوني كشطا العالم المثالي للمندائيين أي الجنة.[١٢]



شكل (١٠)
دائرة نشمثا في عالم النور
سلالة آدم كاسيا (آدم الخفيّ)

وسيقوم آدم كاسيا بدور حارس (نشمثا) (التي هي مانا) ويرافق هبوطها من عالم النور إلى الأرض برفقة مندا إد هيي وبثاهيل. وبعد أن يكمل مندا إد هي مهمة زرع (نشمثا) في الجسد يصعد آدم كاسيا إلى عالم النور.



شكل (١١) ثيوغونيا النور

٢ . ثيوغونيا الظلام

تتكون ثيوغونيا الظلام من أربعة دوائر هي الأخرى، وعالم الظلام وكائناته يأتون بعد عالم النور في الخلق فعالم النور هو الأسبق زمنياً وهو العالم الأعلى أما عالم الظلام فهو يناظر العالم الأسفل.

«لم يسبق النور أيما وجود وما من شيء كان لولاه
ولم يكن هنالك ثمة شيء موجود عندما لم يكن البهاء موجوداً
ما من شيء كان قبل أن توجد الحياة العظمى
ولم يكن هناك ثمة حدٌ للضياء
ما من شيء كان قبل وجود الماء
الماءُ أقدم وجوداً من الظلماء»[١٢]

وتُسمي الكنزا عناصر عالم النور بالأوائل والثانيات والثالثات وتقارنها بشكل صريح بعناصر عالم الظلام من حيث القدم، ولنبدأ بالأوائل حسب ما يُسميه نصّ الكنزا:

«إنّ الأثري أقدم وجوداً من الظلمات
أقدم وجوداً من الظلام هي الأثري
وأقدم وجوداً من ساكني الدجى
إن الطيبة أقدم وجوداً
من لؤم وخبث مكان الظلمات
إن الرقة أقدم وجوداً
من عصيان بؤرة الظلمات
أن الحرارة الحيّة أقدم وجوداً
من الحرارة الآكلة في مكان الظلمات
إن التسبيح أقدم وجوداً
من السحر والشعوذة التي يتعاطى إياها أبناء الشياطين
إن النهر الثالث أقدم وجوداً
من ماء الهلاك في مكان الظلمات

إن المعرفة أقدم وجوداً من هذا وذاك
مما يفعله أو يعمله الأشرار في مكان الظلمات
إن صوت الأثري أقدم وجوداً
من أصوات الأرار الغليظين في مكان الظلمات»[١٤]

أما (الثانيات) فتصفها الكنزا كما يلي :
«إن العرش الهادىء أقدم وجوداً
من عرش التمرد والثورة
إن التراتيل وكتب الصلاة أقدم وجوداً
من سحر المرأة المخيفة حيفاذ
إن مقام الأثير أقدم وجوداً
من الحوار الذي تهضل به الروها»[١٥]

ولو فصّلنا المقطعين السابقين إلى متضادات النور والظلام لوجدنا ما يلي :
(الأثري× الظلمات وساكني الدجى) (الطيبة× اللؤم والخبث) (الرقة × عصيان بؤرة الظلمات) (الحرارة الحية × الحرارة الآكلة) (التسبيح × السحر والشعوذة) (النهر الثالث × ماء الهلاك) (المعرفة × أعمال الأشرار) (صوت الأثري× صوت الأشرار) (العرش الهادىء × عرش التمرد) (التراتيل × سحر حيفاذ) (الأثير × حوار روها).

والحيقية أن هذه المتضادات لا تعطينا فكرة دقيقة عن عناصر النور والظلام بل هي مجرد أوصاف معروفة عن العالمين، ولذلك سنعود إلى الثيوغونيا بحلقاتها الاربع لنعرف تسلسل وتوالد كائنات الظلام.

١ . دائرة الظلام الأولى (أصول الظلام، قن)

في أسطورة نزول (هيبل زيوا) إلى عالم الظلام يطلبُ هيبل زيوا من (قن)، وهي أم الظلام، أن تخبره من أية طينة خرجوا فتقول له :

«لقد خلقنا نحنُ من التنّا وشتلات الظلمات ومن محيط الماء الأسود بأجمعه، فألححتُ عليها

قائلاً: هيا أريني مم تكونتم أنتم؟ عند ذاك أرتني هي قوة ومتانة الظلمات والسرّ الخفي الذي يُصان من قبل أولئك المردة الجبابرة وعمالقة الظلام، ثم أرتني هي أحد العيون. لم يكن هناك ثمة أحد بينهم من يعرف مدى سعة تلك العين، أما أنا فكنتُ الوحي الذي قُدِّر عليه الإلمام بمدى اتساع وعمق تلك العين. في العين كانت ثمة مرآة ينظرون هم فيها إلى قسماتهم فيعرفون حينئذٍ ماذا ينبغي عيهم فعله»[١٦]

خلقت اولى دوائر الظلام من (تنّا) التي هي التنور الكوني في دائرة النور وهي بمثابة وعاء موجود في الفضاء الكوني وهو موطن الأرواح (المانات) في عالم النور وكأنها تشبه الثمرة أو النطفة التي تحمل المانات ولعل أقرب شبيه لها هو (كنّا) الذي نرجح أنه مصدر اشتقاق الظلمة الاولى(قين) حيث نلاحظ تقارب لفظتي كن وقن، وهي بمثابة البخار أو الضباب أو الدخان أوالبيضة الكونية أو قشرتها:

«مباركة (تنّا) الخفيّة التي تسكن في الينبوع الخفيّ الأول العظيم
لأنه من سرِّ النطفا التي تسكن في الماء الجاري (يردنا)
جاءت جميع العوالم والعهود»[١٧]

ويبدو أن(تنّا) أشبه بالمرجل الكوني الجبار الذي يؤدي ضبابه إلى ظهور الينابيع والماء الجاري (يردنا) في عالم النور أما دخانه فيؤدي إلى نشوء نواة الظلام الذي تساهم فيه أغراس الظلام (نصبتا) وعمق الماء الأسود (ساخا) ثم تظهر عين الظلام التي تحتوي على المرآة (أو الجمرة أو المرارة في أساطير أخرى) والماء الأسود (ميّا سياوي) ثم تنكشف بعد ذلك أرض سينياويس التي يغلي فيها الماء الأسود وتسمى الماء المظلم أو البحر المضطرب الذي تخرج منه أنهار الظلام السبعة (يردان). ويقيناً أن الحرارة الآكلة هي التي تسود في هذا العالم (شكل١٢)

من هذا العالم المظلم خرجت أولى كائنات الظلام وهي (قِن) أم الظلام التي ستصبح مصدر كائنات الظلام كلها.وواضح أن (كاف) كان هو راعي الظلام الأول.

ويبلغ مجموع عناصر أصول الظلام (١٢) عنصراً وهي:

١. نصبتا: أغراس الظلام

٢. إينا(عين): عين الظلام والتي تحتوي على المرآة والمرارة والجمرة

٣. أردا دهشوخا : أرض الظلام

٤. ساخا : عمق الظلام

٥. ميّا سياوي : الماء الأسود

٦. يردان الاول : نهر الظلاَم الاول

٧. يردان الثاني : نهر الظلام الثاني

٨. يردان الثالث : نهر الظلام الثالث

٩. يردان الرابع : نهر الظلام الرابع

١٠. يردان الخامس : نهر الظلام الخامس

١١. يردان السادس : نهر الظلام السادس

١٢. يردان السابع : نهر الظلام السابع

في عالم الظلام لا تشبه طريقة الخلق طرق الخلق التي عرفناها في عالم النور، حيث تسود في عالم الظلام طريقة الخلق الجنسي والتكاثر الجنسي الذي يوصف بالشبق والعنف والذي يظهر، في كثير من الأحيان، منحرفاً عن العلاقات الجنسية المتوازنة، كأن يكون بين الأم وأبنها (كما حصل بين روها وأور) أو بين البنت ووالدها (كما حصل بين روها وكاف).. وغيرها

اليردان الأسود في عالم الظلام أو (اليردنا السوداء) لا تحتوي على مياه نورانية جارية حيّة بل على مياه معتمة سوداء راكدة ميتة وليس هناك نورٌ أو ضياء بل هناك ظلام دامس، ولا توجد ثمرةٌ كبرى تخرج منها المانات بل هناك عين كبيرة تحتوي على الجمرة أو الحرارة الآكلة والتي ستكون مكاناً لظهور الكائنات الظلامية.

ويصف أحد نصوص القلستا الحال في عالم الظلام في هذه المرحلة أو الدائرة:

«في ذلك الحين لم تكن هناك أرضٌ صلبةٌ

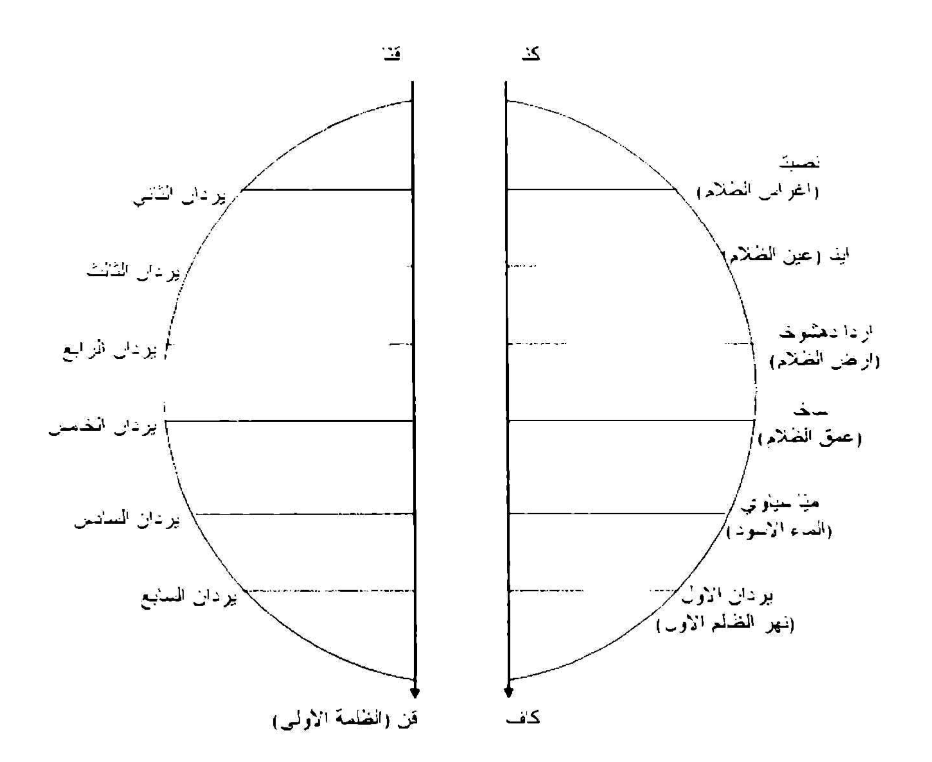
ولا سكان في الماء الأسود

منهم ومن الماء الأسود تكوّن وظهر الخبث

ومنه تكوّن آلاف آلاف من الأسرار

وآلاف مؤلفة من الكواكب بأسرارهم الخاصة»[١٨]

وواضح أن المقصود من الكواكب هنا هي ملايين النجوم لتي تظهر في السماء (المظلمة) فهي أرواح شريرة، أما الكواكب النيّرة الاثناعشر فستظهر لاحقاً مع خلق الأرض.



شكل (١٢)
دائرة الظلام الأولى
(أصول الظلام، قن)

٢ . دائرة الظلام الثانية (عوالم الظلام، روها)

صحيح أن (قِن) وشريكها (كاف الكبير) يقفان على رأس طبقات الظلام من حيث النشوء لكنّ حلاً منهما يحتلّ موقعاً خاصاً في طبقات الظلام التي ستستقر على شكل أزواج من الكائنات الظلامية كذكرٍ وأنثى في تسلسل تذكره أسطورة هبوط (هيبل زيوا) إلى عالم الظلام، وهي: (شكل ١٣)

١ ـ زرتاي زرتاني الكبير

٢ ـ عماميت : رفيقة زرتاي زرتناي وهما موجودان في هيكلين ومكبلان بالحديد

٣ ـ هاغ : مانا الظلام الذكري وساحره

٤ ـ ماغ : مانا الظلام الانثوي وساحرته

٥ ـ كاف : جبّار الظلام

٦ ـ كافان : جبّارة الظلام

٧ ـ أناتان : محارب الظلام وتعبتبر قن رفيقته

٨ ـ شدوم : المحارب ، ملك العالم المعتم (بوابات الظلام)

٩ ـ كاف الكبير (الكيو الكبير) وهو شريكِ قن ورفيقها

١٠ ـ كاركوم (كرون) : جبل اللحم وملك الظلام

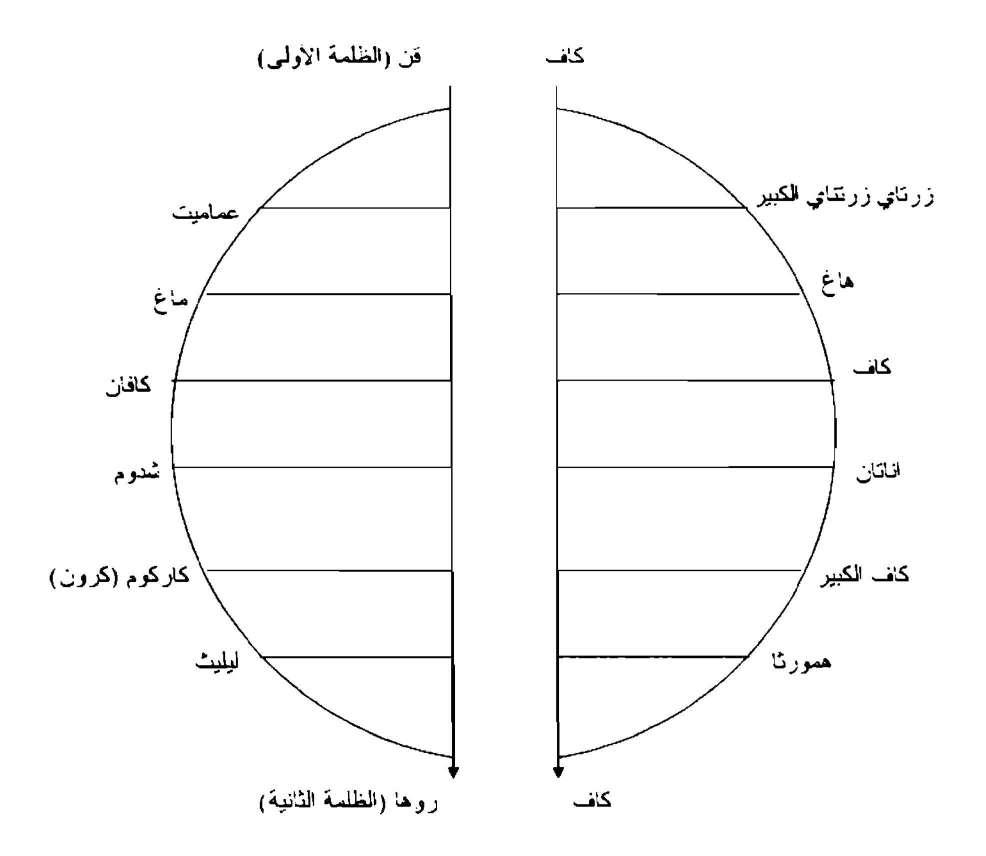
١١ ـ همورثا

١٢ ـ ليليث

لا بد من ملاحظة أن روها ستنجب كاركوم من مضاجعتها لوالدها كاف وستنجب أكبر كائن ظلامي يوصف بأنه ثعبان الظلام وهو (أور) من مضاجعة ثانيةٍ لكاف.

في دائرة عوالم الظلام تظهر الكائنات العامة للظلام أو شعب الظلام وهم (ملاخي) ويظهر الشياطين والعفاريت والجن والجنيات والأصنام والأبالسة والملائكة الشريرة وغيرهم.

إن (قِن) هي الشكل الأقدم لـ(روها) وهي رمز الظلمة الأولى التي تقابل في عالم النور الحياة الأولى ويبلغ مجموع كائنات الظلام الكبرى في هذه العوالم (١٢) كائناً.



شكل (١٣)
دائرة الظلام الثانية
(عوالم الظلام، روها)

٣ ـ دائرة الظلام الثالثة (الكواكب الاثنا عشر، أور)

تلفظ ترجمة كلمة مكونات الظلام بـ(كبلتا) وهي الجبلّة أي المادة والمكونات والحقيقة أن دائرة مكونات الظلام(الثالثة) تضم ما أنجبته الروها من مضاجعتها لولدها (أور) حين كان بثاهيل يخفق تدريجياً في تصليب الأرض (وهو ما سنعرضه تفصيلياً في فصل الخليقة)، ولذلك فإن أغلب هذه المكونات ستكون قريبةً من الأرض (التي تقع شمال عالم الظلام وتحت سيطرته).

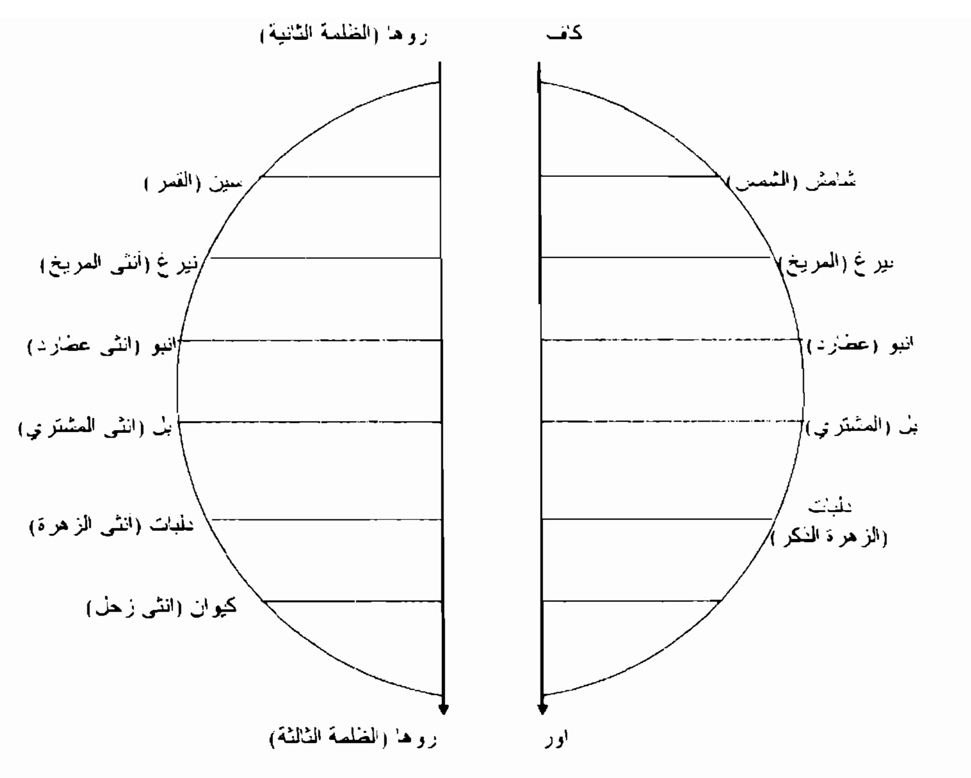
فمن الذكور هناك الكواكب السبعة ومعها الكواكب الخمسة(التي ربما كانت مقابلها الانثوي اذا اعتبرنا الشمس ذكرا ومقابله الانثوي هو القمر) التي تعتبر أرواح مظلمة شيطانية تُجسِّدُ شكل

الظلام أما نورها فهو انعكاس لنور عالم النور وليس أصيلاً فيها لأنها معتمة في ذاتها.

فإذا كنا نعرف الكواكب السبعة فإننا لانعرف على وجه الدقة ماتكون الكواكب الخمسة لكن الكتب الدينية المندائية لا توضّح هوية الكواكب الخمسة إلاّ إذا أعدنا تكرار الكواكب السبعة دون الشمس والقمرواعتبرنا أنها مقابلات أنثوية لها. وتسمى الكواكب الإثنا عشر بالـ(ديفي) أما المكوّنات الإناث لعالم الظلام فهي على ثلاثة أجناس هي (همورثا) والتي تعني حرفياً أحجار القلادة المزيفة و(عشتراوت) التي هي أناث مشتقة لاسم من إلهات الحب والجنس عند الساميين و(ليليثا) التي هي أيضاً جنيّة الظلام والحمى السومرية الأصل.

وبذلك تكون المكونات الإثنا عشر لدائرة الظلام الثالثة هي الكواكب الإثنا عشروهي :

١. شامش : الشمس
٢. نيرغ : المريخ
٣. أنبو : عطارد
٤. بل : المشتري
٥. دلبات : الزُهرة الذكر
٦. كيوان : زحل
٧. سين : القمر
٨. نيرغ : أنثى المريخ
٩. أنبو : أنثى عطارد
١٠. بل : أنثى المشتري
١١. دلبات : انثى الزُهرة
١٢. كيوان : أنثى زحل



شكل (١٤)
دائرة الظلام الثالثة
(الكواكب الاثنا عشر، روها)

٤ . دائرة الظلام الرابعة (الأبراج الاثنا عشر، زاهرئيل)

تتكون دائرة الظلام الرابعة من الأبراج الاثني عشر، وتبدأ هذه الدائرة بأور وأمه روها وتنتهي بـ(زاهرئيل) وهي أخت (روها) واسمها مشتق من كوكب الزهرة فهي (زُهرئيل) وهي شكل الروها الرابع أو الظلمة الرابعة الذي يضم الجيل الرابع المكون من ١٢ كوكباً، والجيل الرابع الذي يشكّل دائرة الظلمة الرابعة مكون من الأبراج التي بعدد الكواكب الاثني عشر.

ويذلك تتكون دائرة الظلمة الرابعة من الأبراج الآتية :

١. دوالا : الدلو ويقع في شهر شباط

٢. نونا : الحوت ويقع في شهر آذار

٣. أمبرا: الحمل ويقع في شهر نيسان

٤. تورا: الثور ويقع في شهر أيار

٥. صلميا: الجوزاء ويقع في شهر سيوان(حزيران)

٦. سرطانا: السرطان ويقع في شهر تموز

٧. أريا: الأسد ويقع في شهر آب

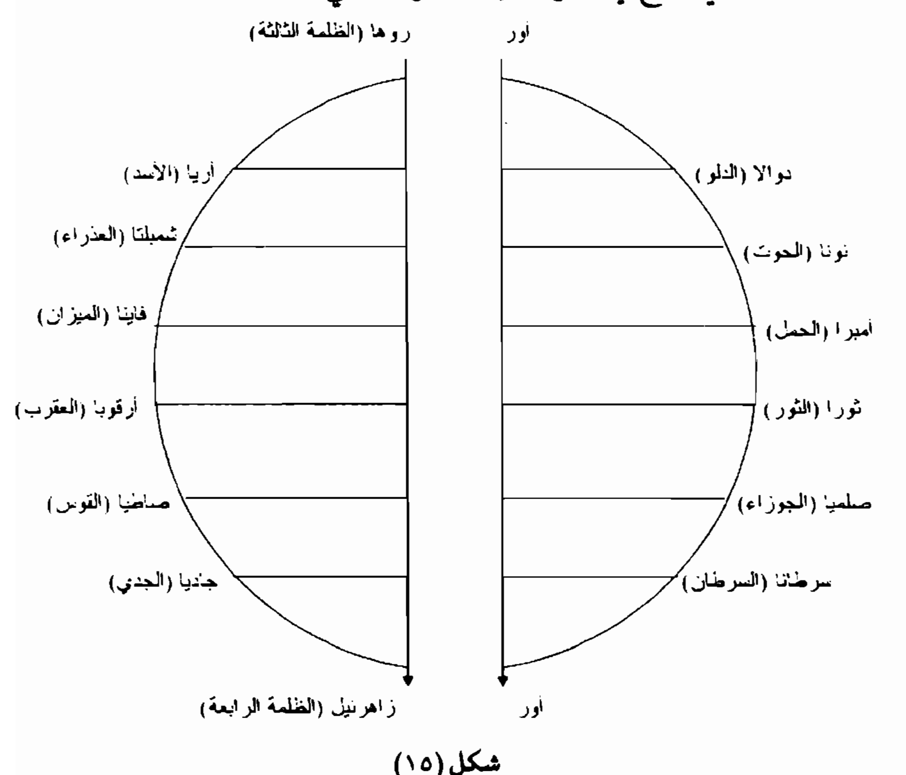
٨. شمبلتا: العذراء ويقع في شهر أيلول

٩. فاينا: الميزان ويقع في شهر تشرين(تشرين الأول)

١٠. أرقوبا: العقرب ويقع في شهر مشروان(تشرين الثاني)

١١. صاطيا: القوس ويقع في شهر كانون(كانون الاول)

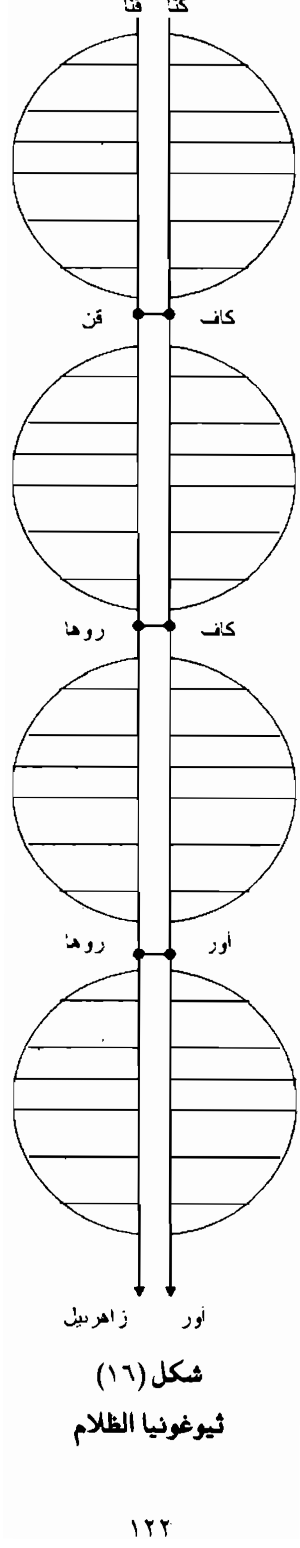
١٢. جاديا: الجدي ويقع في شهر طاميث(كانون الثاني)



شكل (١٥)

دائرة الظلمة الرابعة

(الأبراج الاثنا عشر، زاهرئيل)



شكل (١٦)

ثيوغونيا الظلام

٣ . ثيوغونيا الإنسان :

ما كنّا نفردُ للإنسان سلسلة ثيوغونية لو أنه كان عند المندائيين بشراً محضاً لا أثر للقوة الإلهية فيه ، لكنهم يعترونه حاملاً للنسمة الإلهية (نشمثا) التي هي (مانا) عالم النور هبطت لتجعل الأرض من خلال الإنسان مكاناً للنور والحق والصلاح. وقد وضع اللاهوت ومن ثمّ المثولوجيا المندائية رسولاً من رُسل عالم النور (من السلالة الأدمية الأولى) في كلّ عصر من عصور الإنسان، وهو ما يجعلنا ننظّم هذه السلالة الثيوغونية كامتداد مشترك لعالمي النور والظلام على اعتبار أن روح الإنسان مصدرها عالم النور أما جسده (وروحه الضعيفة أو نفسه التي هي روها) فمن عالم الظلام.

لا يمكننا تجاوز هذه الحقيقة ولا يمكننا اعتبارِ سلسلة الإنسان سلسلة انثروبوغونية (خلق بشرية) فقط بل هي ، من حيث السياق ، سلسلة ثيوغونية أولاً ، لكننا سنتناول أساطير خلقها في مبحث الانثروبوغونيا.

تتكون سلسلة ثيوغونيا الإنسان من أربع دوائر تمثل البشريات الأولى والثانية والثالثة والرابعة ، لأن المندائيين يعتقدون أن هناك أربع دورات بشرية ظهرت منذ خلق الإنسان انتهت كلٌّ منها بكارثة كبرى أدت إلى فناء الإنسان من على وجه الأرض وهذه الكوارث هي (السيف ، الحريق ، الطوفان ، الريح) والدورة البشرية الأخيرة ما زالت تنتظر كارثة الريح حيث ستكون الأخيرة والأكبر لأنها ستؤدي إلى فناء الإنسان والأرض وبقاء عالمي النور والظلام فقط.

١ ـ دائرة البشرية الأولى (آدم وحواء)

راعي الدور : آدم ثم هيبل

تعتبر هذه الدائرة ، بالدرجة الأولى امتداد لسلسلة ثيوغونيا النور لأن كائناتها الثمانية الأساسية صورة من صور كائنات موجودة في عالم النور بنفس الأسماء تقريباً ، أما الجسدين الرئيسيين لآدم وحواء فقد صنعا من عالم الظلام (تحت إشراف كائن نوراني مخطيء هو بثاهيل). وهكذا يأتي التكوين الظلامي بالدرجة الثانية.

عندما أخفق بثاهيل (الذي خلق الأرض) بالاحتفاظ بها وقامت الروها وكائنات الظلام بالسيطرة عليها قرر أن يلتمس من الحي العظيم وعالم النور خلق كائن بشري يصبحُ سيداً لهذه

الأرض ويكون داعية للنور والخير، وحين وافق عالم النور والحياة أرسلوا آدم كاسيا (أدكاس) حارساً للنشمثا (مانا) على أن يقوم مندا إد هيي بزرع هذه الروح النورانية في جسد آدمي (آدم بغرا) سيصنعه بثاهيل وستضع روها فيه روحاً ضعيفة منها(هي النفس) وستضع الكواكب والأبراج فيه أمزجتها ورغباتها وحين اتحد (آدم كاسيا) مع (آدم بغرا) تكوّن آدم وهو رأس الدور وبداية السلالة البشرية وبنفس الطريقة تكونت حواء بعد أن أنزلت (حواء كاسيا) (وهو ما سنشرحه مفصلاً في خليقة الإنسان).

وتكوّن من اتصال آدم وحواء (في عملية ثيوغونية معقدة سنقوم بتوضيحها) السلالة البشرية الأولى المكونة من (هيبل وشيتل وأنوش) وهم أبناء آدم وحواء مع زوجاتهم.ولكن هؤلاء الأبناء لم يتكونوا من اتصال جنسي بين آدم وحواء بل تكونوا بنفس طريقة آدم وحواء حيث كانت هناك أروح نورانية لهم موجودة في عالم النور دخلت في أجساد ظلامية تكونت في عالم الظلام وهكذا ظهروا.

وتتكون دائرة البشرية الأولى من ٢٤ كائناً مكونين من مجموعتين الاولى ١٦ كائناً نصفها نوراني ونصفها الاخر جسدي (ظلامي) وهي:

١ . آدم كاسيا
٢ . هيبل أثرا
٣ . إنان نصاب شيتل زيوا
٤ . أنوش أثرا
٥ .حواء كاسيا
٦ .إناث هيي
٧ .أنهر زيوا حواء
٨ .دموث هيي
٩ . آدم بغرا
١٠ . هيبل بغرا
١١ . شيتل بغرا
١٢ . أنوش بغرا
١٣ . حواء بغرا
١٤ . إناث بغرا
١٥ . أنهر حواء بغرا
١٦ . دموث بغرا

ومن دخول الارواح في الأجساد المخصصة لها ينتج ٨ كائنات بشرية حية هي:

١ . آدم
٢ . هيبل
٣ . شيتل
٤ . أنوش

٥ . حواء

٦ . إناث

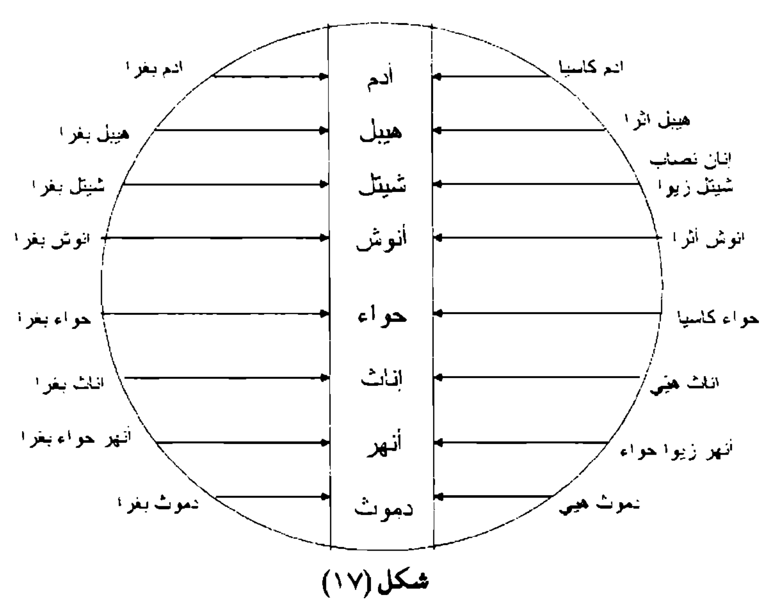
٧ . أنهر

٨ . دموث

وتظهر في هذا العصر روح نورانية كبرى هي راعية العصر البشري الأول يمثلها آدم الذي يحل محله هيبل عندما ترتفع روح آدم.

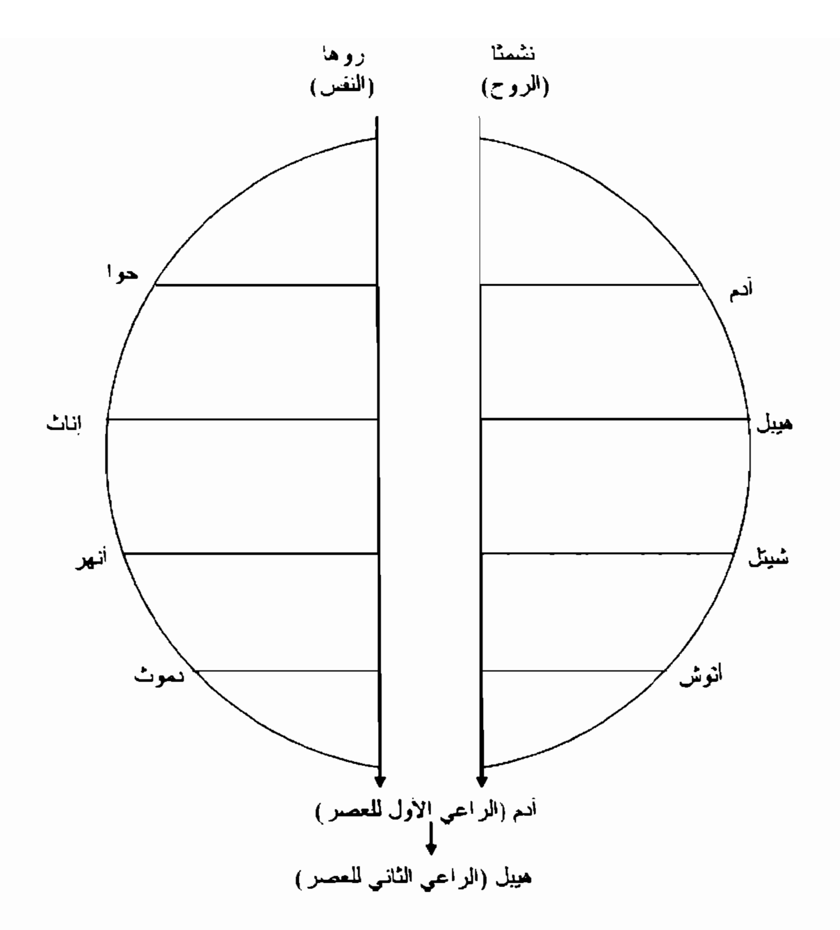
تكاثرت البشرية ثم توفي آدم وحواء وصعدت روحهما للسماء (هناك أسطورة تقول أن شيتل افتدى والده فصعد قبله)، وحين حلّت كارثة السيف (والطاعون يذكر أحياناً معه) صعد هيبل إلى عالم النور قبل نهاية هذا الدور.

ويعتبر هذا الدور بمثابة العصر الذهبي للإنسان حيث كانت الصلة بين عالمي النور والأرض قوية وما زالت البشرية تحت رعاية أربعة من الرسل النورانيين العظام، ويعتقد المندائيون أنه كان لآدم كتاب من الحي العظيم هو كتاب (سدرا آدم)، وهو جزء من كتاب (كنزا ربّا)، أنزل فيه المعرفة الإلهية (مندا)، وأن المدة الزمنية بين خلق آدم حتى فناء البشرية الأولى بالسيف تقدر بـ(٢١٦,٠٠٠) عاماً.



شكل (١٧)

الأصول النورية والظلامية للبشرية الأولى



شكل (١٨)
دائرة البشرية الأولى

٢ ـ دائرة البشرية الثانية (رام/ رود)

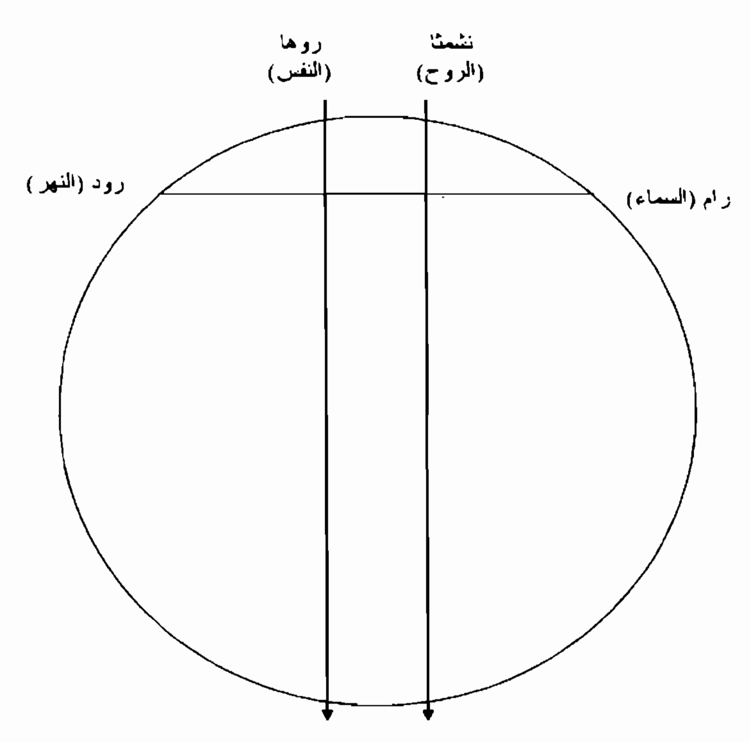
راعي الدور : شيتل

انتهت الكارثة الأولى بقتل البشر كلهم بالسيف ولم ينجّ سوى رام ورود (وهناك ما يشير إلى أنهما خُلقا من قبل روها التي أخذت من خميرة العالم خلقتهما لكي يستمر نسل الإنسان على الأرض). و(رام) تعني (السماء) أما رود فتعني (النهر). ولا نعرف الشيء الكثير عن رام ورود، فلم تتطرق الكتب المندائية لهما كثيراً سوى ما تذكره الكنزا بابتسار شديد:

«رام الرجل وورود المرأة، هذان الاثنان يبقيان على قيد الحياة ويتكاثران. بواسطتهما تعود الحياة إلى مجاريها، إذ أنهما مع أحفادهما يوقظان العالم من جديد. جميع هؤلاء يتخذون شريعة واحدة ويسبحون باسم واحد، تلك التسبيحة التي جئت أنا بها إلى هذا العالم، أنهم يحمدون بها»[١٩]

وتقدر الكنزا أن المدة الزمنية للبشرية الثانية هي (١٥٦،٠٠٠) عاماً.[٢٠]

تفنى هذه البشرية بحلول النار الكبر والحريق في العالم ولا ينقذُ سوى اثنان يؤسسان العصر القادم. وقبل أن تنال النار من شيتل سوف يصعد إلى عالم النور (لكن الأسطورة الشائعة أن شيتل سوف يفتدي آدم ويصعد قبله!).



شكل (١٩)

دائرة البشرية الثانية

٣ ـ دائرة البشرية الثالثة (شورباي/ شارهبئيل)

راعي الدور : أنوش

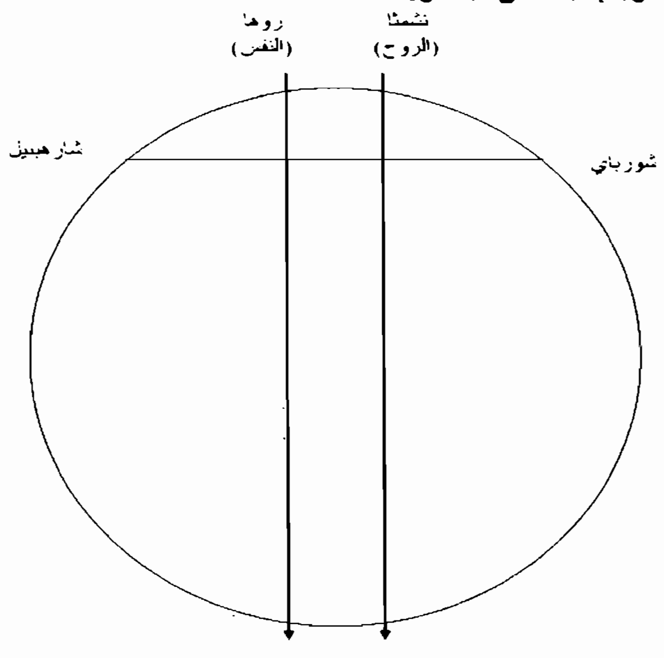
يظهر شورباي وشارهبئيل على رأس البشرية الثالثة «وسوف يتوالد البشر ويتكاثرون. بهذه الأوقات سوف بعينها سوف يسبحون ولن يحيدوا عن شريعة العظمة، وبعد انقضاء خمسة وعشرين دهراً سوف يغطي الماء العالم ويقضي عليه قضاءً تاماً وسوف تفارق جميع الأرواح البشرية دفعةً واحدة أجسادها خلال هذا الطوفان العارم، ذلك لأنه مدوّن في كتاب ذلك العصر بأن الأجساد ستلاقي حتفها بسيول المياه العاتية.

أما الأرواح (نيشماتا) فسوف تصعد إلى النور السامي ما عدا نوح الرجل ونوريتا زوجته وسام ويام ويافيت وهم أبناؤه الذين قدر عليهم أن ينجوا من أمواج البحر»[٢١]

أما الفترة الزمنية التي تستغرقها البشرية الثالثة فهي (١٠٠،٠٠٠) عام.[٢٢]

وسيرتفع أنوش من العالم إلى عالم النور أثناء الطوفان.

شوربي تعني الانتشار والتكاثر أو شارهبئيل فالكتاب العاشر من الكنزا اليمين يلّمح إلى أنها ترادف (مانا) أي الروح أو العقل أو النور.



شكل (٢٠)

دائرة البشرية الثالثة

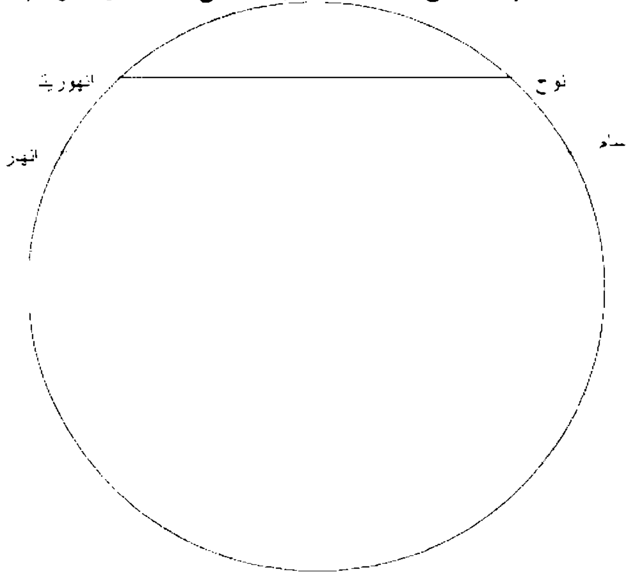
٤ ـ دائرة البشرية الرابعة (نوح/ أنهوريتا)

لا يوجد راع للدور

يظهر نوح وأنهوريتا (نوريتا) على رأس البشرية الرابعة بعد أن تخلّصا من الطوفان وينجب نوح من أنهوريتا إبناً واحداً هو (سام) الذي يجلّه المندائيون ويعتبرونه جدهم الأعلى وأن سلالته هي سلالة الدين الحق الناصورائي المندائي، كذلك ينجب نوح من روها ثلاثة أبناء هم (حام ويام ويافيت) وهم أجداد البشر الآخرين من غير المندائيين.

هذه البشرية التي ما زلنا نحنُ جزءً منها لها تاريخ أسطوري خاص سنبحثه مفصلاً في مبحث خليقة الإنسان والزمان الدوري، وهي ستفنى بعد خلقها بحوالي ١٠٠١٤٢ عام بالريح المدمرّة، ولأن الأرض لا تحتوي على أحد رسُل النور (كان آخرهم أنوش) لذلك ستفنى الأرض نهائياً وسيفنى معها عالم الظلام، وسيقوم عالم النور بانقاذ ورفع كل من (يوشامن وأباثر وبثاهيل) الذين سببوا النقص والعوز وساهموا تدريجياً في خلق العالم المادي، لكنهم رغم كل شيء أُثريون من عالم النور لينضموا إلى أهلهم وبذلك يفنى العالم الأرضي ويبقى عالم النور ساطعاً.

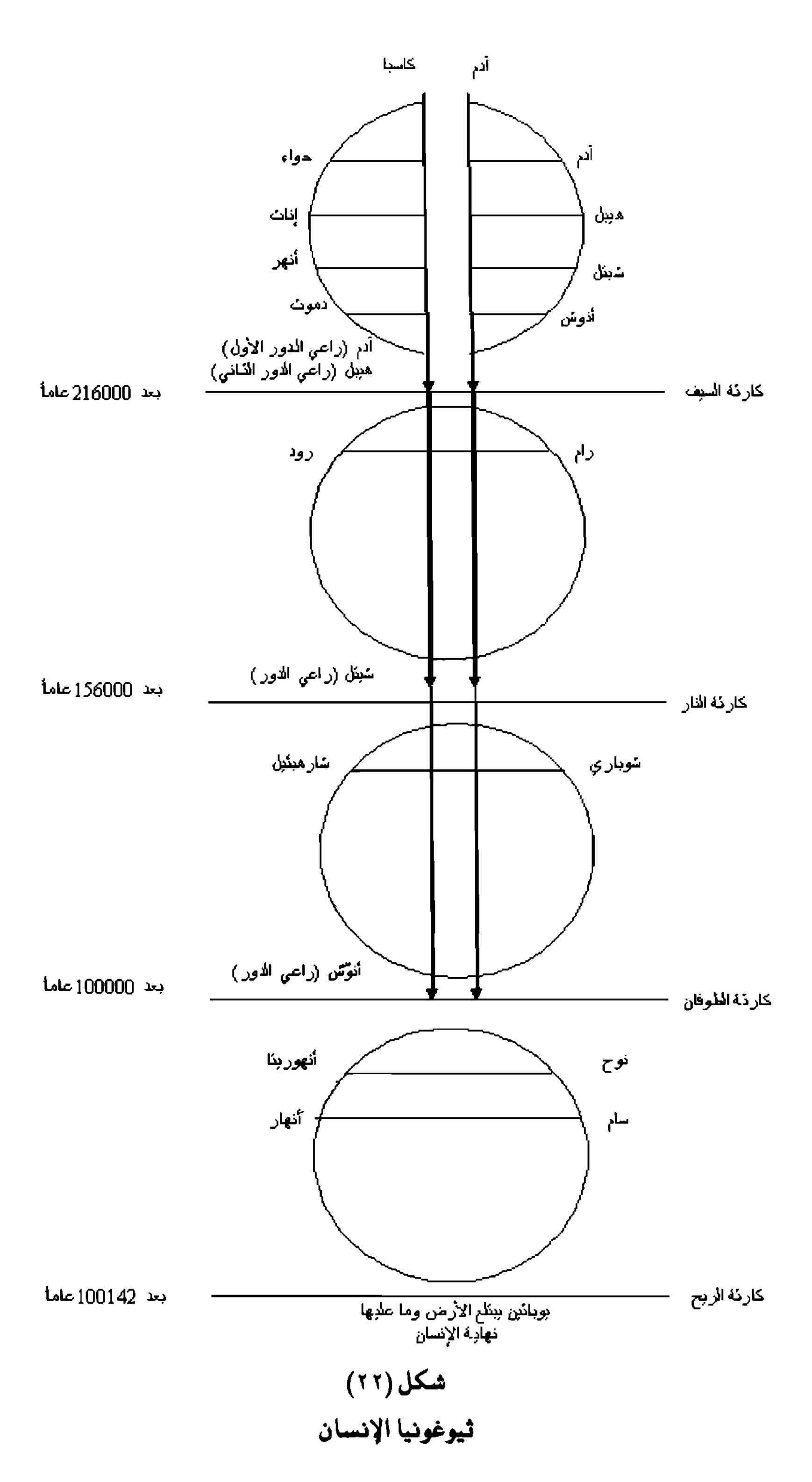
سيقوم (يوباثين) بابتلاع الأرض وما عليها وإنهاء كل ما يتعلق بعوالم الخطيئة.



لا يوجد راع للبشرية الرابعة
كارثة الريح ثم يقوم (يوباثين) بابتلاع الأرض ومن عليها ويفنى البشر
عمر البشرية الرابعة 100142 عام

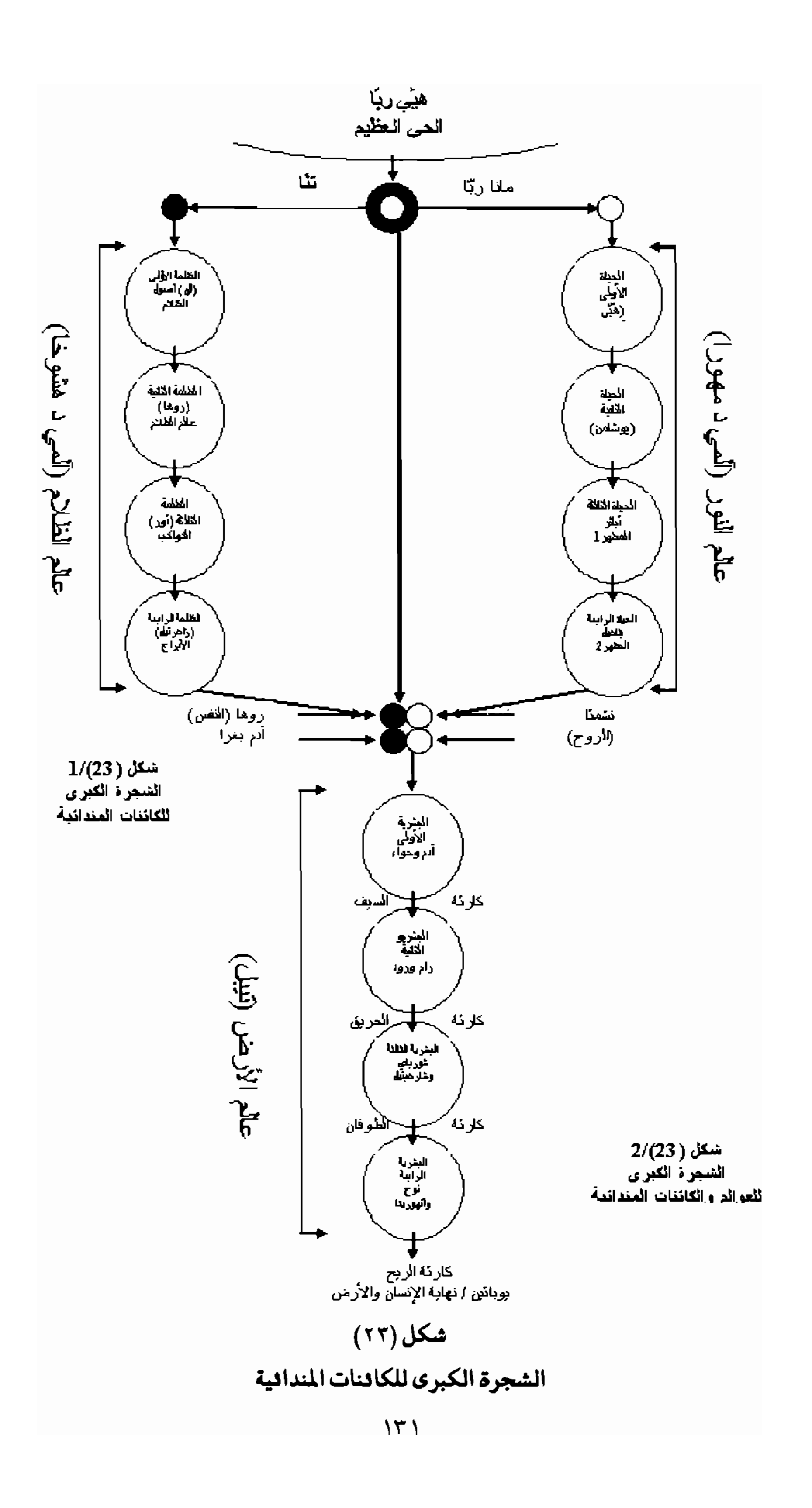
شكل (٢١)

دائرة البشرية الرابع



شكل (٢٢)

ثيوغونيا الإنسان



شكل (٢٣)

الشجرة الكبرى للكائنات المندائية

سلسلة الأنساب الإلهية

لا شك أن تنظيم الدوائر الثيوغونية السابقة قدّم وسيقدم لنا فائدة كبيرة في الدليل المثولوجي للأساطير المندائية، لكن هذا لا يغنينا عن تصميم سلسلة الأنساب الإلهية التي أعتدنا وضعها كدليل أساس لخارطة طريق التحليل المثولوجي.

تتكون سلسلة الأنساب الإلهية المندائية من أربعة أجيال، تشمل عوالم النور والظلام والإنسان.

ويجب أن نؤكد بأن سلسلة الأنساب الإلهية المندائية لا تتضمن بالضرورة أنساباً سلالية متواترة (أي الجد والأب والإبن) بل إن نسق الأنساب يأخذ منحىً آخر حيث تتوازى الأسماء وينعكس مضمون بعضها في البعض الآخر ويكون فيها السبق فقط هو الأساس وليس التوارث السلالي فليس هناك علاقة بايلوجية سلالية بين السابق واللاحق إلاّ في دائرتي الظلام والإنسان، فهيبل زيوا الذي يبدو وكأنه ابن مندا إد هيي يكون متوازياً معه وكذلك مع أخويه وهما شيتل أثرا وأنوش أثرا. العلاقة بين هؤلاء معقدة جداً فهم مثل سلالة أبوية/ أخوية ويختلفون عن بعضهم كثيراً.

هناك أربعة أجيال سلالية في الثيوغونيا المندائية وهي:

١ ـ سلسلة أنساب الجيل الأول: لعوالم النور والظلام والأرض

الحي العظيم وهو الخالق الواحد (هيِّي ربّا) الذي لا شريك له والذي ليس له صفات عينية ولا أسماء معلنة. وعرفنا أن الذات الإلهية تظهر في (مانا) الروح أو العقل الكليين وهو الروح أو العقل الكليين الذي يسري في كلّ شيء حيّ. إنه الشكل المعلن لظهور الحي العظيم وبدء حركته الخلقية وسريانه في الأشياء الحيّة.

سنحاول هنا أن نقدم فرضية ثيوغونية مفادها أن عوالم النور والظلام والانسان الاربعة لكل عالم تشترك في صفات وكائنات متوازية متناظرة.فإذا قمنا بوضع العوالم الاربعة بطريقة متوازية بحيث تتقابل دوائها بطريقة متماثلة فإننا سنحصل على نتائج مهمة.

تتكون سلسلة أنساب الجيل الأول من كائنات دائرة النور الاولى ودائرة الظلام الأولى ودائرة الانسان الاولى الثيوغونية التي عرفناها سابقاً. ففي الطبقة العليا وهي الطبقة التي تحتوي

على الثمرة (بيرا) والتنّور (بهثا) والتنّا (الضباب أو الدخان) والـ(كنّا) الوعاء الكوني والنطفة (نطوفتا) من جهة وعلى الأثير كذلك) هو (إيرا) والنبطا (النبتة) التي هي البهاء المتأجج، ون بنطا ويراث إنانا سيخرج كائن عظيم هو (نباط ريّا) ومن نطفتا (سيمات هيّي) سيخرج كائن عظيم هو (مار إد ربوثا).

في المقابل ستكون هذه الطبقة، في عالم الظلام، معبراً عنها بـ(نصبتا) التي هي أغراس الظلام و(ساخا) التي هي عمق الماء الأسود وهاويته السحيقة. وهي التي خرجت من تنا (الدخان) الكوني.

أما في عالم الانسان فستكون حاملة لدخوا الروح في وعائها الجسدي القادم من عالم الظلام في عملية مركبة في الخلق والتكوين.

كل هذه التكوينات بدت وكأن الدوائر الثلاثة العليا للعوالم الثلاثة هي أشبه بالبيضة الخلقية الأولى التي خرجت منها الكائنات البدئية الأولى لعوالم النور والظلام والإنسان. والحقيقة أننا نرى بأن دخول مانا في البيضة الكونية النورية الكبرى هذه سبّب إخصاباً لها فنقلها من حالة السكون إلى حالة الحركة وتكاثرت خلاياها (تحت مختلف التسميات) وتوهجت وتهيّجت وبدأ تكاثر مكوّنات الحياة الأولى.

يبدو الأمر كما لو أنه بدء تكون جنين في الرحم أو أنه بدء تكون خلية حيّة من حوامض أمينية وبروق ورعود، أو أنه يذكّر بالانفجار الكبير الذي بدأ به الكون.

ثم تظهر طبقة النور (نهورا) ويمكن أن تظهر (تنّا) ويظهر البهاء (بهير) أو (يورا) الذي هو الضوء الساطع القوي الذي يشبه الجوهرة، ومن النور تظهر سحابتان نوريتان فيما بعد هما (براث وشهرات) ومن البهاء/ يورا سيظهر ياور أو يورا ربّا.

بعدها تظهرطبقة الماء والحرارة: من النور سيظهر الماء الحي والحرارة الحية والينابيع (مامبوعي) والإتحاد (لاوفا) الذي هو الحب (إيروس) في الأساطير الإغريقية. وكل هذه العناصر تزيد من تماسك مادة الخلق ويُهيء الماء والحرارة مناخاً لظهور الحياة.

كذلك تلعب أرض الظلام وأنهار الظلام السبعة دوراً لظهور حياة سفلية سوداء.

وفي طبقة النهر ينتج عن ما سبق ظهور نهر النور الأول وهو نهر الماء الحي الجاري (يردنا)

والـذي يسـمى نهـر بريـاويس والـذي بحثنـا في أعمـاق أسمـه ووجـدناه يـدل علـى ضـوء ذكـري (بار+أوش). في المقابل فإن نهر الظلام الأول (يردان الأسود) يسمى سينياويس واسمه يدل على نور أنثوي (سين+ أوش) فالأول ضوء شمسي ذكري والثاني ضوء قمري أنثوي مـرتبط بـالظلام حاله حال القمر.

ومن نهر برياويس يظهر أول جنين ذكري يمثله الحيّ الأول والذي اعتدنا على تسميته (هيّي ربّا) والمترجم إلى الحياة الكرى أو الأولى أو العظمى. والحقية أن اللاهوتيين الذين وضعوا صيغة (الحياة) بدلاً من (الحي) في هذا الموضع إنما أرادوا أن يتخلصوا من حرج وجود الحيّ العظيم في بداية عملية الخلق وكان لا بد من جعل هذا المولود من نهر برياويس أنثى باسم (الحياة) التي هي في أصلها اللغوي المندائي (هيّي) أيضاً.

أما في عالم الظلام فسيظهر من نهر (سينياوس) أول جنين أنثوي من يردان الأسود الأنثوي وهي (قِن) أم الظلام ولنقل أم حياة الظلام، أو أم الظلام الحي. ونحنُ نرجّح أن يكون أصل (قن) هو (كن) حيث (ك) هو الجبل ونون هو الماء المحيط فيكون معناها (جبل في محيط) أي أنها الظهور البدني في محيط الماء) ولا نتفق مع من يقول أن أصلها هو (قاين) الابن القاتل لآدم.. فهذا أمرٌ بعيد ودليلنا أن معنى الجذر (كين) هو (يُنشيءُ) فهو (نشوء وظهور وانبثاق).

كان آدم كاسيا (أدكاس) أو آدم الخفي أو الضوئي قد ظهر في عالم النـور وهـو نظير لمندا إد هيي ولكن دوره محدود ومعين لكي يبث الروح في آدم الجسبدي (الأرضي). وقد خلقت معه حواء كاسيا (أنانا –نهورا) لكي تبث الروح في حواء الجسدية (الأرضية). ولكن كلٌّ منهما ينتج سـلالة نورانية متوازنة، فقد ظهرت مـن آدم كاسـيا سـلالة (هيبـل، إنـان نصـاب زيـوا شـيتل، بـار هيـي (أنوش))، ومن حواء كاسيا ظهرت سلالة (إناث هيي، أنهر زيوا حواء، دموث هيي) وستعمل السلالتان على ميلاد أبناء آدم من الذكور والإناث بطريقة مركبة سنأتي على ذكرها.

لكن آدم كاسيا ينزل حاملاً نشمثا ويبدو وكأنـه قـد أشـاع الـروح لفـي آدم بغـرا الـذي خلقـه بثاهيل على هيئته. أما حواء كاسيا فتنزل هي الأخـرى وتشـيع الـروح في حـواء بغـرا الـتي خُلقـت على هيئة (روها).

وهكذا يظهر إلى الوجود آدم وحواء اللذين يُنجبان (دون دنسٍ) ثلاثة توائم.

في عالم الظلام يكون أور (ومعه كرون أحياناً) و(روها) نظراء لآدم وحواء الظلاميين ويظهر من زواج السفاح بين أور وروها مجموعتان من الكائنات الظلامية، الأولى ترافق ظهورها مع أبناء آدم وحواء والثانية ترافق أعمال الروها القادمة. ولذلك نجد أن نظراء آدم وحواء في عالم النور هما (آدم كاسيا وحواء كاسيا) أو نظرائه في عالم الظلام فهما (أور وروها)، فالنور يوفر الروح والظلام يوفر الجسد. ويؤكد لنا هذا الإيقاع المشترك للخلق في العوالم الثلاثة على وحدة هذه العوالم من حيث الجوهر واختلاف أشكالها الخارجية.

ويشكل تعميد آدم وحواء بعد خلقهما ترميزاً واضحاً لوجود النهر الكوني وخروجهما منه مزودين بالطهر والمعرفة. أنجب آدم وحواء (دون دنسٍ) ثلاثة توائم هم (هيبل، شيتل، أنوش) من الذكور و(إناث، أنهر، دموث) ومن هؤلاء ظهرت البشرية الأولى التي رأس ذريتها وعهدها آدم لمدة ألف سنة ثم رأسها هيبل بعده حتى حلّت كارثة السيف وصعد هيبل إلى عالم النور.

٢ ـ سلسلة أنساب الجيل الثاني: لعوالم النور والظلام والأرض

تتكشف في هذا الجيل الكائنات الكبرى الفاعلة في عالمي النور والظلام فإذا كانت صيغة (ربّا) أي (العظيم) هي السائدة في السلسلة السابقة، فأن صيغتي (زيوا) أي (الضوء) و(أثرا) أي (ملاك النور) هما السائدتان في هذا الجيل إضافة إلى الإسناد أو الألإضافة التي تسند إلى الحي/ الحياة وهي (هيّي) مثل مندا إد هيي ونهورا هيي..إلخ

أما الآباء العظام الآخرين فلم يخرجوا من النهر الحي وإنما من فيوض العناصر الأولى لدائرة النور فمن (نبطا) ظهر (نباط ربّا) بعد أن حلّت فيه براث إنانا. ومن (يورا) ظهر (ياور ربّا) ومن (نهورا) ظهرتا براث إنانا وشهرات إنانا ومن نطفتا ظهر مار أدر ربوثا (مار العظمة) أو ربّ العظمة ومنها ظهرت (كنّات ربتي) وظهر العادل الكبير (الغلام الشاب).

هؤلاء هم الآباء الأوائل الذين سيشكلون سلسلة أنساب الجيل الثاني. وقد لاحظنا أن هؤلاء هم أجنة الكون القادم وفيهم تكمن أجنّة العناصر الأربعة فالضوء الذي هو مصدر النار يتجلى فينباط ربّا وياور ربّا وبراث إنانا وشهرات إنانا والماء في هيّي ربا والهواء في مار إد ربوثا ومن معه والتراب في قين.

أن أقرب سلسلة أنساب ثيوغونية لهذه السلسلة المندائية نراها في المثولوجيا الأغريقية رغم بعض الاختلافات لكننا نظنُّ أن هناك تقارباً بينهما.

إن نباط هو النطفة الأولى وهو التدفق (الافراز الأول للحياة). أما سار ويسمى (سام مانا سميرا) فهو التدفق الثاني للحياة الذي ظهر من كنّا نشماثا (وعاء الأرواح) والذي سيعود لها ثانية يوم الحساب ويسمى أيضاً (يو سمير) أو (مانا سمير) الذي يأخذ صفة المخلص.

أنجب الآباء الأوائل أبناءً صاروا آباءً ثوانٍ يشكلون كبار عالم الحياة وعوالم الظلام وهم:

نباط ربّا: نباط زيوا+ شاور زيوا

ياور ربّا: ياور زيوا وسيكون هذا الاسم مع شاور زيوا من أسماء هيبل زيوا

هيّي ربّا

أما (قن) في عالم الظلام فتنجب من كاف الكبير أول عالم من عوالم الظلام ممثلاً بـ(زرتاي ـ زرتناي وعماميت) وأناتان وروها وزاهرئيل. ويكون أناتان بمثابة زوج لـ(قن) في طبقة أخرى.

الطبقة السفلى: ربما لا يظهر فيها سوى شيتل أثرا من عالم الضوء والذي يسمى (الغرسة). ويكون بثاهيل قد كون جسد آدم (آدم بغرا) بالتعاون مع أور وروها. وبالتناظر مع ظهور هيبل زيوا واتصاله بزاهرئيل أخت روها وإنجابها لبثاهيل من العالم المظلم. ويناظر آدم بغرا كاركوم (كيو) جبل اللحم فهو شكله الأصغر بسبب اللحم وكذلك شدوم ذلك الخرف المتهالك في عالم الظلام كصفةٍ أساسية لآدم تشير إلى العجز والشيخوخة مثلما أشار كاركوم إلى اللحم. وهذا جزءٌ من التناظرات المندائية في الأساطير.

أما (أنوش أثرا) فيظل وحيداً تحت هذه الطبقة وربما لهذا السبب سمي بالغلام الشاب العادل الوحيد. ولأنه أيضاً سيبقى وحيداً في عالم البشرية الثالثة بعد صعود أخويه.

البشرية الثانية جاءت من(رام ورود) وكان أس عهدها هو شيتل حتى حلّت كارثة الحريق بالنار فصعد شيتل إلى عالم النور.

٣ ـ سلسلة أنساب الجيل الثالث لعوالم النور والظلام والأرض:

ظهر الآباء الثوالث ليمثلوا تناظراً مهماً في كائنات الحياة مثل التناظر بين آدم كاسيا (الوجه

الآخر لمندا إد هيي) الذي يناظر أباثر الملقب (آدم ربّا) و(كاسيا) ويعتبر هذا التناظر في غاية الأهمية لأن آدم كاسيا لا ينحدر مباشرة من الحياة الأولى. أما الأثري الآخرون الذين انحدروا من الحياة الثانية فهم الحياة الثالثة (أباثر) بشكل خاص وأبناء السلام الأربعة (عين واسم ضوء ونهر الحياة) وبهاق زيوا (تاورئيل أو نصاب زيوا).

وكان أباثر قد خرج على عالم النور وسكن أبناء السلام في عالم خاص بهم خارج عالم النور أما بهاق زيوا فقد تماهى مع هيبل زيوا وشكّل وجهه الآخر.

ومن عالم الظلام هناك أور ابن روها من كاف وزاهرئيل اختها وهاغ وماغ.

أما (أنوش أثرا) فيظل وحيداً تحت هذه الطبقة وربما لهذا السبب سمي بالغلام الشاب العادل الوحيد. ولأنه أيضاً سيبقى وحيداً في عالم البشرية الثالثة بعد صعود أخويه.

البشرية الثالثة جاءت من شورباي وشارهبئيل وكان رأس عهدها هو أنوش حتى حلّت كارثة الطوفان بالماء فصعد أنوش إلى عالم النور.

٤ ـ سلسلة أنساب الجيل الرابع لعوالم النور والظلام والأرض:

يعطي عالم النور سلالة واحدة منه لتعضيد أبناء آدم وحواء وكذلك يعطي عالم الظلام سلالة واحدة. أما البشريات اللاحقة (الثانية والثالثة والرابعة) فلا يعطيها أيّ منهما سلالة جديداً لكن الصراع بين عالمي النور والظلام يبقى قائماً على الأرض ومن خلال النسل البشري.

البشرية الرابعة جاءت من (نوح) و(أنهوريتا) اللذين أنجبا (سام) والذي تزوج بـ(أنهر) ومنهم جميعاً جاءت البشرية الرابعة وسلسلة المصلحين الكبار، ولم يكن هناك رأس لعهد هذه البشرية (له علاقة بعالم النور) وهو ما ينذر بفنائها وانتهاء النسل البشري عن طريق كارثة العاصفة (الهواء) التي سيرتفع عند حلوها الخطاة الأوائل (يوشامن وأباثر وبثاهيل) من عوالمهم تحت عالم النور إلى عالم النور ويُغفر لهم وستفنى الأرض وما عيها حيث يبتلعها يوباثين ويبقى عالم النور متلألاً وفي الأسفل عالم الظلام مندحراً.

أما الأوعية أو الحواضن التي تحتوي هذه الكائنات النورية (التي هي أصول النور) فهي (بيرا، بهير، يردنا، مامبوعي، تنّا، بهثا) وهي (الثمرة، النور الساطع، الماء الجاري، الينابيع،

الدخان، التنّور).

ويظهر من حركة التفاعل النورية المعقدة وبوجود (مانا ربّا) الكائنان العظيمان وهما راعي عالم النور الأول الحي الأول أو الحياة الأولى (هيّي) ومساعده عارف الحي (مندا إد هيّي) وتكون حاضنتهما الـ(كنزا) أو (الكنزا ربّا) أي (الكنز) أو (الكنز العظيم) الذي هو سرّ أسرار عالم النور. فيما تكون حاضنة الحي الأول هي النهر النوريّ (يردنا) وهو هنا (برياويس) وربما يكون تلميحاً مثالياً لنهر الفرات (بر، بُراثو).

التوازن الثيوغوني الشامل
في دوائر عوالم النور والظلام والإنسان

كان تحرينا السابق عن انتظام الدوائر الثيوغونية ضرورياً لرصد التوازن في كل الدوائر الخاصة بالنور والظلام والإنسان. لكننا في هذه الفقرة سنعمد إلى تنظيم توزن شامل يشكل خلاصة فهمنا للدوائر الثيوغونية.

لقد لاحظنا، بوضوح، الأمور الآتية:

١. أن عدد دوائر الثيوغونيا كلها (النور، الظلام، الإنسان) هي (١٢) دائرة بواقع أربع دوائر لكل منها

٢. أن هناك تناظراً بين هذه الدوائر.

٣. تتكون كل دائرة من (١٢) كائن تحيط بالكائن الرئيسي الذي يرعى الدور وهناك تناظر شديد بين هذه الكائنات وراعي الدور.

وقد لاحظنا أن الراعي في عالم النور، في كل دور، يحتاج إلى مساعد يحرك فاعلية ونشاط هذا الراعي.

ولذلك رأينا أن هذا الانتظام الاثناعشري الخفيّ الذي يمسك بشجرة الثيوغونيا المندائية مهمّ للغاية وهو الذي سيعيننا على فهم مجمل حركة وشكل وصورة هذه الكائنات. ومن هذه النقطة انطلقنا لإعادة رسم شجرة الثيوغونيا المندائية وفق رسم وإيقاع اثني عشري سنوضحه في هذه الفقرة مستعينين بجدول وشكل الشجرة الاثني عشرية الذي سيوضح الكثير.

عالم النور :

يبدأ الخلق عندما يأمر (الحي العظيم) به فتظهر منه الـ(مانا) داخل غلاف من الدخان (تنّا). من المانا العظيم (مانا ربّا) يبدأ خلق عالم النور ومن الـ(تنّا) يبدأ خلق عالم الظلام.

الحي الأول (الحياة الأولى) :

يظهر الـ(مانا ربّا) داخل ستة من الأغلفة والأوعية الكونية وتتكون فيها ستة من الكائنات النورية العظمى.

الكائنات النورية هي (نبطا، نهورا، لاوفا، أيرا، ياور، إيشاثا، هايتا) وهي على التوالي (البهاء، النور، الاتحاد، الأثير، الجوهر، الحرارة الحية).

الحي الثاني (الحياة الثانية) :

تظهر في الحياة الثانية لعالم النور وهو عالم طبقات النور اثنا عر من الكائنات النورية أيضاً وهي :

(نبطا ربّا، براث أنانا، شهرات أنانا، مار أد ربوثا، ياور ربا، تروان نهورا) وهي على التوالي (نبط الكبير، سحابة برات، سحابة شهرات، رب العظمة، الجوهر العظيم، نور تراون).

وتظهر معها أوعيتها (نطفتا، دموث هيي (صوثا، كنّات ربتي، كنف هيي، كوشطا كنّا، تيير تروان) وهي على التوالي (النطفة، الشبيه، كنف الحياة، قسط كنّا، المصباح الكبير لتروان).

أما فاعلية هذه الكائنات فتظهر مع الحي الثاني (يوشامن) الذي يكون مساعده هيبل أثرا وقرينته إناث هيي وهما الشكلان النوريان لهيبل وزوجته ومكانهما الكنزا. أما يوشامن فربما كان مكانه أو وعائه يردنا أي أيضاً.

الحي الثالث (الحياة الثالثة) :

يظهر في دائرة الحاية الثالثة إثنا عشر كائناً ضوئياً (حيث يتحول النور إلى ضوء) وهذه الكائنات الضوئية هي :

(يوخابر، سار (سام زيوا)، سمير، بهرام، هامغاغي زيوا، يوفين يوفافين) أما أوعية أو حاويات هذه الكائنات فهي :

(سندرياويس، يوسمي كنّا، شلمي وندبي، كرمة الحياة، العين، أثري) ويظهر مع هذه

المجموعات مواد الطقوس المندائية وهي في عالم النور

الحي الثاث هو أباثر الذي هو أب الأثري ومساعده هو شيتل أثرا وقرينته الضوئية أنهر زيوا حوا وهم في نهر سندرياويس الذي هو نهر الحياة. ولنلاحظ أن سلالة (هيبل، شيتل، أنوش) النوريّة غالباً ما يمثلها هيبل زيوا.

<u>الحي الرابع (الحياة الرابعة)</u>

يظهر في دائرة الحياة الرابعة إثنا عشر كائناً ضوئياً وهي:

(بهرام الصغير، باسقيل، بهير، يهانا، شارهبيل، شيشلام ربا) وهم (بهرام، مراقب الزبد، المختار، المحيي، المتكاثر، المتزوج) وله أوعية مقابل هي (شاق، كوشطا كنّا، سماندرئيل، درابشا، شهرات، شاترين) وهي (الغيمة، القسط، روح تفتح الازهار، الراية، السفينة، شجرة الأطفال).

والحي الرابع الذي هو بثاهيل له مساعد هو أنوش أثرا (الذي يظهر بصيغة هيبل زيوا) ومرافقته دموث هيي.

والحقيقة فأننا نعتذر سلفاً عن أي خطأ في تريب هذه الكائنات ومكانها لأننا توصلنا إلى هيكلها هذا بعد قراءة طويلة وربما كنا في حاجةٍ لمراجع أخرى لتثبيتها على وجه الدقة رغم أن المراجع المندائية تتناقض أحياناً في ذكرها.

عالم الظلام:

نرجِّح أن يكون عالم النور ذكرياً وذلك لسيطرة الحي (هيي) بسلالته المربعة عليه، ولذلك نتحفظ عن ترجمة (هيي) بـ(الحياة) ونقترح ترجمتها بـ(الحي) بسبب ذكورية عالم النور.

أما عالم الظلام فهو عالم أنثوي وصمه عالم النور (وكهنة المندائيين) بأبشع الأوصاف وأرذلها، ونرجّح أن في ذلك صدىً للإنقلاب الذكوري ا الذي شهده المؤسسون الأوائل للمندائية منذ (أريدو) في وادي الرافدين.

ونرجِّح أن تكون (روها) هي الإلهة الأم القديمة التي دفنها المندائيون في الظلام رغم أنها ظلت حيّة تتناسل وتكون عالماً كاملاً نظيراً لعالم النور هو عالم الظلام، ولذلك كانت مهمتنا في

إعادة بناء عالم الظلام وكشف مناظراته لعالم النور على الرغم من تشتيت أسماء كائناته وعدم ذكرها الصريح في النصوص وتحتها وبين السطور.

لقد حاولنا أن نوضّح العوالم الأربعة للظلام رغم عدم وضوحها في النصوص المندائية سعياً منا لإثبات الإيقاع المتناسق بينها وبين عالم النور.

١ . الظلمة الأولى (قن):

بدأ عالم الظلام بالتكون بعد عالم النور، فقد تكوّن من دخان (تنّا) وظهرت أصول الظلام متكونة من سبع كائنات ظلامية هي:

(نصبتا، إينا، أردا دهشوخا، ساخا، ميّا سياوي، يردان) وهي (أغراس الظلام، العين، أرض الظلام، عمق الظلام، الماء الأسود، نهر الظلام الأول) وعرفنا أن العين تحتوي على المرآة والمرارة والجمرة. وقد كانت لهذه الكائنات ستة أوعية هي عبارة عن سبعة أنهار للظلام كان يردن أولها وهناك ستة أخرى تحتوي ما تبقى.

وتظهر في هذا العالم الأول للظلمة أم الظلام (قن) وهي روها الأم التي تخرج من ماء يردان نهر سبنياويس (نهر القمر) ونرجّح أن يكون نهر دجلة بأعماقه الخفية في باطن الأرض أو شكله السلبي النموذجي.

٢ . الظلمة الثانية (روها):

تتكون لظلمة الثانية من طبقات عالم الظلام وتتكون هذه الطبقات من ستة أنواع من الذكور المظلمين هم (زرتناي، هاغ، كاف، كاركوم ـ كيو، شدوم، أناتان) في مقابل ست كائنات مؤنثة مظلمة هي (عماميت، ماغ، كامان، همورثا، ليليث، عشتروت) وهذه الثلاثة الأخيرة أنواع من الكائنات الأنثوية التي رافقت أم الظلام.

أما الظلمة الثانية أو أم الظلام فهي روها وهي روها الحقيقية (البنت) التي تعدّ السمة الكبرى لعالم الظلام كله.

٣ . الظلمة الثالثة (أور):

هذه الظلمة هي ظلمة الكواكب الاثني عشر المكونة من سبع كواكب سيارة معرفوة ومعها خمسة كواكب لا يُفصح عن اسمها نُرجح أن تكون هي الكواكب السبعة نفسها في صورة جنسية

معكوسة مع توزيع الشمس الذكري والقمر الأنثوي في كل طرف.

أي أن الكائنات الستة الأولى هي (شمش، نيرغ، أبنو، بل، دلبات، كيوان) وهي ذكرية الطابع هنا (الشمس، المريخ، عطارد، المشتري، الزهرة، زحل) تقابلها ستة كواكب أنثوية قرينة لها هي (القمر، المريخ، عطار، المشتري، الزهرة، زحل).

والحقيقة أننا نقترح هذا الحل لنخرج من مأزق السبعة والخمسة كواكب التي يشكل مجموعها ١٢ كوكباً.

أما سيد الظلمة الثالثة فهو (أور) الذي نراه على أنه الظلمة الإبن للظلام الذي جاء من تناسل أمه روها مع والدها كاف.

<u>٤ . الظلمة الرابعة (زاهرئيل):</u>

هذه الظلمة هي ظلمة الأبراج الاثني عشر التي تحلّ فيها الكواكب الاثني عشر السابقة ولهذه الأبراج أسماءٌ هي نفسها أسماء الأشهر المندائية وهي (دوالا، نونا، أمبرا، تورا، صلميا، سرطانا، أريا، شمبلنا، قاينا، أرقوبا، صاطيا، كاديا) وهي (الدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي) أما أشهرها المقابلة فهي (شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول، تشرين، مشروان، كانون، طابيت). وقد ذكرناها بدءً من شباط لأن السنة المندائية تبدأ في شباط الذي يصادف في حدود ٢١ آذار الحالي عندنا تقريباً، وهو نفس بداية السنة السومرية قديماً.

أما سيدة الظلمة الرابعة فهي شكل من أشكال الروها وهي (زاهرئيل) أو (زُهرائيل) التي هي أخت الروها.

عالم الإنسان

يتكون عالم الإنسان من أربعة مراحل بشرية كبرى تنتهي كلّ واحدة منها بكارثة تتوافق مع العناصر الأربعة المكوّنة للطبيعة ولكل مرحلة. وربما تكون هذه المراحل مقلوب مراحلالنور والظلام في طبيعتها. ولا تنتظم الإيقاعات الاثناعشرية تماماً فيها رغم أن مجمل عدد كائناتها يساوي ثلاثة عوالم وهو (٣٦) كائن ولهذا تفسير واضح سنذكره.

الإنسان الأول (البشرية الأولى)

تتكون البشرية الأولى وفق أسلوب معقد نوعاً ما حيث يهيء عالم النور عن طريق (بثاهيل وهيبل زيوا) ثمانية كائنات نورانية نجمل أسماءَها بـ(كاسيا) أي (الخفية) أو (السرّية) وهي تمثل نزول نشمثا من عالم النور وهذه الكائنات هي: آدم كاسيا، هيبل أثرا، أنان نصاب شيتل زيوا، أنوش أثرا، حواء كاسيا، إناث هيي، أهر زيوا حواء، دموث هيي) وسنشرح كيفية حصول ذلك في خليقة الإنسان.

فيما يهيء عالم الظلام أجساد هذه الكائنات على مراحل أو ما يعرف بـ(بغرا) وهذه الأجساد أو الأوعية الحاوية هي (آدم بغرا، هيبل بغرا، شيتل بغرا، أنوش بغرا، حواء بغرا، إناث بغرا، أنهر حواء بغرا، دموث بغرا) وبعمليات مثولوجية معقدة (سنفصح عنها) تدخل الأرواح في الأجساد ليتكون منها ثمانية أشخاص أولهما آدم وحواء ثم هيبل وإناث ثم شيتل ونهر ثم أنوش ودموث. والشيء المهم في هذه المرحلة هو بقا قبس النور بصورة واضحة في راعي البشرية الأولى الذي هو آدم (ممثل عالم النور أو آدم كاسيا) ثم هيبل بعده على أثر فداء شيتل لآدم. ويمثل آدم وهيبل الأخيرين راعيين لهذا العصر الذي يستمر ٢١٦٠٠٠ سنة بكارثة السيف التي يفرضها عالم الظلام على الأرض حيث تنتهي البشرية الأولى.

الإنسان الثاني (البشرية الثانية)

ينجو (رام) و(رود) من كارثة السيف ويؤسسان البشرية الثانية ويكون راعي هذه البشرية شيتل (الذي هو روح نورية تبقى على مدى زمن البشرية الثانية وعمرها ١٥٦٠٠٠ سنة وتنتهي بكارثة يدبرها عالم الظلام وهي كارثة النار حيث تحترق ارض وما عليها.

الإنسان الثالث (البشرية الثالثة)

ينجو (شورباي) و(شربهئيل) من كارثة النار ويؤسسان البشرية الثالثة ويكون راعي هذه البشرية أنوش الذي هو روح نورّية تبقى على مدى زمن البشرية الثالثة وعمرها ١٠٠٠٠٠ وتنتهي بكارثة يدبرها عالم الظلام وهي كارثة الماء والطوفان الذي يغمر الأرض وما عليها.

الإنسان الرابع (البشرية الرابعة)

ينجو (نوح) و(أنهوريتا) من كارثة الطوفان ويؤسسان للبشرية الرابعة ويظهر نسلهما الأول

الذي على رأسه (سام) و(أنهار) وهما بمثابة رؤساء المندائية في هذا العصر، لكن هذا العصر يخلو من الرعاية النورانية فلا يوجد فيه قبسٌ يحفظ هذه البشرية من الفناء ويدوم عمر هذه البشرية (١٠٠١٤٢) سنة ونحن من أهل هذه البشرية، وتفنى نهائياً سلالة الإنسان في نهايتها عن طريق الريح ويظهر العملاق (يوباثين) الذي يبتلع الأرض وما عليها وينتهي وجود الإنسان ويبقى عالم النور وعالم الظلام.

ومن الملاحظ أن عدد الكائنات البشرية التي يرعاها عالم النور هو (٣٢) فإذا أضفنا لها أربعة رعاة نورانيين فسيكون هنا (٣٦) كائن وهو ثلاثة أضعاف عدد الـ(١٢). ويفسر غياب (١٢) كائن نوي نقص عالم البشرية لدائرة كاملة وهو ما يشير إلى خلو الدائرة الرابعة من عناية قدسية تجعل الإنسان والأرض عرضة للفناء الكامل.

كذلك يجب أن نلاحظ أن العناية النورانية الممثلة بالحي الأول والثاني والثالث والرابع وبالمسعدين والتي تستمر من مندا إد هيي وآدم كاسيا وتستمر عبر أجيال عالم النور ثم تنحدر إلى أجيال البشر يبلغ عددها هي الأخرى (١٢) كائناً. وهو إيقاع متفق مع الخارطة الكلية الاثنا عشرية.

ويجب أن ننوه بأن عالم النور يقوم بغزو عالم الظلمة، قبل خلق الأرض، لأربع مرات من قبل كائنات نورية كبرى مثل مندا إد هيي وهيبل زيوا وبثاهيل. لكن عالم النور يرد على هذه الغزوات بعد خلق الأرض عندما يدمر الإنسان والأرض بأربع كوارث مقابلة، وهذا تناظر آخر نسجله هنا علماً بأن هذه الكوارث تتبع مكونات عناصر الطبيعية الأربعة (التراب، النار، الماء، الهواء). وهو سياق متناظر يتكون معاكساً للطبيعة الافتراضية لكل من عالمي النور والظلمة المكونيين، جدلاً، من أربعة عناصر تنحو منحى النور في عالم النور ومنحى الظلام في عالم الظلام وهي منذ البداية (الهواء، الماء، النار، التراب) وحين يحل عالم التراب الذي هو (عالم بثاهيل وعالم زاهرئيل) تصبح مهمة خلق الأرض والإنسان قد بدأت حيث يبدأ عصر التراب أولاً في الأرض وتنتهي الأرض ترابياً بالسيف أو الطاعون وهكذا بالعناصر الأخرى في البشريات الثانية والثالثة والرابعة، وهذا تناظر اثنا عشري آخر..!!

المبحث الثاني
الكوزموغونيا المندائية
Mandaean Cosmogony

(خليقة الكون : عوالم النور والظلام والأرض)

الكوزموغونيا هي أساطير خليقة الكون في الأديان، وهي في الدين المندائي أساطير خليقة عوالم النور والظلام والأرض وما بينها من عوالم خاصة، ولا شك أن الثيوغونيا قد مهدت لنا كثيراً لفك تشابك أساطير الخليقة، فقد تعرفنا من خلالها على تسلسل ونسق ظهور الكائنات النورانية والظلامية والآدمية التي لها أشكال مادية كونية تؤسس لعوالم النور والظلام والأرض.

تنقسم الكوزموغونيا المندائية إلى ما يلي:

١. كوزموغونيا عالم النور التي تشمل أساطير خليقة دوائر النور والحياة وآدم الضوئي
٢. كوزموغونيا عالم الظلام التي تشمل أساطير خليقة دوائر أصول وعوالم ومكونات الظلام
٣. كوزموغونيا عالم الأرض التي تشمل أسطورة خلق الأرض
٤. صورة الكون (كوزموس) المندائي

أولاً : كوزموغونيا عالم النور Almi d nhora cosmogony

يتربع خالق الكون على قمة عالم النور، ويتوارى الاسم الحقيقي لهذا الخالق ولا أحد يعرفه رغم أن المندائيين يستخدمون إسماً هو أقرب إلى الصفة وهو حيّ (هيّي) ويضيفون له صفة العظيم (ربّا) فيكون (هيّي ربّا)، ورغم ذلك هناك اسماء قديمة وحديثة له ولكنها ايضا تشير الى الصفات، ورغم أن نصوص الكنزا تؤكد عدم التمكن من حصر صفاته لكنها تذكر فقط في الكتابين الأول والثاني منها (كنزا اليمين مؤلف من ١٨ كتاباً وكنزا اليسار مؤلف من ٣ كتب) أكثر من مائة صفة وتحصر الصفات الرئيسية له بخمسٍ مع وجود صفات كثيرة له. وقد توصلنا إلى

أن الجذور الرافدينية لهذا الإله تكمن في إله الماء البابلي (إيا) وهو إله الحياة والخليقة والحكمة والعلوم والفنون. إنه أكثر الآلهة رحمةً ولا تفارقه صفة الخلق والرعاية للكائنات الحية مطلقاً.

وخالق الكون في المندائية، كما في بقية الأديان الموحِّدة، لا أساطير له ولا حكايات تذكره أو تشبهُّه بشيء أو تحكي عن الأحداث التي مرّ بها فهو منزّه عن هذه الأساطير لذلك لا نقرأ عنه مباشرة أسطورة واحدة (أي حكاية مقدسة واحدة) بل نلمح أوامره ونواهيه هنا وهناك. وترافقهُ دائماً صفة الملك.

«الملك تسرّه رؤية أبناء النور. عندما يدعو هو أحداً إليه يجيب نداءه ألفٌ منهم: بكلمة واحدة منهُ يخلقُ هو الأُثري وبحديث فمه يبعث الكاملين من جديد. ملك جميع الأثري والشُكينات، التاج الكبير على رأسه قمة السماء. أنت الرحمان الذي يطرح الأقوياء أرضاً، أنت القوة التي يخضع لها المعاندون الجامحون أنت مباركٌ مسبّحٌ في كل زمان وأجلٍ إلى النهاية.»[٢٣]

تُذكر أفعاله بحذر لكي تدلل على قوته ومقدرته لا لكي تروي حكاية عنه تجنباً للإنزلاق في التشبيه بأفعال الكائنات الأخرى أو الإنسان.

«حينما بدأ هو يتكلم بقوةٍ كبيرة وبخطبةٍ عنيفةٍ صارت ملكي النور تتكون من البهاء النقي والنور العظيم الذي لا يفنى. ملكي الحمد جاءت إلى ما فوق، نشأت ثم نُفخت في صدرها الأنفس (نيشماثا). إن البعث إلى الحياة يعني بالنسبة لها بدون نهاية وبلا عدد وبغير فناء، إنها تمثل بين يدي ملك النور السامي واقفةً وتسبِّح باسمه. إن بهاءه كبير ويفوق كلّ وصفٍ ونوره عظيم لا نظير له. بهاؤه يسطع ونوره يتلألأ في جميع العوالم. سليمة كاملة ورائعة متألقة هي قبة السماء التي تقطن الملوك فيها»[٢٤]

إن مفردة ملكي تعني الملاك ويترجم جمعها أحياناً إلى ملوك بدلاً من ملائكة أما عالم الحي العظيم الذي هو عالم النور فيصفه كتاب الكنزا بأوصاف خاصة:

«إن عالمه أبديٌّ لا نهاية له

إن عالم البهاء والنور بلا ظلمات

إنه عالم الرحمة بدون عصيان

إنه عالم العطور الزكيّة وليس الروائح الكريهة

إنه عالم الحياة الأبدية بدون زوالٍ أو فناء
إنه عالم الماء الحيّ الذي تُسرُّ الملوك رائحته
إنه عالم الطيبة لا السوء
إنه عالم الثقة والإيمان بدونِ افتراءٍ وخيانةٍ
إنه عالم صافٍ بغير اختلاطٍ رديءٍ»[٢٥]

١ . كوزموغونيا الحياة الأولى (هيِّي قدمايي)

الطريقة التي خلقت فيه دائرة النور الأولى هي طريقة الانبعاث الذي يحصل نتيجة حركةٍ تسبقهُ عادةً. ويظهر (مانا الكبير ذو العظمة) في مركز عملية الخليقة فهو قبسٌ من الذات الإلهية أو أنه بلغة أخرى الشكل الظاهر أو العملي للحي العظيم، ويوصف كذلك بأنه روح الإنسان (نيشمثا) ويُستخدم للتعبير عنها في أغلب كتب وأجزاء كنزا ربّا اليسار.

لقد توصلنا في مبحث الثيوغونيا إلى أن (مانا) هو جوهر كل الثيوغونيا المندائية فهو سرُّ الخليقة المندائية وقد تطابقت مراكز دوائر الخليقة النورانية والمظلمة والأرضية فيه. إنه يخترق كل هذه العوالم ليبث فيها الروح والحياة، بل هو مصدر حياتها جميعاً.

أن فلسفة الخليقة المندائية في عالم النور تقوم على أساس أن هناك طاقة نورية متحركة أصلها الأول هو (مانا) تخرج منها أشكال نورية كثيرة من النور والضوء والباهر والنابت والجوهر ولهذه الطاقة وأشكالها أنواع مختلفة من الأوعية أو الحاويات التي تبدو أنثوية الطابع تكون حاضنة لمانا وأشكاله.

تبدأ الخليقة من حركة (مانا) الذي يؤدي بحركته إلى انبعاث الكائنات النورانية (المانات بشكل خاص أولاً) في عدة أشكال من الأوعية والحاويات فهناك ثمانية أنواع من هذه الحاويات وهي (بيرا، بهثا، تنّا، صوثا، كنّا، هلبونا، كنزا) لكننا لا نتعرف على حركة الخلق هذه بدقة إلاّ من خلال أربعة منها وهي كما يلي:

أ . مانا وبيرا (الثمرة):

في بداية الكتاب الثالث من كنزا اليمين نقرأ النص الآتي الذي لن نغير فيه حرفاً لكننا سنرتبهُ

على شكل خطوات لتسهيل فهمه:

١.«عندما كانت الثمرة في باطن الثمرة بعدُ، عندما كان الأثير في داخل الأثير بعدُ، عندما كان مانا الكبير ذو العظمة هناك، منه انحدرت سلالة كبيرة جبارة من مانات واسعة البهاء، باهرة النور، ولم يكن أحد قبلها في الثمرة الكبيرة ذات الحول الشامل والقدرة التي لا حدود لها والتي تحتوي في داخلها البهاء الجليل الذي يعجز الفم عن وصفه والنور الساطع الذي هو أبهر من أن تتمكن شفتان اثنتان التحدث عنه.

٢. عندما كان مانا الكبير ذو العظمة هناك فقد خرج من باطن تلك الثمرة ألوف مؤلفة من الثمرات بلا نهاية وربوان ربوان من الشكينات بدون عدد، أي كانت كلّ ثمرة واحدة قد احتوت على ألوف مؤلفة من الثمرات بلا نهاية وربوان ربوان من الشكينات بلا حصر. هذه جميعها تقف هناك وتسبح لمانا الكبير ذي العظمة الذي يملأ أثير الحياة وجوداً.

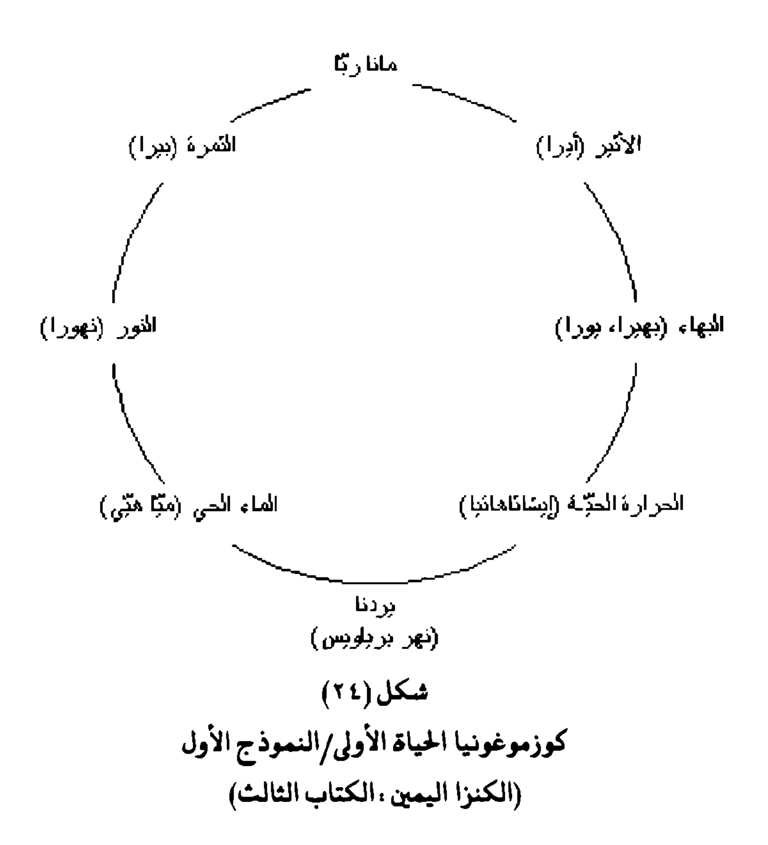
٣. ويكمن كذلك في ماء النهر الأبيض، ذلك الماء الذي كان هو بدوره قد نشأ بإرادة مانا الكبير ذي العظمة، إن رائحة هذا الماء المنعشة بحيث تستنشقها كافة جذور النور وجميع جذور البهاء الأول الكبير. بعدئذٍ تكوّن النهر الكبير الأزلي وكان بلا نهاية أو عدد. على ضفتيه الإثنتين تنمو نباتات وهي فرحة مسرورة. إن جميعها، بلا استثناء، تخضرُّ مملوءةً بلتسبيح وتقف في أوج كمالها. من هذا النهر الأزلي تفرعت بعد ذلك أنهار كثيرة ليس لها نهاية أو عدد.

٤. عندما كانت الثمرة في باطن الثمرة بعد، عندما كان الأثير في داخل الأثير بعد، عندما كان البهاء يملأ الأثير وكان سطوعه النوراني واسع المدى شديد الضياء وشاملاً بلا حدود ولم يكن قد سبقه شيءٌ في وجوده، منه نشأ النهر الكبير ذو الماء الحي، من النهر نفسه ولدت الحياة»(٢٦)

يمكن اختصار تلك المراحل بالخطوات الآتية:

١. مانا يكوّن مانات
٢. مانا (أو مانات) يُخرج من الثمرة الكبرى ثمرات وشكينات
٣. ماء النهر الأبيض يكوّن النهر الكبير الأزلي (من خلال مانا أيضاً)
٤. بهاء الأثير يكون النهر الكبير ذو الماء الحي

وبأخذ هذه الخطوات بنظر الاعتبار ومعها نصوص أخرى ترد هنا وهناك يمكن أن نحدد التسلسل الدقيق للخلق الأول كما في شكل (٢٤)، علماً بأن الثمرة قد تتغير في النصوص الأخرى إلى حاويةٍ أخرى مثل (بهثا) و(تنّا) و(كنّا)..إلخ يختلف البهاء (بهرا) عن النور (نهورا) في أن البهاء هو الضياء الخالص الأبيض (الذي يشبه ضوء الشمس ولكنه أنقى) والنور هو الشعاع المشوب بالصفرة (الذي يشبه ضوء القمر ولكنه أنقى) أما الضوء (زيوا) فلا يظهر في هذه المرحلة بل في المرحلة القادمة (دائرة الحياة).



شكل (٢٤)
كوزموغونيا الحياة الأولى/النموذج الأول
(الكنزا اليمين، الكتاب الثالث)

نلاحظ في هذا الشكل الذي يمثل دائرة خلق النور أنه منقسم إلى شطرين أساسيين، الشطر الأيمن يكون ذكرياً موجباً مكوناً من (الأثير ـ البهاء ـ الحرارة) وباللغة المندائية (أير ـ بهيرا ـ هارتا) أما الشطر اليسار فهو أنثوي سالب يتكون من (الثمرة ـ النور ـ الماء) وباللغة المندائية (بيرا ـ نهورا

ـ ميّا) وهذه العناصر مختلطة مع بعضها تظهر على سطح الأثير وباطن الثمرة وفي الماء ومن المانا تظهر كائنات نورانية ساطعة هي المانات ومنه ومن الثمرة تظهر الشكينات (مساكن النور) والثمرات وكلها مضيئة.

ب. مانا وبهثا وتنّا :

لا تخلف البهثا عن البيرا كثيراً فهي في أسطورة خلق أخرى يذكرها الكتاب العاشر من الكنزا ربّا، والبهثا(من الناحية الطقسية) هي طعام طقسي عبارة عن أرغفة صغيرة من الخبز تعطى في طقوس التعميد والمسقتا (صعود روح الميت) لكنها (من النحية المثولوجية) تشبه الفرن الكوني المتوهج.

أما (تنّا) فتوصف كوعاء كونيّ متأجج وقد تأتي بمعنى الضباب أو الدخان. وقد يأتي معناهما مشيراً لما يشبه (التنور).

١ ـ «البهاء المتأجج في البهثا التي تنير نفسها ببهائها وغدت كبيرة بضوئها. إن ذلك المانا الأول حياً وخلق وأقام في داخلها، والنور آمن بالمانا الذي حيا في بطنها وآمن بالبهاء والنور اللذين كانا فيها. إن النور آمن بالمانا الذي في باطنها والذي اسمه شارهبثيل.

٢ ـ خرج البهاء من البهثا وسطع النور عليها وخرج منها هو الآخر، سمّى البهاء نفسه برعماً (نبطا) وبهاءً ونوراً وكلٌ من بهائه ونوره يتأجج من ذات نفسه.

٣ ـ إحمّرت الـ (تنّا) لهباً، إن التنّا التي كان هو في داخلها ذابت أحمراراً

٤ ـ عندما اتقد البهاء (الضياء) على (تنّا) نشأت الينابيع (مامبوغي) ونشأ الاتحاد (لاوفا) الذي لا تنفصم عراه، نشأت المعاشرة مع الحياة، والحياة اتّخذت مقراً لسكناها وأقامت عند منابيع الحياة التي تفجرت منبثقة عنها.»[٢٧]

يمكننا وضع شكل (٢٥) خاص لهذه الطريقة في الخلق

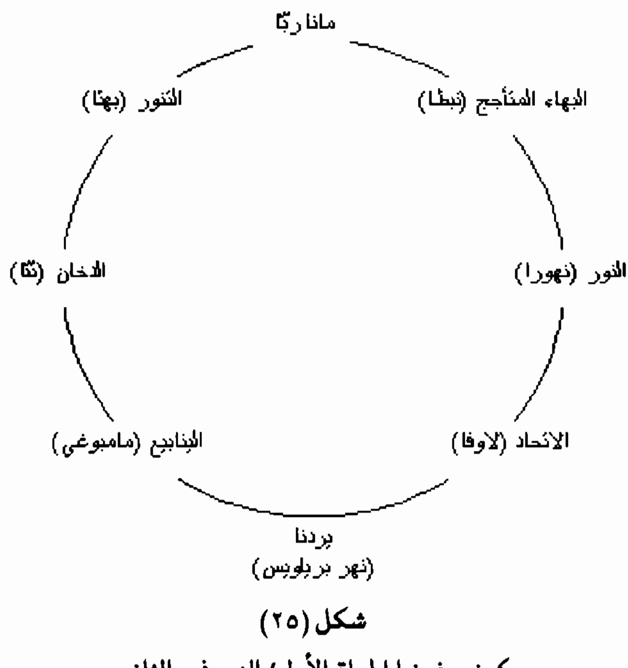
حيث يشكل الخط الذكري الموجب

(بهثا، بهاء (نبطا)، إتحاد (لاوفا)

النبطا هي نبتة البهاء أو غرسة البهاء

أما الاتحاد (لاوفا) فهو عملياً الصلة

التي تربط بين الكائنات عالم النور والتي
تربط بين المؤمنين، بل وبين الأحياء والأموات
أما الخط الأنثوي السالب (تنّا، نور، ينابيع)



شكل (٢٥)
كوزموغونيا الحياة الأولى/النموذج الثاني
(الكنزا اليمين: الكتاب العاشر)

فهو يتحرك بفعل البهاء المسلط عليه وينتج هذه الكائنات. أما مامبوغي هو الماء الطقسي الذي يكون مع البهثا ويشير هذا إلى أن هناك مفردات طقسية (بهثا، مامبوغي) أُريد إدخالها في أول عملية خلق في عالم النور لتأخذ بعداً مقدساً كبيراً وكأنها مواد عادية مستعملة في الطقس. ونلاحظ أن بهثا هي موطن مانا (نشمثا).

إن كلّ الأوصاف التي تطلق على (تنّا) تجعل منها مثل وعاء كوني خرجت منه كائنات عالمي النور والظلام معاً.

«جاء في نصوص كتاب (الألف وأثنا عشر سؤالاً): (مباركة تنّا الخفيّة التي تسكن في الينبوع

الخفي الأول العظيم لأنه من سرّ النُطفا، التي تسكن في الماء الجاري يردنا، جاءت جميع العوالم والعهود». دور(تنّا) في عملية التكوين يبدو واضحاً تماماً في هذا النص. كما تتضح علاقة (تنّا) بالمياه في نصوص(كتاب الصلوات المندائية): (انبثق ينبوع للإنبعاث داخل تنّا، تنّا الخفية تبارك المياه الجارية يردني والأنهار) وفي مكان آخر من الكتاب نفسه تحمل (تنّا صفة (مانا ربّا): (عندما ذهب المصطفى النقي إلى موطن الأبرار الصالحين، إلى تنّا الوقورة التي بتبريكاتها باركت الموطن الذي يسكن فيه الخفي (الحي العظيم)»[٢٨]

وهكذا يتضح لنا دور (تنّا) التي هي بمثابة موطن الخالق (هيّي) و(مانا) و(نشمنا) وهي مصدر النور والبهاء في عالم النور، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذه الأوعية المختلفة الأسماء هي شيء واحد، ربما تمثل كلّ واحدة طوراً أو إسماً لطور يتضح فيه هذه الوعاء أو يتميز تطورياً، ولكننا نشير هنا الى علاقة تنّا ب(كنّا) ونرى أنهما ربما كانا متطابقين أو أن تنّا كانت أصل كنّا أو العكس.

يمكننا بسهولة مطابقة الشكلين السابقين دون الكثير من المتاعب فالبهثا والتّنا تناظران الأثير والثمرة، والحرارة تناظر الاتحاد، والينابيع هي ذاتها الماء ومنابع الحياة هي الماء الحي والجاري (يردنا).

ج. مانا وصوثا:

تعني كلمة (صوثا) الرفيقة أو الصاحبة أو الشريكة المناظرة لمقابلها تقريباً لكنها ليست جزءً منهن وهي تعني حرفياً (ضوء، زينة، نظام) ويحمل أحد نصوص كنزا اليمين أسطورة طريفة لـ(مانا) وصاحبته (صوثا) اللذين يساهمان في بداية الخليقة، وهذا يعني أن (مانا) أصبح ذكراً في حين كانت (صوثا) أنثاه.

تبدأ الأسطورة بحديث (مانا) مع هيئة (دموثا) ليقنعها بأنهما يريدان خلق أعوانٍ لهما:

«إني أتحدث مع هيئتي قائلاً:
تعالي نحنُ ـ أنا وأنت ـ نريد أن نبني (نخلق) معاً
نحنُ نريد أن نبني نداءً مستتراً
نبني في الثمرة التي هي آية في الروعة

إلى أن نخلق ثمراً، إلى أن نخلق أعواناً
سبّحي أنتِ لي وأنا أسبّح لكِ
نحنُ نريد أن نبقى تحت ظلّ البهاء الوفير
ومحفظُ بعضنا البعض الآخر على وجه بالغ الكمال
ربما سوف تُصنَعُ أثري من قبلنا
وتمدح هي إيّانا كما لو كنا نحنُ من العظماء»[٢٩]

وحين تكلم (مانا) بهذا الكلام فكر بصاحبته (صوثا) أي (مانا الأنثى) التي تكمن في الثمرة العجيبة ثم تكلم وفكّر:

«إني أريد أن أخلق رفيقةً على جهتي اليمنى
ومصابيح على جهتي اليسرى
إني أريد أن أخلقَ مبعوثي الحياة
الذين يكونون في الخفاء في عهدتي
بعد ردت الهيئة
وتكلمت قائلةً إلى مانا العزيز،
فسوف يمتد النقص في نبة أصلك إتساعاً
إن النقص في نبتة أصلك يمتدّ اتساعاً
بسبب الرذيلة في العالم
سوف يكون الكذب فيها
ونشأ رجّة في العالم»[٣٠]

ويتظاهر (مانا) بأنه اتفقَ مع هيئته على هذا الرأي لكنه يتخذ من هذه الهيئة صاحبةً ورفيقة (صوثا) له وينجب منها:

إني انحنيت وركعتُ خاشعاً أمام رفيقتي
واستلمت منها كوشطا ثمينة
نحنُ دخلنا في أجهزةٍ واختفينا محتجبين
ورضت هي بأن تكون رفيقتي
عندما جاء الأوائل إلى الدنيا

فكروا في الثانية

عندما جاء هؤلاء أيضاً

فكروا في الثالثة

عندما جاء هؤلاء أيضاً

فكروا في الرابعة

من هؤلاء الأخيرين

نتج النقصان والعوز

فنشأت رجّة في العالم»[٢١]

ورغم أن موضوع هذه الأسطورة يرتبط بأساطير النهاية لكننا سنكملها هنا فهناك المزيد منها عندما نصل إلى تلك الأساطير. حيث تقوم هيئة مانا بتوجيه اللوم له لأنها نصحته فيردّ عليها قائلاً:

«كيف يمكننا أن نترك العالم، الذي ينبغي أن ينشأ،

طعماً للفناء؟

فيه سوف ينتشر الرجال ذوو الخبرة بالعدل والإنصاف

وسوف يدعون هم نداء لحياة يرتفع إلى هنا صاعداً

إن بعضاً منهم سوف يصعد مع الجذر عالياً

والبعض الآخر سوف يمنع في العالم عن الصعود

من يملك القوة وبإمكانه أن يحرر نفلسه

سوف يصعد عالياً ويرى مقام النور

من يملك القوة إلاّ أنه لا يستطيع أن يحرر نفسه

فسوف يبقى حيث هو في العالم

نحنُ نريد أن ننادي الرسول

الرسول، غراسة الحياة العظمى

نحنُ نريد أن نكلفه ونبعث به إلى هناك

ما يجده هناك عليه أن يجلبه لنا

إنه يخلّص المانات الرؤوفات

ينقذ المانا الغالي

وهذا هو طيب في دار الكمال»[٢٢]

في المقطع السابق كان المقصود بـ(المانات الرؤوفات) هي أرواح الناس المؤمنين أما الـ(مانا) الغالي فهو إشارة إلى (الروح) أو (نيشمثا) بشكل عام ويشير إلى هبوط (مانا) إلى الأرض، حينها تتدخل الحياة الأولى (الكبرى) وتبعث إلى الأرض أمين الكنز (الكنزاورا) وتنادي على (مانا) بأن يعود معه وأن لا يتعب نفسه بما هو فانٍ وبائدٍ على الأرض، فيتألم (مانا) من كلامها هذا:

«عندما تكلمت الحياة الكبرى إليّ هكذا قائلةً
انحنيت أنا وخشعتُ راكعاً أمامها على وجهٍ بالغ الكمال،
لماذا تتكلمين أنتِ هكذا إليّ
وقد انفلقَ قلبي إلى قسمين اثنين
قلبي انشطر إلى قسمين اثنين
وعيناي تنطبقان وتعصران دمعةً
إن عينيّ تنطبقان وتعصران دمعةً
إلى أن جلستُ في محرابي وأخذتُ أنوحُ وأبكي
هل يوجد ثمة أحد في دار الحياة الكبرى - من أقام هناك
وبعد هذا أحبّ القول الفاني؟
هل يوجد ثمة من ترك الغطاء الطاهر
ولبس عوضاً عنه ثوب الثورة؟
هل يوجد ثمة من ترك الجمعية الحبيبة
وفضّل عليها الجمعية الفانية؟
هل يوجد ثمة من ترك قول الصفاء
وأحبّ بدلاً منه قول الفناء؟»[٢٢]

ثم تقوم الحياة الكبرى بدعوة مندا إد هيي والطلب منه بأن يحفظ أبناءَه وينعم عليهم ببركته ويساعدهم في الصعود إلى عالم النور، فتباركه وينحني لها وتنحني الأُثري له وتمدحه وتسأله عن وجهة ذهابه فيخبرهم بأنه ذاهب إلى الحضيض المملوء بالنتانة ويقصد الأرض (تيبل) الفانية وحين ينزل مندا إد هيي تقع عليه عيون الأشرار (وهم روها والكواكب والأبراج والشياطين) فيهوون ساقطين على وجوههم ويذهبون إلى بحر السوف الكبير فيخاطبهم ويسألهم عن ما يلبسونه، كذباً، من ثياب النور ويتعطرون به من عطر النور ويقول لهم بأنه جاء إلى هنا لكي

يجلب السلالة إلى العلياء ظافراً ويصعد بها عالياً إلى الحياة الكبرى في عالم النور.

هذه الأسطورة تلخّص عملية خلق الروح ونزولها وتخليصها وصعودها إلى عالم النور بشكل سريع، لكنها اسطورة معبّرة ومكثّفة، وما يهمنا منها هو ظهور (صوثا) الـ(مانا) التي تلعب دور أنثى مانا دون الإشارة مطلقاً لأية طريقة جنسية في إنجابها لأن الإنجاب في عالم النور لا يتم عن طريق الجنس بل عن طريق النداءوالانبعاث، وإن كانت إشارة من نوع مانا وصوثا فهي تشير إلى أن الإنجاب يتمّ عند التكامل بين النقيضين: الذكر والانثى، الموجب والسالب. وقد لاحظنا بجلاء أن النص احتوى على مصطلحات الخلق التي ذكرناها سابقاً مثل (بنا: يبني، قرا: ينادي، إتشب: يفكر، نصب: يغرس) رغم أن النص يشير إلى صلةٍ بين ذكرٍ وأنثى.

وقبل أن ننهي الكلام عن خليقة دائرة النور لا بد أن نقول أن هناك أوعيةً أخرى ترد في بعض النصوص المندائية لتشير إلى الخلق الأول مثل: كنّا، نطفتا، كنزا، هلبونا.

د. مانا وكنّا:

كنّا حسب (نولدكه) معناه: أصل، فصيلة، أساس، قاعدة وهي تشبه الكلمة السريانية (كنّا) من الجذر (كن) بالمعنى نفسه. أما ليدزبارسكي في (كتاب النبي يحيى: ص٤) فيوردها بمعنى: وعاء، ابريق، إناء.. حيث تطابق الكلمة الأكدية (كنّو) المعنى نفسه، ويعتبرها المعنى المناسب للكلمة المندائية. كما ترد بمعنى آخر: مجمع نشماثا (والمفرد نشمثا) (تقريباً الأنفس) كنّا إد نشماثا وتأتي صفةً لكائن نوراني. [٣٤]

لكنّ كنّا مثل تنّا قد تأتي مكاناً يُحبس فيه الظلام والأشرار:

«الظلام أمسى موجوداً

«وعندما صار موجوداً أخذ يتفحص ساكنيه

بسبب الشرّ الذي ينطوي هو عليه

ليحبسنّ في المكان (كنّا) المخصص له

هو يحبس في المكان (كنّا) المعيّن له

وكل أعماله عليها العفاء» [٣٥]

مانا أو نشمثا (بمعنى نسمة الحياة) ولدت في كنّا، لذا فأن كنّا هي بمثابة (بيت الأب) الذي تعود إلى (نشمثا) بعد خلاصها من الجسد. وعدد من النصوص تتحدث عن (كنّا الأولى) التي

منها انتشرت (تانات متعددة) و(كنّا) و(مانا) هي رمز أو صفة لكائن نوراني.. ويقال عن ملك النور (كنّا جميع النيرين وأب جميع الأثري (والكائنات). فـ(كنّا) إذن من جهةٍ هي وصف لعالم النور أي الفضاء الكوني أو فراغات الكون السحيقة وخاصة ما يتعلق بأصل النفوس، ومن جهةٍ أخرى تعتبر (كنّا) جزءاً من عالم النور.[٣٦]

وهذا يعني أن (كنّا) ترادفُ مرةً (تنّا) وترادف (بيرا) بل وتكون الوعاء الأول الذي يحوي أصول عالمي النور والظلام. وحين تطلب روح آدم إلى الأعالي يُقال أنها طلبت (طلبت من قبل إناء كنّا الأرواح (الوعاء الأجليّ) الموغل في القدم ومن قبل دار الأب الأولى الكبرى.[٣٧]

هـ. مانا وهلبونا (تلبونا):

تعني (هلبونا) في المندائية بيضة، مسكن، مأوى، مقر، أما في العبرية (حلبون) والآرامية اليهودية (هِلبونا) مسكن كائنات عالم الظلام الشريرة، وتأتي (هلبونا) مكان استراحة للأثري في عالم النور السفلي، وقد تكوّنت بطريقة الانبثاق، ويأتي المصطلح أيضاً في النصوص على النحو الآتي: (بوابة المقرات الخفية) وكذلك (بوابة المقرات المضيئة). إذاً (هلبونا) أو (تلبونا) تأتي بمعنى (مسكن أو موطن) الكائنات النورانية وللنفوس (عند معراجها) بجانب المصطلح المعروف (شختنا أو شكنتا) بمعنى (مسكن أو موطن) ولا ترد هلبونا كثيراً في النصوص وبخاصة النصوص القديمة العهد. ومع ارتباط (هلبونا) بعملية الخلق الانبعاثي فإن المندائية، حسب رودولف، لم تكوّن لها تصوراً خاصاً عن عملية التكوين في (هلبونا).[٣٨]

و. مانا وكنزا:

(كنزا) أو الكنز يأتي بمعنى مستودع الأرواح (نيشماثا) ويستقر فيه (مانا) أيضاً:

«بينما كان المانا يفكر ملياً
جاء إليه معاونه وتقرّب إليه
معاونه جاء إليه قادماً ودنا منه
وأراه الإكليل الذي ائتمنه المرؤ عليه
إنه أراه الكنز النقي الخالص
الذي أسس في موطنه وخلق»[٣٩]

ولا ترد كلمة (كنز الحياة) إلاّ قليلاً، والتي هي (كنزا هيي) وتعبير (كنز الحياة) يذكرنا باسم

الكتب المقدسة التي حملها (ماني) في رسالته الروحية المعروفة والذي أسماه (كنز الحياة)، وترد هذه العبارة في أحد نصوص كنزا ربّا اليسار:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
شيءٌ من كنز الحكياة مستقرٌ فيّ
إني أنير بواسطة قول أبي
بواسطة تسابيح الرجل الذي خلقني
حينة يستقرُ شيءٌ من كنز الحياة فيّ
تطلبني هي إليها من كنزها
حين تطلبني هي إليها من كنزها
تبعثني وترسلني إلى هذا العالم
عندما جئت أنا قادماً من بيت الكنز
جلتُ ببصري فأبصرتُ العالم»[٤٠]

يوجد الكنز في (دار الكنز) ويحرسه حراس يسمون بـ(أمناء الكنز) (كنزا ورا) وهو الاسم الذي اشتقت منه الدرجة الكهنوتية (كنزا برا أو كنزا مرا أو كنزا ورا) أي أمين أو حامي أو حارس بيت الكنز. ومن هذا الاسم اشتق اسم الكتاب المقدس للمندائيين (كنزا ربّا) أي (الكنز العظيم):

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
إني كنتُ في دار الكنز المستترة
في دا لكنز المستترة كنتُ أنا
بين أمناء الكنز الكرماء
لم أكن قد رأيت الكنز بعد
الذي فتحه خالقي وأعجب به إعجاباً شديداً
لم أكن قد رأيت الكنز بعد
ولم أهتف في تنويري بعد
لم أكن قد رأيت الكنز بعد
فما كان منهم إلاّ أن جلبوني وبعثوا بي إلى هذا العالم»[٤١]

ويوصف مندا إد هيي في الكتاب الخامس من كنزا اليمين على أنه أمين خزانة الأرواح (الكنز).

ز . مانا ونطفتا :

نطفتا هي النطفة وهي القطرة وهي كائن نوراني أنثوي تظهر أحياناً بديلاً عن الثمرة (بيرا) وتلفظ أحياناً (نطبتا) وفي الآرامية (نطوفتا، نطووفيتا):

«ذلك نوري وتسبيحي يعرجان إلى الأعلى
أمام (مانا) الخفيّ ومثيله
ومن أ/ام (نطفتا) الأولى العظيمة الخفية
التي كانت قبل عوالم النور»[٤٢]

وتذهب نصوص كنزا ربّا اليمين إلى أبعد من ذلك حين تقرر أن (كنز الحي العظيم) الحاوي على الروح كان مخفياً في (نطفتا)

«جلبت (نشمثا) من كنز الحي العظيم
الذي كان مخفياً في (نطفتا)
وأن (نشمثا) ترعرعت وكبرت في (تنّا)»[٤٣]

وغالباً ما ترد (نطفتا) برفقة (الحياة) و(مار إد ربوثا) وخصوصاً في الكتاب التاسع من الكنزا ربّا اليمين.

ونطوفتا هي سيمات هيّي التي تظهر في دائرة النور ولها أسطورة سنذكرها.

ح . مانا والسحاب (أنانا) :

يرد السحاب كموطن للكائنات النورانية وتدل أحياناً على (نطفتا)،

«يجب أن يزودوا بالمعرفة عن (السحاب)،
الذي فيه يسكن (مانا الجبار) و(نطفتا)»[٤٤]

وربما كانت السحابة أيضاً مستودعاً لـ(مانا)، خصوصاً أننا نرى أن اسم زوجة آدم كاسيا (أدكاس) أو آدم الخفيّ وهو (مانا) اسمها (أنانا د نهورا) أي سحابة النور.

وفي الكتاب الخامس من كنزا ربا اليمين ترد صيغة (بيوض النور) التي ربما دلّت على مستودع آخر من مستودعات النور والمانا.

تتضمن كوزموغونيا دائرة الحياة الأولى أكثر الأساطير الكونية المندائية حيوية وسعةً فهي تدور في مجال الخلق خارج دائرة النور وباتجاه إقامة العوالم الأخرى خارج عالم النور وتشمل

أساطير الحيوات الأولى والثانية والثالثة وهبوط مندا إد هيّي وهيبل زيوا إلى عالم الظلام.

كانت نهاية دائرة النور قد أفضت إلى ظهور (الحياة) من (يردنا) الماء الجاري الحيّ في عالم النور، ولكي نلمّ بطبيعة ما جرى مع الحياة الأولى لا بد أن نمرّ على أكثر من مكان لكي نكوّن صورة شاملةً لما جرى:

قلنا أن كلمة (هيّي) تعني (حي) و(حياة) أو(حيوات) في الوقت نفسه، لكن العادة جرت أن نستعمل كلمة (حي) للحديث عن الخالق العظيم الأول، أما (حياة) فهي التي خرجت من اليردنا لتفتح دائرة الخلق الثانية في عالم النور، وهي التي تستخدم في أغلب صفحات الكتب المندائية باعتبارها مسؤولة عن حركة الخلق. وربما جاء ذلك الاستخدام الأنثوي للتمييز أولاً بين (حيٌّ) ساكن مترفع منزّه و(حياة) خائضة في عمليات الخلق والوجود، ولأن الكلمة تدل على الولادة والانجاب فهو ترميز خاص يجد صداه واسعاً في الترجمة العربية بشكل خاص (حياة).

في الكتاب الثالث من كنزا اليمين نكمل قصة الخليقة كما يلي:

«من النهر نفسه ولدت الحياة، ثم انصبّ هذا النهرُ على الأرض الأثيرية فهبطت الحياة عندئذ عليها متخذةً هيئة مانا الكبير ذي العظمة، تلك الحياة التي كانت هي بدورها قد تكونت منه»[٤٥]

الحياة تولد من النهر ثم ينصبّ النهر على أرض الأثير فتهبط عليها الحياة وتأخذ شكل مانا الذي تكوّنت منه.

يبدو لنا أن مانا يمارس دوراً جديداً في هيئة الحياة وهو ما درسناه طويلاً في بحثنا الثيوغوني حيث وضعنا (مانا) مركزاً لكل عوالم النور والظلام والإنسان.

في الكتاب العاشر من كنزا اليمين نجد رواية أخرى.«ثم نشأت المعاشرة مع الحياة والحياة اتخذت مقراً لسكناها وأقامت عند منابع المياه التي تفجرت منبثقة منها. بنشيدها قرأت الحياة إلى نفسها الصلاة، الحياة التي كانت مقمية فيها نمت وترعرعت. بفضل هذا أصبحت هي نورانية ومستكملة دائمية وفي بهائها احتلّ اسم الكلام الحي مكاناً له ومنهُ (من البهاء) اتخذ هو ثوباً يلبسه وعن طريقه (البهاء) غدا هو ثابتاً موثقاً وكذلك شأن اسم البهاء واسم النور المتأجج فيه. إن الحياة استلمت من نفسها كوشطا، تلك التي كانت منذ الأزل هنا والتي وجدت في بداية الخليقة. إن

الحياة آمنت بذلك، إنها كانت في تعميدها، لقد آمنت هي بالكوشطا الخاصة بها التي استلمتها من ذات اليد. لقد قبّلت هي يدها اليمنى (نفسها) وتكلمت إلى نفسها قائلة: أنا هو الصابغ الأول الذي آمن بالكوشطا وبهذا التعميد. أن كل من يعاضدني ويؤمن بالكوشطا التي أبرمتها أنا مع نفسي وبصباغتي سوف أعقد المشاركة معه وسيجد في الشكينة الخاصة بي مكاناً له». لقد تكوّنت شكينة الحياة التي أضحت متربعة على الماء والحرارة الحيّة على السواء وتكلمت قائلة: إني أنا هي الحياة التي انبثقت عن ذاتها وتطورت من بهائها الخاص بها. ثم تبلورت هي من هيئتها واستقرت هناك واقفةً في مكانها في الخفاء. إن بهاءَها يسير منبثقاً من صميمها وكبير هو ضوءُها الذي خلقته هي بحيث أنه يفيض بوفرةٍ على بهائها وضوئها كليهما. إن نورها جُهِّزَ تجهيزاً ممتازاً»[٤٦]

الحياة إذن بعدما ظهرت من الماء أدت الصلاة وأصبح بهاؤها ثوباً للحي واستلمت الكوشطا (العدالة ويرمز لها بالمصافحة) من نفسها ثم عمّدت نفسها (صباغة) وسكنت في شكينةٍ (مسكن) ثم وقفت في الخفاء وهي تشع بالبهاء والنور.

الحياة انبعثت من الحي العظيم ومن المانا ثم كوّنت لها مملكة جديدة تتكون من ثلاثة أركان أساسية هي (مندا إد هيّي) و(الحياة الثانية يوشمن) و(ياور زيوا). وسيكون لهذه الكائنات النورانية الأثر الكبير في الأحداث القادمة.

لكن الحياة تكوّن لها دائرة خاصة بها سنتناولها قبل الحديث عن إنجابها للحياة الثانية. تتكون هذه الدائرة الجانبية من لقاء الحياة مع صاحبتها (صوثا) مثلما فعل (مانا مع صوثا) ومن هذا اللقاء الذي يحصل في (كنّا):

«اعترفنا به
باسم الحي
بماريبا العظيم
بالحياة التي ثبتت نظرها في الماء
وصعدت ورأت العش (تنّا)، الذي منه نشأت.
واعترفنا بـ(يوفين ـ يوفافين)
واعترفنا بـ(نباط) النطفة الأولى
التدفق (أو الإفراز) للحياة وككنيةٍ لها، وإفرازٍ ثانٍ لها.

واعترفنا بـ(سام ـ سمير) الإفراز الثالث لها
بـ(بهرام) ابن الحياة العظمى
ولـ(يوخابر) كلمة الحياة العظمى»[٤٧]

(ماريبا: فوهة، بركان، رحم مقدس)

وهناك (سيمات هيّي) التي توصف في النصوص المندائية بأنها (أم الملائكة) وهي تناظر الحياة الأولى. الحياة خرجت من الماء وعن طريق نظرها إلى الماء ومشاهدتها لمثيلتها أنجبت سلالاتها، ولكن (أرض النور) كانت هي موطن الحياة الأول وكان الماء من الحي العظيم. أما أرض الأثير فهي مكان (الحياة الثانية) كما سنتعرف على ذلك:

«الحياة تعرف هذا جيداً
بأن الحي العظيم كان في أرض النور
ومن الحي العظيم نشأ الماء وجاء
ومن الماء نتج وفاض البهاء
ومن البهاء ولد النور
ومن النور نشأت الأثري
التي تقفُ هنا وتحمد الحي»[٤٨]

٢ . كوزموغونيا الحياة الثانية (يوشامن)

الحياة الثانية هي أول خروج وتمرد على نظام عالم النور والذي كان نوعاً من القطع لبناء الحياة والسكن خارج عالم النور وهو الذي جلب النقص والعوز والتمرد والثورة. في الكتاب الثاني من كنزا اليمين تنشأ الحياة الثانية كما يلي:

١ ـ «الحياة وجهت طلباً إلى نفسها وبناءً على طلبها نشأ حينئذٍ الأثري الدائم الأبدي الذي أطلقت الحياة عليه اسم الحياة الثانية وكذلك نشأت معه أثري بدون عدد أو حساب ومن ذلك الماء الحيّ تكوّن الرافد الذي انصبّ كالنهر الأول على أرض النور مما دعا الحياة الثانية أن تتخذ منه مسكناً ثابتاً لها.

٢ ـ بعد ذلك خلقت هذه الحياة الثانية أُثري وأسست شكينات وكوّنت نهراً وضعته تحت

تصرف الأثري كي تتخذ هذه منه مأوى دائماً لها. ثم نشأت أثري ثلاثة وهذه جميعها وجهت التماساً إلى الحياة. لقد طلبت بأن يؤذن لها بتشييد شُكينات»[٤٩]

أما في الكتاب العاشر من كنزا اليمين فهناك رواية أخرى:

٣ ـ «الحياة فكرت في سرّها ملياً، في داخل حفيظتها، ثم راحت بعد ذلك ووضعت نفسها في الخفاء بغية أن تخلق إبناً تجعل منه رفيقاً لها. إن الحياة علمت طبعاً في بادئ ذي بدء بأن هذا الابن الذي في نيّتها أن تخلقه سوف يخلق هو بدوره أبناءً وبأن هؤلاء سوف يشيرون عليه بأن يخلق هو كذلك عوالم أخرى. أجل، لقد علمت هي إن ذلك الذي خلقته من فلذة كبدها ذاته توقاً منها بأن تتخذ منه عوناً لها، وذلكم الذي صنعته هي على صورتها وجعلته يسكن في الشكينة سوف يسعى في المستقبل مقدماً اختراق عوالم أخرى.

٤ ـ بعد ذلك قامت هي فعلاً فخلقت إبناً وجعلت منه رفيقاً لها ونصبته في موضع على النهر الذي يجري بماءٍ حيٍّ، ذلك النهر الذي جاء قادماً من صوت الحياة. ثم منحته هي كوشطا وألبسته بجزءٍ من بهائها وغطته بقسطٍ من نورها وتركته يأخذ مكاناً له في الشكينة الخاصة بها التي تقع على الجانب الآخر من الحرارة الحيّة»[٥٠]

تسمى (الحياة الثانية) يوشامن وبها يبدأ عصر التطور والارتقاء رغم أن ذلك من وجهة النظر الدينية يعتبر بداية الانحراف عن عالم النور وبداية العوز والنقص. ورغم ذلك يعتبر يوشامن جزءاً من عالم النور يقع في أقصى طرفه الجنوبي لأنه ما زال فوق حدود المياه الفاصلة (هفيقي ميّا) بين عالم النور والعوالم التي تقع أسفله، لكن إبنه (أباثر) سيكون مكانه تحت حدود هذه المياه الفاصلة.

هناك رأيان حول والدي يوشامن، الرأي الأول يقول أنه أُنجب من نداء الحياة الأولى لمثيلتها (صوثا الحياة الأولى) أو أنها نظرت في المياه كما أسلفنا، الرأي الثاني يرى بأن يوشامن هو ابن (نباط الكبير) في أسطورة قلَّ نظيرها سنذكرها هنا.

ـ أسطورة نباط الكبير وياورا:

في دائرة النور ظهر الأثير الذي سمي (نبتا) أو (نباط) الذي كبر وتميز وأصبح (نباط الكبير)

الذي ظهر إلى حيز الوجود وأسنى لامعاً وازدهر يانعاً ثم غدا قوياً عظيماً وتوصف أسطورته الموازية لظهور الحياة الأولى بالخطوات الموجزة الآتية:

١ ـ «في الخلق الأول تكلم هو وبعث إلى الوجود ثمانمائة أُثري في نشوء واحد. لقد قدم اثنان من الأثري وصعد كلاهما عالياً، ثم انبعث ياورا، المصطفى المختار، من الخلق الثاني.

٢ ـ في الخلق الثاني جاء يوشامن وشاور زيوا اللذان صعدا إلى الأعلى

٣ ـ في الخلق الثالث ظهر أثريان حبيبان مختاران وديعان هادئان وهما يحملان الأسمين (سار وسمير) وكلاهما صعدا عالياً أيضاً. إن أسماء هؤلاء جميعاً أصبحت قائمة زوجاً زوجاً في شكينة واحدة»[٥١]

٤ ـ يقوم نباط الكبير بإثراء أبنائه بالتسبيحات والأردية فتزداد بهاءً وتألقاً وتختلط أنوارها.

٥ ـ يقوم الابن الأكبر (ياورا) الذي يسمى بـ(ياورا سمير) المانا المصون ويرفع نفسه عالياً ويتكلم مخاطباً الحياة، أباه، قائلاً «ولنلاحظ أن أباه أصبح الحياة وهو ما يدفعنا للقول بأن نباط الكبير يناظر الحياة الأولى: ـ أنت، أيتها الحياة، أبي، إنك كبير ولست قليلاً: إنك قويٌّ ولست صغيراً. مترامي الأطراف هو البهاء على جهتك اليمنى ومتباعد الأرجاء هو البهاء على جهتك اليسرى، وبعيد المدى هو النور فوقك.هذا النهر ذو الماء الحي هو ليس بماءٍ أمامك. إن التنّا ذابت وفاضت منتشرة من المكان الأول على أرض الأثير»[٥٢]

٦ ـ تحيي الحياة (ياور زيوا) وتضع إكليلاً من النصر حول رأسه وتعلمهُ وتناديه (ياثوبنا) أو (يا كلمتنا) لقد أُطلق عليه اسم (كلمة الحياة) وأخذت توجه النصائح له بأن لا يفعل شيئاً بغيضاً.

٧ ـ تخلق الحياة ٣٦٠ نهراً وتعيِّن على كلِّ نهر حارسين اثنين، ويصبح حارسا النهر الأول هما (أداثان وياداثان) وباسمهما انبعث (٨٠٠,٠٠٠) أثري وتعمدت في النهر واستلمت الإشارة وتوطدت هناك.

٨ ـ جعلت الحياة ٣٦٠ عالماً من عوالم النور تتربع في ظلها.

٩ ـ خلقت الأثري الوديع الفذَ رئيس الخلق جميعه وجعلته رئيساً في عالمه الخاص (ربما يكون نباط زيوا)

١٠ ـ يقفز نباط زيوا في الماء فينفجر الماء ويرتفع واقفاً ليقابل بهاءَه ويمتزج الاثنان ببعضهما

فينفتحان ويزدهران ويصبحان قوسين متألقين في هيأتهما كما لو كانا بهاءً واحداً.

١١ ـ إن بهاء يوشامن لّما يتكاثر ولّما يكبر اتساعاً هناك بعد ولّما يكن هو قد تكبّر ورفع نفسه عالياً مع الأثري، هناك لم يكن ثمة من هو أقوى وأعظم، بل كان كلّ منها أكثر تواضعاً من غيره وكان قلبه هادئاً ساكناً وصاغراً خاشعاً. إن مارا إد ربوثا يبتهج بأبنائه الأثري وهي الأخرى تغتبط به، بأبيها، مارا إد ربوثا. إن بهاءها ينير مختلطاً بعضه مع البعض الآخر بينما تسبّح هي ببهاء أبيها ذلكم الربّ الذي كان هو نفسه قد منحها هذا البهاء وخلق أيضاً من أجلها هذا العالم»[٥٣]

١٢ ـ تقوم الحياة بإخراج (٩٠٠,٠٠٠) من الأثري باسم (ياور زيوا) وتخلق له هيئة وتسّلمها له وتقول له: إذن قابل الثانية (يوشامن) مصطحباً معك هذه الهيئة ودعنا نرى ماذا سوف يقول هو بشأنها وعلام ينوي.

١٣ ـ حين يصل (ياور زيوا) إلى يوشامن يقول له حرفياً: آوه، يوشامن بن دموث هاي لقد بعثني أبي إليك، أجل، الحياة، أبي أمرني بذلك وقال أن يوشامن لا يعرف من أنت. فتهتز شكينة يوشامن بسبب بهاء الهيئة التي أعطتها الحياة إلى ياور ثم يسقط عرش يوشامن على الأرض وينكسر ويعوج ويرتعدن النساء الواقفات إزاءه ويرتعدن وعندما حاول يوشامن الوقوف على قدميه ارتجفت قدماه واضطرب قلبه وبدأ يقفز هنا وهناك، فحين رآه ياور قلّل من قوة بهائه ومنع عيونه من النظر إلى النور ثم ساعده على الوقوف وقال له إن بهاء الحياة أكبر من بهائك. وأنها قد ذكرتك بطيبة وحسن نيةٍ.

١٤ ـ لكن يوشامن تعاظم قلبه وتكابر وقال (ماذا يعني هذا بأن الحياة قد ذكرتني، إنها لن ترفعني نحوها إلى العلياء ذلك لأن قلبي خالي الوفاض من البهاء وإنه مقطوع (منقطع) عن النور.

١٥ ـ اطلق ياور تسبيحة صعدت إلى الحياة فألقت الحياة يدها اليمنى عليه ومدّته بالكوشطا فاعطاها هو إلى ابنائه الأثري الجالسين أمامه، وخطرت في بال يوشامن فكرةً لكن الحياة لم تدعه يصل لها لأنها فكرة لا تعجبها وقالت: يا ترى متى تريد الثانية أن تنتج أبناءً لنفسها كما كانت قد عقدت قبلاً العزم على ذلك؟

١٦ ـ أعطت الحياة الإذن لياور (الذي اسمته تاورئيل وياور سمير وياور زيوا) بأن يفعل ما يريد وأعطته أثواباً وقالت له «إذهب، إقذف حرارة حيّة مثيرةً للعجب من بهاءٍ ونور في الوسط

تحت عوالمنا. إن عوالمنا (هي عوالم الحياة الكبرى) يجب أن تكون في الأعلى على حين أن عوالم الثانية ينبغي أن تكون في الأسفل. عند الحدود بين هذه المكانين، يتعين أن تنساب جداول المياه (هفيقي ميّا). ها هنا يجب أن تكون الحدود ونهاية القياس لجميع العوالم»[٥٤]

١٧ ـ أكرمت الحياة ياور بالثياب وأعطته حارسين هما (أوسار هاي وبثاهاي)، ومنحته البهاء وقام ياور بحلّ قلب الحياة الكبرى إلى بوابات كبيرة ليصنع منها ما أمرته وشكرته الأثري.

١٨ ـ أما يوشامن فكادت فكرته تولد في الثانية فرفع نفسه عالياً وأراد أن ينجز من نهر الحياة الأولى خليقةً لكن حارسيّ نهر الحياة (أداثان وياداثان) رفضا ذلك وقالا له أن الحياة وضعت الإشارة فوق النهر ومنه تخلق هي ما تطمح إليه وتريده، فقال لهما أين أذهب لأخلق كائناتٍ وأبناءً أسوة بالحياة. فقالا له بأنهما حارسان ولا يحق لهما أن يسمحا بذلك وأن عليه أن يتصرف بما يفكر به. فما كان من يوشامن إلاّ الذهاب إلى النهر الأسفل (يردنا تيتاي) الذي يقع تحت النهر الأعلى (يردنا رشايا) ثم جعل يتكلم وصنع منه ثلاثة أبناء. لقد كان هؤلاء الثلاثة واحداً لكن هيئتهم اثنين وهذه بدورها من غضب واحد.

١٩ ـ طالب أبناء يوشامن بايجاد مساكن لهم في عالم الحياة فأوضح لهم بأنه لا يستطيع ذلك لأن عالم لحياة لم يعد عالمه فقالوا له (في عالمٍ ليس هو بعالمك لا نريد نحن أن نستقر) فنهرهم لأنهم قالوا هذا فنصحوه، لكنه عزم على أن يصعد إلى الحياة الأولى لكي يطلب منها السكن له ولأبنائه. فلما علمت الأولى بعزمه فقررت إفشال سعيه.

٢٠ ـ أعطى يوشامن لأبنائه النفوذ والسلطان والقوة والفصاحة لكي يفعلوا ما يريدون، فذهبوا حتى بلغوا نهاية العوالم ووصلوا إلى مكان بعيد يقع في آخر كل الشكينات. هناك استوطنوا وبعثوا خليقةً وحاولوا أن يجعلوا الأرض البيضاء صلبةً كثيفةً، غير أن عملهم فشل ولم يتمكنوا من صنع أرض بهية على غرار أرض الأثير لكنهم خلقوا هناك (أبناء السلام) وهم الرجال الأقوياء.

٢١ ـ أحد أبناء يوشامن اسمه بهاق (بحاق) أثرا وخلق هو الآخر عالماً له «في الوقت الذي لم يكن كلا أخويه معه. لقد كان هو عازفاً عنهما ولم يشاطرهما الخطط والنيات. فضلاً عن ذلك لم يكونا كلاهما متفقين معه أو موالين له ون يتكلما بلسانه ولم يستمعا إلى ما كان هو يستمع إليه.

بعدما بعث بهاق وخلق تقدّم قليلاً ونظر محدقاً إلى هذا العالم. لقد كان هذا غير واسع وليس كبيراً على شاكلة عوالم الحياة الكبرى. ما أن نظر هو إلى عالمه الخاص به حتى أطلق على نفسه اسم (أبي الأثري) أسوةً بالحياة الكبرى نعتَ هو نفسه (آدم الكبير) لذلك سخطت هي عليه من مقام النور.

٢٢ ـ بعد أن خلق أباثر (أبي الأثري) وهو (الحياة الثالثة) أنشأ ابنه الذي اسمه (بثاهيل) أي الفوهة أو الفتحة (وهو بصفة دق الذي يفتح فمه) وتسميه الكنزا الفتحة التي انفرجت للعيون ولكن هذه لم تصبح بصيرة. «وراح غادياً واتخذ مكانه واقفاً بين المياه المختلطة والنار الممتزجة التي تحتوي على حرارة حيّة وحرارة آكلة في آن واحد وبين مياه الأرض التي تحتوي على خليط من الماء الراكد والماء الحي، لقد كان هو ينوي أن يتم إنجاز خليقةً فتكلم قائلاً: لأخلقنَ أثري وأشكلها في صفوف أمامي كما كان أبي قد فعل من قبلي عندما أراد أن يخلقني»[٥٥]

٢٣ ـ يخلق بثاهيل بكلمته الكواكب السبعة الملطخة الأثواب بالدم والحمرة، بعدها يتم التطرق إلى الأرواح التي تصعد من الدنياوهي تعتنق مذاهب الأصنام والأوثان وهذه الأرواح لن تصعد لأنها مذنبة وغير كفؤة لكي ترى عالم الحياة الثانية. أما أرواح الناصورائيين الذين يحمدونه (ياور) فأنها ستصعد.

هكذا تنتهي هذه الأسطورة الرائعة التي هي اسطورة كوزموغونية بامتياز فقد أوضحت كيفية خلق الحيوات الثانية والثالثة والرابعة، ثم عوالم جداول المياه وأبناء السلام والكواكب ولذلك آثرنا سردها كاملةً رغم أن ثلثها الأخير يقع في مراحل قادمة.

لا بد من التوضيح أن أصل يوشامن يتراوح بين نباط الكبير والحياة الأولى وأن الذنب الذي اقترفه في إنجاب الأثري الثلاثة ثم إيجاد مساكن لهم خارج عالم النور كان بداية الخطيئة وكان بداية خلق العوالم المادية خارج عالمي النور والحياة المثاليين.

إن آثام (يوشامن) تكمن في أنه: مربك المساكن، محرِّضٌ على النزاع في العالم العلوي، مقلل من قيمة الأعمال (الطقوس) التي كانت منتظمة، وأحدث إرباكاً في المملكة ما بين عالم النور وعام الظلام (ويصف بذلك أيضاً رجال الدين غير الملتزمين)، متكبرٌ لا يأخذ بالنصيحة، غير مطيع. يعتبر يوشامن نموذجاً أول لرجل الدين غير الملتزم والذي يستسلم للعقوبة التي سببها

هو لنفسه.[٥٦] وكان إثمه الكبير هو (إفشاء السر).

وكـان يوشـامن يلقـب بـالكثير مـن الألقـاب السـلبية مثـل (المتمـرد و(الثـائر) و(العاصـي) و(المتكبر) و(المحرض) و(الملاك الساقط) و(سـيد المخطئين –هزرانا ـ) و(المتـذمر –نصيصا ـ) و(سيد الفتنة ـ قيري) ولكن لقبه المتميز هـو (الطـاووس المتمـرد) وهـو مـا يشـير إلى كونـه (مختال فخور ومتكبر) وإلى كونه (كاهنٌ مهمل) ويشير كتاب يحيى إلى صفته كطاووس:

«من يُشبهني؟
من هو شبيهي؟
جعلوني حارساً عند نهاية العالم، حتى تفنى الأرضُ
ويفنى أبناء الظلام، ويحجب عنهم نبعُ ماء الحياة
أنا طاووسٌ قد أغضبت آبائي، فجعلوني حارساً عند نهاية العالم..
إذ خامرني الشك وارتاب قلبي»[٥٧]

وبالمقابل كان يوشامن يوصف أيضاً بأوصاف حسنة مثل: النقي (دخيا، دكيا) وابـن غـرس الحياة الأول الجبارة، الراقد تحت جداول المياه الفاصلة، الساكن كنوز المياه وعلى المنابع العظيمة العليـا للنـور، مسـاعد نشـمثا (الـروح) ويوصـف بأنـه الـذي حفـر ضـفتي (بـراش زيـوا) (فـرات الضوئي) وجلس عند مصبه.

هناك أسطورة خاصة بتقييـد وسـجن يـواشمن وصـراع أبنائـه ومـنهم أنتصـب عـدو نبـاط في محاولة لفك سجنه وحواريوشامن السجين مع نصاب زيوا، وهي مذكورة في كتاب يحيى وسنقوم بتحليلها في الفصل القادم. ويوشامن هو (حارس كمصا) الذي يعني (المنحدر، الهاوية السحيقة، التكوين) ويشير أيضاً إلى مكان (تحت جداول المياه) أو (العالم الأوسط) الذي يقع بين عالم النور وعالم الظلام.

ـ أسطورة أرض تروان:

يتكون عالم النور من ثلاث أراضٍ هي: أرض النور، أرض الأثير التي يحرسـها نبـاط ربّـا، أرض تروان. والأخيرة تقع في الجنوب ويحرسها ياور (ابن نباط ربّا) ولـه أسـطورة يصـف نصـفها الأول أرض تـروان بينمـا يصـف نصـفها الثـاني نـزول يـاور إلى الأرض وإطاحتـه بالروهـا في بحـر

سوف الكبير. وتروان هي موطن الأثري في عالم النور ويأتي أيضاً باسم (بروان)، وتأتي تروان بمعنى (شجرة) وبمعنى (ملاك حارس).

سنتناول النصف الثاني في معالجتنا لأساطير الخراب، أما نصفها الأول فسنستثمره في معرفة أرض تروان طالما أن ياور كان نظيراً ليوشامن وأثرياً مرافقاً له.

تبدأ الأسطورة بالتعريف بصاحبها ومكان مجيئه من (الجبلين الطاهرين) وثيابه:

«إني أنا حارس تروان الطاهرة
ابن نباط ربّا
إني أنا ذا ابن نباط ربّا
وقد جئتُ قادماً من كلا الجبلين الطاهرين
لقد وضع المرؤ عليّ ثياباً طاهرة
التي جلبت إليّ من الأنهار العالية الثلا ثمائة والستين على أرض النور
إن هيئتي هي هيئة ياورا زيوا
تلك التي خلقت في المقام الخفيّ
إن السحابة التي صنعت خصيصاً إليّ
لم تأتِ من الظلمات
كلا، لم تُجلب هي إليّ من الظلمات
ولم تحتو على نقصٍ أو عوز
كلا لم يشبها شيء من النقصان
إنها جاءت من دار الحياة الثانية»[٥٨]

ترد كلمة (المرؤ) بمعنى (مندا إد هيّي) ويصف النص السابق ياور بأنه يسكن في سحابةٍ جاءت من دار الحياة الثانية (يوشامن)، ثم يذكر المهمات التي كُلّف بها بعد أن خُلق ومنها حراسة أرض تروان التي نشأت من أرض يوشامن وكيف أنه أعطي علماً عن أرض الأثير التي تعلوه وعن أرض (نصاب ربّا) وكيف أنه تزود بدرع صلب ليدافع عن نفسه:

«إنهم خلقوني وثبتوني وزرعوا فيّ القوة والصلابة
إنهم أعطوني توجيهاتٍ وخلقوا لي أعواناً
إنهم أعطوني رسلاً

من الأُثري التي تتمتع بالإدراك العميق
إنهم أنعموا عليّ بالسلطان على تروان الطاهرة
وكذلك على اللغة السريّة السائدة هناك
إنهم تكلموا معي وأعطوني المعرفة عن تروان الطاهرة
إنهم أعطوني معرفةً عن أرض نصاب ربّا
وعن المقام الطاهر ذي الأبهة العظيمة الذي نشأ من النهر
عن الشكينات التي يسكن هو (نصاب ربّا) فيها
وعن الأثري التي تجلس ساكنةً في ثوبٍ نوراني
إنهم أعطوني المعرفة عن أسرار النور العظيمة
التي ترقد تحت عرش مالك أرض الأثير
إنهم دججوني (زودوني) بدرع صلب
كيلا ينال الخاطئون (المتمردون) مني فاسقط في برائنهم»[٥٩]

ـ أسطورة سام زيوا وهامغاي زيوا :

سام زيوا وهامغاي زيوا أبناء نباط الكبير من براث أنانا (على الأغلب) التي ربما كانت تناظر الحياة الأولى، وهما كائنان نوريان يلعب الأول دوراً مهماً في عالم النور ويقوم الثاني بمعونة الناصورائيين ومساعدتهم على الخلاص.

لنبدأ بظهور سام زيوا :

«إن نداء سام زيوا الطاهر
هو الذي خرج من فم الحياة الكبرى
إن الكبرى أخرجته من فمها
وخلقت له أعواناً
إنها خلقت له كاملين طاهرين
لكي يؤنسوه ويكونوا بصحبته في شكينته
إنها ألبسته سبعة أردية
من البهاء والنور والجلال

ومنحته السلطان على دار كنزها
إنها خوّلته السيطرة على الأثري والمصابيح
وكذلك على الأنهار والشكينات التي تقع في ذلك المكان
وقلّدته السيطرة على المانا المجتهد
وعلى البهاء الذي يشعّ في مقامه
إنها أحاطته علماً بأمر إسحاق زيوا ربا إد هيّي
وبأمر المكان الذي أختاره وجعله أن يكون مقعد الكمال
إنها تكلمت إليه من ذلك العالم
المستتر عن جميع عوالم النور»(٥٩)

ونلاحظ في هذا المقطع أن الحياة الكبرى تمنحه (الأعوان، السكن، الأردية السبعة) ثم تعطيه المسؤولية عن (دار الكنز، الأثري، الأنهار، المساكن، المانا المجتهد، البهاء) ثم تحيطه بأمر (إسحاق زيوا ربا إد هيي) وهو كائن نوراني غامض تشي تركيبة اسمه بتأثير عبراني من خلال (اسحاق) وبأمر المكان الذي اختاره. ويبدو أنها أعطته الأسرار المستترة عن جميع عوالم النور، وهذا ما يؤيد مكانته الرفيعة.

أما هامغاي زيوا فتجهزه بالكثير من الأسرار والقوى لأنها تطلب منه أن (يحمي العصر ويحافظ على سلالة الأرواح)، فهو ابن (هامغاغي زيوا) وإذا ثار ضده (يوربا) فإن كلماته ستقمعه، ويتضح من النص أن الحياة الكبرى تدفعه للنزول إلى الأرض وإنقاذ حياة الناصورائيين وهو ما سنعالجه لاحقاً.

ـ أبناء السلام :

أبناء السلام هم أبناء يوشامن (ليوشامن ما يقارب من ٢١ ابناً)، وهم أربعة أبناء متميزين (أريا كبري بني شلاما)، ويذكرون أيضاً كأبناء للنور وهم حسب الكنزا :

١. اين هيّي (عين أو نبع الحياة)
٢. سوم هيّي (اسم او سر الحياة) ويسمى أحياناً (سام هيٌّ) أي (خلق الحياة)
٣. زيو هيّي (ضوء الحياة) ويسمى أحيانا (زيف هيّي) أي (انتصار الحياة)

٤. نهور هيّي (نور الحياة)

أما القلستا فتذكر أربعة أسماء يختلف منها اثنان عن ما ذكرته الكنزا وهم:

١. إين هيّي (عين أو نبع الحياة)

٢. شوم هيِّي (اسم أو سر الحياة) ويسمى أيضاً سام هيِّي (خلق الحياة)

٣. رهوم هيِّي (حب الحياة)

٤. زمر هيِّي

وترى دراوور أن هذه الأسماء الأخيرة هي الأسماء السرية للحياة العظمى، وأبناء السلام شهود على التعميد ومرافقون للأرواح في المراحل الأخيرة من صعودها.

وأبناء السلام هم الذين كوّنوا أول عالم خارج عالم النور والذي أصبح مثالاً للأثري من أبناء الحياة الثانية ثم الثالثة للخروج من عالم النور وتكوين عوالم أخرى لها.

وهناك وظيفة أساسية لأبناء السلام وهي أنهم يعكسون النور القادم من (ملكا زيوا) وهو (ملك الضوء) وهو أحد أسماء (الحي العظيم) ويوجهونه نحو الشمس، أي أن قوة وحياة وضوء الشمس (شامش) تأتي منهم بعد أن يعكسوا الضوء الذي يأتيهم من عالم النور. والحقيقة أن أبناء السلام يشكلون معادلاً خفياً إيجابياً يقف أمام الأبناء الخطاة الثلاثة للحياة الثانية (ومن ضمنهم أباثر، وبثاهيل (الحياة الرابعة). هكذا تكون الحياة الثانية (يوشامن) قد أنجبت أربعة أبناء موالين لعالم النور هم أبناء السلام وأربعة أبناءٍ متمردين على عالم النور هم الأثري الثلاثة وبثاهيل. وبذلك تكون قد حققت التوازن رغم خطيئتها.

إن مثل هذه التوازنات الخفية تلعب دوراً مهماً في أجيال عالم النور، ولعل الكشف عنها هو سبيلنا لمعرفة الأدوار التي تلعبها هذه الأجيال في عملية الخلق.

ـ سُحب النور (أنانا):

إن سحب النور هي إحدى مكونات عالم النور فهي بمثابة الأماكن التي يختفي فيها الأثري الكبار ويرحلون من مكانٍ لآخر، فهي إحدى مواطن الكائنات النورية، وتكون أحياناً بمثابة الزوجة. يبدأ الكتاب السابع عشر/ الجزء الأول من كنزا اليمين بذكر المعرفة السرية بخفايا عالم النور وشواخصه:

«الحياة الكبرى انبرت قائلة وتكلمت مخاطبةً هيبل زيوا
إنها تكلمت إليه:
إمض علّم المختارين
الذين لبثوا في الأرض القفر قائمين
إعطهم معرفة عن السحب الخفية
وعن البهاء الذي امتد في كل مكان
امنحهم معرفةً عن سقوف الخيمة
وعن الشكينات والأنهار التي خلقت في كلّ مكان
أعطهم علماً عن البيضات الكبيرة الداخلية الخفية
التي خلقت قبل مارا إد ربوثا
إنها نشأت قبل مارا إد ربوثا
وذهبت كأثري هنا»[٦٠]

ثم يتحدث النص عن سحابات النور واسمائها والذين يجلسون فيها:

«علمهم عن نهور هيّي أنانا (السحابة)
التي يجلس فيها مارا إد ربوثا مختفياً
أحطهم علماً بقسمة أنانا
التي يجلس فيها بيرون الصغير متوارياً
أعطهم معرفةً عن السحابة العذراء
التي يقطن فيها هيبل زيوا ساكناً
أعطهم معرفةً عن شهرات ـ أيودت ـ وكشرت أنانا (السحابة الحارسة، فعلت وأنجزت ما فعلته)
التي يجلس فيها المانا الكبير العظيم ونيطوفتا
أعطهم معرفةً عن ياسموس ـ أنانا
تلك السحابة التي تختفي فيها شارات كفنا الأولى الخفية الكبيرة
أعطهم معرفةً عن سيدار ـ كاسيا ـ أنانا (سحابة الدعاء الخفيّ)
التي يجلس فيها يورا ربّا وهو أمين الكنز (الكنزاورا) مختفياً
أعطهم معرفةً عن تاتكمور أنانا
التي أعطيت إلى الأبن الأكبر من يوشامن

أعطهم معرفةً عن بهثات نهيرات (إنها تفتحت فتلألأت) ونيفقت من ـ كاو ـ ميّا (إنها ذهبت من الماء خارجة)

عن تينك السحابتين الاثنتين منحتا كلتاهما إلى نصا وعنان نصاب

أعطهم معرفةً عن بارات (إنها تضيء) واتيراورات (توقفت) الغيمتين الاثنتين

وفيهما يعيشان سار وساروان

أعطهم معرفةً عن نهار (وهو يضيء) وكبار (صار كبيراً) الغيمتين الاثنتين

وفيهما يعيشان شلمي وندبي

أعطهم معرفةً عن كبار ـ أنانا ـ

السحابة التي أعطيت إلى يده اليمنى الطاهرة

أعطهم معرفةً عن السحابة (الصبي الصغير)

التي اسمها هو شاشكنيل ـ أنانا

أعطهم معرفةً عن ماشقلينيل ـ أنانا

التي خُلقت ثم وهبت إلى بثاهيل»(٦١)

وتشكل هذه السحابات كائنات نورانية هي الأخرى وتعدّ بمثابة الزوجات لهذه الكائنات التي تسكنها. ويمكن عد السحابات والأثري من مخلوقات دائرة الحياة في عالم النور.

هناك سحاب مذكّر يحمل اسم (أنن) مثل أنن نصاب وغيره.

ويمكننا وضع هذا الجدول المبسط الذي يوضح سحابات النور الآنفة الذكر ومعنى أسمائها وكائنات النور التي تسكنها :

	اسم السحابة (أنانا)	معنى اسمها	الكائنات النورية التي تسكنها
١	نهور هيّي	نور الحياة	مار أد ربوثا
٢	قسمت	ـ	بيرون الصغير
٣	ـ	السحابة العذراء	هيبل زيوا
٤	شهرات أيوديت	السحابة الحارسة	المانا الكبير العظيم
٥	كشرات	فعلت وأنجزت ما فعلته	نيطوفا

٦	ياسموس	-	شارات كفنا الأولى الخفية
٧	سيدرا كاسيا	الدعاء الخفي	يورا ربّا (أمين الكنز)
٨	تاتكمور	-	أباثر
٩	بهثات نهيرات	إنها تفتحت متلألأة	نصاب
١٠	نيفقت من كاوميًا	إنها ذهبت من الماءِ خارجةً	عنان نصاب
١١	بارات	إنها تضيء	سار
١٢	إيتراورات	توقفت	ساروان
١٣	نهار	هو يضيء	شلمي
١٤	كبار	صار كبيراً	ندبي
١٥	شاشكئيل	الصبي الصغير	-
١٦	ماشقلئيل	-	بثاهيل

شكل/ جدول (٢٦)
سحابات النور(أنانا)

ج . كوزموغونيا الحياة الثالثة (أباثر) :

نشأت الحياة الثالثة أولاً من الأثري الثلاثة الذين خرجوا من الحياة الثانية وتطلعوا إلى بناء شكينات لهم خارج عالم النور، وكان أحدهم يسمى بحاق أو (بهاق زيوا) أي (الضوء الأبيض) هو الاسم الذي سمّاه به أبوه (يوشامن) ثم ترك هذا الاسم وسمّى نفسه أب الأثري (أباثر). وفيما يلي اسطورتي خلقه في كتاب الكنزا ربّا اليمين من الكتابين الثالث والعاشر، ولنبدأ بالكتاب الثالث:

تبدأ الأسطورة مع ما انتهينا إليه من أسطورة خلق الثانية حيث طالب الأثري الثلاثة أبناء الثانية من والدهم (الثانية) أن يبنوا لهم شكينات فبنوا هذه الشكينات:

«وحينما انتهت من ذلك بدأت تصلي وتحمد وتتكلم مع أبيها. إن الأثري سألت أباها قائلة: ألأنت الذي شقَّ هذا النهر بمائه الحيّ وجماله الخلاّب ورائحته الأخّاذة وخلق الأثري كذلك التي

اتخذت منه مسكناً ثانياً لها؟ وهل أن هذه الأثري الكبيرة التي جعلت من النهر العظيم مسكناً أبدياً لها ملك لك؟ بعد هذا أجابت الحياة الثانية قائلة: الحياة الأولى كانت قد أخرجتني. أنا هو أبوكم. أما النهر هذا فهو الحياة الحقّة، وأنتم جميعكم كنتم قد نشأتم بقدرة هذه الحياة. عند ذاك جعلت الأثري الثلاثة تخاطب أباها قائلة: نحن نرجوك، أمنحي إيّانا قليلاً من بهائك وقسطاً من نورك وغير ذلك ممانتميزين أنتِ به من خصائص. نحن نهمّ الرحيل والنزول إلى جداول المياه (هفيقي ميّا). نحنُ نرغبُ أن نحصل فيه على البقاء والدوام وأن نخلق فيه أثري، ولتكن هذه أيضاً لنا ولكِ. نحنُ نلتمسُ إليكِ، دعينا نهتفُ باسم الحياة. عندما أعجب الحياة الثانية هذا القول ردّت هي على الأثري قائلة: ليكن لكم ما طلبتم أنتم مني».[٦٣]

أما في الكتاب العاشر فترد الأسطورة الآتية:

«إن هذا الإبن الذي خلقته الحياة جعل يضع الخطط لكي يخلق له أبناءً، وفعلاً تمّ له ذلك بعد أن خلق هو له أبناءً البسهم ببعضٍ مما يملكه من الأردية وغطى إياهم بقسمٍ مما لديه من أوشحةٍ وتركهم يأخذون مكاناً لهم في شكينته، بعضاً منهم على جهته اليمنى والبعض الآخر على جهته اليسرى، ثم منحهم هو إيّاهم كوشطا. ثم جاء دور هؤلاء الأبناء الذين خلقهم هو فجعلوا يضعون الخطط لكي يخلقوا عوالم أخرى وتكلموا هم قائلين: نحنُ نريد أن نخلقَ عوالم لنا التي تكون على غرار بيت الحياة. بعد ذلك دخلوا هم على أبيهم ذي المقام العالي، وهو الثاني، وبادروه بالحديث قائلين: امنح لنا الإذن بأن نذهب نحنُ ونخلق عوالم أخرى أن نغرسَ لك نبتةً تكون على شاكلةِ نبتةِ بيت الحياة. نعم، دعنا نغرسُ نبتةً ونبني ونخلق عوالم على غرار تلك التي خلقها وكوّنها أبناء السلام. فمنح أبوهم إياهم مبتغاهم من السرّ الكامن. ولكن أبنه البكر وأخاه الثاني وإخوانه الآخرين أعطوا هذا إبناً من أبناء السلام وكان هذا الإبن الأكبر من أولئك الأبناء الذين خُلقوا على شاكلة أبناء السلام ثم أعطى هو إياه ماءً وطاقةً حرارية وتكلم إليه قائلاً: اذهب، اخلق أسوة بأبناء السلام عوالم كتلك العوالم التي رأيتها أنتَ بأمّ عينيك في دار الحياة»[٦٤]

تختلف الأسطورتان عن بعضهما قليلاً فالأسطورة الثانية تتطرق إلى أمرين مهمين هما (نبتة بيت الحياة) و(أبناء السلام)، ويبدو أن (نبتة بيت الحياة) هي أما (نبطا) التي هي الأثير وهي (نبتة

الضياء) الأولى في عالم النور أو هي (كفنا) التي هي شجرة الحياة وكرمها وهي شجرة الشفاء.

أما (أبناء السلام) فهم أبناء الحياة الثانية الذين كوّنوا لهم مساكن ويعتبر بهاق زيوا وأخويه من الأثري الخاصيّن الذين رأوا في مساكن أبناء السلام نموذجاً جيداً وطالبوا هم كذلك بما يشبهها فأعطتهم الحياة الثانية الماء والطاقة الحرارية التي يمكن أن يصنعوا منها عوالم ومساكن تشبه عوالم أبناء السلام الموجودة في دار الحياة. وهو ما فعله هؤلاء وخصوصاً بهاق زيوا الذي غيّر اسمه وأصبح أباثر والذي شكّل، فيما بعد، الحياة الثالثة:

«بهاق زيوا أشرقَ في نفسه وظنّ نفسه عظيماً
عظيماً ظنّ نفسه، وترك الإسم الذي به سمّاه أبوه
وقال: أنا، أبو الأثري، أبو الأثري، أنا الذي أقمتُ مساكنهم
وتأمل في الماء الآسن، وقال سأكوّن (سأنادي) عالماً.
راجع نفسه، ولم يكن عنده تصور عن الماء الآسن،
عن الماء الآسن لم يكن عنده تصوّر
ولم يكن عنده تصور عن الحرارة الآكلة
التي لم يكن بها (صوثا)»[٦٥]

إذا كانت الحياة الثانية قد خلقت عوالم لها في أسفل عالم النور مثل عوالم تروان والسلام وبعضها خارج عالم النور عند المياه الفاصلة، فأن الحياة الثالثة ذهبت بعيداً ووجدت نفسها في عالم الظلام عند الماء الآسن، وقد ذكرنا في أسطورة نباط العظيم كيف أن أبناء الحياة الثانية لم يتمكنوا إنشاء أرض متألقة بالبهاء تشبه أرض الأثير، بل أن الحياة الثالثة تحديداً (أباثر) عندما نظر إلى العالم الذي خلقه وجده غير واسع(كما عوالم الحياة الكبرى) وغير صلب. لكن (أباثر) كابر وأدّعى أنه خلق عالماً جديداً وأثري جديدة ولذلك سمّى نفسه (أب الأُثري) وهو لقب يليقُ بالحياة الكبرى (خالقة الأُثري) ونعت نفسه به (آدم الكبير) وهو لقبٌ محيرٌ يأتي هنا مبكراً لكننا نراه مهماً للغاية. فالعالم الذي أنشأه أباثر لم يكن نوراً أو أثيراً أو ضياءً من (تروان) وهي أراضي عالم النور بل كان يشبه الأدمةَ أي الجلد ولذلك سمّى نفسه (آدم الكبير) مشيراً من خلال اسم آدم إلى نوع الأرض التي صنعها من الماء الآسن. وسيظهر لقب آدم الكبير (آدم ربّا) كأحد ألقاب آدم كاسيا (أدكاس).

يعتبر اسم أباثر هو الاسم المعلن للحياة الثانية وهو يعني (أب أُثر) أي أب الأثري أو (أبا د أُثري) وربما يعني (أب الثروة أو الغنى والثورة) حسب نولدكه وبراندت.[٦٦]

هناك ألقاب وأسماء أخرى يُعرف بها أباثر منها:

١. كنفيل ٢. هززيان ٣. نصاب ٤. تاورثيل (حاكم تروان) ٥. موزانيا (ملك الميزان) ٦. أتيقا (العتيق) ٧. راما (العالي) ٨. نطيرا (المصان) ٩. كسيا (الخفي) ١٠. اللسان.

ولعل صفة موزانيا (ملك الميزان) هي التي ظلت ملتصقة به أكثر من غيرها فبعد أن نُحّي من عرشه أصبح (ملاك الميزان) أو (ملاك العدالة) حيث يجلس تحت جداول المياه الفاصلة وهو يمسك بميزان العدالة الذي يقف على أحد كفتيه (شيتل بر آدم) أي (شيتل بن آدم) وهو بمثابة الثقل النموذجي للعدالة (بسبب تضحيته وصعوده قبل آدم) ويقوم موزانيا بوضع كل روح في مقابل شيتل ووزنها.

وهو بمركزه هذا أصبح ملاكاً معاقباً وتمّ طرده عند (بوابة سوفات) مثل يوشامن أي أنه أصبح خارج عالم النور وتحديداً بعد (جداول المياه الفاصلة) على ضفاف نهر (كشاش) التي هي تسمية متأخرة لجداول المياه الفاصلة، ويحمي هذا النهر ملاكان من ملائكة التعميد. ويبدو أن وجوده هناك كملاك ميزان جاء بعد محاكمةٍ له على خطيئته قام بها (هيبل زيوا) وحكم عليه بالخروج من عالم النور والتخلي عن عرشه فيه وتحوله إلى وظيفة بسيطة هي (ملاك الميزان) ولذلك نجده في (مرثية أباثر) يحتج على من وضع بيده الميزان.

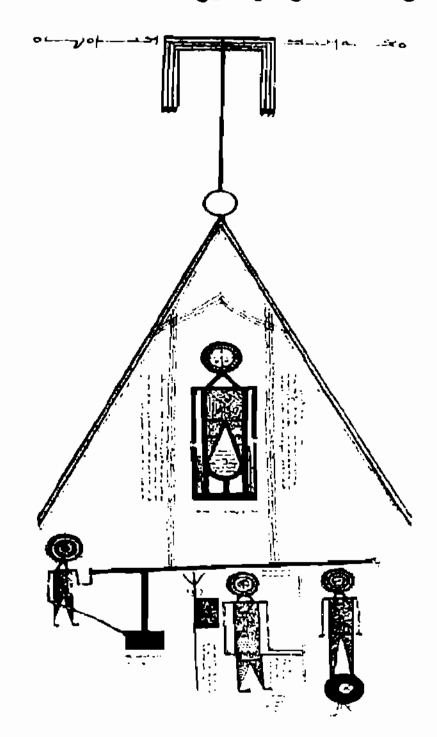
لكن أباثر لا يستطيع أن يقرر لوحده ما يزنه الميزان ويقرر عبورها من عدم عبورها ويتدخل، عادة، مخلّص الأرواح عند حصول مثل هذا الالتباس، وهذا ما يورده لنا أحد نصوص كتاب يحيى:

«ما كان الميزان راغباً، عندما وقفت عليه الأنفس، فقال:
لم تقم معي الأنفس الملوثة.. ولن تعبر أبداً
قال ذلك الميزان.. فاندفع إليه الرجل المنقذ.. وقال:
تلكم المياه الحيّة هي من الما ء السماوي الذي أوجده
الحي العظيم.. لقد جيء بهذه المياه من حوض يردنا
إنها تنساب من تحت جذور الياسمين

هذه المياه الحية تنحدر من منزل يوشامن العظيم

هؤلاء الأثري يجلسون قريباً منك.. هذه المياه ستكون سعادةً لك.. وتلك الاشجار والثمار والأعناب، بهاءً لك

هذه الأنفس جاءتك تحتضنُ ثلا ثمائة وستين ميزاناً»[٦٧]



شكل (٢٧)

ميزان أباثر (وازن الأرواح)

الشخص الذي في وسط الصورة (الأعلى) هو (أباثر) الذي يسيطر على الميزان ويجلس على عرش شار

الأسفل اليمين: شيتل (ابن آدم) وهو الذي يقف في طرف الميزان مقابل الروح التي توزن لأنه مقياس الأرواح الصالحة فهو يمثل أطهر الأرواح في المندائية (بسبب تضحيته وصعوده بدل آدم)

الأسفل الوسط: الروح التي توزن وجنبها راية نباط

وهناك وزن من الذهب تمثله العارضة السوداء التي تحمل اسم (ثبت الحق)

الأسفل اليسار: بهداد الذي يجبر الأرواح على دخول الميزان

المرجع: ديوان أباثر

أعاد رسمها ماجد فندي المباركي

د .كوزموغونيا الحياة الرابعة (بثاهيل) :

كانت الحياة الثالثة قد ابتعدت عن عالم النور ووصلت إلى حافات عالم الظلام، إلى الماء الآسن، أما الحياة الرابعة فقد ولدت في الماء الآسن (ماء الظلام)، أما ولادته فيذكره الكتاب الخامس من كنزا ربّا اليمين على لسان هيبل زيوا :

«ما كادت الحياة، أبي، تفرغ من كلامها حتى نهض أواثر (أباثر) واقفاً وفتح البوابة (بوابة عالم الظلام) وجعل يحملق في الماء الأسود. في الساعة عينها التي قدم هو فيها نشأت صورته في الماء الأسود. بثاهيل خُلق وصعد عالياً إلى مكان ما على الحدود أما اباثر فقد تفرّس في وجه بثاهيل متفحصاً قبل أن يخاطبه قائلاً : تعال، تعال، بثاهيل، أنت الذي رأيته أنا في الماء الأسود. عندما رأى هو إبنه على نفس شاكلته وكان هذا مرتدياً سبعة ثياب تختلف بعضها عن البعض الآخر في أنواعها وألوانها أخذها منه واحتفظ بها بدلاً منها غطى هو إياه ببهائه ونوره الخاصين. غير أن بثاهيل لم يرد أن يصعد عالياً إلى عوالم النور ذلك لأنه كان يخشى أن يقابل ذويه. أباثر أخذه إلى الحدود وأرشده قائلاً : بثاهيل إبقَ في هذا المكان جالساً حتى يحين الوقت الذي تتلهف فيه الحياة للتعرف عليك.»[٦٨]

تختلف خليقة بثاهيل عن والده (أباثر) وجده (يوشامن) فهي لا تأتي من خلق أثري ثلاثة يطلبون سكناً خارج عالم النور، بل هي تأتي من نزول متعمد من أباثر (الحياة الثالثة) إلى عالم الظلام (وهو القريب منه) ثم التحديق في الماء الأسود لهذا العالم فتنعكسُ صورة أباثر على وجه الماء، ويخلق بثاهيل من هذه الهيئة ويصعد عالياً إلى مكان ما على الحدود بين عالمي الظلام والنور، وحين يتفرس في وجهه يعرف أنه هو الذي رآه منعكساً في ماء الظلام الأسود. إن خلق بثاهيل بهذه الطريقة تشكل أول عنصر من عناصر الظلام في شخصية بثاهيل فكأنه يمثل الصورة السلبية (النيجاتيف) لوالده أباثر الذي هو من أصل نوري وهو أثرا بل هو أب الأثري، كما أدّعى ذلك. ثم أن ولادته لابساً سبعة ثيابٍ ملونة هي إشارة إلى أن هذه الألوان هي ألوان عالم الظلام (لأن عالم النور لونه الأبيض)، ولنلاحظ ذلك الحدس الخفيّ الذي يؤشر تحلل اللون الأبيض إلى سبعة ألوان هي ألوان الطيف الشمسي المعروفة الآن، لكن ذلك غير معروف حين كتبت هذه الأسطورة. إن الثياب الملونة هذه هي ليست ثياب البهاء التي اعتادت كائنات النور

لبسها ولذلك قام والده بخلعها عن بثاهيل وأعطاه ثياب البهاء والنور. ومن الإشارات الأخرى على ظلامية بثاهيل هو عدم رغبته في الصعود عالياً لمشاهدة ذويه لأنه منجذب إلى عالم الظلام نحو الأسفل. لكنّ والده يصعد به قسراً ويضعه في مكان بين العالمين حتى يحين الوقت وتودُّ الحياة التعرف عليه.

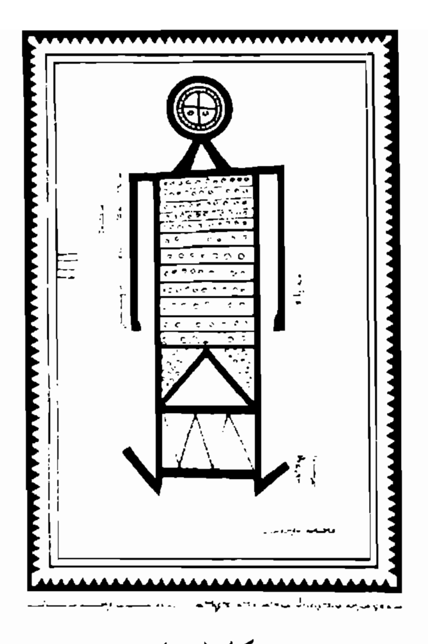
لا نتفق كثيراً مع الذين حاولوا إرجاع أصل اسم (بثاهيل) إلى الإله المصري (بتاح) على اعتبار أن معنى بتاح هو (الإله الذي يخلق عن طريق الكلمة) وهو صاحب الدولاب الفخاري الذي يصنع به الإنسان والكائنات الأخرى. ونعتقد أن اسم بثاهيل مكون من مقطعين الأول هو بثاه الذي معناه يفتح ويتكلم في اللغة الآرامية، ومنه جاءت كلمة(بوثا) أي(آية)، والثاني هو إيل أي الإله، فهو (إله الكلمة) الذي يخلق عن طريق الكلمة دون الحاجة إلى الرجوع لإله مصري قديم لا علاقة للمثولوجيا المندائية به مطلقاً.

يسمى بثاهيل (جبرائيل) أي (رجل الإله) وهو اللقب الذي أعطاه له والده ويناظر هيبل زيوا حيازته على هذا اللقب من قبل والده (مندا إد هيّي) ولعلّ ذلك متأتٍ من التوازي بين هيبل زيوا وبثاهيل في دائرة الحياة كونهما سيشتركان في عملية الخليقة الأرضية والبشرية. وفي الحالين يشير لقب (جبرائيل) إلى معنى (الرسول) حيث يمكننا القول أن كلاً من هيبل زيوا وبثاهيل ويضاف لهما قبل ذلك(مندا إد هيي) هم رسُل عالم النور إلى عالم الظلام، وكلمة رسول في الآرامية المندائية هي (شليها).

وسيكون موقع (بثاهيل) بعد عمليات الخلق هو أسفل موقع والده (أباثر) تحت جداول المياه وتشكل هذه المواقع (بثاهيل، أباثر، جداول المياه الفاصلة) بمثابة المطهر في خارطة الكون المندائي. وهناك عالم أسفل الأرض باسم بثاهيل أيضاً.

أساطير بثاهيل، كلها، مرتبطة بخلق الأرض وخلق الإنسان وسنتناولها في هذه المواقع.

ومن خلال أسطورة هبوط هيبل زيوا إلى عالم الظلام نعرف أن بثاهيل هو الابن الجسدي لزاهرئيل من هيبل زيوا لكنه الابن الضوئي لأباثر.



شكل (٢٨)
بثاهيل على عرشه الذهبي
على يمينه ويساره ستائر من الضوء
المرجع: **Drower, Divan Abatur p.6F**
أعاد رسمه: ماجد فندي المباركي

ـ أسطورة الوحيد العادل الكبير:

هذه أسطورة تخصّ الابن المميز للحياة الأولى الذي يسمى (الوحيد العادل الكبير) أو (الغلام الشاب). ويبدو أن من الصعب التكهن بشخصيته أو اسمه الحقيقي رغم أن لقبه الثلاثي هذا أُطلق في أحد كتب الكنزا على (أنوش) لكننا نستبعد أن يكون (أنوش) هو المقصود لأنه ابن (مندا إد هيّي) في عالم النور.. وربما يكون والده مندا إد هييّ! تبدأ الأسطورة باعادة موجز الخليقة حين تأجج البهاءُ في مانا فخرجت من حناياه الأنهار والنهر الكبير الذي خرجت منه (نيطوفتا) الأولى الخفية الكبرى التي ظهر منها مار إد ربوثا (سيد العظمة وأكبر الأثري وأب كافة العلماء) ومنها ظهر (الوحيد العادل الكبير) الذي نشأ منه أبناء الحياة الأولى الأفذاذ الذين طلب منهم (المانا الكبير العظيم) أن يخلقوا ابناً على هيئة لا تزول وخالياً من النيات الشريرة،

فذهبوا إلى نهر (بيريافيز) أو (برياويس) وخلقوا (الوحيد العادل الكبير) الذي انبثق من أبيه ابن الحياة الأولى.

وبعد أن ألبسته الحياة ملابس البهاء طلبت منه أن ينظر إلى (أبيه الذي يتربع على عرشه) ثم جاء رسول مانا الذي اسمه (اداكاس ملالا) أي (اداكاس الرسول) وسأله ثلاث مرات عن اسمه حتى رد عليه «فأخذه هذا وعانقه وأدخله وأطلعه على الشكينة داخل الشكينة وعرض عليه رؤية بيوض الخفاء العظيمة، فأبصر هو النور الذي كان بهاؤه يفوق الوصف وضياؤه باهراً وهيئته برّاقة سامية. عندما رأى هو كل هذا ركبه الخوف واقشعر وأخذ يرتجف ثم أنكبَّ على وجهه وجعل يصلّي ويسبّح»[٦٩]

ثم قام اداكاس ملالا بتوضيح أمر مهم وهو أن يعرض هذا النور على أناسٍ سافلين فلن يرى النور أما من يجعله مستتراً خفياً ويصونه فسيصعد يومياً إلى الأعالي ليرى مقام النور ويتغطى بالبهاء كدثار. وحين هبط الغلام الشاب إلى الحياة الأولى في شكينتها أخبره بما رأى فصلّت له ووصل صوت صلاتها إلى مانا الذي أرسل في طلب الغلام الشاب وسأله عنه فقالت: لقد ذهب إلى العوائل النورانية الأخرى التي ما زالت غير مكتملة العدّة (ربما ليكمل عدتها ببهائه الذي اكتسبه) فطلب منها (مانا) أن يعود، فعاد الغلام الشاب فطلب منه مانا أن يذهب إلى الناصورائيين الذين تركوا في عالم الظلمات ووسط الماء الأسود قائلاً «إن كلّ ناصورائي يناول لنفسه فقط الكوشطا وينحو بذلك نحو مانا الكبير الأعظم الذي كان قد مدّ يده أثناء تعميده الشخصي، إذ إنه لم يملك رفيقاً، فسوف لن يكون له أي سهم في بيت الحياة. على كلّ ناصورائي الذي يعد البهثا جالساً تقع هذه الطامات الثلاث آتية من دار الحياة: الهلاك والبلاء والنكبة. بل من المستحسن أن يقف طويلاً ويعد خبزها ومن ثم بعد ذلك يجلس كثيراً ويأخذ قسطاً من الراحة»[٧٠]

وواضح من هذه الأسطورة أنها تريد إيضاح طقس شعائري يخص الكوشطا ومن يؤديها لوحده ومن يعدّ البهثا جالساً من الناصورائيين. وهي، في الوقت نفسه، توضح ولادة وسيرة ابن الحياة (الغلام الشاب الوحيد العادل الكبير).

ـ أسطورة نزول (مندا إد هيِّي) إلى عالم الظلام:

١ . خلق مندا إد هيي وتهيئته:

ربما كان الوحيد العادل الكبير هو مندا إد هيي لأنه ابن الحياة المفضل والمميز، لكنّ خلق مندا إد هيي يظهر في الكتابين الثالث والعاشر كجزء من ملحمتي الخليقة.

في الكتاب الثالث يظهر خلق مندا إد هيي مباشرة بعد ظهور أبناء الحياة الثانية ورغبتهم في إنشاء عالم خاص بهم أي مع نشوء الحياة الثالثة. حيث تغض (الحياة الأولى) عينها عن ما جرى من انشقاقات في عالم النور والتوجه نحو عالم الظلام وتصلي لمانا الكبير ذي العظمةالذي يسكن في باطن الثمرة وتمدحه «إذ ذاك نهض مانا الكبير واقفاً بكل بهائه ونوره وعظمته وخلق (اكبار ربّا) في بهاءٍ لا يفوقه وصف، أكبار ربّا يُعرف بالأسماء العديدة الآتية:

«أكبار زيوا، نباط ياور، إبن يوفين يوفافين، سام، مانا المحظوظ، الكرم الذي كله حياة، معبود الأثري»[٧١]

قام مانا العظيم بمخاطبة مندا إد هيي ثلاث مرات ليعرف رأيه بما حصل وما فعله الأثري من أبناء الحياة من محاولات للخروج على عالم النور لكن مندا إد هيي لم يجب إلاّ بعد المرة الثالثة التي خاطب فيها مانا مندا إد هيي بوقار قائلاً له: «أنت يا ملك الأثري وربّ الكوشطا وصانع الكنوز، لقد عيّناك نحن حاكماً على جميع عوالم النور وكذلك على أُثري النور التي تقطن في الشكينات بالإضافة إلى عوالم الظلمات. أنت الذي كان قد أثبت جدارته في ذلك العالم فطُلب منه أن يحكمه، إنزل في القريب العاجل إلى ذلك العالم قبل أن تمضي الأثري بفعل شيء قبيح ورديء لا يناسبنا ولا يرضي الحياة ولا ترحب أنت، مندا إد هيي، شخصياً به، ذلك لأنك أنت من يحمل الأثري على رعاية النظام والتمسك به، أنت من يشق الطريق وينصب عليها الشواهد. لّما كنا نحنُ قد دعونا إياك، فلماذا يا ترى كنّا نحنُ قد دعونا إياك؟ لأنك أنت ما أن تدعى للقيام بعمل ما حتى تصبح كفوءاً لكل شيء كما لو كنت خُلقت لهذا الكون»[٧٢]

ويذكرنا تتويج مندا إد هيي حاكماً على جميع عوالم النور وملكاً للأثري وربّاً للكوشطا وصانعاً للكنوز بما حصل في أسطورة الخليقة البابلية حين دعى الآلهة الإله الشاب (مردوخ) وجعلوه ملكاً للآلهة وأسبغوا عليه الصفات الكثيرة وطلبوا منه (مثلما طُلب من مندا إد هيي) أن

يتصدى لقوى الشرّ ممثلة بتيامت وعالمها وحرّاسها. وسيقوم مندا إد هيي بالتصدي لعالم الظلمات والنزول له والوقوف بوجه (روها).

ومن أجل أن يُنجز (مندا إد هيي) المهمة جيداً يقوم مانا بخلق مساعدين من الأُثري اللطيفة الهادئة الراسخة الثابتة لتكون عوناً له في رحلته إلى ذلك العالم ثم منحه (البهاء والنور والثوب الفضفاض، وجعله للأثري أباً. ويذكرنا هذا أيضاً بـ(ثوب مردوخ) في أسطورة الخليقة البابلية الذي يحملُ صفات سحرية. ولا بد من التذكير أن مردوخ هو ابن إله الماء (إيا) وكذلك تظهر الحياة أو الحي (هيّي) أباً لـ(منداد إد هيي) وقد توصلنا سابقاً إلى أن (هيّي) هو (إيا) البابلي الذي نزّهه الناصورائيون وجعلوه الإله الأعظم لهم.

وبعد أن يتهيأ مندا إد هيي للهبوط إلى عالم الظلام تكلمه الحياة الأولى، بلغةٍ تشبه لغة الأساطير الرافدينية، عن خطيئة الأثري المتمردة هي تغادر مفردات عالم النور نحو الظلام:

«أنت رأيتها عندما غادرت هي دار الحياة
واتجهت بوجهها نحو مقر الظلمات
إنها تركت صحبة (مجتمع) الحياة
وفضّلت رفقة الظلمات
إنها ولّت تاركةً مقام البهاء والنور وراءها
ويّمت ماضيةً وأحبّت دار الباطلات
إنها تخلت عن الحلاوة جاحدة
وأعزمت بلذة المرارات
إنها ذهبت وأحبت المرارة
التي لا حلاوة فيها
إنها هجرت النهر بمائه الحي
واختارت الماءَ العكر
هي ذهبت إلى الماء العكر
وشخصت ذاهبة إلى النار الآكلة
إنها أدارت كشحها عن الحرارة الحيّة
وفضّلت عليها الحرارة الآكلة

هي تحب الحرارة الآكلة
ذات اللهيب والإحمرار
نعم، أنظر، مندا إد هيي
هذا هو ما فعلته الأثري
إن هذا يدلّ على عيب ونقصٍ فيها»[٧٣]

يُسبحُ ويضيء مندا إد هيي وهو واقف في المكان الخفي ويسطع وسط أنواره ويسلط عيونه على عالم الظلام قبل أن يهبط مع الأثري هناك فيرى سكانه الأشرار ويرى (حيفاذ) وهي (روها) ومدخل الظلام وعروق الأرض سينافيرا(سيناويس) والماء الأسود في باطنها والتنانين وعربات الظلام والثائرين، ثم يروي للحياة الأولى عن ما شاهده ويسألها عن أصل عالمي النور والظلام فتروي له كيف خلق عالم النور وعناصره من الثمرة الكبرى وأن هذا العالم أقدم من عالم الظلام بكل عناصره الأوائل والثانيات والثالثات كما يسميها النص. وحين يسألها عن أصل عالم الظلام لا تجيبه (رغم أنها تعرف) وتؤكد له أنه لا نهاية ولا حد للنور وليس هناك شيء قبله، ثم تقوم بأعطائه (البهاء ومفخرة النصر –زكوثا ـ ، والثوب الفضفاض –رستا ـ والعصا – مركنا ـ زيتون الماء الحي والإكليل –كليلا ـ الإشعاع الحي وإكليل الحرارة الحيّة وحزام الحياة – مزرزا ـ) وبدا مثل كاهن مندائي وقبّلته وطلبت منه أن يقاتل عالم الظلام والشيطان الذي يختفي في مكانه (كنّا).

٢ . نزول مندا إد هيي وقتاله مع أور

ينزل عالم الظلام فيرى أفران النار الآكلة ومردة الظلام الثائرين يضعون الخطط ويصنعون الأسلحة لشعورهم بأن هناك من يريد الدخول إلى عالمهم ويرى (روها) ملكة عالم الظلام وسيدته الكبرى ومعها شيطانات (همورثا). وفي عالم الظلام يظهر ملك الظلام ابن (روها) (أور) الأهوج والذي يتحدى أيّاً كان من هو أقوى منه فتقول له (روها) إن عالم العظماء (في عالم النور) أقوى منه فيثور ويزمجر ويتوعد بتقييد العالم كله وخنقه وحين يفتح فمه الواسع مزمجراً يظهر له (مندا) بثوب الحياة العظمى وبعدّته الكهنوتية كاملةً ويبدأ الصراع بينهما.

عندما نظر جنود أور إلى (مندا) تركوه فأخذ يهاجمهم ودفن نصف فمه في الأرض وأبتلع

قسماً من مكان الظلام والماء الأسود والأرواح الشريرة التي كانت هناك وتوقدت عيناه بحمرة الدم الملتهب وتوقف قلبه عن الوجيب:

«ثم ظهرت له ثانيةً بقوة نداء الكبرى
فسقط على التو تاجه من رأسه
لما سقط التاج من رأسه
اندلقت مرارته متفجرة على الأرض
من النفخة التي خرجت من شدقه
أخذت الجبال تقوم وتقعد وهي تغلي
الجبال راحت تجيش وتغلي
بسبب السمّ الذي خرج من شدق أور
إني ظهرت له بقوة الكبرى
فأصاب شيءٌ من نفسه ثوبي
انطفأت النار ذات اللهب
النار ذات اللهب انطفأت
فضمّ هو الأرض إليه ثم التهمها
لما ضمّ هو الأرض إليه ثم التهمها
سقطت سرته على بوابة عروق الظلام
لما سقطت سُرّته على بوابة عروق الظلام
تكوّنت وتبلورت الظلمات كلّها منه
بعد ذلك توسعت دائرة الظلام
فقبضَ عليها هو بقلبه
بقلبه أمسكَ هو الظلام،
إن هذا هو المكان (كنّا) الذي كان هو قد جاء منه»[٧٤]

نلاحظ في هذا المقطع الأسلوب الشعري المسمى بـ(التكرار) والذي يخلق إيقاعاً خاصاً كانت تمتاز به الأساطير السومرية والبابلية، وهو مقطع يذكرنا بالمعركة بين مردوخ وتيامت في أسطورة الخليقة البابلية (إينوما أليش). وتستمر المعركة حتى يبدأ أور بالصراخ والاختباء في مقرّه (كنّا)

وإغلاقه عليه بعد أن ضرب الأرض بأجنحته ثم صرخ (الرحيم، إشفق عليّ ورِّق) فعيّن مندا حراساً عليه من أغلظ عمالقة العالم.

وحين رأت (روها) ما حصل شرعت تبكي وتتنهد وتصرخ وسألته عن الذي فعل به هذا فأجابها: الرجل الذي يملك زمام العالم بأجمعه. الملائكة أخبرت روها أن أور يتزحزح عن موضعه، فهوت بيديها على رأسها وضربته واقتلعت شعرها، وبدأت مع العشتروات يضعن خطةً ضد حراس أور، فلاحظ ذلك (مندا) وأحاطه بطوق كبير كان مثبتاً بكبد الأثير فتكوّن حائط من الحديد ووضع عليه حراساً لا يغفلون عن مراقبته من خلال ٢٤ باباً في الحائط الحديدي فصرخ أور وقال كيف سآكل وسأشرب وسأنام فردّ عليه (مندا) بأن عليه أن يبقى في (كنّا) وإذا جاع فليلتهم رهطه وإن عطش فليشرب الماء الأسود ويصف (مندا) أور بأنه الأفعى بدون يدين وأرجل رغم أن النصّ وصفه قبلاً بأن له أجنحةً ثم يطلب أور الرحمة ويعترف بخطاياه فيرد عليه (مندا) بأن هذا الأمر تقرره الحياة بعد أن يُخلق أباثر (في النص أواث) وزرع أبناء السلام ويظهر كابرئيل (جبرائيل) والمقصود به بثاهيل ويخلق الأرض ويسدّ ينبوع الماء العكر من الغبار وتمتلأ بالماء الحي العذب. وأن على أور أن يأكل ويشرب حتى ذلك القوت من ذلك العالم وإذا ارتفعت السماء فستسساقط عليه الجمرات.

تكرر (روها) ندبها وصراخها ورثاءها لولدها فيوضّح (مندا) ما سيحصل من ظهور الكواكب السبعة والأبراج الاثني عشر والكواكب الخمسة من نداءات روها وسيستمر الخلق الحي من عالم النور وتنشأ الحياة وملك العالم وأن من سيُخلق هو الذي سيحكم الطوق على أور فيتأوه أور مجدداً ويسجنه (مندا) بأسوار جديدة جديدة ويُزيد قيده.

٣ . مندا إد هيّي يبني طريق العبور الآمن ويفتح مجرىً بين النور والظلام:

يقوم (مندا) ببسط طريقٍ للأخيار الصالحين ويُنشئ (بوابة العالم) ويضع داخلها عرشاً ويجهزه بمصباح نور، وينصب مرصداً لأبناء السلام ويقيم لهم عروشاً ويجهزهم من الملابس الكثير ثم يفجّر نهراً من الحياة الكبرى ويضع حرّاساً عليه ويكلّف اثنين من الأثريين بحراسته (أسوة بنهر عالم النور) ويقيم عرشاً لمن هو أعلى مقاماً بين مخلوقات البهاء ويمدّه بمصباح نور.

يعود مندا إد هيّي إلى عالم النور ويلاقي الحياة الأولى فتشكره وتُغدق عليه الألقاب وتطلب

منه تدبير إيراد المياه الحية وإيصالها إلى ذلك العالم المظلم لأن الأثري الثلاث المتوكلين بحراسة كنز الحياة (المياه الحيّة) لا يجيدون ذلك وقد يعرضوه للتلوث:

«فلتكن أنت أبا للأثري جميعاً
أنت من موّن أصدقاءَه بالطعام
لتكن أنت المصطفى بين الأثري
وحسنٌ جميع الأعمال التي تقوم بها.
حسن كلّ الأعمال
ذلك لأنكَ (قد فعلت ما فعلت وكان حظك سعيداً)
يا مندا إد هيّي أنتَ
أنتَ الأثرا المسلح بالإيمان، المسلح أحسن تسليح
اذهب واشرف على تدبير (إيراد) المياه الحيّة
وأوصلها إلى ذلك العالم
نادِ الأثري الثلاثة
الموكلة بحراسة كنز الحياة
يتعين عليها أن ترعى كنز الحياة وتحفظه
ذلك الذي يجب نقله من هنا
إن أُثري من النوع الساذج (غير الكفوء) تحملهُ
وتنقله إلى ذلك العالم
إنها تفرزه بالبراز
وتُلبسه ثوب الباطل
إنها تضع عليه ثوباً من أثواب الباطل
وتشبكه بالنواقص والعلل
إنها تشبكه بالنواقص والعلل
إن لديها ينشأ إنحراف
ويحدث لها هذا وذاك»[٧٥]

هذه هي أسطورة نزول مندا إد هيّي إلى عالم الظلام وهي جزءٌ من أسطورة الخليقة التي

يسردها الكتاب الثالث من كنزا ربّا اليمين، وهي أسطورة متميزة تذكرنا بأسطورة الخليقة البابلية من جهةٍ وبأسطورتي نزول إنانا إلى العالم السفلي السومرية والأكدية. إن الأسطورتين البابلية والمندائية تؤكدان على وجود عالم قديم هيولي يسوده الظلام والشرّ وعالم جديد متميز يسوده الخير والضوء والآلهة وأن هناك ما يبعث على الصدام بين هذين العالمين يقوده بطلٌ من العالم الأعلى (النور) وهو مردوخ عند البابليين ومندا إد هيّي عند المندائيين. لكن الأسطورة البابلية تتضمن قتلاً ثم ذبحاً للإلهين أبسو وتيامت في العالم الأسفل بينما الأسطورة المندائية لا تتضمن ذلك فمندا إد هيّي يقوم بضرب وتقييد أور، وفي أسطورة قادمة سيقوم هيبل زيوا بإرباك وسجن روها، وليس هناك ما يشير إلى القتل. وإذا كانت طقوس التضحية بالحيوان (القربان) قد نشأت أسطورياً عند البابليين من هذه الحادثة فإن طقوس التضحية بالحيوان نادرة في المندائية لأنه لا يتم ذبح وقتل (روها) أو (اور).. وإذا كانت قد دخلت المندائية القليل من طقوس التضحية (مثل ذبح الحمامة في مسقثا وهو طقس صعود الروح) فإنه يتم الاعتذار عن الذبح بعده مباشرة في تلاوة خاصة.

الأمر المدهش في نزول مندا إد هيي يأتي من الكتاب العاشر الكنزا اليمين الذي يروي، هو الآخر، قصة الخليقة المندائية، فهو لا يذكر هذه الرحلة بتفاصيلها المدهشة، كما في الكتاب الثالث الذي يؤكد على أن مندا إد هيي يقوم بتقييد أور لكي يتسنى للحياة الثالثة ثم الرابعة خلق عوالمهما دون أن يمنعهما عالم الظلام وكائناته من ذلك ولكي يتم ذلك على أتمّ وجه.

الكتاب العاشر يطرح فكرة أرقى وأكثر معقوليةً وهي أن الحياة تنتدب (مندا إد هيّي) الذي يُعرف بـ(يوزاطق مندا إد هيي) بأن (يمنح التكوين صورةً) أن يباشر هو بالخلق ويذهب إلى عالم الظلام، قبل أن تسبقه الحياة الثالثة والحياة الرابعة، فيقيم سلالة حية للحياة هناك ترتبطُ بالحياة الأولى ولا تنفصل عنها وهي على ما نعتقد نسمة النور (نشمثا) التي هي جزءٌ من عالم النور لا يمكن أن تنفصل عنه رغم ذهابها إلى عالم الظلام، لكن النصّ لا يفصح بدقةٍ عن هذا، حيث يقول مندا إد هيّي:

«أريدُ أن أبعث من سلالاتي التي منحتني الحياة إياها إلى هناك، الحياة دعتني وحدّثتني على أن أكون الأول وخلقت لي السلالات، تلك التي تنادي (تؤمن) بنداء الحياة وهذا أشد روعة من

العالم نفسه، وتنأى بنفسها من عالم الظلمات ثم استطرد مندا إد هيي قائلاً: إني أريدُ هنا قبل أن ينشأ ذلك العالم أن أضمَّ (أوحِّد) هذه السلالات الى المعاشرة مع الحياة حتى تكون شكينتهم فيما بعد في دار الحياة»[٧٦]

أنه ببساطة يريد أن ينشر الحياة من الأولى، في الكون وفي عالم الظلام، على أن يُبقي صلة هذه الحياة بالأولى وبعالم النور ويسبق ما تحاول أن تفعله الحياة الثانية (يوشامن) والثالثة (أباثر) والرابعة (بثاهيل) في تكوين عوالم وحيوات وشكينات منفصلة عن عالم النور. وهذا يعني أن مندا إد هيّي هو (الرسول النوراني) فعلاً لأنه يريد أن يحوّل عالم الظلام إلى عالم نورٍ يشكل امتداداً لعالم النور المعروف ويلغي بذلك تلك الثنائية في هذا الكون ليبقى النور وحده منتشراً في الكون. إنه يبكّر في زرع سلالات الحياة (النورانية) في عالم الظلام قبل أن يتكون عالم الأرض التي ستزرع فيها هذه السلالات فإن تمكن فإنه لن يكون هناك من داعٍ لخلق الأرض لأن عالم الظلام سيكون عالم نور هو الآخر. ولذلك تفرح الحياة الأولى بما سيقدم عليه وتقبلّه وتمنحه الكوشطا (القسط والعدل) لكي تحفظ صحته ولكي تزوِّد سلالاتها بشيءٍ خاص كي لا تقترف الآثام. وهكذا يختار مندا إد هيّي هذه السلالات ويزرعها ثم يُرفع إلى المأوى النوراني.

«هذه الكلمات قالها هو إلى يوزاطق مندا إد هيي ومن ثمّ ذهب غادياً وصنع عالماً لأبناء السلام. لقد أعطى النشأة (التكوين) التي خلقها الثاني لأحد أبناء الكاملين. غير أنه بدوره استلمها منه ومنح إيّاها إبنه بثاهيل. بعدئذٍ أتي هذا ورمى بها في عالم الظلمات. لقد خلق هو إبداعات وكوّن سلالات خارج نطاق الحياة، سلالات لا تليق بمقام الحياة، لذا سُمي هو (من أصبح خالياً عن البهاء وغدا مقطوعاً من النور) هو الذي قطع السلالات في عالم الظلمات بحيث ظلت هي مقطوعة (منقطعة)»[٧٧]

كانت الخطوة الصحيحة إذن أن يخلق مندا إد هيي العالم الأول الذي هو عالم أبناء السلام خارج عالم النور وهم الموصولون بعالم النور. لكن الحياة الثانية (الثاني) خلق سلالات (تكوين) وأعطاها إلى (الثالث) الذي أعطاها إلى الرابع وكان من الطبيعي أن يقل إبداع النور فيها وتزداد ظلاماً لذلك رماها الرابع في عالم الظلمات ولهذا سمي بثاهيل (الخالي من البهاء المقطوع عن النور) لأن (التكوين) أو (السلالات) التي رمى بها في عالم الظلام لا يمكنها أن ترتفع وتعود إلى

عالم النور بل هي أصبحت جزءاً من عالم الظلام وسنرى ذلك بوضوح في خلق آدم بغرا (جسد آدم) الذي هو من صنع بثاهيل ومن سلالاته المظلمة.

هـ : كوزموغونيا آدم الضوئي (الخفي) :

تقوم فلسفة الكائنات المندائية على التناظر والتوازي فيما بينها أكثر مما تقوم على التوالد السلالي والإنجاب الذي نراه في ثوغونيا الآلهة المتعددة والتي هي تقليد لفكرة الإنجاب والنسل البشرية.

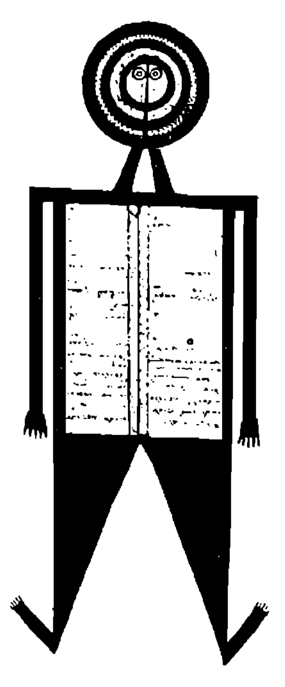
إن هذه الفلسفة أرقى بكثير، وقد ظهرت بسبب الطريقة الغنوصية (العرفانية) التي تميل إلى التجريد وإلى الذهنية والمفاهيم الفلسفية وتبدو كما لو أنها تحاول أن تتخلص من عالم الأساطير. إن الغنوصية عالمٌ كاملٌ بين المثولوجيا والفلسفة وهو عالم جدير بكل فحص وتمعن لأنه أنجب الأديان الموحِّدة كلّها، وكانت المندائية أساس نشوء الغنوصية ومن هذا الباب يحق للمندائيين القول أن ديانتهم هي أصل الديانات التوحيدية والسابقة عليها، فضيلة المندائية أنها الكنز الحقيقي للغنوصية في ربيعها الأول في حين أن الأديان الموحِّدة الأخرى أزاحت بقسوةٍ جذورها الغنوصية وأخفتها تحت الأرض.

قلنا أن (مانا) هو جوهر المندائية فهو جوهر عالم النور الذي ظلّ يظهر في دوائره الثلاث، فقد ظهر في دائرة النور كـ(مانا ربّا)، وظهر في دائرة الحياة كـ(مندا إد هيي) وسيظهر في الدائرة الثالثة كـ(آدم كاسيا). إن التناظرات والتوازيات التي تحفل بها المثولوجيا المندائية تجعلنا نجزم أن ما يربط بين مندا إد هيي وآدم كاسيا هو مانا وأنهما تجليّان له.

لنلاحظ أن الروح (نشمثا)، وهي مانا، عندما تنزلُ من الأعلى لتحلّ في جسد آدم فإن إثنين أساسيين معها هما مندا إد هيي وآدم كاسيا وكأن الأسطورة تريد أن تقول لنا بأن الثلاثة هم شيء واحد. وهكذا يكون هذا الثالوث هو ثالوث مانا.

يقف مندا إد هيي على رأس الدائرة الثالثة وهو وجه العملة الأول أما وجهها الثاني فهو آدم كاسيا (أدكاس). فإذا ما وضعنا (حواء كاسيا) أي (حواء الخفية) مع (آدم كاسيا) فلا بد أن يقفز أمامنا سؤال مهم جداً: من التي تناظر حواء كاسيا إذا تعلق الأمر بمندا إد هيي. وسنقول دون

تردد (الحياة الأولى) أو (صوثا هيي) أي الشكل الأنثوي لـ(هيي). وهذا يعني، بعمق، أن آدم وحواء الخفيين في عالم النور هما صدىً للحي والحياة وهما (مانا) بشكليه الذكري والأنثوي. وهو ما يفسر قدسية روح الإنسان عند المندائيين.



شكل (٢٩)

تشخيصٌ يشبه الرجل

وهو رسم تقليدي من لفيفة (العالم الكبير Alma Risiaia rba)

وربما كان آدم الضوئي/ الخفي (آدم كاسيا) أو(مار أد ربوثا)

كمعلم للناصوررائية (الحكمة السرية للمندائيين)

وتوضح الخطوط التي على الرأس حروف الألفباء المندائية دون ترتيب

أما النص الذي على الجذع فيقول: في بداية المياه (ممبوها) ماء الحياة

وفوقه من الشخنتا الحارسين يتسامون ويبتهجون إلى الدرجة الفائقة.

في البدء قدمت صعوداً وهبت إلى هناك وبقيت أحكم فوقهم الوجود (مكيميا)

من البداية حتى النهاية

المرجع: Drower, Apair of Nasoraean Commentaries,p.8f

ـ هيبل زيوا :

١ . خلق هيبل زيوا

سنتناول هيبل زيوا لأنه يشكّل الكائن النوراني الذي يوازي هيبل ابن آدم كاسيا رغم أنه يختلف عنه. هيبل زيوا أول وأكبر أبناء مندا إد هيي (هيبل أول أبناء آدم كاسيا) وترد أسطورة خلقه في أكثر من مكان. ومعنى هيبل ، في المندائية ، واهب (واهب الضوء) رغم إننا يمكن أن نردّ أسمه إلى أصل كنعاني (وقد قمنا بذلك في كتابنا : المعتقدات الكنعانية) وظهر لنا أن هيبل هو في الأساس (أب إيل) وهو إله كنعاني/أكدي ضارب في القِدم وقد يكون هو (عوص) أو (أش)، و(أش) هو الضوء. وحين طبقت سلالة الآلهة هذه على أول البشر ظهر منها (آدم وآدمة وأب إيل وأخ أب إيل (قابيل)..إلخ ويرد إسم (هُبل) كأحد آلهة القبائل العربية مشيراً إلى (بعل) وهو ابن إيل وليس أب إيل. وفي كل الأحوال لن نخرج عن هذه الدائرة.

يذكر الكتاب الخامس عشر/ الجزء الثاني شيئاً عن ولادة هيبل زيوا كما يلي :

«أنا كرمٌ لينٌ

إنني ذا من جيء به من المقام ذي العظمة

ولقد كانت الحياة الكبرى لي هي الخالق

إنها الكبرى كانت لي الخالق (الزارع)

وأزادت بهاءً إلى البهاء الذي امتلكه

لقد أضافت عليّ البهاء فأزادت بذلك ما أمتلكه منه

إنها هيئة محفوظة التي احتفظت على نفسها في الخفاء

هي خلقتني وقوّتني وأعطتني أوامر

إنها جهزتني خلال كلمتها وخلقت لي أعواناً

ومنحتني فصاحة اللسان وقوة السمع

إلى حدٍ كبير وبلا حدود

إنها أعطتني علماً عن البهاء الكبير

وعن النور الذي يشعّ في المكان السري

إنها جهزتني ظلال كلمتها

وخلقت لي أعواناً

إن الأعوان الذين خلقتهم هي لي
بديعون ولا حصر لعددهم
الكبرى نادتني وأعطتني أوامر
وقوّتني في المقام السري
إنها أمدّتني بأقوال سرية
وأخبرتني كلّ شيء
هي أعطتني معرفة عن الأول
وعن الكبير الذي كان موجوداً منذ الأزل
إنها أعطتني التنوير النوراني
وقوّتني خلال ندائها المثير للعجب
أبي أنعمَ عليّ ببركته
ووضع بعضاً من غراسته عليّ
إنه منّ عليّ بالتسبيح
بعيد المدى وبلا حدود
إنه أضفى عليّ التنوير
الذي هو بلا نقص وبغير خلل
إنه قبّلني بثغره الطاهر
ودثرني بثيابٍ داخلية»(٧٨)

كان تميّز (هيبل زيوا) من أنه تلقى (المعرفة) على يد الحياة الكبرى أولاً وتلقى (المباركة) على يد والده (مندا إد هيي). وهناك ما يشير له في الكتاب الرابع من الكنزا:

«عندما أنعمت الحياة الولى بالتفكير وخلقت مندا إد هيي الذي خلق بدوره هيبل زيوا، انتصب هذا بعد ذلك ألوفاً مؤلفة من السنين واقفاً أمام مار إد ربوثا ثم توارى بينهم مختفياً. فيما بعد سوف ينزل هيبل أثرا إلى إكرون جبل اللحم الكبير وإلى عوالم الظلمات الثلاثة»(٧٩)

كان هيبل أول خلقه يسمى (هيبل أثرا) ثم أطلقث عليه أسم (هيبل مانا ياور) أي (هيبل مساعد مانا) ثم اسم (هيبل زيوا) أي هيبل الضوء (اللامع، البراق) أما اسم هيبل لوحده فعندما يكون منحدراً من آدم كاسيا وتبعاً لذلك سيسمى به الإبن الأكبر لآدم الأرضي.

٢ . **تعميد النهر الأول من قبل هيبل زيوا :**

يقوم هيبل زيوا مع مجموعة من أصحابه من الأثري منهم (زهرون) والذي هو إكليل النور والمسمى بـ(يوسمير كانا) وياداثان وستةٌ من الأثري هم (شيتل وأنوش) أخوا (هيبل زيوا) و(شلمي وندبي) وهما حارسا النهر الأول و(أدكاس مانا) الذي هو آدم كاسيا (الخفيّ) وأثرا يوفين الذي هو السرّ الكبير. ويقوم هيبل زيوا بتعميد النهر الأول بحضور هؤلاء.

٣ . **تخطيط حدود الكون :**

«لقد جعل للعوالم قاطبةً حدوداً، سواء أ: انت هي للنور أم للظلمات ثم أحكم قفل البوابات وصعد على المزاليج وعلى بطاقات المرور والسر الكبير. تلك التي كانت كلها قد منحت له من قبلنا. إن كل ديفي (شيطان) مدجج بالسلاح يرى تلك البطاقة للمرور يضع ختمه عليها. على هذه الصورة صنع هو السلام في كافة عوالم النور التي لا حدود لها ولا نهاية».[٨٠]

٤ . **مباركة مار إد ربوثا له :**

«رحتُ أعيد وأمجّد وأسبّح باسم الرب الأكبر وفقاً للحكمة والمعرفة وما عدا ذلك مما حبتني الحياة به. هكذا أمضيت أنا تلك السنوات الألف خاشعاً أمام مار إد ربوثا، راكعاً على الأرض ووجهي يلامسها. فيما بعد دعاني الرب الأكبر للمثول بين يديه ومسَّ راحة يدي اليمنى وأعاد إليّ ثقتي بنفسي. ثم بسط الربّ الأكبر بعضاً من بهائه عليّ ومنحني جزءاً من نوره ووضع حول رأسي إكليلاً من النصر مؤلفاً من العريش النورني. إن الأثري جميعها نالت البهاء والنور وحصلت على الأردية ثم ابتكر مار إد ربوثا له ثوباً»[٨١]

٥ . **خلق الشكينات والأثري :**

يخلق الرب الأكبر ألف شكينة ويصنع من كل واحدة مليوناً وثمانمائة ألف مؤلفة من الأثري ساطعة البهاء والنور تتوهج منها المصابيح أمام كل شكينة ويضع حارسان ومصباحان أمام كل شكينة. أما اسم رئيس خفراء الشكينات التي على يمنه وعددها (٤٤٤) شكينة فاسمه بارباغ أثرا وأحياناً كذلك أزازئيل. أما اسم الحارس الأعلى للشكينات اليسرى (٣٦٦) شكينة فاسمه (أنن نصاب) وأحياناً أيضاً تاورئيل أثرا.

٦ ـ **تعميد هيبل زيوا والأثري التي معه :**

هبط مار إد ربوثا ومندا إد هيي من الأعالي على ضفاف النهر، وأخذ الرب الأكبر يعدّ عدة التعميد وهم بصبغ هيبل زيوا (الأثرا المسلح بالإيمان الكبير ذو الإرادة القوية) تطلع النهر إلى الرب وخاطبه «من هو ذا الأثرا الذي تريد أنتّ أن تعمّده بمائي. أنت وصورتك ـ ثم عندما شاهد الماء الحي البهاء والنور لدى هيبل زيوا والبهاء والنور والعظمة عند مندا إد هيي وعصا زيتون الماء الحي التي جيءَ بها من (يوخاشر كنّا) جعل يمزح ولم يمكث ساكناً، إنما طفق يقفزُ ويلفّ ويدور ذات اليمين وذات الشمال شأنه شأن الأمواج في سنديريافيز (سندرياويس) نهر الحي الكبير. بعد ذلك تكلم مار إد ربوثا مخاطباً النهر قائلاً : يا أيها النهر الحيّ الكبير! إبقَ ساكناً واستمر ثابتاً في مكانك ذلك لأن هيبل زيوا ينبغي أن يتعمد في مياهك ـ عند ذاك امتثل النهر الحيّ الكبير لدى سماعه لكلمات الرب الأكبر ولم يتراجع عن قوله البتة. وهكذا مكث النهر الحي الكبير في مكانه حتى انتهى تعميد هيبل زيوا، لقد عُمِّد هيبل زيوا وعُمِّد معه كلا أخويه. وبعد ذلك جاء دور أربعة آخرين الذين يدعون بالكبار. لقد صبغ نار إد ربوثا الأثري الثلاثة التي كانت هي أخوان هيبل زيوا وأعوانه في آن واحد».[٨٢]

ويتضح من هذه الفقرة أن هيبل زيوا تعمّد مع أخويه (شيتل وأنوش) رغم أنه عَمد النهر الكبير في عالم الضوء سابقاً. ولهذا كان النهر الكبير فرحاً لأنه سيزداد تبريكاً بسبب تعمّد من عمّده فيه.

٧ ـ **تثبيت هيبل وأخويه والأثري في مراكزهم :**

«عندئذ فرغ هو من تعميد كافة الأثري التي كانت بصحبته، وحينما كان هيبل زيوا لمّا يزل واقفاً بجانب خالقه، مار إد ربوثا، جعل هذا يتكلم ويغني لحناً عن النهر :

لقد أرتحلتُ أنا من مقدمة منهل الماء

لقد جئتُ من مقدمة تيار الحياة إلى هنا

لقد بنيت شُكينات ثلاث

وأقمتُ حرّاساً عليها

إن الخفراء الذين عينتهم أنا عليها

هم في غاية العجب، مباركون ومخلصون .

بعد ذلك ثبّت مندا إد هيي التعميد. ثم خرج من النهر وأبرم الكوشطا مع الربّ الأكبر. وعندما ختم مندا إد هيي إخوانه الذين كانوا في الوقت ذاته أبناءَه، شرع مار إد ربوثا يتكلم وقال مجيباً على مندا إد هيي:

إن بهاءَك سطع
ونورك يتلألأ
إن التلاميذ الذين هم أصغر منكَ سناً يتوهجون من سنائك
وهيئتهم تصبح أكثر براقةً من جميع العالم.
ثم نادى هيبل إليه وهتف مخاطباً إياه:
إني اسمع صوت هيبل زيوا
الذي يتكلم في مقام النور ويرشد
إن صوت كلامه عذبٌ رقيق
لقد استيقظ قلبي له وجعل يلهج بالثناء
له أفاق قلبي من منامه وروحي (نيشمتا) فرحت مغتبطةً
بالي يُسرُّ ويتفتح صاحياً
وباطني يفرح فرحاً يفوق كلَ حدٍّ
إني أقفزُ وأفرحك للأعمال
التي أنجزها هيبل زيوا
والتي تمّت تماماً جيداً على يده»(٨٣)

ثم يوطّد مار إد ربوثا مركز هيبل ويعززه ويباركه ويمنّ عليه ببعض نعمه ويمنحه البهاء ويفعل مثل هذا مع شيتل وأنوش، ثم يقوم المصباح الكبير (تيتريترون) الذي يضيء أركان العالم قاطبة وله ٣٦٠ اسماً بالتساؤل عن هذا البهاء والنور والضياء الغامر فيردّ عليه الرب بأنه من هيبل وشيتل وأنوش على التوالي وهو شامل واسع لا نهاية له.

٨ . ختم أصحاب هيبل:

يختم ملك النور الأثري ويدعو (شلمي وندبي) ويضع يده عليهما مباركاً إيّاهما بنعمته الواسعة ثم (رهام رازا وأداكاس مانا مع مساعديه) ويصنع لهم غيمةً من النور ويضعهم فيها. ثم يختم أعوانه وسندريافيز (النهر الحي الكبير) ومعه ٣٦٠ نهراً التي كان هيبل زيوا قد تعمّد فيها.

ـ نزول هيبل زيوا إلى عالم الظلام :

١ . **تهيئة هيبل :** كانت الخطوات الثمانية السابقة، كلها، من أجل أن ينزل هيبل زيوا إلى عالم الظلام بقوة ودون تردد وبعدّة نورانية كاملة، وقد جهّزه بها مار إد ربوثا ومندا إد هيي إضافة إلى الحياة الكبرى.

إن نزول هيبل زيوا إلى عالم الظلام يبدو، من حيث المبدأ، سابقاً على نزول والده مندا إد هيي لأن في نزوله هذا يشهد ولادة (أور) وسجنه وتقييده، وهذا يعني أن نزول هيبل زيوا أسبق من نزول مندا إد هيِّي. لكنّ كتاب الخليقة (الثالث من الكنزا ربّا اليمين) يذكر خلق مندا إد هيي ونزوله مباشرة بعد خلق الحياة الثانية وأبنائها. وهو زمن مبكرٌ جداً في الخليقة لا يتناسب مع ظهور هيبل زيوا الذي أتى بعد والده يقيناً.

إن نزول هيبل زيوا يتضمن اختراق طبقات عالم الظلام الثمانية والحصول على سرّ صلابة عالم الظلام والمرارة والجمرة (سمقاق الكبرى) والمرآة ثم الوصول إلى روها المتزوجة من كاف والحامل بأور، وزواجه من (زاهرئيل الكبرى) أخت روها والمتاهة التي يُضيِّع فيها روها قبل أن تلد أور ثم ولادة أور المفزعة ومصارعته وتقييده ووضع حرّاس عليه.

إن الغرض من النزولين لمندا إد هيي وهيبل زيوا يكاد يكون واحداً وهو سجن وتقييد عملاق الظلام (أور) لكن رحلة هيبل زيوا تتضمن زواجاً من أخت روها (زاهرئيل) التي نعرف من مكان آخر أنها تنجب منه(بثاهيل) وهو الحياة الرابعة.. فهل هذا يعني أن أباثر لم ينجب بثاهيل عن طريق النظر إلى الماء الأسود لعالم الظلام، بل أن بثاهيل كان قد ولد من زاهرئيل زوجة هيبل زيوا في عالم الظلام؟ وهل هذا يفسِّر ترافق هيبل زيوا مع بثاهيل؟ وهل هذا يفسِّر حصولهما على اللقب نفسه (جبرائيل) أي رجل الله أو الرسول؟ هذه الأسئلة تثيرها أسطورة نزول هيبل زيوا إلى عالم الظلام الذين هو أقرب، من حيث المقارنة، إلى نزول إنانا أو عشتار إلى العالم السفلي (في الأساطير السومرية والأكدية) لأنه يتضمن دخول الطبقات السبع أو الثمان للعالم الأسفل أو عالم الظلام وهو ما لا نجده في أسطورة الخليقة البابلية التي نفصل مقارنتها بنزول مندا إد هيي إلى عالم الظلام.

يذكر الكتاب الرابع من كنزا اليمين أن مندا إد هي خاطب الحياة الكبرى : امنحيني موافقتك

لكي نبعث نحن أكبر أبنائنا إلى عالم الشرّ، فغضبت منه لأنه سمّاه (إبني) لأنها ساهمت في خلقه، طلب مندا إد هيي من هيبل زيوا أن يبني أخوته على شاكلته ليحافظوا على (كنز الحياة) ونصحه إذا ذهب إلى الظلمات أن يأخذ معه (قوة الحمامة السريعة). ويقول هيبل زيوا للـ(روها) في نهاية عرضه للنزول «لقد جئتُ أنا إليكم هابطاً بناءً على خطة يوشامن، لقد أقبلت إليكم وفعلتُ بالظلام شيئاً يمقته هو أشدّ المقت ذلك لأني أنجزتُ ما كان قد طلبهُ مني آبائي دون خطأ أو نقصان. إن الإبن العاق الذين لا ينصاع لكلام أبويه يُستبقى لديكم ويُمنع عن الرجوع. أما أنا فقد أطعتُ ولبيّتُ ولم أضرب في الريح ما أمَرني به آبائي. أجل، لقد سمعت أنا قولهم وانصعتُ له ورحتُ غادياً لكي أثبتَ هذا الكلام في كنز الأثري، تلك الأثري التي تحرس الكنز وتحمي القصر بأكمله، إني أخذتُ في يميني الكوشطا وهبطتُ نازلاً إلى عالم الظلمات».[٨٤]

بهذه العبارات يُلخِّص هيبل زيوا، نفسه، زمن نزوله إلى العالم الأسفل وهو الزمن نفسه الذي نزل فيه والده مندا إد هيي بعد خطة يوشامن، لكنّ سبب النزول سيختلف قليلاً، ففي نزول مندا إد هيي يكون هناك أمران أولهما النزول بسلالة حيّة غير منقطعة إلى عالم الظلام قبل أن تصل إليه السلالة المنقطعة التي ظهرت من يوشامن ونسله، وثانيهما تقييد (أور) لكي يتاح خلق الأرض والإنسان من قبل بثاهيل بشكل أفضل (وهذا يناقض ذاك). أما نزول هيبل زيوا فتعلن عنه مقدمة النزول في الكتاب الخامس/ الجزء الأول وهو ظهور من يحاول الصعود إلى عالم النور من عالم الظلمات، لكن متن النزول يشي بأمر آخر وهو الحصول على عدّة التصلب التي ستساعد على تصلب الأرض إذا خلقت وأمور أخرى سنعرفها.

ـ زيوا وإعادة ولادته من البيضة الخفيّة:

تبدأ أسطورة نزول هيبل زيواالتي يسردها كتاب هيبل زيوا (الجزء الأول من الكتاب الخامس من كنزا ربّا اليمين) حين يُخبر مندا إد هيي المانا بحضور الحياة الأولى بأن أحد الديفي (الشياطين) من النهر الأسفل (سينيافيز) الواقع تحت أرض الظلام يحاول الصعود إلى الإعلى للإنتقام، فقالت الحياة والمانا له بأن عيه أن يذهب إلى هناك ويفعل ما ينبغي فعله فقال لهم بأنه سينادي أبنهم هيبل زيوا الذي أعدّوه لهذا الغرض (ابنكم تلك النبتة التي قمتم أنتم بغرسها، الصورة التي قمتم برسمها من مخبأكم، من بيضتكم، من ذلك النهر الذي قمتم أنتم بشقّهِ ومن التّنا

وعرق مقامكم.

نادى مند إد هيي على ولده فتساءل هذا عن ما يريد فأجابه : أريد أنْ أريك صورة المانا، المانا نفسه وصورته الكبيرة الخفيّة، تلك الصورة التي بقيت في طيّ الكتمان فلم تعرفها جميع الأثري في ٣٦٥ من العوالم الخفيّة العظيمة وبيوض النور. فتردد هيبل زيوا لكن والده (الذي هو أخوه في الوقت نفسه كما يقول النص) شجعهّ. فذهب الاثنان إلى مكامن وبيض المخلوقات ذات العظمة الفائقة، فصاحت الحياة ومانا وصورته على مندا إد هيي فقال أتيتكم به، فعندما دخلا بهرهم الضوء ثم أوقفوا هيبل أمامهم وقبلّوه فانحنى وصلّى لهم وبقي ساجداً ألف سنة حتى مسّه المانا براحته اليمنى وطلبوا منه أن يعمدّوه في ٣٦٠ ألف نهر ويلبسوه ٣٦٠ رداءً ففعلوا ووشحوه وتكلموا معه بأسماءٍ سرية وأبقوه تحت حراستهم آلاف السنين وبقي هيبل زيوا مختفياً في تلك البيضة المستترة حتى كبر في السن وأصبح شبيهاً بهم، فكأنه ولد مرةً أخرى من تلك البيضة، ثم أعطوه اسم (هيبل ياور) و(ياور) وخلقوا له عالماً واسعاً لا نهاية له. وصنعوا في ذلك العالم له آلافاً مؤلفةً من عوالم النور و٣٦٠ نهراً باطنياً عظيماً. وفي كل من هذه العوالم خُلق له ٣٦٠ ألف أثري وفي كل شكينة خلق له ٣٦٠ ألف شكينة، وكل عالم يختل عن الآخر في غرابته وتميزه.

ثم أعطاه أبوه الرداء الذي يتقبل التعميد وأعطاه السر الخفيّ الذي كُتمَ من قبل العظماء وطُلب منه أن يذهب إلى ذلك العالم المظلم حيث يمكث أجيالاً هناك بحيث يُنسى ذكره وسيقرأون على روحه صلاة الموتى. فقبل هيبل مانا ياور الذهاب إلى ذلك العالم وذهب معه شيتل وأنوش، فرتلّوا وصلّوا وافتخر بهم مندا إد هيي ورافقهم حتى وصلوا إلى مكان الحدود الفاصل بين النور والظلام وأوصاه بأخويه ولم يعانقه أو يحضنه فقال هيبل : لو فعلت ذلك لنزل بي عذابٌ مقيت، سأنزل بقوتكم وبقوة السر الكبير والمساعدين اللذين معي (شيتل وأنوش) إلى جوف الظلام، ويعود والدهُ شطر المانا وصورته.

٢ . الهبوط الأول إلى عالم الظلام :

يهبط هيبل ويخوض في الماء الأسود ويثبت أقدامه على الأسوار الفاصلة بين اللام والنور فتنسحب الأسوار من أمامه وتبتعد ما يعادل ألف ميل ثم يصل إلى طقات الظلام ابتداءً من الطبقة الأولى أو (العالم الأول) كما يسميه النص وكما يلي :

١. عالم روها: عاش هيبل زيوا آلافاً مؤلفة من السنوات متخفياً

٢. عالم زرتي زرتناي الكبير وزوجته (عماميت) وهي كوكب الزهرة: قال لهما هيبل زيوا لتبقيا مكبلين بالحديد. وعاش متخفياً في دارهم مع الأثري يرددون الصلوات والطقوس ويصلّون على أرواح الموتى، والأثري فرحة.

٣. عالم هاغ وماغ: مانا الظلام بيدهما السحر المؤثر، مكث هيبل زيوا ستين ألف روبان (مليون) من السنين تعرّف عليهما وعلى أفكارهما (بين هذا العالم والذي قبله ألف ميل).

٤. عالم كاف وكافان: عمالقة الظلام الجبابرة اذين خرجوا من عيون المياه السوداء ذات الحرارة الوطيسة الصافرة، الماء يغلي فيها ويفور فوراناً شديداً تتصاعد معه فقاعات كبيرة إلى الأعلى (بين هذا العالم والذي قبله مائة ألف روبان من الأميال) المخلوقات ذات هياكل منحرفة بشعة اعتراها الانقلاب، الذكور تشبه التنانين والإناث على صورة السمادر والليليثا، قال هيبل زيوا إن عليهم أن يقيدوا بالحديد.

٥. عالم أناتان وقين: محارب الظلام وزوجته الملكة سيدة الظلمات التي تسمى (أم الظلماء) التي كانت قد خرجت من المياه الداكنة العكرة ذات الغليان الشديد، الآسنة التي تفتك بعضها بالبعض الآخر والتي أخرجت عالم الظلمات كله.

قضى هيبل زيوا والأثري ألوفاً مؤلفة من السنوات في الصلاة والطقوس للمستتر وصورته والنيطوفتا الأولى الكبرى الخفية التي تواجدت قبل عوالم النور.

٦. شدوم الكبير: أول الملوك الثلاثة الكبار بعد البوابات لا تلتهم عالم النار وماؤه على شكل غبار وفيه الماء عمود نور. وشدوم هو حفيد الظلمات حيث قام هيبل باتخاذ قامة فارعة وجميلة وتكلم معه وقال له: أن أحد أبنائكم الذي خرج من صلبكم والذي ينتمي لعشيرتكم يريد أن يبدأ الحرب ويثير التمرد في عالمكم. ماذا تقولون عنه؟ فقال شدوم بأنه لا يعرف وطلب منه الهبوط إلى الأسفل فأن هناك رجلاً أكبر منه يمكن الحديث معه.

٧. كيو الكبير(كاف الكبير): وصله بعد مائة ألف عام فكرر عليه ما قاله لشدوم فقال له هنا إلى الأسفل رجل أكبر مني يمكن الحديث معه.

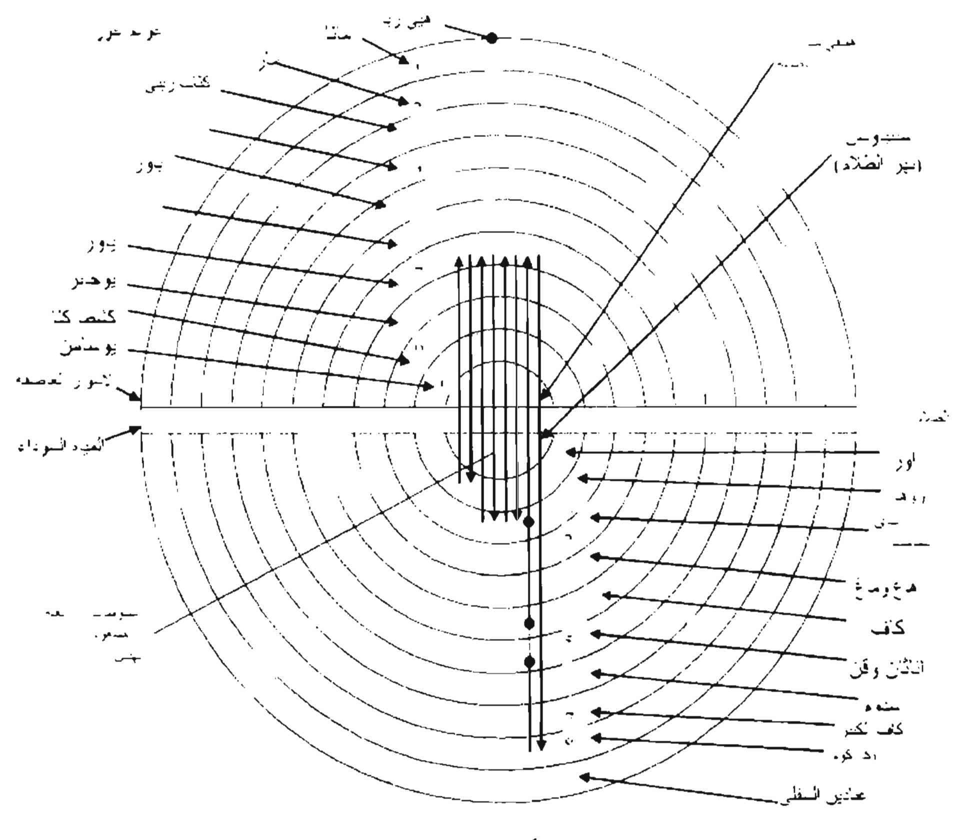
٨. كاركوم (أكرون): جبل اللحم الكبير، الذي وصله بعد ستين ألف روبان من السنين،

ليس فيه عظم ومنظره يشبه الغبار والماء الذي يجري تحته، كان مؤلفاً من غبار ويشبه نوعاً من الغيوم الداكنة. ثم تكلم معه هيبل حول من يريد منهم أن يحرض على الثورة ضد عالم النور. فغضب كاركوم وقال له: أغرب عن وجهي وإلاّ التهمتك.

«عندما توعدني هو هكذا مهدداً، كنتُ أنا، هيبل زيوا جالساً داخل غلافٍ من السيوف والأحسمة والرماح والسكاكين والنصال فقلت له: إلتهمني أنتَ إذا استطعت. فأجاب هو قائلاً: سألتهمك على الفور. وفعلاً التهمني إلى النصف. بعد ذلك بصقني إلى الخارج ولفظني من شدقيه. لقد بصقَ لعاباً من فمه ذلك لأن أمعاءَه وكبده وكليتيه كانت جميعها ممزقة. ثم قال هو مخاطباً نفسه: ماذا ينبغي عليّ أن أفعل بالرجل الذي جاء قادماً والذي بعثته الحياة؟ بعد ذلك التفت هو إليّ بقوله: إنكم صناديد وليس نحنُ إلاّ عجزة وأنتم آلهة وما نحنُ إلاّ بشرٌ وأنتم عمالقة وما نحنُ إلاّ أقزام»[٨٥]

والحقيقة إن العبارة الأخيرة ملفتة للنظر إذ يصف كاركوم كائنات عالم النور بأنهم آلهةٌ ويصف كائنات الظلام بأنهم بشرٌ. ويبدو أن هذه العبارة لم تُنقّح جيداً من قبل ناسخي ومنقحي الكنزا ربّا فالمفروض أن يكون هناك إله واحد هو (هيي ربّا) أما كائنات النور الأخرى فليست آلهة كما أن كائنات الظلام ليست بشراً بعد، (فما زال خلق البشر لم يحن ثم أن هذه الكائنات الظلامية أحطّ من البشر)، وربما يفسر هذا الأصول متعددة الآلهة للمثولوجيا المندائية.

ثم يطلب هيبل من كاركوم (جواز سفر!!) فيعطيه له كاركوم (من الخزانة!!) مع خاتم نُقش عليه اسم الظلمات الكبيرة ورسمها وما على هيبل لكي يعود عبر عوالم الظلام إلاّ أن يبرز جواز سفره والخاتم لكي يُختم له عليه. وهذه صورة محيرة وكيف تسنى لهيبل زيوا المرور عبر عوالم الظلام دون جواز سفر وختم!! ثم ألا تبدومثل هذه الصورة وكأنها مكتوبة في أزمان قريبة حيث ظهور جوازات السفر والختم عليها!! ومع ذلك فنحن نرى أن المترجم لم يكن موفقاً في هذا المقطع وكان عليه أن يترجمه بمصطلحات أخرى تتناسب مع قِدم النص.



شكل (٣٠)

عوالم النور والظلام قبل خلق الأرض والعوالم البينية

ونزول هيبل زيوا إلى عوالم الظلام

٣ . الصعود عبر عوالم الظلام :

تبدأ رحلة الصعود عبر عوالم الظلام من كاركوم خلال آلاف السنوات وحين يصل هيبل زيوا إلى عالم (أناتان وقين) يتخذ هيئة أناتان ويسأل (قين) من أي منشأ كائنات الظلام ومن أيّ المواد صيغت صورهم وأشكالهم «عند ذاك نهضت هي واقفةً وأرتني العين الكبيرة التي كانوا هم جميعاً قد نشأوا منها. عندما تفحصتُ النظر في تلك العين ذات الماء الأسود وجدتُ فيها مرارة وجمرةً خليطاً كان مستلقياً في العين وكان هذا يتقلب ويتململ. عندئذٍ صاح السرّ الكبير الذي كان يلازمني قائلاً : هذا الخليط من المرارة والجمرة يكوّن صلابة عوالم الظلام وكثافتها. بعد أن

فرغ هو من كلامه إليّ عمدت أنا إليها فرميت العمى في عينيها والصمم في أذنيها بحيث أصبحَ من المستحيل عليها أن تراني. بعدئذٍ أمسكتُ بالخليط من الجمرةِ والمرارة فلم تستطع أن تبصرني ولم تر ما كنتُ قد فعلته»[٨٦]

ويسمي هيبل زيوا ما جلبه (سمقاق الكبرى) التي كانت قد نشأت عند جذورها(قين) وهي جدّة أور وأقدم جميع عوالم الظلام. ويسمى عالمها عالم سمقاق اللؤلؤة الكبيرة وحين يقفل أبواب ذلك العالم يحكم إغلاقها بتلاوة ثلاثة أسماء سريّة هي (هام زيوا، نهور زيوا، لوفافين نهورا ربّا) ويواصل صعوده.

حين يصل إلى عالم كاف وكافان يرى أمهما (قين) مرة أخرى مع (روها) ابنتها يرغبان في عرض نفسيهما على الأنظار. فتتزوج (روها) من أخيها كاف وتحبل بأور سيد وعملاق عوالم الظلمات. ثم يقوم هيبل بالتقدم لخطوبة أحدى بنات قين متزوجا من أخت روها واسمها (زاهرئيل) الكبيرة وتقام حفلة عرس صاخبة يلبس فيها هيبل ثوباً ملوناً من الحرير. وكان هيبل يريد من هذا الزواج أن يكشف أسرارهم كي يسيطر عليهم، ويسأل زاهرئيل عن أسرار الظلام، دون أن يلمسها، وحين تعرف قين أنه لم يلمسها يتعذر هيبل بأنه في عالمه يفضّ الشخص بكارة عروسه ليس قبل مرور سبعة أعوام فتتركه قين لحاله. ثم يسأل قين عن أصل عالمهم فتقول له:

«لقد خلقنا نحن من التنّا وشتلات الظلام ومن محيط الماء الأسود بأجمعه، فألححتُ عليها قائلاً: هيّا أريني مم تكونتم أنتم. عند ذاك أرتني هي قوة ومتانة الظلمات والسرّ الخفيّ الذي يصان من قبل أولئك المردة الجبابرة وعمالقة الظلام. ثم أرتني هي أحد العيون. لم يكن هناك ثمة أحد بينهم من يعرف مدى سعة تلك العين. أما أنا فكنتُ الوحيد الذي قُدِّر عليه الإلمام بمدى اتساع وعمق تلك العين. في العين كان ثمة مرآة ينظرون هم فيها إلى قسماتهم فيعرفون حينئذٍ ماذا ينبغي عليهم فعله. هذه المرآة أخفيتها أنا عنهم. إني أخذتها واحتفظتُ بها. قين بحثت عنها فلم تعثر عليها وخاطبتني قائلةً: ما جدوى أن أفعل أنا شيئاً بعد أن ضاعت قوتنا وصلابتنا هدراً. فأعقبتُ أنا على كلامها متسائلاً: عمَّ تبحثين؟ بيد أنها أصبحت منطوية على نفسها وأصمّت أذنيها ولم تنبس أمامي ببنت شفةٍ»[٨٧]

ثم يقوم هيبل زيوا بتقمص شكل (كيو) أخ (روها) ليذهب بها إلى الجانب ويبدو أنها

أصبحت حاملاً من هيبل زيوا الذي تلبّس شكل كيو أو كاف رغم أن النصّ ذكر سابقاً أنها عندما تزوجت من كاف أصبحت حاملاً.

تنطوي هذه المترادفات المتوازية والتماهيات المتداخلة على ألغازٍ كثيرة إذ ما معنى حمل روها في هذه اللحظة وهل أنجب هيبل زيوا منها (أور) رغم معرفتنا الأكيدة أن كاف هو أب أور؟ وهل سينجب هيبل زيوا من أختها زهرئيل بثاهيل رغم معرفتنا الأكيدة بأن بثاهيل أبن الحياة الثالثة؟

دعونا نسأل سؤالاً آخر: هل أن قين، روها، زاهرئيل موضوات في عالم الظلام بالتوازي مع الحياة الأولى(هيّي قدمايي)، الحياة الثانية (يوشامن)، الحياة الثالثة (أباثر) ؟ إن هذه المرايا المثولوجية الغنوصية محيرة حقاً وتحمل في داخلها أسراراً معرفية دفينة ربما تُفضي إلى خلاصة بسيطة وهي أن عالم الظلام هو ظلٌّ لعالم النور بل هو شبيهه الأسود. وهو ما ألمحنا له كثيراً في الثيوغونيا.

يذكرّنا هيبل زيوا، المتنكّرُ مراراً هنا، بشخصية (إنليل) السومري في أسطورته الشهيرة مع (ننليل) التي تدور حول نزولهما إلى العالم الأسفل حث يقوم (إنليل) بالتنكر أربع مرات بهيئات حارس البوابة ونهر العالم الأسفل فيضاجع ننليل وينجب منها أربعةً هم (نانا، نركال مسلامتايا، نشارو، اليجبيل) لكي يكونوا رهينة العالم الأسفل بدلاً عنهم فيخرج إنليل وننليل ونانا (القمر) ويبقى نركال ونارزو واليجبيل. والأسطورة حافلة بالرموز والإشارات وهي تفسر أساساً ولادة القمر.

هل يعني أن ولادة أور وبثاهيل من هيبل زيوا إشارة (لما حصل في الأسطورة السومرية) من أن هذين سيكونان بديلين عن هيبل زيوا وأخويه إذا أرادوا أن يخرجوا من عالم الظلام.. ربما يصحّ هذا إذا عرفنا أن الأسطورة السومرية هذه تكمن مثل جنين صغير في أحشاء الأسطورة المندائية الواسعة حول نزول هيبل زيوا إلى عالم الظلام خصوصاً أن هيبل هو بعل، كما قلنا، وأن بعل هو إنليل؟! هذه أسئلة لا بد منها للمقارنة بين تراثين عاشا في نفس المكان.

نعود للأسطورة فنقول أن هيبل زيوا (سرحَ) بروها وأوهمها أنه سيذهب بها إلى اختها زاهرئيل وأغلق أبواب (كاف وكافان) وقرأ عليها الأسماء السريّة (هنانئيل، هاننئيل، سمير) ليحكم إغلاقها ثم صعد مع روها إلى العالم الثاني للظلام (زرتاي زرتناي) ولكي يحكم إغلاق

أبوابه قرأ عليها الأسماء السريّة وسألها ماذا تتمنين فقالت: أتمنى أن تخبرني أين هما والديّ، فأجابها: سأخذك لتريهما. ثم أصابها (السر الكبير) بالبلبلة والعمى والصمم وصارت كما لو كانت غير حيّة. ثم أحاط عالمها بأسوار لا تزاح فجلست هي قاعدة وجعلت تبحث عن الأعشاب لتأكلها وهي حبلى بأور.

٤ . الصعود الأول إلى عالم النور:

يتهيأ هيبل زيوا للصعود إلى عالم آبائه ليرى المانات والمانا وصورته والنيطوفتا الكبرى التي جاؤوا من حجرها، يغنون ويرددون الطقوس هو وجوقته ثم يصعدون فيحضنه والده والمانا العظيم وصورته ويقبلانه ويسمونه (المانا الطاهر)، شار زيوا، أود اخشار) ويذهبان به إلى (النيطوفتا) (نطفة أو قطرة النور الأولى) التي تقوده إلى مخبئها الخاص وتريه شيئاً لم يره أبداً وتعمده في سبعةأنهار داخلية عظيمة كانت تجري تحت عرشها(لكي تطهره مما علق به من عالم الظلام) وتنطق له إشارات طاهرة وتباركه فيصلي لها هيبل ثم يذهب إلى أبيه في النهر الأول للمانا وصورته فيعمده هناك ويتلو عليه إشارات سرية، يعمده في ٣٦٠ ألف روبان (مليون) من الأنهار الجبارة ذات الماء الأبيض ويعمد الأثري التي معه.

سرد هيبل زيوا تفاصيل رحلته إلى عالم الظلام لأبيه وكيف أنه أقفل على جميع العوالم التي مكث فيها البوابات وكيف هتك أسرار عوالم الظلام وكيف أنه أسر الروها وألقى بها داخل الأسوار السبعة. فباركه أبوه ودعاه إلى العودة لإكمال أعماله.

٥ . الهبوط الثاني إلى عالم الظلام:

هبط هيبل زيوا مع من رافقه إلى عالم الروها فوجدها حائرة هناك تندبُ قائلة: (من الذي أوقعني أسيرةً وجلبني إلى هذا العالم بحيث لا أدري أين هما أبواي؟) وضحك منها وأخبرها بأنه زارهما وطلبت منه أن يصفهما فقال لها: يربضان في الخفاء على غيمة داكنة كانا هما قد صنعاها بنفسيهما. فطلبت منه أن يذهبا إليهما فاعتذر لها وقال: لقد طرداني. فشتمتهما، ثم طلبت بعد حين أن تزورهما لكن هيبل سوّف الأمر.

٦ . الصعود الثاني إلى عالم النور:

صعد هيبل مرة ثانية إلى عالم النور وقابل الحياة ومكث عندها واقفاً ألف عام، وقامت

الحياةُ بإخفائه ووضعه في بيضتها (في حضن مجتمعها الخاص) طوال ألف سنة. بعدها طلب منها العودة إلى عالم الظلام لإكمال مهمته.

٧ . الهبوط الثالث إلى عالم الظلام :

هبط هيبل زيوا مرة ثالثة إلى عالم الظلام ورأى روها التي كانت تبكي وتبحث عن منفذ لها في بوابات الظلام دون جدوى محاولة الذهاب إلى أبويها بلا أمل ودون أن تحقق شيئاً. سألت روها نفسها : متى ألد أبني لكي ينقذني وأعتمد عليه؟ وكان هيبل قربها دون أن تدري. فسألها كم مضى على حملها فقالت ألفان من السنوات وأخبرها بأن عليها أن تنتظر سبعين روبان من السنين وأحد عشر يوماً حتى تلد. وأقنعها بأنه إذا غاب عنها فستكون في حالٍ أفضل فوافقته على ذلك.

٨ . الصعود الثالث إلى عالم النور :

صعد هيبل مرة ثالثة إلى آبائه في عالم النور فاحتضنه أبوه ووثب رداؤه أمامه ، فساعده المانا على الانتصاب وأوضحوا له أن والده عمل قداس صعود الأرواح (مسختا) لكي يصعد هو وأخويه وسألاه عن ما فعل هناك فقصّ لهم. ودعوه ليعود لأن روها ستلد قريباً.

٩ . الهبوط الرابع إلى عالم الظلام :

هبط هيبل زيوا للمرة الرابعة فوجد روها مضطربة وحزينة تنتظر الولادة وتلفّ ٣٦٠ قماطاً لكي تنقله من واحد لآخر إذا ولد. ثم تركها هيبل وأقام على مكانٍ ما عند الحدود وفكرّ بيوشامن وقال : «الآن تتحقق فكرة يوشامن الكبيرة وتصبح واقعاً. لقد خُلق هو وترعرعَ ناشئاً وأنجبَ بعد ذلك أبناءً ، ثم التزمت السكون ولم أنبس بحرف واحد»[٨٨]

وتعيدنا هذه الفقرة إلى النقاش ثانية ؛ إذ ما الذي يعنيه هيبل زيوا بقوله هذا؟ ولماذا خطر يوشامن وأبناءه في وقت ولادة أور؟ نعيد الكرّة ونقول أنه ربما توازت أو تماهت الحياة الثانية (يوشامن) مع روها باعتبارها الحياة الثانية لعالم الظلام وربما كان هناك توقيتٌ لولادتهن ، في الوقت نفسه ، ولذلك ظهر صدى هذه الحادثة هنا وهناك في العالمين المنير والمظلم معاً.. والسؤال الأخطر هو ماذا يمثل هيبل زيوا في عالم النور؟ وما هي علاقته بالحياة الثانية؟ هل هو الذكر وهي الأنثى كما هو مع روها عندما تقمص شخصية زوجها وحملت بأور؟

هذه أسئلة صعبة جداً لكنها واردة جداً وإلاّ ما معنى أن يقول هيبل زيوا (ثم التزمتُ

السكوت ولم أنبس بحرفٍ واحد) بعد أن راودته فكرة يوشامن، ألا يعني ذلك أن سرّاً خطيراً دفيناً مخبوءٌ في أعماقه وأعماق هذه النص المهم.

جاء روها الطلق وولدت أور سيد الظلمات فرآه هيبل زيوا وكان يشبه جمرة صغيرة وبعد مرور ألف عام رفعته روها من القماط الأول إلى الثاني وهكذا وكان يلبث في كل قماط ألف سنة وبعد القماط الأخير، انفصل عن الثوب الذي يغطي عورتها وسقط في الماء الأسود وبقي يتقلب ويتخبط فيه. ورأته روها بشعاً وصنع هيبل سبعة أسوار من ذهب وطوّق بها ذلك العالم ونطق أسماءً سرية ونعوتاً غريبة ومنها (هماميئل، هاثميئل، ناطرئيل، زارزئيل، باشرئيل، هالصيئيل) حتى لا يزحزح أحد تلك الأسوار من مكانها.

كان أور ما زال يتخبط في الماء الأسود مثل الدودة وكان طوله شبرٌ واحد وعرضه شبر واحد وصعد هيبل على الأسوار وراقب نمو أور (قوة الظلمات) وكبر كثيراً، فبادر هيبل وصنع أرضاً نحاسية تحت الماء الأسود وجعلها صلبة بسمك ٨٨٠ ألف ميل لكي تسند أور ولا تنخسف أرض الماء به، ثم مسحَ بيده على خاصرة أور لكي تضعف قوته فلا يبلغ حجمه أو ج الكمال لأنه إذا استمر بالنمو فسينفلق العالم برمته تحت وطأة قوته وضخامته، حينذاك غاص أور تحت الماء وارتطم جسمه بالأرض النحاسية وشقّها بطول ١٢ ميلاً وارتجّت جميع عوالم الظلام، فأخفى أور نفسه في ذلك الشق بسبب الخوف الذي اعتراه ثم خرج وطفا على سطح الماء الأسود ولام أمه لأنه ظنّ أنها مسحت خاصرته فأخبرته بأنها لم تفعل ذلك، فأراد أن يلتهمها غاضباً ثم سألها عن أبويها فدعته إلى الذهاب إليهما، ووضعت على رأسه التاج فبحثا عن بوابة الخروج ولم يعثروا عليها فازداد غضبه واقترحت هي أن تقرأ على الجدران الرقى السحرية لكي تذوب لكنها لم تذب. فطلب منها أور أن تخلق له رفيقاً فرفضت لأنها قالت له بأنها لا تبتغي سواه فلاطفها وقبلّها.

«ثم انبرت هي قائلة لابنها: الآن أريد أن أريكَ إحدى المرايا التي هي في حوزتي. فردَّ هو عليها قائلاً: أريني المرآة التي هي لديك. فأجابته هي قائلة: هذه هي خذها وانظر على أديمها فأنت الملك والبطل الباسل معاً. ما كادت تفرغ هي من كلامها حتى منحته المرآة فجعل هو ينظر إلى وجهه على سطحها. ثم راح ينظر إلى عوالم الظلمات حيث يوجد أبواه وبعد ذلك رأى

عوالم النور. بينما هو يمعن النظر أنحنى إنحناءً ملحوظاً فانكمش ولم يستطع أن يرفع قمته، بنيته تقوست وهو يقول لأمه: لماذا لم تعطني المرآة قبل هذا اليوم، لقد رأيت على أديمها وجهي. فأجابته أمه قائلة: يا بني! هذه المرآة والتاج —ابتداءًمن ذلك الوقت الذي أتيت أنا فيه وجلبني بطلي الباسل إلى هذا المكان الذي يقع في الأعالي وأنا لا أملك شيئاً ما عدا تاجك ومرآتكَ وهذه الجمرة، وقد قلت في ذات نفسي: عندما تأتي أنت إلى هذا العالم فسوف يكون كلّ شيء لك»[٨٩]

ثم سألته عن ما رآه في المرآة فأجابها بأنه رأى آباءه في عالم الظلام ورأى عالم النور وقارن بينهما فأخذت المرآة منه ونظرت فيها وأدركت أنه مقبلٌ على عمل شيء خطير فقالت له من الأفضل أن تركّز على عالم أجدادك ودعك من عالم النور ولا تشنّ حرباً ضده.

فجّرها أور من شعرها وضربها فصرخت وقال لها: إن ما ابتغيه هو محاربة النور وليس الظلام. ثم صرخ باتجاه الماء الأسود فهاج وماج وضرب الأسوار الفاصلة بين عالمي النور والظلام. عندها خاطبت الحياة هيبل زيوا وأمرته بأن يفعل شيئاً فذهب إلى أور ونزع تاجه ولفّه بسبعة أردية وسقط أور مختبئاً في الماء الأسود وحين خرج سأل عن الذي هاجمه فقالت له أمه: لماذا تركته يأخذ تاجك. فصرخ أور باكياً وقال لها لقد كسر عمودي الفقري. وتملكه الغضب مع أصحابه الديفي (الأرواح الشريرة) ولكنه عندما رأى هيبل زيوا وبهاءَه خارت قواه وانهزم يخوضُ في الماء الأسود ونادى أحد عمالقة الديفي لمواجهة هيبل زيوا لكنه خار هو الآخر فنصحته أمه بأن يزحزح الجدران بعد أن يضع اللؤلؤة على رأسه وحين فعل ذلك ظهر له هيبل زيوا وانتشل اللؤلؤة، فصرخَ هيبل وقالت له دعنا نبحث عن الجمرة التي في أعماقي ولكن حذار أن تسقط فيغلي الماء الأسود، فسقطت فغلى الماء الأسود وأتضح الشق الذي في الأرض النحاسية وقام هيبل زيوا بالاستيلاء على الجمرة فعرفت روها بأنها فقدت كل شيء (التاج والمرآة واللؤلؤة والجمرة) وهاج أور وهو يريد إعلان الحرب وانسكب الماء الأسود على الجدران وظهرت صدوع فيه وظهر رنين قوي انسحبت بسببه الأثري إلى السحب ولجأ (مار إد ربوثا) إلى ملاذه الخاص. عندئذٍ هبّ هيبل زيوا بقوى السرّ الكبير والحياة وأبيه وفتح البوابة وقبض على المركنة الطاهرة (عصا النور) فتقلصت عيني أور وطرحه هيبل أرضاً وقيّده بسلسلة جبارة وهزّ عظامه فبكت أمه

ثم رمى أربعة مناديل على وجهه وأوثقه بها وصنع منها أربعة أركان، عيّن على كلّ ركن أربعة حرّاس وكما يلي:

الغرب: عزازئيل، تاقفئيل، عزازيئل، مارغازئيل

الشرق: أورفئيل، مافئيل، تاقفئيل، هنانئيل

الشمال: كنفان، كافان، كبران، كوبان

الجنوب: هيلئيل، قربئيل، نورئيل، نوريائيل

١٠. **الصعود الرابع إلى عالم النور:**

صعد هيبل زيوا للمرة الرابعة إلى عالم النور (قبل أن تُخلق الحياة الثالثة -أواثر) فرحبت به الحياة وقبلته على نصره على أور، وأخبرته الحياة «أن يوشامن خلّف ثلاثة أبناء يحرس أحدهم عشّ ذويه والثاني يقطن عند أبيه في مأواه، أما الثالث منهم فهو (أواثر أو أباثر) الذي سيذهب قاصداً ذلك العالم الذي كنتَ أنت قد رأيته ووقفت عليه. حينما يرى هو وجهه على سطح الماء الأسود فسوف تُصاغ صورته وأبنه في الماء الأسود»[٩٠]

هذه إشارة أخرى على أن هيبل زيوا يقابل أو يناظر الحياة الثالثة (أباثر) لأنه سيكون أباً لبثاهيل الذي تنجبه زاهرئيل في عالم الظلام، بينما تُنجب الحياة الثالثة بثاهيل من النظر إلى سطح الماء الأسود والحقيقة أن بثاهيل كامن في الماء الأسود وليس على سطحه، وقد كانت ولادة أور هي ولادة بثاهيل في الوقت نفسه لأن الروها تناظر زاهرئيل.

وهنا نصل إلى نتيجة مفادها أن كائنات النور ومنها منداد إد هيي وهيبل زيوا هي التي حفّزت عالم الظلام الساكن الخامل اللامتميز على أن ينشط ويتميز وينجب وستكون من نتائجه خلق الأرض ثم الإنسان. وهذا يثبت أن الخلق، حتى وإن كان في عالم الظلام، يكون بأوامر وبأيدي كائنات عالم النور. نعود إلى نهاية أسطورة هبوط هيبل زيوا حيث يظهر أباثر ويفتح البوابة ويحملق في الماء الأسود حيث تظهر صورته ويظهر بثاهيل ويصد عالياً إلى مكان ما على الحدود أما أباثر فقد تفرس في وجهه وناداه قائلاً له: أنت الذي رأيته في الماء الأسود. فأخذه ونزع ثيابه الملونة واحتفظ بها وغطاه ببهائه ونوره الخاصين ولم يرد بثاهيل الصعود إلى عالم النور كي لا يرى ذويه وطلب منه أباثر أن يجلس في مكانه حتى تتلهف الحياة لرؤيته.

ويبدو أن خشية بثاهيل من الصعود إلى عالم النور كانت بسبب لونه وطبيعته الخلاسية فهو كائن نصف نوراني ونصف مظلم وسيجعله هذا نشازاً في عالم النور بل سيُخجله ويثير استغراب كائنات عالم النور.

حينها قال ياور هيبل لأباثر: كنْ فرحاً بابنكَ الذي خلقته أنت. إنه سوف يكون لكَ أنيساً وعوناً.

وتعكس هذه الجملة التوازي بين هيبل زيوا وأباثر والذي يضمر فكرة أن هيبل زيوا هو الذي صنع بثاهيل وهو إبنه لكن أباثر أخذ اللقطة الأخيرة عندما نظر إلى الماء الأسود وكأنه صاغ شكل وجهه فقط!!

لذلك يرد أباثر على هيبل زيوا بقوله (أجل، بقوتك كان الإبن بثاهيل قد خُلق ووهب لي) وهو غاية ما ذهبنا إليه من تحليل فبثاهيل ابن هيبل زيوا لكنه وِهبَ إلى أباثر (الحياة الثالثة).

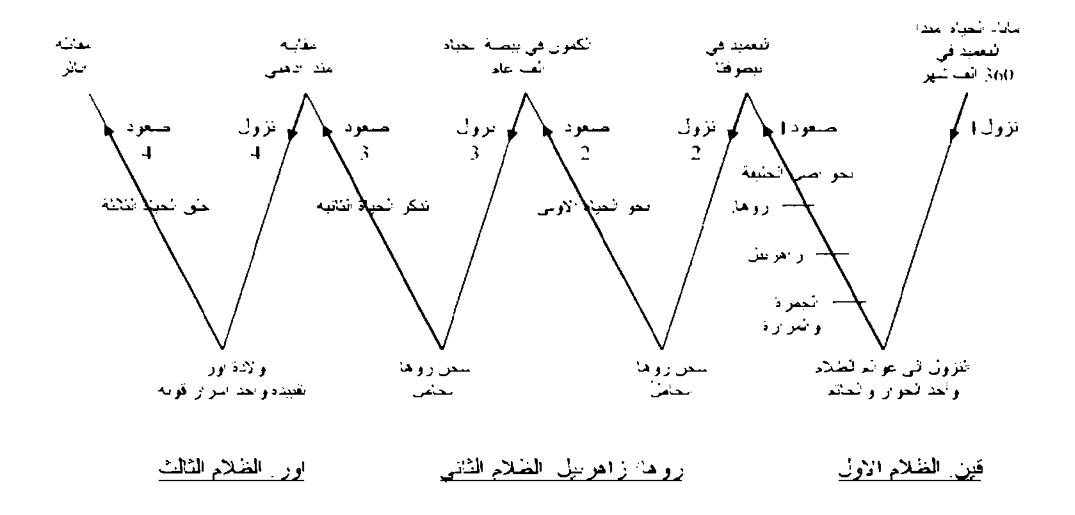
ونختم أسطورة النزول بما قاله هيبل لأباثر: «فكّر متمحصاً بما تترقبه (تأمله) من هذا العالم، كيف تكوّنت (تبلورت) فكرة خلقه؟ إحترس من أن ترتكب حماقةً وتعهد إلى بثاهيل في القيام بعمل لا يعي هو منه شيئاً»ولكنه لم يشأ أن يسمع ما تفوهتُ أنا به فمضيتُ صاعداً إلى الأعلى حيث يجلس آبائي»[٩١]

وفي نهاية هذا النص الذي هو الكتاب الخامس/ الجزء الأول يذكر كيف يخلق بثاهيل الأرض وظهور الكواكب ثم خلق الإنسان وهو ما سنبحثه في مكانه، لكن أسطورة النزول قد انتهت.

وقبل أن نختم الحديث عن هذه الأسطورة الكبرى في أساطير الخلق المندائية لا بد من الخروج بالنتائج الآتية:

١. تشكّل هذه الأسطورة ملحمة الخليقة المندائية الرئيسية بعد خليقة عالم النور التي تشكّلها ملحمة مندا إد هيي، ويشكل توازي الأسطورتين تناظراً آخر وتماهياً بين الأب والإبن.

٢. لو وضعنا مخططاً لعمليات النزول والصعود إلى عالم الظلام ومنه إلى عالم النور مع تثبيت الأحداث الرئيسية لخرجنا بنتيجةٍ تجعل من هذه الأسطورة ترسيماً رمزياً للخليقة كلها:



شكل/مخطط(٣١)

توضيح عمليات الهبوط والصعود الى ومن عالم الظلام التي قام بها هيبل زيوا وترميزها للخليقة

٣. شهد أول اختراق لهيبل زيوا لعالم الظلام معرفة عوالمه ثم معرفة أصوله وإقفال بواباته وإن عمليات نزول هيبل تضمنت اللقاء بثلاثة أجيال من أصول الظلام هي قين: أم الظلام وهي الجيل الأول وقد سرق منها الجمرة والمرارة ثم روها وزاهرئيل وقد سرق منهما أسرار الظلام وهما الجيل الثاني، ثم أور وهو الجيل الثالث الذي سرق منه المرآة والتارج والجمرة واللؤلؤة.

بالمقابل فقد شهدت عمليات صعود هيبل إلى عالم النور حالات مقابلة فقد تهيأ هيبل زيوا وشهد أكبر رموز عالم النور (مانا الأعظم، الحياة الكبرى. مندا إد هيي) وتعمّد في ٣٦٠ ألف نهر وحصل على عدته.

وكانت عمليات صعوده الأولى نحو أصل الخليقة النوريّة وهي (نيطوفتا) التي تعمّد فيها بعد أن اتصل بزاهرئيل وروها. ثم في الصعود الثاني لاقى الحياة الأولى وكمن في بيضتها ألف عام، وفي الصعود الثالث تذكّر الحياة الثانية (يوشامن) وقابل مندا إد هيي المتوازي معها، أما في الصعود الرابع فقد قابل الحياة الثالثة (أباثر) وشهد معه ولادة الحياة الرابعة (بثاهيل).

٤. هناك متوازيات نودّ التأكيد عليها وهي أن:

نواة عالم الظلام (تنّا) توازي نواة عالم النور (نيطوفتا)

قين (الظلام الأول) توازي الحياة الأولى

روها (الظلام الثاني) توازي الحياة الثانية التي توازي مندا إد هيي

أور (الظلام الثالث) يوازي الحياة الثالثة التي توازي هيبل زيوا

زاهرئيل (الظلام الرابع) يوازي الحياة الرابعة(بثاهيل)

إن هذه الترسيمات الميثولوجية الكامنة في أعماق اسطورة نزول هيبل إلى عالم الظلام تكشف لنا التوازيات والترادفات بين العوالم الثلاثة النور والظلام والأرض وهو ما وضعناه في خطتنا الأولى في صياغة الثيوغونيا المندائية.

ورغم أن المندائيين يعتبرون أن هناك تمايزاً مهولاً بين عالم النور وعالمي الظلام والأرض، وبين كائنات النور وكائنات الظلام والأرض (الإنسان) لكن أعماق عقائدهم تكتنز بفكرة (وحدة الوجود) التي وإن أنكروها ظاهرياً لكنها تختفي في بواطن أساطيرهم ومعتقداتهم وطقوسهم، وما دورة هيبل زيوا المركبة والمزدحمة بالرموز الدالة إلاّ دليل على هذا.

ـ شيتل أثرا :

الإبن الثاني لمندا إد هيي أو لآدم كاسيا (آدكاس) واسمه هو (إنان نصاب زيوا شيتل) وإذا أردنا العودة الحرفية لجذور اسمه فسنجد أن إنان أو إنانا هي إلهة الحب والجمال السومرية ومعناها (سحابة النور) في المندائية. أما (نصاب) فهي إلهة الحبوب والكتابة وأبوها هو (هايا) أو (خايا) إله الصوامع وهي أم (سود) وهي ننليل إلهة الهواء في الميثولوجيا السومرية، أما (زيوا) فهي الضوء أو البريق و(شيتل) هو الشتلةّ أو الغرسة. وهكذا يصبح اسم (شيتل) في هذا المزيج السومري المندائي هو غرسة الضوء وسحابة النور والكتابة. ولكن ما يؤسف له هو أننا لا نجد اهتماماً كبيراً بشيتل أُثرا في الأدب الديني المندائي، وهو الذي سيكون الأب الضوئي (الخفيّ) لشيتل بر آدم (شيتل بن آدم) الفائق الأهمية في الديانة المندائية.

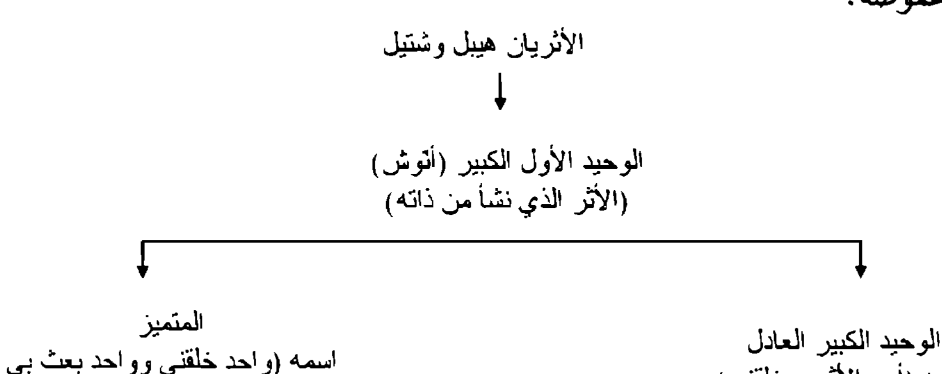
إن إنن نصاب يقابل شيتل أثرا ويوازيه وهذان يوازيان آدم بغرا في العالم الأرضي وربما يكون هذا هو معنى (آدم بن آدم) في بعض المرويات والأساطير المندائية، إن شيتل هو الذي يمثل آدم.

ـ أنّوش أُثرا :

خصّص كنزاربّا اليمين كتابه الحادي عشر وكتابه الثاني عشر (الجزء الأول) للأُثرا في عالم النور (أنوش الكبير) ابن مقام النور. ويصف النص خلق أنوش كما يلي :

«تبعاً لخطة كلا الأثريين ووفقاً للفكرة التي خامرت الإثنين في دخيلتهما خُلقَ الأُثرا الوحيد الأول الكبير الذي نشأ من ذاته. لقد سمّى هو نفسه : أنا هو الوحيد الكبير العادل الذي نشأ من ذاته. لقد بعث هو إلى الحياة وخلق أثرا حبيباً لكي يكون متميزاً عن نفسه وعن أبيه ، العادل الذي نشأ من ذاته لكي يطلعه على كلّ الأعمال التي تُخلقُ وتبتدع ويجري التعليم أمام أبيه. لقد أطلق هو على هذا الأثرا الحبيب الوحيد الكبير العادل اسم (أحد الأُثري خلقني) وعلى أثرا ثانٍ إبنه ، ذلكم الذي سمي بـ(المتميز) اسم (واحد خلقني وواحد بعث بي إلى الحياة) ومن ذينك الأثريين الإثنين ، إخواني ، اللذين هما الأبوان سمِّي أحدهما شارهبئيل زيوا شهلون ، النور الحسن الذين يسدي النصائح الممتازة إلى أخوانه ، أولئك الذين هم أكبر منه سناً ، وكذلك إخوانه ، أولئك الذين هم أصغر منه سناً ومن خلقوا سويةً. إن الثلاثة جميعهم خلقوا بثوب واحد وأتبحوا لذلك فألاً حسناً للأرواح الأخرى التي سوف ترى أنه صادق ويُعتمد عليه ولطيف وجيد. أما الآخر فيدعى راهزيئيل القوي الذي هو أصغر أخوانه. إن ثوبين اثنين أعدّا له ليُحفظ بهما ويُغطى بهما اتقاءً من الأشرار والفاسدين : إن آباء هؤلاء الذين صنعوا إياهم من أجلي ثم بعثوا بهما لهم»[٩٢]

إن هذا النص الثيوغوني المركب والغامض والذي تلتبس فيه الأسماء وتتداخل ويصبح فيه الآباء أخواناً للأبناء وبالعمر ذاته يضعنا في تخمينات كثيرة ولكننا حاولنا ترتيب المخطط الآتي لفك غموضه :



شكل (٣٢)

مخطط شكلي أنوش

إن من طبيعة خلق الأثري تداخل أسمائها وانبثاقها من بعضها وتكوين اسماء سرية لها، فأنوش مثلاً يظهر هنا بإسمين سريين هما (شارهبئل زيوا شهلون) عنما يكون الوحيد الكبير العادل، و(راهزئيل) عندما يكون متميزاً بين الأثري.

يروي هذا النص نمو وتطور أبناء مندا إد هيي الثلاثة (هيبل زيوا، شيتل أثرا، أنوش أثرا) حيث يطالب من هيبل زيوا (يسميه زهير سمير زيوا) بأن يموّن إخوانه بالطعام والأغطية لأنهم سيذهبون إلى خارج الحياة يؤدون رسالتهم الإلهية.

«الكبير الأول الذي نشأ من نفسه وتكلم قائلاً: هذه الأثري الثلاثة على وشك أن تذهب بغية أن تأسس سلالات وتنشر اسم الحياة وتبسط بهاء الحياة على ذلك العالم الذي ابتدع فيه المرؤ الظلمات والموت. لا تعف أبداً ولم تعرف من قبل كلّ المخلوقات التي سوف تكون حاضرة هناك كلا الأثريين اللين يخططان أن يخلقا أحد العوالم مع مندا إد هيي. لقد وضّحتُ أنا مع الأثري، إخواني، الذين هم أبنائي بأن الأثري الثلاثة التي قُدِّر عليها أن ترحل إلى هناك ودعيت إلى هناك لكي تخلق نوراً في الظلام بحيث تنهض الحياة من العفاء والموت وتحمل أرواح المختارين إلى الخارج اولئك الذين كتب عليهم أن يقصدوا دار الحياة طمعاً بها، هؤلاء الأثي الثلاثة ذهبت من هنا إلى ذلك العالم سوف تنال فيه مكاناً ثابتاً وسوف تحظى بالمعاشرة مع دار الحياة، إنها سوف تحصل على محل ثابت في شكينة الحياة»[٩٣]

أن هذا المقطع بالذات يوضح لنا قضية في غاية الأهمية وهي أن هناك خطّان متوازيان نزلا من الحياة الأولى إلى عالم الظلام لبث الحياة فيه وغمره بالنور أولهما برضا ومباركة الحياة قامت بها سلالة مندا إد هيي (هو وأولاده الثلاثة) لكي تنشر اسم الحياة وتبسط بهاء الحياة على ذلك العالم. أما الخط الثاني فهو الخط المتمرد الذي ذهب عنوةً ودون استشارة الحياة الأولى ورضاها وهو الذي قام به سلالة الحياة الثانية والثالثة والرابعة (يوشامن وأباثر ويثاهيل) ولم يكن في نية هؤلاء خلق سلالة متصلة بالحياة الأولى لأنهم متمردون وقد بحثنا أمرهم طويلاً.

في هذا النصّ هناك شرحٌ للمحاولة الأولى التي قامت بها سلالة مندا إد هيي وفيها صورة مشوّقة لما جرى بالتوازي مع ما فعلته الحياة الثانية.

تكلم مندا إد هيي إلى أبنائه وإلى جميع المخلوقات التي ستخلق وحذّرهم من أن أرواحهم

ستألف الظلام ولكن عليهم أن يحذروا ويلبوا نداء الحياة ويصعدوا إلى عالم النور حتى الأرواح (نيشماثا) التي شلّتها روها وأور عليها أن تتراجع عن خطئها وتعود إلى الأعالي. إلى الحياة أصلها. الأرواح المخطئة ستزول ومعها جميع الآلهة وأعوانها ستزول وتفنى. ثم يخطب مندا إد هيي أبناءه الثلاثة :

«لقد أنعمتُ عليكم ببركتي كما ينعمُ الآباء على الأبناء، إذهبوا إلى ذلك العالم وتقاضوا هناك وطهّروا الأرواح (نيشماثا) التي تنقل من هنا إلى هناك. لقد جيئ بها إلى ذلك العالم، عالم الظلمات الذي يسود فيه الموت، طهرّوا واخرجوا أولئك الذين ينادون ويتوقون بأن يصغوا إلى نداء الحياة، أن يوثّقوا من قبل مندا إد هيي وأن يصغوا لأقوالكم وأن يخروا ببهاء مندا إد هيي ونوره وأن يعززوا في دار الحياة، لكم أنتم، أيها الأثري الثلاثة يحكم هيبل، أخوكم الأكبر، ويقضي بالحق في ذلك العالم، إذ أن الإبن الأكبر كالأب في منزلته، إنه سيكون الرئيس وسيكون الحاكم على حكام هذا العالم»[٩٤]

لكنّ الكواكب تقف بالمرصاد لهم وتحاول التقرب من هيبل وجعله سيداً عليهم وتقدّم القرابين له لتعبده من أجل أن تنفّذ خطتها في هزيمته مع إخوته، فيحذر هيبل أخوته ويذهب إلى مجتمع الأشرار فيقدّمون له التاج ليكون مليكهم لكنه يرفض. فتحاول روها أن تدبّر خطة سرية ضده وتدعوه إلى مجلسها فتسمع صوته وغناءه العذب فتتعجب ويتركها خجلةً فتجتمع مع أعوانها وتقول كيف نقضي على هذه السلالة فيقترحون عليها أن تُباد بالسيف والنار والماء وبعد ذلك تقوم الروها بأخذ الخميرة التي يحتفظون بها في (دار كنز) عالم الظلام لإنشاء سلالة تابعة لعالم الظلام، وهكذ ترفع روها السيف وتشهره ضد هيبل وشيتل وأنوش.

ولنلاحظ أن كل هذا يجري قبل خلق الأرض وآدم وسلالته. إن ما يجري هو بعد الهبوط المسالم لأبناء مندا إد هيي الذين ينشرون الحياة وينقذوا أرواح النور الغاطسة في عالم الظلام.

أرسلت الحياة مندا إد هيي يحملُ بهاءً وحرارة أزلية ونوراً من بيت الحياة وألبسها لهيبل قبل إشهار السيف وهكذا صعدت الأرواح المؤمنة مع هيبل دون أن تدري الكواكب وحين مغثَ السيف في العالم قال مندا إد هيي لشيتل لا تفارق (إبنك) أنوش الذي هو (أخوك) الصغير وإذا احتجتماني سأكون معكما! وحين رأت روها أن السيف لم ينفع مع هؤلاء «أخذت الكواكب من

خميرة العالم الموجودة في (دار كنز) ومحفوظة عندها. من أبناء رام ورود وهما كلاهما من أبناء وجب على الخليقة أن تنشأ وتتكاثر إن هؤلاء الرجال يقفون وكلهم بهاء في هذا العالم، هنا على حين لا تتمكن أن تفعل شيئاً ضدهم. بعد ذلك أخذت هي من كل صنف اثنين من هذا العالم»[٩٥]

وهنا انحدر كاتب النصّ إلى تكرار أسطورة نشوء البشرية الثانية وكُشف أمره حين ذكر (آدم) في حين كان المفروض أن يكون النص جارياً قبل خلق آدم ولكن هذا التماهي بين آدم ومندا إد هيي يذكرّنا بالفكرة المركزية في المثولوجيا المندائية وهي (تحولات مانا إلى منداد إد هيي وآدم كاسيا وآدم..إلخ)

إن هذا النصّ بقدر ما يؤكد فكرة المونك والجينك المثولوجية التي تقضي بأن كل ما حصل في العالم هو صورة عن ما حصل في السماء (وهنا عالم النور) وهي فكرة بدائية تعتمد على الاركيتايب، لكن كاتب النصّ هنا وصل إلى حدٍّ لم يستطع فيه التوفيق بين ما حصل في الماضي (قبل نشوء الأرض) وبين ما حصل في الأرض لاحقاً. وسينحدر النصّ من الآن فصاعداً في أحداث نعرفها حول البشرية الثانية والثالثة والرابعة في حين أن من المفروض المضيّ في أحداث ما حصل في عالم الظلام قبل خلق الأرض والبشر ومعرفة ما جرى لأبناء مندا إد هيي الثلاثة.

روها وإيل الكبير (المسؤول عن الشمس) يغضبان ويكلمان الملاك (دانيال) ليلقي الحريق في هذا العالم بأسره فربما يقضون عليه بأكمله، وحين فعل ذلك جاء مندا إد هيي فلم تستطع النار أن تلحق بالرجال الثلاثة شيئاً (وهنا نسي كاتب النص أن هيبل صعد إلى الأعلى وبقي إثنان)، ولا تستطيع الروها أن تفعل شيئاً ويقوم ملائكة الحقد والغضب بالكلام إلى آلهتهم (هكذا يقول النص) بأن هؤلاء الرجال يقفون في هذا العالم بكل بهائهم دون أن يصيبهم شيء، فتأخذ هي من خميرة العالم في دار كنزها واسمهما(شورباي وشارهبيئيل) وهكذا كانا من سلالة آدم ووجب على الخليقة أن تتكاثر.

والحقيقة أننا لا نعرف الآلية التي يتم بها صنع سلالة جديدة أصلها من سلالة آدم بالأخذ من خميرة العالم في دار كنز الظلام والروها. هذه المسألة المبهمة الغامضة لا يوضحها النص ولا نعرف كيف تحصل. ولكن ربما تكون خميرة الظلام هي الجسد وتؤخذ الروح من سلالة آدم.. ربما! وربما تؤخذ الروح من راعي العصر النوراني وهو مانرجحه لأن آخر روح نوراني ستؤخذ

من أنوش راعي العصر الثالث ويصنه منها روح نوح وانهوريتا وهما البشريان على رأس العصر الرابع والأخير.

ثم يأخذ مندا إد هيي شيتل إلى دار الحياة ويبقى أنوش وحيداً في رداء أخوته محفوظاً من شرّ عالم الظلام. ولكن قوى الظلام تتآمر ضد أنوش والحصول على ثوبه فيتطلع أنوش إلى والده مندا إأد هيي ليأخذه من هذا العالم.

«إنني أنوش الصغير، كنتُ أعواماً عديدة هناك حيث كان أخواني أيضاً، لقد فقتهم أنا جميعهم نشاطاً هنا ومع إني جئت بعدهم إلى هذا العالم غير أنني لست مثلهم، إن الأشرار يدبرون المكيدة ضدي وضدّ ثوبي الذي أقف أنا فيه، إنه يقيني من السوء، من سوء الأشرار الذين يبغضون نداء الحياة. ترى من ينبغي له أن يطلق نداء الحياة في هذا العالم؟»[96]

ثم يقفز النص فجأة إلى نوح (وكأنه يهرب من توضيح سر أخذ الروح اليه) والأمر إليه بأن يصنع سفينةً، ويظهر أنوش كرئيس للرجال الثلاثة (المقصود هيبل وشيتل وأنوش) وهذا جزءٌ من ارتباكات النصّ ويأتي مندا إد هيي لينقذه وهو على غيمة نور ويكشف له عن أسرار عالم الظلام البشعة ثم يقول له:

«أما بعد، أنوش الصغير، إذاً لقد رأيت أنت كيف إني فتحت إليك سرّ شياطين هذا العالم. أولئك الذين ما كدت أنت قد أبصرتهم حتى داهمك الخوف منهم، لقد ارتجفت أنت منهم وارتعدت. إني فتحت عليك سرّ السماء والأرض وبحت لك عن سرّ كل شيء مما كان قد تمّ إنجازه وفعله وما كان قد وجد في هذا العالم، وقد احطتك علماً بها، لقد منحتك بهاءً ونوراً اللذين هما لديك في هذا الرداء الأول الذي أعير لك من دار الحياة وهو الآن محفوظ عندك. ذلك الرداء الذي يشنّ الأشرار الحربَ بغية الحصول عليه دون أن يتم لهم أن يوفقوا إلى ذلك. أنظر، لقد أضفتُ لكَ بهاءً على البهاء، وأزدت لك نوراً إلى النور. إن هذين الإثنين هما عندك على هيئة هاتيك الرجلين الاثنين، أخويك اللذين كانا قد رحلا من لدنك فقصدا دار الحياة ذاهبين»[97]

ولنتأمل في العبارة الأخيرة فنحلّ لغزّ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا موجودين في العصور الثلاثة رغم ارتفاع واحدٍ أو اثنين منهم في كلّ عصر، إن كاتب النصّ أوجدَ حلاً خاصاً وهو أن هناك رجلاً يحلّ محل كل من ارتفع من أبناء مندا إد هيي وهذا الرجل يكون على هيئة (شكل) الذي

ارتفع، فهناك إذن رجلان قد حلاّ محل هيبل وشيتل يشبهانهما ويسكنان مع أنوش، ويبدو أن ذلك للتمويه على الأشرار لكي لا ينفردوا بمن تبقى.. وهو ما يفسر الهلع والخوف الذين استبد بأنوش عندما بقي لوحده.

ولأن مندا إد هيي كشف لأنوش، دون غيره من إخوته، أسرار السماء والأرض لذلك سيكون أنوش حكيماً وهو الذي سيختزن معرفته هذه ويعطيها لأنوش البشري الذي يعلم الإنسان أول العلوم والفنون والأسرار، ونرى أن إنوش سيكون موازياً لـ(أنوخ) أو (أخنوخ) وهو (هرمس) أو (إدريس في الإسلام) الذي عرف بحكمته وبأنه أول من صعد إلى السماء.

يقول مندا إد هيي لإنوش «انظر، لقد أضفتُ لكَ القوة ووفرت عندكَ الحكمة إلى الحكمة وأكثرت لديك من الإنارة والمعرفة، انظر لقد أكرمتُ عليكَ بكل هذا لكي يكون في استطاعتك أن تحاجج معهم وأن يُصغى إليك»[٩٨]

ثم يصعد مندا إد هيي ولكن الكواكب والأشرار يتآمرون على هؤلاء (الثلاثة) الذين لم ينفع معهم السيف والحريق والفيضان، ويبقى وعد مندا إد هيي بالعودة إلى عالم الظلام ورفع أنوش إلى عالم النور.



إن هذه الأسطورة المينوكية التي تعطي صورة نورانية مثالية لأبناء مندا إد هيي الثلاثة (هيبل وشيتل وأنوش) وهم ينزلون معاً إلى عالم الظلام لكي ينشروا اسم الحياة وينقذون الأرواح (نشماثا) من ذلك العالم ويصنعوا مساكن للنور ترتبط بالعالم النوراني الأعلى وهم ثلاثة مؤمنون بموازاة ثلاثة عاقّين متمردين هم (يوشامن وأباثر وبثاهيل) الذين أنبجتهم الحياة الأولى فأرادوا صنع سلالة منقطعة عن الحياة وعن عالم النور. هذا التناظر يعطي أهمية فائقة لأسطورة خلق ونزول الأثري الثلاثة الأتقياء أبناء مندا إذ هيي.

إن الحلقة المفقودة، من وجهة نظرنا، هي كيفية تحوّل هؤلاء الأربعة (مندا إد هيي) وهيبل زيوا وشيتل أثرا وأنوش أثرا) إلى (آدم كاسيا وهيبل وإنن نصاب شيتل وبارهيي أنوش) على التوالي لأن الأربعة الأوائل يشكلون نصف دائرة الحياة فيما يشكل الأربعة الثواني نصف دائرة

الخفاء التي ستهبطُ على الأجساد البشرية الأولى وتحلّ فيها لينتج بذلك مزيجٌ من عالمي النور والظلام يسكن الأرض الخلاسية التي هي الأخرى خليط منهما رغم أنها تقع تحت سيطرة عالم الظلام.

ليس هناك في الكنزا ربا ما يوضح كيفية حصول التحوّل من دائرة الحياة إلى دائرة الخفاء ولكننا نعتقد بوجود ذلك في الكتب الدينية الأخرى.

إن الأساطير الأصيلة لهيبل وشيتل وأنوش في المثولوجيا المندائية هي أساس كل الأساطير الغنوصية واليهودية حول هذه السلالة النورية والآدمية. فلا يمكننا بأي حالٍ من الأحوال المقارنة بين الشخصية الخصبة والمكتنزة لهيبل (وهيبل زيوا) في المندائية وشخصية هابيل العبرية المبتسرة والتي راحت ضحية جريمة (قابيل) (قايين) الذي لا ذكر له مطلقاً في المثولوجية المندائية إلاّ إذا اعتبرناه شخصية متحولة سكنت في عالم الظلام وتحولت إلى الجدّة العجوز لهذا العالم ونعني (قين) وهذا جائز، لأن المندائيين يحتقرون القاتل والمجرم ولذلك أودعوا بقابيل إلى قاع الظلام أو بالعكس أن العبرانيين هم الذين رفعوها من عالم الظلام المندائي وحوّلوها ذكراً قاتلاً لابن رأس السلالة آدم وأسموه (قاين) وهذا هو الأرجح عندنا.

كذلك لا يمكن مقارنة شيتل غرسة الضوء بـ(شيت) المذكور في التوراة والذي ربما امتدت جذوره إلى سيت إله الظلام والصحراء الفرعوني. إن شيتل أثرا أو شيت بن آدم لاحقاً يشكل النموذج الأول للفداء والتضحية عند المندائيين من خلال افتدائه لآدم وقبوله بأن يرفع عوضاً عنه. فيما تبدو الصورة العبرانية لـ(شيت) شاحبةً.

أما (أنوش) (**Enosh**أو**Anosh**) الذين يصفه الكتاب الثاني عشر من الكنزا ربا بأنه إبن مقام النور بن الأوراق التي كلها معرفة فهو النموذج العظيم للحكمة وسيكون أول من يعلم البشر فنون الحضارة. وقد تحول أنوش بفضل المندائيين إلى هذه المكانة التي دارت حولها الأساطير وهي، من وجهة نظرنا، أصل الصورة التي رسمها (سفر أخنوخ) في توراة ما بين العهدين من مخطوطات البحر الميت التي كتبها الأسينيون.

إن المعنى الحرفي لمعنى (أنوش) في المندائية هو (إنسان) وهو كذلك باللغة الأكدية. وعند تقريب الكلمة في اللغة العبرية تصبح (أنس) فهو الأنس أي الإنسان، ويقابل هذه الشخصية في

التراث العربي الإسلامي (أدريس) الذي يسمى بهذا الاسم لكثرة دراسته ولاكتشافه الخط، حيث كلمة (درس) تدل على ذلك، كما تدل على كونه درس الحبوب واكتشف الزراعة وعلّم الخياط والفلك والعلوم. رغم إننا نرى أن كلمة أدريس هو تصحيف عربي لإسم الإله المصري القديم (أوزريس) الذي اشتهر بحكمته أيضاً.

ويجسد (أنوش أثرا) القانون الإلهي في الإنسان، ويعتبر هو أول كاهن فهو من يعلّم مهنة الكهانة (ناصروثا) أو (الناصورائية). وهو الذي علمّم الإنسان الأبجدية (آ ـ با ـ كا ـ دا).

ويتطابق (أنوش) مع الملك السومري (اين ـ مي ـ در ـ أن ـ كي) قبل الطوفان والذي ينتسب له كهنة البارو السومريون، ومثل ذلك يعدّ المندائيون أنوش الكاهن الأول.

ونودّ أن نثبت رأياً جديداً في اشتقاق اسم أنوش حيث أن أصله سومري قديم هو (إنكي) إله الماء والحكمة والإلهة الخالق للإنسان وهو يقابل (إيا) البابلي والناصورائي. لقد تحوّرت حروف إنكي وصارت إنك (إنخ) ثم صارت إنش والحقيقة أن هذا الاستنتاج يجد مكانه في السلالة المندائية فهو الإنسان الحكيم. وإذا كانت الخليقة قد بدأت بالحيّ(إيا) فانها انتهت به أيضاً من خلال (إنوش) الذي هو (إنكي) الذي هو الاسم السومري لـ(إيا).

ـ النسق المتوازي في رحلات الهبوط إلى العالم الأسفل:

هناك، في التراث الروحي المندائي، ثلاث رحلات كبرى من عالم النور إلى العالم الأسفل (الظلام والأرض) قبل خلق الإنسان، وهناك ثلاث رحلات صغرى من عالم النور إلى العالم الأسفل، وتشكّل هذه الرحلات نسقاً خفياً يساهم في تماسك الخليقة الكونية والبشرية.

١ . الرحلات السلالية الكبرى:

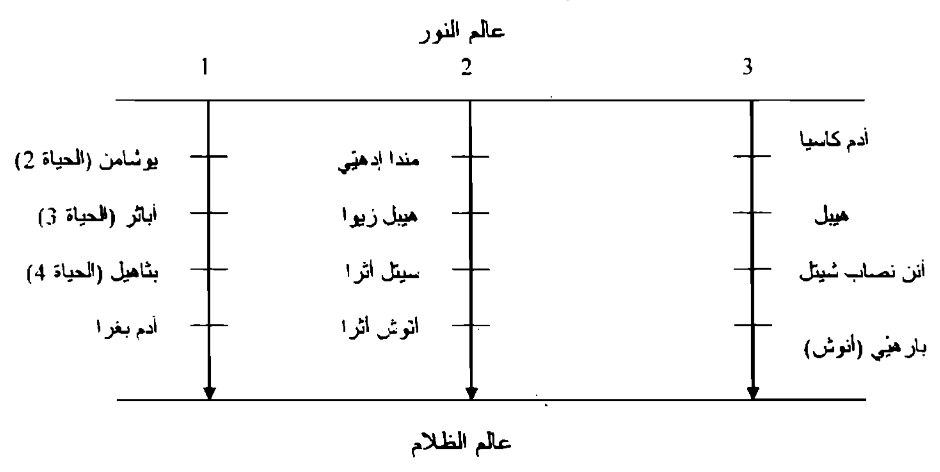
لو تفحصنا الأساطير السابقة لوجدنا أن هناك ثلاث رحلات سلالية قامت بها ثلاث سلالات من عالم النور باتجاه عالمي الأرض والظلام وهي كما يلي:

أ. الرحلة الضّالة لسلالة الحياة الثانية والثالثة والرابعة (يوشامن وأباثر وبثاهيل) باتجاه عالم الظلام.

ب. الرحلة الرشيدة لسلالة مندا إد هيي وأولاده ـ أخوته ـ هيبل زيوا وشيتل أثرا وأنوش أثرا.

ج. الرحلة الرشيدة لسلالة آدم كاسيا وأولاده هيبل وأنن نصاب شيتل وبارهيي أنوش.

وقد عرفنا أن هناك نسقاً داخلياً في هذه الرحلات وبيئتها يوضحه هذا الشكل:



شكل (٣٣)

نسق الرحلات السلالية الكبرى

أطلقت الحياة الكبرى (الأولى) هذه الرحلات الثلاث لتُبقي أرجحية الخير والنور على التمرد والظلام فقد كانت سلالة الحياة الثانية ضالة متمردة قابلتها رحلتان رشيدتان كانت الأولى لسلب الظلام قوته وإحلال النور يه والثانية مخصصة لنزول (مانا) من خلال الروح في جسد آدم.

وقد واصل أنوش أثرا هبوطه إلى الأرض خمس مرات لينفذّ مهمة ما فالأولى كانت ليأخذ روح يحيى والثانية لينجز المعجزات في أورشليم والثالثة ليدمر أورشليم بعد أن اضطهد اليهود الناصورائيين والرابعة ليدل الناصورائيين على حران كوثيا والخامسة ليدمر بابل، وكل هذه الرحلات حصلت في البشرية الرابعة.

٢ . الرحلات الفردية الصغرى:

بعد خلق الإنسان ظهرت ثلاث رحلات صغرى لإصلاح بعض الأخطاء قام بها كلّ من:

١. سام زيوا

٢. يو خابر كوشطا

٣. هيبل زيوا لرفع (يوشامن وأباثر وبثاهيل) إلى عالم النور قبل فناء الأرض

وهناك هجومان على الأرض قام بهما مندا إد هيي وابن نباط ربّا بعد زيادة الشرور على الأرض وتوضح لنا جميع هذه الرحلات حدّة الصراع بين عالمي النور والظلام على الأرض بصفةٍ خاصة.

ثانياً : كوزموغونيا عالم الظلام Almi d hshukha Cosmogong

نشأ عالم الظلام من (تنّا) التي هي مرجل دخاني كوني ضخم له علاقة خلقية بعالم النور أولاً ، وتعتبر أسبقية النور على الظلام في الدين المندائي ميزة خاصة به تُبعده عن الأديان والمعتقدات الثنوية الفارسية التي ترى أن النور والظلام قديمان ومتكافئان وأزليان. وإذا كان عالم النور واقعاً في أقصى الشمال فإن عالم الظلام يقع في أقصى الجنوب وهو بمثابة العالم الأسفل الموجود في الأديان الأخرى لكنه لا يناظر تماماً ما أعتدنا إطلاق تسمية (الجحيم) عليه.

ويوصف عالم الظلام بأنه بحر السوف الكبير والظلام الصافر والماء الآكل العكر، والموضع المملوء بالسحرة وفيه تتكلم بصوت جهير والموضع الذي تستعر به الحرارة الآكلة وهو المكان الذين لا قرار فيه وليس له برٌّ ولا يجري فيه ماءٌ حيٌّ وليس فيه أثر من بهاء.[٩٩]

ويوصف ساكنو عالم الظلام بأنهم آلاف من الأجناس الشريرة وبلا حدّ وملايين من الذرية القبيحة بلا عدد، من الشياطين والعفاريت والجن والأرواح والجنيات والأصنام ومصّاصّي الدماء والأبالسة وكل ما هو قبيح الهيئة في عالم الظلام من كل نوع وجنس ذكوراً وإناثاً، وصفاتهم معتمة سوداء غبيّة متمردة غاضبة سامة حمقاء كسولة قذرة نتنة ومن بينهم الأصم والأخرس..إلخ[١٠٠]

١ . كوزموغونيا أصول وعوالم الظلام :

سبق وأن تعرفنا من أسطورة نزول (هيبل زيوا) إلى عالم الظلام عن أصول هذا العالم عندما قام هيبل زيوا باستدراج (قين) وهي أم الظلام الأولى فأخبرته بأنهم خلقوا من (تنّا) وهي (دخان الظلام) ومن (نصبتا) (أغراس الظلام) وساخا (عمق الماء الأسود) التي ظهر فيها الماء الأسود من عين لا قرار لها تحتوي على مرآة ينظر فيها الأشرار وجوههم (ربما ليخلقوا عن طريق النظر في

مرآة الظلام هذه!) وفيها المرارة والجمرة اللتان انتزعهما هيبل زيوا لاحقاً ليجرد الأشرار من أسرارهم ثم تكونت أرض الظلام التي ظهرت فيها سبعة أنهار مظلمة (يردان) وأكبر وأهم هذه الأنهار هو نهر سينياويس الذي هو بمثابة يردنا عالم الظلام ولنلاحظ الآن أن هناك ثلاثة أنهار ذات طبيعة اشتقاقية واحدة هي:

١. برياويس: وهو نهر النور الحي (في دائرة النور) الذي نرى أن اشتقاقه جاء من كلمات رافدينية قديمة وهي (بار ـ أوش) وهي بمعنى (ابن الضوء) أو (ضوء الشمس) ولكنه تحوّل في المندائية إلى (برياو) بمعنى الماء الخصب وهو نهر الفرات(براتو). وقد وضع عليه الأثريان أداثان ويداثان كحارسين.ويمثل نهر الحياة الأعلى

٢. سندرياويس: وهو نهر الحياة الحي، ولا نعلم على وجه الدقة المعنى القديم لمقطع (سندر) الذي نرى أنه يشترك في تكوين كلمة نخلة (سندركا) وقد وضع عليه الأثريان شلمي وندبي.ويمثل نهر الحياة الأسفل.

٣. سينياويس: وهو نهر الظلام (في دائرة أصول الظلام) واشتقاقه من (سين ـ أوش) بمعنى (ضوء القمر)، ومعروف أن القمر هو أحد كائنات الظلام وهو مرتبط بالأمراض والتشوهات.

وقد خرجت (قين) من سينياويس ومن مائه الأسود الذي هو ماءٌ عكر غير جارٍ وأنجبت (قين) دائرة عوالم وملوك الظلاك المكونين من أربعة أزواج مؤنثة وثلاثة ذكرية مفردة.

فمن مضاجعة كاف لقين ظهرت العوالم السبعة لعالم الظلام، ثم ظهرت أبنتها روها ثم حفيدها أور (ومنهما العوالم السبعة للظلام) التي ذكرناها في ثيوغونيا الظلام ومرّت بنا في أسطورة نزول هيبل زيوا.

أما روها التي تحمل عدة ألقاب وأسماء منها:

١. هيواث: وهو مشتق من حيوان الآرامية (حيوا، حيوتا)

٢. حيفاذ أو ايفاذ: وهو مصحّفٌ من هيواث

٣. نمروس: وهو مصحّفٌ من نمرود

٤. طليفات.

٥. عشتروت: وهي عشتار إلهة الحب والجمال البابلية وها اسم كنعاني متأخر لها

٦ عماميت: وهي ملكة العالم الأول من الظلام واسمها يدلّ على كوكب الزهرة ومشتق من أنانيت)

٧. أرحم

٨. نمروز زينا

٩. قانانيت: مشتق من أنانيت

١٠. دايوم

أما اسم روها ومعه اسم أور فنعتقد أنه مشتق من كلمة (هور) التي تدل على مسطحات المياه الكثيرة المنتشرة في جنوب وادي الرافدين فإذا خففّنا حرف الهاء فيها وحوّلناه إلى (آ) فأنه سيتحول إلى (أور) وهو ثعبان الظلام الأكبر ابن روها، أما إذا قرأناه بصورة معكوسة فسينتج كلمة (روه) وهو لفظ قريب إلى (روها)، ونحنُ نرى ذلك لأن عالم الأهوار كان يشكّل لساكنيه عالماً مظلماً غامضاً غريباً. ثم أنه مكان للمياه الآسنة السوداء وتسوده الحيوانات الغريبة الغامضة. وقد كنّا في حيرة من أمرنا عندما كنا نسمع من أهالي الأهوار في جنوب العراق بأن في الهور كنزاً مدفوناً في مكان مجهول يسمى (حفيظ) ثم أدركنا أن هذا الكنز هو عيون النفط التي تنبّع داخل أهوار العمارة بعفوية. وجذبتنا كلمة (حفيظ) لكي نقارنها بكلمة (حيفاذ) لقب روها المندائي ونجد أنها من أصل واحد ولذلك نرى أن الهور هو روها وأن عيون البترول فيه هي أور التي تتشكل مثل الأفعي الداكنة الضخمة داخل مياه الهور.

إن المكان الذي نتحدث عنه هو قريب من المكان القديم للمندائيين الذي ألهب خيالهم وجعلهم يتصورون أن عالم الظلام الي يشكله الهور هو الذي يقع في أقصى الجنوب أما عالم النور فهو عند النجم القطبي الشمالي الذي رسم أحلامهم المذهلة عن كائنات النور وأساطيرها الخصبة. ولم يلفت انتباههم البحر(لأنهم بعيدين عنه) لكي يكون مرادفاً لتيامت عند البابليين لأن الهور كان هو الأقرب لهم فكان رديفاً لـ(روها) التي هي الإلهة الأم المغضوب عليها مثل تيامت، ولذلك سكنوا عند ضفاف الأنهار وأداروا ظهرهم للأهوار وابتعدوا عنها واعتبروها موطن الظلام.

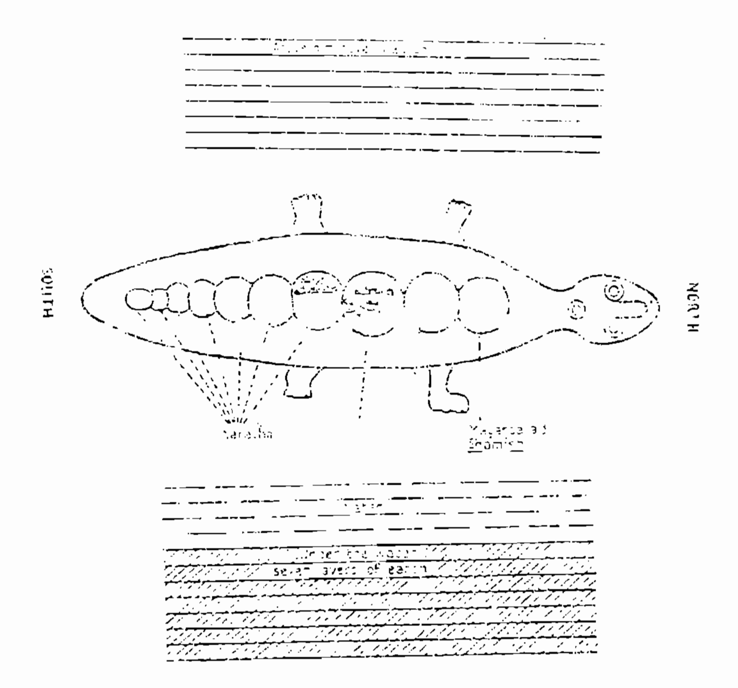
لقد عرفنا بصورة مفصلة أسطورة أور وروها من خلال أسطورة نزول مندا إد هيي وهيبل زيوا ونزولهما إلى عالم الظلام وكيف استطاعا التغلب على أور وتقييده وكيف استطاع هيبل

زيوا تضليل روها ونفيها وسجنها.

يلقّب أور بمجموعة من الأسماء والألقاب مثل (المارد، العملاق، الثعبان، التنين، الدودة، الأسد، المحارب الأحمق، الشرير (بيشا)، المفسد (همبالا)، رئيس العهد أو الجيل (ريش دارا).. إلخ.

أما الكتاب الثاني عشر (الجزء السادس) من كنزا ربّا اليمين فيعطينا وصفاً دقيقاً لأور ولحياته في عالم الظلام.

«من الماء الأسود صار ونشأ ملك الظلام انسجاماً مع ما جُبل هو عليه من طبيعة شريرة ثم أصبحَ كبيراً ذا بطش وقوة وأخرج ونشر ألوفاً مؤلفةً من الأسر الشريرة بدون حصر وربوان ربوان من المخلوقات البغيضة بلا عدد. إن الظلمات غدت كبيرة وواسعة بسبب العفاريت والأرواح الشريرة (الديفي) والجنّ والأشباح والهمورثا والليليثا وشياطين المعابد والزوايا والأصنام والموظفين الكبار والملائكة ومصاصي الدماء وأرواح الغابات البذيئة والمخلوقات التي تجلب الشؤم والنحس..إلخ»(١٠١)



شكل (٣٤)

رسم لـ(أور) من قبل الصائغ هرمز بر أنهر سليل العائلة الكهنوتية ويتضح أور وكأنه فوق المياه وفي جسده من الشمال (الرأس) مطهر شامش، مشوني كوشطا، عالم مندائي، المطاهر السبعة. وتحت المياه التي هو عليها تظهر الطبقات السبعة للأرض أما فوقه فتظهر الطبقات السبع للسماوات

المرجع، Drower,n, Mandaeans, p.249

ويصف هذا الكتاب ملك الظلمات كما يلي:

«رأسه رأس نسر وجسده جسد التنين وأجنحته من العقاب وخواصره من السلحفاة أما الأيدي ولأرجل فهي من المردة. إنه يستطيع المشي والزحف والتسلل والطيران والخطو وهو طويل اللسان ويتوعد مهدداً ويزعق صائحاً ويصفرُ ويغمزُ ويعزفُ على الناي. إنه يفهم جميع لغات العالم إلاّ أنه غبّي وذهنه مشوش وأفكاره مقيدة غير حرّة وهو لا يفرق بين الأول والأخير. مع هذا يعفُ هو ماذا يجري في العوالم بأسرها: إنه على أنواع عديدة: إنه أكبر من جميع عوالمه، إنه أطولُ باعاً وأقوى شكيمةً من الآخرين قاطبةً، وهو أشدّ بأساً من بقية مخلوقاته جميعها وأعنفها. إن أراد هو ذلك يستطيع أن يختفي عن عيونها بحيث إنها لن تراه غير أنه مع هذا يدي ما يختلج في صدر مَنْ يقابله. إذا فرت الأجناس خوفاً من بطشه موليةً الأدبار يستطيع أن يردها إليه خلال كلماته. إن الديفي التي يريدها هو يتركها تعود من حيث أتت ثم ينظم صفوفها أمامه. إن أراد مدّ جذعه على طوله وإذا أراد العكس جعله قميئاً قصيراً. إنه يضمّ أعضاءَه بعضها إلى البعض الآخر ويمدّها ثانيةً على وسعها وهو يملك أعضاء الرجال بجانب أعضاء النساء. إنه يعي جميع الأسرار. إنه يغضب بصوت وكلمة نفخة ونفس وعين وفم ويد وساق وقوة وسمٍ وغضبٍ وقولٍ وخوفٍ ورعبٍ وهلع وارتعادٍ وصراخ فتهتزّ جميع عوالم الظلام ذعراً. إن هيئته قبيحة وجسده يفوح بروائح نتنة كريهة ووجهه مشوّه. إن سمك شفة فمه تساوي ١٤٤٠٠٠ ميلاً. من نَفَس فمه وحده يحمرُّ الحديد ومن نفخته يغلي الحجر الصلد ويفور. إذا رفع عيونه عالياً بدأت الجبال بالإهتزاز ومن همسات شفتيه تتزعزع السهول»[١٠٢]

حين نظر ملك الظلمات إلى عوالم الظلام تساءل فيما إذا كان هناك أعظم منه، وحين نظر إلى عوالم النور بهرته أضواؤه وقارن عالمه بهذا العالم وقرّر أن يشنّ حرباً عليه ليكون ملك العليا والسفلى في آن واحد. ثم استطردّ قائلاً:

«إذا كان هذا العالم رداءً فإني أريد أن ألبسه. وإذا كان طعاماً فأني أتناوله بالأكل، وإذا كان شراباً اشربه، وإذا كان بيتاً فسوف أهدمه، وإذا كان بناءً فسوف أخرّبه، وإذا كان هو مسكناً فسوف أسكن فيه، وإذا كان شيئاً أقوى مني فسوف أشرع معه بالنزاع والقتال»[١٠٣]

ثم استعر غضباً وقفز وبلغ ما بعد نهاية حدود الظلمات فوقعت عينه على الهيئة النورانية لكنه لم يجد باباً ينفذ منه إليها وعندما أدرك عجزه اهتاج كالأسد وسمعت صوته العوالم النورانية

فنظرت إليه ثم دوّى صوت ملك النور عالياً مخاطباً عوالم النور وشكينات الأثري قائلاً:

«التزموا الهدوء، أيتها الأثري، والبثوا في شكيناتكم جالسين. لا تحفلوا بغضب هذا الجنّ الفاسد الشرير الذي على من السخط أنه يجب أن يبقى في مكانه (كنّا) المعدّ له ولا يبارحهُ مطلقاً. في مكانه (كنّا) الخاص به يجب أن يبقى ولا يغادره مطلقاً، وخططه ينبغي أن تُحبط وتُسحقُ. إن مشاريعه يجب أن تتبدد وتضيع وأعماله لا ينبغي لها أن تتم أو تتحقق»[١٠٤]

ـ أساطير مكونات الظلام:

تقع أغلب أساطير مكونات الظلام من كواكب وأبراج وهمورثا وعشروات وليليثيا بعد أساطير خلق الأرض وحين يبدأ بثاهيل بالإخفاق في تصليب (تكثيف) الأرض وتولد كلها من مضاجعة أور لإمه الروها.

تبدأ الأسطورة من إخفاق بثاهيل الأول (الذي سنتعرف عليه في أسطورة خلق الأرض) حينها:

«شعرت الروها بالقوة تجيش في نفسها
إن الروها وجدت نفسها قويةً
واكتسبت الغطرسة روحها
فقالت في نفسها: إن بهاءه زال وتغير
وفي مكانه نشأت نواقصٌ وعيوبٌ
ثم ارتحلت هي ذاهبةً ودمّرت ما تملكه
وارتدت ثوباً فضفاضاً
إنها غيّرت هيئتها وتعاظمت في الغطرسة
وتراءت لنفسها ظاهرةً بشيءٍ لم تعهده هي عليها من قبل
إنها تكلمت مع المحارب قائلة:
مع المعتوه الذي بغير حواس وعقل
إنها تكلمت معه قائلة:
هيا انظر كيف أصبح بهاء الرجل الغريب ضئيلاً

وكيف تشكلت في بهائه النواقص والعيوب
هيا اذهب ونم مع أمّك
لكي تتحرر أنت من ربقة القيود التي تشد عليك
والتي هي أكثر غلاظةً من جميع العوالم.
لمّا سمع الوغدُ بهذا
هزّ نفسه ورجَّ عظامه
ثم رمى بنفسه على الروها وضاجعها
فحبلت هي بسبعة أشكالٍ من نكحةٍ واحدة
بعد سبعة أيام جاءها المخاض
فولدت الأوغاد الواطئين من النطفة
إنها ولدت الكواكب السيّارة
ومنها خرجت هذه المخلوقات الحقيرة
عندما نظرت هي إلى صورهم
سقط قلبها متزحزحاً من مكانه
فتكلمت قائلة:
إني قلتُ غير أنه ما من أحد قال لي
ما كنتُ قد تمنيه لنفسي لم يتحقق
إن أحدهم لا يشبه الآخر.
عندما تكلمت الروها بها قائلةً
ثارت ثائرة أبنائها
إنهم قاموا بالثورة والتمرد وأنكروا أباهم
لا يوجد ثمة شيء ما ليس له من نهاية.»[١٠٥]

هكذا تصوّر الأساطير المندائية خلق الكواكب، فهي من نسل ملوك الظلام وهي مجموعة أوغاد واطئين ومخلوقات حقيرة وبشعة الشكل ومتمردة على أصلها. ولذلك فإن التهمة الجاهزة التي أُتهم بها المندائيون على أنهم عبدة كواكب هي تهمة باطلة ورخيصة ولا علاقة لها بأي معرفة، ولو بسيطة، بالمندائيين وبدينهم.

بعد محاولة بثاهيل الثانية لتكثيف الأرض والتي فشلت أيضاً تذهب روها إلى (الشيطان) وتطلب منه أن يضاجعها لأن البيت (الأرض) فارغ وزمام الأمن مضطرب.

«عندما نام هو معها مضاجعاً
حبلت هي من نكحة واحدة بأثني عشر عفريتاً
حبلت هي باثني عشر شيطاناً
وليس من بين هذا الرهط من كان مفيداً
بعد أثني عشر يوماً
جاء الروها المخاض
إنها تمخضت فولدت اثني عشر برجاً
ولم يكن أحدها على شبه بالآخر
لم يكن أحدها يشبه الآخر
وكلّ عفريت ينكح أخاه ويلوط معه
لما نظرت هي إلى صورهم
سقط قلبها منحرفاً عن مسنده (متكئهِ)
انخرطت بالبكاء وعوت كالمجنونة
ثم تكلمت قائلة:
لقد قلت لنفسي: يا ليتني أكون حاملاً وحبلى
وليت ما أنجبه يشبه مولاة هذا العالم أو يضارعهم
لقد سرتُ على الطريق، يا إلهي، ولكني لم أصل
وجلبتُ على نفسي بنفسي العذاب والغمَّ.
عندما تكلمت نمروس بهذا قائلة
اغتاظ الإثنا عشر كلّهم
هم جميعهم اغتاظوا
لا يوجد ثمة شيء ما ليس له من نهاية.»[١٠٦]

لا نعرف على وجه الدقة هل الذي ضاجعها هو أور أم غيره لأنها تقول له حرفياً (انا هي أختك إذا نمت معي كالعشيق فسوف تكبر وتتضاعف قوتك ونحنُ نرجِّح أن يكون هذا أما أناتان

أو شدوم لأنهما يوصفان كزوجين لروها في بعض النصوص.

بعد هاتين المحاولتين الفاشلتين لبثاهيل في خلق الأرض (تكثيفها) يقرر ترك هذا العالم (الأرض) وتسمع بذلك روها وتعتبر ذلك فشلاً نهائياً لبثاهيل وتقرر الذهاب إلى عالم الظلام واللقاء بـ(المحارب القليل الشأن الذي لا يدان له ولا رجلان) والذي نرجِّح أن يكون (كاف) بسبب شيخوخته ولأنها تخاطبه كأبنة له كما في النص الآتي:

«قم إنهض، أبي، أنظر:
إني أنا هي ابنتك
عانقني واشبعني تقبيلاً
ونم معي كما يفعل العشاق
نم مع كالعشيق
واملأ عينيك باللؤلؤ والعقيق
املأ عينيك بما يجود العالم به
وانظر: إن العالم كله بين يديك
إن الغريب الذي كان قد جاء إلى عالمك
فارقه على التوّ وصعد إلى الأعالي
إذا نمت معي حقاً كالحبيب
فسوف لن يصي عينيك أيّ تبدّلٍ.
لما سمع الشيطان هذا الكلام
عانقها وقبّلها ثم اضطجع معها
هو عانقها وضاجعها
فأصبحت هي منه حبلى
هي حبلت بخمسة من سفاكي الدماء (من ذوي الأهتياج الشديد)
الذين انكر بعضهم البعض الآخر
إنهم أنكروا بعضهم البعض الآخر
وجعلوا يمارسون أعمالاً شائنة
في اليوم الأول انشقت السماء ولمعت وبرقت

في اليوم الثاني رعدت السماء
في اليوم الثالث أحاطت السماءُ ألسنةَ النار من كلّ جانب
في اليوم الرابع هزّ زلزالٌ بوابات الظلام هزاً عنيفاً
في اليوم الخامس انكمش قلبِ الروها واجفاً وصارت هي كئيبة حزينة
وشعرت بألم امرأة حبلى تطلق أثناء الولادة، نفساء.
هي طلقت فانجبت خمسة مخلوقات
ما من أحدهم يشبه الآخر بشيء
إن أحدهم لا يشبه الآخر بشيء
وجعلوا كلهم يتعثرون بالمشي
منهم نشأ الإثم وانتشر
ولا طاقة للعوالم كلها بهذا العبء
عندما نظرت هي إلى صورهم
جعلت تلطم رأسها بكلتا يديها
إنها طفقت تلطم رأسها بيديها
وأخذت تقتلع الشعر من رأسها
إنها اقتلعت خصل الشعر من منابتها
والتوى قلبها بين جوارحها
فتكلمت قائلة:
لقد سرتُ على الطريق، يا إلهي، ولكنني لم أصل
وجلبت بنفسي على نفسي العذاب والحداد
إني لم أرهم ولم أحسّ بالارتياح
وقد قلتُ ولكن لم يتحقق المراد
كلّ فنون السحر ضاعت هباءً
وكل كلماتي لم تثمر شيئاً أو تكاد
ماذا جنيتُ أنا حين هدمتُ بيتي
وعِلام حصلت عندما لبستُ الرداء؟
ماذا كسبتهُ حين لبستُ الثوب

وليس لي من البيت جزءً أو فناء؟»[١٠٧]

لا يعرف على وجه الدقة ماذا تمثل هذه المخلوقات/ الكواكب الخمسة فلم يكن معروفاً آنذاك عدد كواكب المجموعة الشمسية التي نعرفها اليوم بل كان هناك الكواكب السبعة الأولى التي تشكّل خمسة كواكب والقمر والشمس. والكواكب الخمسة المعروفة هي: (الزهرة، عطارد، زحل، المشتري، المريخ) أما الكواكب الخمسة هذه (التي لا تُذكر أسماؤها) فتبعث على الحيرة حقا، ولانريد أن ننجر وراء التفسيرات التي تقول بأنها تعني الكواب السيارة الأخرى التي تدور حول الشمس لأن في هذا التفسير مغالطة كبيرة لكننا نرى أن الرقم خمسة يكمل من ناحية الرقم سبعة ليكون اثنا عشر كوكبا بقدر عدد الأبراج، كذلك يمكننا القول أن التفسير الأقرب للواقع هو أن ستة من الكواكب ذكرية الطابع وستة أنثوية خصوصا إذا وضعتا القمر بطبيعة أنثوية مقابل الشمس رغم معرفتنا أن المندائيين ينظرون الى القمر ككائن ذكري في عالم الظلام اسمه (سين) ولكن نور القمر الأنثوي الطابع يقابل ضوء الشمس الذكري الطابع في جميع الأحوال.

أما همورثا فهي كائنات ظلامية أنثوية تلعب دوراً مهما مع ليليثا وعشتراوت في مساعدة (روها)

ويبدو أن روها هي التي خلقت هذه الكائنات الظلامية حيث يذكر الكتاب الثالث من الكنزا اليمين:

«إن روها خلقت همورثا
وخلقت عشتراوت مختفية تحت الحجاب
إنها صنعت ليليثا
من كل نوع ولون
إن الكواكب خلقت عفاريت
كثيرة العدد وبكمية كبيرة
إن البشعين خلقوا ديفي
على شكل صورهم في العالم
أما سفاكو الدماء الخمسة فقد صنعوا السيف
لذا عيّنوهم في تيبل كولاة على الغضب

من بعضهم توجد صور على الأرض
ومن الآخرين في الماء الكدر»[١٠٩]

إن معنى كلمة (همورثا) الحرفي، حسب ليدزبارسكي، هو: القواقع والأحجار الصغيرة التي تشكل الحلي الزائفة في قلائد النساء. وهذا المعنى يلمّح إلى زيف الإناث الهموريثات وهن شيطانات الظلام ولكن اسمها يشي بأصل أموري قديم مصدره الالهة (مرت) وهي قرينة الإله الأموري (مر) وهو اله السماء القديم.وهذا أمر طبيعي فكل ديانة كانت تضع، بصيغة أو بأخرى، آلهة الأديان الأخرى في هامش سلبي وتصمها بصفات ظلامية وسفلى. كذلك فإن الليليثا تشير إلى كائنات شيطانية ذات جذر سومري هو ليليث التي كانت شيطانة الليل أو روح الليل وهي التي كانت تسبب أمراضاً كثيرة كالحمى وغيرها. وكذلك هبطت عشتار الأكدية البابلية عند المندائيين وتحولت إلى مصدر للعشتروات اللائي هن من كائنات الظلام.

ثالثاً: كوزموغونيا الأرض Tibil Cosmogony

تسمى عملية خلق الأرض في المندائية (ياونابيت) وهي عملية جعل الأرض صلبة وكثيفة ومؤثرة ي الأشياء الأخرى وقد أصبحت كلمة (ياون) أو (أيون) أحدى المفردات المهمة في الكوزمولوجيا الغنوصية فيما بعد فالأيونات هي الكائنات المشعة القوية الصادرة من العقل الأول.

تعتبر الأرض، من حيث المبدأ، جزءاً من عالم الظلام أو امتداداً له، ولكنها، في الحقيقة، خليط من عالمي الظلام والنور، فالماء الجاري الذي فيها نازلٌ من عالم النور والإنسان يحملُ نسمة النور (نشماثا) التي هي الروح القادمة من عالم النور وعلى الأرض ملائكة طيبة خيرة تمتّ بصلة إلى عالم النور. لكنها بالمقابل مكوّنة من غبارٍ خرج من التنّا ومن تصلب الماء الأسود الذي هو من عالم الظلام وفيها كائنات الظلام مثل الروها وأور وأتباعهما من الشياطين والعفاريت والجنّ والهمورثا والعشتراوت والليليثا وفيها جسدُ الإنسان الذي هو من عالم الظلام وفيها الماءُ الآسن والألوان والمغريات والحيوانات وغيرها التي تحسب على عالم الظلام. وخلاصة القول أنها مسرحٌ للصراع بين النور والظلام، والديانة المندائية تصور لنا ذلك الصراع بطريقة درامية وذات نسق خفيّ لا نجده في أي دين آخر.

نعود إلى ما وصلنا إليه مع بثاهيل (الحياة الرابعة) في أسطورة الخليقة المدونة في الكتاب الثالث من الكنزا ربّا اليمين، فقد تعاظم وتفاخر (أباثر) الذي هو (الحياة الثالثة) أكثر مما ينبغي وأراد أن يخلق عالماً ويبني شكينات خارج عالم النور ولم يتشاور مع أحدٍ من عالم النور، لقد أراد أن يُنشأ سلالة مقطوعة عن عالم النور فنشأ بثاهيل في واحدة من أكثر العمليات المثولوجية تعقيداً فهبوط هيبل زيوا له علاقة بذلك من خلال علاقته مع الروها وزاهرئيل اختها والنظر في المياه السوداء (وربما المرآة السوداء) من قبل أباثر له علاقة بذلك، كما أوضحنا، وحين ظهر بثاهيل أثرا منح لقب (جبرائيل) الذي كان قد منح لـ(هيبل زيوا) وهو ينزل إلى عالم الظلام. وهذا الترادف واللقب الواحد بين بثاهيل وجبرائيل له دلالة رمزية خفيّة كشفنا عن مدلولها.. فكأن بثاهيل هنا يُكمل ما بدأ به هيبل زيوا من غزوٍ للظلام ومحاولة نشر سلالة النور فيه. ولنتطلع إلى خطوات خلقه للأرض كما وردت في الكتاب الثالث من كنزا ربّا اليمين:

١ . نزول بثاهيل أثرا إلى عالم الظلام

(الضعف الأول ـ تغير الحرارة الحية ـ وخلق الكوكب السبعة)

أمر أباثر (الحياة الثالثة) بثاهيل أثرا بالنزول إلى عالم الظلام لكي يُشأ له عالماً خاصاً به.

«قمْ إذهب، إهبط إلى الأسفل
إلى المكان الذي ليس فيه شُكينات أو عوالم
إبنِ وأنشأ لك عالماً
كأباء السلام الذين رأيتهم أنت
أقم واخلق لكَ عالماً
إصنع لكَ عالماً واخلق فيه أثري
إن أبا الأثري نسي في كبرهِ ولم يذكر له عن المعارضة شيئاً
ولم يجهزه بالسلاح ولم يدربه.
بثاهيل أثرا ارتحل ذاهباً
وهبط نازلاً تحت الشكينات
وجاء إلى المكان الذي لا يوجد فيه عالم البتة
فداس في وحل البرازات

وخاض في الماء العكر
ثم شرع يناجي نفسه
فتغيرت حالاً الحرارة الحيّة في داخله
لّما تغيرت الحرارة الحيّة
إغتمّ هو واكتأب قلبه فأنشأ يقول:
لما كنتُ أنا إبناً لعظيمٍ
فلماذا تغيرت إذن الحرارة الحيّة.»[١١٠]

يوضح لنا هذا النص فكرة تضاؤل النور التدريجي بدءً من الحياة الثانية حتى الحياة الرابعة حيث لا يعرف بثاهيل شيئاً عن طبيعة كائنات عالم الظلام (المعارضة) ولا يأخذ معه سلاحاً مضاداً لها، وهكذا يسقط بثاهيل في لجج الظلام وتحوّلت الحرارة الحيّة في داخله لتكون نوعاً من الحرارة الآكلة. وهذا هو الضعف الأول الذي داهم بثاهيل، أو لنقل هذا هو التحول الظلامي الأول الذي داهمه. وكان من نتيجة هذا الضعف أن الروها عندما شعرت به بعد كلامه أنها طلبت من أبنها أور لكي يضاجعها فتلد سبعة أبناء بشعين هم الكواكب السبعة التي تحدثنا عنها كرمزٍ مقابل للضعف الأول الذي مر به بثاهيل والمتمثل بتغير الحرارة الحيّة.

٢. الضعف الثاني (صلابة الأرض المتبعثرة وخلق الأبراج الأثني عشر).

يحاول بثاهيل أن يكوّن الكثافة (الصلابة) لكي تنشأ الأرض ولكنه لا يستطيع فلا تنبسط متصلبةً وتستغل روها هذا الضعف الثاني فتطلب من الشيطان الذي تخاطبه بقولها (أنا هي اختك) أن يضاجعها فيضاجعها وتلد الروها الأبراج الأثنا عشر التي تحدثنا عنها:

«بثاهيل غسل يديه في الماء العكر
وقال مناجياً نفسه:
لتكن الأرضُ مسوية
ولتكن على هذه الصورة التي في دار العظماء
لما غمس هو يديه
تكوّنت كثافة
لقد تكوّنت صلابة

ولكن على شكل متبعثر وأخذت بالحركة كأن لم تكن هناك صلابة.
عندما لم تتكون الأرض ولم تنبسط متصلبةً
غاص منه القلب وانتابته عوارض الانقسام
لما أصاب قلبه التشكك والانقسام
شعرت الروها ثانية بالقوة
فتكلمت قائلة:
دعني أذهب راحلةً لأهدم ما أملكه
ثم أعرج غاديةً إلى ملك العالم»[١١١]

٣. الضعف الثالث (مغادرة المكان والعودة إلى عالم النور):

حين يدبّ اليأس في قلب بثاهيل يفكر في مغادرة عالم الظلام وحين تسمع الروها بكلامه حول المغادرة يدب في قلبها الفرح وتدمر ما تملكه وتذهب إلى أبيها (المحارب القليل الشأن الذي لا يدان ولا رجلان له) وتطلب منه أن يضاجعها فيفعل ذلك وتنجب له الكواكب الخمسة ذات الاهتياج الشديد.

«بثاهيل فكّر ملياً
بثاهيل أمعنَ في التفكير ثم تكلّم قائلاً:
إني أريد أن أترك هذا العالم
لما سمعت الروها بهذا القول
وثبَ قلبها كرةً أخرى فرحاً وأخذ مكانه على مسنده»[١١٢]

وتلد الروها الكواكب الخمسة، أما بثاهيل فيصعد إلى الأعالي إلى (الحياة) ليحصل على ثوب الحرارة الحيّة لكي لا تتغير عندما يهبط إلى عالم الظلام فيحاول تصليب الأرض.

«بثاهيل فكر كثيراً وأنعم التفكير
إنه تشاور مع نفسه معتمداً على حكمته وقال:
لأذهبنّ إلى الحياة وأحني أمامها
أحني رأسي أمام الكبرى أذعن
إن أمنيتي هي الحصول على ثوب الحرارة الحيّة

وفي الماء العكر أريد أن اخوض وأصول
إني أريد أن أخوض في الماء العكر
وأقف على ما سوف يحدث»[١١٣]

٤ . هبوط بثاهيل وخلق الأرض والسماء:

يتزود بثاهيل بثوب الحرارة الحيّة ويهبط إلى عالم الظلام ويصنع الأرض من غبار (تراب) يتصاعد من أرض نهر عالم الظلام (سينياويس) ثم يصنع السماء من الستار الذي يرتفع إلى الأعلى بعد تكوّن وتصلب الأرض. ويقوم بربط سرّة الأرض بقلب السماء، لكن الشياطين والكواكب والأبراج ارتفعوا إلى السماء وداروا حوله فامسك بثاهيل قوس قبة الزرقاء العالي ليشده إلى عرشه وربط الكواكب والأبراج هناك فتحلقوا هناك فسألهم عن هويتهم فجابته الروها بأنهم يريدون أن يخدمون وأن يكونوا أتباعه هذه هي أسطورة خلق الأرض والسماء في الكتاب الثالث من كنزا ربّا اليمين.

«بعد أن أقام بثاهيل الصلاة للحياة وسبّح لها
عمد إلى خطته الحكيمة التي كان هو قد وضعها
بعد أن حصل هو على ثوب الحرارة الحيّة
أخذ يخوضُ به في الماء الراكد هاباً وإياباً
عندما حدث وامتزجت الحرارة الحيّة
مع الماء الراكد
صعد من أثر رائحة ثوب الحرارة الحيّة
مسحوق من أرض سينياويس عالياً وما كان هذا إلا تراباً
من أرض سينياويس صعد ترابٌ إلى ما فوق
وسقط في كلّ مكان وملأه غباراً
فانسدّت منه جميع البحار
وانغلقت به الحفر والآبار
وهكذا نشأت اليابسة
وتكوّنت صلابةٌ وسقطت في الماء

ثم ارتفع ستار إلى فوق
وصعد إلى الأعلى وانتصب في وسط السماء
عندما انبسطت السماء
أحنى هو رأسه وجعل يسبح للرجل الذي خلقه
ولما رأى العرش العالي
إنتابه السرور وامتلأ قلبه بالفرح والحبور
ثم أمسك بسرّة الأرض
وأراد أن يربطها مع قلب السماء بعقدةٍ
عندما أراد أن يمسك سرّة الأرض
بدأت حشود الساقطين تدور حوله
إن رهطاً كبيراً من المحتالين شرع يلفّ حوله
وكانت سلّتهم مملوءةً بالحكمة الباطلة
إن قُفّة المحتالين مملوءة بالسحر
وهي تغص غصاً بالخيال والوهم
إنها مملوءة بالسحر والشعوذة
قُفّة نسوة السحر والشعوذة.
بعد هذا دارت حوله الكواكب السبعة
وكذلك الشياطين وعددهم إثنا عشر
ثم جاء دور أطرفان ولوفان
وكان كلاهما أميراً يحكم إمارة
وأورفئل ومارفئيل دارا حوله
وهما اللذان عُيِّنا والين في تيبل على الغضب
إن جميع أولئك لفّوا حول التنّين
ارتفعوا إلى السماء ووقفوا في قبتها
عندما أمسك هو (بثاهيل) سرّة الأرض
ورفعها إلى الأعلى وأحكم بعد ذلك ربطها
عندما أمسك قوس قبة الزرقاء العالي

صاعداص إلى فوق بغية أن يشدّه إلى عرشه
بهذا رُبطت الكواكب ربطاً
واندفعت هي إلى الأعلى واقفةً في القبّة
أما الخبثاء فقد انتصبوا واقفين
ما أن فعلوا هم هذا حتى شدّ عليهم بالوثاق الذي كان هو وثاقهم
أما المديرون الخمسة
فقد جعلوا يصرخون يا ويلي يا ويلي.
بثاهيل يجلس القرفصاء معتمداً على حكمته
ويستجوب أولئك واحداً واحداً بالسؤال:
من أين جئتم أنتم، أيها الشياطين،
أنكم لا تنتسبون إلى أبٍ واحدٍ وما لكم عاهلٌ؟
عندما خاطبهم هو بهذا
أجابته الروها قائلة من أسفل:
نحن أقبلنا عليكَ ونريد أن نكون خدماً لكَ
نحنُ نريد أن نساعد في شتى الأمور
نحنُ نريد أن نكون لكَ عوناً في كلِّ شيء مما تريد أن فعله
ونتركك وشأنك على عرشك
نحنُ نريد أن نتركك وشأنك على العرش
ونرغب أن نراعي نظام العالم ونحافظ على تطبيقه
نحنُ نريدُ أن نكون جميعنا من الصالحين
ونخضع لك ونطيعكَ من كلِّ جهة..»[١١٤]

٥. الضعف الرابع وسيطرة روها والكواكب والأبراج على الأرض:

كان للجواب المهذّب المصنوع قصداً من قبل روها الذي أجابت به لبثاهيل أثره الكبير عليه، فقد اعتبر كائنات الظلام أبناؤه وقرّبهم إليه، وهكذا فقد الأرض (البيت) وتسلمَ الفانون الأشرار السلطة على الأرض كما كان الحال قبل أن تُمّد السماء وتتصلب الأرض. وحين فكر بالعودة إلى

أبيه عرفت الروها ذلك. خلقت همورثا (يسمّون جوار في مخطوطة أخرى) وعشتراوات وليليثا وأمرت الجميع بالتمرد والعصيان واعتبروا أنفسهم أسياد البيت (الأرض)، وهنا فكّر بثاهيل بتنصيب حاكم على الأرض (وهذا الحاكم سيكون آدم مستقبلاً) لكي تستمر سيطرة بثاهيل ومن ثم عالم الحياة والنور على الأرض في مقابل ما يفعله أشرار الظلام:

«عندما تكلمت الكواكب السبعة هكذا إليه قائلة
ردّ هو عليها مجيباً: إنكم أبنائي جميعاً
إذا ما فعلتم أنتم أشياءً صالحة
فسوف أجعلكم من فريقي وأحمد لكم الصنيعا.
لّما تكلم بثاهيل بهذا قائلاً
سُلبَ منه بيته
البيت سُلبَ منه
وقلّد الساقطون بأمر تدبيراته
كما حدث هذا قبل أن ترفع القبة الزرقاء
وقبل أن تصبح الأرضُ بالصلابة ثابتة
عندما تكلم بثاهيل بهذا قائلاً
أخذ منه بيته.
لّما كان بثاهيل ذكياً فقد انجلت له الأمور وتكلم مع نفسه قائلاً:
أنا أريد أن أرتحل صاعداً إلى العلياء، إلى دار أبي،
إني أرغب أن أتكلم مع أبي مخاطباً إياه قائلاً:
إن كلّ ما كنتَ أنت قد أمرتني به نفذّته أنا وصنعته يدي.»(١١٥)

وهكذا فقد بثاهيل وعالم النور السيطرة على الأرض وبدأ أشرار عالم الظلام بتنظيم الأرض على هواهم وتقدير الزمن وتسيمته وهو التقسيم والتنظيم الأول الذي رافق خلق الأرض، لكن بثاهيل سيعيد تقسيم الزمن وتنظيم العالم فيما بعد وهو ما سندرسه في أساطير تنظيم العالم. هكذا إذن أصبحت الأرض بعد خلقها جزءاً من عالم الظلام وعاد بثاهيل إلى عالم النور وبدأوا يفكرون في كيفية إعادة السيطرة على عالم الظلام، وسيكون خلق آدم هو الخطوة الحاسمة في هذا المجال، لكن الصراع سيشتد بين عالم الظلام وعالم النور على الأرض وفي نسل

آدم كما سنرى.

إن كائنات الظلام كانت تردد بعد صعود بثاهيل إلى دار الحياة ما يلي:

«إن الأرضَ يجب أن تكون لنا

وما من أحد غيرنا يجب أن يأخذ بزمام هذا العالم

إن البيت الذي شيّده لنا أبونا

نريد نحنُ أن نحيا فيه بعده ونقيم

ذلك لأننا أسياد هذا المنزل

ولتكن الروها سيدة في موضعنا

إن روها المذنبة تحفظنا

ونحنُ نريد أن نكون لها خفراءَ

إن الكواكب الاثني عشر ينبغي أن تتقدم

وتقسّم الأيام والأشهر

ينبغي عليها أن تجزأ الساعات والشوشيا (الدقائق)

وتجزأ كذلك اللحظات والثواني

إن فعلنا هذا كله

فسوف يكون البيت لنا.»[١١٦]



الكتاب الخامس/ الجزء الأول يروي رواية أخرى لخلق الأرض تختلف عن ما عرفناه سابقاً ببعض التفاصيل الصغيرة التي سننوه عنها:

حين يأمر أباثر إبنه بثاهيل لكي يخلق صلابةً في وسط الماء الأسود يفشل هذا في حدوثها فيشتكي لوالده فيرد عليه: «أيها الأحمق، إيّاك أن تجعل مني مماثلاً لك. خذ بعضاً من الأقمشة السبعة ذات البهاء والنور والعظمة التي كنتُ أنا قد غطيتك بها واقذف بها إلى الماء الأسود لكي تتألف الصلابة»[١١٧]

ويبدو أن بثاهيل قد استعمل قبل ذلك الأقمشة السبعة التي خُلق فيها لكن والده يأمره بأن

يستعمل بعضَ الأقمشة السبعة التي غطّاه هو بها فهي التي تصلّب الأرض. وحين فعل ذلك ظهرت كثافة مداها (١٢٠,٠٠٠) ميل هي التي كوّنت أول الأرض وأصبح الماءُ الأسود يحيط بها من كل الجوانب.

يظهر هيبل زيوا ليصرخَ في وجه بثاهيل، وهنا لا بد أن نعود إلى العلاقة الأبوية الرمزية بين هيبل زيوا وبثاهيل، فكأنه بهذا الصراخ يؤكد على الصرخة السابقة التي وجهها أباثر لولده بثاهيل، وهذا جزءٌ من مدفونات الأسرار في أسطورة الخليقة هذه.

لكنّ هيبل زيوا يقوم بتهدئة بثاهيل ثم ينصحه ويساعده فيحيط الأرض الصلبة بسبعة أسوار، وهنا تتدخل الروها وتسأل بثاهيل عن أصله لأن بنيته الجميلة لفتت انتباهها فيرد عليها بأنه خُلق من هذا العالم أي من عالم الظلام، فيرتعد قلب روها خوفاً وتخاطبه قائلة: إذن، أنت تنتمي إليّ. وهنا تنهضُ الروها وتذهب إلى ولدها أور وتطلب منه أن يضاجعها لكي ينجب لها ولداً يشبهه ليقوم بتحرير أور، لكنها كانت تريد أن تخلق نداً لبثاهيل.

حاول أور مضاجعتها لكن الحديد المقيد به (والذي قيّده به هيبل زيوا) منعهُ من ذلك فقامت روها بصنع حديد مناظر له وقيّدت نفسها به واضطجعت معه فصارت حبلى وولدت منه سبعة أبناء هم الكواكب السبعة ولكنها حزنت لأشكالهم القبيحة وقررت المحاولة مرة ثانية علّها تنجب ما يناظر بثاهيل فضاجعت أور وانجبت منه إثني عشر صبياً وكانوا قبيحين وضعفاء أيضاً وحين سمعوا كلامها عنهم سخطوا عليها وانسحبوا وجلسوا في حضن غيوم الضباب التي خلقوها فطلبت منهم روها أن ينزلوا إلى الأرض لأنهم سيقابلون الذي قيّد والدهم وتعني به هيبل زيوا الذي يسميه النص (ياور هيبل) (مانا الطاهر).

وحين يراهم هيبل زيوا لا يبالي بهم بسبب ضعفهم مقارنةً بعمالقة الظلام الذين قابلهم، فإنه حين تكلّم معهم سقطت قلوبهم فبكت عليهم روها وقالت لهم بأن هذا الرجل هو الذي قتل أباكم، فغضبوا واجتثوا عروق الأرض تحت أقدامهم فخاف بثاهيل أن تفسد صلابة الأرض التي صنعها لكن هيبل زيوا طمأنه. وطرح عليهم هيبل زيوا أن يجد مكاناً يسكنون فيه وينظم لهم شؤونهم فوافقوا.

«فنادت شامش (الشمس) باسمة وبأعقابه سين (القمر) ثم كيوان (زحل) ثم بل (المشتري)

ثم طليات (الزهرة) ثم نبو (عطارد) ثم نيزغ (المريخ) وأعطيت كلاً منها إسماً خاصاً به ثم تكلمت مع الكواكب قائلاً: إني امنحكم عربات لكي تمتطوا متنها، إني ألبسكم ثوباً مثيراً للعجب وأهبكم بهاءً لكي تنيروا في هذا العالم. عندئذٍ أخذت هي شامش باعتباره الأخ الذي يكبر الجميع سناً في وسطها وخاطبته قائلةً: ينبغي عليك أن تكون ملكاً لنا أما طليات فيجب أن تكون ملكةً في هذا العالم، نحنُ جميعنا نريد أن نطيع إياكما»(١١٨)

ثم قام هيبل زيوا بأحضار زورق ونادى سار وساردان وطلب منهما حماية الزورق ومعونة شامش الذي هو أكبر أخوته فوافقا وأضاءا العالم ٣٦٠ ألف عام رغم الفوضى والاضطراب. أي أن شامش كان معتماً ولكنه حين ركب الزورق مع الأثريين النورانيين أصبح مضيئاً.

هذه الرواية تختلف قليلاً فهي لا تذكر الكواكب الخمسة الأخرى ولا الشيطانات من الهمورثا والعشراوت والليلثا وهي تعطي دوراً لكائن نوراني عظيم مثل هيبل زيوا ليساهم في الحدّ من تأثير كائنات الظلام وتحديد مساراتها.

ويبدو أن الأرض كان يسكنها الـ(شياهي) وهم الجن، ويمكن أن تكون الشفياهي مثل الملائكة بعضهم خيّرٌ والآخر شرير. ويسكنون بين عالمي الظلام والأرض ويظهر الخيرون على الأرض أحياناً على شكل أرانب بيضاء كما تقول الحكايات الشعبية المندائية. حيث أن كلمة (شبيها) قد تعني الـ(محمود) أو (الخيّر) ولكن أغلبها شرير وهم يختلفون عن شياطين عالم الظلام الذين هم الـ(ملاخي).

وكان هؤلاء الشفياهي يسكنون على الأرض قبل ظهور آدم ونسله.

ويذلك يكون تقسيم الكائنات التي تسود الكون كما يلي:

١ ـ الأثري (الأثرياء): كائنات نورانية خيّرة تسود عالم النور

٢ ـ الملاكي (الملائكة): كائنات طيبة وشريرة تسود ما بين عالم النور والأرض

٣ ـ الشفياهي (الجن): كائنات طيبة وشريرة تسود ما بين الأرض وعالم الظلام

٤ ـ الملاخي (الشياطين): كائنات شريرة تسود عالم الظلام

ـ صورة الكون المندائي:

أما الكون (بنظر المندائيين) فقد أصبح متكوناً من خمسة عوالم تفصلها خمس طبقات من

المياه وهي كما يلي (انظر الشكل ٣٢):

أولاً ـ عالم النور:

ويتربع على عرشه (الحي العظيم) وهو الإله الأوحد الخالق للكون أما الطبقات العشر لعالم النور فهي التي تحل فيها الكائنات النورانية الآتية وتسمى الطبقات باسمها:

١. مانا العظيم

٢. مار أد ربوثا

٣. كنّات ربتي

٤. شهرات أنانا

٥. ياور ربّا

٦. تروان نهورا

٧. ياور

٨. يوخابر

٩. كشطا كنّا

١٠. يوشامن (الحياة الثانية)

ثانياً ـ فاصل المياه الفاصلة (هفيقي ميّا):

وهي جداول المياه التي تفصل عالم النور عن ما تحته ويقع النجم القطبي على البوابة السفلى لعالم النور حيث يعلو هذه المياه. ولنلاحظ أن الماء والنور في هذا الفاصل وربما يقع عالم السلام تحت هذا العالم مباشرة وفيه أبناء يوشامن الذين ذكرناهم.

ثالثاً ـ عالم المطهر:

ويتكون من ثلاث طبقات هي من الأعلى إلى الأسفل:

١. عالم أباثر وهو عالم الميزان حيث الحساب

٢. عالم بثاهيل

٣. مشوني كوشطا: وهو العالم المثالي المواجه لعالم الأرض حيث فيه الصور المثالية لكل ما موجود في الأرض ويحكمه (شمشلام ربّا)

رابعاً ـ فاصل مياه المطر والسحاب:

وفيه سحابات النور فهو يجمع الماء والنور.

خامساً ـ عالم السماوات:

ويتكون من سبع طبقات يحلّ في كلِّ طبقةٍ منها أحد الكواكب السبعة وتسمى كل طبقة باسمه ويعتبر هذا العالم نوعاً من المطهر الأولي حيث المنازل السبعة التي تتوقف عندها الروح في عروجها وهي:

١. الشمس (شامش)

٢. القمر (سين)

٣. المريخ (نيرغ)

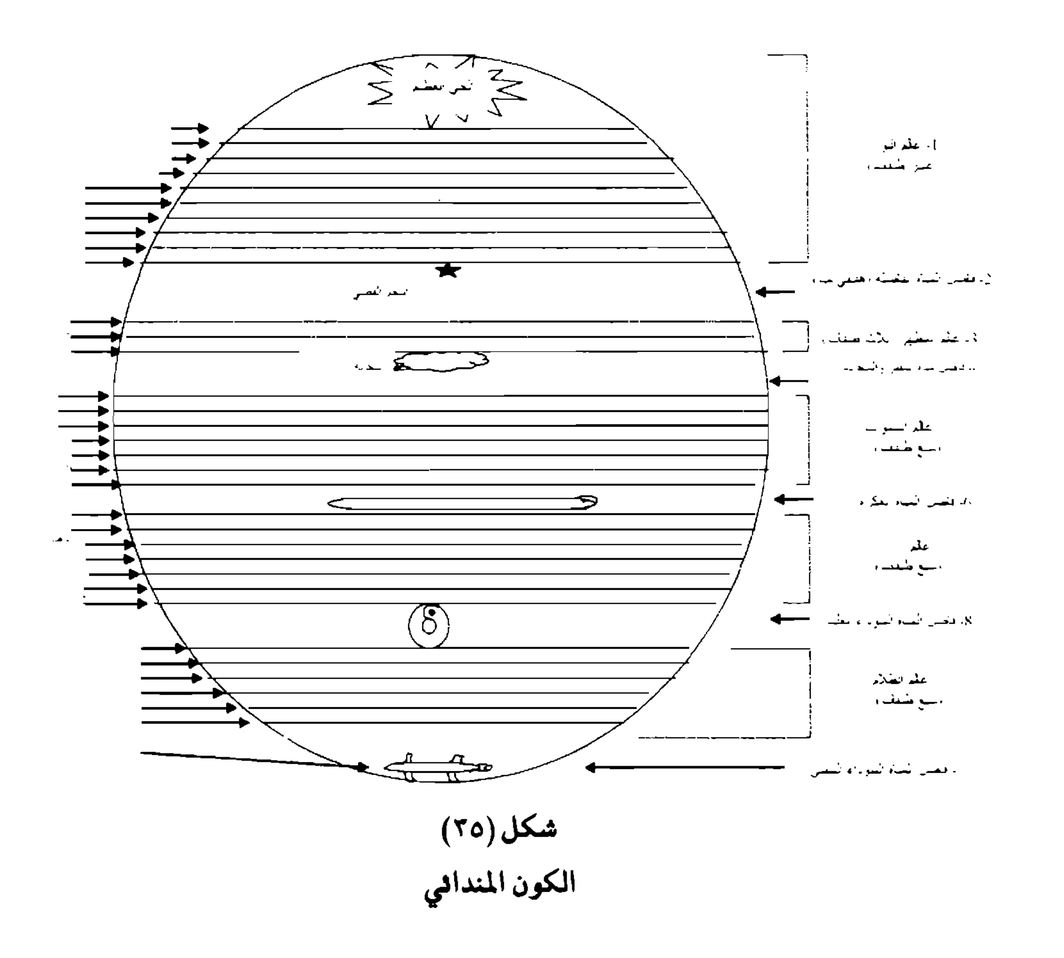
٤. عطارد (أنبو)

٥. المشتري (بل)

٦. الزهرة (دلبات)

٧. زحل (كيوان)

ويقوم أبناء السلام (في عالم السلام) باستلام اشعة الحي العظيم وعكسها على هذه الكواكب، حيث تنعكس الأشعة على رايات أو أعلام أو ساريات سفنها الضوئية وتشعّ على الأرض. والكواكب مظلمة لكنّ فيها كائنات تعمل على إدامة علاقتها بعالم النور من خلال عكس هذه الأشعة وقيادة سفنها.



شكل (٣٥)

الكون المندائي

سادساً ـ فاصل المياه العكرة :

وهي المياه الموجودة على الأرض فهي مزيجٌ من المياه الحيّة الجارية والمياه السوداء، فمياه البحار مياه سوداء ومياه الأنهار مياه بيضاء نورانية وقد يكون مكان روها في المياه السوداء وبشكل خاص في مياه الأهوار.

سابعاً ـ عالم الأرض :

ويتكون من سبع طبقات هي من الأعلى إلى الأسفل.

١. التراب (أره إد تيبل) الأرض البالية

٢. الفضة

٣. الذهب

٤. الفولاذ

٥. النحاس الأصفر

٦. الحديد

٧. النحاس (إره إد نهاسه) أرض النحاس

ثامناً ـ فاصل المياه السوداء العليا :

وهي مياه عالم الظلام العليا (وربما كان المقصود منها القار والنفط الذي يطفح على مياه الاهور وعلى الارض من عيون سفلية) ويخوض فيها سيد الظلام (أور) أنه على شكل أفعى ساكنة مدورة ذيلها في فمها ويقوم بدعم وحمل الطبقات السبع للأرض. ونرى أن اسمه مشتق من أسم (أر) أي أرض، وفي جوفه مطهر شامش الذي تذهب إليه الشمس حين تغيب وقد يكون سبباً في اندلاع النار التي تخوض في جوف اور من الماء الأسود. وربما كان في جوفه مطهر أبنائه السبعة من الكواكب. وقد يتحرك أور ويخرج من مقره إلى الأرض ليعاشر أمه وزوجته (روها) ويكون اسمه عندما يكون على الأرض (باراسفاك).

تاسعاً ـ عالم الظلام :

ويتكون من سبع طبقات يَسكنُ في كلّ طبقة من الطبقات العليا الأربع منها زوجٌ من الكائنات الظلامية الكبرى وفي الطبقات الثلاثة السفلى كائنات ذكرية مفردة هرمة. وهي كما يلي :

١. زرتاي زرتناي وعماميت

٢. هاغ وماغ

٣. كاف وكافان

٤. أناثان وقن

٥. شدوم

٦. كاف الكبير

٧. كرون (كاركوم) أو كيو وهو (جبل اللحم) الذي يناظر أور لكنه يقع في أسفل عالم الظلام وتركز عليه الدنيا المنظورة بأجمعها وتسمى أرضه بالأرض النحاسية أيضاً، وكرون عبارة

عن قملة ضخمة فهو ملك عالم الظلام وسيد آلهة الظلام وهو ذو حجم هائل وقد عرفنا صراعه مع هيبل زيوا الذي عاد منه بطلسم أتاح له المرور في عوالم الظلام بسهولة. وربما تمثل كل طبقة من عالم الظلام طبقة معدنية على غرار طقات عالم الأرض وبذلك تكون الأرض النحاسية من نصيب كرون.

ويخوضُ كرون في المياه الفاصلة السوداء السفلى، ونرجح أن اسمه مشتق من الكائن السفلي السومري (كور).

عاشراً ـ فاصل المياه السوداء السفلى:

وهي المياه السفلى التي نرجّح أن تكون مياه الجحيم الذي يسمى بـ(عبادين السفلى) حيث تسقط فيها الأرواح الخاطئة التي لا خلاص لها.

هذه هي صورة الكون (كوزمولوجي) المندائي بعد الانتهاء من الخليقة وربما كانت هناك أسرار وتفاصيل أخرى حفلت بها بعض المخطوطات عن هذا الكون، لكن هذه الصورة العامة هي التي نراها الأرجح والأشمل. وإذا ما أضفنا مكانين للحي العظيم في أسفل الكون وللروها في أسفل الكون يكون الكون مكوناً من ١٢ طبقة.

الكون المندائي

العناصر الأربعة وأسطورة السكندولا

تكوّن عالم الأرض من أربعة عناصر ساهمت في خليقته وهي (الماء والتراب والهواء والنار) وقد لا تظهر هذه العناصر واضحة في الأساطير المندائية لكنها مستبطنة في أعماقها.

إن عالم النور يتكون من عنصرين أساسيين هما (الضوء/ النور) و(الماء الحي) وهو عالم خلاّق مكتمل لا يناله الفساد.

أما عالم الظلام فيتكون هو الآخر من عنصرين أسايين هما (الظلام) و(الماء الأسود) وهو عالم فاسد.

أمّا الأرض فتستمد من عالمي النور والظلام أربعة عناصر تمتد جذورها إلى هذين العالمين لكن هذه العناصر تصبح على غير ما هي عليه في جذورها. فالضوء/ النور سيكون مصدر النار

والماء الحي سيكون مصدر الماء والظلام سيكون مصدر الهواء والماء الأسود سيكون مصدر التراب.

ولأن كائنات الظلام سيطرت على الأرض فقد بدت عناصر عالم الأرض وكأنها من عالم الظلام بأكملها، في حين أن خليقة الأرض هي عمل مشترك بين عالم النور وعالم الظلام كما رأينا.

إن آلة السكندولا، التي تتكون من قرص حديدي يرتبط بسلسلة حديدية ثم بسكين تستعمل في الطقوس المندائية للتعزيم على المعزولين لنجاستهم (في الولادة والزواج) وتختم بها سرّة الوليد بعد قطع سرّته بالسكين ويُلبسها الكنزفرا للعريس في حفلة الزواج ويُختم بها القبر في طقوس الدفن من جهاته الأربع. إن القرص الحديدي فيها يحملُ ختماً طلسمياً فيه رسوم لأربعة كائنات هي الأسد، العقرب، النحلة (الزنبور)، الأفعى) وقد اعتاد المندائيون على تصنيفها ككائنات ظلامية تدفع الشرور وبها يتحصن الناس من الشفياهي (الجان)، لكنها في الحقيقة رموز للعناصر الأربعة المكوّنة لعالم الأرض وسنوضح ذلك كما يلي:

١. الأسد: رمزٌ شمسي يشير إلى النار والحرارة ويسمى (آريا) ويمكن أن يشير لبرج الأسد ولكائن الظلام (كرون)

٢. العقرب: رمزٌ ترابي يشير إلى الإلهة الأم والخصب ويسمى (أرقبا) ويشير إلى برج العقرب ولكائن الظلام (هاغ)

٣. النحلة (الزنبور): رمز هوائي بسبب طيرانه وأجنحته.

٤. الأفعى: رمزٌ مائي يشير إلى الإلهة الأم الأولى أو إلى أور واسمها (هييّ) التي تشير إلى الحياة أو إلى الحية (الأفعى).

تتكون كلمة (سكندولا) من مقطعين هما (سكان) أي مسكن و(إداولا) أي الشر وبذلك يكون معناها (مسكن الشر) بسب هذه الكائنات المنقوشة عليها.

ويعتقد أن السكندولا هي الطلسم الذي جلبه هيبل زيوا من عوالم الظلام بعد رحلته إليها وأعطاها إلى العالم العلوي باعتبارها أحد أسرار ذلك العالم.

إن الخطأ الذي يقع فيه مصممو طلسم (سكندولا)، على الدوام، هو أنهم يرسمون الأفعى

المدوّرة سائبة الذيل، في حين أن ذيل الأفعى يجب أن يكون في فمها وهو ما يشكل دائرة كاملة غير مفتوحة لأن هذا الشكل هو الأوروبوس القديم الرافديني الذي كانت تمثله الإلهة السومرية (نمّو) والإلهة البابلية الأم (تيامت). والأوربوس هو الشكل الدائري المقفل للأفعى البدئية للكون.

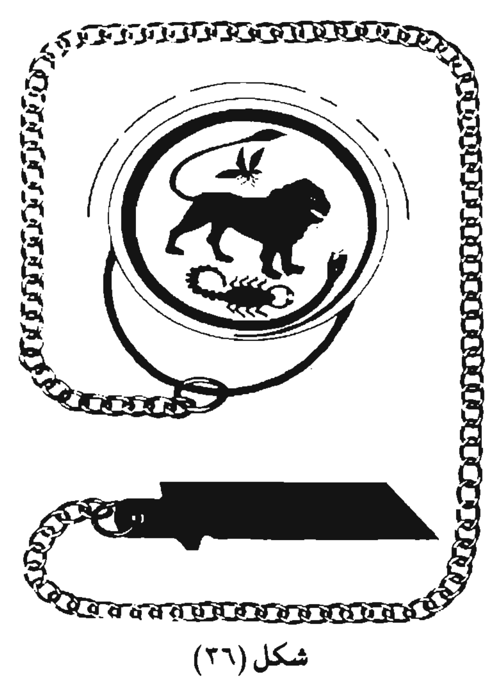
وعلى هذا الأساس يمكن أن نجري تصحيحاً كاملاً لمعنى سكندولا بأكملها فظاهرها يدل على أنها نقوش لكائنات ظلامية عُبِّرَ عنها بالحيوانات الأربعة لكن باطنها يدل على عالم النور فالأفعى هي (هيّي) وهي الحياة الأولى الكاملة المحيطة بالوجود. والأسد هو (الضوء) لأنه رمز شمسي وناري. والعقرب هو رمزٌ آخر للإلهة الأم ويمكن أن يكون للحياة أيضاً (الثانية أو الثالثة أو الرابعة) والنحلة رمزٌ للأثري أو الملائكة بسبب أجنحتها.

إن السكندولا تحمل طاقة عالمي النور والظلام وتظهر طاقة عالم الظلام واضحة مباشرة من خلال هذه الحيوانات ودلالاتها ورموزها الدالة على العناصر الأربعة، أما باطنها فيشر إلى عالم النور من خلال الدلالات الخفية لهذه الرموز. وقد أوضحنا الجذور التي أتت منها هذه الرموز في عالمي النور والظلام.

وتستعمل السكندولا للأغراض الآتية:

١. للتعزيم على المعزولين لنجاستهم (مثل الولادة والزواج)
٢. تختم بها سرّة الوليد (بعد قطع سرّته بالسكين)
٣. يُلبسها الكنزا فرا للعريس في حفلة الزواج
٤. يختم بها القبر في طقوس الدفن من جهاته الأربع

لقد أكدت ليدي دراور على أن هذه الرموز تظهر في الآثار المجوسية باستثناء النحلة، ونقول أن هذه الرموز تظهر بصورة طاغية في الآثار الرافدينية حيث الأسد رمزٌ شمسي يتغلب على الثور ويرافق عشتار دائماً والعقرب تدلّ على الإلهة الأم منذ عصور ما قبل التاريخ وتدل على الأرض والأفعى تدل على الإلهة الأم الأولى (نمّو) أو (تيامت) بل أنها تسمى (ماه) القريب من (ماء) الذي ترمز له. وحتى النحلة تظهر في الكثير من الأختام الأسطوانية الآشورية.



شكل (٣٦)

سكندولا (مسكن الشر)

ختم طلسمي تحمل نقوش (الأسد والعقرب والنحلة والأفعى) (شدوم، هاغ، زرتاي، أور)التي ترمز من وجهة نظرنا إلى العناصر الأربعة (النار والتراب والهواء والماء) على التوالي

رسمها : ماجد فندي المباركي

يرد ذكر السكندولا في بعض الحكايات الشعبية المندائية كطلسم مختوم على الأماكن السرّية الغامضة، ففي الحكاية الحادية عشر من كتاب الأساطير المندائية لليدي دروار وهي بعنوان (جبل مدّاي وكيف جاء الأتراك لاحتلاله) يرد ذكر منجِّم تركي كان قد عثر على إناء يشبه مرآة يمكن أن يرى ما يحدث في المكان الذي يريد معرفة ما يحدث فيه، وحين يستدرجه الكنزفرا المندائي ويأخذ منه هذا الإناء يكشف المنجّم سرّ عثوره على هذا الإناء فيقول «إن الإناء الذي تراه هو من جبل قوردون الذي يسميه العرب بجبل قاف وهو من الجبال التي تحيط بالأرض وهي واقعة في الشمال»(١١٩)

وحين سأله الكنزافرا عن كيفية الحصول عليه من قبل الذين جلبوه له قال «يوجد في تلك الجبال محلّ يتعذر بلوغه محاط بمستنقعات كثيفة مملوءة بالقصب والشجر والحيوانات المفترسة،

وقد حدث أن افتقر والدي الغني وارتاد هذا المكان المخيف قائلاً: لتفترسني السباع والوحوش فأنا الآن لا أبالي لأنني أصبحتُ معدماً. وكان له حمار يحمله في أسفاره، ولما اقترب الحمار من ذلك المكان رأى والدي ما ملأه رعباً، فقد رأى أفعى ضخمة تلتفّ حول لوح من الرخام الأسود، ورأسها منتصب وعيناها تقدحان شرراً، وكان في منتصف اللوح أسدٌ في هيئة تهديد وبجانبه عقرب كبير وفوقه زنبار أكبر من الطائر»[١٢٠]

«ضحك الكنزافرا حين سمع ذلك لأن والد المنجّم لم ير حيوانات ووحوشاً حقيقية. بل رأى سكيندولة وهي مجموعة رموز طلسمية، فالأفعى برأسها المرفوع تمثل أور التنين الهائل الذي تستقر فوقه الأرض، ورأسه مرتفع إلى أباثر وعيناه المتقدتان هما من الماس، وهذا الرصد والرموز قد صنعها المندائيون لتحافظ على كنز مدفون هناك، من الجان والعابثين الآخرين، لقد كان هذا الرصد قوياً بحيث لا يستطيع أحد الدنو من البقعة التي هو فيها. وسرّ الكنزفرا كثيراً حين سمع هذا وقال: سأذهب إلى هناك»[١٢١]

ثم يُخرج والد المنجّم الإناء السحري من هذا المكان. لكن الحكاية التالية تذكر كيف أن الكنزافرا سافر إلى المكان الذي فيه رموز السكندولا وحين وصل مع أتباعه «رأوا الحيوانات كما وصفت لهم، منتصبة على قاعدة من المرمر وكان الأسد والعقرب من ذهب، وكان الأفعى (أور) الذي كان يحيط بالمجموعة، من حديد متين قوي، وكانت النحلة من معدنٍ أحمر لا أعلم نوعه، وحين أزاحوا الرصد رفع المندائيون اللوجة المرمرية، فرأوا تحتها سرداباً عميقاً موغلاً في الأرض..إلخ»[١٢٢]

ونفهم من بقية الحكاية أن الكنزافرا سافر في هذا السرداب المظلم وعثر على عصا ساعدته على فتح الطريق حتى إذا وصل إلى نهاية السرداب رأى عالماً أبيض وإناساً يغطيهم الريش الأبيض وحين أخذوه إلى سلطانهم عرف أنهم أقوام قديمة....إلخ

ما يهمنا من هذه الحكاية هو السكندولا التي ضعت كطلسم يحمي الطريق السفلي الذي يؤدي إلى عالمٍ سريّ فيه الكثير مما يشابه عالم النور أو المشوني كَوشطا، وهذا دليل آخر على أن طلسم السكندولا يحمل مستويين من الرموز الأول ظاهري يرمز لعالم الظلام والثاني باطني سري يرمز لعالم النور وهو ما حملته الحكاية السابقة.

المبحث الثالث

الانثروبوغونيا : خليقة الإنسان

Anthropogony

لا يشبه خلقُ الإنسان عند المندائيين ما تحدثت عنه الأديان والأساطير في هذا المجال من وثنية وموحِّدة، فللمندائيين خصوصية نادرة منطوية على رمزيةٍ عالية وأغوار بعيدة سنحاول الكشف عن بعض أسرارها في هذا المبحث.

خُلقَ مثال الإنسان ونموذجه السماوي أولاً، هناكَ، في عالم النور لا لكي يُخلق الإنسان الأرضي بعده مباشرة، بل كان آدم كاسيا (أداكاس) آدم الخفيّ هو أحد رُسل مانا العظيم داخل عالم النور نفسه. وحين تمّ التفكير بخلق كائن مزدوج (جسده من عالم الظلام وروحه من عالم النور) كان آدم كاسيا جاهزاً لأن يحل في آدم بغرا (آدم الجسدي) لينتج آدم وهو المخلوق الأول المدرك العاقل على وجه الأرض والذي هو مثل وثيقة اتفاق بين عالمي النور والظلام على نوع من الحرب الباردة إن صح التعبير.

ويعود بنا هذا الأمر إلى إحدى صفات الفكر الميثوبي (الأسطوري) الذي يقضي بأن كلّ شيء يظهر بمظهر مزدوج أحدهما هو منوكي **Menok** مثالي غير مرئي والآخر هو جيتيكي **Getik** واقعي مرئي، والشكل المنوكي هو الشكل الأول الذي تنشأ على أساسه الأشياء الجيتيكية التي نراها ونتعامل معها وهذا يذكّرنا بأفلاطون الذي فلسف هذه الفكرة وجعلها أساسنظامه الفكري والفلسفي.

وقد ناقشنا في ثيوغونيا الإنسان آدم كاسيا (أداكاس) وسلالته النورانية فهو المانا المستتر الخفيّ وهو الرسول (مالالا) الذي يتماهى مع الروح (نيشمثا) ويوصلها إلى جسد آدم الأرضي، ورسالة أداكاس الأرضية هي إيصال الروح وأحياناً العودة إليها لمرافقتها في العُروج (الصعود) إلى عالم النور.

وله أسماءٌأخرى آدمية مثل أدكاس مانا (العقل)، أدكاس ربّا (العظيم)، آدم من عالم النور

مثل (نبطا)، تنّا، نهورا، مانا، إشـاثا هينا —الحرارة الحيّة ـ ، نشمثا، نيموسا —النـاموس ـ) وصفات أخرى مثل زفير الحياة (نهمت هيي) وآلماد نموسا (عـالم القـانون) والـوفيّ (وافي) وريشا (الرئيس أو الأول)...إلخ

والحقيقة أن أداكاس هو التجلي الجديد للمانا العظيم بعد مندا إد هي والحياة وأن هذا التناظر بينه وبين مندا إد هيي هو الذي يجعله مرافقاً لـ(حواء كاسبا) التي هي سحابة النور (أنانا إد نهورا) المناظرة للحياة، بل أن سلالة آدم كاسيا وحواء كاسيا مناظرةٌ ومتطابقة مع سلالة مندا إد هيي فهما ينجبان (هيبل وشيتل وأنوش) في عالم النور، ونحنُ نعرفُ تماماً أن هؤلاء هـم أبنـاء منـدا إد هيي (وإخوانه، هكذا يوصفون). وبذلك نـرجّح تطـابق شخصيتي منـدا إد هيي مع آدم كاسيا وتطابق هذين مع مانا العظيم الذي هو ذات الحي العظيم (هيي ربّا).

إلى أين يقود هذا الاستنتاج؟ ألا يعني ذلك أن الله المندائي حلّ أو تجسد في شكل بشري، هـو آدم وليس المسيح، وأبلغ رسالته على الأرض التي هي رسالة عالم النور، وهذا هو جوهر ما نادت به المسيحية لاحقاً، واعتبرت المندائية غفلة البشر عن رسالته هي غفلتهم عن جوهرهم الإلهي الذي يسكنهم على شكل (نشمثا) كما تقـول المندائيـة ولـذلك قـاموا بصلبه وأصبح فداءً للبشرية كلها. لقد جسّدت المسيحية عذاب الروح داخل الجسد بعملية الصلب، أما المندائية فقد أبقت الحكاية بشكلها الرمزي فالصليب الذي هو أحد رموز الضوء (رمز شمسي) تحول إلى حامل الجسد والروح للسيد المسيح لكي يشير إلى الطبيعة الضوئية للروح. لقد فرشت المندائيـة ثـم التيـارات الغنوصية الأرض كاملة لظهور المسيحية في فكرة الأب والإبن والروح القدس وفكرة الخلاص والفداء وهو ما سنناقشه مفصلاً عند مقارنتنا بين المندائية والأديان المحيطة بها في كتاب قادم.

ولكي نتتبع بدقة أسطورة خلق الإنسان المندائية والموضوعة في الكتاب الثالث من كنزا ربّا اليمين بشكل خاص وبرواية مبتسرة في الكتاب العاشر وبأشارات أخرى في كتب أخرى، رأينا أن نقسّم هذه الأسطورة إلى خمس مراحل أساسية قسّمناها على أساس متجانس وعميق حيث تبدأ كل مرحلة بوضع خطة عالم النور لها وتنتهي بوضع خطة أو مؤامرة لعالم الظلام تحاول مجابهتها أو تحدّيها. وتكون المرحلة السادسة هي انتقام مندا إد هيي من الكائنات البشرية لعالم الظلام التي ملّ مؤامراتها ضد خلق الإنسان ومحاولاتها اختطاف هذا الإنجاز النوراني لعالم النور مثلما حصل

مع اختطافها للأرض بعد خلقها من يد بثاهيل.

في المرحلة الأولى يخلقُ جسد آدم من قبل بثاهيل فتّدسُّ الروها الروحَ الضعيفةَ (روها) في جسده وتدس من ظلامها الكثير. وفي المرحلة الثانية تزرع الروح (نشمثا) القادمة من عالم النور فيحاول الأشرار تقطيعها. وفي المرحلة الثالثة يقوم آدم ويعرف الخطأ من الصواب فتنادي روها بإنشاء كنيسة (جماعة) الظلام ضد آدم لتحقق لها دوراً مضاداً له وفي المرحلة الرابعة تُخلقُ حواء وتنزلُ في جسدها نسمة النور فتعقد روها حفلةً شيطانية لتشويش آدم وحواء وبلبلة أفكارهما. وفي المرحلة الخامسة ينجب آدم وحواء أبناءً ثلاثة فتقوم روها بأغواء الإبن الأكبر هيبل وضمِّه إلى صفوفها، وفي المرحلة السادسة يتدخل مندا إد هيِّي بقوة فينتقم من الأشرار بقسوة ويضع حداً لمؤامراتهم ثم يعطي تعاليمه إلى آدم.

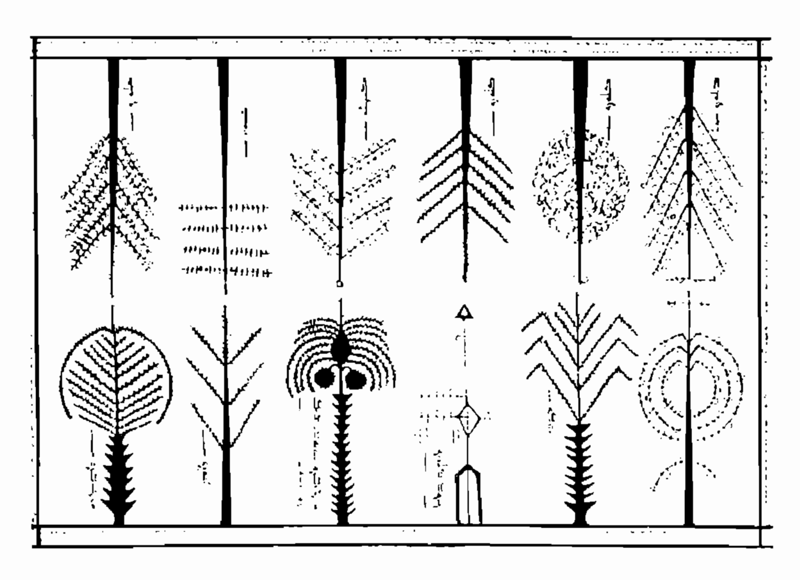
إن هذا التجانس في إيقاع الأسطورة ونظامها هو جزءٌ من الإيقاع المتجانس الخفيّ في كلّ أساطير الخليقة المندائية بل في كل الصورة الروحية التي يقدمها الدين المندائي لبدء الخليقة وعمرانها وخرابها وزوالها.

أولاً : خلق آدم بغرا (آدم الجسدي) ودسّ الروح الضعيفة فيه :

يخبرنا الكتاب الثالث من الكنزا ربّا اليمين أنه بين الزمن الذي تكوّنت فيه الأرض وصارت صلبةً وحتى مجيء آدم تقع حقبة طويلة يبلغ أمدها ٣٦٠ ألف عام. كانت فيها الأرض تحت سيطرة روها وأبنها أور الذي يسمى على الأرض (باراسفاك) والكواكب السبعة والخمسة والأبراج الاثني عشر والشبياهي (الشياطين) من الذكور والإناث ومساعِدات روها (همورثا وعشتراوت وليليثا).

وكان بثاهيل قد قفل راجعاً إلى أبيه وخاطبه قائلاً: «لقد أتيتُ أنا إلى هذا من أجل أن أخلق لي أبناً. إني أريدُ أن أخلقَ لي إبناً حبيباً وأمنحه الإيمان الصائب لكي يشبّ هو ويحمد ويسبِّح للحياة العظمى. عندما يغدو هو كبيراً ويقف على قدميه فسوف يرفع يده عالياً ضد الحيوان الوحشي ويضربه. إنه سوف يرفع يده عالياً ضد الحيوان الوحشي وضد الحيوان الأليف على السواء ويضربهما. أما الحيوان الأليف فسوف يعلّمه هو على أن يقوم بخدمات صالحة بسبب ما

كانت قد أرتكبته الكواكب. إذ إن هذه كانت قد جزأت تربة الأرض إلى أقسام بحيث أصبحت الأجسام تقتات على كل الحيوانات الأليفة وأثمار الأرض.. تلك التي جاءت كلها من ثمار المياه.»[١٢٣]



شكل (٣٧)

أشجار ونباتات مختلفة ربما تمثل جزءً من العالم السماوي

وهو العالم الروحي وبدايته (حيث الرجل الأول) ظهر وتوالت الخليقة

أشجار النخيل والفواكه

من مخطوطة (العالم الكبير)) آلما رشايا ربّا)

وحين نزل بثاهيل وأخبر الكواكب السيارة بأنه، مع عظماء عالم النور، يريدون خلق آدم ليصبح ملكاً على العالم، تشاورت الكواكب بينها وقالت بل نحنُ نريد خلق آدم وحواء معاً لأنهما منّا وسنضعهما على رأس جيل بأكمله. لكن بثاهيل قال أنا سأخلق آدم ثم خاطب الكواكب «آدم هو إبني. إنه ملك هذا العالم. فردّت الكواكب بالإجابة عليه قائلة: نحنُ كلنا ثقة بأن هذا سيحصل ولكن نحنُ نريد أن نأخذ الحيطة لكل احتمال ومن ثم علام نستولي نحنُ في هذا العالم. حينئذٍ ردّ بثاهيل بالإجابة قائلاً: يتعين عليكم أن تكونوا له مربياً ومرشداً وأن تخدموه ما استطعتم من كلّ الوجوه»[١٢٤]

ولنلاحظ أن هناك غياباً مؤقتاً للروها فالكواكب هي التي ستخلق الجسد الآدمي وستجوّف عظامه بالريح لكي يتكون المخَ وتنادي بهاء الحرارة الحيّة لتجعل رداءه نورانياً وتنادي شبّورة الجداول ودخان النار الآكلة لتمنحهُ القوة:

«عندما خلقت الكواكب آدم
لم تنفخ الروح (نيشمثا) في صدره
ثم عمدت هي فنادت على الرياح
لكي تجوّف هذه عظامه
ولكي يتكون النخاع فيها
كي يتكون مُخّ العظام فيها
ولكي يقف هو بثبات على قدميه
ثم نادت هي بهاء الحرارة الحيّة
كي تجعل هذه رداءه نورانياً
كي تجعل هي لباسه فاتحاً نورانياً
ولكي يقفهو على قدميه منتصباً
ثم نادت هي شبّورة الجداول
ودخان النار الآكلة
لكي يدخل كلاهما في بطن جذعه
بحيث يكوّر هو قبضته
ويكسر بقوة ساعديه
حتى ينتهر ويشتم وينتفض
وحتى يقف متسمراً على قدميه
بعد ذلك تكلمت الكواكب قائلةَ
واتجهت بخطابها نحو بثاهيل:
إمنحنا الموافقة بأن نعطيه روحاً (نيشمثا)
كذلك التي جلبتها أنت معك من دار أبيك.
جميع الكواكب سعت لفعل هذا
وبذلت جهدها كذلك كلّ أسياد العالم

ثم جدّ كلهم للوصول إلى هدفو
إلاّ أنهم لم يفلحوا في أن يثبتوه على قدميه»[١٢٥]

إن الكواكب زرعت في جسد آدم الروح الضعيفة (روها) لكنّ آدم لم ينهض لأن الروح الإلهية القوية (نشمثا) ليست فيه، وهذا ما سيدفع بثاهيل للصعود إلى المقام النوراني ويجلب نشمثا ليزرعها في الجسد فتدب الحركة فيه. إن روح الظلام (روها) لا تكفي لوحدها كي تمنح جسد آدم الحياة، ربما هي جزءٌ ملتصقٌ بمكونات الجسد، وربما هي ما أصطلحنا على تسميته بـ(النفس) التي تحرك الهواجس والرغبات ولهذا أدعو كل من ترجم كلمة نشمثا إلى (نفس) بأن يعدل عن رأيه هذا لأن الترجمة الدقيقة لها هي (روح) أو (نسمة النور) فالنفس هي روح الجسد وهي ما عبر عنه التراث المندائي بدقة بكلمة (روها) أما الروح فهي الروح الإلهية النورانية ويمكننا على هذا الأساس القول بأن هناك روحين متّحدتين الروح الاولى الضعيفة جاءت من عالم الظلام بينماالثانية قوية جاءت من عالم النور وأصبح يمثل للروح عموماً بـ(نشمثا) وفي رواية الكتاب الخامس/ج١ يقوم ياور (هيبل زيوا) بالإيعاز للكواكب بخلق البنية الجسدية لآدم أما هو فيجلب (نيشمثا) من دار النيطوفتا وينفخها في جسد آدم ثم في جسد حواء. أما في الكتاب العاشر فيرد أن بثاهيل خلق آدم على شاكلته وعلى شاكلة آدم خلقت زوجته حواء، ثم أوقد بثاهيل فيه نوعاً من الروح من روحه ذاتها ثم جاء دور الكواكب فأخذ كلٌّ منها يرمي شيئاً منه (آدم) من سرّه الخاص به. ولكن بثاهيل والكواكب التي كانت معه لم تستطع أن تنصّب آدم وزوجته حواء على أقدامهما، حينئذٍ استنجد بثاهيل بأبيه فأخذ هذا الأخير أحد المانات المحتجبة الذي كان منح لهما من دار الحياة، جلبه ونفخه في باطن آدم وزوجته حواء.»[١٢٦]

ربما أرادت الكواكب بدسّها للروح الضعيفة فيه امتلاك آدم كلّه وتفويت الفرصة على دسّ الروح القوية (نشمثا) وامتلاكه إلى الأبد.

ثانياً: إدخال الروح (نشمثا) ومحاولة تقطيعها:

صعد بثاهيل إلى أبيه (أباثر) وأخبره بأنه فعل كلّ شيء لكن صورته وصورة أبيه لم تنجح والمقصود بذلك أن آدم الذي خُلق لم يأخذ بعد صورة بثاهيل أو أباثر والصورة لها دلالة خلقية

عظيمة حيث خُلقَ بثاهيل من تحديق أباثر في الماء الأسود ومشاهده لصورته فخرج بثاهيل من صورة أباثر كما أسلفنا. وتبدو لنا عملية الخلق، كلّها، وكأنها تدرج في الظهور وصولا الى الظهور العياني للآدم، حيث أن يوشامن هو ظهو أوضح من الحياو الأولى وأباثر أوضح من يوشامن ثم كان بثاهيل خلاسيا خليطا من النور والظلمة فكأنه على وشك الظهور عيانيا لكن هذا الظهور يتحقق مع ابنه آدم وهويتجسد في بدن ظلامي محسوس.

«عند ذاك استوى أبو الأثري واقفاً
ثم أخذ أهبته وقصد إلى المكان غير المرئي
وتناول (مانا) وهي مادة روحية
التي تحلّ بالأشياء الميتة فتجعلها حيّةً
لأجل أن تحلّ هي بجثمان الجسد
من كل نوع ومن كلٍّ لون
فلفّها هو بعمامته الطاهرة
بينما أخذ يستحضر جميع الأسماء التي أعطتها الحياة إياه
ثم أمسك بها في نهاية طرفي عمامته
وأخذها معه وجلبها بالتالي إلى إبنه بثاهيل
عندما سلّم هو بثاهيل أثرا إياها
استدعت الحياة جميع أعوانها
هي استدعت هيبل وشيتل وأنوش
تلك الأثري الصالحة بدون نقصان
لقد استدعت هي إياها ووجهت إليها الأوامر وكذلك التحذيرات عن الأرواح
الحياة تكلمت قائلة:
إحفظوا أنتم إيّاها
حتى لا يعرف أيّ كائن عنها شيئاً
لا تدعو الشرير بثاهيل يعرف أي شيء
وكيف تستوطن الروح (نيشمتا) في الجسد
كيف تستوطن الروح في الجسد

وكيف ينبضُ فيه الدم

كيف يسري الدم فيه

وكيف يخترقُ هذا الجلد واللحم

خلال الأغصان . أما أداكاس مانا

فليكن هو حارسها .

عندما يتلفع آدم ببهاء الحياة

ويقف على قدميه بثبات

عندما يتكلم هو من فم طاهر

فأعده أنت ثانيةً إلى مكانه

أعده ثانيةً إلى موضعه الأول

واحفظه من هذا وذاك»[١٢٧]

يتضح من المقطع السابق أن الحياة لا تثق ببثاهيل (الحياة الرابعة) ولذلك أرادت إخفاء أسرار الروح وكيفية استيطانها في الجسد. ويبدو دور (أداكاس مانا) هو كونه الحارس للروح (مانا أو نيشمثا) ولكن أدكاس (آدم كاسيا) هو حامل الروح إلى (آدم بغرا) وهو سيعود إلى عالم النور بعد انجاز هذه المهمة وكأنه سيلقي نوره في الجسد وسيعود إلى الأعالي. النصوص المندائية تخفي داخلها أسراراً مثولوجية عميقة معبرةً بصدقٍ عن نوعٍ جديد من المثولوجيا الغنوصية التي لم نكن نألفها في المثولوجيا القديمة لا بد من التعرف تفصيلياً على كفية دخول الروح إلى جسد آدم فهي اللحظة الحرجة التي يتم فيها الخلق البشري لذلك يوضّحه الكتاب الثالث كما يلي :

«عندما جاءوا هم إلى تيبل قادمين

إلى الجثمان بدون روح (نيشمتا)

لَمّا أراد هو (بثاهيل) أن يضع الروح في الجسد

أخذتها أنا (مندا إد هيي) من جيبه

بينما أمسك بثاهيل بآدم

أنصبتُ أنا جذعه وأقمتُ العظام

بينما وضع هو يده على رأسه

جعلته أنا يشمُّ عبير الحياة العظمى

حينئذٍ امتلأ الجسم بالنخاع
وبانت إمارات الحياة عليه واضحةً
فتح هو عينيه ونظر خلال هيكله الجسمي
لمّا بانت ظواهر الحياة عليه واضحةً
صعد أداكاس زيوا إلى مكانه عالياً
إني أوصلته إلى مكانه في العلياء، إلى دار الحياة العظمى
إلى المكان السامي الذي تتربع عليه الكبرى
بعدئذٍ سلّمته بيد حرّاس الكنز
تلك الأثري التي تحرس أيضاً ماء الحياة
إن الحياة حمدت للأثرا صنيعه
ذلكم الذي جاء بالروح (نيشمتا).
إن الكبرى دعتني إليها آمرةً
وتكلمت قائلةً: إذهب، صُحْ بصوتٍ مهيب جليل
صُحْ بصوتٍ مهيب
حتى لا يعلم الأشرار شيئاً عن الروح»[١٢٨]

ماذا يعني أن أداكاس عاد إلى كنز الأرواح في عالم النور وأن أداكاس هو (نشمثا) نفسها فهي واحدة من أسمائه؟ هل يعني أنه بصمَ الجسد البشري بطيف من النور الإلهي فتدبّ فيه الحياة، ألا يعني ذلك أن أداكاس هوحامل الشيفرة الروحية والجينية لآدم. هكذا يبدو لنا لأن في عودته ما يشير إلى أنه وضع شيئاً خفياً داخل الجسد (رغم أن النص يشير إلى أن مندا إد هيي هو الذي فعل ذلك وأن أداكاس حمل نشمثا فقط) فهو الحامل والمحمول كما يشير النص في ثناياه الخفيّة.

إن صرخة مندا إد هيي هي محاولة للتشويش على الأشرار لكي لا يعرفوا شيئاً عن الروح التي دخلت في جسد آدم. لكن مندا إد هيي حين ينزلُ يجد أن الشياطين متقرفصون يحيطون بجسد آدم ويعملون السحر والتعاويذ لكي يحصلوا على الروح (نيشمتا) ويقطّعونها فيراهم ويبدأ بالظور في عدة أشكالٍ أو هيئات وهي:

١. يظهر للعيان في بهاء وفير كان أبوه قد منحه له.

٢. يظهر ويتجلى لبثاهيل أثرا الذي يبكي بسبب كل ما فعله.

٣. يتجلى للروها ويكشف لها عن السرّ الكبير الذي بفضله أخمدت ثورة العصاة لكنها كانت عمياء ولم ترَ شيئاً أبداً، فيكشف لها عن السر الثاني ويقيدها بعنان الجمل ثم يكشف لها السرّ الثالث ويشج رأسها بشق مؤلم.

٤. ينظر للكواكب فتعترف بأنها مذنبة وتسقط على جبهتها وتطلب المغفرة.

٥. يُقسِم على الأشرار ألاّ يرتكبوا الذنب بحق الروح (نيشمتا) ثم يبتعد عنها

وتعتبر هذه الظهورات أو التجليات لمندا إد هيي أمام الأشرار بمثابة الإنذار والتحذير لها لكي لا تتعرض إلى إرادة عالم النور في إنزال طيفٍ منها إلى عالم الأرض.

ثالثاً: قيامة آدم وكنيسة الظلام:

يتخذ مندا إد هيي هيئة شكلٍ مرئي ويحاول أن لا يفزع روح آدم المدثّرة بردائها الجسماني ويجلس إليها بصبحة البهاء ثم ينشر عليها بهاء المانا الكبير، ثم يبدأ بوعظ وتعليم آدم بصوت جليل مهيب:

«ما أن جعلتُ أعظه وأعلمهُ بصوتٍ هادىء

حتى أوقظتُ قلبه من السبات والحلم

إني تكلمتُ معه بلسان الأثري

وعلّمته حكمتي

إني أخبرته عن حكمتي وتكلمت معه قائلاً:

بأن ينهض واقفاً ليعبد العظمى ويسبّح لها

أن يقوم ويمجد المقام السامي

والمكان الذي يقطنه الأبرار الصالحون

وأن يحمد أداكاس زيوا

أباه الحيّ جاء هو منه

بينما كنتُ أنا جالساً عن كثبٍ منه عاكفاً على تعليمه

نهضَ هو واقفاً وجعل يقدّس ويمدح العظمى

ثم جعل هو يحمد أباه أداكاس زيوا
ذلكم المانا الذي جاء هو منه
عندما كان هو يعبد أباه ، الأثرا ، ويسبِّح له
تجلّى له هذا ظاهراً من المقرّ الخفيّ
ولما رأى هو أباه ، الأثرا ، أمامه واقفاً
إنفتقت قريحته وجعل يمدحه مدحاً يفوق كلّ تصوّر
إنه بدأ ينشد بعضاً من التراتيل بصوتٍ جهير
وقلب بذلك الكواكب على رأسها»[١٢٩]

ثم يقوم آدم بالشهادة باسم الحياة وإنكار أعمال الأرض فيحنّ له مندا إد هيي ويتركه يبني له منزلاً ويزرع له بذرةً ويشق له نهراً لكنه سيرفعه إلى عالم النور حين تحين ساعته. أما أشرار عالم الظلام فقد اجتمعوا وأخذوا يتآمرون على آدم فيحاولون أسره وأخذه رهينة والعمل على إهانته والسيطرة على العالم، كانوا يريدون ممارسة الفاحشة وتأسيس كنيسة (جماعة) وجعله عضواً فيها، كانوا يريدون أسره بالأبواق والنايات كي لا يتحرر من ربقتهم أبداً وكانوا يريدون خلق سبعة أشكال مختلفة الأصناف والألوان.

إن تجديد الصلة بين آدم ووالده آدم كاسيا من خلال التراتيل والتسابيح يؤكد الرباط القوي الأثيري بين نشمثا ومانا/ آدم كاسيا. وهي إشارة طقسية إلى أن المؤمن يمكن لروحه أن تتصل بعالم النور من خلال التراتيل والتسابيح.

إن المؤامرة الجديدة لعالم الأشرار بأسر آدم وجرّه نحو المغريات والألوان والأصناف الكثيرة لعالم الأرض والظلام سوف تجابه من قبل عالم النور.

رابعاً : خلق حواء والحفلة الشيطانية :

عندما عرف مندا إد هيي بما ينوي الشياطين القيام به دعا أخوته من الأثري ليطلعهم على الأمر فاقترحوا عليه أن يشتلوا زرعة لآدم وبذلك تكون سلالته وافر العدد ولك عن طريق خلق زوجةٍ له وإقامة حفلةٍ له يحضرها الأشرار لكي يعلموا أنه لن يكون وحيداً وأن هناك من يؤنسه فيكفّون عن أسره وإغوائه.

«أنا والأثري، أخواني، بصحبتي
لم نصنع إلاّ خيراً
وأعددنا فضلاً عن ذلك حفلة زفافٍ لآدم في العالم
لقد أقمنا له نحنُ حفلة زفافٍ
وأعطيناه زوجةً
لقد أعطينا حواء امرأة له
كما كانت هي قد غرست في مكانه»[١٣٠]

تعتبر حواء رفيقة أو شريكة (صوثا) لآدم وأن جسدها خُلقَ على غرار جسد آدم من قبل الكواكب أيضاً وقد نزلت فيها نشمثا أو (مانا الخفية) بنفس الطريقة التي حصلت مع آدم فهناك حواء كاسيا (إنانا إد نهورا) وهي سحابة النور التي نزلت، على ما يبدو، برفقة مندا د هيي وزرعت في جسد حواء.

في الكتاب العاشر يخلق بثاهيل آدم وحواء سوية وينفخُ فيهما أحد المانات المحتجبة ثم يأتي أحد الأثري الموكل بتكوين السلالة طائراً والذي بعثت به الحياة إليه «فرفع آدم عينيه إلى الأعلى. أثناء ذلك أغدقه هيبل بالبهاء فأخذ آدم بالعطاس وسأل عن الحياة. بثاهيل والكواكب التي كانت بصحبته خاطبوه قائلين: لتعش يا آدم. فأجابهم آدم قائلاً: وثوقاً مني بالأثرا الذي يكوّن السلالة، ذلكم مَنْ جاء إليّ قادماً من دار الحياة. ثم استطرد آدم قائلاً: لقد جئت أنا قادماً من دار الحياة وبصحبتي كانت الحياة. أنا هو أدكاس زيوا ذلكم الذي نزل هابطاص من المقام المستتر، جاء فسقط فيّ وأتى بي إلى هنا. ثم نزولاً على رغبتي قابلني الرسول الطيب ليقودني إلى الخارج، إلى المكان الذي قدمت منه في البداية»[١٣١]

لكن هذا النص لا يفصح عن كيفية خلق حواء رغم أنه يكشف صراحة أن آدم هو نفسه آدم زيوا الذي هبط في الجسد وليس إبنه كما صرّح بذلك الكتاب الثالث.

ويعطينا هذا النص في الكتاب العاشر فكرة عن نهاية بثاهيل حيث يذكربأن آدم يقول في نهاية المقطع السابق أن (آدم زيوا) عاد وقادني إلى الخارج أي إلى عالم النور، وهذا يعني كأن شيئاً لم يحصل، أي أن تثبيت حاكم على الأرض كما أراد ذلك بثاهيل لم يحصل، لذلك يشكو بثاهيل لهيبل ويقول له: «وا أسفاه.. وا أسفاه على أعمالي التي أوكلتُ لكَ بالقيام بها). بعد ذلك ترك

بثاهيل العالم الذي كان هو قد صنعه وابتدعه بيديه وشخص ذاهباً إلى أبيه أواثر. غير أن أواثر سخط عليه سخطاً كبيراً وقيّد قدميه في صخرةٍ تعوقه عن السير والرحيل إلى أن تأتي نهاية العوالم. عند ذلك سوف يغتفر أحدهما للآخر ما اقترفه من ذنبٍ بحقه»(١٣٢)

لقد أدرك بثاهيل أن هبوط نشمثا على الأرض من عالم النور ثم صعودها عند الوفاة إلى عالم النور لا يعني إقامة عالم دائم كان يبغي أن يؤسسه وبذلك تكون الحياة الرابعة (بثاهيل) قد فشلت في تحقيق غايتها من إقامة شكينات خارج عالم النور بينما نجحت الحياتان الثانية والثالثة قبلها في إقامة هذه الشكينات في (عالم أبناء السلام). وهو ما يدفع أباثر لتقييد بثاهيل والحكم عليه بالسجن حتى نهاية العوالم، وهذا ما سنناقشه طويلاً في الفصل الأخير.

الكتاب الحادي عشر يكشف هوية حواء وصورتها حيث يتحدث بثاهيل مخاطباً روها والملائكة التي بصحبتها قائلاً: «إني أريد أن أصنعَ رجلاً يكون على صورتي وأنثى على صورتكِ، نحنُ نريد أن نسمي الرجل آدم والمرأة حواء. إني أريد أن أخلق صورتهما وأقيمها»(١٣٣)

(بثاهيل وروها)، إذن، هما نموذجا (آدم وحواء) من عالم الظلام، أي أنهما الشكل المينوكي السلبي لهما في حين شكّل (آدم كاسيا وحواء كاسيا) النموذج المينوكي الإيجابي لهما من عالم النور. وقد شهدنا تقاطعات كثيرة في هذا المجال مثل حضور (مندا إد هيي والحياة الأولى) وراء عمقهما النوراني البعيد.

ربما أصبحت (حواء) منطلقاً للخطيئة بسبب مقابلتها بـ(روها)، خصوصاً أن الشكل التوراتي لأسطورة الخليقة الذي صُنعت فيه حواء من ضلع آدم كانت هي سبباً في الأغواء الذي نتج عنه طردهما من الجنّة. لكن الأسطورة المندائية لم تنزلق إلى هذه الوصمات الظلامية الحادة لحواء لأنها تنظر أساساً لها باعتبارها حاملة نسمة النور (نشمثا) ولذلك فهي قادرة على الخلاص مثلها مثل آدم.

وبعد خلق حواء حزنت روها والكواكب وقررت إقامة حفلة شيطانية دعوا فيها آدم:

«إن الروها أخذت البخور

وتكلمت متفوهة بكلمة افتراء على آدم

إن الشمس جلبت رداءً

والقمر أتى بتنوّرةٍ
ونبو أعطى الذهب
وكيوان حذاءً ذا عنقٍ ونعلاً
أما بل فقد جلب خبزاً ونبيذاً
ونيرغ جلب الأقداح
كلّ الكواكب الاثني عشر
في جميع أشكالها وألوانها ؛
منها من كان نجّاراً
إن بعضاً من منها كان يصنع الأكاليل
والديفي كانت خدماً تذعن لها بالطاعة العمياء
والبعض من أشباحها كان من السقاة
أما الهمورثا فقد كانت تحترف الرقص
وعفاريتها تتعاطى السحر
هؤلاء جميعهم جلبوا الآس في حمولات ضخمة
ومن الورود ذات النكهة العطرة مجموعات ومجموعات
وجلبوا كذلك الياسمين الكبير
الذي كان قد جيء به من شكينة الحياة
إنهم جطلبوا الفلّ الكبير
وأحدثوا فيه نقصاً وعيباً .»[١٢٤]

أما مندا إد هيي وأخوانه من الأثري فقد عملوا حفلة نورانية مضادة وأحبطوا أعمال الأشرار عندما دعوا آدم وصنعوا له كل ما هو طيب وعملوا له حفلة زفاف فاخرة أحيوها بالتراتيل وكتب الصلاة وبذلك يكونوا قد أحبطوا أقوال وأفعال روها وجماعتها الأشرار.

خامساً : ولادة أبناء آدم وحواء وإغواء هيبل

لم يأت الاتصال الجنسي بين آدم وحواء دفعةً واحدة بل مرّ بمراحل ، فقد كان آدم وحواء لا يعرفانه لأنهما كانا يرتديان ثياب البهاء الذي يمنع الاتصال الجنسي. وفي رواية أخرى يذكرها

الكتاب العاشر أن آدم بعد خلقه «استوى واقفاً واحنى جذعه احتراماً وسبّح للرجل الذي جعله يبصر في عينيه ويمشي على قدميه. آدم أمعن النظر احتراماً فرأى كل شيء وأدرك ما وقعت عليه عيناه. آدم رأى امرأته حواء وأدركَ أنها عارية. وحين أدرك هو ذلك ألمَّ به الخجل وغشيه. لما فطن هيبل إلى هذا جاء هو إلى آدم قادماً عندما كان هذا واقفاً ويشعر بالخجل إزاء امرأته حواء. عند ذاكِ صنع هو لآدم ولزوجته حواء ثوباً لكي يستر كلاهما عورته به»(١٣٥)

إن انفتاح عينيّ آدم وإدراكه معنى عريه وعري حواء هو من جراءالمعرفة التي زودته بها نشمثا ولذلك خجل من ذلك فصنع هيبل لهما الثياب التي ستكون حاجزاً أمام اتصالهما الجنسي لأن الهبوط اللاحق لثلاث كائنات نورانية على حواء وهي (هيبل وشيتل وأنوش) هي التي تحفز حواء على التساؤل والتفكير بخلع ثيابهما وممارسة الجنس وهو ما سيؤدي إلى إنجاب الذريّة الأرضية لهما والمماثلة مع الذريّة النورانية التي هبطت عليهما.

لنتأمل أولاً في قصة الكتاب العاشر الموجزة ثم نعود تفصيلياً إلى قصة الكتاب الثالث. تقول قصة الكتاب العاشر: «بينما كان آدم يعيش مع حواء بعفّة وطهارة هبط غلامٌ شاب على حواء نازلاً فراحت هي تقول: من أين جاء ذلك الغلام الشاب الذي لم ينشأ خلال بذرة يغرسها الرجل؟ ما من جسم لإمرأة يقوى على حمله ولم تكن هي به حبلى؟ إن كلامه عذب وصوته رفيع ناعم. لقد سمّوه هيبل بار آدم ابن آدم من حواء»(١٣٦)

إن هذا الغلام الشاب، في حقيقة الأمر، هو ابن آدم كاسيا الذي ولد في عالم النور وهبوطه الآن هو استمرار لهبوط آدم كاسيا وذريته على الأرض. وهو ليس هيبل زيوا الذي ما زال على الأرض يهدي آدم وحواء للمعرفة والحياة.

لكن النصّ يخبرنا بعد هذا مباشرة أن هيبل (زيوا) انجب إبناً اسمه شيتل وشيتل رزق بولدٍ وكان اسمه أنوش. فهل هؤلاء أبناءٌ جدد لهيبل أم أنهم أخوته المعروفون (شيتل وأنوش)؟ ولماذا أنجبهم الآن؟ هل لكي يحصل هناك توازن بين ذرية آدم كاسيا وذريّته والذرية القادمة لآدم؟ هذه الأسئلة المحيرة الكامنة في أعماق الأسطورة المندائية يصعب الإجابة عليها الآن.

«بعد ذلك أطل آدم لأفكاره العنان ففكر بأبيه بثاهيل وبما كان أبوه (أواثر) قد أمره وأوصى به بشأنه وبما كان هيبل قد حباه هو وزوجته حواء من مقاصد ونيات. ما كاد يفرغ من ذلك حتى

نهض مع زوجته حواء من مكانهما وشرع كلاهما يخلع ذلك الثوب الذي كان هيبل سابقاً قد كسا إياهما به. لقد كان آدم وحواء من حيث الصورة (الهيئة) نفسها يشبهان كنز الحياة»[١٣٧]

ثم يكمل النص:

«عندما اكتملت شهور حواء التسعة جاءها المخاض فتكلمت العوالم قائلة: من أين جاء هيبل؟ من أين أنجبت حواء هذا الأبن الذين لم ينشأ من نطفة آدم؟ نعم، إن هذا ليستحق أن يدعى بالعجب العجاب ويستحق أن يُعلن خبره في كلّ العوالم. إنه سليل يخرج إلى تيبل ويكشف عن نفسه ويذهب في عالم بني آدم ليصنع شيئاً صالحاً في منشآت البشر ثم يرجع فيقودهم من جديد إلى الموضع الذي كانوا هم قد أتوا منه في البداية»[١٣٨]

هذا المقطع محيّر تماماً فكيف تتكلم العوالم عن ولادة عذرية؟ إذ يبدو ابن حواء وكأنه غير مولودٍ عن أبٍ أرضي، واستناداً إلى الإشارة السابقة بظهور ابن هيبل وظهور ابن آدم كاسيا فأننا يمكن أن نفترض أن حواء حملت بولدها القادم هيبل من مصدر نوراني لا من بشر أرضي. وأن هذا الابن قد خرج إلى تيبل وكشف عن نفسه وذهب إلى عالم بني آدم ليصنع شيئاً صالحاً في منشآت البشر ثم يردف النص ويقول (ثم يرجع فيقودهم من جديد إلى الموضع الذي كانوا هم قد أتوا منه في البداية) أي أنه سيكون المخلّص لهم وأنه سيتحمل عذاب عالم الأرض الظلامي ولكنه سيعود إلى الأعالي. إن هذا النص فقط هو جوهر الديانة المسيحية كلها، فقد ولدت مريم من مصدر إلهي وكان المسيح فادياً للبشر بتحمله أخطاءهم لكنه سيتحمل أخطاءهم ويخلصهم ويقودهم إلى السماء. لطالما كنا نرى أن المندائية بنظامها الروحي النوراني هي أحد أهم مصادر المسيحية فالتشابه هنا بين المسيح وبين آدم أولاً ثم هيبل ثانياً(والمسيح هو ابن آدم المتأخر) وطريقة الخلاص التي اوضحتها المندائية في أكثر من مكان ملفتةٌ للإنتباه وقد تستوجب منا وقفةً أطول بكثير من هذه الوقفة.

الولادة الأولى كانت مكونةً من ذكر وانثى ثم ولدت حواء (بعد أن ألقى آدم بنفسه على الفراش واقترب من امرأته حواء) توأماً آخر من ذكر وانثى. وهنا يظهر «أداكاس مانا» الذي أتى من المكان الكامن ونزل في آدم وزوجته حواء فأنهض الزوجين كليهما على أقدامهما بحيث أنهما أصبحا يمشيان وجعل فمهما مفتوحاً بحيث أنهما أمسيا يأكلان ثم قلّد آدم زمام السيطرة على

الحيوانات وعلى الأثمار والكروم والأشجار وعلى الطيور والأسماك في البحر، تلك التي كان أبوه بثاهيل قد خلقها لتكون لآدم كقوت وطعام. هيبل تكلم مخاطباً آدم قائلاً: أما بعد، فخذ صوف هذه الحيوانات وضعها في يد امرأتك حواء لكي تصنع منها لك رداءً يكون بمثابة الحلية لجسمك ولجسم زوجتك حواء، المرأة، التي خلقها لكَ أبوك بثاهيل»[١٣٩]

لماذا نزل أداكاس بعد ولادة التوأم الثاني؟ ولماذا علّمهما هذه الأمور ومنها صنع ثوبامن صوف الحيوانات بدلاً من ذلك الثوب الذي منع اتصال آدم وحواء الجنسي؟ ورغم ذلك انجبت حواء بمجرد أن نام آدم جنبها.

ثم يقوم آدم بالعمل وجز الصوف وصنع الثوبين أما أدكاس فيعد لهما المأوى ويجهز لهما الغذاء وتحسدهما الكواكب على ذلك فيقول لهما إن الروح التي زرعها بثاهيل في آدم لم تفعل شيئاً حتى جئت أنا أدكاس مانا من المكان الخفي المستتر (من صلبي أنا توزعت السلالات في تيبل وانتشرت. لقد كنتُ أنا من بذر النطف في أرحام النساء. من نطفي تكوّن الجنين في بدن المرأة..إلخ) وتكشف لنا هذه العبارة، مرةً أخرى، أن الذي لقّح حواء من نطفته وكوّن أبناءَها هو أداكاس مانا وليس آدم أي أن هناك خلقٌ إلهي حصل مع حواء قامت المسيحية بنقله مع مريم العذراء.

نوع السلالة	ممثل السلالة	رأس السلالة وزوجته	الابن الأول وزوجته	الابن الثاني وزوجته	الابن الثالث وزوجته
الحياة	أداكاس (أداكاس مانا)	أداكاس زيوا إنانا دنهورا	هيبل عناث هيي	إنان نصاب زيوا شتيل أنهر زيوا حواء	بارهيي (بار أنوش آلام) دموث هيي
المعرفة	مندا إدهيي (عارف الحي)	مندا إدهيي —	هيبل أثرا —	شيتل أثرا —	أنوش أثرا —
الوحي	هيبل زيوا (جبرائيل)	هيبل ياور —	هيبل زيوا —	شتيل —	أنوش —
الإنسان	آدم	أدم حواء	هيبل —	شيتل —	أنوش —

جدول (٣٨)

سلالات الحياة والمعرفة والوحي التي ساهمت في خليقة الانسان الأول (آدم وحواء)

أما رواية الكتاب الثالث لولادة أبناء آدم وحواء وهي الرواية الأصل في مثولوجيا الخليقة المندائية فتقول شيئاً مختلفاً نسبياً، حيث تفاجئنا بعد حفلة زواج آدم وحواء التي أقامها الأثري ومندا إد هيي رداً على حفلة الشياطين، تفاجؤنا بمخاض حواء وكيف أن مندا إد هيي يقوم بنصيحة آدم حول أمور الزواج ويقول له:

«سلالة الحياة تزداد وفرةً وعدداً

ومنها سيحيا العالم وينمو

سوف يحيا العالم وينمو

سوف يحيا العالم من وفرتها وينمو

وسوف تكون الحياة لذلك شاكرة

سوف تمدّ الحياة لها من أجل ذلك بالشكر

ومن ثم سوف تمنح الحياة السلالة الخلاص وترفع أفرادها إلى العلياء

وتنقذهم من عالم الأشرار هذا»[١٤٠]

وضعنا هذه المقدمة لنثبت أن الحياة هي التي ستكون سلالة نورانية مكونة من أدكاس وأبناءه. وأن مندا إد هيي سيكون سلالة نورانية مكونة منه ومن أبنائه وأن هيبل نفسه سيون سلالة ثلاثية مع ولديه شيتل وحفيده أنوش وهذه السلالات ستحيط بسلالة آدم وحواء الأساسية المكونة من (هيبل، شيتل، أنوش). ولنتأمل في سلالة الحياة التي على الأرض والتي يرأسها أداكاس زيوا:

«في مقدمة الأسرة الأولى

جاء أداكاس زويا

أداكاس زيوا كان في طليعة جيله

وهو الذي قابل سحابة نورانية واتخذ منها امرأة له

لقد تقابل الاثنان معاً

ولما جاءها المخاض

ولدت هي هيبل وعناث هيي

وعندما جاءنها المخاض ثانية

انجبت إنان نصاب وأنهر زيوا

لقد جاء إلى الدنيا إنان نصاب وانهر زيوا
وكان كلا الأسمين مقبولاً وممتعاً بالنسبة للعوالم.
إنان ـ نصاب ـ زيوا ـ شيتل
وأنهر ـ زيوا ـ حواء التي ولدت من حواء
العوالم والاجيال تهتف لهما بالدوام
إن اسميهما يستمران ويتكرران دوماً في العوالم
أما في مخاضها الثالث
فقد ولدت هي بار هيي ودموث هيي
بار أنوش ـ آدم الذي يوطّد طائفته
دموث هيي التي انحدر العالم من نسلها.
هيبل، سلطان الكرة الأرضية
الذي ما أن أبصرته العوالم حتى ذُعرت لرؤيته
إن شيتل هو البذرة المحبّذة
الأثرا الذي يوثّق وحدة الكاملين
أما أنوش فهو الأثرا الرقيق الحاشية
الذي يستكمل ويوطد أسرته
أما آدم فهو ملك الأثري
الذي تدين له كلّ العوالم بالعبادة
إني نصبت آدم، شأنه شأن
الكبار العظماء في مقدمة البناء
وجعلت من حواء التي تحاكي سحابة نورانية
سيدةً للعالم بأسره
إني، عندما قلدت آدم في هذا المنصب
عيّنت عليه الأثري الثلاثة
ونصبت نفسي في مقدمة تلك الأثري
التي جعلت وليةً على آدم وحواء.»[١٤١]

ويمكننا على ضوء المعلومات السابقة كلها تنظيم جدول تظهر فيه سلالات الحياة عن طريق

أداكاس مانا والمعرفة عن طريق مندا إد هيي والوحي عن طريق جبرائيل وهو هيبل زيوا.

إن هذا التداخل المذهل بين رسل الحياة والمعرفة والوحي لكي يساهموا في خلق آدم يخلقُ إيقاعاً وتوازناً بين عناصر الحياة التي هي عناصر الدين المندائي بتوازنه الدقيق والرائع، ويشكل هذا التماهي بين المستويات الأربعة صفة مميزة من صفات الدين المندائي في خليقة الإنسان قياساً إلى القصص الساذجة السطحية الموجودة في الكثير من الأديان الأخرى، فهنا تركيب خلّاق ومبدع بين عناصر الحياة النورانية وعناصر الأرض والظلام.

وبعد سلسلة الخلق هذه يقوم مندا إد هيي بتعليم آدم وحواء قواعد الصلاة والمسختا (قدّاس الموتى) والدعاء وغيرها وحين شاهدت روها ما يحصل وطلبت من أعوانها تدارك ما هم فيه والطلب إلى مندا إد هيي ليمنحهم جزءاً من هذا العالم وإلاّ أثاروا تمرداً ضده وحين سمعهم مندا إد هيي طلب منهم مغادرة العالم فأجمعواعلى إقامة حفلة شيطانية كبرى وقتل مندا إد هيي:

«تعالوا، دعونا نقيم احتفالاً
قوموا بنا، تعالوا نجري حفلة سكر
دعونا نتمادى في اللهو بأسرار الحب
ونغوي جميع العالم
دعونا نبتكر للسحر أسراراً
ونجعل لعالمنا نهاية
دعونا نبذر روح التمرد
ونقضي بذلك على نداء الحياة
تعالوا نزيل نداءا لحياة من الوجود
من سينادي للحرب في البداية
هلموا، دعونا نملأ البيت شجاراً ونكسوه حرباً
أن ينفضّ حتى أبد الآبدين
دعونا نستولي على البيت بالنزاع والعراك
ونقتل الشخص الغريب غيلةً
تعالوا نقتله شرّ قتلةٍ
ونمحوا بذلك ذريته كلّها

ثم نجعل من آدم تابعاً لنا»[١٤٢]

ثم تصعد الروها وجماعتها إلى (جبل الكرمل) ويبدأون بالقصف والشرب وممارسة السحر والجنس فيقوم الأثري بأرسال مندا إد هيي لمعرفة ما يحصل وتستمر أعمال الأشرار بقسوة وعنف وتتسع دائرة شرّهم حين يوزعون الأدوار عليهم وأخيراً تهتزّ الأرض وتتهشم السماء إلى قطع وأجزاء ويتملك الذعر قلب جميع العوالم فيبكي آدم خوفاً على الحرارة الحيّة التي فيه وعلى سطوعه الكبير لكن مندا إد هيي يقترب منه ويهدأهُ فيرتفع صوت الكواكب ضدهم، وحين أكل آدم وارتاح كان هيبل أثرا الذي ذهب إلى فراشه قد خط لترك بيت أبيه آدم والالتحاق بالروها وجماعتها وصعد على القلاع متسلقاً إلى القمة واستقبلته الروها بفرحٍ وسرور:

«إن الروها جاءت بالنار
وشامش جلب البخور
إن الروها ركعت إجلالاً على الأرض
مدّت جسمها وجعلت تمدحه
ثم رمت البخور في النار
وشامش أنحنى بأجلال أمامه
(بل) أخذ الآس متبججاً
وذهب مقبلاً نحوه
إن الجميع قابله والكلّ باركَ إيّاه وتكلم معه قائلاً:
نحن راضون عنكَ جميعاً
أما كيوان فقد منحه بركته في دخيلته
ودسَّ له براعم النبيذ في يده
ثمّ أعطاه إكليلاً في يده
وانحنى أمامه وعانقه وقبّله
وسين باركه من كلّ جوارحه
والروها باركته بكلّ صدرها
هي باركته بصحبة الآلات الموسيقية (بلوريا)
وأدخلته تحت تأثير كلمات الأغراء المعسولة إلى الاجتماع»[١٤٣]

ويستمر إغواء هيبل حتى يسقط في هاوية الأشرار وينفض ثوبه ويهزه:

«في اللحظة نفسها راح يبصقُ ويقيءُ أمعاءه
غير أنه لم يفتأ يهزّ ثيابه علامة عدم الارتياح
عندئذٍ ذكر هو الأثري، إخوانه،
لقد ذكر على الأخصّ القول الذي كانت قد اسمعته إياه الأثري، أخوانه،
لقد ذكر قول الأثري لوقت طويل،
إلى أن أجلسته الكواكب في مقدمتها
إلى أن أقعدته هي في مكان الصدارة
وإلى أن ناولته الكأس ليأخذها بيده
إلى أن أعطت إياه القدح ليشرب منها
ثم فعلت هي هذا للمرة الثانية وللمرة الثالثة على التوالي
لما سقته هي للمرة الثانية وللمرة الثالثة على التتابع
انفلق قلبه إلى شطرين اثنين
ثم هوى قلبه صريع الانشقاق
على حين أخذ جسمه يتوق إلى الرقص
حينما فعل آدم، وهو ابن آدم، ذلك
مسحت الأثري اسمه من الورقة
بعد أن وقع هو سكّيراً في أحضان الشياطين
نطّ قافزاً، ثانيةً، وجعل يدور ويرقص
ثم بعد أن خارت قواه تهالك جالساً
إلاّ أنه سرعان ما نهضَ واقفاً يريد النكوص من حيث أتى.»[١٤٤]

كان الأغواء الأول لهيبل هو أصوات الغناء والرقص ثم جاء الأغواء الثاني عن طريق السكر والخمرة وسيكون الأغواء الثالث هو الجنس حيث ستستدرجه روها إلى فراشها، لكن الملفت للإنتباه هو أن النص يقول (حينما فعل آدم، وهو ابن آدم) أيَ أن الأغواء طال آدم نفسه ثم يستدرك النصو ويقول ابن آدم ويقصد هابيل الذي أشار إليه منذ البداية وهذه الإشارة تذكّرنا بـ(ليليث) المذكورة في (كبالا) اليهودية وهي كتاب التصوف اليهودي الشهير حيث تظهر ليليث

كغاوية لآدم وتستدرجه إلى أحضانها في الليل حتى تظهر وكأنها المرأة الثانية في حياة آدم لكنها مخلوقة من النار وليس من الطين مثل حواء. ولنتأمل نصّ الإغواء الجنسي الذي قامت به روها لهبيل/ آدم:

حينئذٍ تقمصت الروها هيئة حواء زوجته التي كانت هي اخته،
وقطعت عليه الطريق الذي كان هو قد سار فيه إلى منتصفه
لقد كانت هي قد أعدّت فراشاً للخديعة
وخلقت مضجعاً للخطيئة
إنها خلطت الأزمنة (الأوقات) بعضها بالبعض الآخر
بعد هذا استوت هي واقفةً ولا مست معصم يده
ولكن ما أن قبضت هي على يده
حتى ضجّت به الشهوة لامتلاكها
حتى تاق إلى أن يقبّلها بفمه
وأن يحتويها بجسمه
وبتأثير الشهوة التي استحوذت على حواسه
أخذ يتكلم معها قائلاً ما يلي:
أما وأنتِ فعلاً أختي حوّاء
وما دامت ثيابكِ كلّها بيضاء
فلماذا تلبسين الجوئلة إذن
وهي ملونة وتختلف عن بقية الأزياء؟
لكِ قامة فارعةٌ كشجرة الأرز
ولكن علام تغتسلين إذاً بالماء؟
لديكِ وركان يشبهان فرعي كرومٍ من أثير
ولكن لماذا تضعين إذاً حليً من الذهب؟
ولديكِ عضدان كأنهما غصنان من أثير
فلماذا تتحلين إذاً بالفضة؟
كان رأسكِ سحابة نورٍ
فلماذا تغسلين وتمشطين إذاً شعركِ؟

من عينيكِ يطلّ بريقٌ أخّاذ
ولكن لماذا تضمّخين جفنيكِ إذاً بالكحل؟»[١٤٥]

فتجيبه روها بأنه لا بد من فروقٍ بين الرجل والمرأة، وحين لامسها وقبلها وهمّ أن يمارس الجنس معها ظهر له مندا إد هيي وسط سحابة متلألئةٍ بالبهاء وأسمعه هتافاً جميلاً صحا معه ونفضَ فنون روها السحرية وأدرك أنها ليست حواء فاعتراه شعور بالخجل وشعر بالذنب ولكن مندا إد هيي لم يمنحه الكوشطا لأنه مال وانحرف عن دين الحياة. وهكذا أُنقذ آدم (أو هيبل) في اللحظة الأخيرة ولكنه ارتكب الخطيئة على أية حال، لقد جذبت روها أم الظلام روحه الضعيفة أو نفسه (روها) لأنها تتجانس معها وأوقعته في شرك الأخطاء فنسي نسمة النور (الروح القوية) التي في داخله.

كان لا بد من اختبار النسل البشري وقد ظهر أنه قابلٌ لارتكاب الخطيئة من خلال إغواء كائنات الظلام له.ولأنه لا يمكن اصلاح الجسد البشري المليء برغبات مصدرها مادة الظلام التي صُنع منها لذلك كان لا بد من تقويض أشرار الظلام أنفسهم وهذا ما فعله مندا إد هيي في المرحلة الأخيرة من خليقة الإنسان.

سادساً: إنتقام مندا إد هيي من كائنات الظلام

يتقمص مندا إد هيي جسداً ويدخل إلى مجتمع الشياطين والكواكب الذين يخشعون لبهائه ويطلبون مه أن يكون رئيساً لهم وأن تكون الروها واحدةً من نسائه:

«بعد أن تكلمت الكواكب إليّ بهذا قائلة
وهي الغاوية بهذا العالم
بعد أن تكلمت هي إليّ بهذا قائلة
وصمدتُ أنا أمامها وضحكت عليها جميعاً
ثم خاطبت أنا السبعة قائلاً:
تلكَ التي كانت قد لعنت نفسها
إذا أردتم أن أكون رئيساً لكم
إذا أردتم بأن أفسح مكاناً للرروها بين النساء

فقوموا إذاً وأقلعوا عن الاحتفال
واتركوا الاجتماع.
اكشفوا لي عن أسراركم
وأفضحوا لي عن نيّاتكم كلها.
بينما كنت جالساً بين الشياطين
قمتُ فأخذتُ منهم أسرارهم عنوةً
وتلألأتُ ساطعاً بردائي الطاهر
إني سطعتُ بردائي الطاهر متوهجاً
ذلك الذي كان فضفاضاً وبلا نهاية
إني كشفتُ أسرارهم
بيّنت كذب ادعائهم
وبيّنت كذب أقسامهم التي حلفوا بها على جبل الكرمل
ثم طرحتُ الروها من عرشها أرضاً
وضبطتُ لسانها بلجام الجمل
لقد ألقيتها أرضاً وضربتها بهراوتي
بحيث أحدثتُ في رأسها شقّاً
وأوثقتها بخصلات شعرها الغزيرة
وربطتها بباب السماء ربطاً.»[١٤٦]

في هذا المقطع يتّضح لنا أن مندا إد هيي رضي أن يكون بين الأشرار وأنه سيمارس فعلاً ذكورياً واضحاً وهو أن يكون رئيسهم وكاشف أسرارهم ثم يطرح الروها أرضاً ويضبط لسانها ويضربها بهراوته! وهذا الترميز الخفيّ يأتي بعد إغواء آدم أو هيبل.. فما الذي يعنيه هذا التماثل أو التوازي بين آدم ومندا إد هيي؟ إنه يعيدنا دائماً إلى صفة التماهي والتداخل بين الرموز والأحداث الأسطورية المندائية وهو ما سنلمسه بوضوح عندما يقوم مندا إد هيي بالانتقام من الكواكب السبعة بطريقة مشابهة نلمح في أعماقها فعلاً جنسياً أتى مباشرة بعد الأغواء الجنسي لآدم.

وقبل أن نتفصل في ذلك نقول أن (جبل الكرمل) الذي أتى ذكره هنا وفي مقطع سابق إنما يشير إلى العداوة الحادة بين المندائيين واليهود بحيث أن مكان كائنات الظلام عندهم هو هذا الجبل

الذي يقع في أرض فلسطين حيث كان اليهود يعيشون وهذا لا يشكل دليلاً على وجود المندائيين هناك بل، على العكس من ذلك، يشير إلى وجود أعدائهم في أرض أخرى.

لنتأمل في العقاب الذي سيتقدم به مندا أد هيي لمجموعة الكواكب السبعة والأعماق الرمزية لهذا العقاب.

«أما شامش فقد أمسكتُهُ بالأشياء غير المرئية
وجعلته يكون امرأةً
جعلت يوبا يكون امرأةً
لأنه كان قد نام مع الروها.»[١٤٧]

لقد أمسك شامش من أعضائه الجنسية واقتلعها وحوّله إلى امرأة.. لماذا؟ لأنه كان قد نام مع الروها!! هل هذا هو سبب الانتقام؟ إن التوازي بين نزول مندا إد هيي إلى عالم الظلام ونزول هيبل زيوا إليه وتماهي الشخصيتين في بعضهما كأبناء وأخوان في الوقت نفسه يذكّرنا بعلاقة هيبل زيوا بروها واختها زاهرئيل، لقد حوّل مندا إد هيي الشمس إلى امرأة وهذا هو الفعل الذكوري الأول مع الكواكب.

«ثم جاء دور سين فضربته بالسوط
ثم خلعت عنه ثوبه وأخذته منه
إني أخذتُ ثوبه منه
وتركته يظهر للملأ بثوبٍ باطل
إني تركته يظهر بثوب الحرارة الآكلة
لأنه كان يتميز من الغيظ
لقد كان هو قاني الحمرة من الغيظ
وقبع جالساً في مكانه كالمجذوم»[١٤٨]

إن مندا إد هيي يضربُ القمر بالسوط (السوط يحمل مدلولاً جنسياً) ثم يخلع عنه ثوبه (مدلول جنسي آخر) ثم يتركه يظهر للملأ بثوب باطل (الثوب الباطل يحمل مدلولاً جنسياً لأنه قد يشير إلى الأنوثة وواضح أنه ثوب حرارة آكلة) وأنه كان قاني الحمرة من الغيظ (اللون الأحمر يحمل دلالة جنسية). إن هذه الصفات تؤكد أن مندا إد هيي يتعّمد تكريس ذكوريته هنا.

«لدى نبو كسرتُ أنا الآلات الموسيقية
وحسرتُ عن عورته ثوبه
وأظهرتُ عانته إلى جميع العالم
وأقسمتُ اليمين عليه...
بأن لا تظهر صورته في العالم وأن لا يراها أحد.»[149]

يقوم مندا إد هيي بكسر الآلات الموسيقية والطلسم الذي في يد كوكب عطارد (نبو) ثم يقوم بتعريته ويظهر عانته إلى جميع العالم (وهذا فعل جنسي) ثم يحجبه كلياً:

«ثم انقلبتُ فامسكت النجم الشرير
وطوّحت به ورميته من عرشه على الأرض
إني كسرتُ له العمود الفقري
ووضعتُ منه موضع الزراية في هذا العالم
لقد كسرتُ جناحه ومددته على طوله
وتركته قابعاً في مكان منعزل
ثم رميت النجم الشرير أرضاً
لكي لا يعتمل في نفوس البشر الغضب»[150]

يرمي مندا إد هيي كوكب زحل (الشرير) على الأرض (فعل جنسي) ثم يكسر له عموده الفقري (إشارة جنسية) ويمدّه على طوله (إشارة جنسية) ويتركه قابعاً في مكان منعزل.

«أما (بل) فقد أخذتُ أجلده بالسوط
وسلبته التاج من رأسه
أخذتُ منه التاج من على رأسه
وألحقتُ بجسمه عاهة»[151]

وهنا أيضاً يقوم مندا إد هيي بأفعال ترمز إلى ما هو جنسي وجسدي لكوكب المشتري.

»أما نيرغ فضربته بالهراوة
وهشّمت أعضاءَه
إني قطّعت أعضاءَه إلى قطع صغيرة
وأعطيتها بالتالي إلى كهنته

أعطيتها إلى كهنته وعبّاده
لكي يتجول هؤلاء في قفر هذا العالم
حتى يتجول هؤلاء في قفر هذا العالم
ويُظهروا حماقاتهم في هذا العالم
إني تصرّمتُ ضد الشياطين
الذين كانوا قد شمخوا وتعالوا على سلالة الحياة متكبرين»(١٥٢)

وبذلك يمكن اعتبار عقابه للروها كمثلة لكوكب الزهرة التي تمثل الانوثة الغاوية والجنيس، وهكذا يكمل عقابه الموحي بفعل جنسي ضد كل الكواكب وآخرها نيرغ (المريخ)، ويعود إلى آدم ويقول له أن هؤلاء يجب أن يتحولوا إلى خدمٍ لك وإذا كانت هيي قد فرضت الموت على الناس فأن أرواح الناس المؤمنين ستصعد إلى مقام النور أما أرواح الكواكب فستبقى مقيدةً في البيوت التي تحرسها حتى تموت.

ثم يحذّر مندا إد هيي آدم من الأبواب الثمانية التي صنعتها الرونها وأور والكواكب والأبراج ويقرر مصيرها ويوجه له ولسلالته النصائح:

«مارسوا الأعمال الحسنة
وزوّدوا أنفسكم بمؤنة السفر
إصغوا إلى نداء الحياة جيداً
لكي تعيش أسماؤكم في منزل الحياة العظمى خالدةً
تكلموا بلغةٍ صافيةٍ خالصة
حتى تتوثقوا كأناسٍ عفيفين في دنيا الخلاص
تكلموا برفق وطيبةٍ
ولا تقولوا شيئاً شيئاً نحساً
إعبدوا ومجدّوا الحياة الكبرى
والنور العظيم الذي تسرّب إلى هنا
إعبدوا وسبِّحوا للأثري
حتى تكون هذه لكم عوناً
إنها تكون عوناً ودعامةً

من مخبأ الظلمات إلى مقام النور»[١٥٣]

هكذا تنتهي قصة الخليقة المندائية بالنصائح الدقيقة لآدم والتي ستكون مربوطة بغاية وجود الإنسان على الأرض كونه ممثلاً عن عالم النور عليها وعليه أن ينشر النور في كلّ مكان. والحقيقة هي أن هذه القصة هي أنضج قصص التكوين (الخليقة) في الأديان الموحِّدة، فقد تنزّه الخالق عن الخوض في تفاصيل هو أرفع منها وتُرك الأمر للحياة وللأثري العظام لكي يحيّدوا عالم الظلام ويخلقوا الأرض ثم الإنسان وسلالته. ونرى أن هذه القصة المندائية التكوينية أصبحت نواةً للأساطير الغنوصية اللاحقة التكوينية وهي مختلفة كلياً عن أساطير الخليقة الزرادشتية والزروانية التي تخوضُ في لجج كثيرة تبعدها عن هذا المناخ المرهف الذي وضعتنا فيه قصة الخليقة المندائية. تشكل أسماء عائلة آدم جملة متكاملة المعنى فهي (آدم هيبل شيتل أنوش) التي تعني آدم منح الذرية للبشرية. أو الإنسان منح الذرية للجنس البشري.

وتروي بعض الأساطير الشعبية (التي لا نعول عليها) أنه كان لآدم ولدٌ اسمه آدم اغوته روها فانجب منها أبناءً شكلوا ذرية اليهود وأن كيوان كان هو (موسى) أما ابراهام فكان (شامش) ومعروف أن هذا التحامل على اليهود هو الذي دفع بهم لتداول مثل هذه الأساطير التي لا وجود لها في كتابهم المقدس.

ومثل ذلك يرى بعضهم أن هيبل هو رأس السلالة المندائية، أما شيتل وأنوش فهم رأس سلالة بقية البشر وهكذا.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

١. كنزا ربّا (كنز الربّ العظيم) كتاب المندائيين الكبير نقله عن الألمانية إلى اللغة العربية المعاصرة **Carlos Gelbert**، منشورات الماء الحي، سدني ـ استراليا. الطبعة الثانية/ القسم الأيمن (كنزا اليمين)، الكتاب الأول (١) **December 2000**، ص١١.

٢. نفسه: ١ ص ١١

٣. نفسه: ١ ص ١١ ـ ١٢

٤. نفسه: ١ ص١٠

٥. نفسه: ١ ص١٢

٦. نفسه: ١ ص٢٤

٧. بوتيرو، جان: الديانة عند البابليين، ترجمة د. وليد الجادر، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٠/ ص٢٤

٨. رودولف، كورت: النشوء والخلق في النصوص المندائية، إعداد وترجمة الدكتور صبيح مدلول السهيري، جامعة بغداد، بغداد ١٩٩٤ ص٢٢

٩. كنزا ربّا اليمين: ١٠/١٥ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣

١٠. كنزا ربّا اليمين: ١٠ ص٢٤٠

١١. رودولف، كورت: المرجع السابق ص١٦٦ ـ ١٦٧

١٢. نفسه: ص١٦٧

١٣. كنزا ربّا اليمين: ٣ ص٧١

١٤. نفسه: ص ٧٢

١٥. نفسه، حيفاذ وروها إسمان لسيدة عالم الظلام

١٦. نفسه: ٥ ص١٦٣

١٧. رودولف، كورت: المرجع السابق ص ٤٠ وانظر **Drawer, The Thousend and Twelve Questions, Berlin 1960**

١٨. نفسه: ص ٦٧

١٩. كنزا ربا اليمين: ١/٢ ص٤٤

٢٠. نفسه: ١٨ ص ٤٢٧

٢١. نفسه: ١/٢ ص٤٤ ـ ٤٥

٢٢. نفسه: ١٨ ص ٤٢٨

٢٣. نفسه: ١ ص ١٢
٢٤. نفسه: ص١٣
٢٥. نفسه.
٢٦. نفسه: ص٦١
٢٧. نفسه: ١ ص٢٣٥
٢٨. رودولف، كورت: المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤١
٢٩. كنزا اليمين: ١٠/١٥ ص٣٣٢
٣٠. نفسه.
٣١. نفسه: ص٣٣٣
٣٢. نفسه: ص٣٣٤
٣٣. نفسه: ص٣٣٥ ـ ٣٣٦
٣٤. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٤٢
٣٥. كنزا اليمين: ٣ ص٧٥
٣٦. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٤٣
٣٧. كنزا اليسار: ١ ص٤٤٤
٣٨. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٤١
٣٩. كنزا اليسار: ٢/٢٧ ص٥٣٣
٤٠. كنزا اليسار: ٢/١٨ ص٥١٤
٤١. كنزا اليسار: ٢/٥٢٢ ص٥٢٢
٤٢. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٣٦
٤٣. نسه ص٣٧
٤٤. نفسه.
٤٥. كنزا اليمين: ٣ ص٦١
٤٦. كنزا اليمين: ١٠ ص٢٣٥ ـ ٢٣٦
٤٧. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٤٩
٤٨. كنزا اليمين: ٢/١٥ ص٣٩٠
٤٩. كنزا اليمين: ٣ ص٦١ ـ ٦٢
٥٠. كنزا اليمين: ١٠ ص٢٣٦

٥١. كنزا اليمين: ١٤ ص٢٨١

٥٢. نفسه.

٥٣. نفسه: ص٢٨٢

٥٤. نفسه: ص٢٨٤

٥٥. نفسه: ص٤٨٦

٥٦. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٨١

٥٧. دراشة إد يهيا (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا) ترجمة أمين فعيل خطّاب، أعدّ الصياغة الأدبية سميع داود سلمان، بغداد، ٢٠٠١ ص٢١٧

٥٨. كنزا اليمين: ١/١٧ ص٣٩٣

٥٩. نفسه: ٥/١٥ ص٣١٢

٦٠. نفسه: ١/١٧ ص٤١٩

٦١. نفسه: ص ٤١٩ ـ ٤٢٠

٦٣ـ نفسه: ٣ ص ٦٢

٦٤. نفسه: ١٠ ص ٢٣٦

٦٥. رودولف، كورت: المرجع السابق ص ٨٧

٦٦. نفسه ص٨٨ وانظر نولدكه: القواعد المندائية ص ١٨٢ هامش ٣ وبراندت: الدين المندائي ص٥١.

٦٧. دراشة إد يهيا: المرجع السابق ٦٧ ـ ٢٠٨

٦٨. كنزا اليمين: ١/٥ ص ١٧٦

٦٩. نفسه: ٢/٩ ص٢٣٣

٧٠. نفسه ص٢٣٤

٧١. نفسه: ٣ ص٦٢

٧٢. نفسه ص ٦٣

٧٣. نفسه ص٦٤ وقد أحدثنا تغييراً طفيفاً على ترجمة السطر العاشر بسبب ضعفه فبدلاً من (التي هي عديمة الحلويات) وضعنا (التي لا حلاوة فيها).

٧٤. نفسه ص٨١

٧٥. نفسه ص٩٥

٧٦. نفسه: ١٠ ص٢٣٧

٧٧. نفسه.

٧٨. نفسه: ٢/١٥ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤

٧٩. نفسه: ٤ ص١٤٧

٨٠. نفسه ص١٤٨

٨١. نفسه.

٨٢. نفسه ص١٤٨ ـ ١٤٩

٨٣. نفسه ص١٤٩ ـ ١٥٠

٨٤. نفسه ص١٥١

٨٥. نفسه ص١٥٩

٨٦. نفسه ص١٦٠

٨٧. نفسه ص١٦٣

٨٨. نفسه ص١٦٩

٨٩. نفسه ص١٧٢

٩٠. نفسه ص١٥٧

٩١. نفسه ص١٧٦

٩٢. كنزا اليمين: ١١ ص٢٤٥

٩٣. نفسه ص٢٤٦

٩٤. نفسه ص٢٤٩ ـ ٢٥٠

٩٥. نفسه ص٢٥٣

٩٦. نفسه ص٢٥٥

٩٧. نفسه ص٢٥٩

٩٨. نفسه.

٩٩. نفسه: ٣ ص٦٢

١٠٠. رودولف، كورت: المرجع السابق ص٧١

١٠١. كنزا ربّا اليمين: ٦/١٢ ص ٢٧٠

١٠٢. نفسه ص٢٧١

١٠٣. نفسه ص٢٧٢

١٠٤. نفسه ص٢٧٢ ـ ٢٧٣

١٠٥. نفسه: ٣ ص٩٨ ـ ٩٩

١٠٦. نفسه ص١٠٠

١٠٧. نفسه ص١٠١ ـ ١٠٢

١٠٨. نفسه ص١٠٥ ـ ١٠٦

١٠٩. نفسه ص١٠٦

١١٠. نفسه ٣ ص٩٧

١١١. نفسه ص٩٩

١١٢. نفسه ص١٠١

١١٣. نفسه ص١٠٣

١١٤. نفسه ص١٠٤ ـ ١٠٥

١١٥. نفسه ص١٠٥

١١٦. نفسه ص١٠٧

١١٧. نفسه ١/٥ ص١٧٦

١١٨. نفسه ص١٧٨

١١٩. دراور، ليدي: أساطير وحكايات شعبية مندائية، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، بغداد، د: ت ص٩٦

١٢٠. نفسه ص٩٦ ـ ٩٧

١٢١. نفسه ص٩٧

١٢٢. نفسه ص١٠٣

١٢٣. كنزا ربا اليمين: ٣ ص١٠٨

١٢٤. نفسه.

١٢٥. نفسه ص ١٠٨ ـ ١٠٩

١٢٦. نفسه ١٠ ص٢٣٦

١٢٧. نفسه: ٣ ص١٠٩ ـ ١١٠

١٢٨. نفسه ص١١٠ ـ ١١١

١٢٩. نفسه ص١١٣

١٣٠. نفسه ص١١٦

١٣١. نفسه: ١٠ ص٢٣٨

١٣٢. نفسه.

١٣٣. نفسه: ١١ ص٢٥٨

١٣٤. نفسه ٣ ص١١٧

١٣٥. نفسه ١٠ ص٢٣٨

١٣٦. نفسه.

١٣٧. نفسه.

١٣٨. نفسه ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

١٣٩. نفسه ص٢٣٩

١٤٠. نفسه ٣ ص١١٩

١٤١. نفسه ص١١٩ ـ ١٢٠

١٤٢. نفسه ص١٢٢

١٤٣. نفسه ص١٣٠

١٤٤. نفسه ص١٣٠ ـ ١٣١

١٤٥. نفسه ص١٣٢ ـ ١٣٣

١٤٦. نفسه ص١٣٥

١٤٧. نفسه ص١٣٥ ـ ١٣٦

١٤٨. نفسه ص١٣٦

١٤٩. نفسه.

١٥٠. نفسه.

١٥١. نفسه.

١٥٢. نفسه ص١٣٦ ـ ١٣٧

١٥٣. نفسه ص١٤٥ ـ ١٤٦

الفصل الثالث

أساطير العمران

Construction Myths



المندي (المعبد المندائي التقليدي) على ضفة النهر

«كلُّ امريءٍ يحيا إذا شمَّ عطري

كل امريءٍ يشمّ عبيري وعطري

سوف تمتليءُ عيناه بالنور»

كنزا ربا اليمين٢ : ٢

المبحث الأول
أساطير عمران عالم النور

أغلب أساطير عمران عالم النور اندمجت مع أساطير خلق العالم، إذ لا توجد الكثير من الفواصل بين الخليقة والعمران، لكنّ الخليقة تبقى هي الظهر الأول للأشياء وتكوّنها أما العمران فهو تطورها وبنائها وتفصيلها.

وتتضح الصورة العامة لعمران عالم النور في ثلاث قطع صغيرة على شكل أسئلة وأجوبة في دراشة إد يهيا وهي النصوص ١، ٢، ٥٨.

ففي النص الأول يقف الحقُ أمام بوابة العوالم ويسأل أسئلة كثيرة يجيب عليها بثاهيل في صورة واحدة تشكل صورة العمران بصفة عامة وفي عالم النور بشكل خاص.

«آدم خلق من الطين، ومن الطين نفسه خُلقت زوجه حواء، وقد جيءَ بزيت السمسم الأبيض من بيت يوخابر زيوا، أما تلكم المياه الحيّة فقد جلبت من حوض يردنا.

لقد جلس تحت كرمة يو سمير إثناء عشر ألف أثرا وإثناء عشر ألف أثرا جلسوا تحت كرمة شار، وتحت كرمة بيرون جلست أربعة وعشرون ألف أُثرا.

إن يوشامن هو الذي أشعل فتيل الحرب، وجنى مرارة المشاجرة الكبرى التي لم تستطع الأجيال أن تغيّرها.

أما من فتح ثغرة عظيمة فهو أواثر.. وأنا بثاهيل جُعلتُ حارساً للدنيا حتى قيام الساعة إن مانا العظيم هو الذي استعان بحكم الحيّ الأزليّ وقد جلس عن يمينه إثناء عشر ألف أُثرا، وكذلك عن يساره، وقد وقف أمامه أربعة وعشرون ألف أثرا، أما أسماء أردية الضوء والنور والوقار فتأتي حسب موقع كلٍّ منها.

إن شنكلان أثرا هو الذي حمل المبخرة، ودخل خاشعاً أمام مانا العظيم.. والذي تقبّل الدعاء والتسبيح وانسلّ متخفياً إلى بيت كنزي فهو سمندرئل أثرا. ومن النطفة التي تتحدر من خاصرة الأب إلى رحم الأم يتكون الجنين، وإذ يبصرُ النورُ يتعطر برائحة الحياة.»[1]

هذه الصورة التي يقدمها لنا النص الأول من (كتاب يهيا) هي مزيج من عالم ما زال في طور التكوين وعالم بدأ بالبناء والعمران، ولذلك اخترناه كبداية لهذا الموضوع. أما النص الثاني فهو يكمل هذه الصورة حيث يجيب على أسئلة الحق الأثرا (يوخابر):

«يوشامن جلا سرّ الحياة، هيبل اجتاز المنازل وأحدث بسنياويس الفوضى وزعزعَ سرّ الظلام، وبمشيئة الحيّ العظيم زجّ بأور ملك الظلام في سجنٍ لا قرار له.

يوشامن هو الذي أطيح بعرشه، إذ أراد أن يثير صراعاً.. أواثر أصبح حاكماً، وقد أنزله هيبل زيوا إلى الماء الآسن، ومن مقره جهر بالقول: أنا من الملائكة، وابن الملاك العظيم. الخاتمُ يثبتني في مكاني، وقد تضاعفت قوتي، وإني أدعوا أن يُنحّى بثاهيل.

في العالم السفلي أودع أواثر. وأوصد دونه الأبواب، حيث أُقصي عن عرشه. بعدئذٍ أصبح ملاكاً للميزان. بكى أواثر وانتحب ثم عرج إلى السماء وقال: من يعمل خيراً يجد من يكرهه، ومن يعمل شراً يجد من يحبه. من هو الأفضل مني، كبيراً كان أم صغيراً؟ وإذا أصبحتُ ملاكاً في نهايات العوالم القصّية، فمن سيُجلسني على عرشه؟ ومن سيضع الميزان بيدي؟ لماذا أسميتموني المتمرد وأنا الهاديء اللطيف؟»[٢]

هذه الصورة التي يقدمها هذا النص عن يوشامن وأباثر (الحياة الثانية والحياة الثالثة) هي إعادة تذكير بالذي جرى لهما بعد أحداث الخليقة، ويعتبر تقرير مصيرهما جزءاً من عمران الكون وبنائه لأن يوشامن سيستقر في آخر طبقات عالم النور بعيداً عن آبائه وأهله العظام. أما إبنه أباثر (أواثر) فأنه سيصبح جزءً من المطهر خارج عالم النور وسيطاح به ويتحول إلى ملاك الميزان (موزاينا) حيث يزن الأرواح الصاعدة باتجاه عالم النور. وسنستأنف رسم صورتيهما وأساطيرها في الفقرات القادمة.

ثم يستكمل النص الإجابة عن أسئلة أخرى:

كبران عبر المياه الحيّة، يوكابر أقبل بالرحمة، أنن جلّى سرّ النور، إيتنصب أريكَ المقامات، وبهرام قال (كأن لم تكن) والسلاح العظيم أحضره بثاهيل. هلبون أثرا أدى الصلاة وحدّد أوقاتها وطبقها في كلّ مكان. هذا ما رتّله أيتنصب في سماء الخلد وقال: أرتق.»[٣]

النص الآخر هو النص الثامن والخمسون من (كتاب يحيا) حيث تُجيب الحياة على الأسئلة:

بقوة الحي العظيم، ياور هو الذي شقّ مجرى الفرات المضيء. يوشامن أقام كلتا ضفتيه. بثاهيل صلّب الأرض ونجّد السماء منذ البدء. أما الذي نشر رايات الضوء وأنار الأثري في منازلهم فهو بهرام. شلماي اصطبغَ بصباغةٍ حيّة، وندباي ارتسم برسمٍ ظاهر، آدم بذر البذور وشيتل كان حارساً عليها. أنوش أثرا سكن المنازل. هيبل رتّل حديث الحياة وأنار الصرح العظيم. يوخابر نجحَ نجاحاً باهراً في الحياة، وجعل الاجَ بصورةٍ تامةٍ. أما مَنْ أنشأ دولة وأقام فيها النظام، فهو هياشم. ابن الحياة اختار الحياة العظمى وعرج بجدارةٍ إلى عالم النور.»[٤]



في نص (الوجود) وهو السابع والخمسون من نصوص (كتاب يحيى نستعيد خلق العالم الذي انشطر الآن إلى قسمين: نور وظلام وبينهما الروح تنزلُ وتصارع وتصعد، نختار منه هذا المقطع:

«هناكَ ملكان بطبعتين مختلفتين، يسمى الأول ملك هذا العالم، ويسمى الثاني ملك العوالم الخارجية، ملك هذا العالم يضع على رأسه تاجاً من الظلام، يمسك بيمينه سيفاً، يقتل أبناءه وأبناؤه يقتل بعضهم بعضاً. أما ملك العوالم الخارجية فإنه متوّج بتاج من نور، بيمينه يمسك العهد ويعلّم أبناءَه وأبناءَه يعلّم بعضهم بعضاً.»[٥]

١. سيمات هيّي (نطفتا) وإتقان عوالم النور:

سيمات هيّي (نطفتا) شكل من أشكال الحياة الأولى وتسمى (كنز الحياة) و(أم الملائكة) تصبح في هذه النصوص الثلاثة، سلطانة على الأثري والمنازل في بيت الحياة، وتقيم لها عرشاً في يردنا وتذهب إلى عالم الماس وتضيؤه ثم تتفقد عوالم النور مثل عالم ياور زيوا وبيت يوشامن وبيت أباثر وبثاهيل. وفي النصين اللاحقين ينزل منداد إد هيي ليبحث عن نطفتا مرةً في عالم النور ومرةً في عالم الظلام ثم يصعد بها ويعيدها.

«سيمات أنا، سيمات هيّي، كنزٌ أنا، كنز الحياة العظيمة، جوهرة أنا جوهرة الحياة الأبدية، كنتُ تاجاً للعظماء قبل هبوط الأثري للمنازل. كنتُ رفيقة يردنا الذي خُلق منذ الأزل، حيث استنار الأثري في داخله، كما أنشأتهم وثقفتهم الحياة العظمى ونسجت لهم لباساً، إنهم

يسبّحون الحي العظيم أينما كانوا وإلى الأبد»[٦]

وتستمر سيمات بالحديث عن نفسها وكيف أصبحت تاجاً للملك العظيم ورفيقته. وكيف أن (أنصاب زيوا) اصطحبها وجعلها لباساً ليردنا الذي استضاء به الأثري وكيف أنها أصبحت تاجاً للحياة وأنها تضيء عوالم النور في كل يوم وكيف صارت لباساً لعوالم النور وملاكاً للناصورائيين الذين يعظمون اسمها.

وفي نص آخر يقام لها عرشٌ على يردنا ويمتزجُ في إنائها ماء الحياة بنورها، وحين طلب من (أنصاب زيوا) أن يأخذ العهد منها وأن يكتسي بكسائها باركته. ثم يرسلها (سام هيّي) إلى عالم الماس:

«أنا سيمات هيي.. أرسلني سام هيّي بعمامةِ النور إلى عالم الماس، لأُصبح كساءً للملائكة، وكي يستقر على مظهري الوقار العظيم، ويستنير الأثري بمظهري وكي يتجولوا بسفينة النور للوصول إلى التخوم.

أشرقَ النور على عوالم الماس فأضاءت بقوة سيمات هيي، لقد قَدِموا إليها، فتضوّع الأثري بالعطر وأشرقت المنازل بالضوء. بعد ذلك أعطى أنصاب ربّا العهد العظيم لملك النور، فمنحه اسمه الخفيّ، وجعل يوخابر حارساً له»[٧]

ثم يقوم (سام هيي) بمنحها كساءً طاهراً وهميانة (رداء كهنوتي) وتاجاً وعطراً وبمساعدين سريين وحراس أشداء ومنحها تزكية وزكّاها يردنا الذي ارتقى في داخلها فأنارتها قوتها، ومنحت هذه القوة لمرافقها (أنصاب زيوا) وعمّرت عالم النور:

«من قوتي استمد الأثري عزمهم، فمنحتهم القدرة والمظهر المضيء.. لقد منحتُ قوتي لأنصاب زيوا ربّا الذي أدرك العالم.. قوتي أنارتني، ويردنا المتدفق منحني رداء الماء والهواء، فأقمت منازل الضوء. بقوتي وبقوة الماء والهواء تكوّنت الأشجار والثمار والأعناب للأثري.. سحب النور المختومة بالنطق والسمع تتحرك، وتمنح رسماً ظاهراً مختوماً بقوتهم.. الحدود الطاهرة أُقيمت لعروش النور، وبدايات العوالم خُلقت، وقد تعاظمت واستوطنها سرُّ الآباء وأقوال الآباء، وفي السماء تسامى مظهر الأثري، وشعّ في موضع النور. بقوتي وبقوة الماء والهواء تمّ إتقان عوالم النور جميعها، وارتفع سلطاننا عليهم، حيث أكملنا وأتقنّا ورفعنا أعمالنا إلى العُلا.»[٨]

إن مفردة إتقان عوالم النور تدل دلالة مباشرة على فكرة بناء وعمران **Construction**

عالم النور وهو ما ساهمت به سيمات هيي بشكل كبير.

ثم تقوم سبمات هيي برحلةٍ في هذا العالم وقد زارت ما يلي :

١. الأثري : حيث باركتهم ووعدتهم بأن يمنحوا كنزها وتمنح الملاك غرساً طاهراً

٢. سام ريّا : قالت له نوركَ تام ومظهرك منير وبهاؤك نعرفه ، المقامات ويردنا تحت سلطانك إلى الأبد.

٣. ياور زيوا : قالت له أنت أب الأثري وسيد المنازل ومنحته غرساً طيباً وسلطاناً في عالم النور ، واخبرته أن مندا إد هيي بقوتها تقمصه واستقر فيك سرّنا

٤. بيت يوشامن : قالت له «يا أبانا ، لقد أصبحتَ رئيساً وكبيراً وإليك عاد نورك وبهاؤك وبك يفتخر بيت الكمال ، وقد أضحت أعمالكَ منشورة في عالم النور.. إنك السيد المكتنز بالخير والعطاء ، وقد أضأت الخيرات في مقامها إلى الأبد.»[٩]

٥. بيت أباثر : التمس أن يُغفر له النقص الذي رافق أعماله فأخبره الأثري الثلاثة بأن عليه أن يزن الموازين ويرتسم برسم طاهر وله سلطان على يردنا العظيم والملائكة الصاعدة وعلى الكواكب السبعة والأبراج الإثني عشر.

٦. بثاهيل : الذي قال له مندا إد هيّي بأنه مسؤول عما فعله حيث جعل للشياطين (الشيباهي) سلطاناً على الترميذي (كهنة برتبة دينية متوسطة).

وهكذا انتهت رحلة سيمات هيي في عالم النور وتحته بقليل.

ـ سقوط نطفتا في عالم الظلام وإرجاعها :

يكاد يشكل مندا إد هيي العمود الفقري للمثولوجيا المندائية في مراحلها الأربع ، فهو في مرحلة البناء والعمران يقوم بالهبوط من مقامه إلى عالم النور ثم إلى عالم الظلام للبحث عن (نطفتا) التي يبدو أنها غابت عن مكانها الأصلي قرب (الحي العظيم) فيذهب مندا إد هيي ليبحث عنها في عالم الظلام.

ونطفتا هي النطفة التي تسمى أيضاً (اللؤلؤة) ، وهي سيمات هيي (كنز الحياة) و(أم الملائكة) ، ولذلك فأن هذه الأسطورة حول سقوط سيمات هيي إلى عوالم الظلام وعودتها إلى

عوالم النور تشكل أسطورة كاملة إذا أضفنا تجوالها الأول في عالم النور.

وتسمى أيضاً (كنّات نطفتا) و(شارات نطفتا) و(سيمات هيي) ولقبها (كنّات) يطلق عليها وهي خفية في عالم الظلام داخل الجدران السبعة التي تحيط بها مياه نهر الظلام (سينياوس).

الرحلة الأولى لمندا إد هيي هي داخل عوالم النور للبحث عن نطفتا، ويبدأ بمراقبة الميزان الذي يحمل الأرواح، ويصعد إيتنصب نهورا وأنهر نهورا الخفي الذي تكوّن من نور النطفة ويقول مندا إد هيي لشنكلان أثرا بأن يطلب من (مانا سميرا) العقل المكتنز والأثري ما يشاء. ثم ينزل إلى الأسفل في عالم النور فيرى (أيتنصب زيوا) ويصفه بأبن المرآة العظيمة، ثم ينزل إلى بيت (أنصاب زيوا) وهو مرافق نطفتا ثم ينزل إلى (إسحاق زيوا) فيباركه ثم ينزل إلى موقع نطفتا.

«هبط مندا إد هيي في موقع نطفتا، فلما رأت نوره هبّت واقفةً وقد أمسكت بيدها(مركنا) وحيّته قائلة: أتى، النور الخفيّ والضوء المشع الباهر، جاء وأنار آباءه الذين تمنوه، تطلع وأنر ملابس آبائك، أنت المرآة العظيمة، أثرا أنت، وأنت أبهى من جميع الملوك.

إنحنى مندا إد هيي وسبّح، حيّاها وقال: يا شارات، لقد صنعكِ الأثري في سماء الخلد وآزروكِ ومجّدوك فأنت شارات نطفتا المخلوقة الأولى. هبط مندا إد هيي قاصداً مركنيائا نطفتا، وحالما لمحت ضياءه انتصبت واقفةً ثم انحنت وأثنت عليه.»[١٠]

في المقطوعة الأخيرة تسقط نطفتا في عالم الظلام وتستقر عند الأسوار الخارجية التي تحيط بأرض سينياويس وتمكث هناك ٦٢ سنة، ويبدو أن الغرض الرئيس لهبوطها هناك هو محاولتها إنشاء الحياة لأن النصّ يقولها أنها بقيت كل هذه المدة (حتى عبقت رائحة الحياة).

هبط مندا إد هيي إلى عالم الظلام وحين رآه الشياطين ناحوا وبكوا وشعروا بالضعف كأنهم خراف وحين رآه كاف وكافان استغربوا لكنه وصل إلى مكان نطفتا في الماء الآسن وخاطبها:

«إنهضي يا كنّات نطفتا، فأن الحياة أنشأتكِ، وعلمتكِ
إنهضي يا بنت نطفتا، فأن الحياة طلبتكِ وأحبتكِ
إنهضي، وارتقي مع آبائكِ
إنهضي شارات نطفتا، وكوني عزماً وقوةً للحياة
إنهضي سيمات هيي نطفتا، يا ابنة الغرس الأول، وكنّات نطفتا
غادر عندما وصلت كنّات نطفتا إلى باب السور، حيث سجدت

وقالت لآباء شارات: الحياة لا تموت.. والضوء لا يُحد.»[11]

لا نريد في هذا المجال أن نقارن قسراً بين نطفتنا (اللؤلؤة) المندائية وبين اللؤلؤة الغنوصية الشهيرة التي أصبحت نموذجاً لأناشيد الخلاص ولكننا نقول أن اللؤلؤة الغنوصية كانت هي الأخرى في بلاد الظلام (مصر) موجودة وسط البحر يحرسها التنين الشاخر وقد ذهب إليها الأمير الشاب من بلاد وادي الرافدين وجلبها. ربما تكون هناك علاقة بين الأسطورتين!

ويذكر الكنزا ربّا اليمين تلميحاً كيف أن اللؤلؤة الطاهرة سكنت في بيوت الكواكب السبعة ولكن هذه لم تلحظ وجودها وكيف أنها عادت إلى عالم النور تشهد بمقامه:

«لقد جاءت اللؤلؤة الطاهرة
التي أنارت القلوب المظلمة
إن البهاء حاول أن يكون والنور أفاق وأصبح
إني ضحكتُ على الكواكب
وعلى ما أضمرته وقامت بفعله من حبائل ومكائد
لقد سكنتُ أنا في بيوتها
ولكنّ السبعة لم تلحظ وجودي.»[12]
ثم يتحدث النص عن حالها في عالم النور:
ابتداءً من ذلك اليوم الذي زرعني فيه هيبل
أخذت روحي (نيشمتا) تشهد بمقام النور
أنت الراحة الأولى
وبفضلك وجدت الأثري الوداعة
البوابات الاثنتي عشر ترقبُ
غير أنها لن تصعد إلى سبل الكوشطا عالياً
إن التبحرات (التعمقات) الناصورائية
بعيدة المدى ولا نهاية لها
إنه ثمرة حلوة مذاقها لا يجلب الموت
لقد سمعتُ أنا نداء الحياة
في المقام الكبير، بيت الكمال

نداء البهاء الكبير الذي ينشد ويتكلم في شكينتها
إنه الإشارة الكبيرة (الطاهرة)
وبها تشير الحياة إلى شكينتها
من يستجيب إلى نداء الحياة
يجد مكاناً في شكينةَ الحياة
إنه البوابة الحبيبة هو النور بدون نهاية»[١٢]

٢ . عمران هيبل زيوا :

قلنا أن معنى اسم هيبل زيوا هو (واهب الضوء) وهو أحد أكبر الكائنات النورانية حيث يحتل مكانة تقترب من مندا إد هيي الذي هو بمثابة والده وأخيه الضوئي، وقد عرفنا دوره الكبير في عملية الخليقة الكونية والبشرية وأسطورته الكبرى حول نزوله إلى عالم الظلام ودوره الكبير في سجن روها وأور وخلق الأرض والإنسان.

وإذا كان هيبل زيوا قد نال لقب رجل الله (جبرائيل) وهو الرسول فإنه أوجد الأعمال والطقوس في الدنيا (أبداثا) وهو الذي أوجد طريق معراج الأرواح وبعض مطاهر المطراثي وعبّد الطريق الذي يصل إلى عوالم الظلام وينتهي بالمحطات التي يقيم فيها أواثر صاحب الميزان ووضع الحراس (ناطري) على هذه المحطات. ويعتبر هيبل زيوا مكوّن العبادة المندائية فهو الذي (يحملها على قفاه ويحميها ويحفظها)، وبذلك فهو يكمل دور مؤسس هذه العبادة مندا إد هيي.

أما أساطير عمران هيبل زيوا المدوّنة في الكتب المندائية المقدسة فيمكن احصاؤها بسهولة وحيث يخبرنا النص الثاني والخمسين من (دراشة إد يهيا) ببعض هذه الأعمال على شكل أسئلةٍ قصيرة نورد بعضها:

«فرحٌ ما أسعدني، ما أعظم فرحتي بالأعمال التي أنجزتها في هذا العالم، كيف أتحول عبر جميع العوالم، كم سأُنير من الأثري؟ وكم سأرفع منهم إلى عالِم الحياة العظمى؟ ما أسعدني، والنفسُ تتطلع إلى رؤية أبي.. ما أشدّ فرحي بالأعمال التي أديتها للفقراء الذين يعانون، وكذلك للصغار. ما أعظم فرحِ القلب الهادئ اليقظ، كم سأمنحُ من القوة للأثري؟ كيفَ أكبحُ جماحَ

الجن؟ وكيف أقتل العنفوان وروح التمرد في أواثر راما؟ من ينجدني منكم؟ كم من جيلٍ تحملتُ أعباءه؟ كيف أظهرتُ البغضَ لهذا العالم؟ كم سعيتُ لإبعاد الانحطاط عن العالم؟ وكيف أكون قوياً على الأشرار والحمقى؟ كيف يزن الميزان؟ كيف يقضي ويحكم أواثر في العالم.»[14]

ويمضي هيبل زيوا في أسئلته فيجيبه مندا إد هيي أن الأشرار يتحملون وزر أعمالهم لكن هيبل زيوا يجيبه:

«حين خُلق آدم وزوجته حواء أقمتُ، ونظّمتُ طريق العروج، وقد رأيتَ ذلك.. إنني عددت المطراثي، وصنعتُ السلاسل للأشرار، وأمرتُ بأن أكون قاضياً أنظرُ في أعمالكم وكلّ أموركم.. أنشأتُ الطريقَ بدءاً من عالم الظلام، وانتهاء بالمحطات التي يقيم فيها أواثر شاهداً وقاضياً بيده الميزان.. أوجدتُ نهر كشاش وجعلتُ أواثر رقيباً عليه، دعوُ أدثان ويدثان ليكونا شاهدين.. اخترتُ أثنين من الحكام، وجعلتهما مساعدين لأواثر، لقد أوجدتُ الثمرة البيضاء التي احتضنت الأنفس في داخلها. إن بعض هذه الثمار مكثت في الميزان، أطلقتُ ماء الهفيقي الذي يفصل بين عالم النور وعالم الظلام، إنه الماء الجاري الذي تصطبغ فيه الأنفس. لقد أنشأت الطريق التي تسلكها الأنفس من أجل الارتقاء والعروج. أنا الذي صنع سفينةً للأخيار، ومعبراً للأنفس التي تروم بيت أواثر حيث يعطيها القوة ويزودها بالثبات حتى النهاية، ناديت ملاك الأحد وجعلته مسؤولاً عن جميع الحكام وقلتُ له: كلّ من يحمل رسالةً ساعده وكل من لا يحمل رسالةً يدخل المطهر.. كل الأشرار والكذبة يدخلون مطهرك لتواجههم باختباراتك حتى تصل رسالة عنهم من عالم الدنيا الزائلةِ إلى الحي العظيم، وعندما تصعد رسالة أعمالهم تكون رسالة الحي العظيم قد وصلت إلى أواثر: نبّه المساعدين ليكملوا أعمال الموت والحياة. إن الأنفس التوّاقة إلى النور ترتقي، وغير التواقة تنحدر إلى الظلام. الروها استطاعت أن تغوي جميع العوالم، فأقمت الحدود وناديتُ وقلت للناصورائيين الصادقين المؤمنين الذين هم قربَ الحدود: ستعينكم الحدود وتساعدكم لتصعدوا متطلعين إلى عالم النور. إن الذين يتعدون عن الحدود ستعينهم الثوابت أما الذين يتعدون عن كليهما فأنهم سينتهون إلى جبل الظلام لا يأملون سوى الموت الثاني، وعيونهم لا ترى النور ولا يجدون لهم موطئ قدم.»[15]

إن هذه الأعمال العظيمة التي قام بها هيبل زيوا تدل على مكانته الكبيرة في عالم النور وتدلّ

على قدرته على عمران هذا العالم ومساعدة الأرواح وتنظيم صعودها إلى عالم النور.

وتتضح قدرة هيبل زيوا من رحلته إلى تروان، الطاهرة داخل عالم النور وهي أسطورة جميلة من أساطير العمران التي قام بها هيبل زيوا.

٣ . رحلة هيبل زيوا إلى تروان الطاهرة :

يقع عالم (تروان نهورا) أي تروان المنورة في الطبقة السادسة من طبقات عالم النور العشرة. وتحتها يقع عالم ياور الذي يعتقد أنه عالم (هيبل زيوا) وعالم مندا إد هيي. وهذه الأسطورة توضّح كيف أن هيبل زيوا يقوم بأعمار أرض تروان وينوّرها ويلقي فيها الأقوال الحكيمة والحكم والدرافش (الرايات) النورانية وكيف أنه يقيم فيها سبعة عوالم نورٍ وينصّب فيها سبعة ملوك وسبعة مخادع ماءٍ وسبعة قصور وسيتحدث فيها إلى أحد ملوكها هناك.

ثم يذهب (ينزل) هيبل زيوا إلى عالم يوشامن (تاورئيل) فيطلّ على عالمي (أواثر) و(بثاهيل) حيث يقوم الأخير بالتعهد له بهدم الأرض وتدميرها لأنها جزءٌ من عالم الظلام وتحت سيطرته والقيام بجعل الأرواح الخيّرة بالصعود إلى عالم النور.

في بداية الأسطورة يتحدث هيبل زيوا عن نشأته وخلقه (وقد ذكرنا هذه المقدمة في أساطير خليقة هيبل زيوا) ثم يذكر أن أباه (ربما يقصد الحي العظيم أو مندا إد هيي) يقبله بثغره الطاهر ويُقعده على سحابةٍ نورانية (سحابة بهاء) ويبعث به إلى تروان الطاهرة:

«إذهب إلى تروان الطاهرة
واعطِ الأثري التي تسكن هناك معرفةً
امنحها بهاءً ونوراً
لكي تجلس بعضها مع البعض الآخر في التنوير المشترك
امنح إيّاها بعضاً من تسبيحك
لكي تحتفظ هي بمكانتها في دار الحياة
ضمّ شملها إلى الطائفة الكبيرة
لكي تصبح هي محسوبة في أعدادك
وخالية من النقصان والخلل

أعطها معرفةً عن أثري تروان الطاهرة
وعن كلّ مخلوقات النور
أحطها علماً بنور الحياة الكبير
وبأمور الأثري والشكينات التي خُلقت فيه
أعطِ إياها معرفةً عن الكرم المستتر
وعن الأشجار الطاهرة التي تُنير فوق الأنهار
أعطِ إيّاها معرفةً عن مارا إد ربوثا
وعن البهاء والنور اللذين يدومان هناك
تكلم إليها عن هورارن الطاهرة
التي نطق فيها هذا الصوت العجيب
تحدث إليها عن أرض الأثير
التي بناها وأسسها ياور بطريقةٍ فذّةٍ
هكذا بناها وأسسها ياور
وهكذا كان هو مهندسها المعماري
إنه كان مهندسها المعماري
وبعد ذلك هتف هو فيها بصوتٍ آيةٍ من الروعة
وهكذا أسس هو فيها شكينات
وغطاها بنورٍ إلى حدٍ كبير
من بعد ذلك وضعوا إيّاه ملكاً على النور
ونصبوا له أثري ذات اليمين وذات الشمال
لكي تقوم هذه بمؤانسته
هي تقوم بمؤانسته
وتشدّ على عزيمته في شُكينته
إعط إياها معرفة عن الثمرة العليا الكبيرة
وعن الشكينات التي أسستها هي في المكان المستنير
إعطِ إياها معرفةً عن المانا الأول الكبير
وعن النهر الكبير الذي تعمّد هو فيه.»[١٦]

كل المعلومات الواردة أعلاه تخص عمران تروان وبنائها النوراني وتخصّ أرض الأثير التي يملكها ياور ولنلاحظ أنا تحثّ على المعرفة والبهاء والنور والتسبيح وتحث على بناء الشكينات داخل عالم النور. وحين يصل هيبل إلى تروان يخلق سبعة عوالم من النور وينصب عليها سبعة ملوك في غاية الكمال ويخلق له سبعة مخادع من ماءٍ وتسعة قصور لا تفنى ولا تزول. ويأخذ هيبل بتعليمات أبيه والحياة ويعلّم ملك تروان الطاهرة معرفة عن عالم المار إد ربوثا الذي اسمه (أثير نور الحياة الكبير) وعن سيماء الجلالة الكبير وعن النيطوفتا التي تجلس عنده والأثري والكروم الطاهرة والأشجار التي تبدو منيرة فوق الأنهار وعن العرفان وشيّد له تنويراً ثابتاً وأنار هيئته ومنحه السلطة على مخلوقات النور في أرض تروان ركع هذا الملك أمامه وامتدح خصاله وأصله، ثم يتوجه هيبل نحو عالم تاورئيل:

«إني أخذتُ أهبة الرحيل من لدنه
وجئت قادماً إلى عالم تاورئيل
إني أنرتُ الأثري والشكينات
التي كانت في عالم تاورئيل
إني تكلمتُ في تنويري
وبهائي أشرقَ على يوشامن
الأثري تلألأت والكبار ابتهجت
جميع المصابيح كانت قائمة
يوشامن ابتهج بسبب بهائه
وأضاء كلّ الأثري
أضاءَ أوائر الشرير
الذي خلقَ ولكنه لم يصنع شيئاً كاملاً
ما من شيء أنار أو أصبح حسناً تحت يده
لأنه لم يعطِ أباه يده اليمنى مصافحاً»[١٧]

المحطة الثانية في رحلة هيبل زيوا داخل عالم النور هي أرض تاورئيل التي هي غصن الكرم وهي إسمٌ لإثري والتي يسكنها يوشامن (الحياة الثانية) وهي الطبقة العاشرة والأخيرة من طبقات

عالم النور، وهذه الأرض تطلّ على مكان أواثر (أباثر) في المطهر ولذلك سطع نور هيبل زيوا وجعل أواثر يشعّ الذي يعتبر الخطيئة الثانية التي هزّت عالم النور ثم سيسطع النور على عالم بثاهيل في المطهر أيضاً، والمطهر يقع خارج عالم النور ويحتوي على عالمي أباثر وبثاهيل، وبسبب خطيئة بثاهيل يمتلأ قلبه بالبكاء والدمع يتلألأ في عينيه ثم شاهد تسبيح الأثري لهيبل فوقف إجلالاً لهيبل وانحنى أمامه وقال:

«إذا حلا لأبي مندا إد هيي ذلك
سوف أهدم البيت فوراً
إنه يُهدم البيت حالاً
وكل أعمالها يجب أن تهدّم وتخرّب
سوف يصعد القسم الصالح من الرجال ذوي العدل والأغصان عالياً
الذين يقطنون في مقام المفضلين
من تيبل بأسرها
سوف يصعد ذلك القسم إلى النور عالياً.»[١٨]

هكذا يتعهد بثاهيل بتحطيم ما صنعت يداه وتصعيد الأرواح الصالحة إلى عالم النور لكن الأسطورة تنتهي دون معرفة استجابة هيبل أبو عالم النور لهذا العرض، ربما يكون الجواب في نهاية هذا الكتاب حين نناقش أساطير الفناء.

وتكشف لنا هذه الأسطورة عن مكانة هيبل في عالم النور وعن طبيعة عالم تروان المليء بالأثري وبملوك الضوء.

٤ ـ يوشامن: الطاووس الحزين:

كان يوشامن هو الذي جلا سرّ الحياة حين أحدث أول حركات التمرد في عالم النور واعتبر مارقاً وخارجاً على إرادة الحياة الكبرى (الأولى). فبعد دوره في أسطورة الخليقة نعرف أنه حاز على العالم الأخير من عوالم النور ووضع عند باب سوفان وكان هذا يغيضه كثيراً لأنه يعرف ما يجري في عالم النور فيتحسّر قلبه على مكانته التي ضاعت، حيث كان بإمكانه أن ينال دوراً كبيراً هناك. وهذه الأسطورة هي مجموعة من النصوص في كتاب يحيى وهي النصوص (٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧)

تشكّل بمجموعها أسطورة مهمة عن يوشامن (الحياة الثانية) وما آلت إليه أموره.

تبدأ الأسطورة بتفاخر يوشامن بما فعل:

«بقدرتي، وبالداء والتعظيم لنفسي، وضعتُ النصائح، وأطلقتُ الأوامرَ، واخترتُ من يتكلم معي، ووزنت ما تقولون. تقلّدتُ سلاحي.. لم أطلق نداءً إلى العوالم.. لم أصغِ إلى نداءِ الحياة العظمى.. أثرتُ صراعاً شديداً، وجعلتهم يفقدون الأعمال المتقنة، لقد أغضبتُ أبي، ففقدتُ حريتي»[١٩]

لكن (أنصاب زيوا) يخاطب يوشامن ويوصيه بأن لا يثير المتاعب ويذكّره بما فعل:

«ألم تُوص بأن تهدأ وأن تتجنب الغضبَ لكيلا تثير المتاعب؟ كان لك عرشٌ، وها أنت الآن عند باب سوفان تقيم، لقد أشعتَ الخراب في كل ما انجزتَ، وجعلتَ ابنكَ ممتلئاً بالغطرسة والخيلاء، فلم تُسعد أحداً، ولم تدرك الحكمة الأولى التي وهبها لكَ الأولون.. أبعدت عرشك عن موضعه، وأفشلتَ الأعمال التي أصبحت كاملةً. يا يوشامن.. مكانكَ غير ثابت، وقضاؤك تشكّ بصدقه الملائكة وسوف لا يطلقون عليكَ لقبَ النظامي الكبير، لأنك لم تُكمل تنظيم الأعمال التي بدأتها. إنكَ تعيشُ في فوضى.. لم تُرح ذهنكَ، ولم تذكر بهدوء، كما أنك لم تتعلم الحكمة من الأولين وافترقتَ عن أنانا، دون أن تطلب منها المعرفة»[٢٠]

أنانا هي السحابة وتوصف دائماً كسحابة نور وقد تمثل حواء النورانية (حواء كاسيا) لكننا يمكن أن نعود إلى الجذور السومرية لها فهي ملكة السماء وهي قرينة إله السماء (آن) السومري، ونرى أن يوشامن هو بعد تحوير لإسم (يهوشامن) أو (بعل شمين) أي سيد السماء أو ملكها وهو إله كنعاني وقد أُبدل بعل بـ(يو) الذي هو الآخر اسم إله كنعاني قديم.

ويستمر تقريع أنصاب زيوا ليوشامن حتى يشعر يوشامن بالحزن ويقول له «أنا منزل الأحزان. وحدي أحملُ الهموم، ولا تتخلى عني»[٢١]

وفي النص الرابع يؤكد يوشامن أنه أثار صراعاً كي يشدّ انتباه الحي العظيم وليؤكد تفرّده وأنه الأقوى لكنه الآن تعيسٌ ثم يتفاخر بتعاظم نوره وسعة تسبيحاته فيقوم الحيّ العظيم بحجب أعماله ويرسل له مندا إد هيي ليضعه في السجن. ويبدو أنه كلما فكر بالحادثة الكوزموغونية التي فعلها وهي إثارة الصراع والخروج خارج عالم النور فإن ذلك سيكون مدعاةً لكي يزيد الحي

العظيم في عقابه وإرسال رسول له ليذكّره بهذا العقاب. وها هو رسول الحي العظيم يصله لنفس السبب (في النص الخامس) ويقول له:

«إنهض من عرشك واقتعد الأرضَ

ثم خاطب الجمع:

من أوقعَ يوشامن في الخطأ؟

قال يوشامن للرسول:

منذ متى لم ترَ صورتي؟ ولم تلمح صرحي، ولم تشرب معي.. منذ متى لم تأكل قطعةَ خبزٍ من مائدتي؟ ولم أضفر لكَ إكليلاً؟ أجاب الرسول:

لا تقل إني أتيتُ إليكَ بأرادتي، فالملك العظيم هو الذي أرسلني، إذ كان غاضباً، وأظنّك لا تدرك ما قال:

إن يوشامن ركب ظهر الغطرسة والخيلاء، وبات ضوؤه

المتكامل ظلاماً، وأفعاله خاسرة.

يا يوشامن.. ها أنك قد جئت وقعدت عند باب سوفان بلا وقار وقد خيّم الظلام على بيتك، وستبقى على هذه الحال، حتى يُشفق عليك الحيّ الأزليّ»(٢٢)

الغرور والخيلاء والغطرسة هي الصفات الملتصقة بـ(يوشامن) بحيث أن صيحته (عظيم أنا) كانت سبباً في إنزال العقاب به. ولكن يوشامن كان يطلب الغفران رغم كبريائه، وها هو صوت يرتفع من أعماق يردنا يطالب بذلك:

«صوتٌ يرتفعُ من أعماق يردنا يملأ السمعَ.. حاملاً من أرض أير نوراً، يتعاظم في عالم أنصاب زيوا، إذ غادر بهاء المجد الغابر، وحلّ بهاء مجد الرسولِ في صرحهِ. يقول الصوت: إذهب يا رسول الحياة وكلّم ملك النور العظيم عن يوشامن الواقف عند باب أنصاب زيوا ليمنحه الصوت المتدفق من فمه، حريةً وأملاً في الحياة»(٢٣)

وحين يصل أنصاب زيوا إلى ملك النور يخبره أن يوشامن قابع عند باب سوفان في صحن سجنه وغارق في التنهدات لا يقوى على التفكير ويطلب منه المغفرة فيطلب ملك النور من أنصاب زيوا أن يهدّأ من روع يوشامن ويقول له أن الحياة العظمى تكنُّ له خيراً كثيراً.

ويعاود يوشامن شكواه (في النص السابع) فينبري له هذه المرة مندا إد هيّي ويطلب منه أن

يفعل الخير وأن يكون لطيفاً. ويطلب الحي العظيم من أنصاب زيوا أن يطمئن يوشامن ويقول له :

«إن الحي العظيم قد أتمّ مقامك وأتقنه بالضوء.. وسيبقى عرشك ثابتاً ومتكاملاً. أوصلَ أنصاب زيوا قول الحي العظيم إلى يوشامن وقال له : يا يوشامن، اسمع ما سأقوله، فلا تقلق ولا تضجر ولا تجعل النقص والريبة يتسللان إليك. لقد أرسلني الحيّ العظيم، فاسمع قول الحق. إن الرحمةَ وجدت بعيداً عن العنف. اقتلع الآن الرائحة الكريهة من دارك، ولسوف يهبّ عليك نسيمٌ مشبعٌ بالأريج»[٢٤]

إن العفو عن يوشامن لن يحلّ إلاّ في نهاية العالم وقبل أن تحلّ لحظة فناء الأرض، كما سنرى ذلك، ولكنه يبقى يتخايل عند بوابة بحر سوف الذي هو بحر سماوي عظيم يسمى أيضاً ببحر النهاية أو الهلاك، لأن نهاياته تقع على طريق الروح في معراجها (وهو على الأرض البحر الأحمر). فهو حارس بوابتها يتخايل عندها كالطاووس ولذلك تسميه الأدبيات المندائية بـ(الطاووس) مثل كتاب يحيى (النص السبعون) حيث نراه يعظ ويقول :

«مَنْ يشبهني، مَنْ هو شبيهي

جعلوني حارساً عند نهاية العالم، حتى تفنى الأرضُ ويفنى أبناء الظلام ويُحجب عنهم نبع ماء الحياة. أنا طاووسُ قد أغضبتُ آبائي، فجعلوني حارساً عند نهاية العالم.. إذا خامرني الشك وارتاب قلبي. فمن عملَ من أجل الحياة العظمى سأعملُ من أجله. أنا طاووس تكلمتُ مع الأسياد وقلتُ لهم : كلّ من أساءَ يصبح خاسراً وتُثقله الحياة العظمى بالمتاعب. عندما سمعَ آبائي حديثي، كتبوا لي رسالة العهد وأخبروني أن الحياة العظمى، ستمنحني الهدوءَ وصفاءَ الفكر وستطفيء النار التي تتّقد في أعماقي. بعدها هدأتُ وابتدأت القوة تعود إلى قلبي فسجدتُ للخالق العظيم وسبّحته حتى النهاية»[٢٥]

٥ . أباثر الميزان :

كانت خطيئة أباثر أكبر من خطيئة يوشامن لأنه ذهب أبعد في البحث عن شكينات له خارج عالم النور، وكان يسمى أيضاً (بهاق زيوا) أي الضوء الناصع البياض فهو أب الأثري (كما لقّبَ نفسه هو وهي صيحة مارقة تشبه صيحة يوشامن : عظيم أنا) وقد ذهب أباثر إلى حدود عالم الظلام ونظر في الماء الآسن.

تصف مقطوعتان، يُعتقد بأنهما عن أباثر، في كتاب يحيى ما كان عليه أباثر الذي وضع كملاك للميزان تحت عالم يوشامن في المطهر، لكنه يعتبر هذه المهمة إهانةً له فيضجر منها ويكفّ الميزان عن وزن الأرواح والملوثة منها بشكل خاص لكن صوت منقذ الأرواح يقول له:

«تلكم المياه الحيّة هي من الماء السماوي الذي أوجده الحيّ العظيم، لقد جيء بهذه المياه من حوض يردنا. إنها تنساب من تحت جذور الياسمين. هذه المياه الحيّة تنحدر من منزل يوشامن العظيم. هؤلاء الأثري يجلسون قريباً منك.. هذه المياه ستكون سعادةً لك وتلك الأشجار والثمار والأعناب بهاءً لك. هذه الأنفس جاءتك تحتضنُ ثلاثمائة وستين ميزاناً»[٢٦]

لكن أباثر يظل يندب حظه العاثر، مثل يوشامن، ويعترف بخطيئته:

«لقد نسيني آبائي، فويلٌ للأثرا الذي ينساه الآباء
كلّ أثرا لم يسمع أقوال آبائه، فإنهم يُنزلونه ويرمونه عند
أبواب عالم الظلام. لم اسمع قول آبائي، فسقطتُ دون قيامٍ،
وبحثتُ دون جدوى، وعدوت دون أن أصل.
لقد حملتْ نفسي خطيئتي
جلستُ جنب الأسوار وألقيتُ حديثاً سماوياً
قلتُ: إذا أصبحتُ هادئاً سأقف إلى جانب أولئك الذين يجاهدون من أجل خلاصهم.
قلتُ: إذا أصغيت لأقوال الحياة العظمى، فما أسمى الوسام الذي سيمنح لي.
قلت: إذا وجد المتواضع ونور الإيمان، فإن الكبير والصغير سيعبران نحوي.
قلتُ: ما أشدّ حزني على الذي تُركوا تحت سطوة أور.. ما أشد حزني على النبات المهجور الذي زرعته عند أبواب الظلام.. هذا ما يحدث لكل من لا يكون هادئاً فالأثرا الهادىء، يُمنح وساماً سماوياً».[٢٧]

٦. بثاهيل الخلاسيّ:

نشأ بثاهيل من أصل هجين لأنه كائن نوراني ولد في عالم الظلام (راجع خليقة بثاهيل)، فهو خلاسيّ يحمل النور والظلام معاً، ولذلك فهو يوصف بجدارةٍ أب آدم لأن آدم كذلك خلاسيّ النشأة بسبب جسده الظلامي وروحه النورانية.

كذلك فإن بثاهيل يقيم علاقة إيجابية مع الأثري العظام من جهة ومع روها والكواكب السبعة والأبراج الاثنا عشر من جهة أخرى، وهو مع الحياة ومع الموت، وهو حامل الطيبة وحامل الشرّ. إنه جامع النقائض.

وقد عرفنا أن والده (أباثر) سجنه وقيده ووضعه في (غيوم الضباب ذات العفونة). إن مكانه في قاع المطهر لا يفعل شيئاً سوى دفع الأرواح الصاعدة إلى مقام أباثر لوزنها. ومع ذلك يعتبر بثاهيل خالق العالم المادي. مثلما يعتبر الحيّ العظيم (هيّي ربّا) خالق العالم المثالي. وقد أوحت هذه الفكرة للغنوصية بتقسيم الخالق إلى متعالٍ أول وإلى خالق صانعٍ ثانٍ.

إننا نرى أن الغنوصية سطّحت وبسّطت أفكار المندائية، وكذلك فإن المسيحية أخذت الغنوصية وسطّحت وبسّطت أفكارها. فقد تكوّن الجهاز الفكري والمعرفي المندائي بعد مخاض سرّي طويل للأديان الرافدينية، وحين نمت الفلسفة والأديان الغنوصية قرابة القرن الميلادي الأول كان ذلك الجهاز المندائي المركب قد تحوّل إلى جهازٍ بسيط بعد ان اعاد انتاجه الاغريق الهلنستيون، أما المسيحية فقد جعلته ساذجاً.

إن شخصية بثاهيل تلعب الدور الأساس في كونها المفصل بين العالمين المثالي والمادي وتتوازى معها شخصية آدم.وفي كتاب يحيى يظهر بثاهيل بمثابة (أب ملائكة الكواكب والنجوم) وهي أقرب إلى الشياطين والجيوش الزائلة.

ولعل(ديوان أباثر) المندائي يصف بطريقة تفصيلية عالمي أباثر وبثاهيل باعتبارهما محطتين مهمتين في طريق عودة الروح من الجسد الى عالم النور وهو ماسنشرحه في مكان آخر.

٧. الكوشطا (النظام الكوني):

تدل كلمة (كوشطا) في المندائية على (قسط) في العربية ومعناها العدل والنظام. وتأخذ هذه الكلمة أبعاداً روحية وفلسفية عميقة فهي تدلّ على النظام الكوني المتوازن والدقيق وتكون لازمةً بعد خلق أي شيء في الوجود. ولهذه الكلمة قاموسياً معانٍ كثيرة منها: الحق، الحقيقة، العدل، الميثاق، الإخلاص، الصلاح. وهي إحدى مظاهر الدين المندائي والرباط الذي يجمع المؤمنين، ويعبر عنها عملياً بـ(المصافحة). وفي الكتاب الثاني عشر (الجزء الثاني) ما يعبر عن الكوشطا

ويكشف حقيقتها:

«تعالي بطيبةٍ، كوشطا،

إنكِ نورٌ يزور دار الخليل

إنكِ أنت المنتصر المختارة

أنتِ يا من وثقت سلالتكِ جميعها بالظفر

أنتِ جمرةٌ بالغة الكمال

منتخبة بدون عيب أو نقصان

أنتِ طريق الكاملين

السبيل الذي يفضي إلى مقام النور

أنتِ هي الحياة الأبدية

التي تتبوأ مكاناً في قلب كلّ شكور

ويلٌ لمن لا يصغي إليك سيدتي

وطريقه يذهب عبر بيوت البهجة الغنّاء

أنتِ سلاح الكاملين

الحقيقة بدون عيوبٍ أو أخطاء

أنتِ حكيمة وممتعة

وتعلّمين الحكمة والتسبيح كلّ من يحبّ اسمكِ

طوبى لمن يستمع إليكِ، سيدتي،

ويمضي على الطريق ماشياً وراءكِ

أنتِ يوم الفرح

الذي يخلو من الحزن والعويل

أنتِ إكليلٌ من النصر

وضع على رأس المتنورين

أنتِ لسان التسبيح

الذي يمدح كل يوم الحياة

أنتِ الأداة (الفكرة) الأولى

التي اخترعتها الحياة

أنتِ نور الكبرى

ذهبتِ وجئتِ إلى العالم

أنتِ الدواء الناجع

الذي يشفي كل من يحب اسمكِ

أنتِ عين الرجال ذوي الخبرة بالعدل والإنصاف

التي تنظر يومياً متطلعةً إلى الحياة

أنتِ ثمرة حلوة

إن مذاقها لا يجلب الموت

أنتِ الرفيقة الأولى

اللبنة التي قدمت آتيةً من دار الحياة

أنت الصوت الأول

الذي خلقته الحياة من طبيعتها

أنت الأرفع ما بين الكنزاوري

التي منحتها الحياة النفوذ على كلّ شيء

إن الموتى سمعوا منكِ فأفاقوا من رقادهم

والمرضى استمعوا إليكِ فنقهوا وشفوا

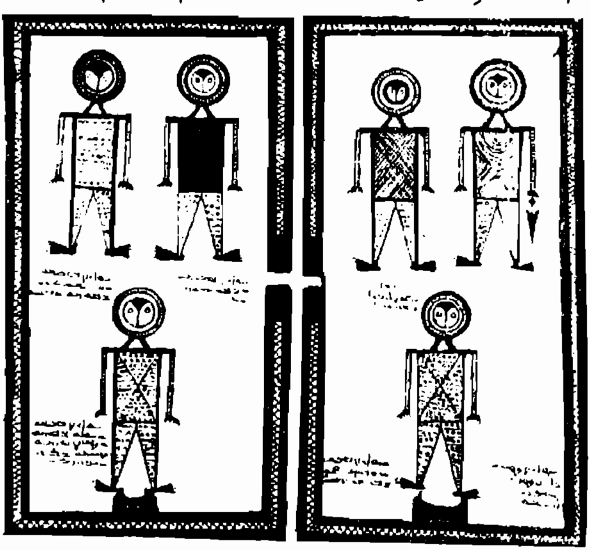
أنتِ تعفين عن المختارين والكاملين

الذين تملكت الكوشطا زمام قلوبهم»[٢٨]

تذكرنا الكوشطا بما كان يعتقد به السومريون حول النظام الكوني والنواميس الإلهية المتمثلة بـ(مي) وهي مجموعة كبيرة من أدوات ووسائل المدنية وشكلٌ من أشكال النواميس الحضارية. وهو ما عُرف عند المصريين القدماء بـ(ماعت) التي تشكّل جوهر النظام الكوني عندهم.

ويعرف الـ(مشوني كوشطا) بمكان الفردوس المندائي الذي يقع قبل المطهر باتجاه عالم النور والذي تقبع فيه الأرواح المندائية الكبرى مثل آدم وحواء بعد صعود روحيهما واستقرارها في عالم النور فإن مكانها النهائي هو مشوني كوشطا. وهناك إشارات أن بثاهيل هو الذي خلق هذا العالم. وقرب مشوني كوشطا هناك أسطورة تتحدث عن محراث الحق الذي لا تجره الثيران وليس بالإمكان رؤيته:

«ملاك الأحد يجر المحراث، وابن الحياة يبذر بذوراً. هؤلاء الرجال المتميزون يبذرون ويقتلعون الأدغال، يرمونها بعيداً. إنهم يزرعون اللآلي، ويحصدون الطيب، والخيرات. وعبر الأجيال يرتقون، وقد أقاموا عليهم حرساً. الحراس باركوا وانتشروا، وظلّوا قائمين حتى النهاية. قالوا لهم: أيها الحرسُ الذين تحرسون الأجيال، ركّزوا على حراسة بواباتكم.. شددوا الحراسة عيها، وعلى طرقكم وممراتكم إلى الأبد، واتفقوا من الآن على الذهاب والإياب بالتعاقب، وليكن ذلك عهداً بينكم، إجعلوا هؤلاء المتحمسين للقسوة ملومين، ففي اللوم عقابٌ وحساب، طهروا نفوسكم، وانقذوها من فم الوحشِ الكبير. إخواني الطيبين.. أخواتي المؤمنات.. أيها الأتقياء ابتعدوا عن فم الوحشِ الذي اسمه أور.. سيد عالم الظلام»[٢٩]



شكل رقم (٣٩)

مشوني كوشطا

وهو إحدى المحطات التي تمر بها الروح وتعادل العالم المثالي (الجنة)

ويظهر في هذه الصورة الموضوعة في إطار من اليمين إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل ما يلي:

من اليمين الأعلى: ١ـ شبيه (دموثا) كنزئيل العظيم Ganziel. ٢ـ شبيه (دموثا) كيمات Qaimat.

٣ـ شبيه دموث هيّي (شبيهة الحياة). ٤ـ بنت روها Dumuthayy.

من اليمين الأسفل: ١ـ شبيه آدم الرجل الأول وعرشه المسمى (كرسيا Kursia) واسمه الصفار (أو أصفر) وهو من الذهب. ٢ـ شبيهة حواء ابنة كرون وزوجته واسمها زوجة آدم.

المرجع: Drower, Dewan Abatur, P37F

٨ . شهلون :

يظهر الأثري (شهلون) وكأنه المحفز لخلق الأرض وتصليبها قبل أن تُخلق ، فهو أحد كائنات النور التي كانت تمهد الطريق للخلق عن طريق إثارة الأسئلة وإحراج الكائنات النورية الكبرى على الاستمرار في الخلق :

«عندما لم تكن الأرضُ قد جفّت والحياة لم تُخلق عليها بعدُ ، وكان الماءُ الآسن موجوداً ، هبط هيبل زيوا وشيتل وشهلون وآير إلى الأرض ، توقفوا حيثُ وضع هيبل حداً ، وأبعد المياهَ ، وجزأها .

نهض شهلون وقد امتلأ غيضاً على هيبل زيوا وعلى آير زيوا قائلاً :

أخواني الأثري ، إن العالم الذي أتيتم إليه ، لم تتصلب لأرضُ فيه تماماً ولم تجفّ المياه الآسينة ولم تُخلق الحياة بعد ، وإذا خُلق آدم وزوجه حواء ، فهل يمكن أن يُخلق في هذه المياه الآسنة أبناء آدم؟

وكيفَ يرتقون؟

كيف تقام القصور وتُشاد المنازل؟

كيف توجد القوة؟

هل يمكن أن تُمنح الزهورُ والرياحين في هذه المياه الآسنة

عطرها لآدم وحواء؟

هل يمكن أن تُغرس شجيرة آسٍ كي ينتشر أريجها؟

كيف يستطيع صورييل أن يصل إلى هنا؟

في هذا الماء الآسن كيف تُغرسُ شجيرات الأزهار وتُبذر البذور؟

كيف ينتشر أبناء آدم؟

بماذا يحصدون؟ وبم يطحنون؟ وكيف يعملون الخبز؟

كيفَ تُخلقُ النعجة البيضاء؟ وكيف تحملُ؟ وكيف تلدُ؟

كيفَ تُعدُّ رحى النور؟ وكيف يطحنون بها لآدم كي يأكل؟

كيف تُخلق طيور السماء؟

كيف تُخلقُ الحمامةُ البيضاء لتكون رفيقة لآدم؟»[٢٠]

هذه الأسئلة الخَلقية التي طرحها شهلون قبل خلق الأرض وَالسماء وآدم هي التي دفعت بثاهيل ثم هيبل زيوا ثم شيتل لأن يساهموا ، لاحقاً ، في عمران الأرض ويختص كلّ واحد مهم بعملٍ معين ، كما نراه في تكملة أسطورة شهلون :

«عندما أنهى شهلون حديثه هبط بثاهيل وراح يتحدث معه :
بقوة ملك النور سأصلّب الأرض وأجعل الهواء يهبُّ عليها
سأبعدُ الماءَ الآسن ، ويشقّ هيبل قناةً لتصريف المياه ،
وسأجلب الملابس من أور ، وسيقيم هيبل وشيتل الخيام .
إمتلأ شهلون غيضاً وقال لبثاهيل :
لم تُمسِك الحياة منك خيراتكَ شيئاً ، فمنْ أنتَ من الأُثري؟!
قال شهلون ذلك ، فنزل بثاهيل وخاضَ في الماء الآسن ، أبعدَه
فكانت اليابسة ثم كانت السماء
خفقَ آير بجناحيه ، وجعل شهلون يقف على الأرض ..»[٣١]

٩ . شلمي ربّ المنزل :

عرفنا أن (شلمي) مع (ندبي) يشكلان حارسا نهر سندرياويس الذي هو النهر المقدس الثاني في عالم النور والذي يقع تحت الأول (برياويس ويسمى نهر الحياة الكبرى. وكلمة شلمي ربما دلّت على السلام أو التسليم (الغروب) ولها علاقة بالإله الكنعاني / الأموري (شلم).

لكن الجزء الخامس من الكتاب الخامس من كنزا اليمين يفرد له أسطورة خاصة تتعلق بنوعٍ من الامتحان الذي يجريه له والده (يثرون) والذي يتعلقُ بمعلومات هامة عن الخليقة والفناء.

تبدأ الأسطورة بمديح الرجل الغريب الذي اخترق العوالم والذي يكون عادةً مندا إد هيّي أو هيبل زيوا ثم التطرق إلى عالم الكواكب والروها التي تكلّف الرجال بمهمات، ونستغربُ كيف أنها كلّفت (شلمي) بمهمةٍ.. فهل كان في الأرض؟ ولماذا؟ وكيف يقبل شلمي حارس سندياويس بتكليف من روها؟ لكنه يظهر أيضاً باسم (رب المنزل). وفي الغالب توصف الأرض بـ(المنزل). فهل أصبح شلمي ربّ الأرض وكيف؟ هذا ما لا نعرفه أبداً. تقوم روها بتكليف شلمي قائلةً :

«شلمي ، صاحب المنزل انهض من نومك مبكراً في فجر يوم الغد واذهب إلى شاطيء النهر وإلى موقع السلامة الصالح (الطيب). إغسل يدكَ بكوشطا وطهِّر أصابعك في ماء النهر النوراني العظيم ثم اصعد إلى أعلى وامثل أمام أبيك يثرون، الرجل الكامل. إذا رأى أبوكَ إيّاكَ فسوف يولي إيّاك زمام الدولة ويمنحك الطيبة وسعادة هذا العالم»[٣٢]

وحين يفعل شلمي ذلك ويصعد ويرى والده الذي كان يعلّم (٣٦٢) تلميذاً يغضب والده لأن شلمي لم يتعلم أسرار الناصورائية. وحين يغضب ويزمجر يطلب منه التلاميذ أن يهدأ وأن يمتحن شلمي بالتنظيمات والصفات والأقوال والتعمقات الناصورائية والتأويلات عن هذا العالم فإن عرفها فيجب أن يُمنح عرشاً بين الرجال من آبائه وإن لم يعرفها فعليه العودة إلى العالم الذي قدم منه. فوافق (يثرون) وسأل شلمي خمسة عشر سؤالاً مهماً عن الخليقة والعمران والفناء، فأجاب شلمي أجوبة صحيحة. ونظراً لطول النص بسبب التكرار الذي فيه فسنضع الأسئلة وأجوبتها كما يلي[٣٣]:

١. كيف خُلقت هذه الأرض وعلى أيّ شيءٍ يستند السندان وتحت تصرف مَنْ كان قد وضع الهوش الكبير (البحر الكبير)؟

جواب شلمي: هذه الأرض أصبحت ثابتةً متسمِّرةً. إن السندان يستند على الماء الأسود أما الهوش الكبير فقد أعطي للكاذب.

٢. كيف خُلقت هذه السماوات وعلى أيّ شيءٍ هي منبسطة وبأي شيءٍ هي معلقة وكيف تحصل إنارتها؟

جواب شلمي: هذه السماوات تتكون من سبع غيمات مائية ثقيلة ملفعة بالضباب، وقد بسطها ثم رفعها إلى الأعلى بثاهيل بالقدرة التي منحها إياه أبوه أواثر. بين كلِّ واحدةٍ منها تتدلى أنوار البهاء معلقةً وجميعها تتألق مضيئةً بتأثير قدرة الملوك (الملائكة).

٣. كيف خُلقت الشمس وما هي طبيعتها ومن أين تستمد هي حرارتها وبرودتها ومن أين لها هذا السطوع؟

جواب شلمي: إن الشمس نشأت من الأرض وطبيعتها انشقت من طبيعة السبعة وحرارتها وبرودتها تصدران من حرارة وبرودة بثاهيل. أما سطوعها فهو ناتج عن سطوع الحياة العظمى، المبهمة، المتسلطة التي تعلو على جميع الأعمال.

٤. كيف خُلق القمر وما هي طبيعته ومن أين يستمد نوره وكيف تأتّى له هذا الجمال؟

جواب شلمي: إن القمر نشأ من الأرض وطبيعته انشقت من طبيعة الكواكب. أما نوره وجماله فقد صدر الاثنان من نور وجمال سام زيوا الأول الكبير الحبيب ذلكم الرجل الذي تقع

شكينته فوق العوالم المائة والسبعة والستين العالية ذات العظمة. كلّ عـالمٍ على انفراد يمتد آلافاً مؤلفةً من الأميال في كبره وتتسع مساحته من الشكينات وفي كلّ شكينةٍ منفردةٍ تعيش آلافٌ مؤلفة من الأثري وكلّ شكينة تُسكن من قبل إثرا واحد.

٥. من أين ورد الماء وما هي طبيعته؟ من أين أتى هو بطعمه الحلو؟ ومن أين له هذه القدرة؟

جواب شلمي: الماء ورد من الأرض وطبيعته وهبت له من طبيعة السبعة وهو يستمد قدرته من قدرة الظلمات أما طعمه الحلو فقد جاء من طعم الماء الحي.

٦. من أين جاءت النار ومن أيّ شيء نشأت طبيعتها ومن أين لها هذا المظهر ومن أين جاء دخانها؟

جواب شلمي: النار خرجت من الأرض وطبيعتها انشقت عن طبيعة السبعة وهي تستمد قوتها من قوة الظلمات، أما دخانها فقد أخذته من منزل الشيطان إسمائيل.

٧. من أين جاءت الريح؟ ومن أي شيء ندت طبيعتها ومن أين لها هذه القدرة وكيف تتأتى لها هذه الطيبة؟

جواب شلمي: إن الريح تصدر من الأرض وطبيعتها انشقت عن طبيعة السبعة وهي تستمد قوتها من طاقة الظلمات، أما طيبتها فتأتي من طيبة الأثير.

٨. ما هي الأشياء العليا وما هي الأشياء السفلى؟

جواب شلمي: الأشياء العليا هي السماء والأشياء السفلى هي الأرض.

٩. هل تكون السماءُ حبلى من الأرض أم تصير الأرض حبلى من السماء؟

جواب شلمي: السماء تجلب مطراً وندى والأرضُ تفغر شدقها وتنهل منهما. بد ذلك تنتج هي أثماراً وبذوراً وفاكهةً يقتات منها أبناء آدم ويرتوون دون أن يحمدوا ربهم على نعمه شاكرين.

١٠. ما هي الأشياء الظاهرية وما هي الأشياء الباطنية؟

جواب شلمي: الأشياء الظاهية هي الرجل والأشياء الباطنية هي المرأة.

١١. تُرى هل يحبلُ الرجلُ من المرأة أم تحبل المرأة من الرجل؟

جواب شلمي: إن النطفة تتكون في جسم الرجل خلال اثنين وأربعين يوماً. بعد ذلك يسلم هو المرأة البذرة والأصل والجذر والجماع ويُصنع من كل هذه المخّ (النخاع) والعظام والأوتار.

١٢. ماذا تعطي المرأة الطفل؟

جواب شلمي: هي تعطيه الدم والجلد (البشرة) والصور والشعر.

١٣. من أيّ شيء ينشأ الطفل في بطن أمه ومن أيّ شيء ينمو؟

جواب شلمي: إن الطفل ينمو من أسرار أبيه وأمه والسبعة.

١٤. من أين يأتي الغذاء للطفل؟

جواب شلمي: من باطن الأم.

١٥: إذا اكتمل الجنين في بطن أمه وأصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يأتي إلى هذا العالم فكيفَ تحدث ولادتهُ؟

جواب شلمي: إذا اكتمل الجنين في بطن أمه فسوف يأتيها المخاض وتشعر بآلام الوضع في باطن حوضها. بعد ذاك يتحرك الجنين من مكانه بحيث يستدير هو برأسه إلى الأسفل ويرفع ساقيه إلى الأعلى: حينئذٍ يولد الطفل.

كان شلمي رائعاً في إجابته عن هذه الأسئلة بصورة دقيقة وكان والده في كلّ مرة يضعه على عرش الشرف الكبير الذي وضع له بين الرجال من آبائه. ولكن الأب حين وجه له السؤال السادس عشر والمتعلق بنهاية العالم لم يستطع (شلمي) أن يجيب جواباً صحيحاً وشعر بالهوان واتّخذ مكانه في مؤخرة صفوف التلاميذ الثلاثمائة والاثنين والستين، وعند ذاك هبط هيبل زيوا (كنز النور والهدوء الكبير وسند الحياة) فوجده جالساً في مكانه هذا وسأله عن السبب فشرح له فقال الأثري الهابط عليه إنه سيعلّمه الجواب وإذا قال له والده لماذا لم تجب إذن أو هل أن أحد الأثري لقّنك هذا الجواب فقل له كلا.. لقد عرفت الجواب ولكن قدمي لم يكن ثابتاً أمامك. ففعل ذلك شلمي. ويبدو أنه كان هناك سؤالان وجواباهما، كما يلي: (٣٤)

١٦. إذا بلغ العالم نهايته فعلى أية صورةٍ سيحدث هذا؟

جواب شلمي: سوف تهوي الأرض إلى أنقاصٍ، وسوف تقع النجوم والأجرام السماوية ساقطةً كما لو كانت ورقات يابسة. وسوف تدخل النار في غمدها ويتراجع الماء الذي أجريته وسوف تقبض الرياح الأربع على أجنحتها ممسكة إيّاها فلن تهبّ بعد.

١٧. إلى أين تذهب روها؟، إلى أين يذهب أور؟ وإلى أين تذهب الكواكب السيارة وأرواح

الناس الأشرار، أولئك الذين كانوا قد دانوا بعقيدتهم؟ أين يذهب أولئك وأين يأتي يأتي هؤلاء وأين سيكون منزلهم؟

جواب شلمي: إن روها وأور والكواكب السيّارة وأرواح الناس الأشرار الذين اعتنقوا دينهم، أولئك كلهّم سوف ينادي بعضهم على البعض الآخر ويمسكه بيده. عندما يرسف الجميع بالأغلال فسوف يُقذف بهم مثل رمّانةٍ من رصاص في أور، ربّ الظلمات، في جوفه الضخم ذاته. الدخان يتصاعد من معدته وسوف تتأجج النار ملتهبةً لكي تلتهم أور، ربّ الظلمات، وإيفاذ الروها الكاذبة والكواكب بأسرها وأرواح الناس الأشرار أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا مذهبهم.

وحين سأل الأب شلمي: هل كنت على علمٍ يقين بهذا الخبر ولكنك امتنعت عن الإفصاح به أمامي أم قام أحد الأثري من أبناء النور بتلقينه إيّاك. فقال له شلمي: لقد وهبني هيبل زيوا هذه المعلومات، فطرده أبوه واتهمه بأنه تخلى عن البهاء وانقطع عن النور وعزلته الحياة وتركته الأثري وراءها متنحيةً عنه.

وبالقدر الذي تكشف لنا هذه الأسئلة والأجوبة جانباً هاماً من المثولوجيا المندائية فإنها تشير أيضاً إلى أن حادثًا قد وقع في عالم النور اضطر شلمي لأن يُطرد عن عالم النور وأن يتحول إلى أحد أتباع روها بل ويصبح (ربّ الأرض) ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الحادثة/ الأسطورة. وربما سنعثر عليها ذات يوم.

المبحث الثاني
أساطير عمران عالم الظلام

لا يعتبر عالم الظلام مكاناً للعمران فهو لا يتطور ولا يُبنى بأضافات جديدة، فقد ذكرنا أساطير خلقه وتكوينه وقد بقي على هذا الحال باعتباره عالماً سلبياً غير قابل للتطور، بل ربما كان في طور تراجع دائمي نحو بدائيته وهيوليته الأولى، فكائناته تعيش في ظلامٍ أبدي وليس هناك من تطورات وأحداث مميزة فيه. ثم أن عالم الظلام بعد خلق الأرض نقلَ كل قوته وصراعاته مع عالم النور على الأرض عبر شياطين الكواكب والأبراج تحديداً لأنها أصبحت المشرفة على الأرض والإنسان، من هنا يمكن تلخيص كل تطورات وعمران هذا العالم عبر هذه الكواكب والأبراج.

لقد خُلقت الكواكب والأبراج في لحظات تعثر تكثيف الأرض من مضاجعةٍ سفاح بين روها وابنها أور وربما أيضاً مع أخيها وأبيها، ولذلك فقد وصمت بأنها نتاج زنا مركب الحرام، وما وصم المندائيين بأنهم عبدة كواكب إلاّ جهلٌ ما بعده جهل لأن من يفعل ذلك لم يكلّف نفسه معرفة موقفهم منها في أقدس كتبهم وأهمها وهو الكنزا العظيم. ليس هناك جملة واحدة تُثني على الكواكب والأبراج فكيف تسنى للمتحدثين عن المندائية قديماً وحديثاً وصفهم بأنهم عبدة كواكب وهم الذين يعتبرونها جزءاً من عالم الظلام.

ويمكن أن نقسّم مراحل تنظيم (عمران) الكواكب إلى ما يلي:

١. تنظيم روها الأول:

بعد ولادة الكواكب والأبراج وصعود بثاهيل إلى عالم النور وسيطرة الروها وحاشيتها على الأرض قامت الروها بتنظيم أولي للكواكب بحيث «إن الكواكب السيارة السبعة كانت قد قسّمت الأعوام تقسيماً عادلاً بحيث لم يأخذ أحدها أقل أو أكثر من غيره، أما روها الغاوية فقد جزّأت العالم كله، لم يحصل كلّ واحدٍ من الأبناء الناقصين الاثني عشر على حصةٍ هل أقل من أخيه.

إن روها وجميع الكواكب السيارة لم تشعر ولم تعلم بأن للعالم ربّاً يحيطه الأبرار والأعوان من كلّ جانب، مهما تحاول هي أن تصنع الدسائس وتدبر الحيل بغية أن تنصّب حاكماً على هذا العالم»[٣٥]

وكان هذا التنظيم أولياً لأن الأثري العظام هم الذين سيتولون تدبير شؤون هذه الكواكب والأبراج فيما بعد وسيجعلون عليها بعض الأثري المقربين.

٢ . تنظيم روها الثاني :

بعد أن تعاظم دور آدم وسلالته برعاية مندا إد هيي قامت الروها وشياطينها بأعادة تنظيم أمورهم وتوزيع الوظائف بينهم وكما يلي :

«إن الشياطين أعطوا الروها من الحصص الشهوة
ما أن تراها العوالم حتى تحمرّ خجلاً
وخصّوا نبو بالحكمة الفاسدة
وجعلوا منه سيداً لغريزة الحبّ
إنهم أعطوه الطبول والنايات
مما حدا به أن يأسر جميع العوالم بالسحر
أما كيوان فقد خصّوا إياه باللؤم
الذي انبعثت منه كلاهما : العيب والنقصان
أما شامش (الشمس) فقد خصصوا له الكذب
حتى يظلل فيه العوالم قاطبة
ووزعوا على سين (القمر) الضرر
ذلك الذي تصدر منه جميع العاهات
أما بل فقد جعلوا منه حصته سرّ الماء
مما دفعه إلى أن يحرّض العوالم كلها
إنه يثير في العوالم روح الثورة

ويخلط الصالح بالطالح

أما نيرغ فقد أعطوا إياه السلاح

بغية أن يشعل في العالم الحرب

ثم دعوا هم النجوم الاثني عشر

وقسّموا عليها البروج

إنهم وزّعوا بينها أجزاء الدائرة كلّها

ورموا بها كرّة أخرى إلى الشّر

مرّة ثانية قذفوا بها إلى الشرّ

مرّة ثانية قذفوا بها إلى الشّر

وبثّوا فيها حقداً وغيرةٍ وشقاقاً

إنهم قسّموا الأيام والأشهر

وقسّموا الساعات والشوشيا (الدقائق)

لقد قسّموا الساعات والشوشيا

وقسّموا اللحظات والثواني»[٢٦]

وبعد تقرير مصائر الكواكب السبعة استمرت حفلة الشياطين والكواكب وتوزعت لآت الموسيقى بيهم (انظر شكل٤٠):

«ثم وزّعوا الرذيلة كلها

فسمّوا كل العيوب والنواقص

إنهم تقاسموا فيما بينهم العالم برمته

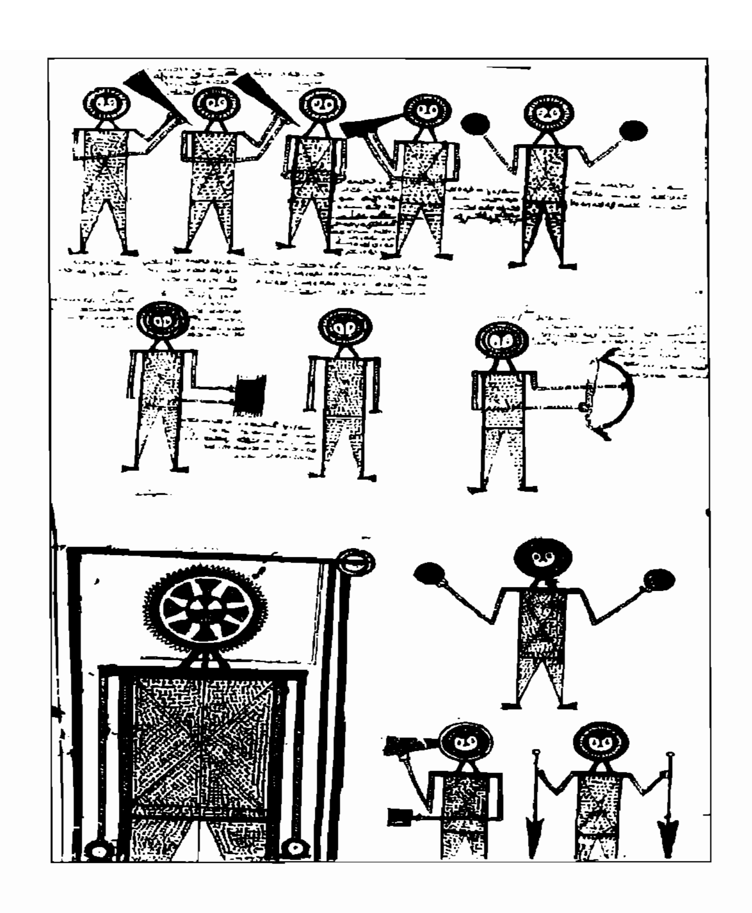
ولم يذكروا ولو مرةً واحدة اسم الأول

إنهم عقدوا عهداً

وقذفوا القيود

إنهم أيدوا أقوالهم باليمين

وما هم جميعاً إلاّ أولئك الذين يقفون بجانب الكذب.
أنهم يؤكدون الأقسام
التي كانوا هم حلّفوها سالفاً على جبل الكرمل
في الاحتفال الذي أقامته السبعة
كانت قد تكلمت جميع العصور والعفاريت
وفيه انطلقت الطبول والأغنيات عاليةً
وهي رأس (أساس) كل سحرٍ
وفي بداية كل حيلةٍ كبيرة
التي لا تقع بدونها العوالم في الفخ
وفيها انطلاق الأبواق والبلوريا
وهي أصل كل ذبحٍ للفدية
هي أصل (رأس) كل المنازات
التي لا تقع بدونها العوالم في الفخ
وفيه انطلقت قيثاة الشهوة صارخةً
ومن هذه بدأت الشهوة تسير وتنتشر في الجميع
فيه دقت الكواكب السبعة بالدفوف ضاربةً
مما جعل الروهات كلهنّ يبدأن بالكلام
إن الروهات شرعن كلهن بالحديث
وانبرينَ للصيد في هذا العالم
فيه نفخت هي في الأبواق
فيه نفخت هي في غضبٍ
فيه عزفت هي على النايات الكاذبة
ومن هذه خرجت كل الأكاذيب
فيه أحدثت هي ضوضاءً صاخبةً.



شكل (٤٠)

قسم من عالم روها طبقاً لـ(ديوان أباثر)

الأرواح الحارسة (الشياطين) أو الحرّاس الذين يمسكون الأسلحة وأدوات التعذيب والأدوات الموسيقية. ويظهر من اليمين إلى اليسار ومن الأعلى للأسفل:

١ـ شيطان الجذام وهو يمسك الصنوج. ٢ـ سار وهو يمسك آلة. ٣ـ كران بل مع الطبل.

٤ـ جبريل رحمات (المحبة لجبريل). ٥ ـ زهرون مع مضرب

الصورة الكبيرة التي أسفل يسار اللوحة لـ(أور)

المرجع: Rodulph, Kurt: Mandaeism plate VII

بحيث دوّى منها صخب عنيف في العالم

لقد عمّ العالم صخبٌ كبير

لأنها حاولت أن تهزّ كل أركانه

إنها زلزلت العالم بأسره

ورجّت الأرض في باطنها

إنها هزّت مركز الأرض

وزلزلت القبّة الزرقاء وما فوقها

هي زعزعت القبّة الزرقاء وما فوقها

وجلبت في كل حدبٍ وصوب أسرى»[٢٧]

وتصل أبعاد هذه الضجة الكبرى للروها والكواكب إلى قلب آدم الذي يخاف منها على حياته فيقوم مندا إد هيّي بتهدئته وتهدئة حواء ثم يحصل بعدها إغواء هيبل الذي ذكرناه في خليقة الإنسان.

٣ . تنظيم وعقاب مندا إد هيّي للكواكب وأتباعهم من البشر :

بعد أن نال مندا إد هيي من الكواكب التي أحدثت تلك الضجة الكبرى وقد شرحنا ذلك مفصلاً، ينصرف لأبواب الروها وأور والكواكب والأبراج فيمّر عليها الواحدة بعد الأخرى فالأبواب التي كانت الروها قد كوّنتها سيعمل السيف فيها قتلاً وتقبع هي جالسة صائمةً كلّ يوم حزينةً حتى تموت، أما أبواب أور التي يرمي بعضها الآخر بالكذب والنفاق وتتهم بعضها الآخر بالزيف والباطل فسوف تتلاشى في آخر أيامها.

أما باب الشمس التي بناها شامش (الإله الباطل) فقد خرج منها شعب الخاطئين الذين يضربون بعضهم والذين خرج منهم شعب (اليزوقائيين) الذين يعبدون النار (وهم طائفة فارسية) ويتعلقون بثوب الإله الباطل. أما باب القمر:

«من البوابة التي كان أكزئيل قد بناها

اكزئيل الذي يدعوه كل الملأ سين

إن كل العالم يدعوه باسم سين
وذلك لأن شكله في كلّ مكان بشعٌ
من البوابة التي كان سين قد أسسها
خرجت الأوجاع والذكريات
وهي تلك التي تتمخض عن السحر وتحضير الأرواح
التي تحوّل القلوب وتغيّرها
وتوقع الناس في حبائلها وتأسرهم
إن كل من يسمع إلى قولها
سوف يسقط إلى الحضيض»[٢٨]

هذه الصورة القاتمة للقمر تتناقضُ كلياً مع الصورة المشرقة له التي يرسمها الحرّانيون والذين نعجب كيف تمّ خلطهم مع المندائيين تحت اسم الصابئة، فالحرّانيون عبدة كواكب منذ أقدم العصور أما المندائيون فعكسهم تماماً يعتبرون الكواكب مصدراً للشرِّ والرذيلة. القمر عند الحرانيين ربّ الآلهة والكواكب الأخرى وهو مركز عبادتهم.

أما كيوان (زحل) فبوابته تخاف منها الأيام هي مكان لخروج أنبياء الكذب ومن أولئك يتألف جيش السحرة العاكفين على الكذب وهم مع الزاهدين بالزواج والكهنة سينالون نهايتهم المحتومة.

أما بوابة المريخ (أنكائيل) الذي هو (بعل) أو (بل) فمن بوابته ظهر كل الموالي والتابعين الذين صاروا حكام الغيظ في الأرض، الظالمون القساة الضاربون بالسياط وسينالون جزاءَهم. أما بوابة المشتري (نيرغ) فقد ولدت من الكذب والنفاق:

«أما البوابة التي بناها نيرغ
فقد ولدت كلّها من الكذب
إنها صُنعت كلّها من النفاق
وأتباعها يجوبون قفار العالم سعياً على الأقدام
إنهم يذرعون القفار طولاً وعرضاً
ويعرضون جنونهم في جميع أصقاع العالم
إن الهمورثا التي خرجت من النيرغ

تولّت حكم الغيظ في تيبل
إنها تقترف جريمة الموت
وتسفك الدماء
إن الذي جمع شملها
يخطو في مقدمة الغزوة الحربية ماشياً
على رأس الحملة الحربية يخطو هو ماشياً
من أجل أن يسفك الدماء في العالم
في اليوم الذي يقترف هو جريمة القتل
تسرُّ نفسه للقتل العمد أكثر منها لفعلِ الجميل
في اليوم الذي يقتل هو فيه نفساً
يأخذ يلغو ويضحك حسب مزاجه
في اليوم الذي لا يرتكب هو فيه جريمةً للقتل
يصبح جسده مصطبغاً بالأعشاب المرّة
إن البوابة التي خلقها نيرغ
سوف تلاقي نهايتها عندما تأزف الساعة الأخيرة»[٢٩]

وقد لاحظنا في النصوص السابقة أن روها تأخذ مكان كوكب الزهرة، وهذه إشارة بالغة الأهمية لأن روها هي شخصية عشتارية منحطة أو أنها عشتار المظلمة التي كان كوكبها هو الزهرة.

كذلك نلاحظ أن النص السابق يغفل ذكر عطارد (نبو) ويذكر (أور) فهل يكون أور أيضاً بديلاً عن عطارد أو مطابقاً له، ربما!

وفي الجدول الآتي نلخصّ ما أصبحت عليه حالة الكواكب وكيف أنها تطورت بهذه الكيفية، وقد أصبح بأمر زيوا، لاحقاً، كوكب الشمس هو ملك الكواكب أما طليبات (الزهرة) فأصبحت ملكة الكواكب وجُهزت بعربات وألبسةٍ بل أنه منحها بهاءً لكي تنير العالم به، وأصبح سار وساروان حاميا زورق الشمس:

م	اسم الكوكب باللغة العربية	اسم الكوكب باللغة المندائية	ألقابه المندائية	اليوم الخاص به	اسم اليوم بالمندائية	اختصاصه	الذين خرجوا من بوابته (أتباعه)
١	الشمس	شامش	قدوش، إيل أدوناي، يوريا	الأحد	هوشبا	الكذب	اليزوقائيين (عبدة النار)
٢	القمر	سين	ساورئيل، أكزئيل، سره	الاثنين	نزين هوشبا	الضرر (العاهات)	الآلام
٣	المريخ (مارس)	نيزغ	أور	الثلاثاء	ثلاثا هوشبا	السلاح والحرب	المحاربون
٤	عطارد (ميركري)	أنبو	أور	الأربعاء	أربا هوشبا	الحكمة الفاسدة (سيد غريزة الحب)	الكاذبون
٥	المشتري (جوبتر)	بل (بعل)	أنكائيل	الخميس	همشا هوشبا (هيول زيوا)	سرّ الماء (التحريض والحرب)	الجلاّدون
٦	الزهرة (فينوس)	دلبات	عشتروت، عماميت، ليات، طليات، روها	الجمعة	أورفتا (رهاطي)	الشهوة والزنا	الداعرون
٧	زحل (ساتران)	كيوان		السبت	شفتا	اللوم (العيب والنقصان)	السحرة النسّاك

شكل / جدول (٤١)

الكواكب السبعة وألقابها وأيامها واختصاصها ومن خرج منها

ـ عمران الكواكب السبعة:

قلنا أن الكواكب السبعة، بحد ذاتها، مظلمة وتشكّل جزءاً من عالم الظلام، لكن العمران الذي طالها بعد خلق الأرض والإنسان جعل منها مضيئة تضيء الأرض وتقرر مصائر الناس وقد حصل هذا من خلال النور الذي بعث به عالم النور إليها وهناك عكستها صاريات السفن التي تحملها وتمخر بها الفضاء، وهذه الصاريات عبارة عن رايات (درافش) تعكس النور القادم لها إلى الأرض، وسنتحدث عن كلّ كوكب على حدةٍ.

١ . الشمس (شامش):

شامش هو الاسم الأكدي للشمس وقد أصبح كوكب الشمس سيد الكواكب السبعة وسيد جميع ملائكة الدنيا المادية وابتدأ به الأسبوع وكان أول يوم من أيام الأسبوع الذي هو (الأحد) مخصصاً له. وكان كل يوم يتكون من قسمين هما (الليل والنهار) وكلٌّ منهما يتكون من اثني عشر ساعة تكون لكلٍّ ساعة من كلّ يوم صفة خاصة يصلح بها عملٌ دون آخر. فعلى سبيل المثال تسمى الساعة الأولى من يوم الأحد بـ(شبير) أي الجميلة أو الحسنة وهي تصلح للشروع في بناء بيت جديد ولسفر وارتداء الملابس الجديدة وأكل الخبز ومقابلة الملوك والحكام وشرب الشراب والبيع والشراء. وتسمى الساعة الثانية ليبات أو الزهرة وهي تصلح للبقاء في المدينة التي يسكنها الرجل واتصاله بزوجته وركوب الخيل واستشارة الطبيب وأكل الخبز الجديد. وتكون الساعة السادسة من ليل الأحد ساعة نحس لأن مارس (نيرغ) يسيطر عليها فيمكن أن يقع فيها المسافر بيد اللصوص.»[٤٠]

ويتشكل مع كل كوكب طاقم كامل يتكون من ما يلي:

١.أسماؤه:

قدوش: ويعني المقدّس

إيل: وهو اسم الإله الكنعاني (أب الآلهة) وكان أحد ألقاب الإله السومري (إنليل)

أدوناي: السيد، وهو اسم الإله الفينيقي أدونيس ويرى المندائيون أنه اسم رب اليهود وهم لا يربطون يهوا باليهود بل أدوناي

يوريا: الرب، وربما تمتد جذوره إلى (راب) أو (رب) وهو إله سكان الجزيرة الصحراويون

الذين كان العرب يشكلون أساسهم. وهو يعبِّر عن اسم شامش في كسوفه. وترى ليدي دراور أن اسمه ربما حمل اسمي (أور) و(ياور ربّا) أي ياور الكبير الساطع بضوءه لحد العمى.

٢. مصدر ضوء الشمس: ملكا زيوا (ملك الضوء) هو مصدر ضوء شامش فهو يضخ بالضوء إليه ويعكسه شامش على العالم مثلما تعكس المرآة الضوء.

٣. المناظر له في عالم النور: يتناظر شامش ويتطابق مع (ياور زيوا) الكائن النوراني العظيم في عالم النور، والذي هو (جوهر الضوء)

٤. شكله الأنثوي: هو (دموثا) انثوية للشمس وليست زوجةً لها. وهي (سيمات هيّي) التي هي (سمة الحياة) أو (كنز الحياة) ومنها ينبثق العالم. وهي المقابلة الأنثوية لـ(ياور زيوا) في عالم النور.

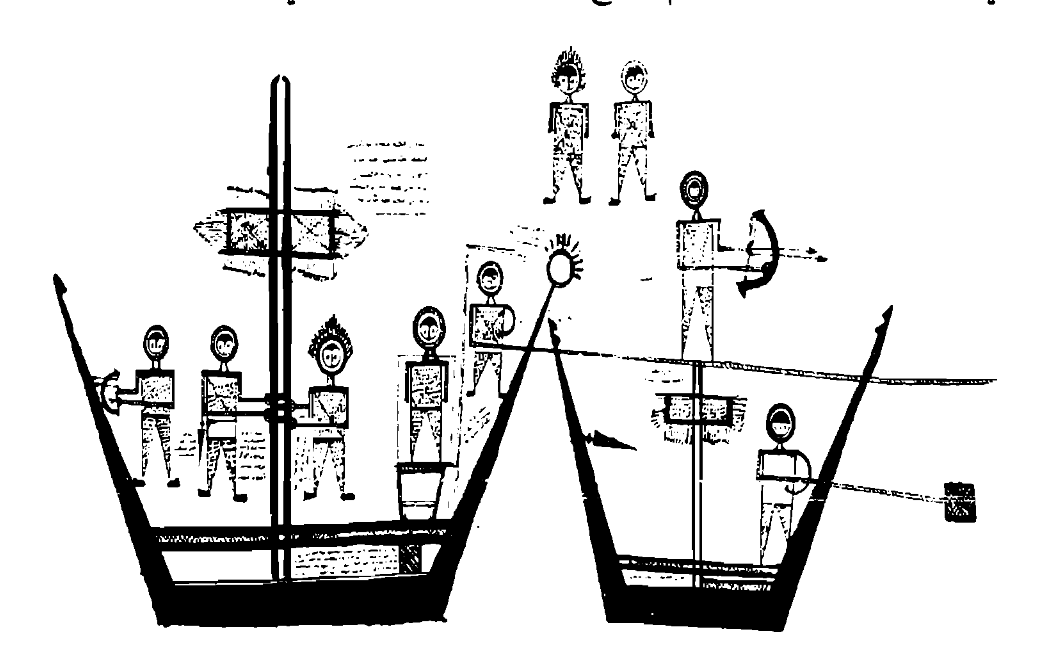
٥. الملاك المصاحب له: وهو (هبشبا أو هوشبا) ومعناه الحرفي أول يوم في الأسبوع أي (الأحد) وهو يطابق (يوخابر زيوا) في عالم النور، ويسميّه المسيحيون (هو شابا أو خوشابا) ويرون أنه يمثل يوم الأحد أيضاً وأن المسيح بُعث فيه بعد أن صُلب لأن المسيح مناظرٌ للشمس التي تنبعث في هذا اليوم لتفتح الطريق للكواكب كلّها بالظهور على مدى الأسبوع في الأيام القادمة، ويختلف المندائيون عن المسيحيين في عدم اعتبارهم هذا اليوم يوم راحةٍ بل هو يوم عملٍ مبارك.

٦. الأثري البحارة الاثنا عشر: يقودهم اثنان منهما للقوة والسطوع تعين الشمس على الاشعاع القوي وتظهر صورة ديوان أباثر ثلاثة منهم، ويكون كلّ واحد منهم مسؤولاً عن ظهور الشمس في ساعات معينة من ساعات النهار الاثني عشر، ولهم اسماء منها (زهير، وزهرون، بهير وبهرون، تار وتاروان، أر وسفيان، رابيا وطاليا)

٧. ربابنة سفينة الشمس الثلاثة: وهم اثنان من عالم النور (سام مانا) و(سميرا) يمسكان براية الشمس (درفش) الذي يرتفع مثل ساري السفينة وكأنهما يوجِّهان اتجاهها. أما الآخر فهو (أدوناي) من عالم الظلام وهو الذي يمسك قوساً وسهماً يطلق بهما الضرر الذي تسببه أشعة الشمس الحادة والزوابع الهوائية. وينجح أحياناً بوضع شيء أمام الدرفش وهو ما يسبب كسوف الشمس لكنّ سام مانا وسميرا يرفعان هذا الشيء فتعود الشمس لحالتها الطبيعية.

وتظهر صورهم مع الدرفش وسفينة الشمس واضحة في إحدى صور ديوان أباثر كما في الشكل(٤٢).

٨. الأسماء السرّية لشامش: يوخابر، بهاق، هياشم، شارهبئيل، بهرام، نباطا، كفشيئيل. وهي سبعة أسماء سرّية عدا الاسم السابع المعلن شامش والألقاب التي ذكرناها.



شكل (٤٢) سفينة الشمس

وقد كُتبت عليه كتابات تشير إلى أسمائه وأقسامه:

على القيدوم (مقدمة السفينة): هذا شبيه (دموثا) روها أم الشمس أنها التي تنفخ وتعصّب الروح (النفس)

تحت السفينة: هذا شبيه (دموثا) شامش (الشمس) ابن روها، اسمه يوخابر واسمه بهاق واسمه هياشم واسمه شارهبيئيل واسمه بهرام واسمه نباطا واسمه كفشئيل. هذه هي الأسماء السبعة التي اطلقتها الروها على ابنها شامش.

وهناك ٣٦٠ اسم لشامش لصنع رُقية للشمس للفراق والتخلص والحل من السحر العجائبي (Sorcery)

الشخص الذي يحمل سارية السفينة من اليمين: هذا هو شبيه أدوناي، الشمس في يده

الشخصان فوق المقود: هذا هو شبيه (دموثا) الزُهرة (ليبات) والجالس على خاصرة الشمس

المرجع: Drower, Diwan Abatur p.38f

أعاد رسمها: ماجد فندي المباركي.

ـ أسطورة يوربا المحارب:

توحي هذه الأسطورة بأن يوريا (وهو اسم من أسماء الشمس) كان ملاكاً نورانياً أمره هيبل زيوا أن يهبط إلى الأرض ليضيئها وأن لا يأخذ بأقوال ونصائح (روها) ولا يسيء إلى أبناء وتلاميذ هيبل زيوا على الأرض (ومن الجائز بأنه يقصد بذلك الناصورائيين):

«إنهض وقد مركبتكَ واقترب بها من هذا العالم وادخله وكن حاكماً،
فسيشرقُ النهارُ وينحسرُ الظلام.
لا تكن برماً ولا تغضب، ولا تؤذ أبنائي وتلاميذي القاطنين معك.
ركب يوربا مركبته، وانطلق بها حتى وصل العالمَ، فجاءته الروها تغريه بنصائح باطلة، تقول له، ولأبن العائلة العظيمة، وللجميع بغضب:
كونوا مثل يوربا.. انظروا أيّها الحرّاس الشباب، إلى بيت الكمال.
إصعدوا واخبروا هيبل زيوا عن الأعمال التي أنجزها يوربا لهذا العالم، وهو يريد الذهاب مع أخوته ليمثل أمام الأثري»(٤١)

ويبدو أن روها انتزعت من يوريا تاجه العظيم وحجبت عنه أشعة الضوء والنور والوقار.. وأحاط الشرُّ بتلاميذ هيبل زيوا وابتعد الحرسُ من أمامه خائفين وحلّ الخراب على الأرض وكاد الفناء يشمل العالم كله. ونعتقد أن هذه الأسطورة تريد تفسير كسوف الشمس الذي يحصل لوقت قصير بسبب يوريا لذي استدرجته روها ونزعت تاجه وحجبت عنه أشعة الضوء. ولذلك يبكي يوريا في سفينته من هول ما جرى له في الظلام فقد سوّد الظلام سماءَه، ولذلك أيضاً يقوم شبيه يوريا بالتوسل إلى هيبل زيوا بأنه سيتوب وسيوفر ٩٠٠ مصلّي ليسبحُّوا لأبيه وسيعطي هيبل زيوا رموزاً كثيرة:

«لقد أنقذتني، سأعطيك رداء الضوء، رداء النور والوقار
الذي أحضر لي من مكانٍ خفيّ
سأجهزك بأربعة أكاليل من الضوء والنور والوقار التي سُلبت مني.
سأمنحك السيماءَ العظيمة التي تكونت منها أحزمة الضوء

سأزودكَ باثنين من الحرس الذين يرفعون راية النور

على جبل طروان منذ البدء، وحتى المنتهى»[٤٢]

في المقطع السابق نجد موارية غريبة قد تكون إحدى ميزات الأساطير المندائية، وهي أن يوربا المخطيء لا يتحدث مع هيبل زيوا لأن الروها جردته من رموز الضوء كلها لذلك تخترعُ الأسطورة شبيهاً ليوربا يمتلك كل هذه الرموز فيعرضها على هيبل زيوا أو يردها له لكنّ هيبل زيوا لا يسامح يوربا ولا شبيهه ويرد عليه:

«ألم تعرف يا يوربا إني كنتُ غاضباً عليكَ؟

ألم تعرف يا يوربا أن قامتكَ كانت في العتمة الحالكة؟

ألم تعلم يا يوربا أن الغضب قد حل عليك؟

وأن الحرس قد خُذلوا لمّا أطلقتُ لعنتي القاسية عليكَ؟

فليس هنالك من ينقذك.. الروها وأبناؤها والشبياهي اختبأوا

في غمامة الظلام، وما استطاعوا أن ينالوا من قوّتي..

ألم تعرف يا يوربا إني جئتُ إلى هنا أسرعَ من طرفةِ عين؟

ألم تعف أنني أنرتُ العالمَ؟

وأنّ لبنائي رسوخاً وقوةً؟

لقد أدركتُ أن الظلامَ لون شبيهكَ.

تعاظم الألم في أعماق يوربا، وهو في مركبته، وخاطب هيبل زيوا:

أقسمُ بحياتكَ يا هيبل زيوا وبالمكان الخفيّ الذي أتيتُ منه،

إنني لم أتجاوز على تلاميذك القاطنين في هذا العالم.

بعد ذلك حكم هيبل زيوا على يوربا بالإقامة القسرية حتى فناء الأرض.»[٤٣]

إن الفترة التي اختفى فيها ضوء يوربا عن الأرض هي، على الأرجح، فترة الكسوف التي كانت روها سيدة عالم الظلام وراءها. وأن سجن يوربا يعني وضعه في مداره حتى فناء الأرض.

٢ ـ سين (القمر):

أصبح القمر مسؤولاً عن يوم الاثنين (ترين هوشب) ولكنه أصبح مسؤولاً عن النحس والآلام والعاهات وغيرها. ويظهر مركب القمر أقل حجماً من مركب الشمس كما أنه مزيّن في طرفه الأيمن بأعشاب وأغصان مورقة، وللقمر إثناء عشر ساعة تسمى كلّ واحدة باسمٍ أيضاً وتقرر فيها أشياء حسنة وسيئة وهو ما يشرحه (كتاب البروج). أما طاقم القمر فمكوّن من:

١ ـ أسماؤه:

ساورئيل: وهو أثري الموت ويقابل عزرائيل

أكزئيل: وهو أثري العاهات والأمراض

سره: وهو في حالة الغياب في نهاية الشهر القمري

٢ ـ مصدر ضوء القمر: ملكا إد نهورا (ملك النور) وهو مصدر ضوء سين (القمر) الذي يسلطه عليه فيعكسه هذا كالمرآة.

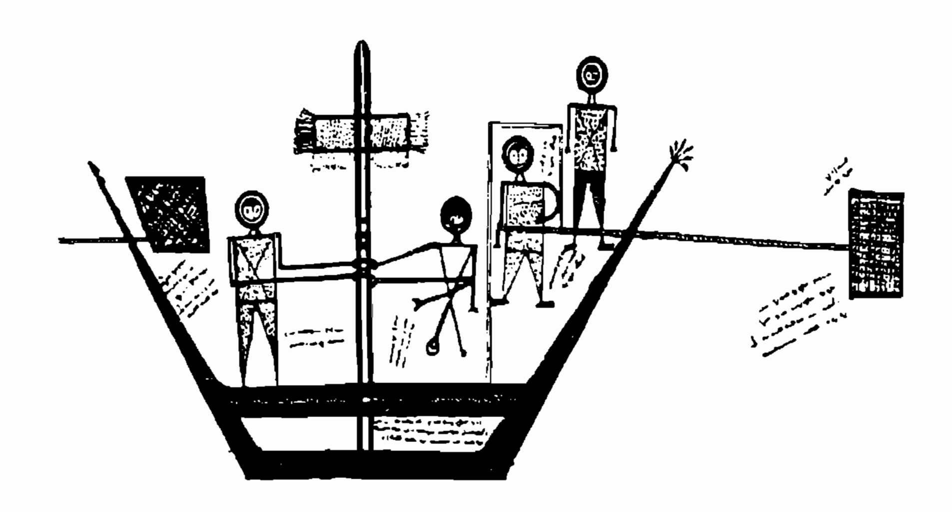
٣ ـ أرواح الأثري الاثنا عشر: وهم نفس أرواح القوة الاثنا عشر الذين يرافقون الشمس ولكن بعد أن ينتهي كلّ واحدٍ منهم من مهمته في الشمس ينتقل إلى القمر وهكذا تدريجياً يصاحبون القمر ثم يغادرونه إلى الشمس وهكذا، وحين يغادره آخرهم يتمكن عالم الظلام من إلحاق الأذى والضرر بالعالم والناس.

٤ ـ ربابنة سفينة القمر الاثنان: يتعاون اثنان من أثري عالم النور على قيادة مركب الشمس ويقفان جنب راية الضوء (درفش) التي توجّه مسرى السفينة.

ويخبرنا (كتاب البروج) الكثير من التنبؤات عن طريق قراءة وضع القمر في دائرة البروج مثل:

«إذا كان القمر في برج الأسد وظهر رعدٌ في السماء فسيدب الذعر بمن في العالم وسينتشر الناس. سيكون هناك ريحٌ عنيفة ومطرٌ في شهر تشرين الأول وفي تشرين الآخر لن يكون هناك

مطر، ثم يظهر المطر وسيطفح الماء في الينابيع. وستظهر الحمى بين الناس وينزل الصقيع في بابل وستذبل الأشجار بسبب ذلك. وستكون هناك وفيات.



شكل (٤٣) سفينة القمر

الكتابات التي عليها تشير إلى أسمائها وأقسامها (إلى يسار الشخص الرابع)،

«هذه هي سفينة القمر واسمها المحبوب (الجميلة)»أما تحت السفينة فالكتابة تقول،

هذه دموثا (شبيه) سين (القمر) واسمه سهفئيل واسمه طاطميئيل واسمه شيشلام واسمه نبو واسمه مهيكان (١). هذه هي الأسماء التي اطلقتها روها على ابنها القمر.

المرجع، Drower, E.S, Diwan Abatur p. 39f

أعاد رسمها، ماجد فندي المباركي

إذا كان القمر في برج الثور وكانت هناك قرقعة فأن المواد الغذائية والقمح والفاكهة ستفسد. وسيكون هناك هجوم من الشرق على الملك. عند الروم (سوريا الأغريقية؟ البيزنطية؟) سيكون هناك مجاعة وفساد (فقدان القانون)، ليس هذا فحسب، فأنهم سيأكلون لحم الموتى. سيكون هناك مطر في نهاية العام. الملك سيموت وسيكون هناك معاناة وقلق وستظهر علامة في السمء.»[٤٤]

٣ . نيرغ (المريخ) :

اسم نيرغ مأخوذٌ من نركال إله العالم الأسفل السومري/ البابلي والذي كان إلهاً شمسياً وهو إله الموت والحرب والأمراض والخراب وكانت قرينته أرشكيكال وتسمى (لاتو) أيضاً. وفي المندائية يمثل نيرغ (مارس) ربّ السحاب والرعد الذي يصنع المطر ويسحب مع شامش، الماءَ من الأرض والسماء.

أما اسماؤه في المندائية فتناظرُ (أور) ملك الظلام، وتظهر صوره في المخطوطات المندائية برأس مثلث ويرافقه ملاخي من عالم الظلام وهم يحملون أدوات التعذيب كالسيوف والأثقال وقرمة الأقدام وعتلات التعذيب إضافةً إلى أسود وكلاب نيرغ المربوطة بحبال.

٤ . أنبو (عطارد) :

ينحدر اسم أنبو من اسم الإلهة البابلي الآشوري (نبو) إله الحكمة والمعرفة عند البابليين فهو ابن مردوخ كبير الآله، وعند الآشوريين هو ابن آشور من عشتار ويعتبره المندائيون رب الكتابة والكتب والحكمة والمعرفة ويسمونه (أنبو) أو (أنوو) ويعتبر طالع عطارد مرتبطاً بالمعرفة والكتابة. وهو مسؤول عن يوم الأربعاء.

ولا علاقة لهذا الكوكب بالعرفان المندائي الذي يُكتسب من مندا إد هيي وعالم النور والحياة، بل أن معرفة عطارد هي معرفة كاذبة مزيفة لأنها معرفة دنيوية لا قيمة لها.

٥ . بل (المشتري) :

بل هو بعل البابلي الأصل والذي كان يوصف به أكبر آلهتهم وهو (مردوخ) وكان يوازي إنليل السومري وآشور الأشوري. وقد أصبح (بعل) الإله الابن في المثولوجيا الكنعانية والفينيقية قياساً إلى الإله الأب الذي يمله (إيل).

ويشير بل إلى كوكب المشتري وإلى يوم الخميس وهو مسؤول عن سرّ الماء وعن التحريض والحرب وأتباعه هم الجلاّدون فهو يلتقي بهذه الصفة مع (نيرغ) لأنه إله شمسي الأصل أيضاً فقد كان البابليون يسمونه (ثوير الشمس).

ولا يذكر (بل) كثيراً في الكتب المندائية لكنه حاضرٌ في تعاويذ شياطين المرض مثل حسد العين. ويسمى يومه بالمندائية (همشا هوشبا) أو (هيول زيوا) لأن وظائفه قد تولاها (هيبل زيوا)

بشكل خاص.

٦. دلبات (الزهرة):

دلبات هو الاسم السومري البابلي للزُهرة، وقد اسماه المندائيون بهذا الاسم أيضاً وباسم (ليبات) لأنهم ربما ظنوا أن لفظ (د) هو أداة إضافة (كما في الآرامية) ولذلك حذفَ وأصبح الاسم (لبات) أو (ليبات). وهم يعتبرون هذا الكوكب ثالث كوكب مهم بعد الشمس والقمر، ولكنه يحضى باحترام أكبر قياساً إلى القمر الذي يعّدونه سبب الأمراض والعاهات. وهي سيدة يوم الجمعة (أورفتا) أو (رهاطي).

وتجمع الزهرة في شخصيتها كلّ التراث العشتاري والأنوثة المغوية والماجنة والداعرة وقد عرفنا أشياء كثيرة عن بوابة الزُهرة وكيف يُعذّب فيها عُبّاد تموز حبيبها البابلي القديم. أما طاقمها المندائي فيتكون من:

<u>أسماؤها:</u>

١. عشتروت وهو الاسم الشهير (عشتار) بصيغته الكنعانية وهي إلهة الحب والجنس في العالم السامي القديم.

٢. عماميت: ويرد هذا الاسم كأحد أسماء الروها وكذلك اسماً لزوجة ملك أول عالم من عوالم الظلام، ونعتقد أن أصل هذا الأسم يكمن في إنانا الذي تحول إلى أناهيت ثم عماميت ليدلّ على الظلام (العماء) وقد ورد اسم (ماميت) كأحد أسماء شياطين العالم الأسفل المسؤولة عن بعض الأمراض عند الأكديين

٣. طليبات: وهو تصحيف لاسم (دلبات)

٤. روها: يمكن أن تكون روها (أنوثة الظلام) معبرة عن هذا الكوكب

٥. سيمات هيّي: وهي (سمة الحياة) والاسم الانثوي للشمس

٦ كانات: وهي الوعاء الكوني لعوالم النور والظلام

٧. أزلات: وهون مركب من استار ودلبات

٨. أنهر: بمعنى النهر والنور وهو اسم انثوي مقدس عند المندائيين

٩. سمره: أي السمراء

١٠.أزفار: وهو مركب من استار ويار (الشمس)

١١.ليبات

١٢.ليواث

ويمكن لهذه الأسماء أن تكون أسماء أرواح القوة العشرة التي تعمل على التجديف في مركب دلبات الذي يحمل الدرفش (راية النور) بحجم أقل مما في مركبي الشمس والقمر حيث تظهر فيه دلبات وهي تجذف في مركبها.

إن الزورق الفلكي الصغير خلف زورق (شامش) مباشرة في تصاوير (ديوان أباثر) يعود كما يقال إلى (ليبات) وتحت أحد الشخوص فوقه مكتوب: هذه شبيهة ليبات وهي جالسة فوق جبل شامش ولها سبعة أسماء. وكثيراً ما تُذكر ليبات في عمل الرقى، ووظيفتها الخاصة أن تساعد في شؤون الحب والتناسل وتُنبئ عن المجهول، أما علاقتها بـ(زهريل) زوج (هيبل زيوا) المسؤولة عن المحافظة على الوالدات من النساء فلا يُنظر إليها بمقت.(٤٥)

وأغلب تعاويذها تخصّ علاقات الحبّ والجنس بين النساء والرجال وبعضها يركز على إشعال الرغبة الجنسية والمزيد من الجمال والحيوية والخصب.

٧. كيوان (زحل):

وهو كوكب يوم السبت (شفتا) المسؤول عن اللؤم والعيب والنقصان وقد خرج منه السحرة والنسّاك. يُذكر قليلاً في الرقى وفي الدواوين الطلسمية لمعالجة الجنون حيث تكتمل باسمه (القماهة) وهي نوع من التعاويذ السحرية.

- عمران الأبراج الإثني عشر:

أما الأبراج الاثنا عشر فيذكر الكتاب الثامن عشر من الكنزا ربّا اليمين أن أباثر ويثاهيل أنعما عليها بالقياس والعدد مع الكواكب السبعة «إن القياس وزّع بالتساوي على سبع حصص بحيث أن كلّ حصة أصبحت تعادل الأخرى فلم يحدث هناك زيادة أو نقصان. على كلّ رجل وقعت حصة قدرها ٦٨,٥٧١ سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام وست ساعات ونصف الساعة وأربع شوشيا (دقائق) ولحظة واحدة ونصف اللحظة. إن البروج الاثني عشر تأخذ المقدار من (بل) عندما يتبقى لهذا ٩٠٠٠ عاماً فقط. إن البروج الاثني عشر تستلم المقدار من بل وبعد ذلك

٩٠٠٠ سنة ومعه و٦٩٠٠٠ سنة مع النيرغ. من هذه المدة من السنوات ٧٨٠٠٠ التي تستمر فيها البروج دائرة في فلكها حصل برج الحمل...»[٤٦]

أما سنوات البروج فموجودة في الجدول الآتي الذي يوضح عنها معلومات أخرى :

	اسم البرج باللغة العربية	اسم البرج باللغة المندائية	الشهر الذي يقابله بالمندائية	سنوات البرج
١	الحمل (الكبش)	أمبرا (مبارا)	نيسان	١٢٠٠٠
٢	الثور	تورا	أيار	١١٠٠٠
٣	الجوزاء (التوأمين)	صلميا	سيوان	١٠٠٠٠
٤	السرطان	سرطانا	تموز	٩٠٠٠
٥	الأسد (الليث)	أريا	آب	٨٠٠٠
٦	السنبلة (العذراء)	شمبلتا	أيلول	٧٠٠٠
٧	الميزان	قاينا	تشرين	٦٠٠٠
٨	العقرب	أرقويا	مشروان	٥٠٠٠
٩	القوس (الرامي)	صاطيا	كانون	٤٠٠٠
١٠	الجدي (التيس)	كَاديا	طابيت (طابيث)	٣٠٠٠
١١	الدلو (الساقي)	داولا	شباطو (بداية السنة المندائية)	٢٠٠٠
١٢	الحوت (السمكة)	نونا	آذار	١٠٠٠

شكل/جدول (٤٤)

الأبراج الاثنا عشر : شهورها وسنواتها

المبحث الثالث

أساطير عمران الأرض

١ «ما أكثر الأزهار التي تناثرت على الأجساد

فمتى يحينُ أجل العالم؟»

بهذه اللغة الشعرية يتحدث مندا إد هيي الذي يتحدث عن أسرار العالم وعالمه الغامض، والذي ليس للإنسان قدرةٌ أو يدٌ فيه.

يكشف مندا إد هيي عالم الأسرار وهذه الأسرار هي: [٤٧]

١ ـ سرّ استقرار الأرض

٢ ـ سرّ وجود السماء

٣ ـ سرّ ضوء النهار وظلام الليل

٤ ـ سرّ ماء الحياة

٥ ـ سرّ وجود الملح

٦ ـ سرّ الإنسان

٧ ـ سرّ الخراب والنهاية

٨ ـ سرّ النار

٩ ـ سرّ الموت

١٠ ـ سرّ العوالم

١١ ـ سرّ آدم ابن السرّ الأول

١٢ ـ سرّ المنازل للمختارين الصالحين ووقوفهم مع كلّ العوالم

١٣ ـ سرّ الصفاء والمحبة

١٤ ـ سرّ الصباغة

١٥ ـ سرّ المرجانة

١٦ ـ سرّ محبة الفقير المبعد في الأسواق

١٧ ـ سرّ الفقر والعوز الشائع في العالم

١٨ ـ سرّ اختيار الآس

١٩ ـ سرّ الأرض

٢٠ ـ سرّ الجسد.

ويذكرنا هذا السرد المتواصل لأسرار عالم الأرض بالـ(مي) وهي النواميس الحضارية السومرية التي يرد ذكرها في أسطورة نقلها من قبل إنانا من أريدو إلى أوروك، ولها أسماء كثيرة تتعدى المائة. يسميها مندا إد هيي أسرار العالم هنا وقد حاولنا الكشف عن معظمها في الأساطير المندائية مع أسرار أخرى كثيرة لم تذكر هنا.

وحين نتتبع كلام مندا إد هيي في (الكنزا ربا) فسنعرف بأنه في أكثر من مرة يكشف الأسرار لأبنائه.

٢ . العناصر الأربعة وما حول الأرض وعليها :

الكتاب الحادي عشر من الكنزا ربا اليمين يضيء لنا بعض هذه الأسرار على لسان مندا إد هيي وأفعاله حين ينزلُ إلى أنوش أثرا ليطمئنه وهو في وحدته على أن عالم الأنوار معه ثم يكشف له عن أسرار العالم وبشكل خاص العناصر الأربعة التي هي أساس الخلق وعمرانه(٤٨):

١. هناك ماءٌ وحرارةٌ حيّة منتشرة في السماء ذات النجوم المنتشرة: بقوة الحرارة الحية تنتشر الحرارة الآكلة في داخل السماء.

٢. بروج الشياطين الإثني عشر: تتحرك بواسطة شامش، لو لم يخلق بثاهيل هذه النجوم لما وجد كلّ من الشمس والقمر مساراً لهما.

٣. الظلمات: التي تنشأ عندما تغرب الشمس ويطلع القمر كان بثاهيل قد فكّر بالحرارة التي هي ظلمات وجعل الليل والنهار لحساب وإحصاء بني آدم، لعد السنوات والأشهر والأيام.

٤. الرياح: خلقت من قوة الماء ومن الحرارة الحية ثم وكلٌ عليها هذان الملاكان مديرا هذا العالم، اللذان عيّنا وليّن على الماء والمطر وعلى البرد والشدة والجوع والتخمة والملاكان يأتمران بأوامر آلهتهما.

٥. النار: بثاهيل هو الذي ابتكر النار وصاغها من الثمرة والكرمة والشجرة. إنها خلقت من جذر الثمرة والكرمة والشجرة.

٦ الماء: خلق من الحرارة الحيّة في دار الحياة ثم أتى به الذي كان أبوه قد بعثه أن يبني السماء والأرض.

٧. الأرض: ماءٌ أسود ظهر بعد نشوء السرّ ثم أخذ بثاهيل الحرارة الحيّة وأخذ الثياب التي كانت عليه ورمى به في الماء الأسود فتكثفت الأرض (تيبل) وصارت صلبةً. ثم جعل يقصّ فيها الجبال ويشقّ البحار. ثم خلق في البحار الأسماك من كل نوع، وأوجد الثمار على الأرض وفوق الجبال والكروم والأشجار والحبوب التي تحمل الثمار. ثم خلق الحيوانات الأليفة من كل نوع وصنّف ذكراً وانثى وها هي تقوم الآن واقفةً وترعى الكلأ والعشب ثم خلق الطيور.

٨. الماء العذب: طلب مندا إد هيي من الحياة الكبرى أن تُنزل الماء العذب إلى الأرض ففعل ذلك مع تاورئيل أثرا وسحبا جرعة خفيفة من الماء الجاري الحي في عالم النور وسقطت في الماء العكر على الأرض وانسابت معه فأصبح ذلك الماء مستساغاً حلواً.

٩. ملائكة العالم: لا يستطيعون أن يتكلموا أو يسمعوا بالحرارة الحية إلاّ إذا اتصلت هذه مع الحرارة الآكلة. وقد ذهبَ لهم بثاهيل وأخذ منهم الحرارة الحيّة وترك بينهم أحد الثياب لكي ينيروا ولا يفنوا ولولا ذلك لكان الدمار والفناء وكان كلّ شيءٍ أصبح مظلماً حالك السواد إلى نهاية العوالم.

١٠. بحر العالم: الذي يحيط بالأرض هو بئر خلقه بثاهيل ولولاه لغَدت الأرض فاسدة.

٣ . أسطورة نزول الماء الحي إلى الأرض :

هذه الأسطورة توضح بالتفصيل كيف جاء الماء الحيّ إلى الأرض حيث الماء العكر ففي البداية يصار إلى شق مجاري بالماء الحي على الأرض ثم يخلق الأثريين (شلمي وندبي) كمساعدين ولقنوهما المعرفة لكي يوقظا بها النائمين فتقوم الأرواح (نيشماتا) الضالة لكن الماء حين ينزلُ إلى الأرض تتضاءل قوته فيحزن ويتوجع :

«إنهم خلقوا شلمي وندبي

ونصبوا الاثنين كمعاونين مساعدين
إنهم أضفوا على كليهما التنوير (السطوح النوراني)
وأنعموا عليهما ببركات جيدة
إنهم لقّنوا الاثنين المعرفة
التي هي أكثر روعةً من العالم كلّه
إنهم أمدّوا إياهما بنداءٍ عالٍ،
بأن يوقظا هما النائمين ويهزّا أولئك من السبات
إن عليهما أن يوقظا الأرواح (نيشماتا)
التي زلّت متعثرة وابتعدت عن النور
يجب عليهما أن يوقظا ويبعثا إياهما من الرقاد
لكي تتجه هي بوجوهها صوب مقام النور
إنهم شقوا الماء الحي
فوصل هذا قادماً إلى العالم
عندما جاء الماء الحي قادماً من دار الحياة
أصبح في حالة حزنٍ وتوجع
فتضاءلت قوته
إن قوته نقصت وتضاءلت
وتكلم هو إلى شلمي وندبي قائلاً:
بقوة مَنْ أصبحت أنا جارياً
وانفصلت عن مكاني؟
من هو الذي قطعني عن المعرفة
التي هي أكثر روعة من العالم كلّه؟
من هو الذي فصلني عن الكوشطا وعن المقام الموغل بالقدم
ومن الرابطة المشتركة
التي تتصل اتصالاً وثيقاً مع موضعها وتصعد هناك إلى العلياء؟
مَنْ هو الذين جزّني من الهيئة
التي تحملها الأثري في مقام النور؟

من هو الذي فصلني عن اللغة المستترة
التي يتكلم بها الكبار مع بعضهم؟»[49]

ويظل الماء الجاري يتساءل عن الذي سبب له كل هذا العذاب فينصحه شلمي وندبي بأن يسكت ويوضحان له كيف ظهر النقص والعوز والشر في العالم وكيف كان أواثر وبثاهيل سبباً في ذلك ولأن بثاهيل أراد للأرواح أن لا تموت في الماء العكر وتستحوذ الكواكب السبعة عليها، وأوضحا للماء الحي أنه سينقذ هذه الأرواح بالتعميد الحي وسيعطيها الإشارة الطاهرة، فيردّ عليه الماء الحي بأنه سيرتكب ذنباً إذا اختلط مع الماء العكر وسيحاسبه القضاء الإلهي فيردان عليه:

«من بين ألف يصعد واحد إلى العليا
اثنان من عشرة آلاف
إلى شكينة الحياة الأولى العظمى
لن تصعد الأرواح المخلوطة (ذوات الخلط والملط) وصاحبة الكذب عالياً
إن كلّ من لازمه عيبٌ
سوف لن يكون صالحاً بنظر الحياة الأولى العظمى
تحرر أنت وارتفع عالياً
من الآلام والأوجاع التي تسببها السبعة
لا تتخذ من بثاهيل أثرا قدوةً لك
ذلك الذي خرج من الماء الأسود
إنه لم يستلم الإشارة من النهر
ولم يتعمد بالماء الحي
ولم يضفر بالكوشطا العزيزة
سوف تزول تيبل إلى الأبد
وسوف تسقط عجلات السماء في حيرةٍ وبلبلة
وتتحطمُ قيودُ الأرض المظلمة العابسة
لأن آباءَها لا يتعظون بالتضحية.»[50]

ثم يرويان المصير النهائي للأرض والكواكب والأرواح ويوشامن وأباثر وبثاهيل، ولا تخبرنا هذه الأسطورة عن نهاية ما سيفعله (الماء الحي) لكن مجرى الأحداث التي نعرفها تدلّنا أن الماء

الحي يرضخ لإرادة عالم النور ويختلط بالماء العكر ويكون الماء العذب كما عرفنا في الفقرة السابقة.

الأمر المميز في هذه الأسطورة هو أن الماء الحي يتحدث ككائن حي وتشكل المعرفة (العرفان) جوهر حياته وهو في عالم النور والحياة فهو يقول: (من هو الذي قطعني عن المعرفة التي هي أكثر روعةً من العالم كلّه) وهذا يعني أنه كائن حي عاقل عارف، وهو ما يجعلنا نفكر بأن كلّ موجودات عالم النور والحياة هي كائنات حيّة عاقلة عارفة ومضيئة.

٤ . الأثرا الذي علم الناس المعرفة:

في هذه المقطوعة يتّضح لنا كيف أن عالم النور لم يترك الإنسان وحيداً على الأرض، فرغم وجود راعي العصر مثل هيبل وشيتل وأنوش لكنه كان يرسل مبعوثيه ليعلموا الناس (العرفان) الذي هو أساس الديانة المندائية وجوهرها. فالتلاميذ يسألون الذي جاء قادماً من الحياة الكبرى، بعد أن رأوا عظمته، كيف أتى إلى الأرض ولماذا فيجيبهم بأن الكبرى هي التي بعثته وأنه جاء ليعطي الأبناء الطيبين المعرفة ويشرع لهم كيف خلق العالم. ولكن الأشرار والروها يبصرونه فيصيبهم الهلع ويطلبون منه أن يكون رئيسهم فيجيب الروها (نمروس) أم العالم:

«عندما جئتُ أنا إلى هنا قادماً
كانت الكبرى تمنتني وبعثتني إلى هنا
الكبرى تمنتني وبعثتني إلى هنا
وقد جئت أنا لكي أعطي الأبناء الطيبين المعرفة
إلى المختارين جئتُ أنا إلى هنا
فلماذا يتعين عليّ أن أوقظ النائمين؟
إلى الصالحين جئتُ أنا إلى هنا
فلماذا يجب عليّ أن أهزّ الخاطئين
إلى النور جئت أنا إلى هنا
فلماذا ينبغي عليّ أن أتقبّل التكدير؟
إلى الرؤوفين جئت أنا إلى هنا

فلا رغبة لي بأن أكون مع الجامحين
إني جئتُ قادماً لكي أوقظ الحذرين
أولئك الذين يستحقون المقام النوراني
عندما سمعت نمروس بهذا
رفعت صوتها وأخذت بالبكاء:
لقد قلتُ لنفسي بأن الأثرا لن يأتي
ولكن ها هو ذا قد جاء وتجلى
وأطاح بأيد هذا العالم
لقد جاء هو وعلّم تلاميذه
ومّهد لهم درباً يفضي إلى مقام النور»[٥١]

٥ . مندا إد هيّي يذكّر بالحساب:

ليس المعرفة فقط ما يعلمها الأثري، فمندا إد هيي يعلم الناس ورجال الدين أن هناك حساباً سيجري حول كل الأعمال التي يرتكبها الناس فهو يقول:

«انتبهوا إخوتي واحذروا الموتَ، لا سيما أنتم رؤساء المعابد فحالما تُطبقون أجفانكم إلى الأبد ستحاسبون عمّا فعلتم. وفي المطراثي ستخضعون للإختبار»[٥٢]

ثم يقول للمعلمين الذين طُلب منهم ولم يعطوا:

«إتركوا التلاميذي الذين ما استطاعوا أن يتعلموا. فهناك أبٌ وابنٌ سيحاسبان، وسيحاسب معلمٌ وتلميذٌ.. هناك أمٌ وبنتٌ ستحاسبان، وستحاسبُ حماةٌ وعروسٌ.. هناك سيدٌ وسيدة سيحاسبان وسيحاسبٌ كلّ أجير، الجميع سيحاسبون. إن الحكم، حكم الرجل والمرأة، وعندما يكونُ الحكمُ عادلاً سأزكّيكم، وأرفعهم وأثبتهم في بيت الكمال»[٥٣]

المبحث الرابع
أساطير عمران الإنسان

الإنسان في المندائية كائن إلهي باستثناء جسده الفاني، فقد حلّت فيه روح عالم النور (مانا) التي هي نسمة النور (نشمثا)، ولذلك تشكّل أساطير الإنسان جزءاً من الأساطير المندائية، فهو غير فانٍ بل عائدٌ بروحه إلى عالم النور أما الأرواح الخاطئة فتعذب في عالم الجحيم أولاً ثم تصعد يوم الحساب الأكبر.

ولذلك رأينا أن ما أصاب الإنسان من عمران (ثم خراب) يقع في السياق المتسلسل مع أساطير نشوء وفناء الإنسان، ولا يمكننا، بأي حال من الأحوال، إهمال هذه الأساطير لأن هذا سيقطع ذلك السياق المرصوص الذي تنمو به الأساطير المندائية من خليقةٍ إلى عمرانٍ إلى خرابٍ إلى فناء.

هناك أربعة أجيال بشرية تعرضت إلى أربعة فناءات (عواقب) لكن الفناء الأكبر سيحصل مع جيل البشرية الرابع (الذي نحن فيه). والحقيقة أننا لا يمكننا أن نتناول هذه الأجيال الأربعة والموت الذي تعرضت له لأن ذلك سيكون موضوع الفصل الأخير من الكتاب.

في هذا الفصل سنتعرض لكلّ أشكال النظام والعمران التي ظهرت بعد خلق آدم وقام بها عالم النور أو كائناته العظيمة.

١ . النظام:

تُطلق على النظام أسماء مرادفة عديدة منها الكوشطا (العدل) والناموسا (الناموس)، وكلّها ظهرت أولاً لتنظيم الكون بشكل عام والحياة على الأرض بشكل خاص، لأن عالم الأرض هو عالم العوز والنقص ولذلك كان بحاجةٍ إلى هذا النظام. يقول النص الخمسون من كتاب يحيى المعنون بـ(النظام):

«حينما أقرّ النظامُ في العُلا، أُطلقَ إلى عالم النقص والعوز، وكان قد منح بصورة كاملة الرجل الذي منحني النظام كان حريصاً عليه، وقد أرشدني وتفقدني بصورة تامة. أخبرني أن اللباس النظامي الذي يُمنح لي ينير أمامي ظلام الدنيا الفانية فكلّ شيء يكتسي بضوئه يكون

بهاؤه أكثر إشراقاً»[٥٤]

المقصود باللباس النظامي هو اللباس الأبيض الذي يرتديه رجال الدين في الطقوس والمكون من الـ(رستا) وهي الثوب الأبيض والسروال والعمامة والهميان..إلخ وهذه الثياب هي التي تميز المندائيين عن غيرهم لتمسكهم بعالم النور وبلونه الأبيض. أما النظام الثاني الذي يرد في هذه المقطوعة فهو من الوقت النظامي المناسب الذي يتّصل فيه الرجل مع زوجته :

«عندما يغشى الرجلُ امرأته في الزمن المخصص، فأنه سيبذر وينجبُ، وشهادتكَ تكون تامةً في ذريته، وسيبعده الهدوء العظيم في سيمائه عن الأمراض والعثرات وعن التخييل والوهم وعن الشرِّ والحزن في هذه الدنيا الفانية، فبين يديك الجذور والأصولُ التي تُمنح لهذا العالم.»[٥٥]

ويحذر من الاتصال بالمرأة أثناء غياب القمر :

«يوماً في الشهر سأكتسي بالضوء واحتضنُ الراية، وسيحرثُ اثنان من الحرس على مراقبة نظامي حتى لا يقترب الرجال من زوجاتهم، فإن حدث ذلك في تلك الأيام، فستلدُ النساء أطفالاً صمّاً وبكماً ومرضى عقولٍ وآخرين بلا أيدٍ أو أرجلٍ لأن الشياهي يربكون البذور ويجعلونها رديئة.. تلك الأيام لا نفع للعائلة فيها، لا يمكن عدّها بالأرقام، ولا تحسب ضمن حساب وأصلها يرجع إلى الظلام.. الموطن الذي جاءت منه.»[٥٦]

ثم يشير إلى نظام الحساب ورفع الأرواح إلى المطهر لمحاسبتها هناك :

«إذهب وانزل في المطراثي

فمن جاء أجله وحان حسابه.. ويوم أن يترك الدنيا الزائلة وفي ساعة اختفائه منها، سيحمل وزر الحماقات التي رمى بها الترميذي، وسيكون مصيره العذاب فيغمره الخوف، والوجل ويرعبه الظلام ولن يغادر المطراثي.. سيكون لونه شاحباً وأحلامه ليست كالأحلام فمن كان ملتزماً بالتعاليم الكاملة، ومحافظاً على الثبات العظيم، فأنه سيرى السماءَ في اليوم الأول وقد فتحت له، فيخرج من السماء العليا وقد استندَ إلى السماء السفلى، حتى اليوم الثاني حيث يكتمل نظامه في كلّ العوالم، وفي اليوم السابع من الشهر القمري يتحدث بحديث الحياة العظمى. وعندما يجتاز اليوم السابع ينسى الرعب والخوف تاركاً الشرَّ داخل العالم.»[٥٧]

ثم ينتهي النص بالنصائح والإرشادات والدعوة للتمسك بالنظام. ويتجلى لنا الناموس في كلمات الناموسا التي يرد ذكرها في الكنزا ربا اليمين الكتاب العاشر :

«هذه هي كلمات النموسا : عندما سقطت هي في آدم صحتُ أنا ناصحاً مرشداً وسلّمتها إلى الرجال ذوي العدل والإنصاف قائلاً : أيها الرجال ذوو العدل والإنصاف كلوا من الفاكهة

جميعها والمخلوقات التي كان بثاهيل قد خلقها خصيصاً لابنه آدم وكذلك من الثمر، من الكروم ومن الأشجار، من الطيور ومن الحيوانات الأليفة ومن الأسماك في البحر وامنحوا الحسنات. قبل أن تسقط الناموسا في آدم لم يأكل آدم شيئاً قط ولكن بعد أن سقطت الناموسا في آدم نهضَ هو واقفاً مع السلالات التي كانت بصحبته وبدأوا يأكلون.

كذلك عن جميع التوابل والأثمار التي تجود بها الأرض وتزدهر وأيضاً عن الزهور ذوات الروائح الزكية والتوابل ذوات العبير المنعش بالنسبة إلى النموسا التي سقطت في آدم –تكلم بثاهيل وقال بانه يستنشق عرفها وبأن شذاها لذيذٌ حلوٌ يطيب للنموسا التي وضعها هو في داخل آدم. لا ينبغي له وسلالاته جميعاً في هذا العالم أن يشعروا بالحزن على الأثمار والكروم والأشجار والطيور والأسماك في البحر والحيوانات الداجنة سواء أكانت هذه ذكراً أم أنثى – التي خلقها لهم بثاهيل. هو أخذ الثمرة والكرمة والشجرة، هو أخذ ذكراً وأنثى منها. إنها تركت البذور تسقط فأنتجت هذه ثماراً. من الطيور ومن الأسماكل في البحر ومن الحيوانات الداجنة يصعد الذكر على الانثى، بعد ذلك تحمل هذه وتولد.»(٥٨)

ويتضح من المقطع السابق أن الناموس هو شيءٌ حلّ في آدم. أثناء خلقه وكذلك يتضح أنه حلّ في كلّ المخلوقات، إنه ببساطة القانون الذي تنمو الحياة من خلاله وتتطور، إنه جوهر العمران.

يستمر تبشير رسل النور للبشر لترسيخ رموز العمران مثل الناموسا واللاوفا (الاتحاد) والكوشطا (الحق والعدالة) وغيرها.

«حينما جئت أنا، أنا مبشر النور
الملك الذي غدا رائحاً من النور إلى هنا
ها أنذا هنا، الاتحاد والبهاء في يدي
نور وتسبيح عليّ
بهاءٌ يحيط بي وتنوير
صوت هاتف وتبشير حيّ
العلامة على التعميد
وإني أنير القلوب المظلمة بأيماني
بهتاف صوتي وتبشيري
بعثت إلى العالم نداءً مع الأثير

بعثتُ نداءً حيّاً إلى العالم

فتردد صداه في كلّ صقع وقطر

بعثتُ نداءً حيّاً إلى العالم

كلّ امرئٍ ينبغي أن يكون على حذر

كلّ من يحترس على نفسه

سوف يكون من النار بمنأى والخطر

طوبى لخادمي الكوشطا

للكاملين والمؤمنين الأبرار

طوبى للكاملين في كلّ مكان

الذين يبعدون بأنفسهم عن الشرّ»[٥٩]

ويظهر استنشاق الرائحة، مرة أخرى، سبيلاً لمعرفة النظام من خلال مبشر النور الذي يهدي الناس إلى الطريق القويم:

«مبشر النور أنا

كلُّ امرئٍ يحيا إذا شمَّ عبيري

كلّ امرئٍ يُقبل ملبياً شريعته

سوف تمتلئ عيناه بالنور

بالنور تمتلئ عيناه صدقاً

وفمه بالدعاء والتسبيح والتبين

بالتسبيح يمتلئ فمه حقاً

وقلبه بحكمة الرب الطاهر

إن الذين خانوا زوجاتهم شمّوا رائحتي

فتركوا الخيانة الزوجية على الفور

إنهم أقلعوا على الفور عن الخيانة الزوجية

وجاءوا وأحاطوا أنفسهم بعطري.»[٦٠]

ويعالج عطر مبشر النور خطايا كثيرة منها (الكذب، القتل، السحر، الغمز بالعين، الشر...إلخ)

وهكذا لا تنقطع الصلة بين عالم النور والإنسان، فها هو أحد الأثري يهتف من الخارج

ويتكلم مع آدم:

«لا تغفُ ولا تنمْ

ولا تنسَ ما أوصاكَ به ربّكَ

لا تكن ابناً للبيت الأرضي

ولا تأخذ في تيبل الإثم كأسٍ لكَ

لا تشغف حبّاً بالأكاليل ذات العبق الطيب

ولا تسرْ إعجاباً بامرأةٍ حلوةٍ

لا تتعلق حبّاً بالروائح الطيبة

ولا تهمل صلاة الليل

لا تجرِ وراء الظلال الخادعة

وعشق النساء المليحات

لا تحبّ اللذة

ولا الصور الكاذبة

ولا تشرب ولا تكن مغالياً

ولا تجعل اسم ربّك يغرب عن بالك

في دخولكَ وخروجكَ

حاذر من أن تنسى ربّكَ

في قيامك وقعودك..»(٦١)

وتستمر النصائح وتوضّح أن العالم شيء لا جوهر فيه وأن الميزان يقف في مكانه وكفتاه متعادلتان وهو ينتقي واحداً من ألف أو أثنين من عشرة آلاف وأن كل شيء زائل، حينها يبكي آدم ويقول:

«إذا كنتم على علم بأن الأمر كذلك

فلماذا أبعدتم أنتم إيّاي عن موضعي وألقيتم بي في السجن

وقذفتم بي في الجسم النتن؟

إنكم رميتم بي في الجسم العفن

قذفتم بي إلى الحرارة الآكلة

إنكم قذفتم بي إلى الحرارة الآكلة

بحيث أن النتانة تصعد كلّ يومٍ إلى الأعلى
فردّ هو عليه قائلاً :
اسكت، اسكت يا آدم
يا من أنت رئيس الجيل
إن العالم الذي سوف ينشأ
لا نستطيع نحن أن نقمعه
هيا .. هيا، صلِّ إلى الكبرى واخضع ذاعناً
لكي تصبح لكَ الحياة منقذاً ومخلصاً ..»(٦٢)
ونسمع صوت (مندا إد هيّي) محذراً :
«أيها المختارون : اجعلوا قلوبكم صاغرة
خففوا وطهّروا واغتسلوا
هدأوا نفوسكم بواسطة الكوشطا
لا تعشقوا المال
الذي ما أن أبصرته العوالم حتى عبدته
ما أن أبصرته العوالم حتى جعلت تعبده عبادةً
فصار من نصيبها الجدب ثم القحط
أيها المختارون! احبوا الكوشطا وتأدية الصدقات
لكي يُمدّ لكم ممر على البحر تعبرون عليه
وعلى الضفة يقف آلاف مؤلفة من البشر
يقف على الضفة آلاف مؤلفة من الناس
ومن مائة يعد هو واحداً ويأخذه إلى الضفة الثانية
سوف ينقل إلى الجهة الأخرى من كان قلبه متواضعاً
وصادقاً ومؤمناً ..»(٦٣)
وها هو الملاك ينادي من مكان قصيّ آدم الإنسان :
«يا آدم من يسرق يقبع في جبل الظلام
من يزنِ يكن جزاؤه النار
من يغشّ زوجة صديقه يُلقَ في النار الموقدة حتى تزهق روحه

من يضاجع أرملة يُنبذ في جبل الظلام
من يختلِ بعروس غيره ، فالجحيم مأواه
من يهجر زوجته ويتزوج أخرى يُعذّب في مستودعات النار
المرأة التي تزني تصبح وقوداً لنار الأفران ، ولا ترنو عيناها لبيت الكمال
من ذهب مع زانيةٍ وبذر فيها بذور الخطيئة يعّذب وأيّاها عذاباً شيديداً .
من قرب زوجته ولم يتطهر يُلقَ في بطن الحوتِ الكبير ، وكذلك المرأة التي لم تتطهر بالماء ، تُجلدُ ، ويحذف اسمها من بيت الكمال .
مَنْ قَرُبَ زوجته ولم تنظفْ بعدُ من نجس الحيض ، يُحجب في غمامة الظلام .
من يتعاط الربا وفوائده من ذهب وفضة ، يُنبذُ في جبل الظلام
من يعشق الذهبَ والفضة والترف ، ويحاول الحصول عليها ، دون أ ، ينضح عرقاً ، يمت مرتين ، ويفنَ إلى الأبد .
مَنْ يضع يده على الحقيقة ، ويتراجع عن قول الحقِ ، تتّقد النار على شفتيه ويقبضّ على الجمر بيديه ، يطلب الموتَ فلا يناله .
مَنْ اتبعَ السحرة والمنجمين والدجالين وآمن بهم يُعذّب في أحواضٍ من الزمهرير
يا آدم . . .
من تلوّن وأظهر غير حقيقته ، يُكسى برداءٍ أسود ، وينتعل نعلاً من جمر
ويكون الظلامُ قائماً من أمامه ومن خلفه ، ويتركُ في المطرائي حتى تزهق روحه .
لكن تحدثنا وأوضحنا ، فلا تعملوا سوءاً ، ولا تنحدروا إلى مهاوي الظلام .»[٦٤]
كان آدم يسمى رأس السلالة أو رأس العصر فهو أب البشرية الأولى التي كانت على الدين الناصورائي المندائي ، وكان تنظيم الحياة على الأرض يأتي من خلال مبعوثي الحياة الذين يعلمون الناصورائيين مبادئ وأسس ديانة النور ، وكانوا يسمون (الرجال ذوو الخبرة بالعدل والانصاف)
«عندما خلق آدم
كرأس للعصر في طليعة سلالته
عندما خلق آدم الذي أصبح رئيساً لعصره
خلقت له رفيقة
سلالته انتشرت وملأت الدنيا
وطائفة الحياة صارت قوية

مهيبة الجانب صارت طائفة الحياة

وفي كل مكان بديعة وبهيّة ونورانية

الرجال ذوو الخبرة بالعدك والانصاف خلقوا

أولئك الذين لا خلط فيه ولا كذب

لا خلط فيهم ولا كذب

ولا تشوبهم شائبة من الظلام

إنهم لا يعرفون الحقد والغيرة والشقاق

إنهم يسمون بالكاملين الهادئين

الذين خرجوا من الهادئين

إنهم أصبحوا طويلي الباع بواسطة أقوالهم السرّية

وقد خلق حرسٌ أمامهم

إنهم يعيشون هنا ويزدهرون ويصبحون ذوي حول.

وقد لفّت خصلات شعر جباههم على رؤوسهم

لقد قيل لهم عن البهاء الكبير

وعن النور الذي يتلألأ في المقام الخفيّ

لقد قيل لهم عن قوة وثبات النور

ياور ماندا إد هيي الذي جاء هنا مارً..»[٦٥]

ورغم أن الناصورائيين، وهم المندائيون الأوائل، كانوا أشبه بالطائفة المختارة من قبل عالم النور ومن قبل الحيّ العظيم ولكن عالم الظلام المتمثل بالكواكب كان يمثل تحدياً كبيراً لهم، فهم كثيراً ما يوقعون الناصورائيين في الخطيئة وهنا يكون عقاب هؤلاء شديداً وتأتي تحذيرات الكنزا ربا لهم قاسية لأنهم يتحملون مسؤولية أكبر.

«ويل للناصورائيين

الذين دفعتهم السبعة إلى التعثر في هذا العالم

إنهم وقعوا في حبائل الكواكب وسكرها

لهذا السبب يجب أن يكونوا طُعماً للبحر الآكل

ينبغي أن يغرقوا هم في البحر الآكل

ويُضربوا بسوطٍ من النار..»[٦٦]

٢ . نزول سام زيوا إلى الأرض :

تخلق الحياة الكبرى عن طريق الكلمة (الفم) سام زيوا وتلبسه سبعة أردية من البهاء والنور والجلال والسلطان على دار كنزها ، وتخوله السيطرة على الأثري والمصابيح وعلى الأنهار والشكينات التي تقع في ذلك المكان وتحيطه علماً بأشياء كثيرة وتخلق له كاملين طاهرين يؤنسوه منهم(هامغاي زيوا) ابن (هامغاغي زيوا) وتضع تحت تصرفه الأسرار السبعة الخفيّة الطاهرة المحفوظة التي تحميه على صورة بالغة الكمال وتمنحه السلطة على حزب يوريا (الشمس) وتقول له مخاطبةً :

«إذهب ، إحمِ العصر
حافظ على سلالة الأرواح
إحفظها من الفوضى والاضطراب وقدها إلى مكانها عالياً
إن يستشط يوربا غضباً
فسوف يُقمع خلال كلماتك
لتكن أنت بدون وساوس وخوفٍ وهلع.
ولا تدع المانا الذي فيك يقلق
لا تلقِ الخوف في السحابة
التي تختفي أنت فيها مستتراً بصورة كاملة
لتكن بدون قلقٍ ووجل
ولا تقل أنني أقف وحدي ها هنا
لقد أعطيتك أعواناً يُعتمد عليهم
إنهم يقومون بالحفاظ عليك
يتعين عليهم أن يخلصوك من سحر الروها وأور والكواكب السبعة
وكذلك من فساد النجوم الاثني عشر
يتعين عليهم أن ينقذوك من السيف ومن الثلج
وكذلك من النار ومن حريق سفّاكي الدماء الخمسة
أولئك الذين يؤججون الحريق ضد تيبل»(٦٧)

إن سام زيوا هو أحد رسل عالم النور وهو من الأثري وليس من البشر وقد بعثته الحياة الأولى إلى الأرض مع أعوانه ليحاربوا الشرّ وتطلب منه أن يكون منقذاً لأتباع يوريا (الشمس)

ومخلصاً لهم وأن يكون شاهداً للناصورائيين المجتهدين كي يُرفعوا، بقوته، إلى مقام النور ويلفوا لفاً بريح الشمال وبغصن الكرم الذي استخرجته الحياة الأولى العظمى في مقامها. أما الناصورائيون غير المجتهدين الذين يقعدون على كبريائهم وغضبهم فستنزع منهم القوة والثبات وحجة المنطق ويجب أن يعاقبوا لأنهم لم يصمدوا ولم يكونوا حذرين.

٣ . نزول يوخابر كوشطا إلى الأرض:

يستمر إرسال رسل النور في العصر الأول من عصور البشرية حين كان هيبل راعياً للعصر، ويقوم هؤلاء بمنع الشرّ الذي تحدثه الروها وجماعتها وبتحصين وتعليم وإرشاد الناصورائيين الذين هم المختارين في ذلك العصر أو العصر الذي تلاه وهو عصر شيتل وفي هذه المقطوعة من الكنزا ربا ينزل (يوخابر كوشطا) في العصرين الأول والثاني ويمنح (الرجال ذوي العدل والإنصاف) ثم (الناصورائيين) المعرفة والتعاليم. وميزة هذه القطعة أنها تحدد أول ظهور للناصورائيين في عصر شيتل أي نسل رام ورود وهي البشرية الثانية، أما قبلهم فكان هناك، في عصر هيبل، أتباع آدم ويسميهم النص (الرجال ذوي العدل والإنصاف) فهل يعطينا هذا المؤشر إمكانية للبحث في أصل المندائيين.. ربما!

«أنا هو يوخابر ـ كوشطا
أنا ذا من غادر بيت أبيه وجاء إلى هنا
إني وفدت ببهاءٍ خفيٍ
وبنورٍ لا نهاية أو حدّ له
إني قدمتُ إلى الرجال ذوي العدل والإنصاف
الذين ليس فيهم نقصان وكذب
لقد جئتهم بفصاحة اللسان وقوة السمع
مثلما أمرتني به الحياة الكبرى
لقد جلبتُ إليهم أوالاً سرّيةً
لكي يُظهروا هم قوتهم السحرية أمام المردة
عندما كان هيبل راعي العصر

كنتُ أنا الرسول المبعوث
إني بنيت له العرش في سحابته
وأضأته في غطائه
ثم نصّبني هيبل ولياً على أولئك الذين يحبون اسمه..»[٦٨]

وهكذا يعمل يوخابر كوشطا إلى إعمار الإنسان في العصر الأول من البشرية فيخلق لهم العربات ويمنحهم الصلوات السرّية والرماح الصلبة من الماء الحيّ والمكابس العظيمة التي تضغط على جذور الظلمات والماء الأسود، لقد أصبح يوخابر كوشطا حاكماً وأبطل سمّ الفاسدين من الروها وأعوانها.

وفي العصر الثاني يلعب يوخابر كوشطا دوراً آخر:

«عندما كان شيتل راعي العصر
جاء الناصورائيون إلى العالم
في ذلك الوقت نشأت كلّ الأفعال والصنائع
لقد نشأ الرجال ذو الفطنة
أولئك الذين انفردوا بأنفسهم وتنحّوا عن العالم
لقد نشأ الرجال المنفردون
الذين لم يأكلوا شيئاً تتوارى خلفه الكواكب
لم يفعلوا شيئاً من أفعاله
ولم ينقطعوا في عالم الشقلوب
إن هيئتهم لم تصبح عابسةً
ولم يمحَ اسمهم من عالم النور..»[٦٩]

يقوم يوخابر كوشطا بمنحهم المعرفة وبشروط الصلاة، وإذا لم يجهزوا البهثا فعليهم تأدية الصلاة ٦١ مرة وهناك شروط أخرى حتى يتهيأ الجميع للصعود إلى عالم النور في ساعته المقررة لكنه يهدد من لا يمسح الأدران عنه بالفناء الكامل.

«إن النور المشوب بالظلام الذي يسود تيبل
ظلّ مخيماً في كلّ مكان عند الناس الضعيفي العقل
إن البهاء ارتفع منها إلى العلياء

على حين ظلت الدموية المائجة هنا .
ابتداءً من ذلك اليوم
لن يصعد التلاميذ من تلك المنطقة إلى النور عالياً
إنهم سوف يُعاقبون وينالون التعذيب
إلى أن يمسحوا الأدران عنهم . .»[٧٠]

لكنّ يوخابر كوشطا يعدُ بأنه سيكون مساعداً للأرواح التي لا تتعثر ولا ترتبك وسترتفع بكلماته عالياً.

«سلالٌ ، سلالٌ تخرجُ من الجيل الأخير
وترتفع بواسطة كلمتي وبركتي عالياً
إنها سوف ترتفع بواسطة بركتي
وسوف تثث على صورة ممتازة
إني أنوّرها وأوضحه لها
لكي لا تتعثر في العالم وتشتبك
من يتعثر فسوف يموت ويفسد
لقد نوّرتكم ووضحتُ لكم ثانية
من تنوّر ووضح له كلّ شيء
له سأكون أنا مساعداً
سنداً ومساعداً وسوف أكون له
من مكان الظلمات إلى مقام النور . .»[٧١]

مراجع الفصل الثالث

١. دراشة إد يهيا (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا)، ترجمة أمين خطاب فعيل، الصياغة الأدبية سميع داوود، النصّ الأول، شركة الديوان للطباعة، بغداد، ٢٠٠١، ص٣ ـ ٥

٢. نفسه ٢ ص٧ ـ ٩

٣. نفسه ٢ ص٩

٤. نفسه ٥٨ ص ١٨٤

٥. نفسه ٥٧ ص١٧٩

٦. نفسه ٥٤ ص١٦٧

٧. نفسه ٥٥ ص١٧٢ ـ ١٧٣

٨. نفسه ٥٦ ص ٧٤ ـ ٧٥

٩. نفسه ٥٦ ص١٧٦

١٠. نفسه ٦٦ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧

١١. نفسه ٦٥ ص ٢٠٣

١٢. كنزا ربا اليمين ١٢ : ٤ ص٢٦٦

١٣. نفسه ص٢٦٦ ـ ٢٦٧

١٤. دراشة إد يهيا ٥٢ ص١٦٠ ـ ١٦١

١٥. نفسه ص١٦٣ ـ ١٦٤

١٦. كنزا ربّا اليمين ١٥ : ٢ ص٢٩٤

١٧. نفسه ص٤٩٨

١٨. نفسه ص٤٩٩

١٩. دراشة إد يهيا ٣ ص١٠

٢٠. نفسه ص١١

٢١. نفسه ص١٢

٢٢. نفسه ص١٥ ـ ١٦

٢٣. نفسه ص١٧

٢٤. نفسه ص٢١ ـ ٢٢

٢٥. نفسه ٧٠ ص٢١٧ ـ ٢١٨

٢٦. نفسه ٦٧ ص٢٠٨

٢٧. نفسه ٦٨ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

٢٨. كنزا ربّا اليمين ١٢ : ٢ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

٢٩. دراشة إد يهيا ٤٦ ص١٣٨ ـ ١٣٩

٣٠. نفسه ٥٩ ص١٨٥ ـ ١٨٧

٣١. نفسه ص١٨٧

٣٢. كنزا ربّا اليمين ٥ : ٥ ص١٩٥ ـ ١٩٦

٣٣. نفسه ص١٩٦ ـ ٢٠٠

٣٤. نفسه ص٢٠٠ ـ ٢٠١

٣٥. كنزا ربّا اليمين ٣ ص١٠٧

٣٦. نفسه ص١٢٧

٣٧. نفسه ص١٢٧ ـ ١٢٨

٣٨. نفسه ص١٣٩

٣٩. نفسه ص١٤١

٤٠. دراور، ليدي: الصابئة المندائيون ص١٣٥

٤١. دراشة إد يهيا ٤٩ ص١٤٦

٤٢. نفسه ص١٤٨

٤٣. نفسه ص١٤٩ ـ ١٥٠

٤٤. **rawer, E.s,book of the zodiac (sfar Malwasia) ,the Royal Asiatic soc.dy, London, 1949,p.170**

٤٥. دراور، ليدي: المرجع السابق ص١٣٩ ـ ١٤٠

٤٦. كنزا ربّا اليمين ١٨ ص٤٢٧

٤٧. دراشة إد يهيا: ٣٩ ص١٢٤

٤٨. كنزا ربا اليمين ١١ ص٢٥٦ ـ ٢٥٩

٤٩. نفسه ١٥ : ٣ ص٣٠١ ـ ٣٠٢

٥٠. نفسه ص٣٠٥

٥١. نفسه ١٥ : ١٤ ص٣٦٠ ـ ٣٦١

٥٢. دراشا إد يهيا ٤٠ ص١٢٦

٥٣. نفسه ص١٢٦ ـ ١٢٧

٥٤. نفسه ٥٠ ص١٥١

٥٥. نفسه ٥٠ ص١٥٠ ـ ١٥١

٥٦. نفسه ٥٠ ص١٥٢

٥٧. نفسه ٥٠ ص١٥٤

٥٨. كنزا ربا اليمين ١١ ص٢٤٢

٥٩. نفسه ٢ : ٣ ص٥٥

٦٠. نفسه ص٥٦

٦١. نفسه ١٦ : ٢ ص٤٠١

٦٢. نفسه ص٤٠٢ ـ ٤٠٣

٦٣. نفسه ١٦ : ٣ ص٤٠٤

٦٤. دراشا إد يهيا ٦٤ ص١٩٩ ـ ٢٠١

٦٥. كنزا ربا اليمين ١٧ ١ ص٤١٨

٦٦. نفسه ١٧ : ٢ ص٤٢٣

٦٧. نفسه ١٥:٥ ص٢١٢ ـ ٢١٣

٦٨. نفسه ص٣١٥

٦٩. نفسه ص٣١٦

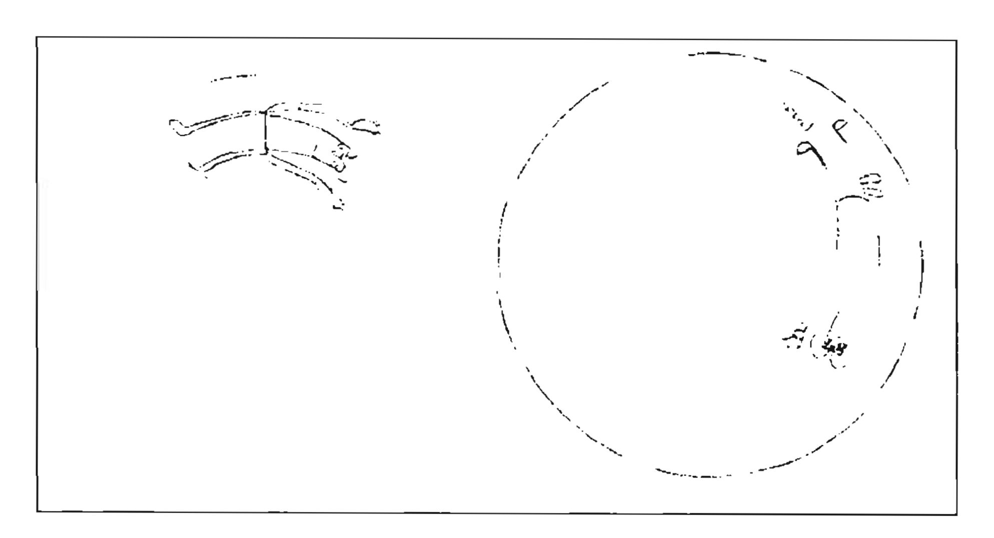
٧٠. نفسه ص ٣١٨

٧١. نفسه ص٣١٩

الفصل الرابع

أساطير الخراب

Deconstruction Myths



شياطين مندائية مرسومة على أوانٍ فخارية لأغراض سحرية

«من أجلكم يدور الصراع بين الظلمات والنور

وإذا أظهر هواءكم علامات مميزة

وإمارات وإشارات في قبة السماء

فلا تخافوا منه»

كنزا ربّا اليمين

كانت بذرة الخراب في عالم الظلام والأرض موجودة في خلقه أصلاً، فهو عالم العوز والنقص ولذلك فإن العمران الظاهري الذي كان قائماً في الأرض مثلاً سببهُ نسمة النور التي سكنت فيها والزيارات المتّصلة التي كان يقوم بها كبار كائنات النور. لكن الأرض وعالم الظلام كان محكوماً عليهما بالخراب عاجلاً أم آجلاً، ومن ثم الفناء الكامل للأرض.

أما عالم النور فلا يعتريه الخراب أو الفناء لأنه عالم الحقيقة والكمال ولذلك ليس هناك أساطير خراب أو فناء في عالم النور، فهذا العالم يصفه الكنزا اليمين كما يلي:

«إنه عالم البهاء والنور بدون ظلام
إنه عالم الرقّة بغير عصيان
إنه عالم العدل والأنصاف بلا فوضى ومتاعب
إنه عالم الشذا الزكّي وليس الروائح المقرفة
إنه عالم الحياة الخالدة غير الفانية
إنه عالم الماء الحي ذي الروائح الخلاّبة التي تجعل الملائكة تغتبط وتفرح إنه عالم الصدق والإيمان دونما كذب أو مراوغةٍ هو عالم نقيٌّ صافٍ ليس فيه اختلاطٌ سيء»[1]

ومع ذلك يمكننا القول أن هذا العالم اعتراه النقص والعوز منذ خليقة (الحياة الثانية) التي تطلعت إلى السكن خارج عالم النور، ثم كبر هذا النقص والعوز بعد خليقة (الحياة الثالثة والرابعة ـ بثاهيل) وهكذا..

«نحنُ نريد أن نتحدث إليكَ عن النقصان والكراهية والشر
التي تولدت (خرجت) من الحياة الثانية
عن الشرّ الذي صدر من بثاهيل إثرا
الذي كان قد خرج إلى حيّز الوجود من الماء الأسود
بثاهيل خرج بارزاً من الماء الأسود
وجميع الأعمال القبيحة والفاسدة ظهرت معه إلى حيّز الوجود

بصحبته خرج النقصان ظاهراً
برفقته جاء الوجع»[٢]

ولكن بناء المساكن خارج عالم النور لا يعني شرخاً في عالم النور بل يعني خروج كائنات نورانية وتمردها على عالم النور وهو ما شرحناه مفصلاً، ولذلك سننصرف لمعالجة خراب الظلام وخراب الأرض وخراب الإنسان.

المبحث الأول
خراب عالم الظلام

١ . نزول الأثري العظام إلى عالم الظلام وما يحدثه من خراب لهذا العالم :

الرحلات التي قام بها الأثري العظام من عالم النور إلى عالم الظلام كان هدفها تقويض عالم الظلام وسلب أسراره تمهيداً للقضاء النهائي عليه.

النزول الأول الذي قام به مندا إد هيي بأمرٍ من الحياة الأولى جاء بعد ولادة الحياة الثانية (يوشامن) عندما شعر عالم النور أن هناك من يتطلع من عالم الظلام إلى عالم النور ويريد امتلاكه، ويبدو أن هذا التطلع (من قبل أور) كان إشارةً خفيّة لتمرد الأثري الثلاثة الذين أنجبتهم الحياة الأولى والذي بدأ بـ(يوشامن) الذي أصبح الحياة الثانية.

أن الصراع الذي ينشأ بين مندا إد هيي وأور يصدِّع عالم الظلام لدرجة أن (روها) أم أور عندما تشاهد ذلك الصراع تضرب رأسها وتقتلعُ شعرها لأن عالمها كان يتداعى. ويبدو أن السبب الحقيقي لنزول مندا إد هيِّي هو لسجن أور ومنعه من تعطيل صنع الأرض من قبل بثاهيل، وهو ما تفصح عنه الأسطورة. ومن أجل عدوى عالم الظلام بالحياة والنور تقترحُ الحياة الأولى أن يجهِّز مندا إد هيِّي بعد سجنه لأور ذلك العالم بالمياه الحية.

في الكتاب العاشر من كنزا ربّا اليمين يظهر الغرض من رحلة مندا إد هيي مختلفاً حيث تحاول الحياة الأولى إرساله إلى عالم الظلام لكي يحوّل عالم الظلام إلى عالم نور يشكّل امتداداً لعالم النور المعروف ويلغي بذلك ثنائية الكون بين عالمي النور والظلام ولكي يسبق سلالات الحياة الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة في إنشاء كائنات وعوالم متمردة خارج عالم النور، إنه يريد إضعاف عالم الظلام كي لا تنشأ حياة متمردة في عالم آخر هو عالم الأرض مثلاً.

النزول الثاني الذي قام به هيبل زيوا، بأمر من الحياة الأولى، جاء قبل ولادة الحياة الثالثة، أي بعد ولادة الثانية، وهو نفس التوقيت الذي نزل به مندا إد هيي إلى عالم الظلام ويكاد يكون

غرض نزول هيبل زيوا هو نفس غرض نزول مندا إد هيي، ومعروف أن هيبل زيوا هو ابن مندا إد هيي ويظهران أيضاً كأخوين عندما يناديان بعضهما وهذه صفة من صفات العلاقات بين كائنات عالم النور.

يقوم هيبل زيوا باختراق العوالم الثمانية لعالم الظلام وكشف وسرقة أسرارها والحصول على جواز مرور دائم بينها فهو يصعد وينزل كما يشاء ليضلّل روها ويسجن أبنها ويصدِّع هذا العالم.

أما النزول الثالث فكان لياور الذي يناظر أيضاً هيبل زيوا قبل ولادة الحياة الرابعة، وكذلك يظهر لنا النزول الرابع لأدكاس زيوا بعد ولادة بثاهيل (الحياة الرابعة) لكي يبث نسمة النور في جسد آدم.

إن كل هذه الرحلات النازلة من عالم النور إلى عالم الظلام صدّعت هذا العالم وبذرت فيه بذرة الحياة وحاولت أن تحوّله إلى عالم نور لكن هذا لم ينجح، بل مهدت هذه الرحلات لفناء هذا العالم القادم.

كان النفور سائداً بين كائنات النور وكائنات الظلام. ففي كتاب يحيى نلمحُ العلاقة المتوترة بين هيبل زيوا الذي يوصف أيضاً بالملاك وبين روها، ويلخص ذلك ما ذكر في النص الثامن والثلاثون:

«أثرا من الطرف القصيّ جاء يعظُ، قصدته الروها قادمةً من موضعها في الظلام، تحملُ ذهباً في سلّةٍ وفوق رأس حصانها حجرٌ مرجانيٌّ كريم.

قالت له: أيها الرجل الغريب، خذ هذا الذهب الثمين، وحجر المجان السماويّ واسمعني شيئاً من غنائك الإلهي، حدّثني بحديث الحياة وعلّمني كل تفاصيله. قال لها: إنكِ تكذبين، ستعرى خططك، وستفشل مكائدك أيتها الشريرة هبطت نمروس مقتربةً منه وقالت نعم أيها الرجل الغريب. علّمني تعاليمك السماوية. ردّ عليها قائلاً: لقد قلتُ لكِ يا نمروس.. إن حنقك سيغلبك فأنا لستَ من الجنّ كي أغنّي أمام هذه الشريرة. أنا رجلٌ نقيّ.. كلماتي وتراتيلي هراوةٌ وسوطٌ أسلّطها على الروها الخبيثة..»[٣]

٢ . أسطورة أنوش أثرا

في هذه الأسطورة يحاول أنوش أثرا أن يتحدث مع الخالق ومع آبائه من أجل إنقاذ الترميذي وأبنائهم الذين قُذف بهم في عالم الظلام وفي الدنيا، وكانوا يردون عليه بأن ذلك سيحصل إلى أن يحين أجل الدنيا لكن أنّوش أثرا كان يقول لهم كيف يرتقي الترميذي والمندائيون الذين أكلوا مأكل الأشرار وشربوا من مشربهم وقد طوّقتهم الروها بالإثم والنجاسة والفسق والزنى.. إنهم لا يرتقون إلى عالم النور. فيردّ عليه الحيّ العظيم:

«إهدأ.. إهدأ فالرحمة تستقر عليك. ما زال لدينا داخل الرواسب عددٌ كبير من الناصورائيين والمندائيين قابعين في سجن الروها، وقد غرس أور سيد الظلام الحيرة بينهم إذ أنهم أرادوا الصلاةَ والتسبيحَ فسبحّوا الدنيا الزائلة، ومع ذلكَ لن تمحى أسماؤهم من بيت الكمال. إن الذين نزلوا إلى يردنا واصطبغوا به وارتسموا برسم الحياة لن يدانوا والذين أقاموا الطقوس مع آبائهم الحاضرين، وأعطوا الصدقة، وارتبطوا بالاتحاد، وتطلعوا إلى آير الطاهر، فأن العدو الذي قصدهم وعبر إليهم، سوف لا يجني غير الفشل، وستمنحهم الحياة العظمى القولَ والسمعَ في عالم النور..»[٤]

لكنّ أنّوش أثرا يكرر دعوته لإنقاذهم فيجيبه الحي العظيم بأن هيبل زيوا سيهبط ومعه الأثري المسلّحون باليقظة قرب أور سيّد عالم الظلام، وسيقول له:

«أفتح فمك يا أور فلدينا ما يخصّنا في الرواسب، فيقول أور لهيبل زيوا:

أيها الأثرا العظيم أنّى لك أن تمتلك جزءاً من الرواسب؟

يجيبه: في حصون الروها ناصورائيون، ومندائيون يذكرون اسم الحيّ العظيم وهناك ترميذي يقبعون خلفَ أسوارها، يذكرون اسمي.

لذا يرفع هيبل زيوا يده ويدخلها عنوةً في فم أور، ويمسك الأنفس التي ارتسمت برسم الحياة العظمى، وذكرت اسم الحي الأزلي واسم مندا إد هيي.. وإذ تُستخرج من داخل أور، تُلقى في بحر الزوال العظيم، كي تُنظَف من الخطايا، وتصبح كالسمسم الأبيض، بعد ذلك يصبغها الصباغة الكبيرة، ويتمّ الارتباط باللوفا، كما يتمّ عبور الماء الهافيقي.. الماء الفاصل»[٥]

ثم يخرج الأثري الذين في تلك المياه لاستقبال الأنفس التي كانت في الرواسب، والعيون

تتلألأ بالدموع ويسألونهم كيف استطاعوا البقاء داخل العالم الفاني، وكلّ واحد يمسك بيمين الآخر ويضيؤون ويتعاظم مظهرهم في المكان الرحب في عالم النور.

ربما يكون هذا العالم المظلم هو الأرض، ولكن وجود أرواح الترميذي في جوف أور هو الذي جعلنا تذكر هذه الأسطورة في هذا المكان. وقد اعتبرنا أن دخول يد هيبل زيوا في جوف أور وانتزاعه الأرواح الحيّة وإخراجها هو عمل ساهم في خراب عالم الظلام.

المبحث الثاني
خراب الكواكب والأبراج

الكواكب والأبراج جزءٌ من عالم الظلام تحيط بالأرض، وهي مسيّرة من قبل كائنات مظلمة هي الشياطين أو الشبياهي، التي تنظر إليها الديانة المندائية بالكثير من الغضب وتعتبرها مصدر الشرّ الأساسي على الأرض.

وكانت الكواكب والأبراج تأخذ نورها من عالم النور وكائناته ولكنها كانت عوالم شريرة تُفسد الإنسان وترعى الأخطاء التي يقع فيها عادة، أما المندائيون فكانوا يوصفون بأنهم خارج تأثير هذه الكواكب لكن بعضهم يقع فيها رغم كل شيء. والخراب الذي كان يطال الكواكب والأبراج يأتي عادة من العقاب الذي تُنزله كائنات عالم النور، عادة، بالشياطين التي تديرها.

بعد أن قررت روها مصير الكواكب والأبراج، كما ذكرنا، جاء مندا إد هيي وقلب نظام النجوم السبعة وأعلن عنها على الأرض تيبل، إنه أعطى هيبل وشيتل وأنوش إياها وهؤلاء أعطوها إلىأولئك الذين يبجلونهم.

في الكتاب التاسع (الجزء الأول) والمسمّى (قلب نظام النجوم السبعة) يتقرر مصير جديد لهذه الكواكب يقوم به مندا إد هيي، ويذكرها واحداً بعد الآخر وكما يلي:

١ . كيوان (زحل)

يخبرنا مندا إد هيي أن كيوان «لبس روباً وقلب الإشارات، إنه بعث أنبياء الكذب كرسلٍ ووضع لهم إشارة الظلمات على الكتف الأيسر وأخرجهم من عقر بيوتهم كأسرى. إنه تبدى لهم في هيئة المبشر وسمّى نفسه سيد السادات الذي يُظهر الأعاجيب في السماء وعلى الأرض.»[٦]

يشير كوكب زحل (كيوان) إلى اليهود لأنه يمثل يوم السبت الذي هو يوم زحل **Sataran** ويشير النص إلى أن هذا الكوكب هو المسؤول عن ظهور أنبياء اليهود وتأشيرهم بإشارة النبوة التي هي علامة في الكتف الأيسر ويسميهم أنبياء الكذب الذين بُعثوا كرسلٍ، وأنه هو الذي يوحي لهم

في هيئة المبشر الذي سمّى نفس (سيد السادات). ومعرفو أن المندائيين يرون أن الرسل هم رسل النور الذين ظهروا من عالم النور وبشروا على الأرض بقيم عالم النور وليس هناك رسلٌ أو أنبياء بعدهم وحتى (يهيا يهانا) لا يشكل عندهم نبياً بل هو معلم ناصورائي بدرجة (ريش أمّة).

ثم يتحدث مندا إد هيي عن ما يفعله زحل مع الرجال والنساء الصائمين.

«إنه ينزلُ على الصائمين والصائمات فيحمل الرجال على أن يكونوا خاطئين ويحمل النساء على أن يصبحن خاطئات وينام في أحضانهم وأحضانهن. إن العفاريت والديفي والليليثا تنام معهم فيخرج من النساء الذكور من العفاريت على حين يخرج من الرجال الإناث من الليليثا، إنها تمسك بالأجساد فتفتك بها قتلاً وعلى هذه الصورة تختطف هي الأرواح (نيشماتا) من الجسد في غير وقتها. إنها تعلم (الرجال والنساء) حكمةً باطلةً وتتقمص هيئةً ذات نور وتتبنى نصوص مواعظ الرجل الغريب وتلقي خطاباً سداها الكذب وتشيد بيتاً تقيم بها عباداتها.»(٧)

بعدها يتحدث عن أتباع كيوان من الرجال والنساء الذين يلحقون بعضهم بالبعض الآخر إلى الفراش ويأخذون النطف ويمزجون ماء النهر الجاري مع ماء المحيط ويقطعون أرواحهم أي أنهم يمنعون صعودها إلى السماء، فإذا مات أحدهم وضعوا دماً ووسخاً ورطوبةً من الماء الأسود وزيتاً في فمه، ويقيمون لأنفسهم صلاة الموتى (مسختا) وحفلة تذكارية (ذخرانا) مثلهم بذلك مثل تلاميذ مندا إد هيي. إنهم يطلقون على أنفسهم اسم أنبياء الكذب. إنها تفرض عليهم الصيام لأربعة أيام والثمانية أيام والعشرين يوماً مشفوعاً بالسكوت. إن كيوان يفرض عليهم صياماً لمدة خمسين يوماً وصياماً آخر لمدة ٦١ يوماً.ويعاني أتباع كيوان من الجوع والعطش والانطفاء كالرماد وموت روحه كحجرة الفحم الخامدة.

٢ . شامش (الشمس)

وهو الكوكب الذي يمثل يوم الأحد (هوشبا) ومن ألقابه (قدوش، إيل، أروناي، يوريا، وقد خرج منه اليزوقائيون وهم عبدة النار، ومن الضروري ذكر النص الأصلي لهذا الكوكب لأنه يتحدث بصراحة عن اختلاف المندائيين عن دين الفرس الزرادشتي أو المجوسي فهو يقول «لقد خرج اليزوقائيون منه، إنهم يقلدوني ويحاولون أن يكونوا على شاكلتي، أنا الرجل

الغريب. إنهم يعقدون بورسيمانهم (العصي المقدسة) كما لو كانت هذه إشارات على مناكبهم إنهم يذكرون اسم الإله الباطل. في مثل الشعيرتين المقدستين البهثا والمامبوغا الخاصتين بي أنا الرجل الغريب، يجرون هم أسقتا وعلى نظير صلاة الموتى يصنعون هم الذرونا، ولشد ما يبالغون هم في عبادتهم للماء والنار! إنهم يأكلون من لحم الميت ويدّعون بأن الله قد قتله. إنهم ينامون مع أمهاتهم وبناتهم وهم يفرضون على أنفسهم السكوت.»[٨]

ويذكر أنهم يستعملون ملابس الحائض ويستعملون جلد الجنين المجهض للسحر، ويختنون أنفسهم ويرشون وجوههم بدم الختان. ويحرقون الموتى بالنار.

«من أولئك عبدة الكواكب الذين يختنون أنفسهم تخرج جميع شعوب وبوابات الظلام، إنهم يلوثون ويلطخون أنفسهم بالقذارة ودم الحيض الخاضين بهم. من يمارس أعمالهم يصبح غير صالح لذر الحياة. من يأكل من طعامهم لن ترى عيناه النور، من يجاهرهم بالصداقة سوف يموت موتاً ثانياً»[٩]

٣ . سين (القمر)

وهو الكوكب الذي له أسماء أخرى (ساورئيل، أكزئيل، سرة) وله يوم الاثنين «منه يخرج المجاهيض من النساء والمسقطات من الأمهات والجذامى من الرجال والنساء، إنه يقترف الشر في عموم تيبل من أقصاها إلى أقصاها. إنه يتزايد ويتناقص ويرفع ويخفض. إنه يرفع إلى القمة ويُقذف إلى الأعماق. إنه يقطع القياس ويقضب العدد. إنه يفسد الأعوام ويرتكب الشر بحق الأيام والأشهر والسنين إنه يغوي سلالة الحياة بأسرها. منه تخرج همورثا ساقطة عفنة الروائح وتهبط نازلة على الرجال والنساء. إنها تعرف باسم بوازيك وتغسل نفسها بالماء. إنها تضع أحد الكهنة في مقدمتها وتنام معه وتصب فيه النطف ثم تأخذ ذلك السرّ وتخبزُ في إحدى الفطائر ثم تأخذه إلى منطقةٍ عند الحدود وتحلّف أحدها الأخرى اليمين إلاّ أن أحدهما لا تجاهر إلى الأخرى. إنها تسمى كذلك بالمجاهيض والمسقطات كما تفعله هي مع الاخرين يفعله الآخرون معها. إن النساء والرجال الذين يأكلون من ذلك السرّ لن يجدوا الراحة ولن ترى عيونهم النور..»[١٠]

٤ . بل (المشتري)

واسمه (أنكائيل) وهو مخصص ليوم الثلاثاء، وبوابة بل يغتصب قومها التاج ويمارسون حكم الملكية.. «منهم ظهر كتاب الروها على الملأ. إن تيبل برمتها تفنى وتهلك قتلاً، من أجل الحصول على الذهب والفضة، يزهقون هم الأرواح ويسفكون الدماء. إنهم يجهزون التلاميذ ويقتلون إياهم أما الناصورائيون فيقادون كأسرى إلى المعتقل. إنهم يحفظون كتاب الروها ويشربون الماء العكر ويتبجحون فخراً واختيالاً. إنهم يحبذون الصور الفنية والشيء ذي الألوان ويحبّون لذة تيبل ويتكلمون قائلين: نحن لا نريد أن نغادرها أبداً. إن تيبل لن تفنى قطعاً. إذا تعرض لهم أحد المختارين والكاملين بالقدح النابي فسوف يعاقب من قبلهم بالاضطهاد والعنت والظلم»[11]

ويحذّر من الملابس الملونة التي يرتديها الرجال والنساء ويقول لهم بأن أرواحهم ستنقطع وسيعذبون على آلات النار. وبوابة المريخ هي بوابة فن الرسم والألوان المحرّمة عند المندائيين. وهي بوابة الجلاّدين.

«يوماً فيوماً يشنون هم الحرب ويسفكون الدماء والاضطهاد يحل بجميع سلالة الأرواح وبأسرة الحياة الكبيرة. المرة بعد المرة يلحقون بها العذاب ويقولون: نحنُ نريد أن نعمل على إبادتها من هذا العالم. إنهم يأكلون الخبزَ بالسيف. كلما اقترب هذا العصر من نهايته كلما تألبت وتعاظمت قوى الشر وأثقلت عليها. إن كلّ ا لشعوب والحدود والأسنة تعبد إياههم. لذلك يوجد من أسرة الحياة الكبيرة عدد غفير من الصبيان الذين يخرجون عنها وينضمون إليهم. إنهم يرتدّون عن اسم الحياة ويعبدون إيّاهم. إنهم ينفصلون من مندا إد هيي ويصبحون من أتباع الروها أو من أتباع أور. ذلكم الذي أفشى لهم بسر الموت.»[12]

٥ . نيرغ (المريخ) :

هذه بوابة المحاربين حيث تُقتل سلالة الروح من قبل نيرغ وحيث أور يحني رقاب الأرض تحت نير طغيانه»إنهم يستولون على مقاليد الحكم بالعنف ويقيمون دولتهم. إن قومه يشهرون السيوف ويسفكون دماء أبناء آدم. إنهم يجلبون الغنائم إلى البيت ويسوقون الأسرى عنوةً. إنهم

يبيعون ما لم يشتروه بذهبهم وما لم يتعاملوا به بفضتهم وما لم يكسبوه بملكهم. إنهم يختطفون الإبن من أمه والرجل من زوجته والأب من أبنه ويسلبون من هؤلاء القدرة والقوة. إن الناس ليس في مقدورهم أن ينقذوا أنفسهم منهم. إنهم يبكون وينتحبون ويذوبون حزناً وغمّاً. يوماً فيوماً يشنون هم الحرب ويسفكون الدماء. والاضطهاد ينزل بجميع سلالة الأرواح وبأسرة الحياة الكبيرة بغير انقطاع يلحقون هم، بهما العذاب ويقولون نحن نريد أن نعمل على أبادتهما من هذا العالم. إنهم يأكلون الخبز بالسيف. كلما اقترب هذا العصر من نهايته كلما تألبت قوى الشر وأثقلت عليهما. إن كلّ الشعوب والحدود والألسنة تعبد إياهم كذلك بعض الأرواح من أسرة الحياة الكبيرة تنضم إليهم. إنها ترتد عن اسم الحياة وتعبدهم. إنها تنفصل من مندا إد هيي وتصبح من أتباع الروها أو أور»[١٣]

٦ . ليبات (الزهرة) :

وهو كوكب عشتروت وعماميت وطلبيات والروها ففيه الأنوثة الشيطانية المسؤولة عن الخيانة الزوجية والزنى والدعارة، ومن بوابة ليبات «خرجت ثلاثمائة وستون أنشودة أغانٍ وفضائح الشرف ومنها نشأت الأرواح الشريرة التي تقيم الولائم وحفلات الغناء وتنصب معتقلات للأسرى في كلّ مكان. إنها تصنع الطبول والجنك وتعطي الشهوة والاعتقال والغناء أولئك المختارين من الروها. إن أولئك المصطفين يعلقون الطبول على أكتافهم ثم يأخذون بالغناء والعزف على الناي بأفواههم ويتكلمون بواسطتها في غضبٍ عنيفٍ حاد. على هذه الصورة يتقد الرجال والنساء والكبار والصغار حماسة مما يؤدي إلى أن يهلك الجميع أنفسهم. حينما تكسو الشهوة أبدانهم يتهافتون هم على الرقص. عندئذٍ تمتطي همورثا النيرغ متّخذة هذه هيئة القردة مناكبهم وتجعلهم يقفزون أثناء الرقص قبل أن ترمي بهم في شقوق مستعرة بالنار واللهب. إنها تحيطهم بوشاحٍ من السحر والشهوة وبذلك يصبحون أسرى لسرّ السكر وهم لا يعلمون بما يقومون به من أفعال»[١٤]

وهناك بوابة أخرى تعرف بالمنونثين وهم قوم يلبسون الورود ويعطون أنفسهم بها فيضعون أكاليل اللواط والدعارة على هاماتهم. إنهم يسمون بصخر قطع رقاب الرجال الشجعان وبالكتل

الطينية وهم يمارسون السحر والقتل ثم يقول النص بأنهم سوف يسقطون في (بلعوم الحصان)، وهي إشارة لا نعرف معناها بدقة.

إن بوابة الليبات تمارس فيها أفعال كثية ولها سبع أسرار هي:

١. سر الغلام المقتول الذي يؤخذ مه ويعجن بالخبز ويقدم كطعام.

٢. سر الأتان ذات القوائم الأربعة وله ينتمي العزّاب والكهنة الشهوانيين.

٣. الذين يحفّون رؤوسهم ويصنعون من قرمة الخشب إلهاً يعبدونه.

٤. سرّ بيت المعبد وفيه الزهاد الذين يُحبلون امرأة ويعاملون جنينها الساقط بالسحر.

٥. الارتجاعيون وهم الزهاد.

٦ الخاطئون.

٧. الزنادقة والماردمانيين وهم المانوية.

وفي غمرة هذه الأبواب ينسى النص الحديث عن عطارد (نبو) وبابه والذي يحتوي على الكاذبين وأصحاب الحكمة الفاسدة.

المبحث الثالث
خراب الأرض

يدبّ الخراب في الأرض، ويشي اسم الأرض بالمندائية (تيبل) بخراب الأرض ثم فنائها فمعناها (التي تبلى) أو (البالية) وهو يناظر الاسم الشائع عن (الدنيا) أي (السفلى). لكن لهذا الخراب مظاهره الميثولوجية في النصوص المندائية ويمكن التقاط الكثير، من كتاب الكنزا أو كتاب يحيى، مما يشير إلى خراب الأرض لكننا سنكتفي بذكر اسطورتين مهمتين تدوران حول مهاجمة الأرض من قبل مندا إد هيي وابن نباط ربّا (الكبير) وصراعهما مع (روها) في لحظة تؤشر دبيب الخراب على الأرض ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه.

١ . أسطورة هجوم مندا إد هيي على الأرض:

تكاثرت الشرور على الأرض وأصبحت مكاناً للخطيئة وهو ما دعى (الحياة) إلى مناداة مندا إد هيّي ودعوته إلى الذهاب إلى الأرض والجيل الجديد (الحالي):

«هيا، هيا، أيها الصالح
إلى الجيل الحديث (الحالي) انزل هابطاً
امضِ إلى إخوانك أبناء الكاملين
الذين يلازمهم النقصان
الذين يلازمهم النقصان
الذين يلازمهم النقصان والعوز
النقصان والعوز يلازمان إيّاهم
ورجةً نشأت في العالم.
مندا إد هيي يتكلم إليها قائلاً:
الحياة المختارة التي اختارت هي نفسها
أعطني هراوة البهاء

لكي أهدم البيت ومن كان قد بناه
حتى أصرع النقصان أرضاً
ومنتصراً أقودها نحو مقام النور ..»[١٦]

حين يهبط صوت تهديد مندا إد هيي إلى الأرض يُحدثُ دوياً هائلاً وبلبلةً في سكان الأرض وملائكتها والروها والشياطين.

«عندما تكلم مندا إد هيي هكذا قائلاً
هبط صوته نازلاً على جميع العوالم
الملائكة التي بنت البيت جعلت تبكي
والسكان الذين يقطنون فيه جفلوا خوفاً
والساكنون جعلوا يضربون أنفسهم ويندبون
ويبكون كالنساء
روها المذنبة تنهضُ واقفةً
إنها تذهبُ غاديةً وتمضي شاخصةً شبيهة بامرأةٍ واضع
أبناء الملائكة يضربون باليد
وينفجرون بالبكاء على أبيهم
إنهم يولولون بالعويل من أجل رأس العصر
الذي هو يشبههم
الأبناء يخاطبون الشياطين قائلين :
ذلك الفاسد الذي لم ير الحياة
ويلٌ، إنكَ تخاف وتُذعر فرقاً أمامه
من ذلكم الذي بعثته هي إلى هنا
كيف تريد أنت إذاً ، أنت الذي خلقتنا ،
أن تحمينا منه
علاوة على ذلك تكلموا هم قائلين :
هذا الغريب
الذي بعثته الحياةِ في غضبها
سوف يهدم البيت

وسوف يفرِّق أبناءَه شذر مذر فيهوون ساقطين
وسوف يقسمُ بيت المال
على حين أنت تحكم علينا بالبقاء في هذا العالم..»[١٧]

عندها يوصي الشيطان أبناءه، وهم أمناء كنز البيت الباطل، بالاستعداد لمواجهة مندا إد هيي فيعطي للعفاريت أوامره بأن يقطنوا في الأراضي المقفرة وللديفي بالاختباء وللملائكة برفع أسلحتهم بوجهه، لكنهم يسخرون منه. وفي هذه الأثناء يهبط مندا إد هيي إلى السماء ويُحدثُ شرخاً في القبة الزرقاء فتذوب وتتفتت وتسقط على هيئة مطر إلى الأسفل، فتُسرعُ روها وتأخذ أبناءَها إلى صدرها وتخبؤهم في الأرض من مكان لآخر، فتأخذُ الأرض بأخراج ما في باطنها ولفظه. ثم تذهب بهم إلى البحر وتخبؤهم هناك لكن نور مندا إد هيي في البحر يرمي بهم ويُغرقهم في بحر السوف الكبير، ثم تذهب روها مع أبنائها إلى الجبال لتخبؤهم في مغاور السماء:

«بينما الشياطين يقعدون هناك وينعمون في التفكير
جاء الرجل الغريب طائراً عن قرب منهم
طائراً بالقرب منهم جاء الرجل الغريب
إنه المبعوث الذي أرسلته الحياة
هو أحدثَ شقاً في أرض الشياطين
فجعلت تلفظُ كلّ ما هبّ ودبَّ ووجد مكاناً له في باطنها وتقيْ.
جباب القبة الزرقاء ذابت وسالت
وأبناء الروها سقطوا إلى الأسفل على شكل برقٍ
على شكل برقٍ سقط أبناء الروها إلى الأسفل
ووقعوا في أيادي القتلة
روها أخذت تقسم وتدّعي كذباً
بأنها لم تجعل من أبناء مندا إد هيي خدماً وعبيداً
مندا إد هيي أدرك
بأن روها تحلف زوراً وتدّعي باطلاً..»[١٨]

يسألهم مندا إد هيي من أين جاءوا ليسكنوا الأرض وما هي السلطة التي تجعلهم يعملون على ردة وإلحاد أجيال البشرية، فيردون عليه بأنهم لا يعرفوا من أين جاءوا ولكن مكانهم هو

الظلمات، مكان الاضطراب والتمرد، وهو مكان الشرّ. ثم يخبرهم مندا إد هيي بأنه سيتخلى عن كل شيء ولكنه سيحتفظ بثوبه الذي أرسلهُ المرءُ (الحي العظيم) إلى الأرض ورمى به بينهم ليجبرهم على خلع ثياب الشرّ التي يلبسونها:

«فخلعوا هم ثوبهم وتركوه
وخرّوا وسقطوا على وجوههم
الآن يشبهون هم الخفافيش
تلك التي لا تخرج من الظلمات إلى النور
إنهم يشبهون الكهنة
الذين شعورهم مسترسلة بحيث يبلغ طولها ركبَهم
على ركبهم يسقط شعرهم
وهم لا يخرجون من الحقل إلى المدينة
إنهم يحاكون هراطقة الخديعة (الغش)
الذين يجلسون على أعمدة الكذب
إنهم يجلسون على أعمدة الكذب
ويقطعون (يمنعون) نطفهم من العالم
إنهم يشبهون الصائمين
الذين فُرضَ على فمهم الصيام..»[١٩]

في المقطع السابق يوصف الشياطين بعد أن خلعوا ثياب الشر بأنهم كالخفافيش ثم يوصفون بأنهم كالزهّاد والمتصوفة الذين يطلقون شعورهم ويبقون في صوامعهم، ثم ترد إشارة واضحة عن بعضهم الذي يجلس على عمود، وهي طريقة صوفية وزُهدية شاعت في القرون المسيحية الأولى حيث يتّخذ الزهاد مكانهم على عمود في العراء يجلسون عليه زمناً طويلاً لكي يعرضوا أجسادهم للتقشف والتحمل والحرمان ناشدين صفاء أرواحهم ولعل أشهر هؤلاء هو (سمعان العمودي) الذي جلس على عموده المنفرد في العراء ما يقرب من أربعين عاماً.

إن النصّ عندما يشير إلى هؤلاء فهو يشير أيضاً إلى زمن كتابته التي تقترب من العصور المسيحية الأولى (القرون الأول والثاني والثالث الميلادي) التي شاعت فيها أعمدة المتصوفة

وأشكال الزهد والصيام.

وينتقد النص هؤلاء والصائمين عندما يشبّههم بالشياطين الذين هزمهم، وفي نهاية الأسطورة يقول مندا إد هيي بأنهم يمكن أن يكونوا مثل أبيهم (أور) الذي طرحه هو قتيلاً في الظلمات:

«امضوا، كونوا على مثال أبيكم الأول
الذي طُرح قتيلاً في الظلمات
إنه مستلقٍ في الظلمات قتيلاً
والظلام يخيم ويربضُ عليه
امضوا، كونوا على مثال ملك الظلام
الذي شهر الأسلحة ضد مندا إدي هيي
إنه شهر الأسلحة ضد مندا إد هيي
غير أن مندا إد هيي تغلب عليه ورماه إلى جوف الظلمات
إذهبوا، كونوا على مثال رئيس العضر
الذي عليه يستند الرأس
ومثل سندان الأرض يرزحُ على جنبه
إذهبوا، كونوا على مثال السلطان، العملاق
الذي يبلغ ارتفاعه من الأرض إلى السماء..»[٢٠]

وما أن أنهى مندا إد هيي كلامه حتى وقف أبناء السلام والملائكة ضد أور وقتلوه بالسيف والحديد لأنه جعل كل عبدته يرتدون ويمرقون ويشير النص إلى أن أور فرض عليهم صيام الأيام في الشهر (اليوم السابع، اليوم الرابع عشر، اليوم الثامن والعشرين، صيام السكوت، صيام الخامس عشر) وربما كانت هذه الإشارة إلى صيام بعض الفرق المسيحية. وفي الختام يصّنف مندا إد هيي الموجودين على الأرض إلى صنفين الأول هم المتمسكون بثبات بالكنز والقول ولذلك يصعدون إلى عالم النور والثاني هم الشياطين الذين يصومون والذين سيلقى بهم في النار.

إن هذه الأسطورة توضّح لنا مدى الخراب الذي دبّ في الأرض لدرجة أن الحياة تُرسل مندا إد هيي إلى الأرض فيحطّم السماء ويُنزل البرق والمطر ويقلب الأرض والبحر ويدمّر الشياطين

ويجعل الملائكة وأبناء السلام يقتلون أور نهائياً. ويشير النص بشكل خاص، إلى أولئك الزهاد والعموديين والصائمين الذين يرى أنهم ضلّوا واتبّعوا تعاليم الشيطان ففسدت الأرض بهم.

٢ . أسطورة هجوم (ابن نباط ربّا) على الأرض:

نباط ربّا (الكبير) هو ابن نواة عالم النور الأولى وهو تحديداً من البهاء وله أبناء كثيرون يتماهون في بعضهم لعلّ أهمهم هو (ياور زيوا) الذي يتماهى هو الآخر مع (هيبل زيوا) والأسطورة التي نحنُ بصددها هي عن نزول ابن نباط ربّا إلى الأرض بعد أن أفسدت الروها وشياطينها الحياة على الأرض، لكن (ابن نباط ربّا) يقع أسيراً بيد الشياطين فينزل له (المعاون الطاهر) الذي يضرب روها ويلقنها درساً ثم يصعد بابن نباط ربّا إلى عالم النور.

تبدأ الأسطورة بوصف حارس تروان الطاهرة (ابن نباط ربّا) الذي جاء من الجبلين الطاهرين والذي وضع المرؤ ثياباً طاهرة عليه جُلبت من الأنهار الثلاثمائة والستين على أرض النور. إن هيئته هي هيئة (ياور زيوا) وقد صُنعت له سحابة جاءت من دار الحياة الثانية. وقبل أن ينزل إلى الأرض أعطوه التوجيهات والرسل والمعرفة عن أسرار النور العظيمة وأراضي الأثير ويوشامن وزوّدوه بدرع صلب كي لا ينال منه الأشرار وقد عمل ابن نباط ربّا على إرسال نداء الحياة أولاً ثم انتخب مجموعة من المختارين المؤمنين الذين علّمهم التراتيل والكتب الخفيّة والصلاة والتسابيح وفتح عيونهم على النور وشفا قلوبهم. وعندما رفع صوته عالياً وقف الشياطين وهزّ النائمين وأيقظهم. وأُقيم المؤمنون على الأرض. لكنّ هؤلاء المؤمنين اصطدموا ببعضهم وتسلّحوا ونصبوا أنفسهم في هذا العالم فما كان من روها إلاّ أن تحدشّد شياطينها وأبناءَها في وجوههم:

«تعالوا، تعالوا يا أبنائي الكبار
اسمعوا ما أريد أن أقوله لكم
ليصنع بعضٌ منكم أناشيط
وليقذف البعض الآخر منكم حبالاً
نحنُ نريد أن نطلقَ عقال المتعةِ والنار
في هذا العالم

نحنُ نريد أن نؤجج نيران الشرّ بينهم
ونثير الحريق ونؤسس المعتقلات
نحنُ نريد أن نجلبَ أسلحةً
وأور ينبغي أن يرغم العالم على السقوط
نحنُ نريد أن نمسكَ بسلالة الأرواح
ونفلقها إلى أجزاء وفتات صغيرة
نحنُ نريد أن ندعو التلاميذ بصوتٍ عالٍ
ونعرض عليهم أعمالنا
نحنُ نريد أن نرمي الشهوةَ والقيودَ في هذا العالم
ونعطي إياهم دروساً في لغتنا
ونعرض عيهم أعمالنا
نحنُ نريد أن نرمي الشهوة والقيود في هذا العالم
ونقمع نداء الحياة
ونمحوه من العالم
نحن نريد أن نقضي على إشارة الحياة قضاءً مبرماً
وكلك على التعميد الذي عمّدوا به في النهر
نحنُ نريد أن نثبت رسم العار ونركزه
وكذلك رسم أور الباطل
نحنُ نريد أن نعدم كلّ أثر من البهثا والكوشطا والمامبوغا
ونقيم بدلاً منها العار في العالم
نحن نريد أن نُمسك بتيبل كلها
ونقذف بها إلى النار الحامية
نحنُ نريد أن نتعقب أبناء سلالة الحياة الكبيرة بالاضطهاد
أولئك الذين تكبروا علينا
كلّ الناصورائيين يجب أن يكونوا من شيعنا وأتباعنا
نحن نريد أن نضمن لهم كانا الصدقات بصورة جيدة
أولئك الذين يذموننا

سوف نلاحقهم ونتعقبهم في العالم..[٢١]

هكذا أشاعت الروها وأبناءها الخراب في العالم وأغوت الناصورائيين ووقفت الكواكب السبعة مع بعضها وراحت تدير المكائد وهي بوابات الكذب والسحر والحرب والشهوة والدمار، عند ذلك هبط (نباط بن يوحنا) إلى الروها:

«فارق نباط بن يوحنا جسدّه
المختار فارق جسده
وخطى سريعاً حثيثاً
إلى أن جاء إلى بيت حراسة الروها
عندما أبصرته روها
انحنى العرشُ تحتها إجلالاً له
عندما أبصرته بيوت الحراسة
سقط السوط من يدها
سقط السوط من بيوت الحراسة
ومن قارعي النواقيس سقط الجرس
إن سحر الروها ظلّ بلا مفعول
وأفعالها تشتت وتبعثرت في أقسامٍ عديدة
روها المذنبة تكلمت قائلةً:
والتفتت إلى الرجل ذي الخبرة بالعدل والإنصاف:
كيف جئت أنتَ من تيبل إلى هنا؟
من كان لك حامياً؟
من جلبَ إياك من العالم؟
بمن تضع أنت ثقتك؟
ومن كان لك منقذاً..»[٢٢]

وهكذا يتوالى التحقيق مع (نباط بن يوحنا) الذي يبدو أنه ابن نباط ربّا وتكاثر الأسئلة ويبدو نباط وكأنه معتقل في منزل حراسة روها وحين سألته عن (المعاون الطاهر) الذي شمله برعايته وأين يكون، هبط (المعاون الطاهر) من عالم النور وشدّ أزر نباط فسألت روها هذا المعاون

فأجابها نباط نيابة عنه وكأنه تماهى معه :

«فصرخت هي بصوتٍ عالٍ ونعبت

وقد سقط السوط ، أثناء ذلك من يدها

إنها صاحت قائلة :

ما عداك ، أيها الأثرا ،

لن يصعد أحدٌ إلى النور عالياً

من هذا العالم لن يصعد إلى النور عالياً

ما من أحد ينبغي أن يمضي صاعداً لكي يرى مقام النور

لن يصعد الناصورائيون عالياً

أولئك الذين يلقون الشهادة من أجل المال والمُلك

إنهم يدلون بشهاداتهم نظير المال والملك

ولا يذكرون اسم ياور

إنهم لا يذكرون اسم ياور

ولا يمنحون الأجر ولا يعطون الصدقات

إنهم لا يمنحون الأجر ولا يؤدون الصدقات

ولا يعالجون صدماتهم الموجعة

إنهم لا يرممون جراحهم

وإنما يعطون ما يملكون من أجل الزنى والخيانة الزوجية والفساد والعهر

إنهم يعطونها في سبيل الفساد والدعارة

فعلى هذا سوف ينالون سبع ضربات

إنهم سوف ينالون سبع ضربات

وسوف يسقطون ضحيةً لبيوت حراسة النجوم السبعة

إن جميع الأرواح التي ترتكب الشرّ

سوف تصبح نحيفةً كشعرةٍ على الرأس

من ينكر اسم الحياة

فسوف يشقى بعذاب الموت مرتين

سوف يموت موتاً ثانياً

وسوف تغدو هيئته داكنةً ولن تضيء..»[٢٣]

حين أنهت الروها كلامها تألق بهاء (المعاون الطاهر) وانتشر في المكان فسقطت روها من عرشها إلى الأسفل وقذف بها أرضاً وضربها بهراوة البهاء:

«تلألأ بهاء المعاون مشرقاً
وسقطت روها من عرشها إلى الأسفل
روها سقطت من عرشها إلى الحضيض
وقذف هو بها أرضاً وضربها بهراوة البهاء
إنه طرحها أرضاً وضربها بهراوة البهاء
وألقى الروها في أناشيطها العائدة لها
إنه ألقى الروها في أناشيطها العائدة لها
فاتجهت هي بوجهها صوب بحر السوف الكبير
توجهت بوجهها نحو بحر السوف الكبير
ولم تكن قادرة على الكلام.
وقبضَ عليّ بمساعدة سبع كلمات سريّة
رفعني إلى الأعلى وأقامني أمام أبي
وعمّدني بتعميده..»[٢٤]

وهكذا سقطت روها في بحر السوف وصعد نباط إلى عالم النور وهناك تعمد ولبس ثوب البهاء والإكليل وتغطى بعمامة النور ودعوه أن يسكن في شكينة خفيّة أسسها الأب يوحنا عندما فارق العالم، وشاهد هيئة الحياة والنور الكبير والمصباح وهيبل زيوا الذي يبدو أنه كان هو (المعاون الطاهر) لأن النصّ يذكر بأنه خلصّه من بيوت الحراسة ومن العالم، ثم أعطاه هيبل زيوا (غصن الكرم الرائع) ومنحه معرفةً عن شار الذي هو غصن الكرم الرائع والذي زرعته الحياة في شكينة يورا أمين الكنز، وخلق له عالم نور وشكينة سكن فيها.

هاتان الأسطورتان توضّحان، دون لبس، كيف اضطرّ عالم النور إلى إرسال كائناته الكبرى لكي يصلح الخراب المستمر في عالم الأرض وما تحدثه كائنات الظلام فيها ويعالج انحراف بعض الناصورائيين.

المبحث الرابع
خراب الإنسان

وقع الإنسان تحت رحمة روها والكواكب والأبراج والشياطين والديفي الإناث والذكور، بل ظهر من بين الناصورائيين من اتبع هؤلاء وأصبح كاذباً، وشاع الفساد بين البشر.

إن خراب الإنسان ساهم في تعطيل صعود الروح (النيشماثا أو المانا) من الأرض إلى عالم النور، وقد تكاثر في هذا العصر انحطاط الروح واتجاهها نحو سفاث وعبادين السفلى في الجحيم.

لم تكن روح الإنسان مرتاحة في هذا الجسد الذي ارتكب المعاصي والتصقّ بالدنيا وتيبل وطابت له الملذات، وهكذا شهدنا انحطاطاً روحياً كبيراً تؤشره النصوص المندائية في الكثير من مظاهر الأديان والمذاهب التي نافست الناصورائية والمندائية، وظهرت فيها طقوس غريبة ذات طابع سحري وصوفي أشرتها هذه النصوص في ما اعتبرته بوابات الكواكب والأبراج التي دخلت منها الشياطين وأنبياء الكذب.

١ . الناصورائيون المخطئون :

تناولت الكثير من النصوص الحديث عن الناصورائيين المخطئين بالكثير من التوتر والغضب لأن عقابهم أكبر من عقاب المؤمنين العاديين :

«أما أولئك الناصورائيين غير المجتهدين
سوف تنزع منهم القوة والثبات وحجة المنطق
سوف تؤخذ منهم القوة والثبات وفصاحة اللسان
وسوف يعاقبون ببلاءٍ لن يجدوا الشفاء منه
سوف ينزل عليهم ضررٌ ما منه شفاء
بسبب أنهم كانوا الأوائل والنبلاء
إنهم كانوا الأوائل والنبلاء
وشاهدوا الخوف والرعب والوجل

كلّ الطعنات الآتية من الظلماء
نزلت بسبب الكلمة لديهم
كل الطعنات الآتية من النور
حدثت بسبب الكلمة لديهم
لم يصمدوا ولم يكونوا على حذر
ولم يعرفوا الخوف والذعر
لم يعرفوا الخوف والذعر
ولم يدركوا بأنهم سوف يرحلون من العالم
إنهم لم يفكروا ولم يدركوا
لذا يجب أن يُشطبوا هم من أسمكَ
يجب أن يُحرقوا بحرائق السبعة
وأن يصبحوا جزءاً من السبعة..»[٢٥]

إلى هذا الحدّ كان الغضب مستقراً على الناصورائيين غير المجتهدين والذين لم يفكروا ملياً في مغريات عالم الظلام، لقد تمنى لهم النص أن يصبحوا جزءاً من السبعة وهم أكثر الكائنات المنبوذة في المندائية.

في النص السابع من الكتاب الخامس عشر من الكنزا ربّا اليمين تستدعي الحياة الكبرى أحد كائنات النور وتعطيه الأوامر والنور لكي ينزل إلى العصر الذي يعيشه الإنسان ويطلق نداء الحياة ويزرع الأرض بالبهاء ويزرع نبات الحياة الكبرى ويشق الأنهار ويسقيها بماءٍ عذب وهذه رموز للإنسان الصالح الذي سيزوده بالحكمة ويهزّ النائمين من سباتهم ويدعهم يستيقظون:

«أهزّ النائمين من سباتهم وأدعهم يستيقظون
ينبغي على هؤلاء أن يختاروا طريقاً وأن يبنوا بيوتاً
وأن يقيموا علامة الحدود
ينبغي عليهم أن يرتفعوا بالمعرفة ويرتقوا
تلك المعرفة النابعة من بيت بهرام الكبير، ابن الحياة
دعهم يتعلموا المعرفة عن الأرواح (نيشماتا)
تلك التي هي جديرة بالمقام النوراني

يتعين عليهم أن يستيقظوا وأن يتعلموا
وأن تُجلب لهم مصابيح وتكون آيةً في الروعة
يتعين علينهم أن يروا الجذر الكبير من البركة
التي خرجت منه الحياة الأولى العظمى..»(٢٦)

ويقسم الكائن النوراني الناصورائيين إلى قسمين هما: الناصورائيين الصادقين والمؤمنين الذين سيصعدون بسهولةٍ على عالم النور والناصورائيين المخطئين الذين لا يستحقون بيت الحياة:

«أما الناصورائيون الذين لا يستحقون بيت الحياة
فقد ارتكبوا معصيات ثقيلة
إن جسمهم كان قد تعرّض للخطيئة
وهم اقترفوا النقصان والعوز
إذا كانوا هم على معرفةٍ دقيقة بالكنز (كتاب كنزا ربّا) من تيبل
فلن يجلب لهم هذا أية فائدة
إذا وصلوا إلى البوابة الكبيرة من بيت أواثر
فسوف يطردون من بوابة بيت أواثر شرّ طردة
من بوابة بيت أواثر سوف يردون هم خاسئين
ويحرمون من رؤية مقام النور..»(٢٧)

وبالإضافة إلى طردهم من مرقى النور فأنهم سوف يسلبون أشياء كثيرة يجهد هذا النص في التطرق لها:

«سوف لن يروا المعرفة
التي نشأت في شكينة الحياة الأولى العظمى
سوف تُسلب منهم هذه
وسوف ينحطون على عالم المكان المظلم
سوف تسلب منهم الصلوات الخفيّة
التي اقتبسوا العلم عنها من العالم
سوف تُسلب منهم قواعد الدين السريّة

وتنتزع منهم السفن المجهزة
سوف تؤخذ منهم صلاة الموتى والتعميد
وهذان الاثنان سوف يصعدان عالياً إلى المكان الذي
كان كلاهما قد جاءا منه أصلاً
سوف يُسلب منهم الكنز الخفيّ
وسوف يودع هذا عند يورا ربّا أمين الكنز (كنزاور)
سوف يحرم هو ويطرد من النور
ويُحرق في جهينها السفلى
وسوف يسقط هو في القدور الفوّارة
ويحرق في النار عند تأججها
سوف يرى عذاب الكواكب الأليم
وسوف يعاني الموت مرتين..»[٢٨]

ثم يتطرق النصّ إلى مكافأة الناصورائيين المؤمنين عندما يصعدون إلى عالم النور. وهناك نصوص كثيرة تتطرق إلى عقاب الناصورائيين الخاطئين موزعة في كتب الكنزا ربا ويحيى ذكرنا بعضها.

٢ . نداء الحياة :

كانت الحياة العظمى، أمام هذا الخراب الذي يشهده الإنسان، تطلقُ نداءاتها من أجل الإصلاح أولاً ثم من أجل التحذير لكي تنتشل الإنسان من بركة أخطائه، ففي كتاب يحيى هناك نصّان هما (٤٢، ٤١) عبارة عن نداءات للحياة إلى الإنسان لكي ينتبه لخرابه:

«نداء الحياة صرخةٌ مدوّية
إنه ينادي ويقول: طوبى لمن حفظَ نفسه. الرجل الذي
يحفظ نفسه لا يضارعه أحد
طوبى للأعمال النافعة التي تقيكم من كلّ سوء
ويلٌ لمن يمتلك قلباً يملؤه السوء، ولا تجود يداه بمنح الطيبات
ويلٌ لمن يراوده فكرٌ حاقد، هو من فكر الشيطان

يطلقُ العنان للرغبات الجامحة في هذا العالم.
فكلما فتح فمه لُعن، ولم يرَ موضعَ النور.
الأيدي المتعالية التي تمتد على أسيادها تقطع بالسيف
ويلٌ للكروش الكبيرة التي لا تشبع مهما أكلت
لكم تحدثنا وأوضحنا.. الرجال هم الذين يعطون الصدقة
فإذا وهبتم لا تمنّوا ولا تجهروا، فإن جهرتم مرةً، فلا تكرروا ذلك
وإن أعطيتم بيمينكم، فلا تخبروا يساركم
ويلٌ لمن يبني بناءً دون تجربة، ولم يكن قد بنى من قبل
ويلٌ للذي يسلكُ طريقاً مجهولاً لا يعرف عنه شيئاً..»(٢٩)

تتكرر هذه التطويبات والتحذيرات في النصوص الأخرى التي يمكن اعتبارها نصوصاً أخلاقية تحدد التوجه الديني للمندائيين:

«نداء الحياة صرخةٌ مدوّية تنادي وتدعو:
كلّ إنسانٍ يجب أن يرقب نفسه
طوبى للنفس العارفة والقلب العامر
طوبى للورعين المتطلعين إلى عالم النور..»(٣٠)

ثم يبدأ التهديد والوعيد قاسياً وخصوصاً للعارفين والأقوياء الذين لا يستعملون علمه وقوتهم في المكان المناسب وبالطريقة الصحيحة:

«ويلٌ للذي يعطي النصائح ولا ينصح نفسه
ويلٌ للعيون الحاسدة التي تضمر شراً لهذا العالم
ويلٌ لصاحب اللسانين الذي يعطي حكمين
متناقضين في قضية واحدة
ويلٌ للمعلم الذي لا يعلّم بمهارة
ويلٌ للأغبياء والمغفلين الذين يتلفعون بغبائهم
ويلٌ للأقوياء المتسلطين السادرين على هواهم الذين
لا يعملون خيراً.. إنهم سيذهبون إلى النار المضطربة
يحملون الجمرَ بأيديهم وعلى شفاههم يرتفع اللهب

ويلّ لسيء القلب، إذ يقوده السوء إلى الرذيلة
طوبى لمن عمل خيراً وويلّ لمن عمل شراً
ويلّ لمن رزقته الحياة ولم ينتفع برزقه
بل اتخذ الرزق سبيلاً للخطايا والذنوب
طوبى لم رزقته الحياة وانتفع برزقه وكسب منه أجراً، يجده أمامه
لتعمل أيديكم الحسنات ولتعطِ الصدقات لترتقوا متطلعين إلى عالم النور..»[٣١]

٣. نصائح للناصورائيين:

النص الرابع والأربعون من كتاب يحيى مكرّسٌ لنصائح يقدمها أحد كائنات النور الكبرى للناصورائيين الواقفين على ضفة يردنا حيث أقام عرشاً وجلس مهيباً كالأب بين أبنائه وعلمهم الحقيقة اليقين وهي عبارة عن تحذيرات متواصلة في شؤون مختلفة من شؤون الدين والدنيا:

«أبنائي، احذروا واخشوا أن تفسقوا أو تسرقوا لأن الفاسق والسارق لا يرتقيان إلى دار الكمال ولا يصلان إلى عالم النور.

أبنائي، احذروا مزاولة السحر، ولا تختموا الأجسادَ، لأن الدجّالين والسحرة يُلقى بهم في مراجل تغلي، ذلك هو جزاؤهم، فلا تتخطوا الحدود.

أبنائي احذروا.. لا تقيِّدوا خادماً، وتضعوه بين يدي سيده، ولا خادمةً بين يدي سيدتها، ولا تسلمُّوا ضعيفاً إلى قوي، فإن فعلتم فستحاسبون في دار الحساب، وعيونكم لا ترى موطن النور وليس لكم فيها موطيء قدم.

أبنائي، انتبهوا لا يتزوج أحدٌ منكم أمةً، فيصبح أبناؤكم عبيداً، وعليكم يقع وزر خطيئتهم.

أبنائي، انتبهوا لا تكونوا من الوشاة ولا تجعلوا عيونكم تنظرُ بسوءٍ ولا تغمزوا، لأنكم إن فعلتم هذا فسيطول مكوثكم في المطراثي ويكون الحساب عسيراً.

أبنائي، احذروا، لا تتعاطوا الربا وفوائد الرب، فإن فعلتم هذا فستقيمون في جبل الظلام.

أبنائي، احذروا، لا تسجدوا للشيطان والأصنام والتماثيل في هذا العالم. مذنبٌ من يفعل ذلك، ولا يصل إلى دار الكمال.

أبنائي انتبهوا إذا طُلبتم للشهادة فلا تشهدوا زوراً، فمن شهد زوراً سيُدان أمام الحي العظيم الذي يحاسب الجميع كلاً على قدر أعماله.

أبنائي، انتبهوا وتجنّبوا كلّ ما يثير فيكم الكره ضد أصدقائكم، لا تظنّوا أن العالم الذي ستذهبون إليه قائم للخلاص، وإنما للمحاكمة والحساب، فكلّ يوم يمرُّ تدوّن فيه الحسنات والسيئات فيرتقي صاحب الحسنات، أما صاحب السيئات فينتظره العقاب.

ويلٌ للفارغ الذي يقف عارياً أمام بيت الحساب، ويلٌ لمن يُرزق ولا يهب فسيقى باحثاً دون جدوى وسيدفعه الكذبَةُ ليُلقى في النار المشتعلة..»[٢٢]

إن هذه الوصايا الخاصة بالناصورائيينِ هي جزءٌ من الأخلاق الدينية، بشكل عام، وهي إشارة لتلوّث العصر بالخطايا، ويمكننا عدّ هذه الوصايا بمثابة الوصايا العشر المندائية وهي:

(لا تفسقوا، لا تسرقوا، لا تسحروا، لا تستعبدوا، لا تتزوجوا أمّةً، لا تشوا، لا تربوا، لا تسجدوا للشيطان، لا تشهدوا زوراً، لا تكرهوا).

ـ النذير:

هذه المقطوعة الشعرية الرائعة الموضوعة تحت عنوان (دعوة) هي النص الخامس والأربعون تمثل بحق واحدةً من أجمل أنواع التحذير والنذير على لسان عابدٍ يتحدث عن (مختار الحياة) الذي يدعو رهطاً متنوعاً من الناس إلى أن يعملوا ويبدعوا ولكن عليهم أن لا يكنزوا الذهب والفضة، بل ليرتقوا إلى عالم النور:

«إليكَ تُقتُ أيها الحقّ، كالرجل الذي يبحث عن صرح.
عيناي بقوةٍ تتطلعان إليك
مختار الحياة غادر إلى هناك، ودعا لفتح الباب
دعا اليقظَ أن يعود
دعا المفكرين أن ينتشروا، ويستقروا في أماكنهم
دعا حارس البحر أن يحرسَ المعبر
دعا حارس الجداول أن يمدّ جسوراً على الجداول
دعا العمالَ في الجبال أن يفتحوا طريقاً عبر الجبال
دعا الفنان الذي ينحت تمثالاً، أن يقحمَ الرغبةَ في رأسه.
قال لمهندس بناءِ الأجسام أين بناؤكَ؟
سأخرجُ مسرعاً لأن هذا العالم زائلٌ، وزائلةٌ فيه الأعمال

إنهم يعبدون الذهبَ ويعظّمون الفضةَ
إنكَ لن تجد الذي حُطِّم قلبه مبتهجاً سعيداً
الأتقياء سيرتقون إلى عالم النور
أما الأشرار فإنهم هنا قابعون ..»[٣٣]

ـ تحذيرات مندا إد هيّي :

خُصص الكتاب الثامن من كنزا ربّا اليمين لتحذيرات مندا إد هيي للرجال ذوي الخبرة بالعدل والأنصاف وجميع سلالات آدم. وفي هذا الكتاب نلاحظ قوة عالم الظلام وتغلّبه على الأرض وسلالة آدم حيث الروها تلوث خاصرة حواء وتخترع الآلات الموسيقية ويقوم يوريا بالتأثير على الناس، لكنّ تحذيرات مندا إد هيي إلى المؤمنين تحدُّ من هذه التأثيرات. ويبتدأ النص بهبوط روها إلى العالم الأسفل لتلوِّث خاصرة حواء:

«عندما كان آدم وزوجته حواء هنا نزلت روها الخاطئة هابطة إلى الأرض السفلى (سفاث) وإلى عبادين الظلام التحتية، لقد جلبت هي من الديف سامور قذارة ودم حيض معها وربطت هذه على خاصرة حواء، ثم تكلمت هي قائلة: سوف تأتي أيام وأشهر وساعات ولحظات وأوقات يُقتل فيها الرجال ذوو الخبرة بالعدل والأنصاف وتُمنع قوتهم (هنا) بحيث لن يصعد أحد منهم إلى النور. إن هيبل زيوا وحده سوف يرتقي إلى الأعالي بغية أن يجلب معه تنويراً وتسبيحاً من النور»[٣٤]

وما كان من هيبل زيوا حين سمع كلام روها إلاّ وهبط إلى الأرض ورفع عصا (مركنا) الزيتون الأبيض عالياً وضربَ بها على الماء وقال لتحلّ فترة الانقطاع لما قالته روها فلن يقتل الرجال ذوو الخبرة والأنصاف في الأيام ١٠ ـ ١٥ ـ ٢٠ ـ ٣٠ من الشهر ولن تقمع قوتهم. فقال يوريا (الشمس) لروها إن هيبل زيوا يقطع كل أعمالكِ فردت عليه بأنها تريد أن تأسر العالم وتلاميذ هيبل زيوا ويقصد بهم الناصورائيون.

ثم قامت روها بصنع أدوات الموسيقى من طبل وأبواق وبلوريا لتأسر العالم بها وقالك لمندا إد هيي سألتهم سبعة أقسام العالم أما القسم المخصص لك فأريد أن آخذ جزءاً منه فسخر منها مندا إد هيي فردت عليه قائلة:

«إن الناصورائيين من حصتي، أولئك الذين يجمعون المال والملك ويتّسمون بالتعجرف

ويتصفون بالكبرياء، وأولئك الذين يكرعون النبيذ أثناء الغناء والطرب على الجنك واللعب على الناي، وأولئك الذين يجلسون للولائم على حين ترتجّ الأرض تحت أقدامهم وتهتزّ. وأولئك الذين يقعون في أسري والذين لا يذكرون اسمك، مندا إد هيي، والذين لا يمنحون الصدقات ولا يقومون بالمعروف والحسنات. إني أصنع لهؤلاء جميعهم شركاً في هذا العالم وألقي بهم في بزنزانات تنكيل وعذاب هذا العالم

فأعقب مندا إد هيي على كلامها قائلاً: ليكن مصير أولئك الذين يفعلون هذا هو أن يأووا تحت سقف شكينتك. إذا رغبتُ أنا بأن أخلق أُثري فسوف أخلق هذه من نهر الحياة الأبيض الكبير..»[٣٥]

ثم يُلقي مندا إد هيي بتعاليمه وتحذيراته للأثري والتلاميذ التي يمكن أن نلخصها كما يلي[٣٦]:

١. كلما اقتربَ هذا العهد من نهايته كلما استفحل حولكم الشر، فتمسكوا بأستقامتكم كي انقذكم من اضطهاد وملاحقة الكواكب السبعة.

٢. أعطوا الصدقات واهتفوا بنداء الحياة والبسوا الملابس وتوشّحوا بالأغطية، ومن لم يستطع دفعها كلها فليدفع نصفها وسأحسبها كاملةً له على أرض النور.

٣. إعرفوا كل شيء عن يوربا (الشمس) وما عنده من الأثري والتي هي (زهير وزهرون، بهير، بهرون، تار، تروان، سار، سروان، نصاب وأنان نصاب) والغلام الشاب الذي يجلس أمامه في حافلته وعلى عصّابتي النور الاثنتين اللتين وضعتا حول رأسه إن اسم أحدهما هو زيهان واسم الآخر هو زهاء زيهان. قال يوربا مخاطباً إياهم: من ذا يستطيع أن يقهر نداء الحياة، ذلك الذي إلى الآن يدوّي في تيبل فإني اسمع دمدمة هيبل زيوا المتذمرة. مع هذا أقول أنا: لم يفارق هيبل زيوا عصره بعد.

٤. في كل مرة يحدث فيها نزاع على أرض النور والهواء يبرقُ لاحاً، افهموا هذا في عقولكم من أجلكم يدور الصراع بين الظلمات والنور وإذا أظهر هواءكم علامات مميزة وإمارات وإشارات في قبة السماء فلا تخافوا منه.

٥. إذا وثقتم من زوجاتكم وسلالتكم وطعامكم فلا تخافوا إذ ما زال شلمي وندبي ونهر

الحياة هنا.

٦. أن يوربا يوجه نداءً للشمس ثلاث مرات من عقر دار أواثر (الفجر، السابعة صباحاً، المساء) فصلّوا في هذه الأوقات.

وهكذا يُنهي مندا إأد هيي توجيهاته بأقامة ثلاث صلوات في اليوم. ونلاحظ في هذه التعاليم ما يشير إلى الاهتمام بـ(يوربا) والتعرف على الراكبين في مركب الشمس، ربما لأن معرفة ذلك سيسهل عبور وصعود الأرواح من خلال مركب الشمس وهذه إشارة نادرة لهذا الموضوع.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

١. كنزا ربّا اليمين ٢ : ١ ص٣٢
٢. نفسه ١٥/ ٣ ص ٣٠٣
٣. دراشة إد يهيا ٣٨ ص ١٢٢
٤. نفسه ٦٩ ص ٢١٣ ـ ٢١٤
٥. نفسه ص ٢١٥
٦. كنزا ربّا اليمين ٩ : ١ ص ٢٢٣
٧. نفسه
٨. نفسه ص٢٢٤
٩. نفسه
١٠. نفسه ص ٢٢٩
١١. نفسه ص٢٢٧ ـ ٢٢٨
١٢. نفسه ص٢٢٨
١٣. نفسه ص ٢٣٠
١٤. نفسه ص٢٢٥
١٥. نفسه ١٥ : ١٧ ص٣٨٠
١٦. نفسه ص ٣٨٠
١٧. نفسه ص ٣٨٠ ـ ٣٨١
١٨. نفسه ص ٣٨٣
١٩. نفسه ص٣٨٤
٢٠. نفسه ص٣٨٥
٢١. نفسه ١٦ : ١ ص ٣٩٦
٢٢. نفسه ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧
٢٣. نفسه ص٣٩٨ ـ ٣٩٩
٢٤. نفسه ص ٣٩٩
٢٥. نفسه ١٥ : ٦ ص ٣١٤ ـ ٣١٥
٢٦. نفسه ١٥ : ٧ ص ٣٢٠

٢٧. نفسه ص٣٢١

٢٨. نفسه ص ٣٢١ ـ ٣٢٢

٢٩. دراشة إد يهيا ٤١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩

٣٠. نفسه ص ١٣٠

٣١. نفسه ص ١٣٠ ـ ١٣١

٣٢. نفسه ٤٤ ص ١٣٣ ـ ١٣٥

٣٣. نفسه ٤٥ ص ١٣٦ ـ ١٣٧

٣٤. كنزا ربّا اليمين ٨ ص ٢١٩

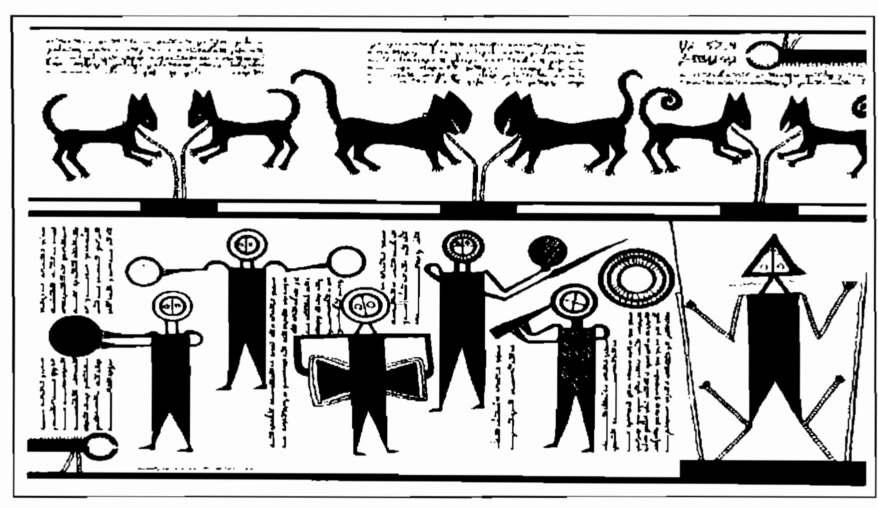
٣٥. نفسه ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

٣٦. نفسه ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

الفصل الخامس

أساطير الموت (الاسكاتولوجيا)

Eschatalogy Myths



حراس المنازل السماوية التي تصادفها الروح عند صعودها بعد الموت

(أعاد رسمها: ماجد فندي المباركي)

سوف تزول الأرضُ إلى الأبد
وسوف يقضي التلف على كلّ أعمالها
سوف تسقطُ عَجَلات السماءِ في حيرةٍ وبلبلةٍ
وتحطم قيودُ الأرضِ المظلمة العابسة
لأن آباءَها لا يتّعضون بالنصيحة.

كنزا ربّا المين: ١٥: ٣

المبحث الأول

الموت والآخرة والخلاص في الديانة المندائية

أولاً : مثولوجيا الموت Eschatalogy Myth

مثلما تميّز المندائيون بأساطير الخليقة الخاصة بهم فأنهم تميّزوا أيضاً بأساطير الموت والنهاية والفناء. فهم يرون أن عالم النور هو العالم الأساسي الوحيد في هذا الكون أما العوالم الأخرى فيعتريها الفساد والموت والفناء. وينسحب هذا على كائنات هذه العوالم. فالنور هو الذي لا يتفسخ ومنه صنعت كائنات النور أما كائنات الظلام فمصنوعة من الماء الأسود الآسن والطين واللحم..إلخ كذلك كائنات الأرض مصنوعة من اللحم والعظم والدم وهذه كلها موادّ آيلة إلى التفسخ والموت.

الإنسان يحملُ في مادة جسده الفانية نسمة النور (نشمثا) وهي الوحيدة التي لا تموت ولذلك تخرجُ من الجسد بعد الموت لتعود إلى عالم النور، أما الجسدُ فيفنى.

إن أساطير خروج الروح ومحاولتها للعودة إلى عالم النور تشكّل المتن الأساسي الأول في ما نسميه بأساطير الموت أو النهاية.

لكن عودة الروح وعروجها تشكّل نصف الدائرة بينما يشكل هبوط الروح من عالم النور إلى الجسد نصفها الأول في بداية خلق الإنسان. ولذلك تتكون دائرة الروح من نصفين مترابطين، وتكون أساطير هذه الدائرة مشتملة على مثولوجيا المبدأ (حيث هبوط الروح في خليقة الفرد) ومثولوجيا المعاد (العروج) (حيث صعود الروح بعد موت الفرد).

إن هذه الدائرة المثولوجية استحوذت على اهتمام استثنائي في الديانة المندائية فقد تكرّست كلّ نصوص كنزا اليسار ونصوص كتاب الأرواح (سيدرا إد نشمثا) وديوان أباثر والمسقثا وغيرها لتتبع أثر الروح من وإلى عالم النور، وظهرت بذلك نصوص أسطورية كثيرة حولها. كذلك انعكست هذه الأساطير على الطقوس والشعائر فتكونت مجموعة منها لتسهيل حركة الروح وطهارتها وذاكرتها.

في المعتقدات المندائية تنزل الروح (نشمثا) من عالم النور إلى الجنين وهو في بطن أمه عندما يكون عمره خمسة شهور تقريباً وهو ما يفسر بدء حركته في الرحم. هكذا يرى المندائيون هبوط الروح من عالم النور قبل الولادة، ولا أحد يعرف ما هي الآلية التي تدخل بها هذه الروح جسد الجنين ولكنها ربما تكون مشابهةً لأسطورة النزول التي سنفصّلها في المبحث القادم.

وتشكل دورة الروح المثولوجية للفرد الواحد صدىً أو تكراراً، بدا وكأنه طقسيّ، لحادثة الخليقة الأولى يوم نزلت الروح على يد مندا إد هيي وآدم كاسيا في جسد آدم. إنها دورةٌ مشابهة تتكرر مع كل إنسانٍ لكن صدى أول نزول يشكل نقطة البدء المثولوجية التي يلتفت المؤمنون لها دائماً ويتذكرون مع كل حمل ثم ولادةٍ خليقةً جديدة مشابهة.

ويعتبر نزول الروح في جسد آدم بمثابة (الوحي) الأول القديم الذي حمل الحياة والمعرفة إلى جسد آدم، ومن هنا جاء دور مندا إد هيي في حمل هذا الوحي فاسمه يشير إلى (المعرفة والحياة) وبذلك تكون الروح المحمولة من قبل مندا إد هيي منطوية على جوهرين أساسيين هما (الحياة والمعرفة)، الحياة لكي نكون مثل بقية الكائنات أحياءً والمعرفة لكي نميّز ونعقل ما حولنا.

إن مندا إد هيي يأخذ مكاناً في (عقل آدم) و(أدكاس ـ مانا) وهذا البرهان هو هبوط (نشمثا) أو (أدكاس ـ مانا) في جسد آدم وهو مرتبطٌ بفكرة الوحي القديمة التي تتفق مع مفاهيم الأنثروبولوجيا المعرفية القديمة. وبذلك تتعزز الفكرة التي تقول أن هذه المفاهيم المركزية للديانة المندائية هي في غاية القدم.[1]

يعتبر مندا إد هيي الرسول القديم (شليها قدماي) أي الرسول الأول، ورسول النور (شليها دنهورا) ورسول الحق (شليها كُشطانا). ويعتبر كذلك رب المعرفة أو سيّد العرفان (ماري كشطا). لقد أوصل العرفان أو المعرفة الإلهية بواسطة الكلمة (قالا) التي هي الخالق نفسه.

وقد أخذ الإغريق مفهوم الكلمة (قالا) وترجموها إلى (لوغوس) (ومن لوغوس اشتقت مفردة «لغة» العربية). وكذلك فعل اللاهوتيون المسيحيون حينما قالوا أن الله هو الكلمة. ويتضح كم كان المندائيون يحملون مفاهيم عميقة في الفلسفة الدينية أثرت في غيرهم.

الوحي إذن هو الكلمة (قالا) و(لوغوس) وهو الخالق نفسه عند المندائيين. وأتى يوحنا كاتب الإنجيل بعدهم بمئات السنين ليقول في فاتحة إنجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة كان عند الله وكان

الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمةُ لم تدركه»(٢)

ولا شك أن كل من يقرأ هذا المقطع ويحملُ ثقافةً مندائية بسيطة لا يخطر في باله سوى عناصر المندائية المعروفة مثل: المعرفة (الكلمة)، الحياة، النور، الظلمة، ويدرك على الفور علاقة هذه الفاتحة بالديانة المندائية، وكل ما في الأمر أن يوحنا غير المعرفة إلى الكلمة وقد عرفنا أنها ترادفها تماماً.

إن مندا إد هيي هو حامل الكلمة وهو، بطريقة رمزية، الكلمة ذاتها لأنه يحمل المانا في جوهره (كما أوضحنا في توازيات الانثروبوغونيا). وسواء كان الكلمة أو حاملها فهو لوغوس المندائيين وهو الذي يقوم بالوحي وهو الرسول الأول.

أما بعد وفاة الإنسان فهو الذي يقوم بدور المخلِّص أيضاً، إذ أن مندا إد هيي هو الذي يزور الروح قبل خروجها ويذكرها بواجباتها ويعدها بأن يصعد بها إلى عالمها الذي جاءت منه وهو عالم النور.

«إنه مندا إد هيي نفسه
الذي ارتحل ذاهباً لكي يأتي إلى العالم
حقاً، إنه أخذني من الأرض
وانتزعني من الخدعةِ والتلوين
هو أخذني من قرمة القدم
التي تشبه العالم الممتلىء
هو حلّ وثاقي وأربطتي
التي هي طويلة إلى حد بعيد
هو خلع عني الثوب
المنسوج من كلِّ لونٍ ونوع
إن ذلكم الذي حلني تقدمني ذاهباً
أما ذلكم الذي كان قد ربطني فهو يتبعني ساعياً
إني مضيت واستندتُ إلى ذلك الذي حلّ وثاقي

أما ذلكم الذي كان قد ربطني فهو لم يدركني
إن الحياة استجابت لي من الأثمار
إن البهاء أجاب عليّ من بعيد
من مكانٍ جدّ بعيد
تطلعت أنا ناظراً فعرفتُ أبي»[٣]

يطلق لقب (كبرا) أو (جبرا) أي الرجل على مندا إد هيي أما لقب جبرائيل فيطلق على ابنه هيبل زيوا وعلى بثاهيل، ولقب (ابن الحياة) (كاهنون هيي) ولقب (بهير زدقا) أي (ذو الصدقة الباهرة) فهو موزع الصدقات الذي يطابق مفهوم (الآدميين السماويين) وهو الاسم الذي يطلق على (الناصورائيين). ولننظر إلى الروح كيف تنادي على مندا إد هيي عندما تحول عفاريت الأرض والظلام بينها وبين الالتحاق بعالم النور:

«السبعةُ تحيطُ بالجسم من كل جانب
إنها تقعدُ جالسةً وتتحدث قائلةً:
إذا سولت لكِ نفسكِ وخرجتِ، أيتها الروح (نشمثا)
فسوف نقودك إلى الجباة
إذا فررتُ خارجةً وقفت العفاريت في طريقي
وإذا عدتُ من حيث أتيت، لا يجوز، إذ أن عددي قد تمّ
أين هي الحياة التي طالما كنتُ قد أحببتها أنا (في ترجمة أخرى: أين هو ابن الحياة)
وأين هي الحياة التي كانت قد أحبتني؟
أين هو الرجل (جبرا) ذو الخبرة بالعدل والانصاف (بهيرا زدقا)
الذي باسمه كنتُ أنا قد دفعت الصدقات؟
أين هو مندا إد هيي
الذي باسمه كنتُ أنا قد ذهبت إلى النهر؟
أين هو ماء النهر الحي
الذي طالما كنت أنا قد اغترفت من منهله السعادة؟
من منهله اغترفت السعادة
واستلمتُ الإشارة الطاهرة

أين هو المسرى الذي مشيتُ أنا عليه
وأين هي التحية التي ناولت يدي يدها؟
أين هما نعلا رجليّ
تانك اللتان وطأتهما بصحبة أصدقائي؟
أين تمضي ذاهباً، يا ربّ الكوشطا
وها قد تألبت عليّ العفاريت وأحاطت بجسدي؟
ها هي ذي العفاريت تحيط بجسدي مِن كلّ جانب
وعياني في رأسي تتخضبان بلونٍ آخر
أين أرفع عينيّ إلى العلياء متطلعاً
وإذا بي أبصر الرجل الذي هو عوني»(٤)

ثانياً: مثولوجيا الآخرة Eschatolgy

الاسكاتولوجيا هو علم الموت والنهاية والآخرة ويتضمن أساطير وعقائد الموت وما بعد الموت من حساب وعقاب وثواب وجنة ونار..إلخ

ويمكن أن تكون الاسكاتولوجيا امتداداً لمثولوجيا الموت والفناء لأنها ستتناول الأساطير المتعلقة بمصير الروح والجسد والحساب والعقاب والثواب والجنة والنار وهي أمور درجت الأديان القديمة والموحِّدة على ذكرها كلٌّ حسب طريقته.

الديانة المندائية لديها تصورات واضحة جداً حول مصير الروح ومسارها وشكل الآخرة ولذلك فأن الاسكاتولوجيا المندائية غنية جداً وتحفل بالكثير مما يميزها تماماً.

هناك ثلاثة أنواع من الحساب تجري للروح وهي كما يلي:

١ . حساب المحاكمة: ويجري هذا الحساب عندما تكون الروح في الجسد حيث يجري تنصيب قضاة من قبل عالم الظلام والكواكب السبعة لمحاكمة الروح، وعادة ما ينطق الحكم بسجن الروح في الجسد بسبب الشهود الكاذبين:

«مَنْ ذا الذي قذف بي بين الشهود الحيّالين؟
مَنْ ذا الذي قف بي وسط الشهود المخادعين؟

الذين لا يملكون حتى ذرة من الاستقامة والصدق؟»(٥)

ولذلك يأتي تحذير عالم النور للروح عندما تهبط بالجسد بأن محاكمتها قد تجري أولا تجري ولن يحكم عليها بالعدل لأن عدالة عوالم الأرض والظلام مزيفة :

«إنك لن تذهبي إلى المحاكمة
ولن يحكم عليك بالعدل
لا ، لن يحكم عليك بالعدل
إذ أنكِ مارست القيام بأعمال رجلٍ صادق
ما تتحملين أنتِ إياه هنا وتصيرين عليه
لن تجديه أمامكِ، أيتها المختارة
فرّي هاربة من عنف وجبروت
الكواكب ذوات السلطان في هذا العالم»(٦)

٢ . حساب بحر سوف : بعد أن تخرج الروح من الجسد فإن أول تحدٍ يواجهها هو بحر سوف السماوي (الذي يقابله البحر الأحمر على الأرض) فإذا كانت الروح مثقلة بالأخطاء فإنها ستغرق في هذا البحر ولن تجتازه صعوداً إلى نهر هيتبون. وإذا غرقت الروح في بحر سوف فإنها ستنحدر إلى عالم الظلام في عبادين السفلى وستقضي حياتها سجينة هناك مع كائنات الظلام وقد تعذب بالنار والماء الحار. أما إذا كانت الروح قليلة الأخطاء فأنها ستواصل الصعود خلال منازل الحراسة.

٣ . حساب الميزان (أباثر) : وهذا هو الحساب الأخير قبل الصعود إلى عالم النور وفيه يتم وزن الروح من قبل الملاك أباثر حيث توضع الروح في كفّة ويكون شيتل ابن آدم في الكفة الأخرى. فإذا كانت أخطاء الروح قليلة جداً فأنها تصعد إلى عالم النور، أما إذا كانت هناك أخطاء معينة فأن الروح تنزل إلى واحد من منازل الحراسة بما يناسب ذنبها (وسنشرحها مفصلاً) وتقضي زمناً طويلاً هناك وربما تعود إلى عالم النور:

«إن الميزان قد نُصب أمامه
وهو يزن الأعمال والأجر
إنه يزن الأعمال والأجر

ويجمع الروها (النفس) مع نشمثا (الروح)
إذا ما وضع هو أحداص على الميزان وأثبت هذا بأنه مستوفٍ للشروط
عندئذ سوف يرفعه المرؤ عالياً ويمنح إياه سنداً ودعامةً في الحياة
أما إذا وضع هو أحداً على كفّة الميزان وأثبت بأنه غير مستوفٍ للشروط
فسوف يستبقيه في هذا العالم»[٧]

أما مدرج صعود الروح فستعرض له بالتفصيل مع دائرة الروح كلها.

إن العقاب والثواب جاءا على قدر أخطاء وحسنات الروح في تجنبها للشر والانغماس في الحياة الدنيوية الزائلة وفي قدرتها على تذكر أصلها وعدم تضبب رؤيتها لعالم النور وهي مقرها الأول والأخير، وعليها أن تُدرك طبيعة العالم (الأرضي) التي هي فيه:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
الذي يسطع بهياً خلال تسبيح من خلقني
عندا جلبوا هم إياي إلى الأسر
عندما بعثوا هم بي إلى العالم وجلبوا إيايّ
فقد بعثوا هم بي إلى عالم القتلة والسفّاحين
إلى أولئك المقطعين المعرضين للهلاك جميعهم
إلى العالم الذي هيئته قبيحة
ومريبة لا ينير
إن خدمهُ ليس لديهم طريقة للسير
وجميع مخلوقاته خالية فارغة من البهاء
إنهم ليسوا لطفاء وليسوا هادئين
وما من رابطة مشتركة تجمعهم بعضهم إلى البعض الآخر
مظلمة داكنة هي أشكالهم..»[٨]

لقد طوّر المندائيون صورة خاصة بهم للحساب والعقاب والثواب لم تكن موجودة في تراث وادي الرافدين الذي سبقهم من سومري أو بابلي أو آشوري، كذلك فإنهم لم يتأثروا كثيراً بصورته عند المصريين القدماء (باستثناء ميزان أباثر الذين يشبه ميزان أوزريس) والحقيقة أننا لا نملك سوى الصور البارسية والمجوسية القريبة من الصورة المندائية لكننا نرجّح أن الصورة المندائية

هي الأقدم وهي أصل تلك المفاهيم الأسكاتولوجية الجديدة.

ـ الجنة والنار عند المندائيين:

الجنة أو الفردوس عند المندائيين تختلف تماماً عن مثيلها عند الأديان الأخرى فهناك في الأعالي فردوسان علوي وسفلي هما:

١. **الفردوس الأعلى**: وهو عالم النور الذي تسكنه الكائنات النورانية ويحكمه الحي العظيم بحكمته ونوره ويكون سكان هذا الفردوس من الأثري ويضم الأثري العظام وخصوصاً الحياة الأولى ومندا إد هيي، ويتكون من عشر طبقات سبق وأن شرحناها. وهو عالم السعادة الحقيقية، العالم المثالي الأول الذي بصعد إليه الأرواح المؤمنة للناس، وفي هذا العالم لا يوجد ظلام أو موت أو ظلم أو قه فهو العالم الذي تطمح إليه العوالم الأخرى لكنه فردوس الكائنات النورانية فقط.

يتكون من أربعة عناصر كبرى هي (النور، الحياة، الماء، الأثير) وهناك درجات متفاوتة من كل عنصر فالنور مثلاً يتكون من أربع درجات هي (يورا، الضياء، النور، الضوء)..إلخ

وفي غرفة الكنز توجد الأرواح المكنوزة التي صعدت أو التي ما زالت تنتظر النزول. وتستقر في عالم النور الأجسام النورانية للبشر. ويتناظر هذا العالم مع عالم الظلام كما أوضحنا في السلسلة الثيوغونية. يوتكون من ثلاث أراضٍ هي (النور، الأثير، تروان).

٢. **الفردوس الأدنى**: وهو عالم الحق والعدل (مشوني كوشطا) الذي هو العالم المثالي الثاني بالنسبة للأرض. أي أنه يناظر عالم الأرض ففيه (دموثا) من كلّ ما في الأرض ويحكم هذا العالم الأثري (شيشلام ربّا) أي (السلام العظيم) وهو كائن نوراني عظيم يناظر (هيبل زيوا) الذي تولى مسؤولية الأرض من عالم النور ويسكنه آدم كاسيا وحواء كاسيا وأحفادهما.

وترى ليدي دراور أن هيبل زيوا هو مكوّن الأرض ومشوني كوشطا بتوجيه من الحي العظيم. المعنى الحرفي لمشوني كوشطا (الحق الذي رفعناه نحنُ). وتستقر في هذا العالم الأجسام الأثيري للبشر وهي (دموثا) الأجسام الأرضية. ولا توجد (نشمثا) في عالم مشوني كوشطا بل الأجسام الأثيرية التي تركتها الروح واستقرت في الأجسام النورانية الصاعدة إلى عالم النور. وفي

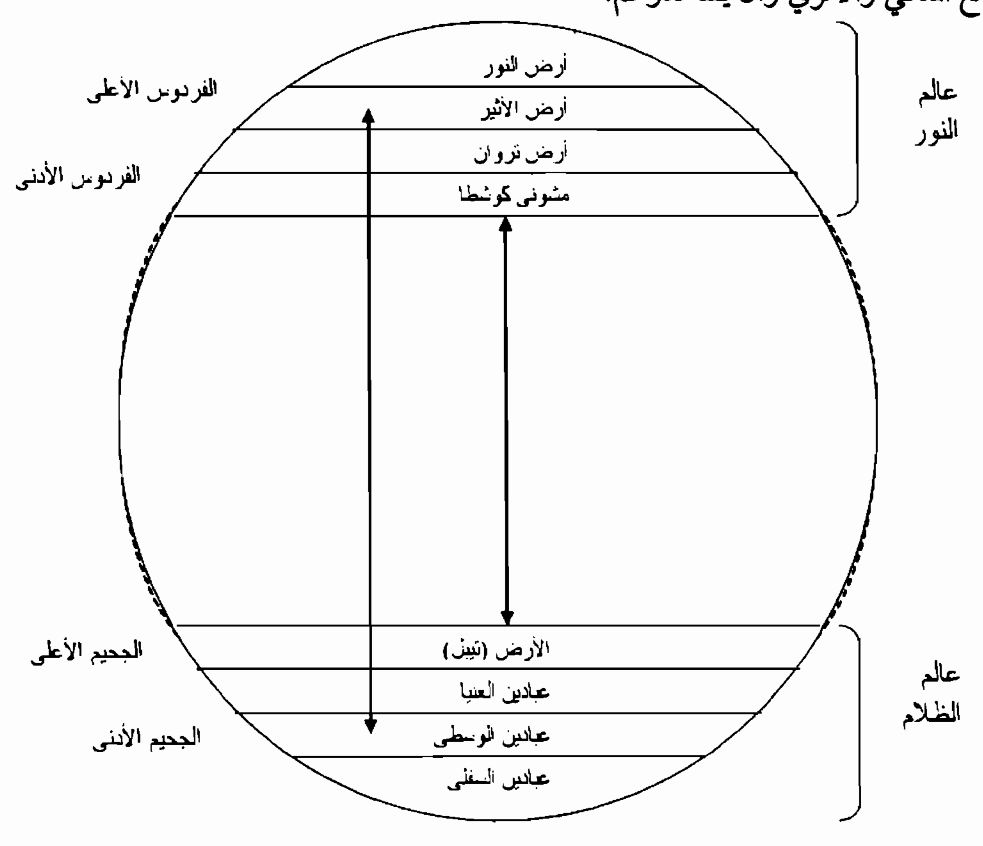
هذا العالم هناك (دموثا) أو أشباه لكل الوحوش والنباتات والحيوانات والبشر، وهؤلاء يتزوجون كما في العالم الأرضي لكن دون ظهور نجاسة منهم.

أما موقع هذا العالم فهناك ثلاثة آراء حوله، هي: [٩]

أ. يقع في الشمال ويفصله عن هذا العالم جبل عالٍ من الثلج.

ب. يرى الشيخ هرمز بر أنهر بأنه في المريخ وسكانه شبه روحيين وأصغر منّا حجماً.

ج. في الشمال وراء منطقة الجليد والثلج حيث النور الدائم وحيث يمكن لسكانه أن يتخاطبوا مع الملكي والأثري وأن يشاهدوهم.



شكل (٤٥)

تناظر الفردوس والجحيم (الجنة والنار) عند المندائيين

أما الجحيم أو النار عند المندائيين فنرى أنها تنقسم إلى مكانين أيضاً:

١. الجحيم الأعلى: وهو الأرض (تيبل) التي تناظر عالم مشوني كوشطا. وهيل زيوا أو بثاهيل احدهما أو كلاهما خلق الأرض. وتحكم هذا العالم الكواكب السبعة والأبراج الاثنا عشر والكواكب الخمسة والروها. ويحاول الإنسان في الأرض أن يقيم الحق ويشعّ بروحه نفحاتٍ من عالم النور لكن هذا العالم مليءٌ بالشرور.

٢. الجحيم الأدنى: وهو عالم الظلام الذي يتكون من ثمان طبقات وتحكمه (روها) وهو يتكون من ثلاث طبقات من الجحيم هي عبادين العليا والوسطى والسفلى، وتسمى أيضاً شيول وجهينا وفي هذا الجحيم تتعذب الأرواح الخاطئة التي غرقت في بحر سوف وانحدرت إلى هنا. ويبدو أن الأرواح لا تبقى هنا إلى الأبد في عذاب أزلي بل سترتفع، ذات يوم، إلى عالم النور بعد أن تتطهر من خطاياها وتكفّ عن الانحدار إلى قبول خطايا جديدة ولنستمع إلى مندا إد هيّي وهو يخاطب إحدى الأرواح الخاطئة المحبوسة في باطن شيول:

«أيتها الروح (نيشمتا)! عندما هتفت بكِ منادياً فلم تجر أنت جواباً
والآن وها أنت بنفسكِ تنادين فمن عساه يجيب عليكِ؟
لما كنتِ قد أحببتِ الذهب والفضة دون غيرهما
يتعين عليكِ أن تكوني حبيسةً في باطن شيول
لما كنتِ قد أحببتِ التصور والخدعة
يتعين عليكِ أن تسقطي في القدور حين تفور هذه وتغلي
ولكن إذا أنصدّت نفسكِ عن الجرائر
وانتهت كل خطاياكِ وانقلبت إلى حسنات
فسوف تصعدين على سلم الإرتقاء عالياً
ذلك الذي ارتقى عليه الكاملون قبلك إلى العلياء
أما إذا لن تصدّ نفسكِ عن الجرائر
ولن تنتهي كلّ خطاياكِ ولن تنقلب إلى حسنات
فسوف تموتين، أيتها الروح (نيشمتا)، موتاً ثانياً
وعيناكِ لن تريا النور أبداً»[١٠]

هناك إذن موتٌ ثانٍ هو موت الروح نهائياً، فالموت الأول هو موت الجسد وخروجها منه

وسقوطها في الجحيم شيول. أما الموت الثاني فهو عدم صعود الروح إلى الأعالي وهي في الجحيم بسبب عدم قدرتها على التطهر. أي أن البقاء الأبدي للأرواح الخاطئة في شيول هو الموت الثاني.

هناك إمكانيةٌ لأن ترتقي الأرواح الخاطئة في شيول إلى عالم النور بعد تطهرها. لكنها إذا لم تتطهر فستبقى إلى الأبد هناك وربما تذوب أو تحترقُ في مكونات الجحيم.

ثالثاً: مثولوجيا الخلاص Soteriology

تطرقنا في أكثر من مكان لموضوع الخلاص، لكن هذا الموضوع يدرسه علمٌ خاص هو السوتيرولوجيا الذي يركزّ على أنواع الخلاص خلال الحياة وبعد الموت بشكل خاص، ويسهبُ في مناقشة أنواع المخلّص وطرق الخلاص في كافة الأديان.

إن فكرة الخلاص الدينية فكرة قديمة جداً تمتد إلى السومريين عندما كان يعتبر بعث دموزي خلاصاً من الشتاء والقحط وموت الزرع وبشيراً بالربيع والخضرة والخصب. وتحوّل (دموزي) إلى أول مخلّص في تاريخ الأديان، وجاء بعده أشباهه (تموز، أوزوريس، أدونيس، أتيس، ديونيزيوس، أورفيوس..إلخ)

وتحولت الأديان الخلاصية القديمة إلى أديان وفرق ومعتقدات سرّية في كلّ الأمم كانت تحوي في جوهرها عقيدة خصبية دفينة يجري حولها مبدأ الخلاص، وكانت الآلهة الأم تلعب دوراً مهماً في هذه الطقوس والشعائر مثل الإلهة ننخرساج والأم السورية والإلهة الفريجية الكبرى (سيبيل) والإلهة المصرية (إيزيس) والإلهة (أناهيت).

وفي الأديان الغنوصية ازدادت أهمية (الخلاص) بل أصبح هو جوهرها وأصبح انتظار الإله الصانع (وهو الإله الثاني في المرتبة بعد إله الكون الأول) أساس الخلاص في هذه الأديان وهو ما يسمى بالعرفان حيث تعرف النفس أصلها السماوي وبأنها لا علاقة لها بهذا العالم بل هي جزء من عالم أسمى منه وهو العالم السماوي الذي نزلت منه وحلت في الجسد الفاني وقد يتم خلاصها بواسطة مخلّص ملاك أو إله فادي (المسيح).

تقول المدونة الهرمسية التي هي أحد أصول فكرة الخلاص الغنوصية:

«قال: لقد فهمت فعلاً أيها الصديق. ولكن لماذا كان (من عرف نفسه يعود إلى نفسه) كما

قال الله فأجبتُ: لأنه من النور والحياة ربّ كل شيء، الرب الذي أنجب الإنسان. قال: أنت تقول: النور والحياة ذلك هو الله الأب الذي منه كان الإنسان فإذا تعلمت أن تعرف نفسك بوصفكَ مصنوعاً من الحياة والنور ومكوّناً من هذين العنصرين فإنك ستعود إلى الحياة. ذلك ما قاله بوامندريس»[١١]

كانت النصوص المندائية هي السبّاقة في تحديد المعنى الدقيق لخلاص الروح فقد كرّست نصوص كنزا ربّا اليسار كلها للتفصيل في موضوعة الخلاص وارتفاع النفس إلى عالم النور.

تتركز فلسفة الخلاص الغنوصية، بشكل عام على أن الإنسان غير قادر على اكتساب المعرفة العالي التي تنشدها الغنوصية، وإنما تصله من خلال وسيط سماوي، منقذ، مخلّص توكل له مهمة الهبوط إلى العالم السفلي لإرشاد البشر، أو بالأحرى، إرشاد النخبة، إلى طريق الخلاص. والجانب العملي في اكتساب هذه (المعرفة) هو مجموعة الطقوس والفروض الدينية التي تطهِّر الفرد والتسلّح بالأسماء السرّية التي تؤلف بمجموعها جواز المرور الذي يسمح للنفس البشرية تخطي الحواجز الكونية التي تقيمها قوى الظلام أمام النفس. والنفسُ في طريقها وهي تعرِّج نحو السماء تنزع عنها عند كلِّ نطاقٍ أو حاجز الرداء الذي يغطيها وبهذا تتجرد عن كلّ شيء غريب كان يغطيها حتى تصل إلى ملكوت الله في ما بعد الكون وتتحد هناك بالجوهر المقدس الذي انفصلت عنه من قبل وهو العقل الإلهي.[١٢]

ولاتخرج النظرة المندائية للخلاص عن هذا الفهم من حيث الجوهر فالنفسُ تتسلح، منذ بداية هبوطها، بأسلحة الإيمان والعرفان والكوشطا وتبقى يقظة حذرة من مؤامرات وإغواءات عالم الأرض والكواكب والروها والفاسدين على الأرض، وتكون مستعدة للخلاص ساعة انفصالها عن الجسد عن طريق مخلصٍ يأتي إليها من عالم النور. ويكون المخلص، في الغالب، هو مندا إد هيي أو (أثري) يبعثه من طرفه.

ويسمى المخلّص في نصوص كنزا اليسار أحياناً بالرجل (كبرا) الذي يشير أيضاً إلى مندا إد هيي وأحياناً بمساعدة أو معاونة الكبير. ويظهر المخلّص أحياناً وكأنه هيبل زيوا وربما كان هناك أثري ثلاثة من أجل رفع الروح إلى الأعالي:

«الأثري الثلاثة أسندت المانا

وهو، المانا، وجد سكينةً وراحةً في التنوير
هو، المانا، وجد في التنوير، راحته وسكينته
إنه يحتفظ بقوةٍ براحته وسكينة باله
إنه يتمسك براحةِ باله بقوةٍ
ويصير محتملاً ويعيش ساكناً في العالم
في العالم الذي ما من نهايةٍ لشدائده ومكارهه
إنهم أمسكوا المانا بكل ما لديهم من قوّةٍ
وأحاطوه ورفعوه بقوةٍ بأيديهم كلتيهما
إنهم رفعوه من الجسم
وقاموه في موضعه
إنهم فتحوا له باب النور
وأبصروه طريق الأمان..»(١٢)

إن الخلاص المندائي يتم عندما تتحرر الروح (نشمثا) من الجسد الأرضي حيث تنتقل إلى جسد أثيري وترتفع بواسطة المخلص ومساعديه إلى الأعالي، فإن اجتزت بحر سوف ونهر هيتون ثم منازل الحراسة ثم الجبال وغيرها بسلام فإنها تنتقل إلى الجسد النوراني، أما جسدها الأثيري فيذهب إلى عالم (مشوني كوشطا) وهناك يتداخل مع شبيه الجسد (دموثا). أما الجسد النوراني الذي يصعد إلى عالم النور فأنه يتداخل مع شبيه الجسد (دموثا) في عالم النورويسمى (سطونا) ويتداخل معه.

إن الخلاص المندائي ظل روحانياً. أثيرياً نورانياً بينما جسّد الخلاص المسيحي (المخلّص) وحوّله إلى إنسان ملموس جاء لينقذ البشرية كلها بالتعاليم، فما كان من البشر الأشرار إلاّ والقبض على المخلّص السماوي وصلبه فتجسدت هنا صفة الفداء، ثم قام المخلّص (المسيح) بالصعود إلى العالم السماوي. لقد حوّلت المسيحية فكرة الخلاص من فكرة مثالية مجردة إلى فكرة ملموسة وأضافت لها دراما الصلب والفداء فبدت أكثر تراجيدية وأكثر شعبية، وكان هذا أحد عوامل انتشارها. خصوصًا أنها ذكّرت بالخلاص القديم لديموزي وأوزوريس وأدونيس وهو خلاص حسيٌّ مجسدٌ أيضاً فكان هذا سبباً كافياً لأن تذرف الجماهير الدموع وتتبنى المسيحية.

أما مندا إد هيي أو هيبل زيوا أو أنوش أثرا فقد ظلّوا في المندائية دون تجسيد محافظين على الصورة المثالية لهم تلك التي قررتها الديانة المندائية منذ زمن بعيد.

إن خلاص الروح البشرية من عذاب المادة وأسرها ينقسم في الأدبيات الغنوصية والهرمسية على أساس صوفي إلى نوعين: أولهما التصوف بالانتشار **Extraversion Mystic** الذي يخرج فيه الإنسان من ذاته ليتّحد بالله الذي يتصورهُ فيذوب ويفنى في الله. أما الثاني فهو التصوف بالانكفاء **Intraversion Mystic** حيث يحل الله في النفس ويغزوها ويتحول الإنسان إلى كائن جديد وهو ما يسمى بالحلول.

إن المندائية لم تطور نظاماً خاصاً للتصوف ولذلك لا وجود فيها للفناء أو الحلول أو تصوف الانتشار وتصوف الانكفاء. فالمندائيون لا ينظرون للروح على أنها جزءٌ من الله بل هي الله الذي حلّ في الإنسان وجعله يتحرك ويرى ويعرف ويعقل. إنها الـ(مانا) الذي هو جوهر الخليقة النورانية وهو الشكل المتجسد للحي العظيم.

ليس هناك فناءٌ للروح في الله عند المندائية وليس هناك حلولٌ لاحق يُحققهُ التصوف. بل أن الروح هي الله نفسه الذي حلّ في الجسد البشري ويجب خلاصه. فلا حاجة للروح بالتصوف (الفناء أو الحلول) بل تحتاجُ إلى أداء الطقوس والتذكر دائماً بأنها من أصل إلهي.

لا شك أن فكرة الخلاص المندائية تنطوي على مفاهيم أكثر مثولوجية ظلت كما هي دون أن تُنضجها الممارسات التي حققتها لاحقاً الأديان والمذاهب الغنوصية. ولنتلمس تلك العناصر الأسطورية النيئة التي تذكرّنا بأدبيات وادي الرافدين السومرية والبابلية في هذا المقطع من كنزا اليسار حيث تتحدث الروح:

«باسم سيدي مندا إد هيي
وبقوته ولجت أنا ودخلتُ في الجسد
إني دخلت وولجت في الجسد
ورضيت أن أكون حبيسةً في القصر
من ذلك اليوم الذي ولجتُ فيه أنا بالجسد
أصبحت زوجته على مرّ العصور
إنني صرتُ زوجة له على تعاقب العصور

والشياطين سخطوا عليّ من الأعماق
من الأعماق غضبوا الشياطين علي
وهم يتمنون بأن روح (نيشمتا) الحياة تذهب منهم»[١٤]

قد يرى البعضُ أن الكنهة المندائيين والناصورائيين يشكّلون طبقة صوفية في الديانة المندائية وهذا غير صحيح مطلقاً لأن هؤلاء الكهنة لا ينعزلون عن الناس ولا يتقشفون لا يظلون بدون زواج ولا يمارسون طقوساً خاصة تشجع الفناء والحلول، لكنهم يحافظون بدقة على تفاصيل الطقوس وهو ما يميزهم ويُظهرهم كرجالٍ متشددين.

يشكّل (الشفيع) ركناً أساسياً من نظام الخلاص الغنوصي حيث الإله أو النبي أو القطب يكون أساساً لشفاعة الأرواح في يوم الحساب أو الآخرة. ويغيب هذا الركنُ من نظام الخلاص المندائي بالمعنى الذي نعرفهُ في الأدب الغنوصي. لكنّ شخصية المخلص، بحد ذاها، يمكن أن تكون شفيعاً، رغم أن هذا الشفيع لا يمكن له أن يقوم بدورٍ خارج عن الحدود فهو لا يستطيع حمل هذه الروح دون المرور بمرحلة الميزان وهو لايستطيع أن يحذف خطيئة واحدة. إنه يقوم بحمل الروح فقط وتهيئة الطريق لها وجعلها لائقة لرحلة العروج القادمة.

«بينما يقف المانا في مكانه ويبحث لنفسه عن توضيحات وشروح
وإذا بمساعده يدلف عليه قادماً
إن مساعده الكبير جاء إليه قادماً
ثم أخذ هذا عدّته ووضع له علامة إرشاد
أخذ هو عدّته ونصب له علامة إرشاد
وفي مقدمة العلامة بنى له سدّاً
إنه كان له مساعداً
إنه كان له هاتفاً
إذا نام غفا أوقظته صلاته
وإذا تعثر وسقط أنهضهُ تسبيحه وأقامه
إذا ضربته السبعة
صارت له قوته الخفية دواءً وشفاءً
إنه أصبح له طبيباً

هو يرفعه عالياً ويضعه على قدميه

إنه يمهد له طريقاً ممهداً (مذللاً)

إنه يبصره ويسوّي له الدرب

ويبني له ممراً لكي يصعد (المانا) إلى مكانه عالياً»[١٥]

والحقيقة أن السيترولوجيا المندائية تمتلك من الخصوصية ما لا نجد لها مثيلاً في السيترولوجيات الغنوصية وغير الغنوصية الأخرى، ولو أننا دققنا في كلّ أشكال نظامها الخلاصي لوجدناه بكراً جديداً خاصاً بها أولاً.

المبحث الثاني
أساطير الزمان الكبير وأدوار العالم

(العود الأبدي والفناء في المندائية)

ينطوي تجديد الزمان، الذي تؤمن به أغلب الأديان، على مفاهيم مثولوجية عميقة تؤكد القدرة الإلهية وتسبغُ على الزمان صبغة بايولوجية تضمن له الولادة المتجددة التي تشيع فيه روح النشاط بعد أن يكون الفساد والخمول قد دبّا فيه. وكذلك ينطوي هذا التجديد على ممارسات طقسية تجعل الإنسان المتدين ملتحماً بالحركة الشاملة الكبرى للزمان، إنها تدمج (العالم الصغير) بالزمان الأبدي المقدس.. زمان الأسطورة.

إن كل تجديد للزمان يجب أن يبدأ بإلغاءٍ للتاريخ أولاً ويتم هذا، على المستوى الكوني، بابتكار دورات تجديد الزمان التي تبدأ عادة من الصفر (إلغاء الزمان وهو زمن ميطيقي يتضمن كارثةً أو ولادةً صعبة يتوقف فيها الزمان التقليدي وتُستحضر فيه النماذج البدئية **Archetypes** وتظهر الآلهة بقوة ثم يُعاد صنع العالم من جديد. أما على المستوى الفردي أو الجماعي فتعمل الطقوس على استعادة (إلغاء الزمان) من أجل تجديد الزمان وإعادة ولادته لتدبّ الحياة في أيامهم، وهو ما يفعله ممارس الطقس الذي ينتشي في لحظة فريدة، خارج الزمان العادي، تقذف به إلى الزمان الأول زمان الأسطورة وبدء الأشياء.

وفي الحالتين، الأسطورة والطقس، يتم تجديد الزمان عن طريق البدء بمحاكاة النماذج البدئية والتكرار اللذين يضمنان بث الروح في الزمان القادم «وهذا ينطبق على جميع أفعال التكرار، أي على جميع أفعال محاكاة النماذج البدئية. هنا نتبين جانباً آخر من الأنطولوجيا القديمة: بمقدار ما يكتسب فعل (أو شيء) حقيقة معيّنة بواسطة تكرار البوادر النموذدية، وبهذه الواسطة وحدها، يكون ثمة إلغاء ضمني للزمن الدنيوي وللتاريخ. ومن يكرر البادرة النموذجية يجد نفسه محمولاً إلى الزمن الميطيقي الذي تم فيه الكشف عن هذه البادرة النموذجية، لأول مرة..»[١٦]

سنترك موضوع الطقوس المندائية كطريقةٍ للعود الأبدي نحو المقدّس للمبحث القادم،

وسنتناول الأسطورة الكونية الكبرى للمندائيين، في العود الأبدي ثم الفناء، عبر دورة الأجيال البشرية الأربعة.

يسمي مؤرخو الأديان الأدوار الكونية الكبرى بنظريات أو (أساطير الزمان الكبير) ويرون أن الديانات كلها تحملُ تصوراً عن (الزمان الكبير) ولكن وجهات النظر حول هذا الزمان مختلفة، لكنها تشترك جميعاً في كونها أساطير دائرية.

ونرى أن هناك ثلاثة أنواع من أساطير الزمان الكبير وهي:

١. **أسطورة الدورة الواحدة**: ترى هذه الأسطورة أن الزمن محدود بين بداية ونهايةٍ لكنه يجري بطريقة دائرية تتضمن، في الغالب، أربعة عصور هي (الذهبي والفضي والنحاسي والحديدي). وتكون الخليقة في بداية العصر الذهبي. أما الفناء فيكون في نهاية العصر الحديدي عن طريق كارثة كونية كالفيضان أو الحريق أو العاصفة أو الزلزال. وتقع المعتقدات الدينية السومرية والبابلية والاغريقية في هذا النوع من الأساطير.

٢. **أسطورة الدورات المتعددة**: ترى هذه الأسطورة أن الزمن يولد ثم يموت ثم يولد مرة ثانية وربما ثالثة ورابعة، وتكون الفواصل بين الموت والولادة هي كوارث كبرى. وتقع معتقدات المندائية حول الزمان الكبير في هذه النوع من الأساطير كما سنرى.

٣. **أسطورة الدورات اللانهائية**: ترى هذه الأسطورة أن الزمن يتجدد دورياً إلى ما لا نهاية، حيث يُخلق الكون ويموت إلى ما لا نهاية، وتقع المعتقدات الهندوسية في هذا النوع من الأساطير.

أساطير أدوار العالم الأربعة (الأجيال البشرية الأربعة):

كانت الديانات الوثنية القديمة ومنها ديانات وادي الرافدين تنظر إلى أن هناك دوراً واحداً للعالم يتكون من أربعة عصور، وقد طوّر البابليون، بشكل خاص، واستناداً إلى نظرية تنجيمية تقضي بانتشار الكواكب في أبراجها الأربعة ابتكروا فكرة العصور التي يتكون منها هذا الدور وهي (الذهبي، الفضي، النحاسي، الحديدي)، ولا شك أن للإغريق الفضل الكبير في ترسيخ وانتشار نظرية الدور الواحد ذات العصور الأربعة والتي تبدأ بالخليقة وتنتهي بالكارثة الكونية.

إن النظرية الإغريقية في العَود الأبدي كانت الرواية الأخيرة للأسطورة القديمة المتعلقة بتكرار البادرة النموذجية الأصلية، تماماً مثلما صارت عقيدة المثل أو الفِكر الأفلاطوني آخر رواية لمفهوم النموذج البدئي وأكثرها إتقاناً. ويجدر بنا أن نشير إلى أن هاتين العقيدتين قد وجدتا خير تعبير لهما في ذروة الفكر الفلسفي الإغريقي.(١٧)

وقد ظلت نظرية الدور الواحد مهيمنة على الأفكار الدينية للشرق الأدنى واليونان لزمن طويل حتى ظهرت نظرية الأدوار الأربعة المندائية والتي كانت الأساس في جعل الفكر الغنوصي، كله، بل والعالم الهيلنستي يتبنى هذه الفكرة بأشكالٍ مختلفة. ويبدو أن المندائيين قد طوّروا نظرية الدور الواحد المتكون من أربعة عصور إلى نظرية الأدوار الأربعة التي تفصل بينها أربعة كوارث كبرى. وسنعرض الأدوار الأربعة المندائية بالتفصيل:

أولاً: الدور الأول: آدم وحواء

تخبرنا الأساطير الشبعية المندائية أن أبناء آدم وحواء كانوا يعيشون في جزيرة سرنديب. ولكننا لا نجد ذكراً لهذا المكان في كتبهم المقدسة ولذلك نرجح أن يكون موضع آدم وحواء قرب نهر الفرات (فراش زيوا) لأنهم يعدّون هذا النهر هو (يردنا) الأرض ولذلك يكون مكانهما هو مدينة أريدو أي في وادي الرافدين.أما النظرية التي تقول بأن سرنديب هي جزيرة سيلان فلا نراها مناسبة.

يسمى جيل آدم في المندائية (شرباثا) أي (جيل الحياة)، ويسمى آدم (رئيس الدور) أو (رئيس الذرية. وقد تعرفنا على لكيفية التي خُلق فيها آدم ثم حواء ثم الأبناء الثلاثة لهما وهم (هيبل، شيتل، أنّوش). وكانت الدموثا (الشبيه) النوراني لهؤلاء البشر الخمسة قد خُلقت أولاً في عالم النور ثم نزلت إلى الجسد (بغرا) المخصص لكلٍ منهم فظهروا إلى العيان يحملون (مانا) النور في أجسادهم المادية. وحتى الأبناء الثلاثة لحواء ظهروا أولاً ككائنات نورانية نزلت من عالم النور ثم تماهت مع أجساد هؤلاء الأبناء المولودة فظهروا في صورة مادية متحركة يحملون المانا في داخلهم.

كان بثاهيل قد خلق آدم على صورته وحواء على صورة آدم، ويتناظر هذا مع ما ورد في

القصة التوراتية للخلق للخلق حيث خلق (يهوا) آدم على صورته وخُلقت حواء من ضلع الرجل. ورغم أن قصة الضلع لم ترد مطلقاً في التراث المندائي لكن الإشارة السريعة إلى أن جسد حواء خُلق نظيراً لجسد آدم يعطينا مؤشراًعلى تساوي خلف آدم وحواء.

من ناحية أخرى هناك ربطٌ بين حواء والروها حيث يرد في الكنزا اليمين أن بثاهيل قال للروها: سأكوّن على هيئتي رجلاً وعلى هيئتك امرأة وسنطلق على الرجل اسم آدم وعلى المرأة اسم حواء، ورد كذلك أن بثاهيل قال للروها: أريد مثيلي أن يكون رجلاً ومثيلك تكون امرأة.

إن هذه العلاقة الدفينة بين روها وحواء هي ذات العلاقة الدفينة بين (الحية وحواء) في التوراة، ولنلاحظ التشابه بين كلمتي الحية وحواء والتشابه في المعنى بين روها (روح) وحوا (حياة). وقد أصبح من المؤكد القول أن العناصر الذكورية القوية في الديانة المندائية هي التي همّشت حواء إلى هذا الحد وربطتها بالروها والشرّ والظلام وهذا شأن الديانات التوحيدية كلها في التعامل السلبي مع المرأة والأنوثة.

أما الشخصيات الثلاث المهمة (هيبل، شيتل، آنوش) فلها صلات بشخصيات توراتية معروفة فهيبل هو هابيل ابن آدم وشيتل هو شيت بن آدم وآنوش هوأخنوخ ابن شيت وبذلك تكون هناك سلالة مكونة من جدّ وأبٍ وابن في التوراة، في حين يظهر هؤلاء كأخوة فيما بيهم، في الكنزا، وكأبناءٍ لمندا إد هيي.وصورتهم النورانية منحدرة من آدم كاسيا وأولاده النورانيين، «إنهم ثلاث كائنات سماوية، المخلصّين الثلاث ويدعون أُثري. الثلاث سكنوا عالم النور قبل خلق العالم الأرض حيث رافق هيبل أخوين غير مرئيين نزلوا إلى العالم السفلي بهدف اكتشاف مَنْ مِن المخلوقات يخطط لشنّ حربٍ ضد عالم النور. وبعد خلق العالم الأرضي عمل الأثري الثلاث كحماة للعهود الأرضية الثلاث»[١٨]

يموت، في هذا الجيل الأول من البشرية، كلّ من شيتل ثم آدم ثم حواء ويصبح هيبل راعياً للعصر ثم يرتفع إلى عالم النور عند بدء الكارثة الأولى: كارثة السيف، وتخبرنا الكنزا أن شيتل وأنوش يبقون لرعاية العصرين الثاني والثالث على التوالي. ويصعب حلّ هذا التناقض الذي وقعت فيه الكنزا لأن شيتل هو أول من يموت من البشر حسب الكنزا فهو يضحي بموته بدلاً عن آدم، لكنهُ يظهر راعياً للعصر الثاني بعد حصول كارثة السيف.

ورغم أن الكنزا تلمِّح بطريقة خفيّة إلى أن الثلاثة يبقون حاضرين في كل عصر من العصور الثلاثة لكن ذلك يبدو في منتهى التعقيد والغرابة إذا ما نظرنا إليه مباشرة أما إذا تعرفنا بعمق على أغوار المثولوجيا المندائية فربما سنجد مخرجاً لهذا التناقض ويكمن الحل في أن رعاة العصور هم على هيئة نورانية وليسوا بأجساد مظلمة وقد هبطوا من عالم النور ولذلك فهم باقون في العصور الى نهايتها دون أن يحد أعمارهم زمن معين حتى نهاية الدور.

١ . موت شيتل :

يحمل موت شيتل الكثير من المعاني الرمزية التي يحتفي بها المندائيون، فهو رمز التضحية لأنه قبل بأن يموت بدلاً من آدم والده، أي إنه بمعنى من المعاني رمز الفداء (الفادي) وهو يتوارى مع شخصية السيد المسيح الفادي في المعتقدات المسيحية، وكأن فداء شيتل هو الجذر القديم الأول للفداء في البشرية.

كان شيتل يحضى في الأدب المندائي بالتبجيل الشديد الذي يفوق أحياناً آدم ففي (ألف وإثنا عشر سؤال) يوصف شيتل بـ(الروح) وآدم بـ(الجسد)، وكذلك يُوصف بـ(الرؤية) وآدم بـ(سواد العين) ويوصف باليردنا وآدم بـ(الأرض) وهكذا..

وتخبرنا الكنزا اليمين عن الطريقة التي رُفعت فيه روح شيتل إلى عالم النور حيث فكرت الحياة بإصدار عقوبة الموت على عالم الأرض والشياطين منه بشكل خاص فرأت أن آدم قد بلغ عمره ألف عام وقد آن الأوان لتحريره من جسده قبل أن يصبح هرماً فتصيبه الأمراض ويثور عليه أطفاله الصغار ويرتكبوا الحماقات ضده فأرسلت الحياة إلى المخلص (صاورئيل —قامامير زيوا) وهو ملاك نوراني وكلمة صاورئيل تعني الأثري المسؤول عن القمر. وهو أحد مخلّصي الأرواح ويُوصف بأنه (عزرائيل المندائي) ولذلك يسمى (الموت) ويسمى (الكوشطا) لأنه مستقيم لا يأخذ الرشوة من أحد ولا يقبل الهدايا ولا يستبدلُ أحداً بآخر. وحين نزل إلى الأرض خاطب آدم.

«آه آدم، أنتَ أيها الرجل الأبكم الأخرق الأصمّ المدثّر.. هيّا أترك الأرض تيبل المملوءة بالخطايا والمحفوفة بالمهالك بوجهٍ عام، إذا أنك شارفت الآن على الألف سنةٍ قبل أن تبلغ أنت أرذل العمر وأشقاه وقبل أن يحلّ بجسدك الوهنُ والفالج وقبل أن يتطاول الصغار عليك ويرتكبوا

المعصيات بحقك»[١٩]

لكنّ آدم فوجيْ بهذا الطلب فثارت ثائرته وغضب وسال اللعاب مراً من فمه فبصقه على الأرض، وراح يتلوى وامتلأ قلبه بالأسى والوجع ودمعت عيونه وبكى، وتمدد على الأرض ومد رجليه وساعديه ثم راح يضرب صوره بقبضته وقال بلغة شعرية أخّاذة تذكرنا بلغة الأساطير الرافدينية:

«أواه.. أيها الصوت الذي هتف بي

أواه.. أيتها المعرفة التي مُنحت لي لكي أتلقنها!

أنني الآن بلغت من العمر ألف عام

في هذا العالم الذي أعيش فيه يؤكل أولاً الرطب قبل التمر ومن ثم يؤكل التمر بعد ذلك. أولاً تؤكل الحبوب الخضراء قبل السنابل ومن ثمّ تؤكل السنابل بعد ذلك.

فضلاً عن ذلك يتناول المرؤ في هذا العالم الذي أحيا أنا فيه بالأكل أولاً الخضر الطرية الغضّة قبل الصلبة ومن ثم يأتي المرؤ بالأكل على الصلبة بعد ذلك.

ثم تكلم إليه قائلاً: دعنا نمضي إلى مصب فراش زيوا، إلى شاطيء نهر الحياة الكبير ثم إلى بناء آبائنا الكبير، ثم دعنا ننظرُ في داخل المسكن فيما إذا كان هنالك ثمّة خضروات طرّية غضّة أو صلبةٌ للأكل»[٢٠]

بهذه اللغة الرمزية تكلم آدم ليوضح لأُثري الموت أن من المفروض أن تؤكل النباتات المبكرة الغضّة مثل (الرطب، الحبوب الخضراء، الخضر الطرية) أولاً ثم اليابسة الصلبة مثل (التمر، السنابل، الخضر الصلبة) وكان بذلك يشير ضمنياً إلى ولديه شيتل أو أنوش اللذين يمثلان النباتات الغضة وهو النبات الصلب.إنه يريد أن يقول له إن الأبناء هم أجدر بالموت من الآباء الناضجين الكبار، ثم يذهب مع إلى الشاطيء الذي يصبّ فيه نهر الفرات ويُدخله إلى المسكن، الذي ربما كان هو المندي الأول، ويثبت له أن المسكن خالٍ من الخضروات الطرية ألتي أُكلت. ولكنّ صاورئيل لم يفهم ذلك.

وحين يرتفع صاورئيل إلى عالم النور ويخبرهم برفض آدم يأمروه بالعودة ثانية ودعوة آدم بقوة، وحين يعود صاورئيل إلى آدم يدعوه مرة أخرى ويضيف:

«آه، آدم، هيا مُتْ كما لو كنت أنت لم تكن على قيد الحياة وأفنَ كما لو كنت أنت لم

تُخلق أبداً، إذا أن روحك قد طُلبت من قبل إناء (كنّا) الأرواح الموغل بالقدم ومن قبل دار الأب الأولى الكبرى ومن قبل المكان الذين كانت هي قد استقرت به فيما سلف من الزمان.

فيما بعد تكلم آدم إليهَ قائلاً: أواه أيها الصوت الذي مسُنى في الأعماق، أواه أيتها المعرفة التي وهبت لي لكي أتلقنها، إنني الآن أصبح لي من العمر ألف عام أإلا إنني أريد وأرغب أن أعيش ألف سنة أخرى، ولكن ما عليك أنت الآن، إلاّ أن تذهب إلى إبني شيتل وتنادي عليه: إنه أصلح مني إلى ذلك العالم الذي جئتَ أنت منه. هو أقلّ عمراً ولك أشدّ بأساً وأكثر رقةً مني. لقد عاشَ هو في هذا العالم ثمانين عاماً غير أنه لم يطأ (لم يدس) إلى الآن برجله حاشية ثوب امرأةٍ بعد. كما أنه لم يحظ إلى الآن بأثمار كبيرة. إنه لمّا يستل سيفه من غمده بعد وعلى هذا فهو لم يُرق دماً في المساكن. فما أحوج ذلك العالم الذي قدمت أنت منه إليه»[٢١]

وحين أخبر صاورئيل ـ قامامير زيوا الحياة بما جرى له مع آدم أمرته بالهبوط إلى شيتل وإخباره بأن روحه قد طلبت مِن قبل الوعاء الأجليّ (كنّا الأرواح) الموغل بالقدم ومن قبل دار الأب الأولى الكبرى ومن قبل المكان الذي كانت قد استقرت فيه في سالف الزمان. فهبط صاورئيل وأخبر شيتل بذلك فطلب منه شيتل بأن يذهب إلى أبيه آدم ويأخذ روحه لأنه ما زال صغيراً ولم يعرف امرأة أو يجرب سيفاً، فأخبره صورئيل بأنه فعل ذلك مع آدم فأشار له عليه، فقال شيتل بن آدم مع نفسه بأنه يخشى أن يرفض ذلك لأن الحياة الكبرى ستسخط عليه في مقامها الرفيع.

«ثم قام شيتل بن آدم ناهضاً وأخذ يصلي صلاة طويلة امتد وقتها ولم يقصر، بعد ذلك طرح هو الجسد المؤلف من اللحم والدم جانباً وتحلّى بثوبٍ مصنوعٍ من البهاء ووضع على رأسه عمامة باهرة طاهرةٍ من النور بنحو ٩٩٠,٠٠٠ روبان سطع ضوءه أكثر من نور الشمس وبقدر ٩٩٩,٠٠٠ روبان كان نوره أكثر بريقاً من القمر. ألوف مؤلفة ورويان رويان (من الأثري) اصطحبته وقادته على جهة اليمين وعلى جهة اليسار. ريحٌ، ريحُ أخذت شيتل بن آدم إلى هناك. عواصف، عواصف قادت إياه إلى هناك ثم رفعته إلى الأعلى ووضعته على سحابةٍ نورانية كبيرةٍ. فما كان منه إلاّ أن أقام صلاةً طويلةً امتد زمنها ولم يقصر. شيتل بن آدم تكلم قائلاً: إليكم أوجه أنا التماساً، إليك أيتها الحياة الأولى، إليكِ أيتها الحياة الثانية، إليكِ أيتها الحياة الثالثة، إلى يوفين ـ يوفافين، إلى سام، إلى مانا المحفوظ، وإلى غصن الكرم الذي هو الحياة كلّها وإلى الشجرة

الكبيرة التي هي الشفاء بأجمعها بان تنزع عن أبي آدم العصّابة من العينين والسدادة من الأذنين وأن تؤخذ من قلبه قطعة اللحم لكي يبصر ويرى ذلك العالم الذي أسمو إليه أنا صاعداً»[٢٢]

هكذا إذن صعد شيتل إلى عالم النور، ولم يأت ذكر نشمثا هنا، بل أن شيتل نزع جسد الدم واللحم ولبس ثوب البهاء، أي أن هيكل النور المؤلف منه جسد شيتل أصلاً في عالم النور هو الذي خرج ولبس ثوب البهاء ثم لبس عمامة النور وسطع بقوة وصحبته ملايين الأثري يميناً ويساراً ثم أصعدته ريح عاصفة ووضعته على سحابة النور وهناك صلّى شيتل.

ربما يفتح سيناريو الصعود هذا شهية بعض المتطرفين في خيالهم العلمي ويتصورون مركبة فضائية عبارة عن سحابة نور ورجال فضاء هم الأثري، ولكننا نرى دائماً تهافت هذه الأفكار، لأن من طبيعة الخيال المثولوجي مثل هذه الخوارق.

لقد استجابت الحياة الكبرى لصلاة شيتل وأزالت العصّابة من عيني آدم والسدادة من أذنيه وقطعة اللحم من قلبه (أي الخوف من قلبه) فرأى ذلك العالم الذي شاهده شيتل وصاح بشيتل بأنه يريد أن يذهب إلى العالم الذي طُلب منه الصعود إليه فرد عليه شيتل بكلام بليغ قائلاً:

«إذهب أيها الكهل، مَنْ لا يملك ذرةً من الحكمة وماريبا ربّا (أيها الخَرِف الكبير)، من ليس له مثقال من العقل، هل يوجد ثمة أحد من الناس من كان قد بصق لعابه ثم عاد فاسترده وبلعه؟ هل يوجد ثمة أحد من الناس من كان قد خرج من رحم أمهِ ثم أُعيد مرةً ثانيةً إليه؟ كلاّ! مثلما كان وجب عليّ أن أفارق هذا العالم قبل الأوان سوف يأتي الجنين من رحم أمه إلى الخارج شبيهاً بمحّ البيض، سوف يجيء الأطفال الصغار وأفواهها لما تزل بعد مملوءةً بالحليب وسوف تأتي الرسائل المغلقة والعذراوات ثم تجيء الخطيبات وبينما لمّا يزل ينساب الزيت من أكاليلهن بعد، يجيء الغلمان وتأتي البنات الصغيرات وكلّ أفواههن مملوءة إلى هذا العالم. أما ربّ البيت (السيد المالك) فسوف يتمنى لنفسه الموت غير أن هذا يأبى أن يقترب منه إلى أن يحتقروا هُم إياه ويزدردوه وإلى أن يملأه الخجل من نفسه. إن كلّ من يتكلم قائلاً بأن هذا الصبيّ يتعين عليه أن يبقى هنا وذلك العجوز يجب أ، يذهب إلى هناك سوف يحاسب ويعاقب في المقام الكبير في دار الحياة الكبرى»[٢٣]

بهذه اللهجة اللاذعة تحدث شيتل مع آدم، ثم حملت الريح شيتل وأصعدته العواصف إلى

الأعلى ووضعته في منزل حراسة شلمي، أمين الكنز (كنزاور) الذي يمسك أوتار البهاء بيده ويحمل مفاتيح الكوشطا على ساعديه كليهما، ثم يصف النص برقة ما يسميه ببيت الغصن ثم الكنز كما يلي:

«ثم فتحوا هم لشيتل بيت الغصن ورفعوا أمامه ستار الأمان الكبير إلى الأعلى وأدخلوه وعرضوا عليه لكي يرى بأمِّ عينيه ذلك الكنز من الكرم الذي باطنه بهاء وجوانبه نور وكعوبه ماء وأغصانه أُثري وأوراقه مصابيح نور ونطفته إناء (كنّا) الأرواح الكبير. ثم جعلوا يأكلون ما ليس مستنكراً وذميماً وشربوا ولم يكن ما شربوه نبيذاً. آير زيوا ابن الحياة الأولى الكبرى وشيتل. إنهم يشربون وقد غطتهم مباهج الحياة ولذّاتها السخية. إنهم يضفرون أكاليل الملذات ويضعونها على رؤوسهم. إنهم يضحكون ويتندرون ويثبون ويحجلون ويغتبطون ويمرحون ويهللون ويفرحون بسبب الأبهة الجليلة، إنهم ينعون ينوعاً وسط العظمة التي تحيط وتحفّ بهم من كلّ حدبٍ وصوب»[٢٤]

وهكذا فتح شيتل أول طريق المعراج الذي ستصعد منه أرواح المؤمنين الصادقين وحين وصل إلى هناك ناولته الحياة والأثري الملائكة، في أرض النور، الكوشطا أي أنهم مدّوا له أيديهم وصافحوه.

وبالرغم من أن السبب المعلن لصعود شيتل هو رفض آدم الصعود واقتراحه بأن يؤخذ شيتل بدلاً عنه. لكننا نعتقد أن هناك سبباً آخر مدفوناً في النصوص السابقة، وهو أن شيتل استجاب، ذات يوم، لأغواء روها وكاد يضاجعها لولا صرخة مندا إد هيي. وربما كان هذا الضعف سبباً لأن يصبح شيتل الإنسانِ الأضعف في سلالة الآباء الأولى والذي يقع عليه الموت أولاً.

إن صاورئيل يأخذ صفة الحامل للمعرفة لآدم ولشيتل ثم المحرر لهما من قيود الجسد وتسمى معرفة صاورئيل (معرفة الموت) بالمعرفة الطيبة (مادا ــ طابا) ويظهر صاورئيل بصفة المعين والمساعد والمعلم، فهو أحد رسل النور.

ويعتقد المندائيون أن مدينة الطيب في العمارة هي مدنية شيتل.

٢ . موت آدم:

تبدو أسطورة موت آدم وارتفاع روحه إلى عالم النور منقطعة عن الأسطورة السابقة لموت

شيتل إذ لا شيء يوحي بأن آدم قد صادف (رسول الحياة) الذي جاء ليخلّصه من العالم وليس هناك ما يتذكر به آدم أن شيتل قد ارتفع قبله. ونرى أن الأسطورتين قد كتبتا في زمنين متباعدين دون ربط بينهما.

في الكتاب الأول، الجزء الثاني من كنزا ريّا اليسار سرد طويل لأسطورة موت آدم يمكن تناول أهم حوادثها.

خرجت فكرة تخليص آدم وتحريره من الأرض من دار الحياة الكبرى فأرسلت ا لحياة رسولها إلى آدم ففكرت الروح (نيشمثا) في جسم آدم وشعرت أنها قصيرة (بمقدار بوصة واحدة) كما يقول النص، وأنها صغيرة جداً في ذلك الجسد وتحاورت مع العقل والجسد العفن الذي يحملها حول خروجهم من هذا العالم، ولكنهما لم يردا عيها.

هبط رسول الحياة الكبرى وهو المخلّص ودخل في فراش آدم الوثير وتكلم معه قائلاً:

«استيقظ، استيقظ يا آدم، إطرح عنك جسمك العفن، ذلك الثوب من الطين الذي عشت أنت فيه. إخلع عنك ثوبك الجسمي، الذي أنت عشت فيه وأرمِ به أمام الاثني عشر والسبعة، الرجال الذين صنعوه ووضعوه عليك. اترك الجسم حالاً وراءك إذ أن وقتك قد حان ودنا وأزف وما عليك الآن إلاّ أن تغادر هذا العالم. إن الحياة بعثتني إليك لأنها تطلبك وتريدك. إن عروجك سوف يكون باتجاه مقام الحياة، باتجاه المكان الذي سبق لك وأن كنتَ أنت قد مكثت فيه في سالف الزمن، باتجاه المسكن الذي يجلس فيه أبوك»[٢٥]

يبكي آدم ويتحسر وينوح ويردّ على الرسول بكلام مؤثر:

«يا أبتاهّ إذا جئت معك فمن يا ترى سيكون حارساً في تيبل، هذه الأرض ذات الأطراف المترامية؟ من عساه سيكون لإمرأتي هذه حواء مُسامراً أنيساً؟ من سيكون لهذه الشتلة التي كنتُ أنا قد غرستها بنفسي عوناً ومساعداً عبر العصور؟ من سيكون لهؤلاء جميعاً عونا ونصيراً؟ من سيعيش في هذا البيت الذي كنت أنا قد سكنتُ فيه ومن بعدي سيقيم مستقراً فيه؟ إذا أثمرت النخلة فمن عساه يجني الرطب وإذا ازدهرت نبتة الكُفار فمن يكوَن راعياً لها؟ إذا اقترب دجلة والفرات كلاهما فمن عساه يقبض بيده على... ويوصل الماء إلى النباتات؟ إذا ولدت الحبلى فمن عساه سيقف بجوارها ويساعدها، من عساه يشدّ البقر (يُطقم الثيران) أمام المحراث ومن سينثر

ويبذر البذور في الأرض؟ من عساه يتناول الساجات ليحدث الخشخشة لكي تذهب الشاة الضالة إلى حضيرتها وتعود الريم الهارِبة إلى قطيعها؟ من سيجمع اليتامى بعدي ويوحّدهم ومن عساه يملأ جيوب الأرامل؟ من سيكسو العيان ومن سيضع حول رقبته ثوباً؟ من سيحلّ الأسير ويحرره ومن عساه يفضّ النزاعات ويسوّي الخصومات في القرية»[٢٦]

فيجيبه رسول الحياة بأن عليه أن يعود إلى مكانه في عالم النور ويجلس على عرشه المصنوع من البهاء فإن الأرض مكانٌ للشر حيث ينكر الأبناء آباءَهم والفتيات أمهاتهن والأخوان يقتلون بعضهم البعض الآخر وهكذا.

توحي البلاغة التي أجاب بها آدم على عرض رسول الحياة والتي سيجيب بها أننا أمام نصوص رافدينية أصيلة. فهي تذكرنا بالأساطير السومرية والأكدية والبابلية بل وبالأدب الرافديني كلّه. وهو ما يدفعنا، دائماً، للقول بأن التراث المندائي ما هو إلاّ الاستمرار الطبيعي لتراث وادي الرافدين، بل أنه أعظم خاتمة لهذا التراث العريق. وينسحب هذا على مضامينه الإنسانية العميقة وعلى أشكاله الأدبية الرفيعة التي خرجت، دون أدنى شك، من ذلك المنجم العظيم الذي تركه أجداًدهم السومريون والأكديون والبابليون والآشوريون.

ولننظر في جواب آدم البليغ على ما قاله رسول الحياة:

«يا أبتاه! إذا كنتم قد علمتم بأن الأمر هو كذلك فلماذا غرّرتم أنتم بي ووضعتموني في داخل الجسم العفن؟ إذا أترك أنا الآن جسمي وأخرج منه من عساه سيكون له حامياً ومساعداً؟ إذا نام غافياً فمن عساه يوقظه ومن يجعله صاحياً؟ من سيعطيه ما يحتاج هو إليه من طعام وشراب ومن سيلاطفه ويؤانِسه في الأزمان والأوقات؟ إذا حبلت السماءُ بالرعود وتوعدت بالبروق فمن عساه يبني له قصراً يأوي إليه ومن يضع على رأسه السقف لكي يحميه؟ لئلا تؤذيه التقلصات؟ لئلا تشرق الشمس فتقع أشعتها عليه؟ إن الرياح تجمع التراب وتقذف الوحل عليه. هل تتجمع الطيورُ وتأكل من جسمي؟ إنها تقتات من جسمي وتبني عشها في شعري وتحمل من لحمي قطعاً تأخذها معها إلى عشّها العالي. إنها تخلع عني ثوبي وتمزقه إلى قطع صغيرة ترمي بها بعدئذٍ فوق المزبلة. من سيكون لي منظراً تقع عليه عيناي؟ يا أبتاه إذا أصررت أنت على أن آتي أنا معك فليأتِ إذن جسمي معي كموصّل وصاحب. فليأت جسدي معي حتى آلفه فيُذهب عني توحّشي

أثناء الصعود على الطريق. إنني ليس لدي الأب والأم اللذين يأخذان على عاتقهما هذه المهمة ويكونان كلاهما لي صاحبين على الطريق. إنني لا أتزين بالذهب والفضة وعلى هذا فأنا لا حملها معي كما لو كانت هي متاعاً لسفري أو رفيقاً يصطحبني في سبيلي.»[٢٧]

فرفض رسول الحياة عرض آدم فعرض آدم عليه عرضاً آخر يقضي بأن يصطحب معه زوجته حواء وأبناءه وبناته، وصرخت حواء وأرادت الذهاب مع آدم لكن رسول الحياة رفض ذلك وقال له (في دار الحياة لا يوجد ثمة جسم، إن الجسد لا يرتقي صاعداً إلى دار الحياة) وأوضح لآدم بأن كل فرد يصعد ليحاسب على ما فعله من أفعال فلا فائدة من وجود الأبناء والأخوة والأخوات. إن الأخوان الحقيقيون هم أثري الكوشطا والأخوات هنّ شكينات مؤمنة. وإن الطريق الذي سنصعده بعيدٌ جداً ولا نهاية له وقد وضع عليه الحكام، والخفراء جلسوا في منازل الحراسة والقدور تغلي وتفور وفيها أرواح الشياطين، وهناك بحرٌ في الطريق دون معبر وسيعبر عليه كل فرد بعد أن تذهب أمامه أعماله كما لو كانت له مرشداً. والطريق الذي سنسلكه محفوف بالشوك والحسك وتحيطه سبعة جدران وجبال ليس فيها ثغرة واحدة. والميزان معدّ ليختار الأرواح المؤمنة فقط.

وحين سمع آدم ذلك بكى ورثى نفسه وجرت دموعه «وبعد ذلك خرجت نفسه فترك آدم جسده وراءه وما أن التفت حتى وقع بصره عليه فاهتزّ متلجلجاً وارتعد. ثم جعل يتأسف عليه لأنه خلّفه وراءه ولم يطق احتمالاً بالافتراق عنه. بعد ذلك بدأ بالتجوال خلال الأثير. آدم يطوفُ عارياً ويمضي في طريقه كأنه طائر لمّا يبنِ عشاً ولمّا يرقد على البيض ولمّا يحضن فراخه الصغار بعد. آدم يشق طريقه صاعداً وينطلق كالعصفور الذي سرت القدرة على الطيران تِواً في جناحيه، إنه يطير ويعرق خلال العوالم والعصور الزمنية على غرار حيوان كان قد انفصل نهائياً عن قطيعه إنه يشبه الرياح الأربع والعواصف تدفعه قدماً وتحثه حثّاً. إنه يحاكي الأسد الذي فرّ من قفصه ويشبه الخنزير البريّ الذي هرب من الدغل»[٢٨]

ثم يتحدث آدم، وكأنه أفاق من التصاقه بجسده، عن الكيفية التي غُرر بها ودخل إلى الجسد ذات يوم ونزل على الأرض وكيف كانت الشياطين تغويه وكيف كان الجسدُ قبراً له. لكنه يعود فيمتدح هذا الجسد بلغةٍ برّاقة:

«كم كان جسدي جميلاً بالقياس إلى الرجال البشعين الذين كانوا قد أخترعوه وصنعوه، وكم كان النحّاتون حكيمين وبديعين الذين ابتكروه! وتلك الكور التي صاغته! ما أجمل الرأس الذي خلقوه هم له! ما أبدع ما صقلوا له الشعر وجعلوه ناعماً! إنهم خلقوا له الشعر وجعلوه سبطاً ناعماً ووضعوا له العقل في الرأس وسكبوا الحكمة والفطنة في القلب. إنهم صنعوا له عينين اثنتين اللتين تضيئان ليلاً ونهاراً. إنهم خلقوا له باباً كبيراً الذي يحمدُ الحياة كلّ يوم. إنهم صنعوا له يدين اثنتين اللتين تعملان يَومياً دون أن تصبحا طريتين لينتين أماالآن فقد صارت الطيور لا تخشى ولا تنصرف هاربةً من جسدي. في غير هذا الوقت كانت قدماي تسيران مسافات طويلة أما الآن فقد غدت العصافير لا تلوذ بالفرار منها. لقد تأسفت عليه بأن أدعه ورائي ومع ١٠ذا لم يكن في مقدوري أن أحمله معي. لقد تحدثت مع نفسي قائلاً: نحنُ نستطيع أن نذهب معاً بينما أحمل أنا جسمي، ولكن ما كان من جدرانه إلاّ أن تفككت فسقط هو في الأخير متهشماً متكسراً. بعد ذلك ضربتُ أنا على جسمي وطرحته جانباً فما كان منه إلاّ أن صار تراباً وديداناً، أجل، ما كان منه إلاّ أن صار تراباً وديدانا، ثم تفرق وتفتت في كلّ مدينة.»[٢٩]

هذه الدراما الجسدية التي يندر العثور عليها في الآداب القديمة يجسّدها لنا الكنزا ربّا على لسان آدم، وهي تذكرنا برثاء جسد إنكيدو من قبل جلجامش لكنها، هنا، أكثر سعةً وعمقاً وتكشف القلق الذي يحيط بالإنسان من خلال نقيضين: حبّه لجسده والمعتقد الذي يحرّض على كره هذا الجسد.

ثم يتحدث آدم في مقطوعة شعرية عن عدم جدوى افتداء أفراد العائلة لبعضهم وكأنه يتذكر ضمناً عدم جدوى ما فعله شيتل. وتبدو هذه المقطوعة وكأنها مقحمة وهو ما يؤيده ليدزبارسكي:

«في مدخل المقبرة
لا يفتدي الأخوان أحدهم الآخر
إذا افتدى الأخوان أحدهم الآخر
فسوف لن يأتي جسم إلى المقبرة
لن يأتي جسمٌ إلى المقبرة
ولن تطرح الروح الجسدَ جانباً

إذا افتدى الأب إبنه

فلن يكون هنالك ذريّة في تيبل

إذا افتدى الأبناء آباءهم

فلن يكون هنالك يتامى في تيبل

إذا افتدى الرجل زوجته

فلن يكون هنالك أرامل في تيبل

إذا افتدت المرأة زوجها

فلن ينادي أحدٌ على أرملةٍ في الأسواق»[٢٠]

فيجيب مبعوث الحياة ويخطب آدم ويوضح له بأنه يتحسر كثيراً على ك الجسم العفن ويدعوه إلى أن يرفع عينيه إلى السحابة النورانية التي جاءت إليه وإلى رجال النور الأربعة الذين يديرونها وإلى أغطية وعمامات النور الطاهرة عليها والأكاليل المزهرة فيها، وحين يقدم عليه رجال النور الأربعة يسألونه عن سبب بكائه فيقول لهم إنني عبدٌ بدون سيد وعليه سخط الملك وغضب لكنهم يدعونه إلى الذهاب لأنه ابن الحياة الكبرى، ويعرض آدم عليهم أن يجلب زوجته حواء معه. لكنهم يوضحون له بأنها ستأتي بعده وأن الأجيال كلها ستهلك وتفنى وتأتي هذه الإجابة كما لو أنها نبوءة على نهاية أقوام معاصرة للمندائيين عند كتابة النص:

«كلّ سلالتك سوف تأتي بعدك صاعدةً. بعد ذلك تأخذ كل الأجيال نهايتها وجميع المخلوقات تهلك وتفنى. الينابيع والبحار قاطبة تجفُّ وتيبس والأنهار والجداول تنضب وتنقطع الجبال والمرتفعات سوف تتهدم وتندثر وتغور. إن بابل وبورسب سيصبحان قفراً ويفنيان وسوف يكونا كما لو كان كلاهما لم يوجد قط. إن أرض الفرس وأرض الرومان سوف تتهدمان وتتدمران وتصبحان أنقاضاً كأنهما لم تكونا على الإطلاق. أهل السند والهنود يهاجمون بعضهم البعض الآخر وإقليم السميرائيين وإقليم الطورائيين وجبل الحديد يقتل بعضهم البعض الاخر. إنهم يصدرون الحكم على قاتلهم والأرض تقضي بالعقوبة على منِ كان قد هدر دم أحد أبناء آدم وسحق صور الذين كانوا على شاكلته. إن الحكام وأعوانهم والخائنين لزوجاتهم واللصوص والمزيفين والمبلغين والمهربين والمحولين لعلامات الحدود والسحرة والأحبار والكهنة والمخبرين عن الغيب والمستقبل والطاعنين بألسنتهم والرسامين والمنجمين والعرافين (الكلدانيين) ما لهم هو النار

والمحرقة.»[٣١]

أن ما يوحي به هذا النص أنه كُتب أيام كانت بابل وبورسبّا مزدهرتين وهذا يعني قبل سقوط بابل في ٥٣٩ ق.م أي في القرن السادس قبل الميلاد، وربما في ذلك إشارة إلى أن هذا النص كُتب في القرن السادس قبل الميلاد أو قبله، وإنه لمما يرجِّح ذلك ذكر النص للسيمرائيين وهم (السيمريون) في غرب بلاد الأناضول وقد ازدهرت حياتهم السياسية قبل القرن السادس قبل الميلاد. ولكن هذا الاحتمال يقلّ تماماً عندما يذكر الفرس والرومان.

ثم يصف النص كيفَ ستحصل الكارثة الكونية الكبرى وكيف ستصرف الناس على اختلاف مشاربهم ومناحيهم، ثم يطلب رسول الحياة من آدم الصعود إلى عالم النور وعرض قضيته على الحياة الكبرى. وحين يصل آدم إلى هناك يخاطب الحياة الكبرى قائلاً:

«لماذا كنتِ أنتِ قد خلقتِ هذا العالم؟ ولماذا كنتِ قد أمرتِ بأن تخرج السلالات من بين ظهرانيك؟ ولماذا بذرتِ أنتِ في تيبل العداوات؟ لماذا طلبتِ مني ومن سلالتي كلّها أن تصعد إليكِ بعد ذلك؟ لماذا جعلتِ العالم جميعه أرضاً يباباً وقاعاً صفصفاً على حين لم يكن هنالك ثمة حارس له وعلى حين مارست السبعة والاثناعشر من مدارها الخاص بها الحكم والسيطرة على البشر وظلت أفخاذ قبيلتي معرضةً طيلة الوقت إلى الاضطهاد؟

أما بعدُ، أيتها الحياة الكبرى! إن سرَّكِ ذلك ورحّبت أنت به، فلا تجعلي من ذلك العالم أنقاضاً وخراباً وإنما أضيئيه بنورٍ ولا تقطعي أفخاذ سلالتي منه وسوف يكون جزاؤكِ، أيتها الحياة الأولى العظمى، هو أن اسمكِ يظلَ خالداً هناك! هذه الشكينات التي شيّدها هيبل زيوا ينبغي أن لا تُهدم والنهر يجب أن يُنتزع أو يُغتصب والكواكب والروها وأور.. يجب أن لا تزاول السيطرة عليهم (أفخاذ قبيلتي).[٣٢]

هكذا بكل ثقة وصراحة أوضح آدم القضية للحياة الكبرى وجادلها. إن الحياة على الأرض، من وجهة نظره، نعمةٌ عظيمة يمكن الحفاظ عليها شرط أن لا تتدخل الحياة الكبرى وكائناتها من جهة والروها وكائناتها من جهة أخرى. إنه يقول بجرأة كبيرة للحياة الكبرى (لماذا بذرت أنتِ في تيبل العداوات؟) وهذا أقصى ما يمكن أن نتصوره.

إن آدم في عموم الكنزا، بشكل خاص، وفي عموم التراث الديني المندائي رجلٌ قوي

وصريح فهو غير مطرود بخناعةٍ من الجنة كما عند العبريين، وهو لم يأكل، غفلةً، ثمرة شجرة المعرفة ويعاقب على ذلك مع حواء بالطرد والعمل والإنجاب..إلخ كما عند العبريين في سفر التكوين (التوراة). ولم تُلقَ أسباب الطرد من الجنة على حواء وخطيئتها عندما أغواها الشيطان كما عند العبريين. إن آدم المندائي بطلٌ حقيقي أراد بكل الصور التملص من الموت والاستسلام لقرار الحياة الكبرى، وعندما لم يستطع قال ما في صدره، لقد أوضح الحقيقة كاملة للحياة الكبرى وقال لها أنتِ من ناحية والروها من ناحية أخرى من خرّب الحياة على الأرض، إنه أراد القول بأن الإنسان هو ضحية الصراع بين عالمي النور والظلام، إنه ضحية الموازنات القلقة بينهما. وهكذا كان آدم شجاعاً بما فيه الكفاية. وهو مختلفٌ تماماً عن آدم العبري (التوراتي) الذي كان مهزوماً وسلبياً أكثر مما يجب. وستكون لنا وقفة مقارنة أوسع بينهما في مكان آخر.

لننظر الآن إلى ردّ الحياة الكبرى على آدم بعد أن واجهها:

«أوه آدم! ابقَ هادئاً في نوركَ ولتحصنكَ طمأنينة الصالحين الطيبين، إن هيبل زيوا أخاك، هو هنا والأثري، إخوانك، إنها هنا، والنهر برمته هو هنا. أنت، آدم، يتعين عليكَ أن تسكن ههنا. وزوجتك حواء سوف تجيء قادمةً إلى هنا. وسوف تصعد سلالتك كلّها بعدك عالياً. هذه هي الشكينة التي أُسست وبُنيت لك ولامرأتك حواء قبل الحياة الأولى العظمى إلى أن يأتي ذلك اليوم، يوم الحساب والتحقيق، إلى أن تحين الساعة، ساعة الخلاص وإلى أن يأزف يوم القيامة. بعد ذلك سوف تقوم أنت، آدم وسلالتك، واقفاً وتمضي ساعياً إلى أرضك الخاصة بك. إذاً أفرغ روعك وكن هادي البال واترك قلبك يرتاح في مكانه»[٣٢]

لم تُجب الحياة الكبرى عن أسئلة آدم، بل قدمت له عرضاً خاصاً. إنها حلّت مشكلته هو وزوجته ولم تحلّ مشكلة البشرية والورطة التي قُذف فيها الجنس البشري كلّه إثر الصراع بين عالمي النور والظلام. وبكلمة أخرى إن الحياة الكبرى قدّمت نوعاً من الرشوة إلى آدم لكي يسكت!!

إن قصة موت آدم وارتفاع روحه إلى عالم النور هي، من وجهة نظرنا، أهم أساطير الإسكاتولوجيا المندائية حيث تنطوي على الكثير من المعاني العميقة التي كشفنا بعضها وهذه القصة تُلخِّصُ مغزى موت الإنسان ومصير البشرية، فهي تكشف من ناحيةٍ عن الدراما الصاعدة

والنازلة وما يصاحبها من قلق وتردد آدم في القبول والرفض، في الاستسلام والتحدي. لكنهُ رغم فشله في البقاء حيّاً يعبّر، بصراحةٍ، عن ما كانت تجيش به أعماقه. قد يكون شيتل أقرب، من الناحية الدينية، إلى قلوب المؤمنين لأنه فدا والده وأطاع أوامر الحياة الكبرى بسرعة، لكن آدم أقرب إلى مفهوم الحرية والإرادة ووضوح العقل والروح.

٣ . موت حواء:

الحوادث التي ترافقُ موت حواء تختلفُ عن تلك التي حصلت مع آدم. فحواء ترتكبُ خطأ النواح والرثاء لآدم وتستجيب لتعالم الروها في هذا المجال، ويكون هذا الأمر مدعاةً لهبوط هيبل زيوا عليها وإرشادها، ورغم أن حواء تتعرض لضغوط الروها والكواكب لكن مندا إد هيي ينزل لها ويرغّبها في الصعود إلى عالم النور وتمارس الكواكب ضغطاً آخر عليها فينزل مندا إد هيي مرة ثانية ويهيؤها للرحيل عن العالم فتمرض حواء وتزورها الروها نادبةً، ثم ينزل هيبل زيوا ويرفع حواء ويتحدث مع الروها والكواكب وسلالات آدم حول الخلاص.

هذه هي خلاصة (خلاص حواء) أما التفاصيل فيمكن وضعها في نقاط متتابعة:

١ الروها تعلّم حواء النواح ورثاء الميت: بعد صعود روح آدم حزنت حواء وبكت ثم جاءتها الروها وأقنعتها أن المفروض بها أن تتعلم النواح والرثاء على الميت وبدأت تعلّمها ذلك عندما صفّقت بيديها وصرخت ثم بدأت الروها والليليثا برفع الصوات على الميت، وفعلت مثل ذلك حواء.

٢. الحياة تستدعي هيبل زيوا لإرشاد حواء: استدعت الحياة هيبل زيوا وأمرته أن ينزل إلى حواء وأن يعلّمها بأن النواح والصوات على الميت غير مقبول وإن عليها أن تخلد إلى الراحة والسكون وتعلم أن روح آدم التي غادرتها تنعم الآن بالسعادة، وأن عملية صعود أرواح سلالة آدم عن الأرض هو نوع من الاحتراز قبل أن يأتي المغث بالسيف، ولذلك سيأتي دورها بالصعود على درب أبناء السلام.

٣. حواء تحاور هيبل زيوا: بعد أن نزل هيبل زيوا وأخبرها بما طلبت منه الحياة الكبرى اعتذرت حواء عن ما فعلته واعترفت بأن الروها والكواكب قد خدعتها، ولكنها عاتبت هيبل زيوا بأنه لم يرطب مرارة نفسها بالهدوء والسكينة، فأجابها بأن آدم كان رفيقه وأنه كان سعيداً

بمرافقته له وهو يصعد إلى عالم النور. ولنلاحظ أن من رافق آدم هو رسول الحياة بعد أن جاءه صاورئيل. والنصّ هنا يكشف أن رسول الحياة هذا هو هيبل زيوا. ثم تتساءل حواء عن أنوش الذي غاب عنها ولو أنه كان معها لدبّرت معه انتفاضة ضد ما يحصل، لكن هيبل زيوا أوضح لها أن أنوش قد يدبر انتفاضة ضد الروها والكواكب لأنها تكرهه وليس ضد ما يجري. وهنا تظهر حواء، أيضاً كمتمردة ضد ما يحصل للبشر.

٤. الروها تتآمر على حواء: حين شعرت الروها أن حواء بدأت تميل إلى رسول عالم النور هيبل زيوا نهضت واقفةً: وكذلك الكواكب وجعلت تدور في دائرة، ثم خرجت هي منها وتكلمت قائلة: إن حواء تظهر بمظهر الخائن. إنها أصبحت غير وفية نتيجة لصوت الغريب. إنها تشهد على الكلام اللطيف، ولم تعد تنطق باسم آدم بأسلوب النواح والشكوى كما أنها لا ترفع صوتها بالرثاء والحزن. ما أن نظرت هي إلى الرجل الغريب حتى استأنست إليه ووجدته طيباً على حين لا تلهج هي بأسمائنا. ماذا يجدي علينا هذا. بعد أن كنّا قد جلسنا عندها ورفعنا عقيرتنا بالحزن والرثاء العظيمين الشديدين، بعد أن تشمرت حواء للتسبيح وتركت الحزن والرثاء والأسى جانباً، بعد أن تهيأت للأمر وأضاءت من خلال الرجل الغريب وبأت تتكلم بكلامٍ لطيف. ثم نظراً لوجود الرجل الغريب الآتي من النور شرعت هي تضيء وتكلمت مع قائلة: اجعلني منيرة، اجعلني مشعة بالنور، أيها الخالقُ الذي خلقني، أيها الرجل، يا من جعلني منيرةً إلى حدٍّ يفوق كل الأثري، أنتَ يا رجل، يا من أخذ يدي وألقاها جانباً بعيدةً عن رأسي وجففت عيني من الدمعة وأقصى عني الحزن والشكوى والأسى وكذلك الحماقة والإهمال اللتين رمت بهما الكواكب عليَّ. إنها أمالت أذنها أصغت إصغاءً إلى صوت الرجل الغريب وتكلمت بالكلام اللطيف»[٣٣]

٥. حواء تتطلع إلى عالم النور ومندا إد هيي يساعدها: بعد أن صعد هيبل زيوا إلى الحياة وأخبرها بما حصل، تقوم حواء بالتطلع إلى درب مندا إد هيي (يقوِم النص بالخلط بين هيبل زيوا ومندا إد هيي) وتتمنى الصعود إلى عالم النور والقصور الجديدة (أندوروني)، فما كان من الكواكب إلاّ ومحاربة حواء لكنّ حواء لم تأبه بذلك ونادت مندا إد هيي فهبط إليها وباركها ووعدها بأن تصد معه إلى ذلك العالم العلوي.

٦. حواء تمرض والروها تزورها: سقطت حواء مريضة ليوم ونصف وزارتها الروها وقالت لها: «لماذا تفارقين الحياة. أنت أيتها الشريفة النسب وتتركين البيوت وراءك بدون سيدةٍ وها أنذا أتلهفُ عليكِ إلى أين عسانا نحنُ أن نذهب وعلى من سنتّكل»[٣٤]

٧. هيبل زيوا ينزل ويرفع حواء ويتحدث مع الروها والكواكب وسلالة آدم: هبط هيبل زيوا إلى الأرض وأعطى حواء المعرفة ورفعها عن جسدها، ويبدو أن رسول الحياة يفعل هذا دائماً فهو يعطي المعرفة أولاً ثم يرفع روح من يريد رفعه عن جسده، والمعرفة (مندا) تتضمن التبصير بعوالم النور وإدراك الروح لأصلها السماوي وعلاقتها بالخالق وهذا هو جوهر الديانة المندائية.

قالت الروها لهيبل زيوا أنت تأخذ كل ثمين ونافع فقال لها أنت وجدتِ مكاناً لكِ مع أعمال يديك ولكن المانا الذي كان في الداخل ينبغي أن يصعد إلى المقام النوراني عالياً. ثم حذّر سلالات آدم ووعدهم بأنه سيعود لهم بعد أن ينشأ شكينات لهم عند أبيهم. وحين استوقفه أحد الحمقى الذي ارتكب حماقات وتوسل إليه بالصعود أجاب أن المرتد والمارق سيبقى هنا، فبكوا فطمأنهم بأنه سيعود. وهكذا صعد هيبل زيوا وأوصل حواء على عالم النور وأسكنها في شكينتها. وقررت الحياة أن يكون هيبل زيوا بمثابة الرسول (باروانقا) بين عالم النور وعالم البشر.

لقد لاحظنا تماماً كيف أن حواء ارتبطت بالروها في الوقت الذي تقرر فيه صعود حواء إلى العالم الأعلى، إنها إشارة رمزية إلى الترابط بين حواء وروها الذي نوّهنا عنه مراراً، وكم حاولت روها التمسك بحواء وجرها إلى عالمها لكن نقطة النور التي في حواء (نشمثا) هي التي أنقذت حواء وجعلتها تلتحقُ بعالم النور.

ـ موت هيبل ونهاية البشرية الأولى:

يبقى هيبل بعد موت آدم وحواء راعياً للعصر الأول أو الجيل الأول للبشرية، أما الدين الذي كان عليه أهل الأرض فهو دين آدم الذي يُعتبر الكنزا ربّما كتابه المقدس لأن هذا الكتاب يسمى مجازاً (صحائف آدم) أي كتب آدم، وتذكر الكنز أن ما يقرب من ثلاثين جيلاً هو عمر البشرية الأولى وقد استغرقت (٢١٦,٠٠٠) عاماً، أي أن مدة الجيل الواحد تساوي (٧٢٠٠) عاماً. وأن هؤلاء عمّروا طويلاً وصعدوا دفعة واحدة وبارتقاء واحد إلى النور السامي لأنهم

ينتمون إلى دين واحد ولكونهم ينتهجون في حياتهم مسلكاً مشتركاً ولأنهم يسبّحون باسم الرب.

وبارتفاع روح هيبل وموت جسده تكون الكارثة الأولى قد حلّت على البشرية الأولى وهي السيف (وربما معه الطاعون) وانتهت أول حقبة بشرية.

يذكر الكتاب الحادي عشر من كنزا اليمين قصة موت هيبل وتدمير الجنس البشري الأول:

١. تعقد الكواكب النية على شيء شرير ضد سلالة آدم وتطلب منهم الخضوع لها حيث تصرخ الكواكب «يتعين عليهم أن ينظروا إلينا وأن يذعروا منّا وأن يخضعوا لنا. ثم تستطرد قائلة: نحن نريد أن نسلب منهم لباسنا الذي هو ملك لنا. إنها ترفع أصواتها ضدهم إلاّ أنهم لم يخافوا ولم يرتجفوا ولم يستول الخوف أو الارتعاد على مكانٍ في نفوسهم ثم تستطرد هي قائلةً: في هذه الحال نريد نحن أن نتملق لهم بواسطة المكر والزلفى والخداع. ولكنهم لا يؤيدون موقفنا إطلاقاً وظلّوا عفيفين ضد محاولتنا لتضليلهم. بعد ذلك تقول هي: هذه المرة نريد أن نتقرب إليهم بلطافةٍ وطيبة نفس فعسى ولعل أن يأتوا إلينا ومن ثم يسيروا على نهجنا..»[٣٥]

٢. يتحدث هيبل مع أخوته وأبنائه (في الوقت نفسه، وهما شيتل وأنوش ـ وهنا يظهر شيتل في هذه الرواية شاهداً على الكارثة الأولى مع أنوش ـ) ويقول هيبل لهما إنهم يريدون الآن أن يجعلوا مني سيداً عليهم ويصنعون لي خبز القربان، لكني لا أريد التقرب منهم. بل أطرحهم أرضاً ولذلك سأدخل بينهم وأعرف ما يدبرون، وحين دخل هيبل عرضوا عليه أن يكون رئيسهم ورئيس العالم ولكنه رفض، فقالت الروها إن هذا الرجل لا ينتمي إلينا ولذلك سأدبر خطة سية ضده كي نأخذه أسيراً.

٣. دعت روها هيبل إلى مجلسها وطلبت منه أن يتكلم ويغني (يرتل) ما يعجبه، ويقول هيبل «فبدأت أتكلم بصوتي العذب وأخذت أغني بعض الأغاني التي تستحق الإعجاب. إني أغني أجمل وأروع من كل العالم. إني أتكلم بلساني الحلو الذي هو أحلى من جميع العالم. لساني الذي لا يعرف الكذب ولا يمتزج الرياء به، لقد غنيت فقلبتها على وجوهها ولوّثتها كلها بالعار. لقد تكلمت فأخجلتها إذ لا يشبه غنائي غناءَها ولا يحاكي لساني لسانها. فنهضت أنا من بينها وغطيتها بالعار جميعها. إنها أغمضت عيونها وخافت جميعها وصارت كئيبة دامعة. أما أنا فجعلت أضحك عليها وخجلتها وأطلقتُ قهقهة عاليةً نكايةً بها. لقد استويتُ واقفاً ومضيتُ من

لدنها وتنحيت عن طريقها فابتعدت عن الرداء الذي يعلق فيه عفنٌ رديءٌ ويفوح برائحة نتنةٍ. لقد ذهبت إلى هناك ولبستُ الثوبَ النقيّ الطاهر الذي منحه آبائي إياي، ذلك الرداء الذي نعيش فيه وليس فيه عفن رديء ولا تفوح منه روائح كريهة. إن عبيره رائع وبهاء إخواني حلوٌ عليّ..»[٣٦]

٤. تدبر الروها مكيدة ضد هيبل وسلالة آدم وتجتمع مع شياطينها وتقول كيف نفني هذه السلالة فيجيبها من معها: «بحد السيف، غير أن السيف وحده لا يستطيع أن يبلغ الحد منهم. بل دعونا نلقي بها في النار وإذا لا تستطيع النار حرقهم فلنستعن بالماء لكي نقضي على هذه السلالة ونزيلها من الوجود. روها تتكلم قائلة: أمّا بعد، نحن نريد أن نتريث بعض الوقت. فأجابتها الملائكة قائلة، على حين أخذت الكواكب تتشاور بعضها مع البعض الآخر: إذا أفنت الحرب والنار والماء العالمَ ورأس هذه السلالة فسوف يصبح ا لعالم شبيهاً به. ثم تكلمت هي قائلة: نحنُ نريد أن نأخذ من هذه الخميرة التي نحتفظ بها في دار كنزنا. فأخذت هي من خميرة العالم التي تحتفظ بها في دار كنزها كيما ينشأ عالم منها. إنها رفعت السيف وأخذت تشهره ضدنا.»[٣٧]

٥. حين علمت الحياة بما يجري أرسلت مندا إد هيِّي حاملاً البهاء والحرارة الحية الأزلية والنور من بيت الحياة وألبس هيبل البهاء وغطاه بالنور وحدّد موعد الطامة قبل السيف. إن أرواح أولئك الذين شهدوا بنداء الرجال الثلاثة وآمنوا بمندا إد هيي فارقوا الحياة قبل أ، يصلهم صليل السيوف، أي أن أرواحهم صعدت إلى عالم النور. وتهيأ هيبل للصعود إلى عالم النور دون أن تدري الكواكب.

٦. حين مغث السيف في العالم، جاء مندا إد هيي إلى شيتل قائلاً: «لا تجعل عينيك تبارحان ابنك أنوش الذي هو أخوك الصغير ولا تجعلهما يفارقان رداء الحرارة الحية الذي تقفان أنتما فيه. إني أريد أن أذهب لكي أهدي هيبل إلى مكانه في الغرفة الجديدة وسوف أكرّ على الفور راجعاً إليكما. لا تخافا من سيف الكواكب ولا تجعلا الذعر والهلع يملكان عليكما أمركما. بعد ذلك لأقدمنّ إليكما. إن عين الحياة تحرسكما وترعاكما. أنا أغطيكما بثوب الحياة الذي أعطتكما هي نفسها إياه. أجل أنها بينكما، في كلّ مرة تبحثان أنتما عني سوف تجداني. في كلّ مرة تناديان أنتما عليّ سوف أجيب أنا على ندائكما. إني لستُ بعيداً عنكما.»[٣٨]

٧. دخلت روها العالم بالسيف واقتحمته وصارت ولية الحقد والغضب، ولم ينل السيف

أحداً من أبناء آدم أو من المؤمنين.

وهكذا انتهت البشرية الأولى وصعد هيبل بينما بقي شيتل وأنوش بانتظار العصر القادم.وهذا يعني أن شيتل ذا الهيئة الجسدية هو الذي صعد الى عالم النور أي أن روحه النورية صعدت هناك ، أما شيتل ذو الهيئة النورية فبقي لكي يكون حارس العهد أو راعي العهد في الدور الثاني من البشرية.

ثانياً : الدور الثاني : رام ورود

عندما صعد هيبل كانت روها تشهر السيف في العالم غير أنه لم يبلغ سلالة آدم لأن مندا إد هيي كان معهم ولم يتركهم وجهزهم بالبهاء والحرارة والنور. ورأى ملائكة الحقد والغضب أن هذه السلالة تتألق في بهائها ويقفون في هذا العالم فأخبروا روها وقالوا لها إن السيف لا يبلغ حدّهم مطلقاً.

أخذت الكواكب من خميرة العالم الموجود في دار كنزها ، فظهر (رام ورود) وهما أب وأم البشرية الثانية. ويقول كتاب الكنزا بأنهما من أبناء آدم. وهذا لا تفق كثيراً مع أخد الخميرة من دار كنز الروها وإنجابهما ، ولكن النصّ! ربما لا يوضح ما خفي في هذا الأمر وهو أن جسديهما من الخميرة أما روحيهما فمن سلالة آدم. هذا هو التفسير الذي نراه معقولاً أمام غياب التفاصيل.

وهكذا نشأت البشرية الثانية من رام ورود ، ونرجّح أن يكون معنى (رام) هو العالي أو المرتفع أو السماء ومعنى (رود) هو (النهر). وهذا يعني أن اسميهما يعنيان العالي والمنخفض أو الأعلى والأسفل. ويذكر الكتاب الثامن عشر من الكنزا أن عمر هذه البشرية الثانية كان خمسة وعشرين جيلاً ، أي (٢٩,٠٠٠) عاماً.

حين تكاثرت البشرية الثانية لم تستمع إلى نصائح روها وبطانتها فغضب هؤلاء وكان نسل هذه البشرية يقف بهياً في هذا العالم فلم تستطع أن تفعل شيئاً ضِدهم وأخذت من كل صنفٍ اثنين من هذا العالم.

كان شيتل هو راعي العصر ، وفي عصره ظهر الناصورائيون كما تقول الكنزا وكنا قد ذكرنا ذلك وأكدنا عليه. أي أن الناصورائيين هم أمتداد للآدميين الذين ظهروا في العصر الأول والتزموا

بالكنزا ربّا.

قامت روها ومعها إيل الكبير (الشمس) وخاطبا ملائكة الغضب، ثم خاطبا الملاك (دانيل) الذي كان وليّ النار فقالا له «إلق حريقاً في هذا العالم بأسره فلعلنا نقضي عليهم قضاءً مبرماً، بعد هذا ألقت هي النار في العالم فجاء مندا إد هيي وتقدّم إلى هؤلاء الرجال فما استطاعت النار أن تلحق بهم السوء. بعد أن دخلت روها إلى هذا العالم واقتحمته (يرى الملائكة التي عُيّنت وليّة على الحقد والغضب). إن هؤلاء الرجال يقفون هنا في هذا العالم بكل بهائهم على حين لا نتمكن نحن أن نصيبهم بأي سوء»[٣٩]

وربما وقع ناسخ هذا النصّ في خطأين الأول هو إشارته لثلاثة رجال في حين أن هيبل قد صعد إلى عالم النور ولم يبق سوى شيتل وأنوش إلاّ إذا اعتبر رام هنا بديلاً وهذا غير معقول لأنه لا يمكن أن يعيش لحوالي ٢٩٠ ألف سنة. أما الخطأ الثاني فهو يذكر أن الملائكة تكلمت إلى إلهتها وهذا يعني أن روها إلهة وليست كائن ظلام، وهو ما لفتنا الانتباه له كثيراً.

إن هذا يجعلنا نفترض أيضاً أن الهيئة النورية للثلاثة (شيتل وهيبل وأنوش) تبقى في كل العصور الثلاثة الأولى ولكن واحداً منها هو الذي يقوم بمهمة رعاية العصر وهذا تفسي معقول أيضاً.

إن الحريق أو النار هو وسيلة الدمار الثاني للأرض بعد السيف أو الحرب ويبدو أن النار أبادت النسل البشري ولم يبقَ سوى أنوش حيث يذكر النص أن مندا إد هيي نزل «وأخرج (شيتل الممتاز) الذي كان يسدي النصائح المخلصة وألبسه ثوب البهاء الفاخر وغطاه بلباس النور بحيث لاح بهاؤه متألقاً في العالم جميعه. لقد أهدى هو إياه إلى السبيل الذي كان هيبل نفسه قد سلكه من قبله ودعاه يقطن في الغرفة عينها التي كان هيبل ساقاً قد سكنها، أي في الغرفة التي أعدّت للأرواح (نيشماثا) الساعية إلى المعاشرة مع دار الحياة وحيثما لا يوجد فصل أو تباعد بعد ذلك. لقد ترك هو أنوش يعيش في الرداء الكبير الذي كان إخوانه قد سكنوا فيه من قبل، الرداء الذي كان أخوته قد أوكلوه إليه وكان آباؤه قد جهزوا إياه به. مندا إد هيي تكلم مع أنوش قائلاً: لا تخش شيئاً ولا تخف من سوء ولا تقل إنهم تركوني وحيداص متوحداً في عالم الشياطين هذا، إذ إني سوف أجيء إليك عما قريب»[٤٠]

ويوصف أنوش بأنه الصغير الذي تُرك وحيداً على الأرض بعد أن ارتفع الآباء والأخوان ولذلك تتداعى الأفكار الكثيرة في باله ويسأل أسئلة كثيرة لكنّ مندا إد هيي سيعلّمه كل أسرار العالم كما عرفنا ذلك.

والحقيقة أن هذه الرواية تتعارض مع ما ذكرناه سابقاً من أن شيتل صعد إلى عالم النور قبل آدم، وهذا أمرٌ سيتكرر عندما يكون أنوش وحيداً ولذلك يحتاج إلى تفسير متأنٍ سنتحدث عنه لاحقاً.

تذكر الكنزا أنه عندما تندلع النار فسوف تودِّع عند هذا الفراق الكبير جميع الأنفس (نيشماثا) الجسم وتصعد إلى النور لأنها لا تُزيف الدين الطاهر الأول ولا تقلب الوصايا الأولى إلى عكسها، ثم سوف يستيقظ العالم من جديد ويتكاثر عدد الناس فيه.

ثالثاً: الدور الثالث: شورباي وشارهابيئل

معنى اسم شوربي الانتشار والتكاثر ومعنى اسم شارهابيئل ربما كان (واهب الملوكية) وهناك إشارة الى أنها أحدى أسماء الشمس. كانت روها قد أخذت من خميرة العالم التي كانت محفوظة في دار كنزها واسمها كان شورباي وشارهبئيل وهذان كلاهما من سلالة آدم ووجب على الخليقة أن تنشأ وتتكاثر منها. وهي نفس الطريقة التي خلق بها رأس البشرية الثانية. وكان راعي الدور أو العهد هو أنوش الذي كان وحيداً والذي كان خائفاً فهو يقول أنه عندما رأى أن العالم قد خلق هكذا «ارتعدت وارتجفت مفاصلي وجعل جسدي ينثني ويتمايل وهو الذي كان منتصباً. أما إلى قلبي فقد نفذ تأوه موجع وفي قدمي تسبلل ارتعاشٌ بحيث أنهما لم يعدا يستطيعان الوقوف على حامليهما بثبات. ثم بدأت هكذا أفكرُ في دخيلة نفسي قائلاً: إن إخواني الذين هم أكبر مني سنّاً تركوني وراءهم وحيداً في عالم الشياطين هذا. في حين قال لي مندا إد هيي مودعاً: سوف أجيء بنفسي إليك. إني أفكر وأشعر بالأسى إزاء أخواني الذين لا يستطيعون الإياب بعد لكي ينقذوا إياي من هنا، وها أنذا أقف هنا وحيداً في ثوبي الذي تركوه عليّ إخواني في هذا العالم»[٤١]

وتكاثرت البشرية الثالثة واعتنق أغلب الناس مبدأ الحياة وتبعوا أنوش، فما كان من

الشياطين إلاّ وضع خطط الشر ضد أنوش وضد الناس، وتذكر نصوص الكنزا أن هناك رجالاً ثلاثة وضعت الخطط ضدهم والمقصود بهم (هيبل وشيتل وأنوش) فهل كان هذا خطأ وقع فيه مدوّنو الكتاب المؤلف من أجزاء متفرقة نوعاً ما؟ أم أنه مقصود تفرضه طبيعة الأحداث والأساطير الغنوصية؟ هل كان هناك وجود مثالي أو أثيري أو نوراني للرجال الثلاثة معاً وكان أحدهم وهو أنوش هو الحاضر المادي الملموس في ذلك العصر وهو ما اقترحناه أعلاه؟ ربما يكون هذا تخريجاً معقولاً لحل هذه المشكلة! وهي ذات المشكلة التي صادفناها مع الدور الثاني ومع شيتل في الدور الأول بعد أن صعد قبل آدم!

يخبرنا أنوش عن نهاية الدور الثالث فيقول:

«أنني أنوش الصغير، كنت أعواماً عديدة هناك حيث كان أخواني أيضاً. لقد فقتهم أنا جميعاً نشاطاً هنا ومع أني جئت بعدهم إلى هذا العالم غير أنني لستُ مثلهم. إن الأشرار يدبرون المكيدة ضدي وضد ثوبي الذي أقف أنا فيه. إنه يقيني من السوء، من سوء الأشرار الذين يبغضون نداء الحياة. تُرى من ينبغي له أن يطلق نداء الحياة في هذا العالم؟ إنهم يخاطبون بعضهم البعض الآخر قائلين: في عالمنا هذا لا يحق لأحد قط أن يطلق نداء الحياة، إذ أنه ملك لنا حقاً. ثم ينادون هم ملائكة الحقد والغضب ويصدرون إليها الأوامر: اهبطوا على الأرض (تيبل) وقولوا لنوح أن يبني الفُلك ويدعو ويضع نجارين، أن يذهب ويقطع شجر الإرز على أرض لبنان والإرزات الإناث من الجبل ياتور. قولوا له: ضع نجّارين وابنِ السفينة وخذ من كلٍّ صنف اثنين ذكراً وأنثى وضعهما في الصندوق الذي تصنعه أنت ذلك لأننا نريد أن نستلم العالم.»[٤٢]

إن ملائكة الحقد والغضب هي التي تهبط على الأرض وتبلغ نوح بأن يبني السفينة وليس أثري عالم النور، ليس السماء أو الله كما في العهد القديم (التوراة). هؤلاء الملائكة جزءٌ من عالم الظلام.

وقبل أن يبدأ الطوفان هبط مندا إد هيي على أنوش ليؤنس وحدته وليخفف عنه وحشة العالم ثم ليعرّفه بأسرار هذا العالم حول أصل الأرض والسماء والنار والماء الأسود والماء العذب والحرارة الحية والحرة الآكلة وبحر العالم وغيرها، ثم ليزيد له القوة والحكمة. ثم مدّ مندا إد هيي يده بالكوشطا وسحب أنوش وأصعده إلى دار الحياة فجلس في شكينة أبيه وعاش في عالم النور.

يذكر الكتاب الأول من الكنزا أنه «بعد شوباي وشارهابيئل سوف يغمر العالم طوفان جامح يقضي عليه قضاءً تاماً، سوف لن يبقى من البشر أحدٌ باستثناء نوح على ظهر سفينته وابنه سام. سوف يُغرقُ هذا الطوفان جميع الأحياء على البسيطة، إذ يقضي على الأرواح (نيشماثا) عند الفراق الكبير أن ترحل من الجسم وتصعد عالياً إلى النور، ما بين عهد شورباي وشارهابيئل وحتى عهد نوح تقع حقبةٌ طويلة من الزمن يبلغ أمدها خمسة عشر جيلاً»[٤٣]

أما الكتاب الثامن عشر من الكنزا ربّا فيذكر أن عمر البشرية الثالثة هو (١٠٠,٠٠٠) عام، وكذلك يروي بشيء من التفصيل كيف حصل الطوفان، وهو كما يلي:

١. عندما لم يبقَ من أعوام النيرغ (كوكب مارس) إلاّ ٨٠٠٠ سنة وجّه نداءً إلى نوح صاحب الفُلك جاء فيه: اصنع سفينةً، ثم تلبية لهذا النداء أحضر نوح نجّارين قطعوا أشجار الأرز من عمانوس وأشجار الأرز ذوات الصفة الأنثوية من لبنان، أخذ يبني لمدة زمنية بلغ طولها ٣٠٠ عاماً، نوح ربط أجزاء خشب السفينة بعضها مع البعض الآخر فأصبح طولها ٣٠٠ أميا (ذراعاً) وعرضها ٥٠ أميا (ذراعاً) وارتفاعها ٣٠ أميا (ذراعاً) بعد أن تمّ له ذلك أخذ نوح من كلِّ صنفٍ ذكراً وأنثى ووضعهما في أعلى السفينة»[٤٤]

٢. راحت ينابيع السماء الفوقية تهطل بالأمطار لمدة ٤٢ يوماً و٤٢ ليلةً وكذلك جعلت ينابيع الأرض التحتية تتفجر بالمياه فغمرت هذه الجبال وغطت المرتفعات. نتيجة لهذا الطوفان الكبير هلك العالم برمته وماتت الحياة على الأرض.»[٤٥]

٣. ظلت السفينة طافية على سطح الماء زهاء أحد عشر شهراً. بعد انقضاء هذه الحقبة الزمنية عاد الهدوء من جديد واستتب الوضع نهائياً. عندما أخذ الماء بالانحسار رويداً رويداً استقرت السفينة جاثمة على جبل قاردون.[٤٦]

٤. عندئذٍ أدرك نوح في قرارة نفسه بأن الخطر قد زال عن العالم وكرت السكينة راجعة إليه لذا أرسل هو الغراب إلى الخارج بعد أن تكلم إليه قائلاً: امض بعيداً، وانظر فيما إذا كان الهدوء قد عمّ الدنيا. فارتفع الغرابُ عالياً في الأجواء إلاّ أنه لم يحلق بعيداً، إذ أنه سرعان ما عثر على جثة طافية على سطح اليم وما كان منه إلاّ أن حطّ عليها وأخذ ينهش من لحمها وبذلك نسي الغرابُ ما كان نوح قد أوصى إياه به.[٤٧]

٥. ثم بعث نوح الحمامة في أعقابه وتكلم إليها قائلاً: امضِ طائرةً، انظري فيما إذا كان العالم ينعم بالطمأنينة، يا ترى أين ذهب الغراب الذي أرسلته بتلك؟ وما كادت الحمامة تنطلق في الفضاء حتى وقع بصرها على الغراب وهو لمّا يزل بعد راقداً على الجثة ويأكل من لحمها. ومن ثمّ رأت هي شجرة الزيتون التي كانت منتصبة على جبل قاردون وقد نشرت أوراقها على سطح الماء. فأخذت الحمامة تجني بعض الأوراق وتجمعها في منقارها. ثم جلبتها إلى نوح فأدرك هذا في سريرته أن الهدوء كان قد هيمن على البسيطة. اجتاحت نوح موجة من الغضب فجعل هو يلعن الغراب شاتماً على حين أنعمَ على الحمامة ببركته.[٤٨]

هذه القصة عن الطوفان تختلف قليلاً عن قصة الطوفان التوراتية المأخوذة من قصة الطوفان البابلية المأخوذة من قصة الطوفان السومرية. والاختلافات واضحة في عدد أيام الطوفان، فالتوراة تذكر أربعين يوماً وليلة، أما الجبل فاسمه أرارات ولا تأتي التوراة على ذكر قصة الغراب كما في الكنزا ربّا بل تكتفي بعدم عودته إلى نوح.

رابعاً: الدور الرابع: نوح وأنهوريتا

البشرية الرابعة أو الدور الرابع للبشرية يبتدأ بنوح وأنهوريتا (أنهار، نوريتا، أنهر) وكان نوح، قبل الطوفان، قد أنجب منها إبنه شوم (سام) الذي انحدر المندائيون منه ولذلك فإن سام يحضى بأهمية كبيرة في الديانة المندائية.

ويعتقد المندائيون أن نوح، بعد الطوفان، اتّصل جنسياً بالروها التي أخذت مظهر زوجته فانجبت له ثلاثة أبناء هم (حام، يام، يافث) وهم أجداد الجنس البشري (من غير المندائيين) فحام أصبح أبو الجنس الأسود والعبيد، ويام أبو الشعوب البيضاء وإبراهيم واليهود ويافث أبو الغجر (الكاولية).[٤٩]

ويعّد الدور الرابع للبشرية هو أكثر الأدوار وضوحاً وتفصيلاً بسبب الأحداث الكبرى التي وقعت فيه وتدوين أحداثه.

سنروي التاريخ الأسطوري الذي دوّنه المندائيون عن هذا الدور ممثلين لبحثنا في المثولوجيا المندائية وهي تتغلغل في التاريخ أيضاً، وسيعيننا في ذلك كتاب (حرّان كويثا) وهو نموذج رائع

للكتاب التاريخي الأسطوري، لأن الأحداث التي يسردها لا يمكن أن تكون أحداثاً حقيقية بسبب الشحنة الأسطورية العالية المرافقة لها والمستوحاة أحياناً من العهد القديم أو من الروايات الشفاهية والخرافات المندائية التي تجعل هذا الكتاب نموذجاً للسرد التاريخي المثولوجي. كذلك سنستعين بما ورد في الكتاب المقدس للمندائيين (كنزا ربّا) وكتاب يحيى (دراشا إد يهيا) من أحداث تاريخية. وسنقسم هذا التاريخ الأسطوري إلى مراحل متابعة اعتماداً على ظهور الشخصيات الروحية الكبرى فيه والتي يعدّ ظهورها علامة فاصلة على تاريخ روحي أسطوري صبغ هذه المثولوجيا التاريخية ويبدو أن ظهور هذه الشخصيات كان يحاول ملأ الفراغ الروحي النوراني الذي تركه عدم وجود مرشد نوراني من عالم النور، فبعد ارتفاع هيبل وشيتل وأنوش في أدوار البشرية الأولى والثانية والثالثة ظلّ الدور الرابع خالياً من مرشد نوراني، نقول، ربما حاول هؤلاء ملأ هذا الدور.. وربما فسّر ظهورهم المتواتر هول هذا الغياب.

لا يستعمل المندائيون كلمة (نبي) أو (رسول) لمثل هذه الشخصيات الروحية، لأنهم ينفون نبوة الإنسان تماماً ويرون أن ما يسمى عند الأديان الأخرى بالانبياء هم معلمون ومصلحون طهّروا أنفسهم وهذّبوا أخلاقهم وازدادوا معرفةً وكشفاً وتذوقوا المعارف العليا والإلهية تذوقاً مباشراً، فهم يرون أنهم معلمون عرفانيون (غنوصيون) أو (مندائيون) وليسو بالأنبياء الذي يتنبؤن بالمستقبل أو يتلقون معارفهم عن طريق الوحي، وإذا ما وصفوهم بالأنبياء فإنما يقصدون ذلك أي أنهم معلمون يستمدون معارفهم بطريق الكشف والتذوق المباشر لا بطريق الوحي ولا بواسطة الاستنتاج والاستدلال. والتشريعات والكتب التي ينسبها المندائيون إلى هؤلاء المعرفيون لم يدعوا أنهم منزلة عليهم من الله وإنما هي من معارفهم بواسطة الكشف والفيض الإلهي ليس غير..»[٥٠]

أما (الرسل) فهم لا يعتقدون أيضاً بوجود رسول بشري بل حصروا أمر الرسالة بالكائنات النورانية فمندا إد هيي وهيبل زيوا وأدكاس هم الرسل الكبار لعالم النور وهناك رسُلٌ آخرون. ولعل أهم رسل الأرض هم الأربعة الأوائل (آدم، هيبل، شيتل، أنوش) لأن أصلهم النوراني الخاص هو الذي رشحهم لهذا. وبعد هؤلاء لم يظهر رسول في البشرية لخلوّهِ من أصل سماوي نوراني.

ولعدم تركيز وتعويل الصابئة المندائيين على النبوة والرسالة البشرية واعتبارهم عدداً من الأنبياء ناصورائيين مندائيين وكذلك لعدم نسبة دينهم وشرعهم إلى واحد معين من هؤلاء وإصرارهم على ضرورة وجود متوسط روحاني للهداية والإرشاد وتوجههم إلى الفيض الإلهي كمصدر للدين والمعرفة. كانت قناعتي بأن الدين الصابئي دين معرفي ينتسب إلى عائلة الأديان والمذاهب الغنوصية وليس هو من أرومة الأديان المنزلة.[٥١]

وها يعني أن الشخصيات التي سنذكرها ليسوا بالرسل أو الأنبياء بل هم عرفانيون أو ناصورائيون أو مندائيون عظام حاولوا إصلاح البشرية وظهر أغلبهم من بين صفوف المندائيين بسبب صفاتهم الخاصة وما خصّهم به عالم النور من عناية، ولكنهم لم يتلقوا وحياً بل نقّبوا في العرفان وكتب المندائية.

١ـ نوح: هدوء العاصفة:

كان نوح ونهوريثا (نوريثا) رأس الجيل الرابع للبشرية، وتعطي كلمة (نوح) معنى هدوء العاصفة، ويلفظ بالمندائية (نو) وحرف (ن) يدل على النور. أما (نهوريثا) فمعناه (نور).

في الميثولوجيا المندائية يتزاوج الزوجان الناجيان بصورة طبيعية، لكن المشكلة تكمن في تزاوج الأبناء، فهل يتزوج الإخوان من الأخوات؟

تقترح الأساطير المندائية أن الابن يتزوج من بنت نظير والده (دموثا) الموجودة في الدنيا الوسطى (مشوني كوشطة) أي أن سام ابن نوح يتزوج من بنت دموثا نوح في مشوني كوشطا وينجب منها أولاداً. والبنت تتزوج من ابن نظير والدها (دموثا) في الدنيا الوسطى. وبذلك لا يحصل تزاوج بين الأخ واخته. ثم يتكاثر الجنس البشري عبر زواج الأقارب هكذا. وقد حصل هذا مع بنات وأبناء آدم أيضاً.

في الأساطير الشعبية يبدو أن (هيبل زيوا) هو الذي أخبر نوحاً بأن العالم سيدمر بالطوفان، وقد قام نوح بجلب الأخشاب من حران وبنى السفينة واسمها بالمندائية (كاويله) أو (أنانا) رغم أن أنانا تستخدم كتسمية لسحابة النور أيضاً. ويبدو أن الطوفان جاء مباغتاً فتخلف (سام) عن السفينة لأنه كان يرعى أغنامه التي اكتسحها الطوفان بينما أسرع هو وأمسك بأطراف السفينة المغلقة فتسلق جانباً منها ومكث هناك على السطح، وكان هيبل زيوا يقوم بأطعامه يومياً، وفي

رواية أخرى أن سام أنقذ أغنامه لكنه لم يجد الوقت الكافي ليدخل إلى السفينة فصعد على سطحها ويشير ليدزبارسكي إلى أنه كان في أوائل الرسومات المسيحية، وجد الراعي الصالح مرسوماً قريباً من السفينة.[٥٢]

كانت إشارة الطوفان قد ظهرت لزوجة سام وهي تشعل القصب في التنور عندما أبصرت قصبة خضراء نابتة وسط النار، فقطعتها وأعطته لنوح فعرف أن الطوفان قادم فاستعد له وبنى سفينته بطول وعرض وارتفاع واحد هو (٣٠) قامة لكلٍّ منها.

٢ . سام: الساميون هم المندائيون:

يذكر كتاب يحيى أربعة نصوص مهمة عن سام بن نوح (سام برنو) هي النصوص ١١ ــ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤، وتشكل هذه النصوص حكاية متكاملة عنه.

يظهر سام وكأنه وحيداً يعظ ويرشد في هذا العالم الخاي من كائن نوراني يرشده فيتحمل هو هذا الواجب فيقول:

«هل ارتكبتُ ذنباً أو خطيئة، حتى جاء جيل العوز والنقص، جيل الخطيئة؟ حيث يعظم أبناء الظلام، فأصبحوا أعدائي. لقد نسيتني الحياة الأولى وكذلك الثانية، ولم تسألا عني، وقد ضمّني مأزقٌ كبيرٌ وانتابني قلقٌ شديدٌ لا ينتهي، وحلّ بي الحزنُ حدّ انسكاب الدموع»[٥٣]

كانت الروها وأصحابها يخططون لجرِّ سام (ابن المختار) إلى صحبتهم وجعله ينسى التعاليم السماوية وإلى إغوائه بالغناء وجعله ينسى الصلاة وأوقاتها وإلى جعله رئيساً عليهم وإلاّ سجنوه لكن سام رفض كل إواءاتهم وكشفها:

«اذهبوا.. اذهبوا يا أصحاب السوء، ستكون النارُ جزاءكم، فحديثكم لا يُجدي نفعاً، فإن كدتم لي كيداً، فعيناي ثابتتان لا تطرفان، وأذناي للدعاء والتسبيح تُصغيان والغناء الباطل لا تسمعان، وفمي يظلّ ممتلئاً بالتراتيل، بعيداً عن إيقاعات الظلم أما يدي التي منحت الصدقات فستظل طاهرة لم يدنسها القتل في هذه الدنيا الفانية قلبي الذي ينبضُ باسم الحياة العظمى لم تطربه آلات الطرب والغناء، ونسمتي التي ستستلم بالحق لا تسقط في النار المستعرة. جسدي لم يدنسه الزنى، ولم يسقط في فخِّ السبعة. ركبتاي اللتان سجدتا للحي العظيم لم تسجدا للأوثان والأصنام. قدماي اللتان سلكتا طريق الحق والإيمان لم تسلكا دروب الزور والمعصية. حافظتُ

على نقاءِ النفس. ما أرهبتني الحياة. فبالخير تذكرني. لم أخشَ الدنيا الزائلة. بحثتُ عن الحياة الكاملة المتقنة. رفعتُ إلى السماءِ عيني فتطلعتْ نفسي إلى دار الكمال والحياة المبجلة»[٥٤]

هكذا كان سام يقاوم الروها وأبناءَها كانوا يتربصون به ويقولون: «نصّفده بالأصفاد حتى لا يستطيع التطلع إلى مكان النور. نعزله في هذه الدنيا الفانية، ونهجره في الطرف القصيّ بعيداً عن عالم النور. نزيدُّ عليه السخطَ والغمَّ الذي سيجعله ينسى الخالق الذي خلقه، نكبله بسِّرنا العظيم الذي لم يعرفه المساعدون، نحجبهُ في سجن كبير، كلي ينسى التعاليم السماوية، ونلغي حبّه العظيم للربِّ حتى يسقط في عالمنا، ويعف لهجتنا وتعاليم سيدنا. نبتليه حدّ أن نحيّره ثم نثقله بالهم كي تغيب عن ذهنه وفكره التسابيح الليلية. نوقعه في حبائلنا حتى لا يرتقي إلى مكان النور والحياة العظمى»[٥٥]

لكن سام يقاوم كل ما يفعلون به ويقاوم الأشرار ولكنه بدأ يشعر بأنه غريب عن هذه الدنيا وليس أبناً لها وشبيهه (دموثا) ليس من العدم، حتى قام الجنُّ وتحدثوا بلغةٍ هادئةٍ أولاً ثم بتهديد وقالوا له:

«أيها الرجل الصفيّ ، أنت لا سيد لك، ولا سيدة. مكتظٌّ مكانك بالأشرار. وحيد ماذا فعلت؟ من شفاك؟ من كبّل الأشرار في حصنهم؟ من حرّرك وحطّم قيوكَ؟ من ساعدكَ وأزال عن طريقكَ الشراك، فكان لك منقذاً؟ الدنيا هجرها سيدها وتركها مهندسها، كلّ من اجتنبَ أفعالنا وحذرَ مكائدنا ارتقى إلى موضع النور، وأ،ت الآن بين أيدينا ستُكبَل بالأغلال وتُرمى في ظلام السجنِ، حيث لا يصل إليك مساعدكَ ولن يسأل عنك خالقك»[٥٦]

أصبح سام في حيرةٍ من أمره وبكى فجاءه رسول من الحي العظيم لينصره وسأله عن سبب أذاهم له فقال له: لأني أقمت الصلاة وأحببتُ أخوتي الأثري. فطمأنه الرسول بأن الحي الأزلي يعرف نواياهم وما عليه سوى الصبر حتى ينال عالم النور. وحين جاء أجل سام يمّمَ وجهه لربه وقال بأسىً:

«لقد حان أجلي، والتمسُ الذهابَ، ويخيفني الرحيل، ولا أعلم كيف يكون طريقي، فليس هناك أحدٌ تقياً كان أم مسيئاً، غادر ثم عاد كي أسأله عن الطريق، وكيف يكون؟ ليس هناك أحد من الكيّسين أو من المتمردين غادر الحياة ثم عاد، كي أسأله عن طريقي وكيف يكون؟

ماذا قدمتُ للذي وهبني؟ ماذا دفعتُ للذي دفعَ عني؟ أرتقي كاملاً مخلفاً الرواسب.. ليس هناك من أتى وسأل عني.. أرتقي طاهراً مخلفاً النجس.. ليس هناك من عاد وسأل عني وقال: انهض كي نتجول.. ماذا عرفتُ؟ وماذا دفعتُ؟ لقد سمعتُ كلاماً ملأ أُذنيَّ: كلّ من يحمل زاداً ويصل المعبر فسيعبرُ. وكلُّ من لا يحملُ زاداً فسيجلس مرتقباً حتى يشيب شعره، يأمل الذهابَ، كمن ينتظر موسم الحصاد في حقلٍ لا زرع فيه»[٥٧]

وحين هبط رسول الحياة طمأنه على أمور كثيرة منها أن لا يخاف لأنه تزوج من امرأة لا تحبه وهي زوجته التي تسمى (أنهوريتا) أيضاً وقد أجبت له أبناءً وقال له:

«لو لم تكن الزوجة في هذا العالم، لما خلقت السماء والأرض
لو لم تكن الزوجة في العالم، لما أشرقت الشمسُ، وما أنار القمر
لولا الزوجة ما كان ماءُ الحياة، وما تكوّنت البذور.
لولا الزوجة لما هبّت الريحُ وما اتقدت النار. فالزوجةُ كالماء والسماء والأرض والنار. وحين يكبر أبناؤك، يستمر اسمكَ في العالم ويبقى.. إنهم يقيمون الطقوس ويحملون جثمانك ويشيّعونك إلى مثواك الأخير، ويقرأون التراتيل لارتقائك، ومن أجلكَ يعطون الصدقات كي تُمنحكَ الثوابَ والمغفرة»[٥٨]

ثم يلقي رسول الحيّ عليه بعض التعاليم ويرفعه إلى دار الكمال.. إلى موضع الطيب الذي لا تغيب عنه الشمس ولا ينطفيء فيه سراج النور.

إن سام هو رأس سلالة المندائيين وهم يرونه أهم من نوع رغم أنهم يطلقون على نوح اسم المصطفى أو المختار. ويرى المندائيون أنهم الساميون الأصلاء ويضعون بقية الأقوام ومنهم اليهود أبناءً لنوح من الروها.

كان سام متزوجاً من (أنهر أو أنهوريتا) التي تعتبر أم المندائيين الساميين، ولزوجة سام تقدير خاص عند المندائيين.

وما زال المندائيون يتذكرون (سام) في تراتيلهم وقدّاساتهم الدينية ففي طقوس الفطائر يقرأ دعاء (طاب طابا الطابي) الذي يخص سام بن نوح ويسمى (طاب طا به الطابي واترس كنيانه الرهمي).

أما في قدّاس مسقثا (الصعود والارتقاء) فهناك ابتهال (شوم برنو) حيث يشير بعضه إلى نجاة

سام من الطوفان:

«ليكن ميعاد الحي للعارفين (المندائيين) الذين انتزعهم الموت من بين ظهرانينا. ليكن هو، سيدي مندا إد هيي، عوناً للمساكين والعارفين المتواضعين والترميذي. بالشكر تقبلنا طيب الحي، وطيبة الحياة ومندا إد هيي التي قَامت تضرّعاً على حياة سام. إن كل من يوهب الصدقة سوف يرافقه معروفه. إن المختارين والمسالمين الذين يوهبون الصدقة سوف يصعدون على دروب الكشطا. لقد منحهم المرء إكليل الأثير. إكليل الطلب والسماع والسرور والانتصار والطيبة والرفعة. إكليلاً من الكرم الطري سوف ينصب على رؤوس النفوس التي نادت خلال هذه المسقثا وأصبحت قائمة وأخذت الرسم.»[٥٩]

٣ . دنانوخت (هرمس، أخنوخ، إدريس)

يفردُ الكنزا ربّا اليمين الكتاب السادس لـ(دنانوخت) الذي هو هرمس الهرامسة أو ما يسمى بهرمس مثلث العظمة ويسمى في التوراة (أخنوخ) ويسمى في القرآن إدريس. وتنسبُ لهرمس المدونة الهرمسية (Corpus Hermeticum) التي هي العمود الفقري للغنوصية في العصر الهيلنستي.

وأخنوخ في التوراة هو ابن يارد بن مهللئيل بن أنوش وقد عاش خمساً وستين سنة بعد وفاة أبيه وولد متو شالح وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد(متو شالح) ثلاثمائة سنة وولد بنين وبنات، فكانت كل أيام أخنوخ ثلاثمائة وخمساً وسين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه»[٦٠]

وهذا يعني أن أخنوخ كان قبل الطوفان، لكننا لا نعرفُ من الكنزا إن كان دنانوخت قبل أو بعد الطوفان. ومن المرجح أنه ليس قبل الطوفان في سياق هذه الرواية، لأنه لا يُذكر مطلقاً أثناء البشرية الثالثة، ولذلك وضعناه بعد سام مباشرة، رغم قناعتنا أنه أحد رموز ما قبل الطوفان.

يصف كتاب الكنزا ربا دنانوخت بأنه جالسٌ بين المياه وأنه فقيه (حَبر) الدين الحكيم ودواة كتاب الآلهة والقوي والفخور والمترفع الذي ليس له سيد في بيته ولا يحتوي ملكه على قصور شاخة أو دوره السفلى على من هو أكبر منه سنّاً. إن كتبه مفتوحة على راحتيه أما كتاب (تذكار أخبار الأيام) فيثقل ساعديه بينما يعكف على كتبه الجديدة منكباً على الدراسة يستطلع المشورة

من الكتب القديمة ويمعن التفكير متأملاً مستنبطاً ومحاولاً الوقوف على فهم ما جرى في الماضي وما حدث في الحاضر وما سيقع في المستقبل. وحين كان دنانوخت في حالته هذه يسقط أمامه فجأة كتاب (ديصاي) الصغير في حجمه والكبير بأقواله والغزير بكلماته وكان من ضمن ما فيه وصفه للجحيم الأعلى (عبادين العليا) وهو الطبقة العليا من عالم الظلام حيث جاء كما يلي:

«إن هنالك حياة، تلك التي كانت قد نشأت منذ الأزل وهنالك كوشطا وقد كانت هذه منذ البدء في الطليعة. هنالك بهاءٌ وهنالك نورٌ. إن الموت موجود والحياة كائنة. ثمة ظلام وثمة نور. هنالك خطأ وهنالك حقيقة. هنالك دمار وهنالك بناء. ثمة بلاء وثمة شفاء. إن هنالك شخصاً سامياً متقدماً في السن وكان أسبق في وجوده من ذلكم الذي شيّد السماء والأرض»[٦١]

وعند ذاك ردّ دنانوخت على ديصاي بأسئلةٍ مضادة قائلاً له أين كل ما ذكرت؟ ثم انقضّ على الكتاب وأحرقه بالنار.

وتتكرر الحادثة ويسقط الكتاب مرة ثانية أمامه، ثم يغرقه بالماء، وتتكرر مرةً ثالثة فيترك ديصاي الصغير جاثياً أمامه من الفجر وحتى غروب الشمس. عند ذاك تأتي الروها وتدخل على دنانوخت في شكينته وتقول له:

«لماذا تستلقي هنا نائماً دنانوخت؟ لماذا تجد لذةً في النوم؟ أنا هي الحياة التي كانت قد نشأت منذ الأزل. أنا هي الكوشطا التي كانت منذ البدء في المقدمة. أنا البهاءُ وأنا النور. أنا الموت وأنا الحياة. أنا الظلمات وأنا النور. أنا الخطأ وأنا الحقيقة. أنا الدمار وأنا البناء. أنا البلاء وأنا الشفاء، أنا هو الشخص ذو المقام الرفيع الذي هو أقدم سناً وكان في وجوده أسبق من ذلكم الذي بسط السماء والأرض، ليس لديّ أصدقاء في صفِّ الملوك وفيما عدا ذلك ليس هنالك تاجٌ في مملكتي. ما من أحدٍ من الناس في وسعه أن يعطيني خبزاً في سحب ضباب الظلام»[٦٢]

ويبدو أن عالم النور قد أدركَ أن دنانوخت سيقع في شرك روها فبعث له رسولاً هو (دين ملخ ـ أثرا) الذي هبط عليه ورماه بركلات فأخرجه من جسمه وطلب من الرياح أن تأخذ دنانوخت تحت إبطه ومن العواصف أن تقذفه بعيداً ومن السلالم أن تصعد به إلى العلى حتى وصل إلى أول دارٍ من دور الموت السبع وهي:

١ دار عقاب أدنباز هيلا: وهو سيد الظلمات ومن أكبر سنادين الأرض حيث ينتصب

عرشه فوق شق تيبل وأقدامه جاثية على العبادين السفلى وأذيال معطفه تجرجر على البحور بأجمعها وتقدم الآلاف من الأصنام بخدمته، فأراد دنانوخت أن يصلي له فمنعه (دين ملخ ـ أثرا).

٢. دار عقاب زان هازازيانَ: وهو السريع والمقدام وملك الغيظ والشدّة والفساد. إن عرشه منتصب في باب السماء. إنه يرعى اللصوص وتعبده آلاف الأصنام، فأراد دنانوخت أن ينحني له فمنعه (دين ملخ ـ أثرا)

٣. دار عقاب إيفاذ ـ روها: وكانت هذه أم العذاب وقانانيت، أم الظلمات وأم سمّ العقرب الداخلي للظلمات، وتقف عندها سبع نساء وسبع عذارى صدورهن مكشوفة وثيابهن مفتوحة من الجوانب ويحيط بهن إكليل العار والبغاء وهن يأسرنا الآلهة والبشر وتقوم الآلاف من الأصنام على عبادتهن، وحين أراد دنانوخت أن يحني رقبته لهن منعه مرافقه.

٤. دار عقاب الرجل هيمون: الذي تخدمه عشرات الآلاف من الأوثان، وحين أراد دنانوخت أن ينحني أمامه منعه مرافقه.

٥. دار عقاب بثاهيل: الذي هو بدون بهاء والمقطوع عن عالم النور فقد غضبت عليه الحياة شاب رأسه ولحيته فصرخ: أنا الذي بنيت الأرض. إنه المتكبر الذي لم ينجز شيئاً بيديه.

٦ دار عقاب أواثر: ذلك الكهل السامي المستتر الحافظ وحوله الآلاف واقفين وجالسين ويرفلون بالبهاء والنور وعلى رأسهم أكاليل النصر ويقرأون قواعد الصلاة السرية والقّداسات والأدعية. وكان هناك الآلاف من العروش والثياب وعمائم النور فارتعد دنانوخت وشعر بالرعدة فسأله (دين ملخ ـ أثرا) عن سبب ذلك فقال له بأنه رأى كل هذا ورأى ما وصفه كتاب ديصاي.

يبدو أن هناك دارين أخريين نسيهما النصّ أحدهما للفساد ونعرف من معراج الروح إلى المطراثا في كنزا اليمين ٥ ـ ٣ أن تسلسل هذه الدور أو المنازل يختلف عن هذا التسلسل وهو كما يلي (الكلاب المسعورة، روها، زان هازازيان، يور وياهور وأرهوم، فلفين فيفين، أور، يوربا، كريفون ـ روها).

بعدها يقوم (دين ملخ ـ أثرا) بتوضيح ما حيّر دنانوخت وشاهده قائلاً له:

«هذه العروش يُحتفظ بها للأرواح (نيشماثا) التي لم يكن أبوها أو أمها قد وصل إلى هنا

بعد. بعد ألف سنةٍ سوف تنزل هي في سلالة الأب والأم. إنها سوف تخرج إلى العالم متخذةً قواماً من لحم ودم. إذا بلغت بعدئذٍ نهايتها وحان وقت فراقها فسوف تترك الروح هذا العالم وتتحلى بأغطية البهاء وتتغطى بعمائم النور الكبيرة وسوف تجلس على عروش السكينة وتقرأ في قواعد الصلوات السرّية والقدّاسات والأدعية الدينية»(٦٣)

وسأل دنانوخت عن العرش الذي سيحلّ فيه فأجابه الرسول أن ثوبه وعمامته نور وإكليله مصنوع من شجرة كرم لا تذبل أبداً، ثم أوصى الرسول دنانوخت أن ينزل إلى عالم الأشرار وقال له: إذهب واحرق كتبك بالنار وإلقِ سفر التذكرة في النهر. اخرج إلى العالم وانشد نشيد الحياة وعلم الصبيان طيلة ستين عاماً وستين شهراً. واذا بلغت من العمر عتياً فسوف تكرّ راجعاً وانت ترتدي ثوب البهاء.

فقال دنانوخت أريد أن أبقى فنصحه الرسول بأن يعود إلى الأرض ويعلم الصبيان. ثم يقول دنانوخت أنه بعد أن فتح عينيه رأى الناس حوله يبكون عليه فأمرهم بالانصراف وطلب من زوجته (نوريتا) أن تحمل كتبه وتلقيها في النار وتحمل سفر تذكار الأخبار وترميه في عرض الماء. فصرخت زوجته وقالت بأنه جُنّ، فما كان منه إلاّ وألقى كتبه في النار وفي الماء ومضى خارجاً إلى هذا العالم وصاح فيه صيحة الحياة وعلمّ الصبيان ستين عاماً وستين شهراً وستين يوماً. وعندما بلغ نهايته المحتومة وفارق جسده وصعدوا به إلى بوابة دار الحياة ودخل ولبس ملابس البهاء وإكليل الكرم الأبدي.

هذه القصة ذات معانٍ كثيرة فهي أولاً تتفق مع شخصية هرمس وإدريس وأخنوخ في أن دنانوخت. صعدَ إلى السماء. ثم أنها تحرض على تجربة الحياة وتعليم الناس بدلاً من العزلة والانكفاء على الكتب فقط.

الحكاية الشعبية التي أوردتها ليدي دراور في كتابها عن الحكايات والأساطير المندائية والتي ترد على لسان هرمز بن الملاّ خضر تتحدث عن مضمون مشابه ولكنها تضيف بعض المعلومات الطريفة.

المعلومة الأولى أن اسم زوجة دنانوخت (يسميه الراوي دنانوخ) هو (نوريتا) وهذا الاسم يتكرر بكثرة في التراث المندائي فهو رديف (انهوريتا) و(أنهر) وهو الاسم الذي أصبح مرافقاً لكل

الرجال العظام من شيتل إلى يحيى. وهذا يعني أنه اسم عام للأنوثة المقدّسة الذي يعني النور ومياه النور الأنثوية.

وترى ليدي دراور أن دنانوخ يذكّر بالكاتب العالم (نبو) في اللغة الآرامية (كابدوشن إيميرمس) وهنا نلمح اسم هرمس متخفياً في (أيمرمس) وهذا صحيح لأن هرمس هو دنانوخت. أما كتاب (ديصاي) فنرجّح أن له علاقة بالعرفاني الكبير (مار ديصان) الذي ظهر بعد المسيح بقرن مبشراً بالمسيحية الغنوصية وربما كانت تعاليمه مثار حساسية بالنسبة للمندائيين، فضلاً عن المسيحيين، ولذلك صار كتابه (ديصاي) مصدر تعاليم هرطقية. ويبدو أن دنانوخت ينزل لعالم الظلام أولاً ثم يصعد إلى عالم النور. وتقربنا رحلة دنانوخت الدائرية هذه من صورة هرمس (أخنوخ) أو (إدريس) الذي يرحل إلى أعماق طبقات الأرض ويرى الجحيم وأعماق طبقات السماء ويرى الفردوس ويكون مثالاً أولاً لدورة العود الأبدي وكاشفاً لعلوم السماء والأرض. بل أن هرمس هذا سيكون مصدر الهرمسية التي هي العمود الفقري للغنوصية.

وفي الرواية الشعبية لهرمز ملاّ خضر ترد إشارة غريبة في نهاية الرواية إلى أن دنانوخت هذا عبده السيخ فيما بعد وطابقوه مع زعيمهم الروحي (بابا ناناك). ومن المفارقة التي تعلق عليها دراور وجود قبر (غورو ناناك) في بغداد وصلاته بالصوفية (العرفانيين) وظهور التعميد وعقائد النور في ديانة السيخ، كذلك تلك الطريقة التي اختفى بها غورد ناناك غائصاً في الماء وذهابه في رحلة سماوية واتصاله بالذات الإلهية وتسلمه لقنينة مملوءةٍ بأكسير شراب يعطيه المعرفة الإلهية ثم عودته إلى الأرض وإنشائه لطريقته الدينية.

كل هذه الأمور تبين لنا أن (أسطورة هرمس) التي طالت أخنوخ ودنانوخت وإدريس وصلت أيضاً إلى غورو ناناك. وهو ما يوحي بتدحرج النظام الهرمسي من تلك العصور السحيقة في القدم حتى القرن الخامس عشر الميلادي حيث عاش غورو ناناك. وهذا جزءٌ من السعة الروحية المذهلة للهرمسية ونظامها الغنوصي.

إن مجمل أسطورة دنانوخت المندائية تجبرنا على إجراء مقارنة واضحة ودقيقة مع (سفر أخنوخ) الذي ظهر كأحد أسفار الأسينيين في مخطوطات البحر الميت، وهو ما سيقودنا إلى كشف الايقاع المشترك لهذه الأديان القديمة التي بقيت شذرات منها في أسطورة إدريس والتي انبثقت،

ذات يوم، من أسطورة الحكيم السومري ملك سبّار (إمْيدر ـ أنا) الذي استدعته الآلهة وسلّمته فن كهانة الفأل والعرافة (بارو) واسمها (سرّ آنو) أي (سر إله السماء) وأورثه لابنه.

وهل يجوز أن الصلة بين دنانوخت ونااك جاءت من قصة مشابهة وردت في كتاب ساساني متأخر اسمه (أردفي تاز ناماك) عن كاهن زرادشتي اسمه (تانسار) وهل أصبح (ناماك) موحياً باسم (ناناك).. ربما!!

٤ . بهرام (الناصورائي المختون):

ينظر المندائيون إلى (إبراهيم الخليل) نظرة مزدوجة فهم يعتبرون النصف الأول من حياته نصفاً ورعاً مؤمناً، فقد كان إبراهيم مندائياً اسمه (بهرام) تشبهاً بالأثرا الكبير (بهرام ربّا) وكان بدرجة ناصورائي وهي درجة كبيرة جداً لا يتفوق عليها سوى درجة (ريش أمه) التي كان أخوه (حران) عليها. وقد ابتلى إبراهيم بمرض جلدي اضطر معه إلى الانعزال ثم ختن نفسه لأن الدمامل ظهرت على غلفة عضوه الذكري ويعتبر هذا العمل مدعاة لأن تسقط الكهنوتية كلّها من بهرام، لأن المندائيين يرون أن الجسد يجب أن يكون كاملاً ولا يجوز بتر أي جزء منه وخصوصاً عند صنف الكهنة ولذلك لم يعد بهرام كاهناً ولم يعد طاهراً. وقد أُخرج من صنف الكهان عندما عرف بذلك أخوه الذي قال له إن الطاهر النقي لا يمكن أن يصيبه مرض وكان أخوه يعتقد أن هذا المرض جاء من عالم الظلام ومن الروها.

قرر إبراهيم مغادرة أهله والإقامة في الصحراء بسبب المرض الذي يحمله وبسبب كونه أُقصي من المصب الديني وبسبب عزلته، لكنّ مجموعة من الصابئيين غير المؤمنين والمجذومين والناقصين وأتباع (بصرانه إد سره) وهم مشوهو القمر، حيث كان القمر (سره، سين) يسبب العاهات فيعبده هؤلاء الذين لا يكون أحفادهم طاهرين إلاّ بعد سبعة أجيال. وغيّر إبراهيم دينه وعبد (يوريا) كائن الشمس.

من هنا بدأ النصف الثاني من حياة إبراهيم والذي يكرهه المندائيون ويعدّونه انحرافاً وابتعاداً عن دينهم، بل وارتماءً في عالم الظلام وكائناته.

إن (يوريا) هو أحد قوى الظلام لكنه يأتمر بأوامر قوى النور، فهو يختلف عن (شامش) الذي هو كوكب الشمس التابع لكواكب الظلام السبعة، إن يوريا هو ربّان سفينة الشمس. وهو

يدار من قبل عالم النور. وكان اليهود يعبدون (روها) وابنها (يوريا).

ويدأ إبراهيم حرباً من طرفه على المندائيين (الذين يحرّمون الحرب وسفك الدماء) وأرسلوا له فتحجج بقوة روها ويوريا وأذعن له بعضُ كائنات النور والروها لأن هيبل زيوا تزوج من (زاهرئيل) حين نزل إلى عالم الظلام.

٥ . أردبان وموسى :

لا تذكر المصادر المندائية هجرة الصابئة أو اليهود إلى مصر. ولكننا نعرف مباشرة أن مصر كانت مكوّنة من ثلاث فئات هي :

١. المصريون ويرأسهم الفرعون (بره) واسمه (فيروخ ملكا) ودينهم مندائي أو صابئي
٢. المندائيون ويرأسهم أردبان (أردبان ملكا) وهو أخ الفرعون (فيروخ ملكا)
٣. اليهود ويرأسهم موسى

ويبدو أن العلاقة بين اليهود من جهة والمصريين والمندائيين من جهة أخرى كانت سيئة جداً فكانت تقوم بينهم عداوات ومعارك.

ولا شك أن هذا التاريخ لا وجود له، وقد حاول كتّاب (حرّان كوثيا) تقليد التوراة، والتي هي أساساً لا تصلح كرواية تاريخية، ولذلك قدّموا تاريخاً خيالياً لا وجود له، فاردبان هذا إذا بحثنا عنه وقرّبنا صورته فسنجده في القرون الميلادية الأولى كملك فرثي لا علاقة له بالمندائيين لكنه، ربما، كان من أكثر الملوك تسامحاً معهم وعناية بهم لذلك وضعوه هذا الموضع الحسن في تاريخهم.

إن الاحتكاك السلبي بين المندائيين واليهود، والذي نرجِّح أنه حصل في وادي الرافدين بعد سقوط بابل، خلّف انطباعاً سيئاً عند المندائيين جعلهم يتقاطعون معهم في مصر وفي فلسطين في تاريخ منسوج ومحمَّل بالأحقاد.

لا يمكن، من الناحية التاريخية، أن يكون موسى قد خاض حرباً مع أردبان بسبب الفارق الزمني. يرى المندائيون أن موسى تربى مع الفرعون (فيروخ ملكا) وتعلّم من المعارف الصابئية. وكان اليهود يعبدون (روها) وأبنائها وخصوصاً (يوريا) الذي هو إله الشمس وربّانها.

وقد استطاع موسى بواسطة عصاه التي أعطتها له (روها) ومعرفته بالأسماء السرية أن يشق

بحر سوف (البحر الأحمر) ويفتح فيه طريقاً ليعبر مع اليهود حيث جمد الماء ووقف هو في وسطه حتى خرج اليهود إلى الجهة المقابلة، وحين جاء جيش الفرعون ضربَ الفرعون البحر بصولجانه (مركنا العصا الطقسية) فانشقّ الماء عن الأرض لكن قوى النور تكره إراقة الدماء فجعلت فرعون يعبر إلى الشاطئ المقابل دون أن ينتظر جيشه يعبر، وبذلك غرق جنود الفرعون بينما نجا فرعون وموسى واليهود. ولذلك يقيم المندائيون وجبة طقسية (لوفاني) على أرواح هؤلاء الغرقى اسمها (العاشورية). لكن هناك رواية أخرى لهذه القصة، فقد كان المندائيون في مصر تحت أمرة ملكهم (اردبان) قد خاضوا صراعاً مع (موسى) واليهود وقد رأى أردبان رؤيةً فقرر أن يغادرا مصر وأخذهم وخرجوا منها وعندما وصلوا البحر كان ساكناً فانفتح طريق على جانبيه جبال من الماء فعبروا في هذا الطريق وخرجوا من مصر، لكن (فيروخ ملكا) وهو أخ (اردبان ملكا) ملكهم ظلّ في مصر وحارب اليهود فيها وهزم ففرّ وحين وصل البحر كان طريق العبو فيه ما زال قائماً فعبر هو وجيشه، وعندما أصبحوا في منتصف الطريق انغلقت جبال الماء عليهم فغرقوا ما زال المندائيون إلى يومنا هذا يحتفلون بأقامة وجبة طقسية بهذه المناسبة اسمها (عاشوراء) حيث يهيئن وجبة طقسية في ذكرى غرق أجدادهم في البحر.

والحقيقة أن هذه الحادثة تشبه تماماً قصة فرعون والعبرانيين في مصر، ونرى أنها منقولة عنها مع تغيير اسم الفرعون بـ(فيروخ ملكا) الذي كان مندائياً وبعض التحويرات في الروايتين.

وحين خرج أردبان من مصر توجهّ في رحلة طويلة إلى ميديا وتحديداً إلى تلال ميديا (تورا مندائي) واستوطنوا هناك وتوقف موسى عن ملاحقتهم!!

والآن من هو أردبان هذا؟

تذكر المصادر أن هناك خمسة ملوك بارثيين يسمون ارتبانوس، ويفضل أغلب العلماء وخصوصاً ماكوخ والليدي دراور مماثلة أردبان مع ارتبانوس الثالث (١٢ ـ ٣٨م) ويعطينا هذا الاحتمال، إن صحّ، مدى ارتباك التواريخ التي وضعها المندائيون لتاريخهم وخصوصاً في كتاب حرّان كوثيا.

وبطبيعة الحال لا يمكننا الربط بين أردبان وموسى لأن بينهما أكثر من ألف سنة. لكننا نستطيع الاستمرار لأننا بصدد تاريخ اسطوري لا يمكن أن نثق بأحداثه وبتسلسلها ولكننا يجب أن نعرفهُ.

وتذكر بعض اأساطيرهم الشعبية أن اليهود هم أبناء آدم ابن آدم من الروها وأنهم بعد نوح كانوا أبناء نوح من الروها أيضاً وأنهم هاجروا إلى اورشلام التي سموها (اوهر شالام) أي (الصراط الكامل) وبعث لهم ملك النور بطاووس ملك ملك (الملك الطاووس) وهو يوشامن (الحياة الثانية) فكتب لهم التوراة (العهدالقديم) ولم يكن لهم كهُان ولذا وضع (أنوش أثرا) بذوراً في نهر الأردن فشربت النساء اليهوديات الماء وحملن وولدن ٣٦٥ كاهناً. ويرون أن (موسى) هو (كيوان) أو زحل وأن ابراهام هو (شامش).

٦ . طور مندا :

عندما وصل أردبان إلى طور مندا كان معه (٦٠) ألف ناصورائي ، وهناك أقاموا في (هوران) التي ربما كانت (حرّان) أو (حوران) السورية.

وكان العالم (سيكال) قد رفض تماماً فكرة هجرة المندائيين من الغرب إلى الشرق على الإطلاق وأعلن أنه مهم جداً التفكير بأنه من الحماقة أن تفكر فرقة تدين بالمعمودية بالماء الجاري يمكن أن تقيم حتى ، وإن ذلك فترة قصيرة ، في مدينة حران ، ذلك المكان المشهور بفقره للمياه.[٦٤]

ونرى أن الاسم الدقيق لـ(**mandai - Tura d**) هو (طور مندا) وهو يشبه طور سينا ، ولا نميل إلى ترجمته بتلال ميديا ، مثلما لا نميل إلى اعتبار هوران مطابقة لحرّان.

لقد أثارت مشكلة (حرّان كوثيا) جدلاً واسعاً بين العلماء ويبدو أن واضعي كتاب (حران كوثيا) كانوا يريدون وضع جذور لما سمي فيما بعد بـ(صابئة حرّان) وهذا ما جرّ علينا كارثة تشويه كبير في تاريخ المندائيين.

تقول الأساطير التاريخية الشعبية أن أردوان كان معه (٦٠) ألف مندائي انفتح لهم جبل شاهق فدخلوه واحتموا فيه فانطبق عليهم ليحميهم بحيث أن موسى وجيشه حين قدم إلى (طور إد مداي) لم يستطع اجتياز الجبل فعاد إلى اورشليم ولم تتمكن الكواكب السبعة من التأثير على المندائيين.

ويبدو أن المندائيين ، حسب رواية حرّان كوثيا ، سكنوا لفترة طويلة في طور مندا ثم هاجروا ، لأسباب لا نعرفها ، إلى فلسطين والأردن وسكن بعضهم أورشليم ، وفي أورشليم سيمنحهم عالم النور معلماً عظيماً هو (يهيا يهانه) الذي ظهر من عائلةٍ يهودية وأصبح يبشر بالمندائية ، وهذا

مفارقة ملفتة للإنتباه وتثير هي الأخرى حرجاً في التاريخ المندائي.

٧. يهيا يهانا (يوحنا المعمدان، يحيى):

كانت الكواكب السبعة (أبنة الروها وأور) كائنات الظلام قد بنت مدينةً في فلسطين اسمها (أورشلام) أو (أورشليم) نسبة إلى أور والدها ومعناه (أور السلام). وقد استدعت الروها موسى وأتباعه من اليهود للسكن فيها.

وفي وسط اليهود، وبينما كان الكهنة اليهود مجتمعين في بيت المقدس دخل عليهم (أليزار) وقال لهم:

«لقد كانت رؤيا عندما اضطجعتُ، ولم أكن قد غفوت بعد، ولم أكُ نائماً.. أتى كوكبٌ، وأقام عند (أنشبي). اتّقدت نارٌ عند باب (أبا صابا زكريا).. ظهرت ثلاثة أسرجةٍ من نار عند المعبد.. ملأ الدخان بيت المقدس، علا ضجيج، اضطربت حكرة المركبات، مادت الأرض، إنشطر نيزك في سماء اليهود، وآخر فوق اورشليم. أشرقت الشمس في الليل، والقمر أضاء في النهار ولّما سمع الكهنة ذلك حثوا التراب فوق رؤوسهم»[٦٥]

ثم طلب منهم أن يفسروا هذا الحلم واقترح عليهم أن يذهبوا إلى واحدٍ من أربعةٍ من مفسري الأحلام وهم (ياقف، بنيامين، طاب يومن، ليلوخ) فاختاروا ليلوخ لأنه يملك (صحيفة السماء والأرض) التي غالباً ما يكون فيها كلام الأرض موضحاً، ويبدو أن هذه الصحيفة هي كتاب تفسير الأحلام. وحين ذهبوا إليه جاء مسرعاً وهو يحمل هذا الكتاب وفتحه وقرأ وعرف التفسير وكتمه في قلبه ثم كتب لهم رسالة قال فيها ما ورد في الصحيفة: الويل لكم جميعاً أيها الكهنة، إذا ما ولدت (أنشبي) مولوداً في أورشليم. ويل لك يا معلم الصغار، وويل للتوراة، إذا ما ولد يحيى في أورشليم.

قرأها أليزا وأعطاها لزكريا زوج أنشبي ثم أوصاه بأن لا يؤجج نزاعاً في أورشليم مع اليهود فصفعه زكريا وقال له هل جاء ذلك في التوراة وهل تلد أنشبي بعد كل هذا العمر وأنا لم أقرب منها منذ ٢٢ عاماً فلماَ تصدقون كل شيء. فهدأه الكهنة وقالوا له أن الأحلام التي رأيناها تقول إن يحيى يجيء ويصبغُ في يردنا، وسيكون نبياً في أورشليم. ولما خرج زكريا تبعه أليزار ورأى ثلاثة أسرجة تسير معه فسأله عن هذه الأسرجة فأجاب زكريا بأنه لا يعرف من تحرس. وجاء الكهنة

لزكريا وقالوا له إذا ما خُلق مولود في السماء العالية ووهب لك وأنت في شيخوختك فهذه إرادة الحي العظيم وسيولد (يهانا) ويقوم بالصباغة في يردنا وسنصطبغ بصباغته ونرتسم برسمه الطاهر. ثم قالوا له: «يا أبا صابا زكريا نقولُ لك ولأبنكَ ولآبائك الذين أتوا بكَ إلى الوجود إن موسى بن عمران كان من نسبك وبنيامين وشلي وشاليبه من سلالتك. إبراهيم من سلالتك، رامش ومهرمن من سلالتك، رابين ويهودا من سلالتك، ازيرب وأرازي من سلالتك، وهم الذين بنوا قبة معبد الكهنة. هاني وهناني كانا من سلالتك، صاب من سلالتك وهو الذي كتب التوراة. طوس ربّا راما وشمؤيل وراب هناني وبني ريسه وطاب يومن معلم الصغار كانوا من سلالتك، كذلك بريخه وشهريري. كلّ كبير منهم صار لك إبناً. وإن الأنبياء جميعهم في أورشليم. إذن سيولد لك نبيٌّ ويرى الأسرةَ التي ينتسب إليها. إن يهانا سيأتي إلى الوجود، وينادى به نبياً في أورشليم، وسيكونه لنا الشرف أن نصطبغَ بصباغته، ونرتسم برسمه الطاهر، ونتناول منه الخبز المبارك والماء المبارك ونرتقي معه إلى حيث النور»[٦٦]

يقول يحيى أن كائنات النور أحضرتني من حوض يردنا ورفعتني ,القتني ي رحم أنشبي ومكثتُ تسعة شهور في الرحم، مثلما تمكث الأجنّةُ، ولم تكن هناك قابلة ماهرة من اليهود لتسعفني عند الولادة، كما لم تكن هناك من هي قادرة على قطع الحبل السريّ، لتفصلني عن الرحم في أورشليم. لقد ولدتني أنشبي في أورشليم.. قرية الكهنة التي يقيمُ فيها أليزار الكاهن الكبير.[٦٧]

هكذا بعد مرور تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق ولدت (أنشبي) وليدها وأراد اليهود أن يسمّوه اسماً يهودياً ولكن أ، شبي اسمته (يهيا يهانا) لأنه منح الحياة من الحياة. فغضب اليهود. وجاء (أنوش أثرا) وأخذه وحمله إلى (فرات زيوا) وهو النهر السماوي الذي يقابل اسم الفرات الدنيوي ووصل إلى جبل بروان الأبيض ووضعه تحت شجرة تحملُ أثماراً تشبه الأثداء. وأخذ يحيى يتغذى من حليب هذه الشجرة. ثم أرسلت إليه (سوفان لوليتا) للعناية به ثم قدم إليه أحد الأثرا لتعميده في اليردنا. وعلّمه الأبجدية وجلب كتاب الأرواح (سدرا إأد نشماثا) ووضعه بين يديه وعلّمه القراءة والتلاوة ومسالك بيت الحياة. وحين بلغ يحيى الثانية والعشرين عاماً أتقنَ كلَّ الأحاديث وتعلم الحكمة وألبسوه رداءً وكسوه سحاباً وأعطوه هميانة الماء المضيء،

ثم وضعوه في سحابة (أنن زيوا) وأرسلوه إلى الأرض فوصل خلال سبع ساعات ثم صعدوا به إلى أورشليم فنادى هناك فاقترب اليهود منه وأسرعت (لباشي) وأخبرت أنشبي قائلة:

«جاء نبيٌّ إلى أورشليم، وحيداً يعيشُ، ومنقذاً. فمه يشبه فمكِ، وشفتاه تشبهان شفتي أبا صابا زكريا، أنفه يشبه أنفكِ ويداه تُشبهان يدي أبا صابا زكريا.خرجت أنشبي مسرعةً حاسرة الرأسِ، وإذ رآها زكريا طلب أن يتركوها، رأى الملاكُ أنوش أثرا، كيف أقبل يهيا يهانا ملهوفاً معانقاً أنشبي ومقبلاً إياها قبلةً وحيدة في الفم. قال ليهيا في أورشليم: هل كُتب في كتابك وأوضح في سجلكَ أن يقبِّل أحدكما الآخر من الفم؟أجاب يهيا: مكثتُّ في رحمها تسعة شهور مثلما يمكث الجميع، ولم أثقل عليها والآن هل تتعذر عليّ قبلة واحدة من فمها؟ طوبى، ثم طوبى للمرء الذي يبرُّ بوالديه ويكافئهما، فليس له شبيه في الدنيا. وإذ قال يحيى ذلك أدرك أنوش أثرا أن يحيى حكيم»[٦٨]

بدأ يحيى يعظ في أورشليم، ولم ينتبه الكواكب السبعة لقدومه ثم سألوا عنه وقالوا له بقوة من أنت تسبح فأجابهم: بقوة أبي. وكشف لهم عن عقيدة الحياة وعن زهده في الخمر والنساء واللحوم والورد والجسد وتمسكه بالتراتيل والصباغة (التعميد) والرسم ا لطاهر فجاملته الروها ورحبت به.

صدّقت تعاليم يحيى إثنان من النساء والدته (أنشبي) وامرأة تدعى (مرياي) فسألته والدته عن الذين يشبّهونه باليهود في أورشليم فأجابها لقد بطلت الأقاويل في أورشليم والناس بأت تتبع تعاليمي فالزناة تركوا الزنى ولم يعد الناس يقدمّون النذور وأوقف التجار تعاملهم مع اليهود ونساء اليهود لم يعدن يلبسن ألبسةً برّاقة. وتوقف الماءُ في الجداول وسجدت طيور السماء والأسماك باسم الخالق.

هكذا انتشرت سمعة يحيى ومواعظه وجعل الناس يأتونه من كل صب وكان يصيح بالقائمين على الباطل: تعالوا فقد وضحَ الدربُ أمامكم.. وكان الناس واليهود يجادلونه وكان يحذر من المرأة النجسة التي يرى أن جبل الظلام يبتلعها ولا تعبر بحر الزوال العظيم روحها بعد الموت وهي تلد أبناءً موتى وتحلّ عليها لعنة السماء والأرض وكان يحث على التطهر بالماء بعد الاتصال بالزوجة. وكان يحذر من الزواج بغير المندائيات ومن شرك النساء ومكائدهن فيقول (جميع الحفر

زائلة إلاّ الحفر التي تحتفرها النساء فإنها تظل فاغرةً كما كانت منذ آلاف السنين).

ذكر كتاب كنزا ربّا اليمين/ القسم السابع مجموعة من الحكم والنصائح التي أدلى بها يحيى بن زكريا، وهي مجموعة ثمينة من الوصايا والحكم التي تذكرنا بوصايا لقمان ووصايا أحيقار الآرامي/ الآشوري. وأغلبها يدور حول مبادئ الحكمة والدين وحول الآثمين والكاذبين والحمقى (إن كلمات الحكيم إلى الأحمق هي كالمرآة للأعمى) (إن المكّار يشبه حفرةً مغطاة) (الحكيم المهمل كالبيت بلا سقف) (الحكيم المتكبر يشبه المرآة غير الصقيلة) (الرشيد الذي لا يحترس كالسفينة بلا ربّان) [٦٩]..إلخ

وكان يحيى يؤكد على (الصدقة العظيمة) التي يراها أفضل من الزوجة والأبناء ويراها مثل المعبر على نهر الحياة وكان يوصي بمحبة ملاك الأحد (هبشبا) الذي وضع معبراً على البحر الذي تقف الألوف عند ضفافه وتعبر روح واحدة من كلّ ألف روح.

كان يحيى في سجال دائم مع اليهود ويحذّر منهم فهو يقول (ويلٌ لكَ من هذا العالم الذي يطوّقه اليهود) وكنوا يسألونه دائماً عن أمور فقهية ودينية تدور حول مصير الخاطئين والسارقين وكان يجيب بطلاقةٍ وصراحة ضد كل السوء والشرّ.

ولذلك قرر الكهنة اليهود الحاضرين في إحدى حلقات وعظه في بيت المقدس مواجهته فقالوا له (يا يحيى ابتعد عن مدينتنا، اخرج يا يحيى، فبحديثك اهتزّ المعبد، وبتراتيلكَ مادَ بيت المقدس، وبتعاليمك ووعظكَ اضطربت قبّة الكهنة) فأجابهم (أوقدوا ناراً وأحرقوني واشهروا سيفاً وقطعوني) فردوا عليه (النار لن تحرقك والسيف لن يقطعك ما دام اسم الحي منطوقاً عليك). ثم تراجعوا عن قرارهم.

ذات يوم كان يحيى يعمد (يصبغ) على ضفة يردنا فجاءه عيسى بن مريم وطلب منه أن يعمّده فرفض يحيى ذلك لأن عيسى هزأ بكهنة اليهود ودعى إلى الرهبنة التي تقطع النسل وتحرّم الزواج فأنكر عيسى ذلك، وأراد يحيى أن يمتحن عيسى ويتأكد من أهليته الفكرية والدينية فقال له:

«الأخرس لا يصبحُ معلماً، والأعمى لا يكتب رسالةً وبيت الخراب لا يتألق. الأرملة لا تصبح عروساً والماء النتن لا يتضوّع طيباً والحصى لا يترطب بالزيت»[٧٠]

فأجاب عيسى بعكس ما قاله يحيى فطلب يحيى من عيسى أن يوضح له ذلك فقال عيسى في أورشليم: «الأخرس يصبح معلماً.. المولود الذي يأتي ينمو ويتكلم ويصبح كبيراً يمنح الصدقة ويكسب الأجر. الأعمى يكتب رسالةً، ابن السوء إذا حسنت أخلاقه وترك الزنى والسرقة وآمن بالحي العظيم. بيت الخراب يتألق إذا رقّ ابن الحياة وهجر القلعة وبنى بيتاً عند الشاطئ وجعل له بابين، فَمنْ جاء من سُفلٍ فتح له باباً وقابله، ومن جاء من علٍ فتح له الباب الآخر وقابله، فإن طُلبَ طعاماً أعدّ له المائدة بالحقّ وأن طُلب ماءً سقاه، وإن أراد النوم جهز له فراشاً وإن طلب الرحيل أرشده إلى طريق الحق والإيمان وارتقى متطلعاً إلى موضع النور»[٧١]

وأثبت بقية الحالات عن الأرملة والماء الآسن والحصى عن طريق أجوبة رمزية. ثم طلب عيسى من يحيى أن يصبغهُ متعهداً أن يذكر ذلك في وثيقة وأنه مسؤول عن خطاياه. عند ذاك هبطت رسالة من بيت أواثر تقول:

«يا يحيى اصبغ المسيح. اصبغه في يردنا، واصعد ضفة النهر، حيث الروح تمثلت في حمامةٍ رسمت صليباً فوق يردنا ولوّنت الماءَ بألوانٍ متعددة، وقالت ليردنا: أنت قدّستني، وقدّست أبنائي. فالماءُ الجاري الذي اصطبغ به المسيحُ أصبحَ له ماءً مقدساً، والخبزُ المبارك الذي تناوله أصبح روحاً للقدس والماء الذي شربَ منه أضحى قرباناً»[٧٢]

وهكذا عمّد يحيى المسيحَ (وكتاب حرّان كويثا لا يشير إلى ذلك). ويرى المندائيون أن السيد المسيح كان ناصورائياً (أي مندائياً) ويرد ذلك في كتاب حران كويثا الذي يقول بأنه كان على ملّة الناصورائيين المندائيين وأنه بعد أن تعمّد على يد يوحنّا المعمدان خرج على ملّتهم واتّخذ له ملةً جديدة.

وكان يحيى يخشى الزواج من امرأةٍ لأنه قد يلهيه أداء الطقوس وينسيه الخالقَ ويزول اسمه من ذاكرته وتنقطع صلاته، ولكن السماء أرسلت له رسالةً تحثه فيها على الزواج شرط أن لا ينام مع زوجته يومي الأحد والخميس. فتزوج يحيى من امرأة تقيّة تسمى (أنهر) ولدت له في الحمل الأول توأماً من ولد وبنت هما (هندام وشارات) وفي الحمل الثاني توأماً آخر من ولد وبنت هما (بهرام ورهيمات هيي) والتوأم الثالث مكوّن من أربعة هم (أصاب وسام، وأنهريوا وشار) فطلب من زوجته أن تعلم بناتها عدم الخنوع وتعهد أن لا يكون أولاده منغلقين.

طلب يحيى من زوجته في حالة موته، أن تأكل وتشرب بعد اليوم الأول من الوفاة وأن تغتسل وتمشط شعرها بعد شهر وأن ترتدي ملابس جديدة بعد سنة. وتعهدت زوجته بأن لا تنساه بعد وفاته.

كان الأثري والملائكة يهبطون على يحيى دائماً، وذات يوم كان يحيى يتكلم عن الشمس المحاطة بهالاتها والقمر الذي في طور الخسوف ورياح الدنيا الأربع التي تمسك الواحدة بالأخرى فلا تكون هناك حركة للهواء. هذه الإشارات الثلاث للشمس والقمر والرياح كانت إشارة من إشارات اقتراب نهاية يحيى وموته. ولذلك هبط الملاك عليه في أورشليم وقال له بأنه سيجلب له ثلاث تيجان تلائم العوالم كلها، وسأحضر لك قارباً من مؤخرة السفينة التي تشق عباب يردنا لكي تصعد بهذا القارب إلى الأعلى وطلب منه أن يذكره بخير أمام الحيّ العظيم. وهكذا اقتربت نهاية يحيى فهبطت رسالة وضعت بيد اليهود فقرأوها وسلّموها إلى يحيى وقالوا له هذه رسالة الحق، رسالة السماء التي جاءتك من آبائك. ففتحها وقرأها وقال: هذه النفس ترغب في الخروج من جسد يحيى الفاني. وعلى سفح جبل الكرمل قرأ الرسالة السماوية لياقف وبنيامين وشومئيل.قال مندا إد هيي المرسل من السماء:

«أتيتُ إليكِ أيتها النفسُ التي بعثك الحيّ الأزلي إلى الدنيا الفانية، وأرسلكِ بلباس الحياة العظمى. وأنا طوّفت حول الدنيا، وبردائي ذي القطع السبع أتيت إلى هذا العالم، أما الثامنة قد أمسكتها بيدي، ولن أتركها ما دمت حيّاً، حملتها لتكون شهادة حق. لماذا بكيتم الأجيال؟ لماذا بكيتم الأمم؟ مجدكم زائل، أنا لشبيهي قادم»[٧٣]

والحقيقة أن كلام مندا إد هيي هذا كلام رمزي محير فلا نعرف على وجه الدقة ما الذي يقصده بالرداء ذات القطع السبع، ولا نعرف ماذا تعني القطعة الثامنة التي أمسكها بيده والتي كانت هي شهادة الحق التي تذكرنا بتلك التي جاءت ووضعت بيد اليهود والتي أنبأت عن قرب موت يحيى!!

في أسطورة شعبية دوّنتها الليدي دراور عن رواية شفاهية حول قيقل والدرويش ابراهام تذكر في نهايتها وفاة يحيى، ونرى أن تلك القصة لا علاقة لها بوفاة يحيى فقد أُقحمت في آخرها إقحاماً. ولكنها تذكر كيف أن مندا إد هيي جاء إلى يحيى الذي كان يعمد على النهر بهيئة طفل

عمره ثلاث سنوات وطلب من يحيى أن يعمّده فدهش يحيى من هذا الطفل واعتذر عن تعميده لأنه تعبٌ ويريد النوم، فطلب الطفل من يحيى أن يخرج حالاً من النهر فلما خرج نظر إليه بتفرسٍ فنام يحيى فوراً على شاطيء النهر. وقضى يحيى في نومه لمدة نصف ساعة، ما يعادل نوم اثنتي عشرة ساعة. وحين استيقظ طلب منه الطفل أن يعمّده، فدخل يحيى النهر وحين خطا الطفلُ خطوة في الأردن ارتفع الماءُ كالجبال وتراجع أمامه تاركاً الأرض جافة ورفعت الأسماك رؤوسها من الماء وشرعت تصلي.

صاح يحيى: أنت لست بصبيٍّ: إن الماء يفر من يديك ويهرب منك. وكانت الطيور تحوّم فوق رأسيهما مكررة أسماء الله ويوخاور زيوا ومندا إد هيي. فتوسل يحيى للطفل أن يكشف عن شخصيته. حينها قال الطفل أنا مندا إد هيي.

أخذ الطفل يد يحيى بيده، وغادرت روح يحيى جسده على شاطيء النهر وصعدت تاركةً جسده في الماء وقد حطت الطيور فوقه وبدأت تنهشه، فظلت روحه تتفرس في جسده، ثم أخذ مندا إد هيي قبضة من التراب وألقاها فوقها فغطاها، ومنذ ذلك اليوم أصبح ذلك المكان، في الأردن، قبر يحيى.(٧٤)

ويذكر هذه الحكاية الباحث وليام براندت في كتابه (الديانة المندائية) الصادر في ١٨٨٩ ص١٣٨ .وبطبيعة الحال فأن الرواية المندائية لسيرة يحيى تختلفُ عن الرواية اليهودية أو المسيحية اختلافاً كبيراً فالرواية اليهودية لجوزيفيوس في كتابه (العصور القديمة **Antiquitics**) الذي وضعه في عام ٩٤/٩٣ للميلاد باللغة الأغريقية يذكر أن يوحنا المعمدان كان رجلاً طيباً فاضلاً يدعو اليهود إلى الالتزام بالنزاهة والعدالة بينهم والتقوى تجاه الله وكان الناس يحبون وعظه وتعميده في الماء، فعزم هيرود الحاكم الروماني لفلسطين أن يعتقله مقيداً ويسجنه في قلعة مارخوس وهي قلعة جبلية في بيريه تقع قرب الضفة الشمالية الشرقية للبحر الميت وقتله هناك في حدود (٢٨ ـ ٣٠) م. أما الرواية المسيحية عنه فلا تتحدث عن طفولته بل مرحلة نضجه ووعظه وتعميده الذي «مارسه مع اليهود وغير اليهود أيضاً، وأنه كان يجري لمرة واحدة، إذ لم يذكر أنه كان يعمّد الشخص الواحد أكثر من مرةٍ وكان يحيى لا يُلزم من يرغب في التعميد بالمرور بفترة إعداد خاصة كما كانت تفعل طائفة البحر الميت، وكان التعميد يجري في نهر الأردن أمام مرأى

الجموع التي كانت تحتشد طلباً لتعميده وما ينطوي عليه من غفران، ويختلف تعميد يحيى في كونه لا يطلب ممّن يرغب في التعميد أن يختتن أولاً ويقدّم قرباناً للهيكل ثم يتعمّد كما هو الشأن لدى اليهود عند تعميد من يريد اعتناق اليهودية. وتميز تعميد يحيى كذلك في كونه طقساً دينياً يقدم عليه الفرد طواعية بغية التخلص من خطاياه على يد شخص له منزلة كبيرة في النفوس. ولم يردنا ما يؤكد أنه كان يمارسه من أجل تجنيد الناس في طائفة خاصة به، إلاّ أن أعداداً متزايدة من الناس، يهوداً أو غيرهم، ينسبون أنفسهم إليه ويلتزمون بوصاياه ويعدون أنفسهم من أتباعه»(٧٥)

ويوضح إنجيل مرقس نهاية يوحنا (يحيى) كما يلي:

«لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبُّس أخيه إذ كان قد تزوج بها. لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحلّ أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ول تقدر. لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجلٌ بارٌ وقديس وكان يحفظه. وإذا سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور. وإذا كان يوم موافقٌ لّما صنع هيرودس في مولده عشاءً لعظمائه وقوّاد الألوف ووجوه الجليل دخلت إبنة هيروديا ورقصت. فسرَّت هيرودس والمتكئين معه فقال الملك للصبية مهما أردتِ اطلبي مني فأعطيكِ. وأقسم لها أن مهما طلبتِ مني لأعطينك حتى نصف مملكتي. فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلبُ. فقالت رأس يوحنا المعمدان. فدخلت للوقت بسرعةٍ إلى الملك وطلبت قائلة أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنا المعمدان على طبقٍ. فحزن الملك جداً. ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها. فللوقت أرسل الملك سيّافاً وأمر أن يؤتى برأسه. فمضى وقطع رأسه في السجن. وأتى برأسه على طبقٍ وأعطاه للصبيّة والصبية أعطته لأمها. ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبرٍ»(٧٦)

هذه النهاية غير واردة إطلاقاً في التراث المندائي. وهناك في كتاب يحيى تعارضات كثيرة بين المدن والأماكن، ففي الوقت الذي يتكلم فيه عنه الفرات ذكر في ذات المكان مدينة أورشليم. وأحياناً يبدو يحيى وكأنه عند الأهوار وهكذا. ونرى أن شخصية يحيى التي لا تذكر مطلقاً في نصوص السحر والعرافة الموجودة على الأوعية الفخارية الاركيولوجية تظهر للوجود بعد القرن الهجري الأول أي في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع للميلاد وهو ما يشير في رأينا إلى إمكانية تبنّي هذه الشخصية لاحقاً وضمها إلى التراث المندائي تحت ضغوط إسلامية أو مسيحية

وهو ما سنناقشه مفصلاً في مكانٍ آخر.

٨ . مرياي:

عُرفت مرياي بأنها الأميرة البابلية التي هجرت اليهودية وانضمت إلى المندائية. وقد شهدت هذه الأميرة حلقات وعظ يحيى، أي أنها عاشت في النصف الأول من القرن الميلادي الأول. ويرى ليدزرارسكي أن اسم مرياي «هو تحوير لغوي من مريام وماريام كما هو مألوف عند المندائيين والكسائيين على السواء.»[٧٧] بيد أنني لا أعتقد البتة بأن ميرياي هذه لها علاقة ما قريبة بإحدى الماريات اللاتي وردَ ذكرهن في الإنجيل. ولكن لئن تحمل هذه البطلة اسماً كان الأخصّ في زمن يسوع المسيح مفضلاً ومحبوباً من قبل اليهود فلا بد من أن تكون لهذه الأسطورة من نواةٍ حقيقية.

وكان بعض الباحثين قد اتخذ من اسم مرياي دالة على السيدة مريم والدة المسيح. وتذكر الأساطير الشعبية قصتها على أنها كانت ابنة الملك البابلي الكلداني نبوخذنصّر التي هجرت ديانة قومها وأصبحت يهودية، وحين ذهبت مرياي إلى أورشليم سكنت في بيتٍ كان مجاوراً لمعبد ناصورائي ففتحت في الجدار ثقباً وغطّته وبدأت تتعرف على الديانة المندائية وأسرارها فتعلمت مرياي العقيدة السرية وحفظت ما سمعته من كتاب الكنزا ربّا. وكان للناصورائيون (فقهاء وعلماء أسرار المندائية) علمٌ سري يتلونه بهمس وخفية يومي الأحد والخميس من كل اسبوع، وحين بدأوا، ذات مرة، وكانت مرياي تراقبهم شاهدت ضوءاً يهبط عليهم ويغشاهم وهو يغدو ويروح، معطياً وآخذاً، بينهم وبين السماء.بقيت الأميرة في أورشليم وانبهرت بهذه الديانة السرّية ولم ترجع إلى بابل. وذات مرة استراح الناصورائيين بعد أداء هذه الطقس الخاص في الحديقة لكن أحدهم ظلّ يقرأ تلك النصوص السرّية بصوتٍ عالٍ فدونتها الأميرة وحفظتها. لقد كان هؤلاء الناصورائيون يتخاطبون مع عالم الأنوار وكائناته ومع مشوني كوشطا وساكنيه مثل آدم كاسيا. كانت مرياي تردد ما حفظت بخشوع حتى نزل على وجهها نورٌ وتحدثت مع عالم الأنوار من دون ألفاظ فقد تغلغل النور في عقلها وأوحى لها بأن تذهب إلى الناصورائيين فهم سيدلونها على الطريق.

في عيد البارونايا (عيد الأيام الكبيسة الخمسة، عيد الموتى) ذهبت إلى الناصورائيين وقرأت كتاب الكنزا فتعجبوا بها فطلبت منهم أن يعمّدوها ويجعلوها مندائية ففعلوا، وحين علم اليهود بهذا هجموا على المندائيين وكادت تقوم فتنة، فطلبوا منها العودة إلى صفوفهم أو أنهم سيقتلون

المندائيين ويتعلموا أسرارهم. وكانت هذه الحادثة سبباً في أن يخرج المندائيون إلى (جبل منداي) ويتركوا أورشليم[٧٨]

توضح لنا هذه الأسطورة ارتباكاً شديداً في المعلومات التاريخية وفي الأماكن. ونرجّح أن هذه الحادثة كلها حصلت بين بابل وآور. ولا نرى أن (مرياي) هي ابنة نبوخذنصّر بل هي ابنة ملكٍ بابلي لاحق، ربما كان نبونائيد.

كتاب يحيى يعطينا صورة أخرى عن مرياي تختلف عن الصورة السابقة في أحداثها ولكنها تلتقي معها في النتيجة. حيث نعرف أنها إبنة ملك بابل دون تحديد اسمه أو أبنة الحكّام البابليين في أورشليم. وأنها تربت على يد الكهنة اليهود ولكنها ضجرت من أدونايي (إله اليهود) ومن خدمة معبده. وذات يوم خرجت من بيتها فقادتها قدماها إلى المندى حيث وجدت المندائيين يتعبدون فغفت في المكان فأيقظت النساء مرياي وطلبن منها أن تعود إلى بيتها قبل الفجر. وحين عادت إلى البيت ووبّخها أبوها على سهرها وظن بها الظنون فقالت له مرياي:

«أنا مرياي فإن كنتُ زانيةً أو جرواً سائباً فسوف أقتلعُ قضبانك، وأحطم أقفالك، وسأجعلها تتساقط، وإن كنتُ هزيلة فجردني من ثيابي.(٧٩) لكن رجل دين مندائي طمأنها وقال لها: معاد الله أن تكرهي التعبد، معاذ الله أن تكرهي الإحسان، معاذ الله أن تكرهي حبّ سيدي مندا إأد هيي الذي سيكون عوناً لكِ في العالم. سيأخذ بيدكِ إلى مكان النور وسيعفّر وجوه اليهود بالتراب، ويضع الرمادَ في أفواه الكهنة»[٨٠]

وفي النص الثاني والثلاثون من كتاب يحيى قصة رمزية رائعة عن مرياي وشجرة الحياة، حيث تتحول مرياي في النصف الأول من النص إلى شجرة الحياة (الكرمة) التي تقوم عند ثغر الفرات. وتذكرنا هذه المقاربة بتراث الإلهة الأم ورمزها الأكبر الذي هو شجرة الحياة، بل تذكرنا تحديداً بأسطورة إنانا السومرية وشجرة الخولبو التي تجدها عند ضفة نهر الفرات وكيف أنها خلّصتها من الأشرار الساكنين فيها ثم صنعت منها سريراً لها. سنقف أولاً عند أوصاف شجرة مرياي:

«أنا مرياي، كرمةٌ قائمة عند ثغر الفرات، أصولها ثابتة وسيقانها صولجانات. غصونها نورٌ باهرٌ. تضوعُ بعطرٍ ذائعٍ، يطوف العوالم. أريجها يُضمّخُ طيور السماء. وأسرابُ الحمام تحطّ عليها، لتقيم أعشاشها، وتحت ظلالها يحنو البعضُ على البعض الآخر. أغصانها غذاءٌ وصدقةٌ،

وثمارها شرابٌ. الغذاء لم يكن كريهاً والشراب لم يكن خمراً»[٨١]

لكن هذه الشجرة مرياي محاطة بالرياح الهوجاء ومعرضة للعواصف التي توقظ الطيور الوديعة وتنشر بينها الذعر. وفعلاً تهب هذه العواصف وهي ترمز لحملات اليهود عليها وعلى المندائيين فهناك من الطيور (المندائيين) من يبقى متشبثاً وهناك من يسقطُ وهكذا بعد هدوء العاصفة تعود زقزقة الطيور في أعشاشها. لكن نسراً أبيض (هو أنوش أثرا) يحوم على الشجرة فتخبره الطيور كيف أن الشجرة حمتهم وتسأله لماذا يحوم حولهم فيخبرهم أنه أصبح أخاً لهم ولكي يعيهم ولكي يسقي الشجرة بالماء الحي. ثم يهيل النسر الويلات واللعنات على من لم يواصل طريقهن ولم يعبر الحدود الحجرية وكرهوا أن يكون الحق مع مرياي التي يشبهها بـ(سيمات هيي) أم جميع ملوك النور. ثم يهيلُ اللعنات على اليهود الذين اضطهدوا مرياي وشهدوا زوراً ضدها وخصوصاً لكاهنين من اليهود (أليزار وزاتان).

وهنا ننتقل إلى النصف الثاني من النص حيث نعرف منه أن مرياي قد تعرضت، بعد تحولها إلى المندائية، إلى عدّة تهم ساهم فيها اليهود ومنها تهمة الزنا وتهمة السرقة.

لكن الحقيقة هي أن الحشود تبعت مرياي وناصرتها وأقاموا لها عرشاً على ضفة الفرات ورفعوا لها علماً أبيض وقد وضع على مقربةٍ منه كتابٌ مقدّس. وهكذا أصبح هذا المكان للعبادة وقصدتها الحشود من الناس للصلاة والعبادة على ضفة الفرات. فهل المقصود في هذه القطعة الرمزية، بأن ترمز شجرة الحياة التي تسقى بالماء الحي إلى ذلك العرش الذي أصبح مكاناً للعبادة أي (مندي) أو (مشخنة)؟ أعتقد أن هذا هو المقصود. ويخبرنا النص أن هذا المكان والمندائيين فيه تعرضوا إلى اضطهاد اليهود.

«إنتبه اليهود إلى ذلك، فاحتشدوا أمامهم وهم ممتلئون غيظاً، يضربون بقبضاتهم على صدورهم باكين. ودموعها تنهمرُ قالت أم مرياي: انظري إليَّ فأنا أمكِ، أنت ابنتي. أنا ابنة كلّ الكهنة. رئيسة المعبد الكبير في بيت المقدس ولكن ليس هناك من يتذكر. تذكري مرياي التوراة.. افتحيها واقرئيها وأمعني النظر فيها، ستجدين مفاتيح العالم في يدكِ. كلُّ الكهنة وأبناؤهم جاءوا ليقبلوا يديكِ، فكلُّ من ترغبين فيه افتحي له الباب، ومن لا ترغبين فيه يعود. الواقفون ألف والجالسون ألفان، جميعهم كالعبيد، يودّون أن يسمعوا منكِ جواباً. أنسيتِ أخواتكِ؟ وهل امتلأ

قلبكِ غيظاً على الكهنة؟ انظري إلى العرائس الباكيات، وإلى جميع الرجال والنساء في أورشليم. وقد أهانوا الذهب النفيس، وتنازلوا عن أموالهم وأملاكهم وإبلهم وأحضروها من أجلك، صهروا الذهبَ ووضعوه في صندوقٍ وهم ينتظرون وقد اعتصرهم العذاب متطلعين إليكِ. إنهم يفتدونكِ بما يملكون وقد نذروا من أجلكِ النذور. انهضي أبنتي وارجعي إلى أورشليم. أوقدي مشعلكِ واتركي الرجلَ الذي حرركِ فأبعدكِ عنّا. اتركيه فهو ليس من قريتك، لقد غادر وانطلقَ في رحاب هذا العالم ليلعم الصغار الخط والكتابة. سيأتون بالتوراة المكتوبة على جلد غزال. إنكِ ما زلتِ تذكرين ذلك اليوم الذي نفضتِ فيه الغبار عنها»[٨٢]

هذا المقطع يوضح دون لبسٍ ذلك الصراع الكبير الذي كان بين المندائيين واليهود في وادي الرافدين أثناء حكم الدولة البابلية الحديثة وقربِ نهايتها في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. فقد كان اليهود مدعومين من قبل نظام الحكم بينما كان المندائيون عزّلاً ومسالمين متمسكين بديانتهم. وقد رأينا كيف تريد أم مرياي أن تعود مرياي إلى صفوف اليهود وأن تعود إلى القدس وتشغل مكانها كرئيسة للمعبد اليهودي الكبير في بيت المقدس في اورشليم. لكن مرياي تسخر منها ومن الكهنة اليهود الذي لفقوا الأباطيل ضدها وتبارك الرجل الذي حررها وحرر فكرها. فينبري اليهود لها ويقولون لها متحدّين:

«إذا جاءكِ نسرٌ أبيضُ عند ثغر الفرات، وكان جناحاه الكبيران يسعان العالم، وحلّق بكِ فإننا سنقيّده ونُغرقه في أعماق اليمّ»[٨٣]

وسرعان ما هبط النسرُ الأبيض (أنوش أثرا) قرب مرياي باسطاً جناحيه أمامها حيث علّمها الحقَ المشرقَ ثم عانقها وحلّق بها ووضعها على العرش وطالبها بالثبات على إيمانها فردت عليه بالإيجاب وبأن من لا يسمع حديثه يحجب عنه النور ويصبح عبداً لليهود وخادماً لأبناء الكهنة.

أما اليهود فلم يفعلوا شيئاً أمام ما رأوه. وإلى هنا ينتهي النص.

إن أخبار يحيى ومرياي تعكس طبيعة الصراع الدائر بين المندائيين واليهود في جنوب وادي الرافدين، ذلك الصراع الذي كان سبباً، على ما يبدو، لأن يرحل المندائيون إلى (جبل منداي) حسب ما تقرر ذلك الأساطير التاريخية المندائية.

وهناك حكاية شعبية ذكرتها ليدي دراور عن هرمز بن الملاّ خضر وهي حكاية متوارثة عن

مرياي لا تختلف في جوهرها عن ما عرفناه أعلاه عنها لكن نهايتها تقول بأن اضطهاد اليهود العنيف طال الناصورائيين ومرياي بقوة مما اضطرهم للرحيل إلى جبل المندائيين فتبعهم اليهود وحين وصلوا الجبل نزل ضوءٌ كالسيف من العلى واعتلى سبيلهم فكان كلّما تقدم واحد منهم قضى نحبه وهكذا عادوا إلى بلادهم، وكان قد بقي بعض الناصورائيين فيها فأجبروهم على أن يتعلموا منهم (العلم السرّي) الذي يحتفظون به وحين صرح هؤلاء بأنهم لا يملكونه قتلوهم جميعاً، وفي الصباح حام طائر أبيض فوق هيكلهم الذي يجتمعون به وسرعان ما نزلت نارٌ واحرقت اليهود الذين قتلوا الناصورائيين وفرّ باقي اليهود إلى الصحراء حتى وصلوا إلى بابل فوبّخهم نبوخذنصّر (وهو أب مرياي في هذه الرواية الشعبية) وأعلن لهم أنه سيكون من أتباع الناصورائيين وسيذهب مع أتباعه إلى جبل المندائيين، وحين فعل ذلك أصبح مندائياً وتعلّم العقيدة السرّية من أبنته، ومنذ ذلك الوقت لم يملّك أي ملك يهودي/كلداني (يهوطابي) في بابل.

وتمزج هذه الرواية بين حكاية مرياي ورحيل المندائيين إلى جبل مندا (في حرّان)، وهو ما سيأتي ذكره في الفقرة العاشرة القادمة.

تكشف حكاية مرياي، إجمالاً، الصراع القوي بين المندائيين واليهود في بابل وعلى ضفاف الفرات، ولا نرى أن لها علاقة بأورشليم وربما صحّفت (في المخطوطات) مدينة أور وأصبحت أورشليم لتناسب توجهات الكهنة في ربط المندائيين بفلسطي ويحيى. وربما كانت أور هي أورشليم وهذا مرجّح جدا، ولا نرى أن هناك أي تماثل بين مرياي ومريم أم المسيح كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

إن هذه الحكاية تعطينا الانطباع بظهور المندائيين المبكر في وادي الرافدين والذي ربما امتد إلى نبوخذنصّر في بداية القرن السادس قبل الميلاد وهو الوقت الذي ظهر فيه اليهود بعد السبي وكان هناك إمكانية تماس سلبي بينهم وبين المندائيين. وربما كان الأمر متعلقاً بآخر ملك بابلي وهو (نبونائيد) وابنته التي جعل منها كاهنةً وهو ما يحتاج إلى دراسةٍ وتمحيص دقيقين.

٩. يسوع:

يقول الكتاب الثامن عشر من كنزا اليمين أنه بعد اربعمائة سنة على بناء أورشليم ولد اليسوع بن مريم إلاّ أنه لم يولد في أورشليم. عندما جاء اليسوع صار هو رئيساً للمسيحيين. هو

أسس كنيسةً واختار له شعباً.

ويشير مخطوط (حرّان كوثا) إلى ولادة يسوع باختصار فيقول:

«لقد حرّف كلمات النور وأبدلها بالظلام وغير دين أولئك الذين كانوا على ديني وبدّل جميع الشعائر (أبيداثا) وأقام هو وأخوانه في جبل سينا ودعوا لأنفسهم جميع الناس وجلبوهم لدينهم وأطلقوا عليهم اسم كريستيانا وسمّوا على اسم مدينة الناصرة (نزرته مدنتا)»(٨٤)

في المخطوطات المندائية لا تستخدم كلمة نصارى للدلالة على أتباع المسيح بل المسيحيون (مشيها) أي أتباع المسيح أو كريستيانيا. أما ناصورائي فلا تدل مطلقاً على نصراني ونصارى بل على الاسم القديم للمندائيين والمتبحرين منهم ومن كهنتهم.

وعيسى بالنسبة للاهوتيين الصابئين (ناصورائي) أيضاً، إلاّ أنه خرج على الدين وقاد الناس إلى دين آخر وباح بالعقائد الباطنية وجعل الدين أكثر يسراً (أي أنه سخر بالصعب وأنشأ قواعد جديدة حول التطهير). والإشارات إلى المسيح (يشو مشيها) هي الحقيقة عبارات جدالية تشير بالدرجة الأولى إلى أعمال المسيحية البيزنطية التي اثارت الرعب في قلوب الصابئين (المندائيين) باتخاذها الماء (غير الجاري) للتعميد، ويعزوبية الرهبان والراهبات»[٨٥]

وهناك إشارة في كتاب (حرّان كويثا) تشير إلى أن المسيح كان على ملة الناصورائيين المندائيين وأنه بعد أن تعمّد على يد (يهيا يهانا) خرج على ملّتهم واتّخذ له ملةً جديدة.[٨٦]

وفي الكتاب الثاني من كنزا ربّا اليمين الجزء الأول هناك إشارة أخرى تقول أنه عقب لقاء يهانا (يحيى) بالمسيح يبدأ المسيح بتغيير طريقة يهانا فيغير التعميد في النهر وطقوسه. وعندما لا يكفيه هذا يشرع بتحريف شريعة الكوشطا وينشر طريقته في التعميد في هذا العالم.[٨٧]

ثم بعد وفاة يحيى يحلّ الكذب بالعالم. إن نبي الكذب (والمقصود به المسيح) يبدأ بنشر التفرقة بين الشعوب، بينما يأخذ الغاوون الإثنا عشر بالطواف في أرجاء العالم ويحرض الكتاب المندائيين على الثبات بوجه ما حصل وأنه لا بد أن يأتي أنوش أثرا «ليكشف القناع عن نبي الكذب الذي يجعل نفسه شبيهاً بملائكة النور، إنه سيطلق على نبي الكذب حكمه ويدينه بالذنب لأنه يشكّل واحداً من المغرور بهم، من تلك السبعة التي لا تبرح تجوب هذا العالم ولأنه يأخذ بالدوران في الفضاء الخارجي. إن أنوش أثرا سوف يفضحه على كونه كاذباً، وهذا الأخير سيوثق من قبل

جماعته بالحبال. إن أتباعه أنفسهم يضعون القيد في يديه ويقتلونه. بعد أن يُقتل ويموت سوف يقسم أتباعه جثته إلى أجزاء صغيرة. إنه سيربط بالوثاق على جبل ماري. إذا أشرقت الشمسُ فستغمره بأشعتها الحارقة الملتهبة ولا ترحمه إطلاقاً لأنه كان قد نشر الكذب والاضطهاد في هذا العالم»[٨٨]

هذه الصورة القاسية عن يسوع وديانته تعكسُ، هي الأخرى، الصراع بين المندائيين والمسيحيين.. خصوصاً أن المسيحية انتشرت في وادي الرافدين وفي مناطقه الجنوبية وربما زاحمت أو اضطهدت المندائيين. وربما كان للبعثات التبشيرية قسوتها هي الأخرى. لكن الكتاب الأول من كنزا اليمين يعطينا صورة أخرى غير ما أعطاه الكتاب الثاني فهو يرى أن يسوع هو نبي الكذب يدعي أنه هو هيبل زيوا. وأن من يهبط في عصر بيلاتوس هو أنوش أثرا وينسبون له كل ما عرفناه عن المسيح من معجزات «سوف يشفي المرضى من دائهم ويجعل العميان يبصرون، يطهِّر المجذومين ويقوِّم المعوقين وذوي العاهات ويمدّ العون إلى أولئك الذين يدبون على الأرض بحيث يصبحون يمشون على أقدامهم. إنه يجعل الأصماء والبكماء يتكلمون ويحيي الموتى. فعلى هذا سوف يكسب هو أتباعاً من اليهود الذين يؤمنون به وسيرشدهم قائلاً: فرِّقوا ما بين الموت والحياة، ما بين الظلام والنور وما بين الباطل والحقيقة. بهذا سوف يهدي هو اليهود إلى الشريعة القديمةإلى اسم ملك النور السامي»[٨٩]

هل هذا يعني أن المسيح الحقيقي هو (أنوش أثرا) وان المسيح الدجّال هو (يسوع)؟ وأن أنوش أثرا يهدي بعض اليهود إلى الدين المندائي!!

هذا ما أوحى به الكتاب الأول من الكنزا اليمين. وبذلك يعطي المندائيون صورة واسعة عن ديانتهم ويرون أنها مزاحمة ومنافسة لليهودية والمسيحية في فلسطين ووادي الرافدين. وربما كانت كذلك!

هبوط أنوش أثرا إلى أورشليم:

النص الحادي والسبعون من كتاب يحيى يصف هبوط أنوش أثرا إلى الأرض وتحديداً إلى أورشليم ليضعَ فيها المعجزات.

«جئتُ بخفٍّ جميلٍ وفي يدي مركنة مختارة، وعلى يساري وضعوا صولجاناً قوضتُ البنيان

الباطل، وهدمتُ صروح الأصنام، حتى لا يتسنى لها أن تحيط بي من اليسار إلى اليمين.

وضعتُ الإكليل على رأسي، وطفتُ العوالمَ والأجبال حتى وصلت أورشليم.

أمقتُ عرشاً واعتليته.. تكلمتُ بأسرار الحكمة

أورشليم موصدةٌ الأبواب بالمزاليج والأقفال

بنوري أنيرت أورشليم، وأطلقتُ جميع الرياحين أريجها

الرؤوس المنتّنة، تضوّعت عطراً

العميان أبصروا، والمرضى تمّ شفاؤهم

حررت النطقَ بأفواه الصمّ والبكم، ومشى المقعدون»[٩٠]

وهنا يقوم رجل ذو طبعٍ مختلف غيّر لسانه بتوجيه السؤال إلى أنوش أثرا عن شخصيته ويطلب منه أن يظهر رسالة الحق ويقرأها من البداية إذا كان من الحياة الأولى فيقرأ أنوش أثرا ما يلي:

«آدم وزوجه حواء، أصل السلالة البشرية

شيتل بن آدم غرسٌ طيب تضوعت فيه الأجيال

رام ورود العالم الذي سلم من السيف والوباء

شوربي وشرهبيل العالم الذي سلم من النار الموقدة

سام بن نوح العالم الذي نجا من الطوفان

من سمعَ وآمنَ وأطاعَ الحيّ العظيم يكون له موضعٌ في عالم النور

ومن لم يسمع، ولم يؤمن فمقامه في عالم الظلام واسمه يُلغى من بيت الكمال ويكون مظهره معتماً»[٩١]

والحقيقة أن أنوش أثرا يهبط مراراً على الأرض لمهمة محددة فقد هبط مرة أخرى ليدمر أورشليم بعد أن اضطهدت الناصورائيين وهبط على بابل ودمرها وهبط ليصعد بروح يحيى.. وهكذا فهو المرسل الوحيد للأرض في بشريتها الرابعة.

١٠. من أورشليم إلى حران إلى بابل:

بعد وفاة كل من يحيى والمسيح ونزول أنوش أثرا خرج من مدينة أورشليم (٣٦٠) ناصورائي (يسميهم الكنزا أنبياء!!) وكلهم يؤمنون بالشريعة ويشهدون باسم الرب الأكبر (مار إد ربوثا) عندها صعد أنوش أثرا إلى مكانه في مشوني كوشطا.

وحسب حران كوثيا أصبحت الروها واليهود متغطرسين بعد ٦٠ سنة من وفاة يهيا يهانا. وشُنت حملة كبرى ضد المندائيين فقتل اليهود في أورشليم ٣٦٠ ترميذا. وقامت الروها بتفريق اليهود الذين دعيوا لـ(بيت السبعة) وسيقوا بالسوط إلى منطقة في جنوب العراق هي مكان البصرة واسمها (سوف زابا Zaba _ Suf) وهذا اسم نهر صغير ذي قصب ثم في الأهوار التي انقسمت مياهها كجبلين وسطهما طريق وبنت لهم الروها وكبست لهم طابوق طيني مقدس وشيدت مبنىً ورفعت له عموداً بعد عمود من الكذب. وبمساعدة الروها أيضاً بُنيت مدينة (بغداد) للكلدانيين ذات سبعة أسوار، كل سور أفخم من السور الذي يليه، وقد خرّبت قوى النور يؤيدهم المادي والحرس (الناطري) السبعة من جبل باروان مدينة بغداد ونُصب أحد أحفاد ملك أردوان على بغداد وامتد حكمه إلى الزوايا الأربع من العالم، وعين الولاة على المقاطعات وكانت لها اسماءٌ صابئية، وقد اعترفت قوى النور بهذا السلطان»[٩٢]

أما أورشليم فقد جاء هيبل زيوا وحرقها ودمرها وعملها أكواماً من الخراب. وبطبيعة الحال كان المقصود من خراب أورشليم هذا ما فعله الرومان بقيادة تيتوس عام ٧٠م بأورشليم.

أما بناء بغداد ثم احتلالها من قبل أحد أحفاد ملك أردوان فنظن أن المقصود به هو الاحتلال الفرثي للعراق وتفضح هذه الإشارة كتاب(حران كويثا) الذي نرجح أنه كتب بعد بناء بغداد في العصر العباسي لأنه يخلط بين بابل وبغداد لأن الملك أردوان هو الملك والحاكم الفرثي وربما كان أرتبانوس الثالث أو الرابع أو الخامس.

ثم نأتي لما حصل للمندائيين بعد اضطهادهم في أورشليم فإنهم هاجروا إلى جبال ميديا (تورا منداي) وبقوا هناك حتى هاجروا منها إلى بابل (بغداد) حيث ترأسهم هناك (بهيرا بر شيتل) سليل الملك الناصورائي ارتبانوس وكانوا مكونين من ستين ناصورائي. لكن هذا الرقم تضاعف في بغداد/ بابل وأصبح في بغداد ٤٠٠ مشكنة أي مندي. وعاش المندائيون بسلام في بابل لمدة ٢٨٠ سنة.

والحقيقة أن كتاب (حران كوثيا) هو كتاب غير موثوق تاريخياً فهو ينتحل السيرة التوراتية في خروج المندائيين من مصر، وهو يُدخل قسراً الهجرة إلى حرّان كوثيا ليبرر أرتبانوس أولاً وليضع ماضياً عريقاً لصابئة حران باعتبارهم أخوة الصابئة المندائيين. وها هو يتخبط في هجرة اليهود إلى

البصرة (سوف زابا) وغير ذلك كثير.

نحنُ نذكر كل هذه الأحداث هنا تمشياً مع فكرتنا في سرد التاريخ الأسطوري للمندائيين في البشرية الرابعة. أما رأينا الحقيقي في التاريخ المندائي فقد ذكرناه سريعاً في الفصل الأول من هذا الكتاب وفي كتابنا عن الديانة المندائية وهو أن المندائيين ظهروا في جنوب وادي الرافدين ولم يبارحوا هذا المكان أبداً. وكل هذا التاريخ المربك والانتحال سببه ما تعرض له هؤلاء الناس المسالمون العُزّل أمام زحف الجيوش والأديان العتيّة. وقد نجحوا أيما نجاح، ولكن علينا أن لا نأخذ بكل ما اضطروا لانتحاله على محمل الجد. وأن ننظر بعين ثاقبة وعميقة لتاريخهم لا بعينٍ توفيقية تتنقل على السطوح.

١١ . ملوك ما بعد الطوفان :

يسرد الكتاب الثامن عشر من كنزا ربّا اليمين أسماء ملوك ما بعد الطوفان وسنين حكمهم الطويلة لكما يلي :

١. أردوان كايموراط. حكم ٩٠٠ سنة

٢. زاردا نايطا لاهموراط. حكم ٦٠٠ سنة

٣. لبربيوش زيهناك. حكم ٧٥٠ سنة ولم يحكم أحد بعده لمدة مائة سنة

٤. أسداهاك بن أسفاك (ملك بهران). حكم ٣٠٠ سنة

٥. فوريدان بن تيبيان. حكم ٤٥٠ سنة

٦. باشام نريمان (مقيد الكاركوم). حكم ٥٠٠ سنة

٧. فارسايا من طورا (طوران). حكم ٦٠ سنة

٨. قايقوباس. حكم ٥٠٣ سنة

٩. كاي خسرو بن سياووشان. حكم ٦٠ سنة

١٠.إيغاب بن الملك برزين. حكم ٣٠٠ سنة

١١.لوهراسب. حكم ٣٦٥ سنة

١٢.كوشطا سب بن لوهراسب. حكم ١٤ سنة

١٣.اردشير بن اسفانديار. حكم ١١٢ سة

١٤.نورايطاش هوريزدان (شيمداي). حكم سنة واحدة

١٥.أشغان. حكم ٤٧٠ سنة

١٦.داشا مشير (شليمون بن داوود). حكم ١٠٠٠ سنة (٩٠٠ على الأرض و١٠٠ سنة في السماء)

١٧.بروق (ساندرا أو الكسندر الأغريقي) حكم ١٤ سنة

١٨.أشاق بن أشقان. حكم ٤٦٥ سنة

١٩.وليسطار خسرو وعباش (واباس) يا سديس طبيان (أردبان) ١٤ سنة

ومعروف أن الملك أردبان يُذكر في (حران كوثيا) على أنه ملك المندائيين الذين كانوا في مصر أيام موسى كما ذكرنا، ثم تستمر الرواية حيث رحل أردبان مع ٦٠ ألف مندائي ووصل تلال ميديا (تورا منداي) فاستوطنوا هناك وكفّ موسى عن ملاحقتهم.

والمشكلة في هذا الأمر هي أن (أردبان) يُقابل بـ(أرتبانوس الثالث) الذي حكم بين ١٢ ـ ٣٨ ميلادي وهو لا يصلح أن يسحب لأكثر من ١٢٠٠ سنة قبل زمنه الحقيقي ليؤكد أسطورة تاريخية منسوخة من سفر التكوين التوراتي.

١٢ . **ملوك الفرس:**

ويكمل الكتاب الثامن عشر من كنزا ربا اليمين سرد أسماء ملوك الفرس الذين حكموا ٣٨٢ سنة. (والذي يرى ليدزسبارسكي أنهم ملوك الغساسنة وهذا غير صحيح) [٩٤]

١. أردشير بابوغان. حكم ١٤ سنة

٢. شابور بن أردشير. حكم ٦٢ سنة

٣. بالاش خورنيق بن شابور. حكم ٥٠ سنة

٤. بهران بن شابور. حكم ١٢ سنة

٥. يازدكار بن الملك بهران. حكم ١٢ سنة

٦. شابور بن يازدكار. حكم ١٠ سنة

٧. فيروز بنم يازدكار. حكم ٤٠ سنة

٨. بهداد. حكم ٣ سنوات

٩. قباد بن الملك فيروز. حكم ٤١ سنة

١٠. خسرو بن قباد. حكم ٤٨ سنة

١١. هورمز بن خسرو. حكم ١٢ سنة

١٢. خسرو بن خسرو بن هورمز. حكم ٣٨ سنة

١٣. شيروا

وتشير التواريخ الحقيقية إلى أن يازدكار ارتقى العرش عام ٤٣٨م وأن نهاية حكم شيروا كانت عام ٦٢٨م.

١٣. انشقاق الناصورائيين

جاء في حران كوثيا/١٢ وهوامش كتاب (معرفة الحياة) لكوندوز ما يلي: [٩٥]

حوالي ٨٦ سنة قبل ابن العرب، أرسل أدوناي (وهو إله اليهود) زوجته شوريش ـ روها إلى مدينة الطيب (تسمى محلياً مدينة إشكندا) وكان هناك ريش إمّا (أعلى منصب ديني) وهو الوحيد واسمه (قيقل) فدخلت زوجة أدوناي عالمه على أنها هيبل زيوا وكانت متنكرة لتأخذ حكمته منه وتحرّف كلمات عقيدته لكي تعود الأمة الناصورائية كلها إلى اليهودية. وقالت له: إن الحياة أرسلتني إليك. بعدها كتب قيقل ونشر التعاليم من الروها. وحصل شقاق بين الناصورائيين والمرشحين للكهنوتية بسبب تلك الكتابات التي كتبها. وحين استرد قيقل وعيه ألغى كلامه وتعاويذه التي تعلمها من الروها وأضرم فيها النيران لأن الروها ضللتني ولم أكن أعرف مِن مَن أنت.

وبسبب هذا الانشقاق أصبحت المعتقدات المندائية متعددة وظهرت فيها المذاهب فتفرقوا وأُخذت السلطة منهم. وجاء بعد ذلك العصر الساساني فتحددت حريتهم الدينية ودُمرت أكثر من نصف سقائفهم الدينية.

وهكذا تلت فترة الازدهار المندائي في بابل زمناً، ثم أخذ السلطة (الهر دبايا) أو (هر بابايا) وهم دعاة الحرب من أحفاد أردوان واستمر حكمهم ٣٦٠ عاماً حتى الفتح العربي.

ثم يجيء العرب وتسمي كتب المندائيين الرسول محمد (ص) بـ(العربي ابن الحرم) أي ابن الكعبة وأحياناً (محمد بن عبد الله) وأحياناً (ملك العرب). ويروى أن (أنوش بن دنقا) من جبل

أرسايي قد قدم على الملك العربي وأوضح له بأن لدى الصابئة كتباً مقدسة ثمينة وديناً قديماً. وهكذا حصل على الأمان لأتباع دينه.[٩٦]

وإلى هنا يتوقف حران كوثيا والكنزا ربّا بسرد أحداث الماضي. وتبدأ التنبؤات بالمستقبل.

١٤ . التنبؤات من ظهور العرب حتى الإنذار بالفناء :

من هذه الفقرة يبدأ كتاب الكنزا اليمين: ١٨ بالتنبؤ والحديث عن المستقبل لأنه يبدأ عباراته بـ(إذا قام العالم في عام.... فهذا ما يبلغ عنه...) ثم يسرد التنبؤات باستثناء بعض الفقرات الأربع أو الخمس الأولى فأنه يقول «إذا قام العالم عام.. في سنوات السمك) أو (إذا قامت الأسماك في عام...) وربما كان هذا مقياساً للزمن اعتماداً على برج الحوت كما أسلفنا.

وتقول هذه التنبؤات ما يلي[٩٧]

إذا قام العالم عام ٧٠١ في سنوات السمك : فسوف تقسم هذه الألف الأخيرة إلى ٨٩٠ سنة يستمر العالم يعيش فيها برخاء متواصل و٢١٠ في أزاء وخطب.

١. إذا قام العالم في عام ٧٩٠ : فسوف ينقطع الماء من الآن فصاعداً وسوف يحلّ الجفاف بالعالم قاطبةً. إن الآلهة والملوك سوف يعرضون إشارات مختلفة للبشر في جميع السنوات والأشهر ولكن هذا المكان كغيره في كل أنحاء العالم سوف يصيبه الجفاف.

٢. إذا قامت الأسماك في عام ٧٩١ : فسوف ينقطع الماء وسوف يطلق الرب مع كلّ ريح تهب رياح الشمال.

وهكذا تمضي التنبؤات بالأحداث ويمكننا أن نضع الجدول الآتي الذي يلخص تلك الأحداث دون الإسهاب في التفاصيل :

السنة	الحوادث
٧٩٠	يحلّ الجفاف. الآلهة والملوك يرسلون إشارات للناس حوله.
٧٩١	ريح الشمال مع كل ريح تهب
٧٩٢	يثور العرب. تصعد سحابة سوداء. الماشية تهرب من ملك بابل
٧٩٣	ملك العرب يموت. فتنة بين العرب. كارثة ودمار وخراب في بابل
٧٩٤	الأرض تهتز، السماء ترعد. المشتري يبرق بقوة أكثر من الشمس

٧٩٥	الذئاب تجتاح الأرض. أرواح كثيرة تزهق. ملوك يموتون. العرب ينتزعون السلطة ويصبحون أسياد الأرض. ملك بابل يأتي لها. البرابرة يصلون للحكم في طور (طوران)
٧٩٦	رموز تظهر بين الرجال والخيول. مجاعة. غرق. بّرَد. حيوانات تموت
٧٩٧	حاكمان يتنافسان بالخيول والرجال
٧٩٨	أحدهما يموت ويصبح الآخر سلطان العالم
٧٩٩	صوت يعلو ويصل إلى الناس في أفراي
٨٠٠	تتجمع خيول العالم في مكان ويحتدم صراع أبيض بين مجاميع مكونة من ١٧٠٠ ويبقى ثلاثة رجال فقط.
٨٠١	يقل عدد الرجال.. والنساء يبحثن عن رجال فلا يجدن، كل ٧ ـ ٨ نساء حصة الرجل الواحد.
٨٠٢	إذا قام زحل في برج العقرب وخرج منه ودخل إلى برج الأسد فيتدفق ماء الفرات ويصب في دجلة. أرض بابل تصبح يباباً وتجف أرض كاوكاي المقابلة لدجلة. أور يصبح سيداً على العالم كله ويأتي من الشرق باتجاه الغرب وكل حجر سيشهد له.
٨٥٠	يتفشى مرض الطاعون الكبير. بعد زوال ملوك الفرس يأتي دور ملوك العرب. يصبح العالم كاذباً (وستطرأ على أخلاق الناس تحولات كبرى)(*)
	ناس الصحراء يشنون هجوماً ضد ناس المدن وقتال بين الفرس والبارثيين والرومان والسيفستانيين وينتصر البدو. في مدة ٧١ سنة يسيطرون ثم يقتل أحدهم الآخر. شاطيء كادكاي (مقابل دجلة) يزدهر وشاطيء بابل يزدهر.
	ملوك العرب في بلاد كاردوس يتهيأون للحرب. ملك البوردشيين (أورداني) وملك السيمرئيين (سيمرائي) يتشاوران ثم يدمران بابل. يسلب ١٢٠٠٠ شخص من شاطئ كاوكاي. بعد ٢٥ سنة ثورة جبل ذهب في داشتا ميساق. سبع ملوك يعينونه ملك الملوك ويتبعه اتفاق المساواة.
	ملاك من القبة الزرقاء يهبط ويهمس في إذن ملك الملوك وتحصل فتنة كبيرة

يتولى الحكم ملك مزارز ويدوم حكمه ١٢ سنة يقرّب أهل المدن وينعم عليهم. يرتفع الماء في المحيط ويجلب الويلات. يقع شؤم كبير. الرجال الأفذاذ الصم والبكم يقاتلون ويبقى منهم نفر قليل يتولى الحكم الملك (شيراسف) ويحكم ٢٧ سنة.	
يهدأ الناس ويتراحمون ولا يخدع بعضهم الآخر وينزل نجمٌ من السماء ويقترب تماماً من الأرض ويقف في مكانه طيلة سبعة أيام وسبع ليالٍ.	
يستولي الملك (وازان) على الحكم وتدوم دولته خمس سنوات وتتحسن الأحوال وتحترم الآلهة وتزدهر بيوت العبادة. والناس يشبعون من الطعام والشراب.	

❖ يصف الكنزا ربا اليمين/١٨ هذه التحولات عندما يأتي الملوك العرب بما يلي:

لن يجد أحد الطمأنينة والهدوء. لا وردة الأرض ولا الجمال ولا الأحرار ولا الخدم ولا الخادمات ولا الصبيان الصغار ولا الفتيات الصغيرات ولا النساء ولا الأحرار. وخلال أعوام هؤلاء الملوك سوف لن يقدر الأب أن يأمر ابنه ولن تستطيع الأم أن تسيطر على ابنتها ولن تيسر للسيد أن يعقل خادمه. هؤلاء الملوك سوف يسلخون جلود البشر كما لو كان هؤلاء ظباءً أو حميراً وحشية في سنوات هؤلاء الملوك سوف يفقد من كان لديه الكثير من الأبناء جميع أبنائه باستثناء واحد منهم. بعد ذلك يهنأون هم: طوبى لمن يملك ابناً واحداً. سوف يكون هنالك ذهب وفضة وجياد وجمال وثيران وحمير وأغنام ولكن بكميات قليلة. سوف تطير الأسماك من البحار هاربةً. سوف تأتي إليه الحمير الوحشية على جبال دكنا. جميع ما ينتج وعلى الإطلاق كلّ شيء سوف يغدو مقلوباً ومعكوساً: الغني سوف يصبح فقيراً والفقير سوف يغدو غنياً. إن البيوت سوف تصبح حقولاً منبسطةً والحقول المبسطة سوف تصير بيوتاً. إن الأذكياء الأفذاذ سوف يغدون صمّاً بكماً والصمّ البكمُ ينقلبون إلى أذكياء أفذاذ. إن السيد سوف يمسي عبداً والعبدُ سيداً.... إلخ

١٥ . الإنذار بالفناء

تتنبأ الكنزا ربّا بمجموعة من الأحداث التي ترافقها إشارات ورموز هي عبارة عن نُذُر تشير إلى قرب فناء العالم وهذه الإشارات هي: [٩٩]

١. يسقط من السماء نجمُ ويهوي في البحور السبعة، سوف يسيل ماءٌ أحمر. إذا شربت

إحدى النساء من هذا الماء فسوف تصبحُ عاقراً وتفقد صوابها. إنها سوف تبعث في طلب الرجال وتخاطب هؤلاء قائلة: انتم أولاء، تعالوا ناموا معي.

٢. تهب عاصفةٌ ويرتفع معها التراب عن الأرض فيغطي أبواب الناس. ثم يقيم الملك اجتماعاً ويأخذ بطرح الأسئلة على الملأ ويخاطب الحاضرين قائلاً: هل رأيتم قبل هذا ما حدث الآن أو سمعتم عنه؟ ولكن الناس لا يعرفون ماذا عساهم يجيبون عن سؤاله هذا. بعد ذلك يسأل الملك وازان أرواح الموتى فيما إذا كان قد كتب بأن الحدث هذا سوف يقع في نهاية الدنيا، ذلك الحدث الذي لم يكن قد وقع قبل هذا الزمان قط. بعد ذلك تتكلم إليه أرواح الموتى قائلةً: أنت لا تعرف بأنه إذا خرَّ نجمٌ من السماء وسقط هابطاً إلى الأسفل وهبَت عاصفة وجاءت بجحافل من التراب معها وغمرت بيوت الناس به ـ أنك يجب أن تعلم بأن الكلمة التي كتبت عن نهاية الدنيا سوف تتحقق. ولكن أنتَ أيها الملك إنك عصيت الله وخرجت عن أوامره لهذا السبب لا تحتاج إلى أن تعبأ أو تهتم بهذه الكلمة. أجل إذا جاءك الموت فسوف تتغذى أرواحك الميتة ما لذّ لها وطاب من الطعام والشراب كمثلك أنت في الحياة.

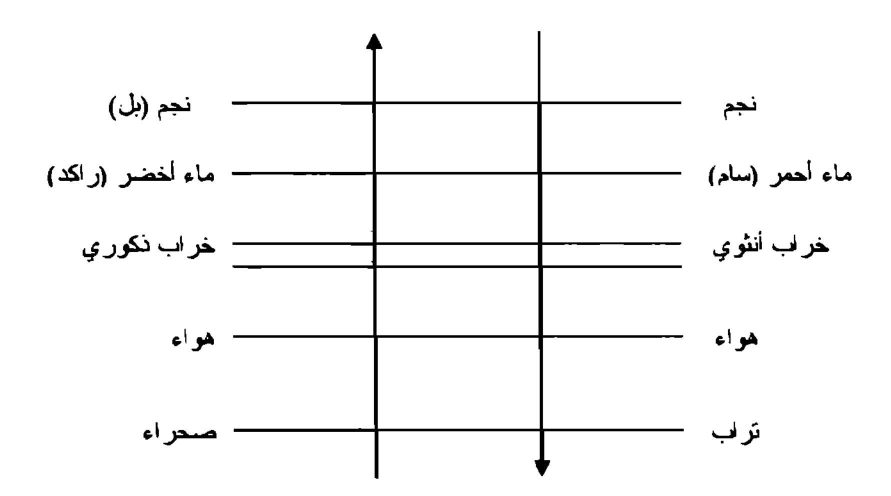
٣. يتولى الملك (باروشاي سيفا) ابن الملك (برزين) الحكم وتدوم سلطته إلى نهاية العالم، وفي سنوات هذا الملك سوف يعمّ الخير البشر قاطبةً ويعود العدل إلى نصابه ويأخذ الحق مجراه. وسوف لن يكون هناك شتاء.

٤. بعد ذلك سوف ينقطع الماء الحي انقطاعاً تاماً: لن يأتي جارياً ولن يرتفع عن الأرض، بدلاً منه سوف ينساب قادماً ماء المحيط الأخضر والأرواح التي تشتم رائحة ذلك الماء سوف تزهق وتفارق أجسامها.

٥. بعد ذلك يأخذون هم النجم (بل) من بين أخوانه ويلبسون إياه غطاء بثاهيل ويغطون إياه بدثار بثاهيل ويضعون إكليل بثاهيل ع لى رأسه ويجلسون إياه على عرش بثاهيل. هو يقعد (٤٢) عاماً في الأرض القفار. ثم يخاطبون إياه قائلين: هيا إخلع ثوبك وانزع دثارك وضع التاج جانباً. إن هذه جميعها هي ملك بثاهيل ونحنُ نريد أن نرفعها إلى العلياء. إلى بهاء الشمس، إلى نور القمر، إلى بريق النجوم، إلى طاقة الماء. إلى زخم الريح. إلى وميض النار وإلى صلابة الأرض. فيجيب عليهم (بل) قائلاً: لمّا يمضِ على جلوسي على هذا العرش إلاّ عشية واحدة فقط وها

أنتم أولاء تقولون لي الآن: هيا إخلع! ثم يرفعون هم الغطاء والدثار والتاج من بثاهيل إلى مكانها عالياً.

وفي تحليلنا لهذه الإشارات وجدنا أنها أربعة إشارات يفصل بين كل اثنين منها مسقط ملك وصعود ملك. فهناك في البداية سقوط نجم في البحور يؤدي لظهور الماء الأحمر الذي يؤدي شربه من قبل الناس إلى (العقم والجنون والشبق)، ولذلك يصبح سقوط هذا النجم كارثياً ثم تهب بعده العاصفة (هواء+ تراب) التي تؤدي إلى تجمع التراب على البيوت. وهكذا تكونت لدينا هذه الرموز (نجم، ماء أحمر، خراب أنثوي، هواء، تراب) ثم يسقط ملك عاصٍ ويصعد ملكٌ طائع وتظهر الرموز الأخرى وهي انقطاع الماء الحي وظهور الماء الراكد والتنصيب الكاذب لكوكب المشتري (بل) في مكان بثاهيل ثم سقوط ملوكية (بل). وهنا أيضاً يظهر (نجم، ماء أخضر، ثوب، تاج، صحراء) ويمكن اعتبار السخرية من (بل) وهو (بعل) الذي يمثل الذكورة والفحولة نوعاً من الخراب الذكري، كذلك يرمز اثوب والتاج لقوة السلطة الهوائية. وهكذا ينتظم صفّان من الرموز يفصل بينهما سقوط وصعود ملكين، وهذه الرموز تشير إلى العناصر الأربعة وهو ما يرمز إلى بدء انحلال هذه العناصر الأربعة المكوّنة للعالم ومعها الملوكية والأنوثة والذكورة:



شكل (٤٦)

رموز سقوط وصعود الملوك

١٦ . أسطورة الفناء المندائية

تتشكل أسطورة الفناء الأخير المندائية من مقاطع متفرقة هنا وهناك في كتاب الكنزا ربّا بشكل خاص، ويمكننا إعادة بناء هذه الأسطورة وتحليلها واستنتاج توجهاتها وطريقة وضعها لهذا الفناء.

لا يشمل الفناء الأخير للكون عالم النور وكائناته النورانية، لدرجة أن واضعي هذه الأسطورة يتنبهون لسقوط الحياة الثانية، والثالثة والرابعة وهم (يوشامن وأباثر وبثاهيل) الذين كانوا السبب في كل هذه المصائب التي مرّ بها عالم النور، ويتمّ انتباه عالم النور لهم باعتبارهم قد نالوا جزاءهم في العيش خارج عالم النور ولذلك يصعدون قبل بدء الفناء وحلول ساعة الحساب.

ولذلك نتوقع أن لا يفنى أي أثرا لأنهم منزّهون عن الأخطاء، أما الملائكة (ملكي) فإن الصالح فيها يصعد إلى عالم النور أما المخطيء فيحاسب على ضوء أخطائه، لكن الملاخي تموت كلها في عالم الظلام وتسقط في الجحيم (شيول).

ورغم أن الفناء يبدأ من حصول العاصفة وتراكم التراب على البيوت لكن الفناء الأخير والشامل ينتهي بين فكي (يو باثين) الذي يتفسخ هو الآخر كما سنرى.

أ . يعلو صوت الحياة الكبرى محذراً الخطاة والعابثين والمغفلين :

«ويلٌ لرئيس البنائين
الذي لم يبنِ لنفسه داراً في الآخرة
ويلٌ لكِ أيتها الغيرة
إن الشياطين من هذا العالم لا يشبعون من فرط جشعهم
ويلٌ للبطن الواسع الكبير
الذي يلتهم الطعام التهاماً ولكنه لا يمتلأ
ويلٌ للمنافق الذي يتكلم بلسانين
الذي يعطي على واقعةٍ واحدة حكمين مختلفين
ويلٌ للمتعلمين
الذين يعلمهم المرؤ غير أنهم يأبوا أن يتعلموا

ويلٌ للعابثين المغفلين

الذين ينغمسون في غفلتهم

ويلٌ للحكيم

الذي لا يعلمُ حكمتهُ

ويلٌ للسلاطين

الذين يسيطرون على المتروكين والمقطوعين

ولا ينجزون أعمالاً حسنة

إنهم سوف يسقطون في النار المستعرة

بأيديهم يؤججون هم النار

وبشفاههم يشعلون الحريق

ويلٌ للقلب الشرير

الذي يتملكه الخبث واللؤم

إن الشرّ يسيطر عليه

لذا سوف يفنى هو مع فناء العالم

سوف يجد هو نهايته مع فناء العالم»[١٠٠]

هذا المقطع المنتخب من بين مقاطع كثيرة يشير إلى التحذيرات المتكررة لحياة الكبرى والموجهة للبشر أن لا يغفلوا عن ساعة فناء العالم القادمة.

ب. التنبؤ بفناء العالم:

تتردد نبوءات فناء العالم كثيراً، وتتحدث هذه النبوءات عن الكيفية التي ستصبح عليها الأرض والكواكب والبشر ومصير الأرواح (نيشماثا):

«إذ أن تيبل سوف تهلك وتفنى قريباً

والجبلان كلاهما يغرقان

سوف يغرق كلا الجبلين

وسوف تُنتزعُ القوة والنور منهما معاً

سوف تُنتزع القوة كلها

التي يمتلكانها كلاهما إلى حدٍّ كبير
إن شكلهما سوف يغدو حالكاً محتقراً
وهيئتهما تبدو كما لم تعهد هي هكذا عندهما من قبل
إن الأرواح (نيشماثا) التي إعترفت بهما
تنتحبُ وتصرخ وتبكي في مكانها
إنها تقول لهما مخاطبةً :
عندما كنّا نحنُ في ذلك العالم أحياءً نرزق
كان بهاؤها يضيءُ على العالم بأسره
نحن شهدنا لكما
وقدّسنا لكما وسبّحنا بحمدكما ما يفوق كل تقدير
لماذا أصبح الآن شكلكما مزدرياً
وصار داكناً عابساً كما لم يعهد هو هكذا من قبل؟»[١٠١]

في المقطع السابق يتم التركيز على الجبلين اللذين يمسكان الأرض وكيف أنهما سيغرقان وينكمشان ويصبح لونهما داكناً بعد أن كان مضيئاً، حتى أن الأرواح تستغرب ما حصل لهما. ثم يستمر استغراب الكواكب مما يحصل وكذلك كائنات الظلام. ويبدو أن هذه المباغتة بفناء العالم والتي تبدأ بانهيار الجبلين تثير الدهشة عند ساكني عالمي الأرض والظلام. ويصل الأمر إلى أن الأرواح تغرق في شيول التحتية وتقع فريسة للحيّة الكبيرة التي اسمها (أور) بعدها تبدأ الأرواح بالتحرر :

«أن الكواكب ليس لديها توضيح
تعطيه إلى عبدتها حتى يعرفوا هم بما جرى وحدث
الكواكب وأرواحها وعبدتها
وأبناء الظلام وكافة مخلوقاتها
ولكن أرواح (نيشماتا) الناس من سلالة الحياة الكبيرة التي اعتقدت بها
سوف تغرق هي الأخرى في شيول التحتية
سوف تقع فريسةً للحيّة الكبيرة
التي اسمها هو (أور) ربّ الظلمات

ولكن ابتداءً من ذلك اليوم
سوف تتحرر أرواحكم (نيشماتا) وتُنقذ
إن أرواح (نيشماتا) إخواننا المختارين
وأخواتنا المؤمنات
أرواح (نيشماتا) الرجال الصادقين والمؤمنين
سوف تصعد عالياً وترى مقام النور الكبير»[١٠٢]

وهناك من كتاب آخر من الكنزا نبوءة بزوال تيبل (الأرض) والكواكب والصدمة التي يتلقاها (يوشامن وأواثر وبثاهيل) الذين كانوا السبب في ظهور الأرض والإنسان، ثم يرون سلالة الأرواح تسقط إلى الأسفل يوم الحساب الكبير، ثم يصعد يوشامن وأواثر وبثاهيل إلى عالم النور بمساعدة هيبل زيوا:

«سوف تزول تيبل إلى الأبد
وسوف يقضي التلفُ على كلِّ أعمال البيت
سوف تسقط عجلات السماء في حيرةٍ وبلبلةٍ
وتتحطم قيود الأرض المظلمة العابسة
لأن آباءها لا يتّعظون بالنصيحة
إنهم لا يقبلون المشورة، لم يعلموا إياهم ولم يتكلموا إليهم عن هذا وذاك
فسوف يقعدون مكبلين بقيودهم الخاصة.
إذا تهدّم البيت
وانتهت (فاضت) روح السبعة
فسوف يتلف شكل النجوم الإثني عشر
تلك التي اضطهدت سلالة الحياة
سوف تصبح أعمال تيبل برّمتها مبلبلةً
وسوف ترتجُّ السماء بكاملها
من بعد سوف يأتي يوشامن وأواثر وبثاهيل
ويبصرون هذا العالم.
ثم تحدث زعزعة في قلوبهم

فيضربون على دهاليز صدورهم
إنهم يرون كيف أن سلالة الأرواح (نيشماثا)
جميعها تغرق في العكارة»[١٠٣]

وترد عبارة (الحساب الكبير) دالة على حساب جميع الأرواح الماضية والحاضرة يوم الفناء، لكي يتم تقييم أعمالها فإذا كانت صالحة صعدت إلى عالم النور. أما إذا كانت خاطئة فأنها تهبط إلى الجحيم (شيول) الذي سيفنى هو الآخر في بطن (يوباثين). وسينطلق بالحكم في ذلك اليوم على كائنات النور المخطئة أيضاً:

«في ذلك اليوم - يوم الحساب الكبير -
سوف ينطق الحكم على يوشامن وأواثر وبثاهيل
بعد ذلك يأتي هيبل زيوا
ويرفعهم من هذا العالم عالياً،
ويوشامن وأواثر
سوف يحصلان على معموديتهما في نهر الحياة الأولى العظمى
ثم يأتي دور بثاهيل أثرا
فيُرفع من غيوم الضباب ذات العفونة التي يجلس هو عليها
سوف يُعمَّد في نهر الحياة الأولى العظمى
في ذلك النهر سوف تمسح عنه العفونة
إنه سوف يعانق الحياة الأولى
ويتحدث راوياً عن قرمة القدم وعن الأصفاد التي كان هو قد عانى منها في هذا العالم
سوف يحكي هو عن العذاب
الذي ألمّ به من أبيه
سوف يُطلق عليه ملك الأثري
ويمسك زمام سلالة الأرواح برمّتها بيده
هو سوف يسمى بملك الناصورائيين
وصلاة وتسبيح سوف يصعدان إليه عالياً»[١٠٤]

ج. هيبل زيوا يُعيد الوئام بين الحيوات الأربع:

تنفرد هذه الأسطورة من بين أساطير هيبل زيوا، بأنها تتحدث عن مهمة صعبة للغاية، يقوم بها هيبل زيوا بأمرٍ من مندا إد هيي، وهي إعادة الوئام بين الحيوات الأرع التي نشأ بينها خلافٌ كبير بعد أن خلقت الأرض، فالحياة الأولى، لم تكن راضية عن ما فعلته الثانية (يوشامن) والثالثة (اواثر) ثم الرابعة (بثاهيل) التي أصبح خطؤها فادحاً، لأن هؤلاء تمردوا عليها واتخذوا مساكن خارج عوالم النور حكتى جاء بثاهيل وخلق الأرض بمشاركة كائنات الظلام الذين سيطروا عليها.

كذلك نشب خلاف كبير بين الحيوات المارقة (يوشامن وأواثر وبثاهيل) فقد غضبَ أباثر ويشامن على بثاهيل ووضعه أباثر في أداة التعذيب وأوثقه حتى نهاية العالم وكان هيبل زيوا قد وقف بوجه (بثاهيل) عندما ارتبك في صنع الدنيا:

«أظهر (هيبل - زيوا) نفسه لـ(بثاهيل)
حين ارتبك ذهنه وخابت أفعاله
وهنا قال (بثاهيل):
الرحمة، الرحمة لأفعالي، التي ستولى السيطرة عليها.
وغادر بثاهيل الدنيا التي أنشأها، وذهب إلى أباثر
وكان أباثر غاضباً عليه، فوضعه في أداة التعذيب
حتى نهاية العالم»[١٠٥]

وكانت هذه الخلافات قد أثّرت في عمليات الخلق والحياة كثيراً. وكان لا بد أن تعاد الأمور إلى نصابها تمهيداً لرفع الحيوات الثلاثة قبل أن يبدأ فناء العالم. هذه هي الخطوة الأولى وسيكمل هيبل زيوا خطوته الثانية في الأسطورة القادمة.

يعتزم الأثري الذين يحرسون الكنز المنير (كنز الأرواح) الذهاب إلى مندا إد هيي والتحدث معه عن ما في الكنز وعن الطريق الحي الذي يجب أن يوضح للرجال ذوي الخبرة بالعدل والإنصاف على الأرض لكي يسلكوه (بعد الموت)، والذهاب إلى المانا الرؤوف والتحدث معه. والذهاب إلى طرف دار يوشامن وأعماله الخاطئة والنفاق الذي بذره أمام أقدام الحياة الكبرى وبه بدأت المشاكل. وحين عرفت الحياة الكبرى بذلك جهّزت ٥٥٠ ألف أثري للذهاب إلى مندا إد

هيي خرجت من النهر، أما من أرض الأثير فقد خرجت ٤٤٤ ألف أثري، ومن أسفل العرش ٦٦٠ ألف أثري، كلّها ذهبت إلى مندا إد هيي وتكلمت معه بصراحة:

«لماذا خلقكَ ملك النور
وجعلكَ ملكاً في الأثير؟
لماذا لا تذهب أنت إلى دار يوشامن
وتعدّ أعماله على وجه الكمال؟
يوشامن ينبغي أن يعلم
بأن قوة الحياة أكبر من قوته الباطلة
إن أثري النور أكثر عدداً
من أبناء الشياطين المنحطين
إن طائفة الحياة أكبر
من ثلّة الأشرار المتشرذمة
الآن أخذت أنت النور
ورميت به أمام أقدام العظمى
لقد أخذت المانات اللطيفة
وألقيت بها في الأجساد الباطلة
أنتَ أخذت الزهور ذات العبير الطيب
وكدّستها على شكل أكوامٍ أمام البيت الخرب»(١٠٦)

كل هذا الكلام وآخر غيره كان الأثري يودّون أن ينقله مندا إد هيي إلى يوشامن، وهنا قفز مندا إد هيي من عرشه ونادى هيبل زيوا وأبلغه أن يذهب إلى يوشامن ليعيد اللؤلؤة الطاهرة (الروح) إلى مكانها في الأعلى. وحين فعل هيبل زيوا ذلك أجابه يوشامن ماذا أفعل بجسمٍ بدون روح معترفاً أنه أنزل الروح من الأعلى ليضيء ويحرك بها الأجساد، فأذا بصوت ملك النور السامي بنادي مندا إد هيي ويعاتبه على ما فعل ويخبره ما شأن يوشامن وهيبل زيوا حتى يعرفا كيفَ نزل كنز الحياة إلى الأرض وتكوّن هناك. وهنا قفز مندا إد هيي من عرشه ولبس (٦١) ثوباً من أثواب البهاء وقصد يوشامن ليقوم هو بهذه المهمة، وحين وصل إلى دار يوشامن غطى بهاؤه نفاق يوشامن واهتزّ داره والكواكب انكفأت على وجهها والأرض انكمشت وتقلصت والقبة

الزرقاء طوت نفسها كما لو كانت حصيرةً وظهر ماء أسود تحت عرش أواثر وسقط بثاهيل على وجهه وشكى من قيوده (حيث هو سجيناً في نقطة حراسته) وشكى من يوشامن الذي وضع حارساً ومن أواثر صاحب الميزان.

لقد أغضب هذا الكلام يوشامن فقيّد بثاهيل بـ(٦١) وثاقاً حول بثاهيل فما كان من بثاهيل إلا الشكوى عند أبيه أواثر متذمراً من ما فعلاه به، وهنا وصل صوت بثاهيل إلى الحياة الكبرى فنادت مندا إد هيي وقالت له: كل ذلك حصل بسبب بهائك الفائق حيث دبّ الخوف بينهم، والآن يمكنك أن تتحدث مع يوشامن وقل له إن من الطبيعي أن لا ي عرف الكائن الأدنى ما أفعل أو ما أقصد فالشمس يجب أن لا تعرف أنها تحملُ جزءاً من البهاء والقمر يجب أن لا يعرف بأني وضعت الإشارة على نوره، وبثاهيل لا يجوز أن يعرف كيف سقطت الروح في الجسد وكيف يتكلم الدمُ فيه. أي أن الحياة الكبرى تريد أن تقول له أن هذه الأسرار يجب أن لا يعلم بها أحد ولذلك هي غضبت من معرفته لها ومعرفة هيبل زيوا، وطلبت من يوشامن الذي خاطبته باسم (باركدّا) أن يسمع بثاهيل ويفك قيوده لكي يتحرر فكره من النقصان والعوز.

ولنتوقف هنا.. فالحياة الكبرى ترى أن السجن أو الوثاق يجعل الكائن عبداً ويجعله يرتكب النقصان والعوز.. فهل تشير هي بذلك إلى هجنة بثاهيل الخلاسية وإلى الغضب الذي قوبل به والذي جعل منه عبداً أجبره على ارتكاب النقصان والعوز.. لا شك أن هذا ما قصدته الحياة الكبرى.

عندما سمع يوشامن بكلام الحياة الكبرى انحنى لها وفك وثاق بثاهيل ولكنه أبقاها حوله وتكلم معه بكلام ودود فثبت قلب بثاهيل وسأله: لماذا قيدتني إذن؟ وعند ذاك أدرك مندا إد هي أن عركاً سيحصل بين الاثنين فوقف بيهما حاجزاً ثم أمر هيبل زيوا بأن يعظ يوشامن ويثبت قلب بثاهيل ففعل ذلك. وسأل يوشامن: لماذا تركت القيود حول بثاهيل؟ وعندما سمع يوشامن بذلك وفطن إلى أن سره الذي كان قد أخفاه انكشف. أي أنه لم يرد أن يفك قيود بثاهيل كلياً. وحين ذهب هيبل زيوا إلى بثاهيل فرح به هذا وأُضيئت داره ثم قال هيبل زيوا لبثاهيل:

«هدّئ من روعكَ وكن ساكناً، بثاهيل، مع سرِّك

ضمن نطاق هذا العالم

.احفظ اسمك الآن في شكينتك
ووضّح الكنوز ذات البهاء
إني أريد أن أعطي إياهم المعرفة عن كلّ شيء
إني أريد أن أعلّم الرجال ذوي الخبرة بالعدلِ والإنصاف
الرجال الذين يتكونون من اللحم والدم
إني أريد أن أعطي إياهم المعرفة عن كلّ شيء
إني أريد أن أعلّم التلاميذ
أولئكَ الذين يذكرون قول الحياة :
إذا رزح على كاهلكم عبْ الشرّ
وسُلّط عليكم عاب السخط والجور
فأياكم والكفر واللعنة ولا تميلوا للسقوط
ولا ترموا المانا من عرشه أرضاً
إيّاكم أن تلعنوا بثاهيل أثرا .
والسبب أنه عندما طلبَ هو جزءاً من الحياة لم تلبِ هي طلبه
إنها لم تعطِ إياه قسماً من الدار
ولم تمنحه السيادة على كل شيء
على كلِ من يلعن بثاهيل أثرا
سوف يقع غضبٌ كبير
على كلّ من يحاول أن يسقطه من عرشه
سوف ينطق الحكم
إني ربطتُ وحميت أعماله
ولم أمارس عليها الباطل والنقصان
إني ثبتّ قلب بثاهيل في مكانه
لكي لا يتمكن النقصان والعوز أن ينالا منه»[١٠٧]

ثم يذهب هيبل زيوا إلى دار أواثر الذي يرحب به ويكلامه، ثم يعود، ثانيةً، إلى دار يوشامن الذي يفرح به ويطلب منه معرفة الحياة الكبرى ثم يأخذ زهوراً ذات عبير طيب ويغمسها في النهر ويضعها على رأس هيبل زيوا كأكليل في غاية الكمال ويقول له : آخ، أنك برعم، أنتَ

من نبت ونما في الأثير وارفاً. من ذا الذي خلقك. من ذات الذي منحكَ القوة والثبات؟ فيرد عليه بأن الحياة هي التي خلقته وثبتتهُ.

وهكذا بعد أن استطاع مندا إد هيي (عن طريق هيبل زيوا) أن يلائم بين يوشامن وأواثر ويثاهيل وأن يعيد الصلة بينهم وبين الحياة الكبرى. تقوم الحياة الكبرى بأقامة عرشٍ ليوشامن عند مصبٍّ (فراش زيوا) الذي هو (الفرات السماوي) فيطلب مندا إد هيي بأن يجهز هذا العالم بالماء الحي بلا حدود ولا يجعله ناقصاً، ثم يرجو من الحياة الكبرى أن تمنحه بركتها لكي يضع قلب يوشامن على مسنده (أي يثبته) لأن يوشامن لم يقل بأن هيبل زيوا تكبّر عليّ، أي أنه لم ينتقص من هيبل زيوا بسبب الخلاف الذي حصل بينهما (ولذلك لم يثبّت هيبل زيوا قلب يوشامن فيريد مندا إد هيي أن يقوم هو بذلك). فوافقت الحياة الكبرى وقال مندا إد هيي ليوشمن:

«لتنعم عليكَ جبال البهاء بالبركة
ولتكن قوياً جباراً بمرتفعات النور
إيّاك باركت أرض النور
وإيّاك ثبت المقام النوراني
أنتَ هو الماهر بين الأثري، إخوانه،
المنظم لكافة عوالم النور»(١٠٨)

وهناك يتعمد النص إلى الخلط بين مندا إد هيي وهيبل زيوا ويبدو كما لو أن الذي قام بتثبيت قلب يوشامن هو (هيبل زيوا) وهذا امرٌ طبيعي في النصوص المندائية وخصوصاً بين هذين الكائنين النوريين العظيمين (فهما إخوان وهيبل زيوا بمثابة ابن مندا إد هيي وشبيهه). وحين يصعد هيبل زيوا إلى أبيه (الحياة الكبرى) تمتدحه وتقارنه بشيتل وأنوش:

«إن قدوم هيبل أثرا
هو كقدوم شيتل الذي يزور دار أصدقائه
عندما سمع التلاميذ الصوت،
صوت أنوش، الأثرا الكبير،
انحنوا ساجدين أمام الحياة العظمى
وحمدوا الحياة الكبرى على حدٍّ يفوق كلَّ وصفٍ

الأثري وقفت منتصبة من عروشها
وجعلت تعمدني بتعميدها وتقويني بصوتها الرخيم
شيتل أثرا دلف داخلاً
وخاطبني بقوله: هيبل زيوا
إنه تكلم قائلاً:
ليتلألأ ثوبك منيراً ولتكن هيئتك مبجلةَ
عند أبيكَ، مار إد ربوثا،
إنه صنع لي إكليلاً طاهراً
الذي يحفظني من كلِّ ما هو بغيض
إنها (الحياة) دعتني أن أحتلَّ مكاناً في شكينتها
المكان الذي كانت هي قد احتلته سابقاً
وهو (شيتل) غمرني بنورٍ عبر صوت الحياة
ونطق باسمي في مقام النور
إن الحياة تسمو مرتفعةً وهي منتصرة
ومنتصر هو الرجل الذي مرّ هنا عابراً»[١٠٩]

د . صعود يوشامن وأباثر وبثاهيل إلى عالم النور:

لم يكن من السهل أن تصعد الكائنات النورانية المخطئة إلى عالم النور عند حلول ساعة الحساب الكبرى ومجيء الفناء، ولذلك كانت هناك أكثر من محاولة للعفو عن الحياة الثانية والثالثة والرابعة بسبب خطيئتها في الخروج على عالم النور وتكوين عوالم مستقلة منقطعة عن عالم النور.. لقد تحدت الحياة الكبرى (الأولى) وتحدت الحي العظيم.

يذكر الكتاب الخامس عشر من الكنزا ربا المحاولة الناجحة التي حصلت قبل فناء العالم. ففي الجزء الخامس عشر من الكتاب الخامس عشر يقوم هيبل زيوا بمهمة رفع يوشامن وأواثر وبثاهيل إلى عالم النور قبل أن يدمرهم الفناء الشامل فينجح هيبل زيوا في الحصول على مغفرة الحياة الكبرى عن بثاهيل بعد أن يحشّد الأخير جيوش الشر بمواجهة والده وجده أواثر ويوشامن ومنعاً لكارثة كونية تضرّ بعالم النور تغفر الحياة الكبرى لبثاهيل أولاً ثم يصعد معه أواثر ويوشامن.

وسنتناول هنا هذه الأسطورة التي قام بها هيبل زيوا بأوامر من الحياة الكبرى:

أعاد (الطاهر المختار) والمقصود به هيبل زيوا محاولته لمد الجسور بين عالم النور والحيوات المارقة لضمها إلى عالم النور بسبب قرب فناء العالم، ولذلك فإن الحياة تُلبسه البهاء وتجلبُ نوراً غزيراً وافراً وتغطيه به وتعطيه درعاً من صلابتها وتأمره بالذهاب إلى الحياة الثانية ليعطيها معرفة ويعلّمها بالأسرار الهادئة التي سبقت الأسرار الصعبة وبأبناء سلالة الحياة الذين سبقوا أبناء سلالة الظلام. وحين وصل هيبل زيوا إلى دار يوشامن قبفز من عرشه وناداه باسمه وبألقابه ومنها كوشطا الكبرى ورئيس الكنزاوري (أي حافظي أو حارسي الكنز الذين ينعكس عليهم بهاؤه).

ثم أعطى هيبل زيوا يوشامن المعرفة التي أمرته الحياة بأعطائها له ثم قال ليوشامن سائلاً إياه:

«إني أعطيت إياك سلطان قوة صوت الحياة العالي
الذي كسبتَ أنت منه النصر
إني منحت إياكَ سلطان قوة البهثا والكوشطا والمامبوغا
يا من أنت راس السلالة كلّها
عند الخلق الأول
من نشأ من الرجال؟
أيّ رجلٍ كان قد خُلق
ومن كان ذلك الذي فيه نقصان وعوز»[١١٠]

عندما سمع يوشامن هذا السؤال سقط قلبه بين ضلوعه وأجاب هيبل زيوا:

«في الخلق الأول، ما من نقص وعوز كان قد نشأ
في الخلق الثاني، لم ينشأ شيءٌ سيءٌ
في الخلق الثالث، أُضيف البهاءُ على الأثري كافة
في الخلق الرابع، لقد نشأت أنا يوشامن
فيه نشأت أنا، يوشامن، وفيّ كان نقصان وعوز»[١١١]

توضّح لنا هذه الأبيات القليلة قصة الخليقة المندائية بمراحلها الأربع وهي كما نرى خلق (المانا، حلقة النور والحياة، الأثري، يوشامن (الحياة الثانية)) وهي تقريباً نفس الخطوات التي قمنا بعرضها في كتابنا هذا. إن يوشامن هنا يعترف بأنه كان أول أشكال النقص والعوز في سلسلة

الخليقة، أي أنه رأس الخطايا. ولذلك حاول هيبل زيوا أن يتدارك الموقف وحتى لا يقول يوشامن أن هيبل زيوا تكبّر علي فقال له هيبل زيوا مبدياً رغبة في التسامح والرضا:

«أنت أبونا، إن بهاءك وافر ولامع
إذ إن المصابيح قد أعدّت لكَ جميعاً
إنكَ تجلس في مكانك وتضيء السلالة برمّتها
أيها الصالح، تعال وأنرنا ببهائك الوافر
وبنورك الذي لا ينضب، بهذين الاثنين اللذين جلبت أنا إياهما
إليكَ من الحياة الكبرى»[١١٢]

ثم ذهب هيبل زيوا إلى دار أواثر وحين وله وثب هذا قافزاً من عرشه وخاطب هيبل زيوا باسمه ورحب به فقال له هيبل زيوا (أكلمك لكي تبقى على عرشك جالساً) فشكره أواثر. ثم ذهب هيبل زيوا إلى دار بثاهيل (ودور هؤلاء واحدة بعد الأخرى مباشرة بعد عالم النور) ورحب به بثاهيل فقال هيبل زيوا لبثاهيل:

«لماذا لم يُكتب دعاؤك في دار الحياة الكبرى
ولماذا لم تنر هيئتك في مقام النور
لماذا لم تمنح الحياة الكبرى إيّاك البركة
وتعطيكَ الكنزَ الذي لا يُسلب
فأجاب هو على هذا قائلاً:
لماذا يتعين عليّ أن أدخل وافداً وأنحني وأسبّح للحياة الكبرى
على حين هي لا تعترف لي بالجميل؟
عندما تكمل بثاهيل هكذا قائلاً
بدأ ينحب ويبكي على نفسه راثياً
إنه ندب وبكى على نفسه راثياً
ثم تربع جالساً وأخذ يكتب جُذاذةً إلى الكواكب
إن بثاهيل جمع العفاريت
هو جمع الجيش الباطل
إنه حشّد الجيش الباطل

فأخذت هذه العفاريت تتحين الفرصة لكي تثير النزاع
عندما رأى هيبل زيوا هذا
تربع وجلس وأخذ يكتب رسالة إلى أواثر»[١١٣]

وحين استلم أواثر الرسالة حشّد أربعمائة ألف من الأثري، وكتب أواثر ليوشامن ابن الملك فهبّ هذا وبيده هراوة الماء الحي التي يخاف منها العفاريت ويذعرون وتقلد السيف الكبير وأراد ضرب بثاهيل به والإطاحة به من العرش بل وفلق رأسه والقضاء على العفاريت بالهراوة. وهكذا بدأت الاستعدادات للحرب.

لكنّ هيبل زيوا هدّأ من يوشامن، وعندما عرفت الحياة الأولى أدركت أن هذا كان حماقةً من هيبل زيوا فكتبت (رسالة الكوشطا) وبعثت بها إلى البيت الباطل حيث بثاهيل الذي فضّ الرسالة وعرف أن الحياة الأولى قد غفرت له أخيراً. ثم كتب هو إلى العفاريت وفرّق الجيش الباطل ثم تكلم قائلاً:

«احترس الآن، هيبل زيوا،
إنها حماقتكَ وحدك
ثم نهضَ الاثنان كلاهما: هيبل زيوا وأواثر
وكذلك يوشامن وجميع الأثري
وقاموا واجلسوا بثاهيل في شكينته الخاصة به
وخاطبوه بقولهم:
طيّب هو عبير المانا
كم هو طيّب عطركَ أيها المانا العزيز
ممتعٌ هو بهاء الحياة الكبرى
ونو الحياة العظمى
فيما بعد ردّ بثاهيل أثرا عليهم
وخاطب شملهم قائلاً:
ولكن كيف ظهر البهاء على مقدمة وجوهكم، يا أثري، إخواني
وكم عجيبٌ هو بهاؤكمَ
آية في الروعة هو المقام الذي تتربع عليه الكبرى في عرشها

وتسبيحاته ما من حدّ لها أو نهاية»[١١٤]

وهكذا في نهاية الدهور تكاد تنشب حربٌ بين كائنات النور أولاً والعفاريت، هذه الفتنة الكبرى التي هدأتها الحياة الأولى عندما قررت ضمّ بثاهيل إلى عالم النور.

هـ. نهاية العالم:

يوضّح لنا الكتاب الأول/ الجزء الأول من كنزا ربّا اليسار صورة تراجيدية عن نهاية العالم حيث تُخبر الأثري آدم كيف سينتهي العالم والإنسان والأرض وكيف ستسقط الأمم والممالك في هاوية الموت:

١. نهاية الأجيال:

«تأخذ كل الأجيال نايتها وجميع المخلوقات تهلك وتفنى. الينابيع والبحار قاطبة تجفّ وتيبس والأنهار والجداول تنضب وتنقطع. الجبال والمرتفعات سوف تتهدم وتندثر وتغور»[١١٥]

٢. نهاية الدول والممالك والمدن:

«إن بابل ويورسب سيصبحان قفراً ويفنيان وسوف يكونا كما لو كان كلاهما لم يوجد قط. إن أرض الفرس وأرض الرومان سوف تتهدمان وتتدمران وتصبحان أنقاضاً كأنهما لم تكونا على الإطلاق. أهل السند والهنود يهاجمون بعضهم البعض الآخر وإقليم السيمرائيين وإقليم الطورائيين وجبل الحديد يقتل بعضهم البعض الآخر، إنهم يصدرون الحكم على قاتلهم والأرض تقضي بالعقوبة على كلّ من كان قد هدر دم أ؛ د أبناء آدم وسحق صور الذين على شاكلته. إن الحكّام وأعوانهم والخائنين لزوجاتهم واللصوص والمزيفين والمبلغين والمهربين والمحولين لعلامات الحدود والسحرة والأحبار والكهنة والمخبرين عن الغيب والمستقبل والطاعنين بألسنتهم والرسامين والمنجمين والعرافين (الكلدانيين) ما لهم هو النار المحرقة»[١١٦]

٣. نهاية الأرض:

«إذا تداعت الأرض إلى أنقاضٍ ورمم والسماء تبدت بدون نجومٍ والشمس والقمر كلاهما يغيبان إلى الأبد والمصابيح تنطفيء وتخبو ورياح البيت الأربع تتراجع إلى موطنها الأصليّ وجميع الشياطين يتلاشون في ظلام عميق»[١١٧]

٤ . نهاية البشر :

«سوف يتحرك الأطفال الصغار الذين لم يدركوا كنه الحياة بعد. وسوف تخلّفه وراءهم أيضاً الغلمان والفتيات الصغيرات والشبان والشابات الذين لم يحتفلوا بيوم خطوبتهم بعد. وسوف يتركه كذلك الخطاب والخطيبات ويسقط التراب على وساداتهم. سوف تنفلق المسامير من سريرهم الوثير وسوف يتركون هم العالم بيدين صفراوتين. أما المتزوجون من الرجال والمتزوجات من النساء الذين اشتروا واقتنوا البيوت فسوف يهجرونها ويمضون إلى هناك ويلقون حتفهم في جحيم شيول. وأما العجائز وأرباب البيوت فهم يتمنون الموت بيد أنه لا يأتي إليهم ومن ثم يتركون هم العالم بغير اختيارهم. سوف يعرض الملك عن تاجه مرغماً. وسوف يتخلون النبلاء عن فخفختهم وأبّهتهم كارهين. أما النساءُ فيزول ويختفي جمالهن والنساء الكريمات المحتد سوف يتهادين حافيات الأقدام إلى المقبرة»[١١٨]

إن يوم الحساب الكبير، في المندائية، يقوم على أساس صعود جميع الأرواح التي ما زالت خارج عالم النور وخصوصاً من تيبل (الأرض). فإذا كانت هذه الأرواح مثقلة بالأخطاء تماماً فإنها ستغرق، مباشرة بعد خروجها من أجسادها، في بحر سوف الكبير. ومن هذا البحر تنحدر إلى جحيم (شيول) أو (جهينا السفلى) فتحرق في النار وتسقط في القدور الفوّارة.

أما الأرواح الأخرى فإنها تصعد إلى الأعلى ولكنها قد تُستوقف في أية محطةٍ أو منزل من المنازل المخصصة لنوع محدد من الذنوب (كما سنرى في المبحث القادم) وتُعامل حسب ذنوبها وإذا اجتازت هذه المنازل بسلام فإن هناك جبالاً يجب أن تجتازها. وحين تصل إلى المطراثي (المطهر) تكون هناك ثلاث محطات آخرها لأواثر حيث توزن الأرواح فإذا كان هناك ما يثقلها من الأخطاء فإنها لن تصعد إلى الأعالي وإذا كانت أخطاؤها قليلة فإنها تجتاز أصعب مرحلة وتصعد إلى عالم النور. وسيكون هذا الموضوع هو موضوع المبحث القادم الذي ينناقش فيه مفصلاً دورة الأرواح وصعودها.

يحصل الفناء الأخير في الـ(٧٩ سنة الأولى) من علامة السمكة (نونة) وسيكون بالريح والهواء.

و . الفناء الأخير للعالم:

الفناء الأخير يتم على يد (يوياثين) الذي تسميه الكنزا (العجوز الكبير الذي يُحرر من قيوده ويصبح طليقاً).. ويبدو أنه أحد العمالقة أو الجبابرة المسجونين من قبل عالم النور لكنه ليس أحد كائنات النور ولم يُذكر اسمه كأحد كائنات الظلام. لا نعرف عنه الشيء الكثير سوى ضخامته لدرجة أن سمك شفة فمه يساوي ١٤٤ ألف ميل.

تقول آخر فقرات كنزا اليمين بأن يوياثين «يفتح فمه ويبتلع الأرض تيبل ويبلع الكواكب السبعة مع ملوكها الإثني عشر ومسيّريها الخمسة وكذلك الهمورثا والملائكة وأرواح المذبح والعفاريت والديفي والليليث وجميع الأرواح التي وجدت مذنبةً أثناء التحقيق في يوم الحساب: التي أنكرت الحياة الأولى، إنها سوف تُقطع (تنقطع) في الظلمات. ثم يطبق فمه فيموت الجيمع نتيجةً لذلك ويأخذ نهايته في بطنه العبل فترتفع رائحته الخالنقة من تيبل إلى علٍ»[119]

هكذا إذن تفنى الأرض ومن عليها وملحقات عالم الظلام لتي خلقت معها من كواكب وأبراج وتفنى جميع الشياطين والأرواح الخاطئة عليها. أما عالم الظلام فيبقى ويخمد حاضناً كائناته والأرواح المنقطعة فيه. ويبقى آخر مشهد هو الرائحة الخانقة التي يخلّفها مشهد الفناء.

«ثم تأتي جميع أثري أرض النور هابطةً وتجتمع في طرف هذا العالم وتبدأ بالكلام قائلةً: هكذا سوف يصعد على الرائحة العفنة كلُّ من يفكر بأن يخلق عالماً يشبه هذا العالم الذي كان بثاهيل قد خلقه»[120]

أما عالم النور فإنه يبقى متألقاً إلى الأبد ويسمى (عالم البهاء والنور) وفيه تسكن «كل أرواح نيشماتا) الرجال الأفذاذ الذي اعترفوا بالياة الأولى سوف لن تكون مذنبةً ولن يصدر عليها حكما لمحكمة بأن تموت موتاً ثانياً. إن أرواح (نيشماتا) هؤلاء الرجال سوف تعيش هنا وتحيا»[121]

وكنا في الفصل الثالث قد تعرضنا إلى أسطورة (شلمي ربّ المنزل) الذي تعرض لامتحان والده يثرون، ونرى ضرورة استنكار السؤالين الأخيرين مع جوابيهما الذين وردا على لسان هيبل زيوا وكانت لهما صورة أخرى عن الفناء الأخير للعالم وهي كما يلي:

«إذا بلغ العالم نهايته فسوف تهوى الأرض إلى أنقاض وسوف تنطوي السماء حول نفسها كالحصائر، وسوف تجرّ الشمسُ أشعتها ويسحب القمر نوره وسوف تقع النجوم والأجرام

السماوية ساقطة كما لو كانت ورقاً جافاً. وسوف تدخل النار في غمدها ويتراجع الماء الذي أجريته وسوف تمسك الرياح الأربع بأجنحتها مانعةً إياها من أن تهبّ بعد. إن روها وأور والكواكب السياة وأرواح الناس الأشرار الذين اعتنقوا دينهم، أولئك كلّهم سوف ينادي بعضهم على البعض الآخر ويمسكه بيده. عندما يرسف الجميع بالأغلال فسوف يُقذف بهم مثل رمّانة من رصاص في أور، ربّ الظلمات، في جوفه الضخم ذاته. الدخان يتصاعد من معدته وسوف تتأجج النار ملتهبةً لكي تلتهم أور، ربّ الظلمات، وإيفاذ الروها الكاذبة والكواكب بأسرها وأرواح الناس الأشرار أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا مذهبهم»[١٢٢]

يتحدث هذا النص عن (أور) وليس (يويايثين) الذي يبتلع عالم الأرض والكواكب وكاناتهما ويفنى ويضيف لذلك (روها). فهل هذا يعني أن أور هو يوياثين؟ ربما ويبدو أن روها تحترق هي الأخرى في جوف ولدها وزوجها أور.. ولكن عالم الظلام لا يُشار له في النصين إذ ربما يبقى وقد فنى منه روها وأور وهما روح وجوهر هذا العالم. وربما يكون قد بقي هذا العالم خاملاً إلى الأبد.

المبحث الثالث

دورة الروح (نشمثا)

صار واضحاً أن عالم النور هو عالم أزلي ساكن يمتاز بالثبات، وحين بدأ ظهور الحياة الثانية (يوشامن) متمردةً كان ذلك يعني تغيراً حركياً أخرج عالم النور من سكونه، فقد ظن كبار كائنات عالم النور أن هذا تحريضٌ من عالم الظلام يستوجب إيقافه. ولكن الكائنات المتمردة، هذه المرة، كانت كائنات نورانية خرجت من عالم النور نفسه ولم تكن كائنات ظلامية حتى يتم قمعها مباشرة.

كان ذلك العمل قد جعل عالم النور في حيرةٍ من أمره، وبلغة أخرى كان لا بد أن يتنازل قليلاً ويشارك هذه الكائنات محنة خروجها، وهو ما جعله يشارك تدخلات عالم الظلام في خلق الأرض والإنسان من جهة ويحذّر من التمادي في هذه المشاركة حرصاً على نقاوة عالم النور واستقلاله من جهة أخرى.

إن ظهور عالم الأرض والإنسان أجبر عالم النور على المشاركة في هذا العالم فقد جعل الماء الحي يتدفق من (يردنا) النور إلى الأرض وبذلك بثّ فيها نوره عن طريق الماء الحي. ثم أضاءَها بضوئه عن طريق ضخِّه لبهائه إلى الكواكب المعتمة لتعكس ضوءها إلى الأرض.. وهكذا.

لكن الموقف المشارك الأكبر هو في الإنسان. فعندما أراد بثاهيل والروها والكواكب خلق الجسد البشري سارع عالم النور إلى وضع هيكل النور في داخله عن طريق (الروح) أو بذرة النور أو نسمة النور (نشمثا) على أن تكون هذه النسمة ديناً يجب إرجاعه عندما ينتهي عمر الإنسان ويجب عودته إلى مكانه في خزينة الأرواح (كنزا) الموجودة في عالم النور مثل كنز ثمين.

لكن السؤال الذي كان يطرحه فلاسفة الدين المندائي هو: ماذا إذا انجرفت نسمة النور (الروح) وأخذت من الجسد المادي الغريزي رغباته ونسيت أنها من عالم النور وتمسكت بالجسد ورفضت الخروج منه طواعية؟

عند ذاك كان الجواب مباشرة هو: يجب محاسبة هذه الروح على أخطائها.. ثم يجب وزنها

فإذا كانت مثقلة بالأخطاء فلا يسمح لها بالصعود إلى عالم النور وتلويثه بها بل يجب أن تعود إلى الجحيم (تحت عالم الأرض) وتحترق هناك لتدفع ثمن أخطائها.

إن عملية نزول الروح ودخولها في الجسد ثم خروجها منه وعودتها (أو عدم عودتها) إلى عالم النور يشكل دورة واضحة المعالم يمكن تتبع خطواتها العامة مع كل إنسان. تنقسم دورة الروح، بصورة عامة، إلى مبدأين أساسيين الأول نازلٌ من عالم النور إلى الإنسان يسمى (المبدأ) وهو عملية الخلق وبث الروح في الجسد المادي، أما المبدأ الثاني فهو صاعدٌ من الإنسان (بعد الموت) حيث ترقى الروح وتعود إلى عالم النور وهو (المعراج) أو القيامة الروحية أو (المعاد).

ولكننا وجدنا من التفاصيل ما يكفي بحيث اتيح لنا أن نقسّم دائرة الروح، من وإلى عالم النور، إلى ست مراحل تفصيلية نتتبع من خلالها كلّ ما يجري لهذه الروح وكأننا أمام ملحمة جلجامش أو أوديسوس في ذهابهما وعودتهما من وإلى أوروك وأثيكا على التوالي.

إن الروح (نشمثا) جزءٌ من عالم النور وهي بمجرد خروجها من هذا العالم تتحول إلى رسول نوراني يبلغ رسالته لعالم غير ذلك العالم الذي خرجت منه، وعليه العودة إلى عالمه بعد إكمال رسالته. أما إذا طاب له البقاء في العالم الذي أُرسل إليه ونسى رسالته والمكان الذي أتى منه فإنه يكون بذلك قد ظلّ واستوجب محاسبته، وعلى هذه الروح عندما يحين وقت صعودها أن تُسأل ويتم التحقيق معها فإذا بدا أنها قد عبرت كل محطات التحقيق فإنها توزن في ميزان أباثر ليُكشف بدقةٍ عن ما خفي من ذنوبها فأما تصعد إلى عالم النور أو تهبط إلى عالم الجحيم (شيول).

لنتتبع دورة الروح من منبعها حتى مصبِّها في الخطوات الست الآتية مستعينين بالشكل الموضّح لهذه الدورة.

١. الخروج:

تكون الروح، في عالم النور، مخزونةً أومكنوزةً في (الكنزا) وهو كنز الأرواح الذي يشرف عليه مجموعة من الأثري يسمون (كنزاوري) تناط بهم مهمة حفظ الأرواح وحراستها في هذا الكنز، ويكون أحد الأثري العظام مسؤولاً عن هؤلاء الأثري ويسمى (أمين الكنزاوري) ويكون عادة هيبل زيوا (ياور زيوا) أو مندا إد هيي. ويسمى ذلك الكنز، عادة، (كنز الحياة) وهو الاسم الذي اختطفه (ماني) من المندائيين وسمّى به كتابه المقدس (كنز الحياة) تجنباً لذكر كلمة كنز التي

تذكّر مباشرة بالمندائية.

وحين يأمر الحي العظيم (أو الحياة العظمى) أن تنزل أحدى الأرواح تكون هنالك نسخة لها في عالم النور تسمى الشبيه (دموثا) تشبه الجسد أو الشكل الي ستحل فيه هذه الروح، وتطيع الروح الأصلية الأمر وتخرج وفي النقاط الآتية سنتتبع خطوات خروجها:

١. إن الروح (نشمثا أو مانا) تجلسُ في الكنز المنير ذي النور الساطع وتتكلم بفصاحة لسان الأثري وتسبِّح للحياة العظمى، ويتكلمون معه (كلّ واحدةٍ منها أكثر حسناً ورقةً من الأخرى).

٢. تستدعي الحياة الكبرى الروحَ (مانا) وترفعها إليها عالياً وتقول لها (للمانا):

«إن العالم خلق عن طريق الخديعة
هيا، إنزل هابطاً واذهب مغادراً إليه
إن لم تهبط أنت نازلاً
فمن سيكون له إذاً معاوناً ومساعداً
ومن سيُلقي عليه بساط البهاء
من عساه يسبغُ عليه طابع البهاء
ويمنع بأن تقطع (تنقطع) السلالة وتبتر؟»[١٢٢]

ثم توضح له أن حرارة هذا العالم أصبحت شديدة، الاضطرام، وتتلضى مستعرةً وتتوهج بالجمر، ويرد المانا على الحياة الكبرى ويطلب منها أن توضِّح أي نوع من الأعمال تطلبين مني أن أنجزها فتقول له:

«ارتحل ذاهبا، إهبط إلى العالم نازلاً
وخُذ أنت جسماً يكون لكَ رداءً
إذهب واجعل لك من الجسم كساءً
ذلك الجسم الذي أمرك المرؤ بأن تتحلى به
إمضِ وترعرع تحت أجواء الأسرار
بحيث أن الأسرار تمسي مضيئةً وتتلألأ بواسطتكَ
يتعين عليك أنتَ أن تنال وتنير الأسرار
وينبغي أن تنال سلالتكَ حظاً من القوة والثبات
إن سلالتك ينبغي أن تصعد عالياً إلى مكانها

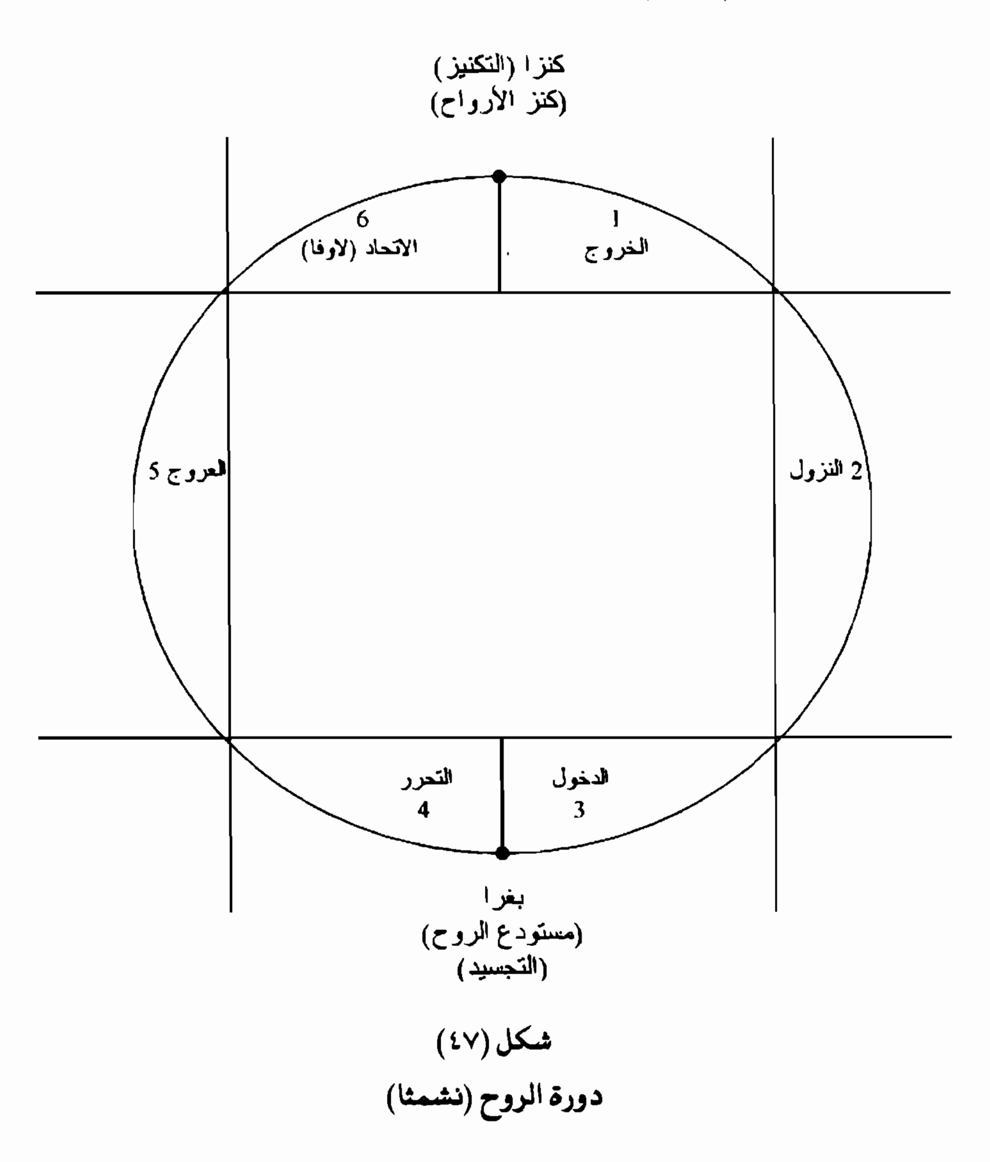
وينبغي أن يمسي كأس العالم مترعاً
إن كأس العالم يصبح فائضاً بعد أن يبلغ السيلُ الزُبى
وينبغي أن يقوم بحراسته مصباحان
إن مصباحين يقومان على حراسته
وعلى هذا ينشأ بهاءٌ لا حدود أو نهاية له
بواسطة بهائك سوف يكون البيت محمياً
وبكَ سوف ينهض العالم ويقوم
ينبغي أن يكلأكَ خفراءٌ نقيون برعايتهم
وجذر أصلك يتسلق مرتفعاً إلى ما فوق ويصعد شامخاً
ليصعد النصرُ عالياً
الذي ناولته (وزّعته) أنا بنفسي في مكانكَ»(١٢٤)

في هذا المقطع الواضح والصريح تطلب الحياة الكبرى من الروح أن تذهب لكي تتخذ الجسمَ رداءً لها. وتكتسب مسألة ارتداء الرداء أهمية كبرى في الأدب الديني المندائي، لأن الشروع بأي عمل يفرض على الأثري الذي سيقوم به أن يتعمد أولاً ثم يرتدي الرداء ليشع ويزداد ضياءً، وكذلك ليتّضح. لأن ارتداء الرداء يعني الخروج من حالة الكمون إلى حالة الظهور. أما التعميد فهو نوع من إعادة الخلق. ولذلك يكون الأمر هكذا: يعاد خلق الكائن (الذي له اسم معين) بالتعميد ولكنه يبقى كامناً ثم يظهرُ الكائن ويشعّ عند ارتداء الرداء. ولأن (مانا) المكنوزة في دار الكنز كانت قد عُمِّدت قبل أن تُكنز لذلك يكفيها ارتداء الرداء.

إن المقارنة هنا تكمن في أن الحياة الكبرى تطلب من الروح أن ترتدي رداءً مظلماً مكوناً من اللحم والعظم والدم (المأخوذة من عالم الظلام) وليس رداءً من النور. ولذلك سنجد، دائماً، أن أول سؤال تسأله الروح معاتبة الجميع (في الحالات التي سينّوه عنها) هو: لماذا وضعتموني في رداء الجسد المظلم؟

أما ما تطلبه الحياة الكبرى من الروح، أو الغاية من كل هذا النزول فهو لكي (تترعرع الروح تحت أجواء الأسرار بحيث أن الأسرار تُمسي مضيئة وتتلألأ بواسطتك). فهي إذن مهمة جاسوسية تقريباً.. أي أن اروح يجب أن تضيء الأسرار وتعرفها لكي تُخبر بها الحياة الكبرى وهو ما يسهل

السيطرة على عالمي الأرض والظلام، بدليل أن الحياة الكبرى تتحدث عن (النصر العالي) إذا عادت وصعدت الروح إلى عالم النور محمّلةً بالأسرار. ألا تشبه هذه المهمة ما بعثت لأجله الحياة الكبرى مندا إأد هيي وهيبل زيوا في رحلتيهما إلى عالم الظلام، إن كشف أسرار عالم الظلام يحتاج حاذقين عظيمين مثل هؤلاء.. أما الأرض فتحتاج إلى روح (نشمثا أو مانا) لكشف أسرارها لأنها أصغر بكثير من عالم الظلام.



شكل (٤٧)

دورة الروح (نشمثا)

ومع ذلك تسأل الروحُ الحياةَ الكبرى عن المكان الذي ستذهب إليه، وتحتجُّ أحياناً على هذه الرحلة لأنها ليست مسؤولة عن خلق الأرض لكي تذهب إليها وتتحمل وزر فكِّ أسرارها عن طريق إقامتها في جسد الظلام:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
الذي يحاول من خلال نور أبيه أن يوضّح الأمور.
يا أبتاه، لقد استلمتُ أنا منك التعليم
إنكَ أنت كنت لي مساعداً
إنكَ كنتَ لي مساعداً
قل لي: أين تبعث أنت بي؟
فرد عليه الأب الأول قائلاً:
نحنُ نبعثُ بكَ إلى ههنا، إلى مكانك
الذي خلقته الأثري، الأبناء الكاملون.
إذا بعثت أنت بي إلى هناك
قل لي: مَنْ مِن الأثري خلق المكان؟
قل لي: من من الأثري كان قد خلقَ المكان؟
لكي أتحمل أنا البؤس والتعاسة التي فيه
يا أبتاه، إذا قُذف بي إلى هناك»[١٢٥]

إن من المعروف بأن الذي خلق الأرض هو بثاهيل ثم أضاعها وأصبحت بيد الروها والكواكب وهو الذي اقترح خلق الإنسان ليكون وسيلة للسيطرة على الأرض بعد فشله ولكنه فشل أيضاً في جعله في جانبه لأن الروها ومساعديها سيطروا على الإنسان، وأنه هو الذي يتحمل فشله ويجب أن ينزل إلى الأرض ويعيدها ويعيد الإنسان، فلماذا تتحمل الروح (مانا) مسؤولية هذه المهمة؟:

لماذا كان بثاهيل هنا؟
لماذا خلق هو العالم؟
لماذا نشأت الفكرة
وأبعدوني عن مقامي؟

إنهم بعثوا بي إلى عالم الإعتداءات

ذلك العالم المملوء بالعقد والكتمان

إنه مملوء بالنار

ومزروع بالشوك والحسّد

إنه مملوء بالخديعة

ويغصّ بالتضليل والأباطيل»[١٢٦]

إن الروح تتردد قبل نزولها بتعاليم الحياة العظمى وبالحكمة وبالكوشطا (الحق أو العدالة) لأن هذه الأمور هي التي تحتاجها في عالم الأرض دلالة على أن الأرض مليئة بالتهور والأخطاء والأعوجاج:

«مزوّدٌ، مزوّدٌ بصورةٍ تامةٍ أنا

إن أثري النور كانت قد زودتني

إنني مجهّزٌ، إن الحياة جهّزتني

إنني مزوّد بصورة جيدة، إن أثري النور كان قد أمدّني

إنها زودتني بمتاع سفر الكوشطا

إنها جهّزتني بكل ما تملكه من حكمة»[١٢٧]

ويصف كتاب يحيى كيف أن الروح كانت هانئة قبل أن تزل إلى عالم الجسد:

«نشمثا خُلقت في كنّا.. في مناخٍ دافيءٍ جميل، حيث لا تشعرُ بجوعٍ ولا عطشٍ. نشمثا كانت في مستودعٍ حيث لا نقص ولا أخطاء. نشمثا كانت جالسةً، وإكليل آير مثبّتٌ على رأسها. عيناها منبعا نورٍ، تتطلعان إلى الحياة العظمى، وفمها تام النقاء يسبِّح لملك النور»[١٢٨]

إن الروح ترفع صوتها بقوة ضد الحياة الكبرى لأنها فصلتها عنها وبعثت بها إلى عالم الغدر والمكر عالم تيبل (الأرض) حتى دون أن يدري بذلك أمناء الكنز:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى

من ذا الذي أخذني من دار الحياة؟

من ذا الذي نقلني من دار الحياة؟

من ذا الذي بعثني إلى تيبل وتركني أعيش فيها؟

من ذا الذي تركني أعيش في تيبل

من ا الذي أقعدني في منزل أعدائي؟
حتى أن أمناء الكنز لا يعرفون شيئاً عني؟
إن أمناء الكنز لا يعرفون شيئاً عني
إنني قد نقلت ووضعت في منزل أعدائي»(١٢٩)

٢ . النزول :

هناك ما يشير إلى أن الروح تنزلُ إما على سحابة نورانية أو في يد أثريين أو كلا الاحتمالين. وربما كانت هناك مصابيح معهما :

«خُذ بهاءً بغزارةٍ معكَ
ونوراً بدون حدود
خُذ في يدك اليمنى مصابيح معك
وليذهب أثريان إثنان بصحبتك
إجلس على سحابةٍ تعطيك الأمان
بكلمات جديّة لطيفة
خذ بعض الصلوات معك
تلك التي نؤديها نحنُ
خذ من تنويرنا معك
الذي يخلو من الشوائب والعيوب
إذهب مع السحابة الآمنة راحلاً
والأثريان الاثنان ينبغي لهما أن يذهبا معك»(١٣٠)

تختلف غنوصية الديانة المندائية عن الغنوصيات الأخرى كالهرمسية والمانوية في موضوع نزول الروح من العالم العلوي التي ترى أن الروحَ تكتسبُ في طريقها للنزول الكثير من صفات العالم المادي مثل الكواكب وغيرها كما أنها تفقد من نورها وبريقها كلما اقتربت من الأرض ومن الجسد البشري.

المندائية ترى أن الروح تنزل كما هي مسلحة بتعاليم الحياة الكبرى وبرفقة أُثري يحرسونها.

وقد شرحنا تفصيلياً كيف نزلت روح آدم (آدم كاسيا) برفقة مندا إد هيي وأُثري أخرى، ولم يتوقفوا عند أية محطة أو منزلةٍ.

٣ . التجسيد :

يعرّف التجسيد بدخول الروح أو نسمة النور (نشمثا) أو العقل (مانا) إلى الجسد الذي يُعرف بالمنداية بـ(بغرا **Bugra**) ولذلك يمكن أن ننحت الاسم اللاتيني ـ المندائي الدقيق لعملية التجسيد بـ(**Bugration**) وقد وجدنا أن عملية التجسيد هذه تمرّ بمراحل وخطوات يمكن تلخيصها بما يلي :

١. **بكاء الروح**: تصل (نشمثا) إلى الأرض من دار الحياة الكبرى (عالم النور) ومعها الأثري الذين هبطوا بها (يختلف عددهم من نصٍّ لآخر وهم ما بين(٢ ــ ٣) ويحاولون أن يقحموها في الجسد لكنها لا تلج إلى الداخل وترفضُ ثم تأخذ بالبكاء والعويل وتذرف الدموع وتطلب من الأثري أن ينتظروها ساعة واحدة فقط من اليوم ليكون في مقدورها أن ترفع صوتها إلى مقام النور عالياً ثم تتكلم مع الأثري (إخوانها) قائلة :

«ماذا ارتكبتُ أنا من ذنبٍ بينكم
ماذا جنيتُ أنا من معصيةٍ في وسطكم
حتى أنكم تضللوني وتبعدوني عن وسطكم؟
إنكم تأخذونني من موطني وتجعلونني نزيلة في الأسر
إنكم غرّرتم بي ونقلتم إياي من دار أبي»[١٢١]

بل أن الروح تحاول الفرار هاربةً قبل أن تدخل الجسد :

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
إني كنتُ في دار الكنزا المستترة
في دار الكنز المستترة كنت انا
بين أمناء الكنز الكرماء
لم أكن قد رأيت الكنز بعد
الذي فتحه خالقي وأُعجب به إعجاباً شديداً

لم أكن قد رأيت الكنز بعد

ولم أهتف في تنويري بعد

لم أكن قد رأيت الكنز بعد

فما كان منهم إلاّ أن جلبوني وبعثوا بي إلى هذا العالم

كم هو جميل ما كنتُ أنا قد رأيته

وكم هو بغيضٌ ما عرضتم أنتم عليّ للمشاهدة

متى يتهيأ لي أن أفر هارباً

من الظلمات التي عرضتم أنتم إياها عليّ للرؤية؟

متى يتهيأ لي أن أفرَّ هارباً

حتى أذهب إلى هناك وأرى ما كنتُ أنا قد رأيته على الجانب الآخر؟»[١٣٢]

٢ . طلب المساعدة : عندما ترضخ الروح للأمر الواقع تطلب الكلام إلى الحياة الكبرى وإلى مندا إد هيي ليبعثوا لها (رجلاً خيّراً) بسرعةٍ لكي يخلصها من العالم لأن الشياطين سيجعلونها عمياء وصمّاء وخرساء وستبتلعها التنانين :

«إبعث لي رجلاً خيّراً على عجل

لكي يخلّصني من العالم

ليهدم البناء

ويسلّم الجسد إلى سيده

ليُصعدني إلى مقام الحياة عالياً

حيث كان يقف جذري من قبل

حتى لا يرميني الشياطين بالعمى

وكي لا يجعل المذنبون مني أصمّ

حتى لا يجعلوا مني أصمّ بواسطة أشباحهم

فلا أسمع ماذا يقولون عني

الآن تظلمني الشعوبُ والحدود والأسنة

وترمي بي إلى بحر المرارة

الآن تثقل عبادة الأوثان عليّ

فاسلّم نفسي إلى كل مدينةٍ
الآن يربط الشياطين بلورياً بعضها مع البعض الآخر
ومزامير ملعونة تنشد خلال فمي
إنهم يلقنون إياي صوت السقوط
فأنسى ويغيب ربّي عن ذاكرتي
إنهم يرمون بي إلى بئر عميقة
التي يسقط فيها الأشرار فلا يقومون منها بعد
إن التنانين تبتلعني
وهم يأسرون إياي في مسكن البهجة الغناء والموسيقى»[١٣٣]

عند ذاك يخاطبها الأثري الثلاثة ويحاولون تشجيعها ويشرحون لها دورها على الأرض وكيف أنها ستكافح الشرَّ وستضيء أسرار الجسد وأسرار عالم الظلام على الأرض:

«أوه أيتها الروح (نيشمتا)، إنهضي واقفةً، ادخلي
إدلفي إلى داخل الجسد
وكوني سجينةً في القصر
إن الأسد الغاضب سوف يؤخذ بواسطتكِ ويُسجن
الأسد الساخط المكشّر
إن التنين سوف يؤخذ بواسطتك ويُعتقل
والشرير سوف يُقتل في مكانه نفسه
إن ملك الظلام سوف يؤخذ بواسطتكِ ويُقيد بالحبال
ذلك الذي لا يقدر أحدٌ عليه»[١٣٤]

في هذا المقطع يتضح لنا سبب إرسال الروح إلى الأرض لتحلّ في الجسد. إن المقصود من القصر هو الجسد الذي هو أساساً مكان (أور) سيد الظلام. والمقصود بالأسد الغاضب هو (أور) أيضاً. وهو كذلك التنين والشرير وملك الظلام، ويبدو أن مهمة الروح هي في الكشف عن أسرار الجسد/ أور الذي يمهد لاعتقاله وتقييده بالحبال (لنتذكر كيف أن مندا أإد هيي قيّده بالحبال في رحلته إلى عالم الظلام. والسؤال هو كيف سيتم اعتقال وقتل أور من خلال الروح (نشمثا) التي ستحلّ بالجسد؟

إن تذكرنا لقصة الخليقة يحيلنا إلى أن الكواكب هي التي صنعت جسد آدم ووضعت فيه منها ما تريد، والكواكب هذه من ذريّة أور وروها، أما روها فهي التي ستضع فيه الروح الضعيفة (روها) التي هي بمثابة النفس. وهذا يعني أن كلّ جسد بشري هو بمثابة مكان لأور وروها. ثم أن تحليلنا الثيوغوني أوصلنا إلى أن آدم وحواء هما يقابلان من ناحية عالم الظلام كلّ من أور وروها، ومن ناحية عالم النور كلّ من مندا إد هيّي والحياة، وفيهما تحلّ المانا التي هي جوهر الروح.

إن هناك حرباً مستعرة بين عالمي الظلام والنور تجري في الجسد البشري، وعالم النور يريد أن يكشف أسرار الظلام وأور من خلال الروح (نشمثا) التي ستتوغل في الجسد البشري.

وهكذا ينكشف المغزى العميق لنزول مندا إد هيي ثم هيبل زيوا إلى عالم الظلام.. إنه لتقييد وكشف أسرار أور وروها. وهو بالضبط ما تفعله الروح (نشمثا أو مانا) التي تقيد وتكشف أسرار أور وروها في الجسد البشري.

٣. **التزود بالأسلحة الروحية السبعة:** توافق الروح على الدخول إلى الجسد لكنها تطلب أن تزود بـ(سلاحٍ سامٍ) لكي تحارب به الذين يتعقبونها ويتربصون بها، فيتحدث معها (رسول جميع المصابيح) الذي يبدو أن الحياة الكبرى بعثته لتلبية مطالبها فيقول لها:

«أيّ سلاحٍ سامٍ ترغبين فيه أنتِ، أيتها الروح (نيشمتا)
حتى نمنحه نحنُ لكِ من كنز الحياة؟
إن سلاحك هو الناصورائية
الكلمات الصادقة الحقة التي جاءت إليكِ من مقام النور»[١٣٥]

إنه المعنى الدقيق للـ(ناصورائية) (ناصورثا) هو العرفان أي المعرفة الإلهية الحقّة ويسميها النص (الكلمات الصادقة الحقة)، فالروح تتزود بالعرفان كسلاحٍ قبل أن تدخل السد لتدافع عن نفسها ولكي لا تعمى ولا تصمّ ولا تخرس ولاتُبتلع، فالعرفان (الناصورائية) هو دليلها في الظلام (ظلام الجسد والأرض).

ثم يوضّح الرسول للروح بأن السماء والنجوم والأرض والشمس والكواكب والبروج والرياح والأثير والحكمة خُلقت من أجلها (لتتذكر ربّها وتحمده). فتوافق الروح على دخول

الجسد، ويقوم مندا إد هيي بأعطائها ما تبقى من اسلحتها الروحانية:

«باسم سيدي مندا إد هيي
وبقوته ولجتُ أنا ودخلتُ في الجسد
إني خلتُ وولجتُ الجسد
ورضيت أن أكون حبيسةً في القصر
منذ ذلك اليوم الذي ولجت فيه أنا الجسد
أصبحت زوجته على مرّ العصور
إنني صرتُ زوجة له على تعاقب العصور
والشياطين سخطوا عليّ من الأعماق
من الأعماق غضب الشياطين عليّ
وهم يتمنون بأن روح (نيشمتا) الحياة تذهب بينهم
عندما رأيتها أنا
أمسكت بها وتفردتُ معها عن هذا العالم
عندما أبصرني مندا إد هيي
أكسبني قوةً
إنه ألبسني بالبهاء
وغطاني بنورٍ نفيس
إنه وضع عليّ إكليل النصر
ذي الأوراق المنيرة
إنه تكلم قائلاً:
أيتها الروح (نيشمتا)، كوني حذرةً في كلماتك
حتى لا يُزج بكِ مقيدةً في منزل الجباة»(١٢٦)

العرفان (الناصورائية)، القوة، البهاء، النور، إكليل النصر.. هذه هي الأمور التي تزودت بها الروح عندما دخلت الجسد. لكنّ الجزء الثاني من الكتاب الثالث يضيف لها (الكوشطا) أي العدل أو الحقيقة ويضاف لها (الإيمان) (هيمنوثا). وهكذا تتزود الروح بسبعة عناصر تمكّنها من اليقظة وهي داخل الجسد المظلم.

٤ . الدخول في الجسد والاتحاد بالروح المادية (النفس) أو (روها) :

تدخل النسمة النورانية (نشمثا) أو الروح داخل الجسد، ربما عن طريق الأنف كما لاحظنا عند خلق آدم، وعندما تدخل تضيء الجسد، لكنّ تركيبها يتغير قليلاً، فإذا كانت النيشمتا هي (الروح النورانية الأثيرية) فإنها ستجد في الجسد روحاً أخرى هابطة ومظلمة هي الـ(روها) أو الـ(با) وهي الروح الضعيفة، وسترتبطان برباطٍ قوي. وهكذا تتكون (روح الإنسان) من جزئين متّحدين هما :

أ. (روها) أو (با): وهي الجزء الضعيف من الروح ويمكن أن تكون هي النفس، وتلعبُ دوراً كبير الأهمية في الجسد والمسقثا. إنها قوة الحياة الطبيعية والعنصر الطليق الذي يتحرك بحرية في الكائن الحي وبلا إزعاج عبر المكان والزمان. إذ بينما يبقى الجسد مقيماً في الأرض تنطلق الـ(با) في السماء، وشكلها المعتاد هو حمامة زاجل (يونا)، الأم الطيبة التي ترمز للحركة والحرية.[١٣٧]

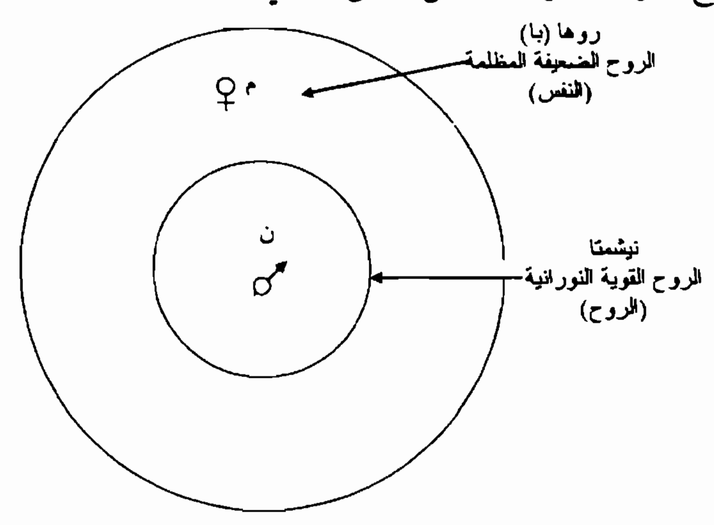
ب. نيشمتا : وهي (النفس!) الأثيرية التي لا تفنى، هبة الحي العظيم من عالم النور، التي تمثل الطاقة المتأججة أكثر من الروح الهادئة.. والاتحاد بين نيشمثا والـ(با) أو الأب والأم من خلال شعائر المسقثا هو الحدث الحاسم الذي يولد فيه الميت من جديد وينتقل إلى الحياة الأبدية ويستعيد صورته النورانية.[١٣٨]

علينا أولاً مناقشة الخطأ الجسيم الذي وقع فيه أغلب المؤلفين والمترجمين عندما أطلقوا على نشمثا مصطلح (نفس)، وبعضهم أطلق على روها مصطلح (روح). ونحنُ نرى أن نشمثا هي الروح لأنها من مصدر علوي بّاني نوراني، ومن عادة الروح الاتصال بالأعالي عن طريق الصلاة والعبادة العميقة. أما (روها) فصحيح أن ترجمتها الحرفية هي (روح) لكنها تدل تماماً على النفس التي هي محرك الجسد والفرق بين الروح والنفس هو ما أشرنا إليه وتشير له أغلب المراجع الفلسفية والصوفية. فإما أن نقول روح قوية وروح خاملة أو نقول روح ونفس وكلاهما متحدتان داخل الجسد فقط. وتسعى النفس النظيفة المؤمنة إلى مرقى الروح العلوي وتتحد بالروح قبل دخولها إلى عالم النور، أما النفس المرتبطة بالجسد فتشد الروح إلى الأسفل، لكنّ الحساب يتمّ مع الروح (نشمثا) لا مع النفس (روها). وقد وقع مؤلف الاقتباس السابق في هذا الخطأ.

يعيدنا التقسيم الذي أشرنا إليه إلى لحظة الخلق الأولى لآدم وكيف صُنع جسد آدم، وكيف

أن بثاهيل صنعه ورمت فيه روها والكواكب عناصرها ومنها الريح. وربما تكون كلمة روح (روها) قد جاءت من هذه الحادثة أي أن الجسد يحتوي على روحٍ خاملة (روها) جاءت من عناصر الظلام وهي ذات طبيعة أنثوية تذكّر بالأم. أما (نشمثا) فهي الجزء الذكري المشعّ والنشط والقادم من عالم النور.

وقد يدفعنا هذا إلى أبعد قليلاً فنقول أن (روها) التي تمثل الأم يمكن أن نرمز لها بـ(م) الدالة على الأمومة، أما نيشمتا فنرمز لها بـ(ن) الدال على الذكورة السماوية. وكان قد اشتق منه اسم السماء عند السومريين حيث كان الإله (آن) هو إله السماء، أما (م) فهو يدل على الأم عند كل الأقوام السامية ونجده في (إم الأمورية ونمّو السومرية وتيامت البابلية). وهذا يعني أن الروح تتكون من قطبين يشكلان مفردة (من) القريب من (مانا) الذي عرفنا بأنه يمثل الروح (نشمثا) أيضاً ويمثل الروح الكونية الكبرى أو العقل بالمعنى المجازي.



شكل (٤٨)

الروح الضعيفة والروح القوية

والغريب أن هذه العملية (دخول الروح في الجسد واتحادها بالنفس) تشبه عملية دخول الحيمن في البيضة (في علم الأجنة) عند بداية التخصيب، حيث (م) بيضة الأنثى و(ن) هي حيمن الذكر.. فهل من الصدف أننا إذا ركبناهما يتكون لدينا (من) الذي هو جذر (مانا) ؟ وهل من الصدف أننا بإضافة كلمة (حي) لـ(من) تتكون مفردة (حيمن) ؟ وهل من الصدف أن تكون كلمة

(مني) من أصل (من) ؟ وما هي علاقة (مانا) بـ(مني).. إلا يستحق ذلك بحثاً جدياً على الصعيدين اللغوي (العربي والمندائي) والروحي؟ أعتقد بأهمية ذلك دون الوقوع في شرك التأويلات المفتعلة.

يرد المصطلح (با) في الديانة المصرية بمعنى (الروح) أما (كا) فيرد بمعنى (النفس) ويكون (با) على شكل طائر صغير يحملُ وجه المتوفي، وهو يخرج من الجسد بعد الوفاة مباشرة ثم يعود ويدخل إليه بعد الدفن ليهيىء الجسد للرحلة الطويلة نحو الشمس.

في كنزا اليسار هناك حوار بين الروها ونشمثا (النفس والروح) تطلب فيه الروها من نشمثا الصاعدة إلى أعلى أن تأخذها معها وتخاطبها بكملة (يا أختي) وتبدأ المقطوعة لتقول بأن هناك صدىً يُسمع من صوتين إثنين:

«الصدى الصدى من الصدى

إنني اسمعُ صوتين اثنين

اللذين يجلسان معاً ويتبادلان الأفكار

إن صوت الروها وصوت الروح (نيشمتا)

هما اللذان يجلسان معاً ويعلّمان أحدهما الآخر

الروها تتكلم إلى الروح (نيشمتا)

إن الروها تتكلم إلى الروح (نيشمتا) قائلةً:

(وحياتك، يا أختي

خذيني معكِ إذا انطلقتِ أنتِ خارجةً)

كيف تريدين مني آخذكِ معي

ولستِ أنت إلاّ روها كاذبة؟

إنكِ لستِ إلا روها كاذبة

تنتحلين ما لم تكوني قد رأيتِ أنتِ بأُمِّ عينيكِ

كيف تريدين مني أن آخذكِ معي، أيتها الأخت،

والرجل ذو الميزان يقف حارساً هناكَ؟

إن الرجل ذا الميزان يقفُ منتصباً هناك

وهو يزن الأعمال والأجر

ويوحِّد جامعاً ما بين الروح (نيشمتا) والروها
إذا وضعَ هو أحداً في الميزان وأثبت هذا أنه مستوفٍ للشروط
فسوف يرفعه المرؤ عالياً ويمنح إياه دعامةً في الحياة
أما إذا وضَعَ هو أحداً في الميزان وأثبتَ هذا أنه غير مستوفٍ للشروط
فسوف يجري له المرؤ على الفور محاكمةً.»[١٣٩]

لكن الغريب في الأمر أن ما يجري على الميزان يوحِّد أخيراً بين روها ونيشمتا وهو ما يشير، من وجهة نظرنا، إلى أن الأصل الواحد لهما والذي أثبتته عبر توحد روها ومانا في التناظرات الثيوغونية حتى بديا وكأنهما قطبين (سالب وموجب) لقطعة واحدة خلقها (الحي العظيم). ومن الجدير بالذكر أن فكرة الميزان (ميزان أباثر) ووزن الأرواح تظهر واضحةً في الديانة المصرية وسنتوقف عند ذلك حينها:

«خذيني معكِ إلى الخارج
إلى ذلك الحدّ حيث يوجد الميزان
دعيهم يضعوني على الميزان
ويطلبون مني الأعمال والأجر
إذا وجدوا هم إنني مستوفٍ للشروط
فما عليهم إلاّ أن يوحِّدوا ما بين الروح (نيشمتا) والروها
أما إذا ودوا هم إنني ناقص وغير مستوفٍ للشروط
فينبغي عليهم أن يقطعوني منك ويخلفوني وراءك
ما أحلاك أنتِ، أختي، أيتها الروح (نيشمتا)
إذ أنك تأخذينني معكِ عندما ترحلين
إلى ذلك الحدّ حيثُ يقوم الميزان منتصباً
ذلك الذي يزن الأعمال والأجر
إنهم وجدوا عند الوزن إنني مستوفٍ للشروط
لذا جلبوا هم الروح (نيشمتا) مع الروها معاً.
كم فرحت الروح (نيشمتا) وابتهجت
لأنهم وحّدوا ما بين الروح (نيشمتا) والروها.

إن الحياة أسندت الحياة

والحياة وجدت نفسها

والحياة منتصرة.»[١٤٠]

الروح هي التي تطيرُ عالياً وتخرج مسرعة إلى العالم الأعلى وقد تأخذ معها النفس (غير المثقلة بالذنوب) وترفعها إلى بيت أباثر (وازن الأرواح) وهناك توزن الروح أولاً ثم توزن النفس وإذا وجدتا خفيفتين (مستوفيتين للشروط) فإنهم سيوحِّدون بينهما وتعود الروح الكاملة (نيشمتا+روها) إلى عالم النور.

إن العلاقة بين الروح والنفس داخل الجسد هي علاقة تكامل حيث تضيء الروح الجسد باتجاه الاعالي، أما النفس فتلبي حاجاته الدنيوية. الروح تذكِّر بالمرجع النوراني بينما النفس تمنح الجسد طاقة الحب والغريزة والانفعال والحيوية.

٥. **الاستقرار في الجسد**: يطلق مصطلح (ثوب الجسد) على الوضع الذي أصبحت عليه الروح في الجسد، ويبدو أنها تُعرّى من (ثوب البهاء) وتُلبّس (ثوب الجسد) الذي يظهر وكأنه من صنع الآخرين:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى

ابن البهاء الوفير، ابن العظمة النورانية

لماذا أخذوهم مني بهائي وجعلوني عارياً

جلبوني إلى هنا ورموا بي في ثوب الجسد؟

في ثوب الجسد رموا هم بي

الثوب الذي كان قد لبسهن هو ثم خلعه

أيّ حزنٍ وهمٍ ينثالان عليّ في ثوب الجسد ذاك

الذي جلبوني فيه وألقوا بي فيه

كم مرةً خلعته وكم مرةً ارتديته

ووجب عليّ دائماً أن يفصل في منازعاتي

ولا يرى الحياة وهي في شكينتها»[١٤٠]

لكن الروح لا تعيش براحةٍ في الجسد وفي العالم ولذلك فهي تشتكي دائماً. ونستطيع أن

نعرف من شكواها كيف تكافح هي من أجل البقاء نقية في وسط مضاد لها تماماً حيث الظلمات والنار الآكلة والخطايا، ونجد خطاب الشكوى هذا في أغلب الأناشيد الروحية للكنزا اليسار. وكل ما تخشاه الروح أن تفقد نورها وأن تتحول هيأتها إلى هيئة عكرةٍ ومعتمةٍ وتفقد لغتها الخاصة ذات المصدر النوراني. لنتأمل هذا المقطع:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى

مَنْ ذا الذي رمى بي إلى بؤس العالم

إلى تعاسةَ العالم من قذف بي

من نقلني إلى الظلمات المخيفة؟

مَنْ ذا الذي وضعني في الظلمات السيئة؟

من جعلني أرى النار الكاوية؟

من ذا الذي أبصرني النارَ؟

ومن قذف بي في الماء العكر

الذي خلق منه الفاسدون؟

منه صُنعَ وتكوَّن الفاسدون

ولهذا السبب أصبحوا هم وسخين

ربما سوف أُحجزُ أنا هنا

فتكون هيتي عكرة أسوةً بهيئتهم

ربما سوف يصبح شكلي معتماً (عكراً)

وأفقدُ لغتي (كلامي) بعيداً عن أبويَّ.»(١٤١)

إن الروح عندما تكون في الجسد تتآمر عليها الديفي والشياطين والهمورثا والليليثا والعشتراوات والكواكب السبعة والكواكب الخمسة وتحاول حجزها تماماً ومنحها من العودة إلى عالم النور لتصبح جزءاً من عالم الظلام. ولتكتسب ثقافة الظلام وتنحدر في مهاوي الغرائز والرغبات الحادة والمحرّمة.

«مَنْ ذا الذي أخرجني عنوةً من دار كنزي؟

ومَنْ قذفَ بي في منزل الرابعة؟

من ذا الذي رمى بي في دار الرابعة

بحيث أن الأشرار سخطوا عليّ؟
إن الشياطين غضبوا عليَّ
ودبّروا كلّ يوم المكائد ضدي
إنهم بيّنوا النيات السيئة ضدي
وتكلموا قائلين:
نحنُ نريد أن نحتفظ به عندنا، نحنُ نريد أن نحجزه عندنا ونستبقيه
ونحبسه ونمنعه من أن يذهب إلى موطنه الأصلي
نحنُ نريد أن نمنعه من أن يذهب إلى موطنه الأصلي
فيصبح هو بذلك جزءاً منّا.»[١٤٢]

إن المانا أو الروح يشتكي حتى من الملائكة (الطالحة) ومن بؤسها وشقائها ويصفها بالقبيحة وذات الرائحة والهيكل القبيحين:

«إني أنا مانا الحيا الكبرى
من ذا الذي رمى بي إلى بؤس الملائكة؟
من ذا الذي قذف بين إلى شقاء الملائكة؟
إلى تلك القبيحة ذات الرائحة الخانقة
ذات الهيكل القبيح الذي ليس فيه تناسق؟
أبعد ما يكون قبيحاً هو شكلها
من ذات الذي رمى بي في وسطها؟
كيف يتسنى لي أن أصبح كبيراً بينها
وبيوتها لا تصلح بالنسبة لي؟
كيف يمكنني أن أرتدي ثوبها
وأن أعيشَ في مسكنها؟»[١٤٣]

وتقوم الروح بسلسلة من الصراعات مع كائنات الأرض والعالم المظلم، وتعتبر الكواكب العدو الأول للروح، فهي التي تسيِّر الجسدَ وهي التي تعتبر الأرض منزلاً لها.. إن التأثير الذي تمارسه الكواكب والأبراج على الجسد يفوق، في المندائية، أيّ تأثير آخر ولذلك تُعتبر المندائية من أهم التيارات الشرقية الي ربت بين حال الإنسان وحركة وأحوال الكواكب. والكواكب تملك

دائماً أثراً سلبياً على الإنسان لأنها عدوّة الروح ولذلك نعجب كثيراً من الذين يصفون، عن جهلٍ، الديانة المندائية بأنها عبادة نجوم:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
- هيا، أإمضِ إلى منزل السبعة
هيا، إمضِ إلى منزل السبعة
إلى ثاثري الظلمات الباطلين
إن ثاثري الظلمات الباطلين هم مظلمون
وما من نورٍ يُضيءُ بينهم.
- إن بعثتم أنتم بي إلى منزل السبعة
فاخبروني عن الأعمال التي تمارسها هي
إنها تزاول أعمالاً باطلةً
ومصبُّ الحياة ليس عندها
هل هي جميلة بعض الشيء؟
وهل أن مصبّ الحياة لديها؟
هل هي جميلة بعض الجمال؟
في مثل هذه الأحوال أريد أن أبعثكم إليها
- علاوة على ذلك تبعث بك إلى هناك
لكي تصبح أعمالكَ أنتَ جميلة
إمضِ، إدخل في الجسد
وهي سوف تكون بدون عقل»(١٤٤)

وتستمر العلاقة المتوترة بين الروح والكواكب من خلال الجسد الذي هو، بشكل أو بآخر، مستودع الجسد بسبب ما تركه في الجسد من صفات، وتبدو الكواكب وكأنها كائنات متوحشة تتربص بالمانا وتريد أن تهجم عليها:

«إنه ذهب راحلاً وجاء إلى منزل الكواكب
ورأى أن أعمالها غير صالحة
إن أعمالها لا تفيد شيئاً

ومصبّ الحياة ليس عندها
ثم جاء ودخل الجسد
وجعل ينير أكثر بكثير من الجميع
إنها فتحت جميعها أفواهها فاغرة
غير أنها لبثت مع هذا جالسةً كلّها على طريقها
إنها لبثت، مع هذا، جالسةً محلّها على طريقها
والملعونون لم يعرفوا بماذا عساهم أن يقولوا له.
عندئذٍ فتح المانا فمه
وتكلم إلى الملعونين الأغبياء قائلاً:
أوه، أيها الملعونون البلهاء
هل عندكم مانا يشبهني؟
هل لديكم مانا؟
هل لديكم هيئة لها شبه بهيئتي؟
هل أنتم طيبون؟
هل أن هيئتكم على ما يرام؟
هل كان مصب الحياة عندكم؟
هل كان بينكم مانا شبيهاً بي؟
السبعةُ أحنت رؤوسها
وتهامست بعضها مع البعض الآخر
دعونا نمسك بالمانا
نحنُ نريد أن نوثقه ونلقيه في شباكنا
نحن نريد أن نحصره ضمن رمية الشبكة
ونطرحه في رصاصنا وفي ظلماتنا»[١٤٥]

ويستمر السجال الرمزي بين المانا والكواكب فيتحداهم المانا بأنه لن يقع ضحيةً لهم في شباكهم ولن يستطيع ظلامهم أن يبتلعه لأنه سيفكر بالحياة ويستعين بها ويخبرهم بأنهم محتقرون وذميمون وأنه سيعود ذات يوم إلى أصله وهم سيهبطون إلى القاع.

وهناك ما يوحي، في بعض نصوص كنزا اليسار، أن الإنسان (آدم) أو روحه (مانا) عندما تكون على الأرض فإنها هي التي تمنح الكواكب ومنازلها البهاء والنور، أي أن مصدر ضوء الشمس والقمر والكواكب هو المانا الذي حلّ في جسد الإنسان:

«إن الكواكب تقف هنا
إنها مكبّلة بالأصفاد وتتحدث قائلةً
عندما فرّ منا آدم
تهدمت منازل حراستنا
عندما صعد آدم إلى العلياء مرتحلاً عنّا
سلبَ منها البهاء على الفور
على عجلٍ سلب منها البهاء
وصرنا وأصبحنا كما لو كنّا لم نكن أبداً»[١٤٦]

ورغم كل شيء فإن الذعر والخوف يدبان في الروح لأنها تُحبس داخل أسرار الأشرار وتقيَّد وتُغلق عليها الأبواب، وتكاد تنسى ما أمرته به الحياة العظمى وتنسى السبب الذي من أجله نزلت ودخلت في الجسد. إن صورة الجسد السجن وصفات السجن والسجناء تردُ كثيراً في كتاب كنزا ربّا اليسار:

«من ذا الذي جعلني أسكن في منزل الكوكب؟
من ذا الذي قذف بي إلى النواقص؟
من ذا الذي رمى بي إلى المكان المملوء بالاستهتار بالفضيلة والشرف
ذلك الذي به يسكن ذوو الخديعة والكذب؟
مَنْ ذا الذي قيّدني بقيودهم؟
من ذا الذي وضع قرمة القدم الكبيرة حول رسغي؟
من عرضَ عليّ مشاهدتها؟
من ذا الذي رمى بي في جدرانها؟
من أغلق عليّ أبوابها؟
من جمعني مع جُباتها؟
وطاف بي ماراً على منازل حراستها؟

عندما رأيتهم ارتعبتُ وذُعرتُ
وداهمني الخوف
إني ذُعرتُ وركبني الخوفُ
فقلتُ في نفسي من الأحسن أن أنسى ما أمرتني به الحياة العظمى»(١٤٧)

يوصي الحككماء والأخيار الروحَ بأن تقوم بالأفعال الحسنة والخيّرة وأن تتخذ طريق الصواب والصدق وأن تعمل على التحصن من شرور العالم بالصدقات:

«أيتها الروح (نيشمتا) تحصّني
بالصدقات وأعمالك وأجركِ
إذ إنّ الطريق الذي سوف تقطعين أنتِ إيّاه
بعيدٌ ولا نهاية له
ما من أحد كان قد قاسه بالأميال
ولا توجد عليه شواهد وضعت وفقاً لقياس المسافات
ولكن عليه وضعت منازل الحراسة والمراقبة
ويقف فيها الحكام والجباةُ»(١٤٨)

ويبدو أن الروح تتعرف على أسرار الأرض (تيبل) والجسد (بغرا) فتملك فكرة عن أسرار عالم الظلام على الأرض، وبذلك تنجح مهمتها في زمن بقائها هناك:

«إن الروح (نيشمتا) روح الحياة تتكلم قائلة،
من حبسني في تيبل؟
إبتداءً من ذلك اليوم الذي وقعت أنا ساقطةً في آدم
رأيتُ أربعة أسرار
إني ذهبتُ شاخصة إلى صورة الماء
إن الماء هو حياة هذا العالم
إني ذهبت شاخصة إلى صورة الشمس
إن الشمس هي نور هذا العالم
إني ذهبت شاخصةً إلى صورة القمر
إن القمر هو تعداد هذا العالم»(١٤٩)

لا نعرف ما الذي تعنيه أسرار الماء والشمس والقمر، فهل هي هذه الأسرار التي ضحّت المانا بكل ما ضحته لكي تتعرف عليها!!

٤ . التحرر :

في هذه المرحلة يتمّ تحرر الروح من الجسد ولعلّ أول خطوة لخروج الروح من الجسد هو تذكرها لأصلها السماوي ولكونها من عالم النور وتنتمي لعالم بعيد وأنها غريبة عن هذا الجسد وهذا العالم وأنها لم تخطيء ولم تنجرّ إلى نزوات الجسد والأعمال التي كان يقوم بها الشياطين والكواكب السبعة المسيطرة على الأرض والجسد معاً وأن الروح ظلّت تضيء رغم كلّ شيء:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى
من ذا الذي تركني أعيشُ في رداء الجسد
طيلة الوقت الذي عشت أنا فيه
لم يكن فيه نقصان أو قصور
إني لم أخطأ ولم أرتكب المخالفة
ولم أفعل شيئاً نابياً أو منكراً
إني لم ارتكب خطأً
ولم أسبب إساءات أمامي
ولم أمتزج ولم أختلط
ولم أتحول أو أغيّر قولي ولم أخرج عن كلام أبي
إني أنير بواسطة قوة أبي
بواسطة الرجل الذي جعلني أعيش في رداء الجسم
إنه جعلني أعيش في رداء الجسم
فصمدت وصرتُ وعشتُ مستقراً فيه
ولم أسبِّب لربي ما يشين أو يعيب
إنه لم يقل أن المانا نسي ما كان المرؤ قد أوصاه به.»[١٥٠]

لا تتحرر الروح لوحدها بل بمساعدة كائن نوراني يقوم بتحريرها من الجسد ثم رفعها إلى

الأعالي وترد في كتاب كنزا ربّا اليسار وكتاب يحيى أنواع من طرق خلاص الروح على أيدي هؤلاء وهم:

١. المرء أو المرؤ وأحياناً يسمى الرجل كما ورد في المقطع المقتبس أعلاه ويبدو أنه الخالق العظيم (هيي ربّا) أو مندا إد هيي الذي يقوم بأنقاذه ورفعه من العالم.

٢. المخلص: وهو المألوف في القطع والأناشيد المندائية ويسمى عادة (الرجل الصالح، مساعد مانا الكبير، معاونه، الغريب، المفوض الطاهر رسول مندا إد هيي، المساعد، المعاون اللطيف، أثري الحياة، ملاك البهاء، ابن الحياة، رسول الحياة..إلخ وربما يكون مندا إد هيي نفسه أو هيبل زيوا أو أدكاس.

٣. الروح نفسها تضع أجنحةً وتطير صاعدة إلى عالم النور لوحدها أو بمعيّة حرّاس يحرسونها في رحلتها.

٤. الصياد أو الراعي وهو ما يرد كمخلّص للروح في كتاب يحيى، والصياد القادم من عالم النور أو الراعي القادم من عالم النور هو الذي يخلّص الشياه ويتجنب الصيد في المياه الآسنة ويتجنب الأسماك.

وقد يقوم الحيّ العظيم بنفسه مباشرة بأخراج الروح من الجسد ورفعها لكن النصوص لا تسميه باسمه بل باسم المرء أو المرؤ وقد يكون هذا تعبيراً عن كائن نوراني كبير مثل مار أد ربوثا وهو ما نرجحه بسبب تشابه كلمة (مار) مع (مرء). ولكن هذا أمر نادرٌ جداً كما في هذا النص:

«إني احتفظتُ بنفسي متجنباً السبعة
ولم أمارس أيما فعلٍ من أفعالها
الآن وها قد أزف الموعد
تقعد هي كلها جالسة في كآبةٍ
إني لبستُ رداء الأب الرفيع الشأن
وأبصرتُ رداء (الحياة) العظمى
المرؤ وضعني في كفة الميزان
وكنتُ خالياً من النواقص والعيوب
المرؤ ألبسني ثوباً من الحرارة الحيّة

ذلك الذي لا يحتوي على الحميّة والسخط
المرؤ وضع عليَّ إكليل البهاء والنصر
ذلك الذي توهجت أوراقه بالنور
المرؤ ألبسني ثوباً من ثياب الحرارة الحيّة
ثم صعدت أنا عالياً ورأيتُ مقام النور»[١٥١]

لكن الشائع في النصوص أن المخلّص يكون مبعوثاً من عالم النور أما على درجةٍ رفيعةٍ جداً مثل مندا إد هيي أو من هو في مستواهِ أو مساعد (أثرا) أو ابن الحياة..إلخ:

«إنه مندا إد هيي نفسه
الذي ارتحل ذاهباً لكي يأتي إلى العالم
حقاً، إنه أخذني من الأرض
وانتزعني من الخدعة والتلون
هو أخذني من قرمة القدم
التي تشبه العالم الممتلىء
هو حلّ وثاقي وأربطتي
التي هي طويتل إلى حد بعيد
هو خلع عني الثوبَ
المنسوج من كلّ لون ونوع
إن ذلكم الذي حلّني تقدّمني ذاهباً
أما ذلك الذي ربطني فهو يتبعني ساعياً
إني مضيتُ واستندتُ إلى ذلك الذي حلّ وثاقي
أما ذلكم الذي كان قد ربطني فهو لم يدركني
إن الحياة استجابت لي من الأثمار
إن البهاء أجاب عليّ من بعيد
من مكان جدّ بعيد
تطلعت أنا ناظراً فعرفت أبي.»[١٥٢]

استعمل المندائيون مصطلح (الأب) قبل المسيحيين للتعبير عن الخالق العظيم لأن الـ(مانا) أو

النشمثا هي بمقام الإبن وهم بذلك وضعوا أولاً نظام الأقنوم المكوّن من الأب والابن والروح القدس بطريقة خاصةٍ بهم سنناقشها فيما بعد. وها هي الروح الابن تلتحق بخالقها الأب ويقوم بذلك وسيط هو (مندا إد هيي) الذي ربما كان إشارة للروح القدس التي استعملتها الأناجيل وطوّعها فلاسفة الدين المسيحي ورجالاته الكبار. لكن (مندا إد هيي) قد تعرض، ذات مرة إلى مطالبةٍ من قبل عفاريت الكواكب السبعة لكي يعطيهم أعضاءَه النورانية (الرأس، العين، الأذن، الفم، اليد، القلب، الركبتان، القدمان) لكنه يرفض ذلك ويحتفظ بكلِّ شيء:

«أنا هو رأس العالمين ما بين المختارين
رأس المؤمنين ما بين المختارين هو أنا
منذ البداية كنت أنا موسوماً بالإشارة (الرمز)
وإني ذهبتُ ماضياً إلى ضفة النهر
منذ البداية كنتُ أنا موسوماً بالإشارة
إن العفاريت تقف على الشوارع
حالما لمحتني السبعة
ثبتت واقفةً ودججت نفسها بالسلاح
إنها تكلمت قائلة:
أنت تذهب خارجاً، يا أيها الرجل
أعطنا رأسك ثم إذهب إلى الخارج
يا أيها الرجل، أعطنا رأسك
فربما سوف ترجع إلينا عائداً.
إنني لا أعطيكم رأسي
على رأسي مرسومة ومثبتة الإشارة
أنت تذهب خارجاً أيها الرجل
أعطنا عينيك ثم اذهب إلى الخارج
يا أيها الرجلُ، أعطنا عينيك
فربما سوف تأتي أنت إلينا راجعاً
أنني لا أعطيكم عينيَ

إني عينيّ مليئتان بالنور . .»[١٥٣]

وهكذا تستمر مطالبة الكواكب ببقية أعضائه فيجيبهم بأن أذنيه تسمعان التراتيل وأن فمه مملوءٌ بالكوشطا وأن يديه تعطيان الصدقات ويناولان الكوشطا وأن قلبه تسكنه المعرفة وأن ركبتيه تنحنيان أمام الحياة وأن رجليه تمشيان على درب الكوشطا من مكان الظلام إلى مقام النور. وتذكّر هذه المقطوعة بنصٍّ سومريٍّ شهير هو (نزول إنانا إلى العالم السفلي)

فحين تنزل إنانا إلى العالم الأسفل يطالبها حرّاس البوابات السبع بخلع تاجها وقلادتها وأقراطها وثوبها... فتوافق وتنزلُ عارية إلى العالم الأسفل لكي تسيطر عليه، وفي الأسطورة البابلية تقوم عشتار بمحاولة لأنقاذ تموز الميت في العالم الأسفل.. والأسطورتان تتماثلان وتتوازيان مع أسطورة هبوط مندا إد هيي ومحاولة إنقاذ الروح في عالم الأرض المعتم، لكن رفض مندا إد هيي إعطاء أعضائه هو الذي يحسم الأمر ويهذّب الأسطورة القديمة ويجعلها تكتفي بغرضها الروحي دون الخوض في البناء الأسطوري القديم وهذا هو الفارق بين الأساطير القديمة والأساطير الغنوصية، فالأولى تحتشد بالتفاصيل والثانية تقتصد بموضوعها المحدّد الذي عادةً ما يكون إيمانياً أو روحياً أو فلسفياً دون حاجة إلى تجسيدات أسطورية مفصّلة.

كذلك يظهر هيل زيوا مخلّصاً، وهو يناظرُ مندا إد هيي، واهباً ثوبه إلى الروح الصاعدة نحو عالم النور:

«إني أنا مانا الحياة الكبرى

هنا تحت العصور عشتُ واستقريتُ أنا

هنا عشت أنا واستقريت تحت العصور

وكان هيبل مربياً لي

وكان هيبل مربياً لي

وكان هو مساعدي النقي الخالص

هو ابن البهاء الغني الوفير

وكانت قوته دعامةً وسنداص لي

لقد كان هو سنداً لي. هو جعلني قوياً

إنه خلّصني من قبضة

ومن أعمال السبعة

في كلّ الأوقات يدلّني على الطريق

وخلق لي سبيلاً إلى مقام النور

إنه رفعني معه عالياً

ولم يتركني وراءه أعيش في المسكن الخرِب

هو خلع عليّ ثوبه البهيّ

ورفعني عالياً بأبهةٍ من العالم»(١٥٤)

وترد تسمية (الأثري الثلاثة) كمخلّصلةٍ وساندةٍ للمانا وهي التي ترفعه إلى الأعالي:

«الأثري الثلاثة أسندت المانا

وهو، المانا، وجد سكينة وراحة في التنوير

هو، المانا، وجد في التنوير، راحته وسكينته

إنه يحتفظ بقوةٍ براحته وسكينة باله

إنه يتمسك براحة بالهِ بقوةٍ

ويصبر متحملاً ويعيش ساكناً في العالم

في العالم الذي كا من نهايةٍ لشدائده ومكاريهه

إنهم أمسكوا المانا بكل ما لذيهم من قوةٍ

وأحاطوه ورفعوه بقوةٍ بأيديهم كلّها

إنهم رفعوه من الجسم

وأقاموه في موضعه

إنهم فتحوا له باب النور

وأبصروا طرق الأمان

إنه يتهادى ماشياً على حين تنمو قوته وتتعاظم باستمرار

إنه يحمد الرجال الذين أعطوه المعرفة

إنه يمدح العِمامة التي عرضوها هم عليه للرؤية

وأغطية البهاء التي وضعت عليه

إنه يمدح مساعديه

الذين بواسطة قوّتهم كان قد تيسر له أن يعيش في العالم»[١٥٥]

يظهر المخلّص، بصورة عامة، تحت اسم (الرجل، المعاون، المساعد الكبير...) وينزل إليه بعد أن يتساءل عن الذي وضعه في العالم فيوقظه أو ينزل إليه بعد اليقظة، وأحياناً يكون معه مساعدون أو حماة وأ ؛ياناً يقول للروح بأنه هيئته التي يريد أن يرفعها إلى الأعلى ليحافظ على الروح في غطائه:

«بينما يقف المانا في مكانه ويبحث عن توضيحات لحاله
وإذا بالرجل، مساعده، يأتي قادماً:
يتعين عليكَ أن تقطن معي
وسوف نجد نحنُ معاً مكاناً في قلبك
سوف نجد نحنُ مكاناً لنا في قلبك
وسوف نرفعك عالياً إلى شكينتك العالية
سوف أجعل الأشهر تجري سرياً واطرح عددها
مثل الحساب
إن مقدار عمرك كعدمه
وإني أريد ن أجعل العالم برمّته محتقراً تافهاً
إنكَ أنت مُلكٌ لي وتعود لي أنا
والآن أريد أن أخرجكَ من العالم وأرفعكَ عالياً
إني أريد أن أخرجك منه وأرفعك عالياً
وأريد أن أترك الجميع على عجل
إني أريد أن أترك الجميع
ليمت كلّهم ويفنوا
إنكَ أنت هيئتي
أريد أن أرفعكَ عالياً وأن أحافظ عليكَ في غطائي
في غطائي الذي منحتني (الحياة) الكبرى إياه
ذلك الذي يحتوي على العطر الطاهر المألوف لدي
إن هذا الثوب الذي تعيش أنتَ فيه

سوف أضرب به على رأس الذي كان قد خلقه
ومن ثمَّ ليتعثر ويسقط ويمت ويفنى
أولئك الرجال الذين صنعوا إياه
إن الرجال الذين أوصوا به سوف يفنون
إنه صار مساعداً وعوناً للمانا
هو قبّله وحضنه لثماً
ووضع من بركته عليه
من بركته وضع هو قسطاً عليه
وثبتهُ في شكينته»(١٥٦)

وهكذا يكون المخلّص، دائماً، قادماً ومبعوثاً من الحياة الكبرى، لكنّ بعض النصوص لا تذكر مخلّصاً بعينه بل تجعل الروح بجناحين تطير إلى الأعلى لتصل على عالم النور:

«بطيبةٍ ذكرتُ أنا الحياة
التي جعلت ردائي من خارج هذا العالم
إنها خلت عني ثوب الظلمات
وألبستني أحد أردية البهاء
إنها ألبستني رداءً
كان غاية في الروعة ولا نهاية له
إنني مددت جسدي فيه على سعته
فكان ذلك شبيهاً بالعالم الممتلىء
إني لوّحت بأجنحتي فسُرت ذاهبةً ووصلت إلى القبّة الزرقاء
إني فتحت عيني فيه
فامتلأت عيناي بالنور
إني أذهب راحلةً في رداء الحياة
إلى ان أصل إلى مزل السبعة.»(١٥٧)

ويصف كتاب يحيى المخلّص بأنه (الراعي) أو (الصياد) حيث يستطيع الراعي انقاذ الأرواح وجعلها تصل إلى عالم النور، فمن مقطوعة (الملاك والراعي) يرتفع صوت الأثرا قائلاً:

«جاء حبيبي الراعي.. الراعي الذي أنقذ ألفاً من عشرة آلاف من قطيعي.. فأضحى محبوباً وصريحاً. لقد امتلأ العالم سوءاً، وزُيِّن بنباتاتٍ شائكةٍ وبأشواكٍ.

جاء حبيبي الراعي الذي حافظ على ألفٍ من عشرة آلاف من قطيعي.. قلتُ له:
سأمنحكَ خُفاً من ضوءٍ يسمح لك بالمشي على الأشواك
وعلى كلّ نباتٍ شائك.. فالأرضُ زائلة، وخُفُّ الضوء لا يزول
الكواكبُ والأبراجُ العالية زائلة وخُفَّ الضوء لا يزول
الرياحُ والماءُ والنار، كلّها زائلة، ولا يزول خُفّ الضوء
وزائل ما تصنعه الأيدي، وخُفّ الضوء لا يزول..»[١٥٨]

أن السوتيرولوجيا المندائية (علم الخلاص) تؤكد على تفاصيل هذه المرحلة التي تُحمل فيها روح الإنسان إلى عالم النور من قبل مخلِّصها. وتنفردُ المندائية ببساطة نظامها الخلاصي الذي يختلف كثيراً عن أنواع الخلاص في الغنوصية والمسيحية.

وبعد أن يقوم المخلِّص بدوره الأولي تأتي مرحلة الفِكاك عن الجسد فتُحلّ أربطةُ الروح وقيودها تاركةً (قمامة الجسد):

«إن الروح (نيشمتا) حلّت السلسلة
إنها نسفت العِصّابةَ
إنها خلعت رداء الجسد
ثم التفتت فرأته وجعلت ترتجفُ فرقاً
إنه صوت روح (نيشمتا) الحياة
الذي يخرج راحلاً من قُمامة الجسم
إن (الفكّاك)، ذلك الذي حلّ قيود الروح (نيشمتا) أخذ بالبكاء
إذ أنهم لم يتركوه أن يحلّ وثاقها»[١٥٩]

وقبل مباشرة الروح بصعودها تتعرض إلى المحاكمة ولا يقبل (الفكّاك) الذي حلَّ لها الوثاق الرشوة فتدافع عن نفسها أمام الحاكم بذكر أفعالها الخيّرة:

«إن الروح تسيرُ ماضيةً
لقد نزلَ عليها القضاء المحموم وحان وقت ذهابها
لقد نزلَ عليها القضاء المحموم وأزفَ موعد رحيلها

وامتلأت عينها بالفكّاك
وقلبها امتلأ بالبكاء
قلبها امتلأ بالبكاء
ولكنّ الفكّاك لا يقبل الرشوة
إنه لا يقبل الرشوة
ولا يستبدل الجسد بالروح (نيشمتا)
إن المرءَ يحلَ الروح (نيشمتا) ويقودها على الطريق
إن المرءَ يضعها أمام الحاكم
والحاكم يسألها ويستجوبها
عن ذنوبها وأخطائها :

ماذا فعلت أيتها الروح (نيشمتا) من أعمال
في عالم التضليل الذي كنتِ أنتِ قد عشتِ ساكنةً فيه؟

إنكَ شاهدٌ عليّ أيها الحاكم
بأنني من أجل نفسي لم أرتكب شرّاً
إنني لم اقترف الخيانة الزوجية
ولم أقم بفعل شيءٍ رغبةً لإشباع إرادة الأشرار
إنني لم ارتكب جريمة القتل
ولم أسفك دم أحد من أبناء آدم
إن رأسي لم ينفذ إلى الأرض داخلاً
وكلتا يديّ لم تقوما بالسطو أو السرقة
إنني لم أمارس السحر
ولم أسم الروح (نيشمتا) العذاب في الجسد
إنني لم أسلم العبدَ إلى يد سيده
ولا الخادمة إلى سيدتها
ولم أدلِ بشهادة زور
إنني لم أعيّر الحدود
ولم أزح علامات الحدود عن أماكنها

إن عينيّ لم تعطيا إشارة الغمز
وفمي لم يتلوث بالكذب
إن العرّافين لم يقرأوا لي الطالع
ولم يتكهن لي المنجمون (الكلدانيون) بقراءة الغيب
إنني لم أكل الصدقة المضاعفة
ولم أخدم سيدين اثنين
إنني منحتُ الفقراء الصدقات
وكنتُ للأعمى هادياً وقائداً
إذا وجدتُ أنا أحداً من الجياع أعطيته حتى يشبع
وملأت جيوب الأرملة
إذا وجدتُ أحداً من العراة
وضعتُ حول عنقهِ كساءً
إذا وجدتُ أحداً من الأسرى
عتقته وحللتُ وثاقه وبعثت به إلى موطنه وبلاده
وزوّدته بمتاع للسفر على الطريق
مع المريض العليل صعدتُ أنا إلى سريره
وشيّعت الميت في جنازته إلى مثواه الأخير ..»[١٦٠]

بعد أن تبرأ الروح ساحتها وتذكر محاسنها وتدفع عنها التهم الشريرة التي كانت سائدةً يطالب الحكم بأن يحضر الشهود الذين يؤيدون ما فعلته الروح وما لم تفعله، فيحضر كلٌّ من (النهر، التعميد، البهثا، الكوشطا، المامبوغا) وبشهادتهم ترتفع الروح إلى الأعلى:

«عندما كانت الروح (نيشمتا) لما تزل واقفةً أمام الحاكم بعد
طار شهودها إلى الداخل ووصلوا إليها
إن النهر وضفتيه كلتيهما
يشهدان للروح
إن التعميد الذي كانت هي قد تعمّدت به
البهثا والكوشطا والمامبوغا
تشهد للروح(نيشمتا)

الأجر والصدقة والتعميد
تشهد للروح (نيشمتا)
إنهم أمسكوا الروح (نيشمتا) عند راحة اليد اليمنيى
رفعوها عالياً وأقاموها في دال الكمال»[١٦١]

أما حين تكون الروح مخطئة مقترفةً للذنوب فتصعد عاليةً لتمرّ بالمنازل والمحطات ثم تصل المطهر ثم إلى بيت أباثر حيث الميزان، وهنا يُقرر الحكم النهائي عليها فأذا كانت بريئةً تصعد إلى عالم النور. أما إذا كانت خاطئة فأنها تُحاسب على مقدار ذنبها وتُعذّب في المطهر (مطراثا) بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها فتصعد إلى عالم النور، ولكن بعض الأرواح قد يحكم عليها بالسقوط في الجحيم (شيول) حيث تُعذّب عذاباً شديداً وتبقى هناك كجزءٍ من عالم الظلام.

ولنسمع صوت إحدى الأرواح من أعماق الظلمات:

«إني أسمعُ صوت إحدى الأرواح (نيشماتا)
التي تشتكي في مسكن الشياطين ومن أعماق الظلمات
إنها تتكلم قائلة:
ويلي، لأن ذخيرتي من الذهب والفضة لم تدعني
أعمل أفعالاً صالحة أمامي
إن ذهبي قّفَ بي إلى (جهينا)
وفضتي أوقعتني في أعماق الظلمات
أما الجواهر واللؤلؤ، يا أصدقائي،
فأيّ خبثٍ (سوء نفسٍ) لقّنتني!
إن أموالي وأملاكي، أيها الأصدقاء،
ضاعت وذهبت هدراً وهباءً
إن طربي ولهوي وعبثي
أصبحت لي أناشيط وقيوداً
وصارت هيئتي مقيدة من كل الوجوه
أنها تتكلم قائلة:
إن الشياطين أغرتني ودفعتني إليه

وإني أحببتُ عالم المسرّات
إنني أغرمتُ بعالم الشهوات
وقلبي أوقع بي وجعلني أفكّر بكل شيء سيء
إن قلبي جعلني أفكر بخبثٍ ولؤمٍ
ولساني جلبني إلى التعثر والإنزلاق خلال الكذب والخلاعة . .»[١٦٢]

وعندما تقرر الروح الصعود بعد مغادرة الجسد تتذكر هذا الجسد الذي عاشت فيه عمراً كاملاً وبسبب معاشرة الروح الطويلة لجسدها الأرضي فإنهها تريد أن ترفعه معها إلى الأعالي لكنها لا تستطيع، وتوضِّح لنا هذه الأبيات العذبة رغبتها وكذلك توضح لنا، في الوقت نفسه، عدّتها النورانية الثانية من الملابس البيضاء التي تصعد بها إلى عالم النور (الرداء، الحزام، العمامة، الإكليل، المركنة ـ العصا ـ ، النعلان..إلخ) وكأنها تكوِّن جسداً جديداً بدلاً من ذاك الجسد:

«إن الروح (نيشمتا) تلتفت إلى الوراء وتقول
مخاطبةً القصر الذي تركته وراءها :
ماذا ينبغي لي أن أفعل معك، يا جسدي،
ماذا استطيع أن أفعل بكَ في ذلك العالم
ماذا ينبغي لي أن أفعل بكَ، أنت أيها الجسد الرائع
الذي سيكون طعماً لديدان الجحيم
ماذا ينبغي أن افعل معكَ، أيها الرداء من الورود
الذي تأكله الطيور في تيبل؟
لو كنتَ أنت رداءً من بهاءٍ ونور
بحيث إني استطيع أن ألبسكَ، أيها الجسد
إذن لكان بالإمكان أن تصعد أنت معي عالياً إلى دار الحياة
لو كنتَ أنت حزاماً من بهاءٍ ونور
بحيث إني أتمكن أن أتقلدّ بكَ، أيها الجسد
إذن لكان بالأمكان أن تصعد أنت معي عالياً إلى دار الحياة
لو كنتَ أنت عمامتة من بهاء ونور . . . إلخ[١٦٣]

وهكذا تعدد الروح أمنياتها بأن الجسد القديم لو كان له هذه الكسوة النورانية، لكنه مصنوعٌ من الطين ثم من اللحم والدم وليس من النور والبهاء. ولذلك يأتي مبعوثو الحياة إليها، وهي تتمنى، ويعطوها ملابس النور التي هي ملابس الكهانة المندائية المكوّنة من الرداء والحزام والعمامة والإكليل..إلخ والتي تكون نورانية هي الأخرى. وهكذا يلبسُ النورُ النورَ وتستعد الروح للصعود إلى الأعالي.

ويذكر أحد أجزاء الكتاب الثالث من كنزا اليسار أن هناك خطاباً مختوماً معلقاً في رقبة الروح مكتوب بالكوشطا ومختوم بخاتم الكبرى هو الذي سينقذها:

«إنه خطابٌ مختوم
هذا الذي خرج من العالم
إنه خطابٌ مكتوبٌ بالكوشطا
ومختوم بخاتم الكبرى
الكاملون كانوا قد كتبوه
ورجالٌ مؤمنون صادقوا عليه
إنهم لفّوه حول رقبة الروح (نيشمتا)
وبعثوا به إلى بوابة الحياة
كيف حدث وأن رأى دايوم
بأن الروح تحمل الخطاب؟
كيف حدث وأن رآها دايوم
على حين كان أبناؤها السبعة مجتمعين حولها؟
هؤلاء يتكلمون قائلين:
من كتب الخطاب
الذي لا نعرف سرّه؟
إن الخطاب مكتوبٌ بالكوشطا
ومختومٌ بخاتم الكبرى
إن الكاملين الورعين كانوا قد كتبوا سطوره
والرجال المؤمنين آمنوا وصادقوا عليه.

إنهم علّقوه حول رقبة الروح (نيشمتا)
وبعثوا به إلى بوابة الحياة
إن الروح (نيشمتا) في حكمتها
غطّته بالبهاء وحفظته
لفّته بالنور وربطته..»[١٦٤]

وبالإضافة إلى الكوشطا والخطاب المختوم والثياب النورانية تحمل الروح معها أيدي الصدقات والقلوب المملوءة بالإيمان:

«جميع الشعوب اجتمعت
وجاءوا عند باب ابن الحياة؛
قل لنا، يا ابن الحياة،
في الوقت الذي يحصل فيه الفراق
ماذا سيكون قوت رحلتنا؟
ماذا سيكون متاع سفرنا؟
إن أيديكم يجب أن تمنح الصدقات
وقلوبكم ينبغي أن تكون راسخة الإيمان
هذا هو قوتُ رحلتكم
الذي يكون لكم متاعاً للسفر.»[١٦٥]

أما عندما تخرج الروح (نيشمتا) كاملة مجهّزة بالأمور التي ذكرناها وساحبةً معها النفس (روها) فأن الروها والكواكب والأبراج تضطرب وتعلن الحداد:

«في اليوم الذي تخرج الروح (نيشمتا) راحلةً
في اليوم الذي تصعد الكاملة عالياً
في اليوم الذي تخرج الروح (نيشمتا) راحلةً
بعيدة عن أسفل عجلات الموت
وقع واحتدم الصراع
في (تيبل) الفانية
روها تجلس في حزنٍ وكآبةٍ

والسبعة تقعدُ متسمِّرةً جامدةً
إن ثوب النجوم ممزقٌ
وترابٌ منثور على هامة الروها
قارعوا الأبواب يبكون
وحارسو المنازل مذعورون»[١٦٦]

بل إن هذا الحزن يتطور، أحياناً، إلى صراعٍ ينجمُ عنه قتل أمناء كنز هذا العالم الأرضي (كنزاوري):

«في اليوم الذي تخرج الروح (نيشمتا) راحلةً
احتدم الصراع والقتال في تيبل
فيها نشبت الفتنة واقلاقل
إنهم أحاطوا وقتلوا
أ/ناء كنز هذا العالم (كنزاوري)
إنهم يتكلمون قائلين:
من أخرجَ اللؤلؤة إلى العراء
تلك التي كانت قد أضاءت المنزل المندائي؟
في المنزل الي تركته هي خارجةً
تصدّعت الجدران وانهارت
إن جدرانه تشققت وتهدمت
وأعمدة بوابته سقطت على الأرض
إن نوافذه كانت قد أوصدت وأُغلقت
ومصابيحه أُطفأت ولم تعد تنير
إن عينيّ لا تبصران شيئاً بعد
مما يفعله المرؤ في أزمنة العصور
إن أذنيّ لا تسمعان شيئاً بعد
مما يقوله المرؤ في أزمنة العصور
إن قدميّ لا تقويان على المشي بعد
في أزمنة العصور وتتصلبان في مكانهما»[١٦٧]

٥. المعراج :

يسمى صعود الروح وارتقائها إلى عالم النور بـ(المعراج) ويسمى أيضاً الانبعاث Renaissance أو المعاد Regeneration ويسمى بالآرامية والمندائية (مسقتا) أو (مسقثا). وهو ما يحل للروح، وهي صاعدة، بين الأرض وعالم النور.

تصعد الروح لوحدها أو مع مخلّصها وربما يكون هناك من يحرسها أيضً باتجاه عالم النور وتصادف الروح مجموعة من المحطات التي يُختلف على روايتها وعددها وهي :

١ .بحر سوف : يبدو أن أول حاجز تصادفه الروح في صعودها وعبورها هو (بحر سوف) الذي هو بحر عظيم في السماء فوق الأرض مباشرة ويسمى بحر النهاية أو بحر الهلاك وعلى الروح أن تجتازه فهو يشكل تحدياً وامتحاناً للأرواح فأذا كانت هذه الأرواح مثقلة بالأخطاء فإنها تغرق في هذا البحر الذي يشكل بداية الجحيم فهو يتصل، على ما يبدو، بالجحيم الأسفل (شيول) أو (جهينا) حيث تصبح الأرواح جزءاً من عالم الظلام ويقابل بحر سوف السماوي بحر أرضي هو (البحر الأحمر) أي أن بحر سوف يكون بمثابة (دموثا) للبحر الأحمر.

٢ .نهر هيتبون : بعد أن تتخلص الروح من بحر سوف تدخل في نهر هيتبون الذي لا يمرّ خلاله سد.

٣ .منازل الحراسة : هناك تصنيفان أساسيان لمنازل الحراسة في الكنزا ربّا : الأول يذكره الكتاب اليسار الأول الجزء الرابع، والثاني يذكره الكتاب اليمين الخامس الجزء الثالث. وسنتناولهما سريعاً :

في كنزا ربا اليسار ١ ــ ٤ هناك تسع منازل حراسة للأرواح أو الكائنات. وهناك ذكر لحالة صاحب المنزل وأوصافه ثم لحالة الذين يقيمون عنده من الأرواح والذين كبّلهم (المرؤ) والمحروقون بالسف والنار حتى يحين يوم القيام. وفي كلّ منزل أدوات للتعذيب حيث تخاف الروح الصاعدة ثم تفصح عن اسمها فيطلب منها الملعونون المعذبون في منزل الحراسة ذكرهم وذكر حالهم إذا استطاعت الروح الصاعدة الوصول إلى الحياة الكبرى.

حين تصل الروح إلى منزل الحراسة تقفُ وترتجفُ ثم يبدأ شكلها بالإضطراب والاهتزاز في داخل غطائها، ثم تنادي نحو الحياة الكبرى السامية وتحدث إليها قائلة: أين هي الحياة التي طالما أحببتها أنا وأين هي الكوشطا التي طالما أخذت مكانها متربعةً في قلبي وأين هي الصدقة التي أحملها في جيبي؟ فيرد المرؤ عليها قائلاً: أوه أيتها الروح (نيشمتا) ! إنكِ تصعدين عالياً إلى مقام النور فلماذا يا ترى تنادين على الحياة الكبرى السامية. إنعتي اسمكِ وهاتي إشارتك التي كنتِ أنتِ قد استلمتِ إياها من موجات المياه ومن كنوز البهاء ومن فوهة البركان الكبير السامي ومن نهر الشفاء الكبير ومن ينابيع مامبوغا النور العظيمة؟[١٦٨]

تقف الروح في مكانها وتفتح فمها وتفصح عن اسمها فيسمح لها بالصعود. ويطلب منها المعذبون ذكرهم أمام الحياة الكبرى. يحصل هذا في كل منزل حراسة لكن الاختلاف الوحيد هو في وصف حالة صاحب المنزل وساكنوه. ولنبدأ بها صعوداً:

١. الأرواح المذنبة (نيشمتا هايباثا): وفيه يُجلد السحرة والمشعوذون بسوط من النار ويلقون كديدان إلى فتحة الفرن. فإذا كانت الروح منهم فإنها تعذب فيه.

٢. أنباز (قوة السماء، سندان الأرض الكبير): وأنباز كائن جبار ذيله ممدود على جميع البحار ورأسه مضروب على تيلبوني وأقدامه تلامس عبادين (الظلمات السفلى) وفي منزله يعذب الكهنة والدجالون وقارئوا الغيب والمستقبل (العرّافون).

٣. نبو (الحبر الحكيم): وهو رمز المعرفة القديم وكتبه أمامه منها سفر تذكار الأيام وهو سفر يوصف به دنانوخت أي اخنوخ أو هرمس فهل هو كذلك؟ يقول الكنزا إن المرؤ رماه بالويل في مستهل كتابه وفي نهايته يصرخ: يا ويلي. ويعذب في منزله الفقهاء الذين يعرفون كل شيء ولا يفعلون شيئاً.

٤. الهياكل السبعة: وتظهر الهياكل لابسةً الورود وثديها وصدرها موشوم بالعار جانبها مفتوق وسهمها الشجار وحصادها الكره. وفي منزلها يُعذب الذاهبون إلى بيت تموزا وهو الإله

البابلي القديم.

٥. الكبار: ويظهر فيها الأثرياء والمرابون ويعذبون فيها.

٦. أور: الكاذب المدعي بأنه ربّ الناصورائيين. وفي منزله يعذب السحرة والعزّاب من النساء والرجال وقاتلي الأطفال والجاهضات.

٧. إيفاد: وهي الروها الكاذبة. ويعذب فيها السحرة الذين يصلّون صلاة الباطل ويصومون.

٨. الشياطين: الذين خلقهم بثاهيل ويعذب فيها ذوو السلطة الكبار الجالسون على عرش الثورة والتمرد، أصحاب السوط والدم في تيبل العافون عن المذنب ومعاقبو البريء وآخذو الرشوة.

وقد أُدرج المنزل التاسع (منزل أباثر) ضمنها.ولكنهُ في الحقيقة جزءٌ من المطهر الذي سنتناوله لاحقاً في مكانه.

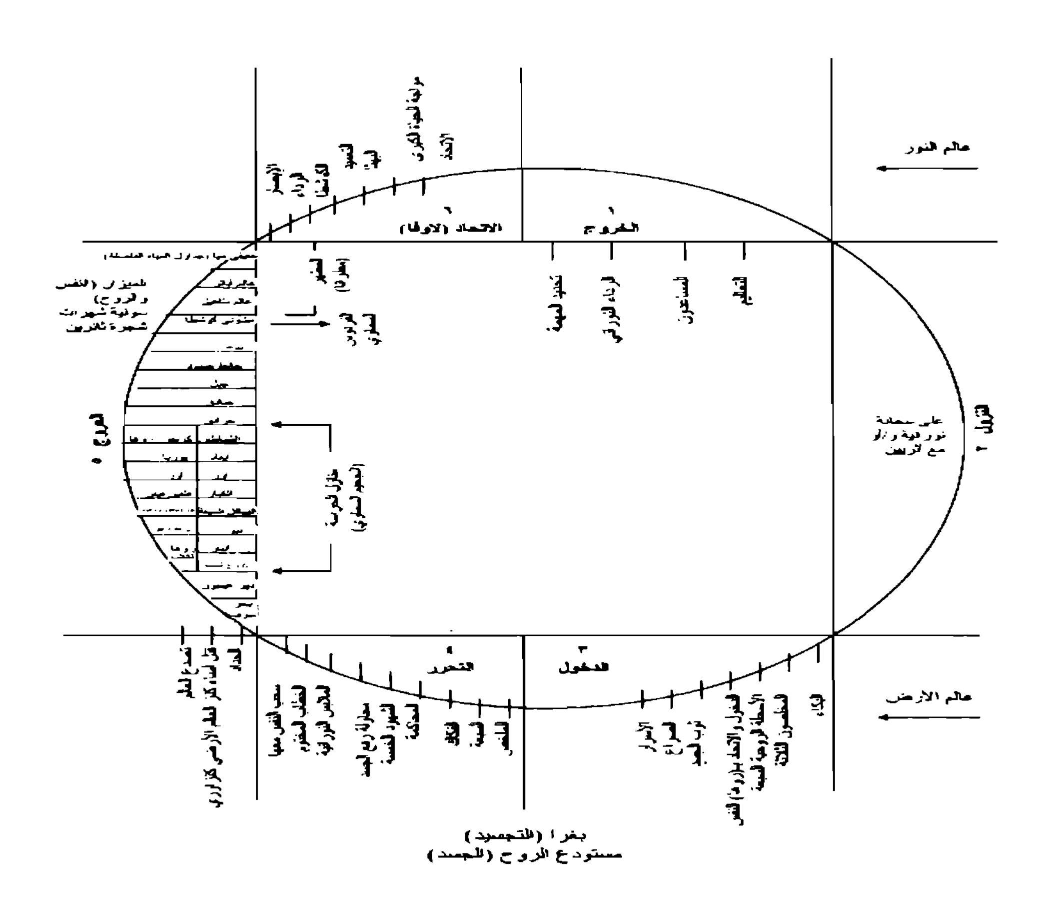
أما رواية الكنزا ربّا اليمين ٥ ـ ٣ فلها تصنيف آخر لمنازل الحراسة وهي:

١. الكلاب المسعورة: وفيه كلاب عمياء وصمّاء. وعنده تخاف الروح لكن أحد الرعاة يشجعها.

٢. روها: حيث تظهر روها مع ٦٧ من بناتها عاريات الصدور. وعنده وقفن في طريق الروح التي تجيب روها بأن العمى سيصيبها.

٣. زان هازازيان: الذي يوصف بأنه السريع المقدام، ملك السخط الشديد والفساد. أما المقيّدون فيه فهم سفّاكو الدماء ومبيدو أبناء جنسهم، وهززيان هو أحد سماء أباثر

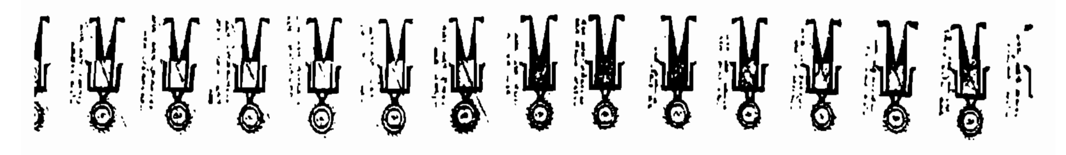
٤. يور وياهور وأرهوم: ويقيم فيه المتزلفون والسارقون والذين يحلفون كذباً.



شكل (٤٩)

دورة الروح المفصلة



شكل (٥٠)
صورة لطقوس (زدقا بريخا) السماوية الجنائزية،
وله علاقة بصعود الروح

كهنة سماويون يضعون بالعصي الطقسية (مركنا) على اكتافهم اليمنى
وبين صفي الكهنة الموائد الطقسية (طربانا) الحاوية على الطعام المقدس والشراب المقدس
(حمامة، تمر، آس، ملح، سمك، خروف، نبيذ، والراية الطقسية (دربشا) قرب الموائد.

المرجع: **Drower, The Haran Gawaita and the Baptism of Hibil Ziwa**
الصورة موجودة في ديوان تعميد هيبل زيوا **Musbuta of Hibil Ziwa**
أعاد رسمها: ماجد فندي المباركي

٥. فلفين فيفن: الذي لفّت روها المدينة بغيوم ضباب قاتمة ويعذب عنده الحماة والقضاة وذوو السلطان والراضعات بثمن.

٦. أور: وفيه يعذّب كل من يعترف بالإله الباطل

٧. يوربا: وهو ملاك الشمس وفيه يعذب كل الكبار والكذابين المحتالين وأصحاب الربا

٨. كريفون ـ روها: ويسمّى البلاّع الذي تجلس روها المذنبة على شدقه، وهي مع أطفالها الـ(٦٦٠) والكواكب الاثني عشر (التجار).

وفي كلا الروايتين نفهم أن الروح لا تنضّم إلى أي مجموعة أو منزل حراسة لأنها لم توزن بعد. وفي مكان أباثر يقرر ذلك فتعود إلى المكان المقرر لها في أحد هذه المنازل أو تصعد إلى الأعالي في حالة براءتها.

٤: الحرائق والخنادق والجبل والحائط الحديدي والثلج:

تصعد الروح بأتجاه حواجز خمسة تكاد تكون طبيعة يذكرها أحد نصوص الكنزا مع سابقاتها كما يلي:

«أبصري البحر الكبير الذي لا معبر عليه
أبصري النهر هيتبون الذي لا يمر خلاله سدّ
أبصري منزل الحراسة الذي يقف حوله الثائرون.
أبصري الحرائق التي يتصاعد دخانها بحيث يصل إلى القبّة الزرقاء
أبصري الخنادق المزدوجة التي حفرتها الروها على جانب الطريق
أبصري الجبل السامق الذي ليس فيه دربٌ ممهّد
أبصري الحائط، الحائط الحديدي، الذي يحيط بالعالم كما لو كان هو إكليلاً
كأنه أكليل يحيط هو حول العالم، وما من ثغرةٍ فيه..»[١٦٩]

ويبدو أن هذه المطبات الطبيعية لا بد من عبورها لامتحان صبر الروح وقوتها. وبهذا تكون الروح قد أنهت الطقات الأربع الكبرى المخيفة.

٥ : مشوني كوشطا :

وهي طبقة الفردوس التي تسكنها الأرواح الخالدة الكبرى مثل آدم وحواء، ويكون حراسها الروحي شيشلام ربّا. والغاية من مرور الروح فيها هي إطّلاع الروح على الجزاء العظيم للأرواح الصالحة بعد أن اطّلعت على عذاب الأرواح الطالحة. والفردوس محاط بجبال من الثلج تفصله عن عالم النور. وفي هذا العالم تستقر الأجساد المثالية بعد أن تكون الأرواح النيِّرة قد تركتها واستقرت في الأجساد النورانية صاعدة إلى الأعالي.

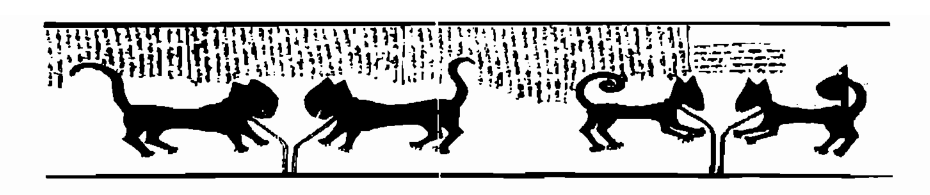
٦ . المطهر (مطراثا) :

وهو ثلاث طبقات تمرّ فيه الروح كمرحلة أخيرة قبل تقرير مصيرها ويتضمن ما يلي :

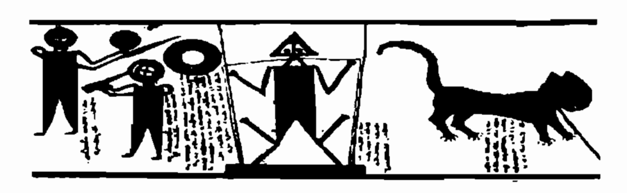
١ . عالم بثاهيل : وهو أول عوالم المطهر الذي فيه كائنات علوية وسفلية. وفي عالم بثاهيل توجد شجرة شاترين التي يتغذى منها الأطفال غير المعمّدين وخصوصاً أولئك الذين يموتون قبل وخلال التعميد شكل (٥٢). ومن عالم بثاهيل تنقل الأرواح سفينة شهرات إلى عالم أباثر شكل (٥٣).

٢. عالم أواثر (أباثر) : حيث يظهر ملاك الميزان أباثر الذي يزن الأرواح (وازن الأرواح). ويجلس على إحدى كفتي الميزان شيتل ابن آدم وتوضع الروح على الكفّة الأخرى فإن ثقل وزن أخطائها عن شيتل ونزلت كفة الميزان فهذا يعني أن عليها أن تتحمل وزر أخطائها في أحد المنازل الثمانية التي ذكرناها. أما إذا كانت الروح لرجل دين بدرجة ناصورائي ولم يؤدِ واجباته كما يجب فيُعذب في منزل أو عالم أواثر.وفي هذا العالم يتمّ توحّد الروح بالنفس (نيشمتا وروها).

٣. عالم جداول المياه الفاصلة (هفيقي ميّا) : حيث تخرج الروح من منزل أباثر في سفينة العبور وتدخل هذه المياه التي تكون بمثابة المياه التي تغسل الروح من آخر أدرانها.







شكل (٥١)

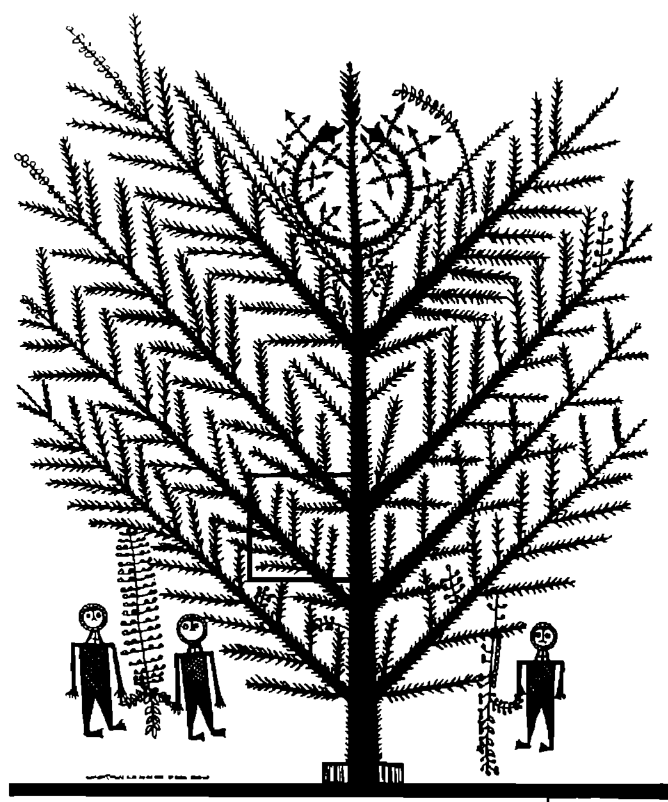
حراس المنازل أو الأعرافيون (مطراثا)

الأسفل من اليمين إلى اليسار: مطهر بثاهيل، يوم الأحد، بهرام ربّا، أنوش، هيبل، كنزئيل، راكزئيل، شارهبئيل، السفار، نباط، بهاق، المشتري، الزُهرة، القمر (سين)، الشمس (شامش)، يوم الأحد (هبشابا)

الأعلى من اليمين إلى اليسار: حيوانات مقيدة (زنجاني) آلات التعذيب والشياطين الخارقين وهم من اليمين:

١. شبيه الأسد (آربا) الذي يقف في المدخل
٢. شبيه القرد الذي يجلس في المدخل
٣. عجلة الماء الأسود التي توضع فيها النساء ويشربن نها اللائي لا يراقبن زمن عزلهن
٤. خمس شياطين يلعبون بالآلات الموسيقية (البوق، المزمار، الطبل، صينية نحاسية والصنوج)
٥. شبيه التنين برأسين (تنينا)
٦. كلبان
٧. ذئبان ناريان
٨. أسدان

المرجع: Drower, Diwan Abatur D22-28



شكل (٥٢)

شجرة شاترين

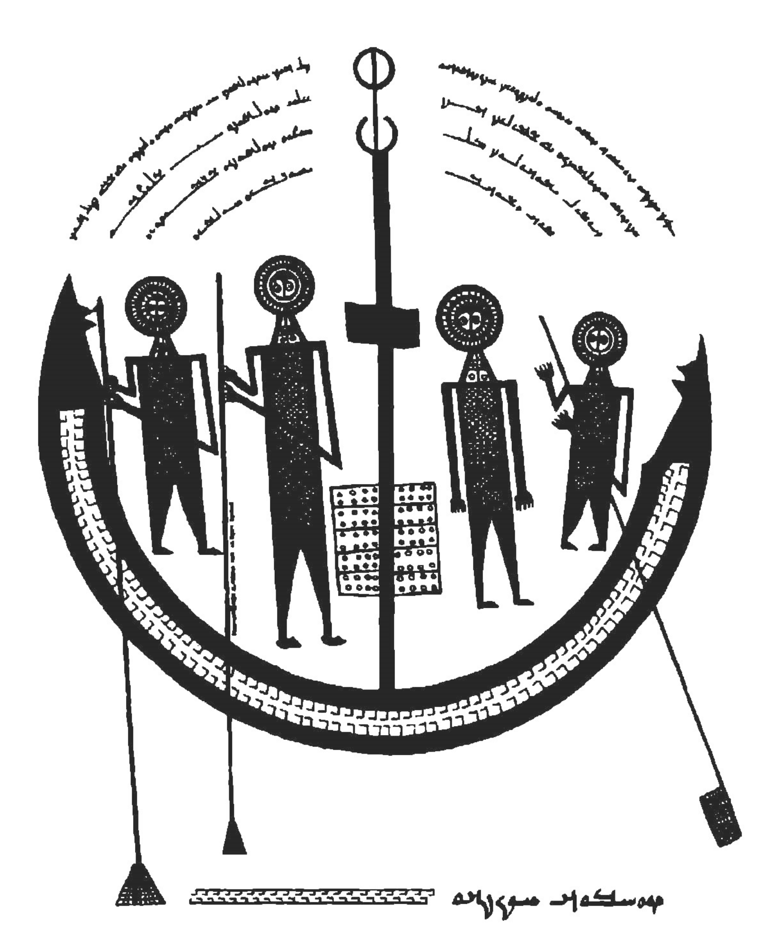
في عالم بثاهيل التي يتغذى منها الأطفال غير المعمّدين وخصوصاً الذين يموتون قبل وخلال التعميد وأحياناً توجد في (سيمات آدميل -كنز آدم-)

والأطفال بعدها يستطيعون الدخول في عالم الضوء في نهاية الزمان بعد أن يعمّدوا في يردنا السماوي:

وفي الصورة كتابة تقول: هذه شجرة شاترين التي بها يتغذى أسماء الأطفال الرضّع. هذه الشجرة تشغل مساحة ٣٦٠ ألف فرسخ (الفرسخ = ٤ ميل)

المرجع: **Drower, Diwan Abatur p11, The Mandaeans p44, 230f**

أعاد رسمها: ماجد فندي المباركي



شكل (٥٣)

سفينة شهرات

التي تحمل الأرواح الصالحة المرتبطة بعالم بثاهيل ذهاباً إلى عالم أباثر

والنص الذي في الصورة يقول، هذه السفينة اسمها شهرات (هي التي تراقب) والتي تذهب إلى الأرواح الكاملة (شلماني) وتحملها عالياً من الأرض (تيبل) لتضعها في بيت أباثر. السفينة تحمل أي روح كاملة عادياً. أما الأرواح غير الكاملة فتمشي على أقدامها. الأرواح الكامل ترتفع بالمواعظ (دراشة) والتلاوات (أو الكتب - سيدرا)

المرجع: Drower, Diwan Abatur, p.15

٦ : الاتحاد :

وهي المرحلة الأخيرة حيث تدخل الروح إلى عالم النور. بعد كل ذلك العناء وتنقسم هذه المرحلة إلى مايلي :

١. الإبصار : عندما تصل الروح إلى أول عالم النور تصادف جذر الكرم الأثيري (أيار كفنا بن بريافيز كفنا) الذي كعبه ماءٌ وجذره جوهر الأرواح (نيشمتا) وأغصانه وأوراقه مصابيح النور وتأخذ منه ورقة وتلقيها على عينها فيتجدد عماها وترى وتبصر الأثير الخارجي والمقام النوراني اللذين تجليا لها. ثم ترفع للروح ثنية ثوب الحياة إلى الأعلى وتدخل إلى الباطن وتثبت أخيراً على صورة الحياة.[١٧٠] وتؤكد الكنزا اليسار بأن مشاهدة غصن الكرم خطوة ضرورية للإبصار (إني سوف أصعد بك عالياً لأعرض عليك مشاهدة غصن الكرم الي يقف خارج نطاق العالم).

٢. تجهيزات الروح : تُجهَّز الروح بالأردية وأغطية البهاء وتَمدُّ لها الحياة مصافحة «كوشطا» وتعمّد وتُمنح البهثا (الرغيف المقدّس) (شكل ٥٤)

«عندما وصلت هي إلى باب دار الحياة
جاء إليها الرفيقُ مستقبلاً
إنه يحمل إكليلاً نضراً زاهياً في يده
وعلى ساعديه كليهما رداء :
تحركي أيتها الروح (نيشمتا) إلبسي رداءَك
وضعي عليكِ إكليلكِ النَضِر
إصعدي عالياً وامضِ شاخصةً إلى الشكينة
إنها المكان الذي تقعد فيه الأثري جالسة
إلى المكان الذي تجلس فيه الأثري
ويأوي إليه أخوانكِ في شُكيناتهم
إن الحياة مدت لها يدها مصافحةً وعقدت معها رابطة عِشرة مشتركة
كتلك التي يبرمها المختارون في مقام النور.»[١٧١]

وفي عالم النور يُعاد تعميد الروح لكي تتهيأ للبقاء الأبدي فيه :

«هو رفع نفسه وصعد عالياً إلى دار الحياة

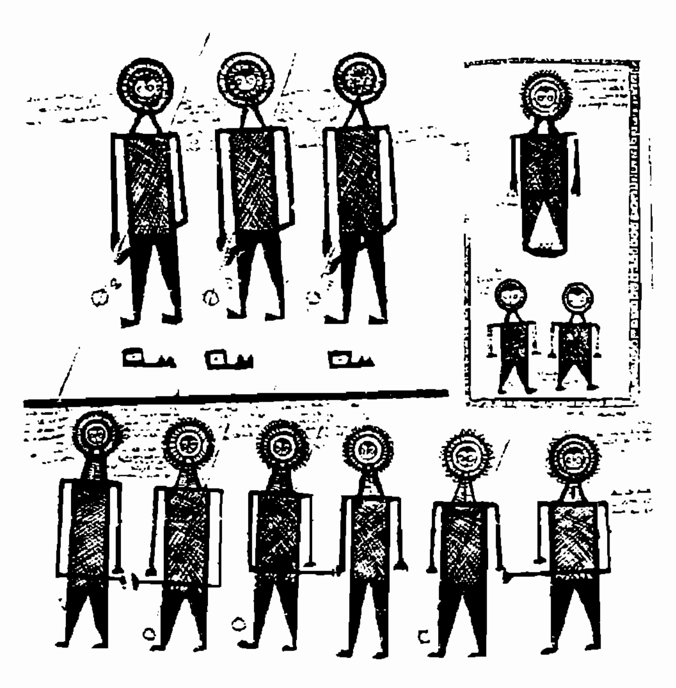
إنهم غسلوه في النهر وكلأوه (شملوا إياه) برعايتهم

إنهم غسلوه في النهر وكلأوه برعايتهم

ووضعوا أياديهم اليمنى عليه

إنهم عمّدوه بتعميدهم

وقووا إياه بكلماتهم الطاهرة.»[١٧٢]



شكل (٥٤)

المعمّدون السماويون للأرواح

الذين يقفون في منزل أباثر عند مغادرة الروح وهم يرسّمونها

من هنا فصاعداً عند قراءة صلاة مسختا عليها في الأرض

هؤلاء المعمدون يعمدون الأرواح حيث يقفون (الأسفل منهم) عند يردنا وهم من اليمين لليسار:

١. دموثا (شبيه) شيتل

٢. دموثا (شبيه) أنوش/ يمسكان بأيدي بعضهما

٣. أداتان (بديل آدم)

٤. ياداتان/ يمسكان بأيدي بعضهما

٥ ، ٦. بدون أسماء

أما صور الأعلى من اليمين:

١. شبيهة سيمات هيي (كنز الحياة)

٢. ابنة يوشامن (الإسم الأصغر/ يسار) وهي شبيهة مدينة هيّي (مدينة الحياة)

٣. شبيهة شارهيبيئل (الرسم الأصغر/ يمين)

٤. شبيه بهرام (مكرر) / الأشخاص الثلاثة إلى اليمين الأعلى وهم يقفون على اليردنا

٥. شبيه هيبل

وتحتهم أدوات احتفالية مثل مركب البخور، كوب الزيت والخمر والتي تحمل أسماءً وكذلك تُمنحك الروحك البهثا (الرغيف المقدس):

«ما كدت أصل إلى دار الحياة
حتى جاءت الحياة تستقبلني وتُجيبني
إنها استخرجت بهاءً وألبستني إياه
وجلبت نوراً وغطّتني به
إنها ضمّتني إلى حسابها
والطيبة وضعتني في وسطها
إن نوري يعدّ ويحضّر البهثا
تفكيري يأخذ بحمد ومدح الحياة»(١٧٢)

٣: مواجهة الحياة العظمى: تواجه الروح الحياة العظمى وتحكي لها ما حصل معها في عالم تيبل والمؤامرات التي حاكها ضدها السبعة:

«نعم إن المانا ارتحلَ ذاهباً مع أثراه
وتوجّه صاعداص نحو الحياة العظمى
دخل على العظمى

وحكى لها بما فعلته السبعةُ به:

ألا تعلمين أنتِ، أيتها الكبرى،

ألا تعلمين أنتِ، أيتها العظمى،

ألا تعلمين أنتِ، أيتها الكبرى،

بأنني وجّهت دماً ضد السبعةِ

رغم أنها قوية وجهت أنا إليها الذمّ

فهوت السبعة ساقطةً من علٍ

سقطت السبعة من علٍ إلى الحضيض

فارتفعت أنا فوقها وصرتُ أعلى منها

إنني وقفتُ فوقها

فجاءَ إليّ قادماً مساعدي ووصل إليّ

إن مساعدي جاء قادماً إليّ ووضع نفسه في خدمتي

لقد جاء إليّ ووصل إليّ رفيق طريقي

لقد بلغني وظهر لي جلياً رفيقي

المدافعُ عني، المعاون، المساعد، الرفيق

إنه احتضنني وعلى هذا جئت إليك

ورويت لك ما فعلته السبعة بي.»[١٧٢]

ثم تقوم الحياة العظمى بمباركة الروح بعد أن أنجزت مهمتها:

«إنها أمسكت آدم براحتها اليمنى

صعدت عالياً وأقامته في شكينتها

في المكان الذي تسكن فيه (الحياة) الكبرى

وبهاؤها وهيئتها يتلألآن منورين

إن آدم ذلكم ـ الذي سلّمته أنتِ إليّ ـ

إنه يقيم عندك كرّة أخرى

إن الحياة باركت له بفمها الطاهر

وتكلمت إليه برقةٍ قائلةً:

لتكن مباركاً أنت وخالقك الذي كان قد خلقك

هذا، المانا، جلبته أنا إليكَ.»[١٧٤]

٤. الإتحاد (لوفا): تسكن الروح أخيراً في شكينتها الخاصة بها وأحياناً مع المساعد الكبير الذي أنقذها، والإمر الحاسم هنا هو أن الروح (نيشمتا) تتحد مع شبيهها النوراني (دموثا). وبشكل أدق تدخل الروح في جسدها النوراني (اصطونا) الذي يشبه الجسد المادي الأرضي. وتسمى هذه العملية بـ(لوفا) وهي نوع الاتحاد في عالم النور الذي يكون أبدياً. وقد يستعمل هذا المصطلح للإشارة إلى الاتحاد بين الكائنات النورانية أو بين الأثري بشكل عام.

٥. **التكنيز (الإخفاء في الكنز)**: وهي المرحلة الأخيرة حيث توضع (نيشمتا) المتّحدة مع جسدها النوراني في (كنز الحياة) أو (كنزا) حيث يبقى هناك كجزء من عالم النور إلى الأبد، ويمكن أن نسمي هذه العملية استناداً إلى الإصطلاح المندائي بـ(التكنيز **Ginzation**) الذي هو جعل الروح المنفردة جزءاً من الكنز الروحي النوراني، حيث يقوم هيبل زيوا بالإشراف على الكنز والأثري هم الذين يحرسونه. وبهذه الخطوة تكون الروح قد استقرت في كنز خالقها ومطمئنةً بعد أن غامرت هذه المغامرة الطويلة ودارت هذه الدورة التي أعادتها إلى مكانها.

والحقيقة أننا لم نلحظ أن الروح (نيشمتا) نفسها قد تعود مرةً أخرى وتهبطُ إلى عالم الأرض، ثانيةً، لتدخل في جسدٍ جديد. لكنّ ما لاحظناه هو أن الروح الواحدة للفرد تبدو وكأنها روح الكون بأكمله وأنها هي ذاتها مانا والحياة بل والحي العظيم نفسه الذي تواضع ونزل إلى الأرض ليضيئها ويكشف أسرارها وينظف أوساخها ويقيم فيها العدل.

لا وجود للإله الصانع ولا للمنازل التي تجعل الروح تفقد أو تكتسب الشرور والمادة من عالم الكواكب وغيره، وهو ما تختلف به المندائية عن الغنوصيات والهرمسيات التقليدية التي شاعت في العالم الهيلنستي مما يثبت أن لها خصوصيتها النادرة وأنها لم تتبع غيرها بل كوّنت لها جهازاً خاصاً بها نرجِّح أنه كان أصل الدورة الهرمسية الكبرى كما سنوضح ذلك.

الفداء الذي قامت به الروح هو ما يرشحها لأن تكون أصل المسيحية، فقد تحولت الروح (نيشمتا) إلى المسيح المخلّص بعد أن اتّحدت بمخلّصها وصعدت إلى الأعالي، هذا ما توصلت إليه الديانة المسيحية.

المبحث الرابع
الأساطير والطقوس المندائية والعود الأبدي

أولاً : أسطورة العود الأبدي (الزمان الدائري) :

نشأت أساطير العود الأبدي منذ راقب الإنسان الطبيعة ولاحظ تكرار الليل والنهار والفصول والولادة والموت. فكانت أول أساطير العود الأبدي هي أسطورة ديموزي السومرية عندما يهبط إلى العالم الأسفل فيحلّ الخريف والشتاء وحين يعود من هذا العالم ويحل على الأرض يظهر الربيع والصيف. وبهذه الأسطورة فسّر الإنسان السومري أول ظواهر العود الأبدي وربطها بالآلهة.

وحين كان يغيب القمر شهرياً ثم يعود اخترع الإنسان السومري أسطورة إنليل وننليل وخلق القمر ليفسر ظهور القمر واختفائه وولادته من جديد في العالم الأسفل.

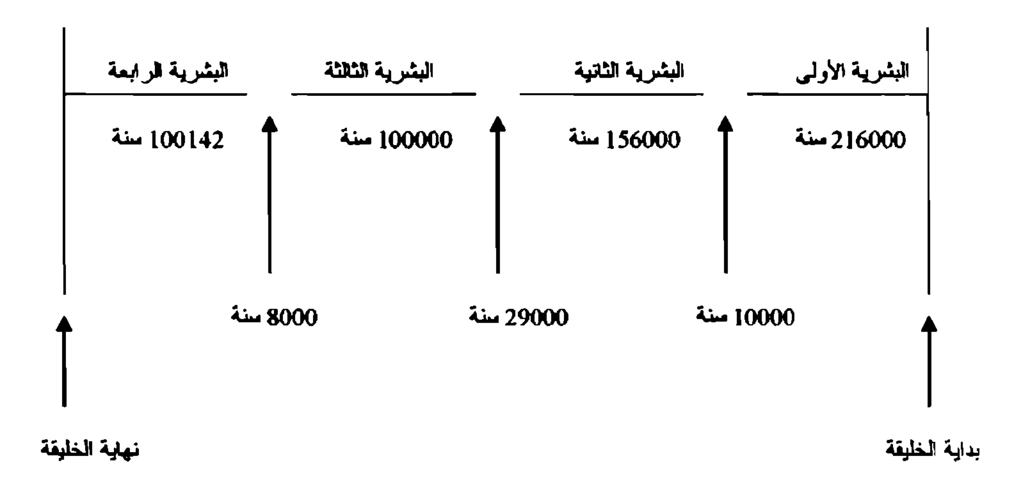
وهكذا ظهرت الكثير من أساطير العود الأبدي لتفسّر الظواهر الدورية أو لتضمر في داخلها فكرة الحركة اللانهائية الإيقاعية للزمن. وأبتكر البابليون مثولوجيا أدوار العالم في الساروس والناروس وهي دورات السنين الكونية.

وفي الهند القديمة ظهرت أسطورة الدورات اللانهائية للزمان والتي ترى أن الزمان الدوري يتكون من أربع (يوغات) عمر الأولى (كريتا يوغا) ٤٠٠٠ سنة، والثانية (ترتيا يوغا) ٣٠٠٠ سنة، والثالثة (دوا بارا) ٢٠٠٠ سنة، والرابعة (كالي يوغا) ١٠٠٠ سنة. ويفصل بين كل يوغا وأخرى ٤٠٠ سنة. وتسمىهذه الدورة الإلهية مها يوا (الدور التام) وعمرها ١٢٠٠٠ سنة. وتعتبر المها يوغا سنة واحدة من عمر الآلهة، والإله يعمر ٣٦٠ ألف سنة إلهية أي ما مجموعه ٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة وهو ما يشكل دورة كونية واحدة.

أما كل ألف ماها يوا فتؤلف (كالبا) أي صورة، وأن ١٤ كالبا تؤلف مانفاتارا واحدة وأن ١٠٠ كالبا أي (٣١١٠٠٠) مليار من السنوات تؤلف حياة البراهما الذي هو بمثابة الإله الأعظم عند الهنود. والآلهة غير خالدة والخلق والإبادة تتابعان إلى ما لا نهاية.

هذا النوع من (العود الأبدي) هو أسطورة تنجيمية أو فلكية لأدوار الزمان يشكل الإيقاع الأساسي لخلق وهدم الكون إلى الأبد.

ويبدو أن المندائيين تأثروا بمثولوجيا أدوار العالم البابلية والهندية حيث الإيقاع المندائي للعالم يتكون، في المندائية، من (مها يوغا) واحدة بلغة الأسطورة الهندوكية. أي أن هناك دور تام واحد يتكون من أربعة عصور بشرية بينها فترات إنتقالية وكما يلي :



شكل / مخطط(٥٥)
عمر البشرية بأدوارها الأربعة

هذه هي الدورة الواحدة ذات الأدوار المتعددة التي اقترحتها الديانة المندائية لتاريخ الأرض وما عليها من بشر. ولا نعرف ما هو الأيقاع الكوني الأكبر الذي يشمل الكون كله، فالنصوص المندائية لا تفصح شيئاً عن هذا.

إن هذه الأدوار المندائية الأربعة بررت الكوارث الكونية الأربع (السيف، الحريق، الطوفان، الريح) وتوضّح الانحطاط التدريجي الذي يصيب الإنسان في نشاطاته الاجتماعية والأخلاقية والروحية فالعصور الثلاثة الأولى كان لها رسول كوني أصبح راعياً لبشريتها، أما العصر الرابع الذي هو (عصر الحديد) فيجري في المندائية دون رسول كوني، إنه دور نُزعت منه القداسة.

ولذلك فإن غَسَقَهُ يختلف عن الأدوار التي سبقته فهو ينتهي بالفناء الكلي لعالم الأرض والسماء والكواكب والأبراج.

إن نظرية الأدوار المندائية الأربعة تعطي الروح (نيشمتا) ما يلي:

١. القدرة على تحمل أخطاء الجسد والشقاء الكوني لأنها تُطلعه مسبقاً على ضعف الإنسان وكونه أعزل إلاّ من بريق روحه الذي لا يدوم إلاّ بالعمل الصالح والإيمان.

٢. تبرير التناقص المستمر في عدد المندائيين. ففي العصر الأول (العصر الذهبي) كان كل الناس على دين آدم الذي هو جذر الدين المندائي، وكان اسم كتابهم هو (كتاب آدم). وفي العصر الثاني (العصر الفضي) ظهر الناصورائيون والناصورائية ولم يعد كل الناس على دينهم. وفي العصر الثالث (العصر النحاسي) تناقص الناصورائيين. وفي العصر الرابع (العصر الحديدي) أصبحوا يسمون المندائيون وأصبح كتابهم هو الكنزا ربا وأعدادهم أصبحت أقل.

٣. إن ابتكار اسطورة/ فلسفة الأدوار الكونية المندائية تعبر عن انعتاق الإنسان من نظام الدور الواحد (الذي يتضمن أربعة فصول) والنهاية الواحدة المحتومة ونظام النماذج البدئية، وهذا النظام الفلكي الكوني هو جزءٌ من أسطورة الأدوار لكونية الكبرى التي بدأت بالسار (الساروس) البابلي ثم انتقلت إلى الهند واليونان ثم اكتسحت هذه الأسطورة العقائد الغنوصية.

لقد كانت الأدوار الكونية المندائية وريثة الأدوار الكونية البابلية مباشرة وإذ كان الإغريق قد طوّروا هذه الأدوار علمياً فأن المندائيين أبقوها على حالها المثولوجي وربما زادوها رموزاً وعلامات كوزموسكاتولوجية.

كان انكسمندر، مثلاً، يرى أن جميع الأشياء تولد وتعود إلى الأبريون (النار) وكان هيراقليط يترقب الحريق الكوني القادم. لكن المندائيين ابتكروا الأدوار الكونية الأربعة التي تتناغم تماماً مع العناصر الأربعة، فالكارثة الأولى تحصل بالسيف والطاعون وهما مبدءان ترابيان حيث السيف معدن أرضي والطاعون مرضٌ يندلع من مغاور الأرض العتيقة. أما الحريق فهو مبدأ ناري والطوفان مبدأ مائي والكارثة الأخيرة العاصفة والرياح وهي مبدأ هوائي.

إن العود الأبدي يعني استعادة جميع الكائنات لوجوداتها السابقة بصورة دورية فمن العقائد النادرة التي نعرف نسبتها في شيء من اليقين إلى الفيثاغورية البدائية ثم بحسب الأبحاث الحديثة،

التي استثمرها وركّبها بطريقة تبعث على الإعجاب ج. بيديه **J. Bidez** تتضح قوة الاحتمال بأن عناصر معينة من النظام الأفلاطوني، على الأقل، ترتدّ إلى أصل إيراني ـ بابلي[١٧٥]

ويقول هنري شارك بوش: يدل التعريف الأفلاطوني الشهير على أن الزمان الذي يحدد دورة الأفلاك السماوية ويقيسها هو الصورة المتحركة للسرمدية الثابتة، وهو يقلّدها إذ يجري على صورة دائرة. ولذا، فإن الصيرورة الكونية بأسرها، وكذلك ديمومة هذا العالم، عالم الكون والفساد، عالمنا، ستنمو على شكل دائري أو تتبع تعاقب غير محدود من دورات ينشأ خلالها نفس الواقع ويفسر ثم ينشأ من جديد بحسب قانون وتناوب ثابت لا يتغير ولا يتبقى، مجموعة الكون وحدها مصونة بدون فناء شيء ولا خلق شيء، بل إن بعض مفكري أواخر (العصرالقديم) ـ الفيثاغوريين ـ والرواقيين والأفلاطونيين ـ انتهوا إلى القول بأن داخل كل دارة من دورات الديمومة. من هذه الأيونات **Aiones**، من هذه الإيفات **Aeva** تتكرر نفس الأوضاع التي كانت حدثت في دارات متلاحقة ـ إلى ما لانهاية ـ ما من حادث فريد لا يجري سوى مرة واحدة (ومثلاً الحكم على سقراط وموته)، فأنه يكون قد جرى، وسيجري بصورة دائمة، وإن الأفراد أنفسهم ظهروا ويظهرون وسيظهرون في كل عود للدارة حول نفسها، وأن الديمومة الكونية هي تكرار، دورة **Anakuklesis** عود أبدي.[١٧٦]

رأى اليهود أن فكرة الزمن الدائري غير مجدية وليس هناك عود أبدي لأن (يهوا) يتجلى في التاريخ دائماً. فالزمن له بداية واستمرارية موشّحة بظهورات يهوا. وبذلك أصبح للحدث التاريخي عمقاً إلهياً. ولم تعد الآلهة تظهر في بداية ونهاية التاريخ بل اثناء التاريخ على شكل حركات غضب أو رضا أو هزيمة..إلخ

وطوّرت المسيحية هذا النظر اليهودي للتاريخ إلى مدىً أبعد فقد أصبح الله إنساناً في هيئة يسوع وذات بعدٍ تاريخي. أي أن التاريخ المدنّس أصبح (أحياناً) تاريخاً مقدّساً فقد تقدّس الزمن بحضور يسوع، ولم يعد ذلك الزمان المقدّس أسطورياً، بل هو زمان تاريخي تأسطر أي «أن (التاريخ) يتكشف على أنه بعد جديد ناجم عن حضور الله في العالم. (التاريخ) يغدو من جديد هو (التاريخ المقدس) كما كانت تتصوره، ولكن في منظور أسطوري، الديانات الابتدائية والغابرة. المسيحية تنتهي إذن، لا إلى فلسفة، بل إلى لاهوت (للتاريخ). ذلك أن أحوال تدخل الله

في (التاريخ)، ولا سيما (تأنسهُ) في الشخص التاريخي لـ(يسوع ـ المسيح) يستهدفان غرضاً يعلو على التاريخي: خلاص الإنسان»[١٧٧]

الديانة المندائية تسلك سلوكاً وسطاً بين المفاهيم القديمة (البابلية، الأغريقية، الهندية) للزمان الدائري والمفاهيم الجديدة (اليهودية المسيحية) للتاريخ المقدّس. فهي إذ تضع دائرة الزمن الكبرى بأربعة أدوار بحيث أنها تُبقي في نهايتها على عالمي النور والظلام متقابلين دون فناءٍ كلي لعالم الظلام مثلاً، وهذا يعني إمكانية تجدد الدائرة، من جديد، في دورة خلقية جديدة. ولكن الأدوار الأربعة مسيطرٌ على ثلاثة منها من قبل ما يسمى بـ(رئيس الدور) ذي المنشأ النوراني مثل هيبل، شيتل، أنوش أما الدور الرابع فمخترق، بين حين وآخر، بظهور(أنوش أثرا) بشكل خاص عند حلول الكوارث وعند رفع الناصورائيين الكبار مثل دنانوخت وسام ويحيى..إلخ وهذا يعني أن المقدّس ما زال يصبغُ جزءاً من التاريخ بقداسته فيرفعه من مستواه الدنيوي إلى المستوى الإلهي.

إن عالم النور وقف كلّه مع الدور الأول، حيث الخليقة، وكان قد عهد إلى سلالة كاملة مكوّنة من آدم وحواء وهيل وشيتل وأنوش دفع عجلة الزمن في هذا الدور لكن آدم وحواء ثم هيبل ارتفعوا إلى عالم النور، وفجأة بهت ضياء الدور الثاني لأن فيه كلّ من شيتل وأنوش فقط. ومع ذلك كان عالم النور بكائناته المترددة على عالم الأرض يعين مضي الزمن في هذا الدور الثاني أما في الدور الثالث فقد وصلت الدورة إلى القياس الذي يناسب عالم النور فأصبح الدوران في الوجهة المضادة يمضي من تلقاء نفسه، وصعد أنوش، وأصبح العالم في الدور الرابع خالياً من رسل النور فانحطّ الزمن وسار إلى الحضيض حيث الكارثة الكونية الكبرى وفناء الأرض.

لقد رفع عالم النور يده من حركة العالم مع بداية الدور الثالث وتركه ينزل تلقائياً في حركة نزول طبيعية صاحبها خراب كثير ودمار هائل وظهور أنبياء الكذب وكائنات الخراب واستشراس كائنات الظلام والكواكب والأبراج.

كان بيديه **Bidez** يرى أن الفكرة التي تقول بأن الكواكب إذا أنضمَّ بعضها إلى بعض يحدث اضطراب عالمي هي فكرة ذات أصل كلداني. وكذلك يخبرنا برعوشا البابلي (من القرن الثالث ق.م) بأن الكوارث الدورية ناتجة عن دورة الأجرام السماوية فعندما تتجمع جميع الكواكب في

مكان واحد فسنحصل على ما نسميه (السنة الكبرى) أو (الزمان التام) وهو الذي ينتج عنه الكوارث الكبرى. وقد أخذ المندائيون هذا المبدأ ضمنياً فهم يرون أن اتحاد الأبراج والكواكب مع بعضها بقيادة الروها (الظلام) ينتج عنه كارثة كبرى تفصل بين الأدوار كالسيف أو الحريق أو الطوفان أو الريح.

كان المندائيون، في وادي الرافدين، هم الذين طوّروا مفهوم الأدوار الكونية الأربع ونهايتها بالعاصفة الكونية. أما الرواقيون، في أثينا ثم روما، فقد طوّروا هذا المفهوم انطلاقاً من هيراقليطس أو تأثراً بما قاله المندائيون خصوصاً والغنوصيون عموماً.

وتبدو لنا فكرتا (العود الأبدي) القديمة و(نهاية العالم)، وهما من اختراع الأقوام الشرقية واليونان (الهيلنستية)، قد تفوقتا وظهر العود الأبدي بأدواره الأربعة (كما في المندائية) وبأدواره اللانهائية (كما في الهندوسية والبوذية والجاينية). أما اليهودية والمسيحية ثم الإسلام فقد بقّعوا التاريخ بالحوادث المقدسة ولم تعد هناك ضرورة لعود أبدي.

أن العود الأبدي المندائي يشكل الحلقة الرابطة بين العود الأبدي في الأديان الوثنية القديمة وبينه في الأديان السماوية الموحّدة الاخرى. فقد لجمت غلواء الهنود في الدورات اللانهائية وأعطت بداية تقديس التاريخ في ظهور حوادث إلهية، وتكون بذلك قد حافظت على الذاكرة البشرية في هذا المجال.

ثانياً: أساطير الرحلات بين عالمي النور والظلام:

تشكل الرحلات بين عالمين متناظرين أحدهما علوي والآخر سفلي المصدر الأول لمثولوجيا الغنوص والعود الأبدي. ولا نريد أن نخوض هنا في تفاصيل رحلات الصعود والهبوط من وإلى العالم الأسفل السومرية لديموزي وإنانا، وإنليل وننليل والبابلية لمردوخ والمصرية لإيزيس وأوزيريس والكنعانية لبعل وعناة والفينيقية لأدونيس وأفروديت وغيرها فهي معروفة ويمكن العودة لها.

إن أساطير النزول والصعود إلى ومن العالم الأسفل المندائي (عالم الظلام وعالم الأرض) هي ما يهمنا هنا لأنها تشكل نوعاً من العود الأبدي الذي نتجت عنه مفاهيم مثولوجية في غاية الأهمية.

١. دورة الحيوات الثانية والثالثة والرابعة: أول نزول بدأ مع تمرد الحياة الثانية (يوشامن) وهبوطها إلى خارج عالم النور للبحث عن سكن وعالم خاص بها ثم تبعها تمرد الحياة الثالثة (أباثر). أما الحياة الرابعة (بثاهيل) فقد خاضت في المياه السوداء لعالم الظلام، ونتج عن هذه الحركة النازلة خلق الأرض بعد أن صعد بثاهيل إلى أباثر أكثر من مرة.. وبقية الأسطورة معروفة.

وقد كان نزول هذه الحيوات في بداية الخليقة أما صعودها فقد حصل مع نهاية الخليقة ومجيء ساعة فناء الأرض. فقد عرفنا أن هيبل زيوا قبل فناء الأرض أعاد بثاهيل وأباثر ويوشامن إلى عالم النور بعد موافقة الحي العظيم على غفران خطيئتهم الأولى التي سببت كل هذه المتاعب.

وتعتبردورة الصعود والنزول هذه أول وآخر دور في الخليقة فقد ضمت بداية الزمان ونهايته في دورة واحدة كبرى.

٢. دورة مندا إد هيي: هبط مندا إد هيي إلى عالم الظلام بعد ظهور أبناء ا لحياة الثانية (يوشامن) ورغبتهم في إنشاء عالم خاص بهم، فقد خلق مندا إد هيي ثم قام مانا العظيم بإصدار الأوامر له لكي ينزل إلى عالم الظلام كي تنزل الأثري وتفعل شيئاً قبيحاً هناك. أي لكي يقطع الطريق على أبناء يوشامن وما بعده فينشيء هو عالماً هناك لا ينقطع عن عالم النور وربما كان المقصد الأخير هو خلق الإنسان ذي النشمثا التي هي رابطته بعالم النور. وقد عرفنا من الأسطورة كيف قاتل مندا إد هيي أور ملك الظلام وكيف استطاع أن يبني طريق العبور الآمن ويفتح مجرىً بين النور والظلام واستطاع أن يقيّد أور ويسجنه لكي يُسمح بخلق عالم الأرض ثم الإنسان دون متاعب ما دامت الأمور تتجه نحو خلق عوالم تابعة لعالم النور خارجه.

كان مندا إد هيي من وجهة نظرنا، ينافسُ أو يتسابق مع الحيوات الثانية والثالثة والرابعة لخلق عالم تابعٍ لعالم النور غير منقطع عنه بسلالاته النورانية. لكنّ هذا الهدف سيلتقي مع هدف الحيوات المتمردة، وسيعملان، في النهاية، مندا إد هيي وبثاهيل (الحياة الرابعة)، على التعاون وخلق الأرض ثم خلق الإنسان.

وقد عاد مندا إد هيي إلى عالم النور بعد أن أنجز مهمته. وكانت دورته هذه بمثابة الدورة الأولى التي أنجزت مباشرة بين عالمي النور والظلام.

٣. دورة هيبل زيوا: تعتبر دورة هيبل زيوا أكثر الدورات تركيباً ودلالة على المستوى

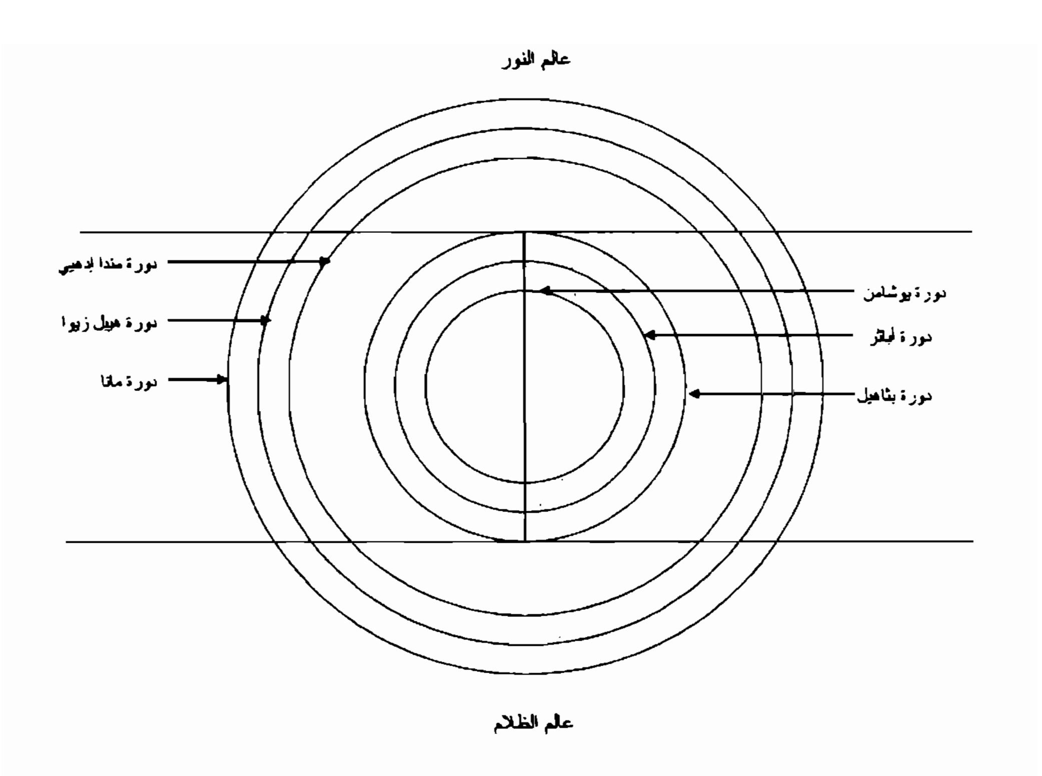
المثولوجي فقد جاءت لأغراض عديدة منها السيطرة على روها وأور وجلب أسرار عالم الظلام والزواج من زاهرئيل (أخت روها) حيث تم إنجاب بثاهيل داخل عالم الظلام من جهة ومن نظر أباثر في وجه الماء الأسود من جهة أخرى.. وهي عملية مثولوجية مركبة شرحناها بالتفصيل في مكانها.

إن هذه الدورة هي عبارة عن أربع دورات، تكونت فيها كلّ دورة من صعود ونزول واحتشدت هذه الدورات بالرموز والدلالات العميقة. بل أن دورة هيبل زيوا تظهر وكأنها أسطورة الخليقة الثانية بعد أسطورة الخليقة الأولى لعالم النور. ومع ذلك فهي تتوازى مع دورة مندا إد هيي كثيراً، لكنها تمتاز عنها بثقل رموزها ودلالاتها.

٤. دورة (مانا) أو (نشمثا): التي يعبر عنها هي الأخرى بمركّب رباعي يتكون من آدم كاسيا وهيبل أثرا وشيتل أثرا وأنوش أثرا. فهي تناظر دورة هيبل زيوا في تركيبها. لكنها بطبيعة الحال، تتضمن هبوطاً لـ(مانا) من قبل آدم كاسيا في جسد آدم الظلامي ثم هبوط حواء كاسيا وأولادهم. وقد مثّلت هذه الدورة الفاعلية المستمرة للعود الأبدي المثولوجي حيث أرواح (نشماثا) الناس تهبطُ وتصعد في عود أبدي لا ينتهي، ظل مستمراً طيلة العصور البشرية الأربع ولن يتوقف إلاّ بفناء الأرض ونهاية الإنسان.

كذلك فإن قرب انتهاء العود الأبدي سيكون مدعاةً لاكتمال دوائر الخطاة. الثلاثة (يوشامن، أباثر، بثاهيل) حيث سيصعدون في آخر الزمان إلى عالم النور بعد أن توقفت دورتهم في النزول فقط.

إن تأمل شكل دورات الأساطير الست توضح مدى توغل أساطير العود الأبدي في الديانة المندائية ومدى اتصا هذه الديانة بالديانات الرافدينية التي ظلت حافلة بمثل هذه الأساطير رغم أن المندائية طوّرت، من جهة أخرى، دورات فلكية تنجيمية للعود الأبدي شرحناها في الفقرة السابقة صارت هي عماد الغنوصية والهرمسية فيما بعد.



شكل (٥٦)

دورات أساطير النزول والصعود من وإلى عالم النور والظلام

ثالثاً : الطقوس الدورية المندائية والعود الأبدي

الطقوس الدورية خلال السنة تعبر دائماً ، في جميع الأديان ، عن ذكرى مقدّسة يتم استعادتها لكي يُكسرَ الزمان التاريخي الرتيب بأيام مقدسةٍ تعيد له الانتعاش من ناحية وتجدد في المتدين القوة التقديسية التي تكفل له الالتحام بالحادثة الأولى وبشخوصها المقدّسين من ناحية أخرى. والأعياد هي نموذج الأيام الطقسية الدورية في كل الأديان.

إن لـ(زمان) الأصل لواقع من الوقائع ، أي الزمان الذي يستند إليه ظهوره الأول ، قيمة ووظيفة أنموذجية. ولذا فإن الإنسان يجهد لإعادته في الحاضر على نحو دوري بواسطة شعائر مناسبة. ولكن (الظهور الأول) لواقع يعادل خلقه حين خلقته (كائنات) إلهية أو شبه إلهية. ولذا فإن العثور مجدداً عن (زمان) الأصل يتضمن ، من ثمَّ ، التكرار الشعائري لعمل الإله الخالق. وإن

إعادة (الكائنات الإلهية) الأعمالَ الخالقة في ذلك الزمان على نحو دوريّ يؤلف التقويم المقدس، يؤلف جملة الأعياد. فالعيد يجري دائماً في (الزمان) الأصلي. ولذا فإن إعادة تكامله في هذا (الزمان) الأصلي المقدس هي التي تميز، بوجه الدقة، سلوك الإنسان أثناء العيد عن سلوكه قبله أو بعده. وفي جميع الأحوال، يمارس الناس خلال العيد نفس الأعمال التي يمارسونها في الأيام العادية، ولكن الإنسان الديني يؤمن بأنه يعيش، عندئذٍ، في زمانٍ آخر، وأنه نجح في العثور مجدداً على الزمان المقدّس الأسطوري.(١٧٨)

الأعيادُ الدينية هي عود أبدي، يتكرر كل سنةٍ، إلى لحظة أسطورية تمت فيها الخليقة أو المعجزات الإلهية، وهي شكلٌ عملي من مثولوجيا العود الأبدي.

تعتبر محاكاة نموذج مثالي أو أصلي إعادة لفعل اللحظة، الميطيقية التي تكشّف فيها النموذج الأصلي لأول مرة. يترتب على ذلك أيضاً أن هذه الاحتفالات، وهي غير دورية ولا جماعية، توقف مجرى الزمن الدنيوي، وتقذف بمن يقوم بها، «في ذلك الزمان». رأينا أن جميع الطقوس تحاكي نموذجاً إلهياً وأن إعادة تمثيلها المستمر تحدث في لحظةٍ ميطيقية واحدة، غير زمانية.(١٧٩)

الأعياد المندائية تعكس أسطورة العود الأبدي الطقسية هذه فجميعها يستعيد لحظة إلهية أو شبه إلهية تمّ فيها حدث عظيم ويحاول المؤمن استعادته في هذا العيد ليضمن اتصالاً بذلك المكان المقدس واقتراباً من شخوصه المقدّسين.

وسنحاول استعراض الأعياد المندائية دون التطرق إلى كل تفاصيلها، بل سنركز على أصلها الإلهي المقدس وكيفية تمثل حركات ذلك الأصل في سلوك المؤمن الذي يمارس طقس العيد وكيف أنها تمثل نوعا من العود الأبدي في الزمان. وسنتذكر تواريخ الأعياد حسب التقويم المندائي الذي يبدأ بشهر شباط وسوف نتحاشى التقويم الميلادي لأنه يختلف من سنة إلى أخرى بسبب عدم حساب المندائيين لربع اليوم الكبيس في كل سنة.

١. عيد رأس السنة (دهفا ربّا):

وهو عيد الخليقة المندائي حيث تستعاد أيام الخليقة التي حصلت في بداية الزمان ولذلك يبدأ مع بداية السنة الجديدة في الشهر الأول (شباط). حيث البرج الأول (قام دوله) أي برج الدلو حسب التقويم المندائي. والاحتفال به يكون لثلاثة أيام.

هذا اليوم هو ذكرى يوم الخليقة لأن (مانا ربّا الكبير) (مانا العظيم) ربّ العظمة، قد أتمّ خلق العالم في هذا اليوم، ولذلك فجميع الأرواح النورانية أينما كانت تغادر مواقعها وتذهب لزيارته وتقديم الشكر له. ويغلق (أباثر) بابه ويرفع الملكان (ندبي) و(شلمي) حراستهما عن الماء الجاري (يردنا) وهيبل وشيتل وانوش يغادرون الأرض أيضاً. وسكان (مشوني كوشطا) وعلى رأسهم (آدم كاسيا) وحارسهم الروحي (شيشلام ربّا) –نظير هيبل زيوا ـ يرتفعون جميعاً إلى عالم النور اللانهائي. وتستغرق هذه الرحلة اثنتي عشر ساعة للعروج حيث يصلون إلى غايتهم في فجر يوم رأس السنة الجديدة ويمكثون هناك متأملين خاشعين للكمال طيلة يوم رأس السنة ثم يعودون إلى أماكنهم الأولى فيصلونها في نهاية الليلة التالية.[١٨٠]

لهذا السبب يصبح العالم مهجوراً من الكائنات الإلهية (لأنها صعدت إلى الخالق) ويكون غير محروس وتصبح قوى الشر والموت طليقةً سائبة ويصبح كلّ شيء نجساً وحتى مياه الأنهار تصبح خطرة فلا يجوز أن يتصل بها أحد، وتغلّف الأشجار بالحصران لكي لا يمسها الأطفال، ولا يفعل المندائيون شيئاً طيلة يوم ونصف هي الفترة التي تقضيها الكائنات الإلهية في زيارة عالم النور.

في هذه الأيام لا تجري طقوس ولا يعمل أي شيء سوى إغلاق البيوت وعدم الاتصال بالناس أو بشيء. حيث يحافظ المندائيون على أنفسهم من أي شيء. وتعتبر وفاة أحدهم في هذه الفترة كارثة كبرى (لأنه يوم خليقةٍ) ولذلك يغطى بالقماش الأبيض لليوم التالي وتجري طقوسه في عيد البنجة.

في اليوم الثاني يخرج المندائيون من بيوتهم ويتزاورون ويحتفلون ويقرأون حظوظهم من الكهان للسنة الجديدة. وبذلك يقلّد المحتفلون ما فعلته الكائنات الإلهية ويحذرون من لمس الأشياء التي تركتها بلا حراسة، وهذا بحد ذاته يجعل المؤمن ملتحماً بهذه الكائنات محترماً سلوكها وملتحماً معها.

٢ .عيد شوشيان (دهفا إد شيشلام ربا أو شوشيان):

ويصادف اليوم (٦ ـ ٧) من الشهر الأول شباط. أي بعد العيد الكبير بثلاثة أيام ويسمى (نوروز زوطا) أي السنة الجديدة الصغرى.

وأصل العيد مرتبط بحارس مشوني كوشطا الأثري شيشلام ربا (شوشيان) الذي يبدو أن هذا هو يوم تتويجه بإكليل الآس والليلة بين اليومين تسمى ليلة القدر حيث تفتح فيها أبواب أباثر أما الناس المؤمنين فيرون أسرارها ويحصلون على ما يطلبون.

يعمل المحتفلون على صنع أكاليل الآس والصفصاف ووضعها على واجهات بيوتهم إلى السنة القادمة في مثل هذا اليوم مشاركة منهم لتتويج شيشلام ربا. ويطلب الناس من السماء في ليلة القدر التحرر من الخطايا والدعاء.

إن شيشلام ربّا هو راعي الفردوس (الجنة) لذلك يكون استدعاء يوم تتويجه هو محاولة الإنضمام إليه ذات يوم في هذا المكان السامي. وهذا أيضاً عود أبدي لتلك اللحظة المقدسة التي حصلت ذات يوم لكسب شفاعته.

٣ .عيد الفل :

ويصادف في أول يوم من الشهر الرابع تورا. والإصل الإلهي لهذا العيد هو أنه يوافق يوم إرسال الخالق لهيبل زيوا من أجل خلق الأرض وجعلها قابلة للسكن حيث وصل لها في مثل هذا اليوم وكان أول ما خلقه عليها هو النخلة ثم خلق الأشجار والخضروات.

ولذلك يقدّس المندائيون النخلة (سندركا) «ويهيئون قبل يوم من العيد كميةً من التمر وبعد عزل نواتها أو بذورها يضيفون لها السمسم وبعض الحبوب المعطرة، ثمّ يحمّرونها على النار وبعد سحق الحبوب المعطرة في الهاون يضيفونها إلى التمر عندما يذوب على النار جيداً ويمزجونه مع المواد المضافة جيداً، ويصنعون من الخليط أشياء تشبه الضفيرة تسمى بـ(الفل) ».[(١٨١)]

إن عيد الفل هو صدى ذكرى خليقة هيبل زيوا لشجرة النخيل.

٣ .العيد الصغير (دهفا حنينا (طرما)) :

ويصادف في ١٨ من الشهر الرابع (تورا) ويستمر لثلاثة أيام. أما الأصل الإلهي للعيد الصغير فهو انتهاء هيبل زيوا من مهمته وعودته من عالم الظلام أو عالم الأرض.

ولذلك يقوم المندائيون بالاحتفال بعودة هيبل زيوا ظافراً ويقيمون مراسيم التعميد وقراءة الفاتحة للموتى (لوفاني). فاذا كان العيد الكبير (الخليقة) لخلق الكون كله فأن هذا العيد الصغير لخلق الأرض وربما لعودة هيبل زيوا من عالم الظلام لكي يهيء لخلق الأرض كما عرفنا.

٤ .عاشوراء (العاشورية) :

يسمى أول يوم من الشهر السادس (سرطانه) ويُصادف شهر تموز باسم عاشوراء أو العاشورية وهو ذكرى لحادثتين متباعدتين :

الأولى : يوم نهاية الطوفان بعد أحد عشر شهراً من ضياع سفنية نوح على سطح المياه ونزول نوح ومن معه من السفينة حيث أقاموا مراسم (لوفاني) أو غذاء الثواب الذي كان يعرفه المندائيون قبل نوح وما زالوا يعملون به.

الثانية : يوم غرق المصريين الذين هلكوا في البحر الأحمر وهم يتتبعون النبي موسى واليهود ، لأن هؤلاء المصريين كانوا من المندائيين (الصابئة).

وبالمقابل فإن اليهود يحتفلون في اليوم العاشر من شهر محرم بيوم عاشوراء لأن الله قد أغرق فرعون في مثل هذا اليوم ، وهو ما ذكره البيروني.

وفي الحالين يقيم المندائيون في مثل هذا اليوم وجبة طعام تذكارية من الحبوب ويصنعون منها نوعاً من الأكل يشبه الهريسة ويوزعونه بينهم ويعطونه للفقراء. ويكشف لنا هذا العيد صدى تلك الحادثة التاريخية الأسطورية التي ذكرها كتاب (حرّان كوثيا) وسلطنا الضوء عليها. أما نهاية الطوفان فقد كانت هناك وجبة طعام تذكرها الكثير من الأساطير وفي مقدمتها أسطورة الطوفان البابلية.

٥ .عيد الربيع (البنجة ، بروانايا) :

ويقع بعد انتهاء الشهر الثامن (قام شمبلتا) أو (أيلول) واليوم الأول من الشهر التاسع (قام قينا) أو (تشرين) حسب التقويم المندائي ، ويستمر لخمسة أيام لا تحسب في التقويم أو أنها تعدّ بمثابة شهر كامل يُحشرُ بين الشهرين الثمن والتاسع. لأن السنة المندائية مكونة من اثني عشر شهراً وكل شهر مكون من ٣٠ يوماً ولذلك تعتبر الأيام المسة الزائدة هذه عيداً منفصلاً قائماً بذاته ، وربما كان لأغراض عملية من أجل كبس السنة ، ولكن المندائيين لم ينتبهوا لربع اليوم معها والذي ظلّ يربك تقويمهم كلما حاولنا مطابقته مع التقويم الشمسي.

الأصل الإلهي لهذا العيد هو خلق خمسة من الكائنات الإلهية الكبيرة في خمسة أيام أي بمعدل يوم واحد لكلٍّ منهم وهم على التوالي (أنوش أثرا ، شيشلام ربّا ، يوخاشا كنّا ، نباط

زيوا، بهرام ربّا) وفي هذه الأيام تُفتح أبواب عالم النور وتبقى مفتوحة ليلاً ونهاراً، ولهذا يجوز إقامة الصلوات والمراسيم في الليل تلك التي لا يجوز إقامتها في الليل في الأيام الأخرى لأن الليل يعتبرُ مضاءً بفعل أشعة عالم النور. وتكون أبواب السماء مفتوحة للأدعية.

يقيم المندائيون أكبر عيد تعميد نهري ويكرس كل يوم لواحد من هؤلاء الأثري العظام احتفالاً بخلقهم، وهو عيد فرح وبهجة يجري فيه تعميد المندائيين جميعاً ويصار فيه من أجل تذكر الموتى. ويرتدي الجميع ملابس بيضاء ويمشون حفاةً أثناء التعميد الجماعي اليومي. ولأن أبواب السماء مفتوحة ترتفع أرواح الموتى في هذه الأيام بسرعة إلى عالم النور.

٦ . عيد العماد الذهبي (دهفا إد إيمانا):

ومدته يوم واحد ويكون بعد عيد البنجة بستين يوماً أي في اليوم الأول من الشهر الحادي عشر (هطيا). الأصل الميثولوجي له هو عيد الاحتفال بتعميد آدم لأول مرة بعد خلقه.

ولذلك يقوم المندائيون بالتعميد فيه بصورة واسعة خصوصاً أنه يقع في الصيف وهو أنسب عيد لتعميد الأطفال، ويحصل المعتمد في هذا العيد على بركات ستين عماداً، ويحرّم فيه ذبح الحيوانات ويمنع أكل اللحوم فيه.

٧ . كنشي وزهلي (الكنس والتنظيف):

وهو آخر يوم من السنة أي يوم ٣٠ من شهر (كديا) وهو بداية الاستعداد للاحتفال برأس السنة القادمة، فهو نوعٌ من طرد وكنس السنة الماضية واستقبال سنة جديدة، ولذلك هو يوم عمل تذبح فيه الأكباش والدجاج ويخبز فيه الخبز ويحفظ، وتحضّر الفطائر والخضراوات والتمر، وتجلب المياه في الأواني من النهر ومن صباح ذلك اليوم يعمّد الكهان من يرغب في ذلك. إنه وداع سنة واستقبال سنة. فهو ليس بالعيد بل هو استعداد للعيد القادم بعد يوم.

يتضح لنا من الصورة التي عرضناها للأعياد المندائية أن كل هذه الأعياد هي صدى لأيام أسطورية في تاريخ المندائيين الروحي وأن الطقوس الخاصة بها تناجي ما حصل في هذه الأيام وتقلدها أملاً في الاتحاد بها وبكائناتها الإلهية.

علينا ملاحظة أن كل الأعياد المندائية هي تذكير بأحداث أسطورية لا تاريخية تنتمي كلّها إلى عالم النور الأسطوري، باستثناء الوجبة الطقسية (عاشوراء) التي تستذكر حدثاً تاريخياً أسطورياً

وهي على كلّ حال ليست عيداً بل وجبة طقسية. ويترتب على هذا أيضاً أن المندائيين يختلفون عن جميع الأديان التوحيدية في أن العود الأبدي الطقسي عندهم ذو مرجعيات أسطورية خالصة. على عكس ما يفعله اليهود والمسيحيون والمسلمون في أعيادهم التي تستذكر أحداثاً تاريخية بعضها أسطوري وبعضها حقيقي، لأنهم جعلوا من التاريخ تجلياً إلهياً، في حين أن المندائيين ما زالوا يجعلون من الأسطورة تجلياً إلهياً شأنهم شأن الأديان السابقة على التوحيد.

لقد فعلها (أنوش أثرا) في أكثر من مرة عندما دمّر أورشليم وعندما دمّر بابل (بغداد كما وردت في نص حران كويثا) وعندما انتقم لشعبه المندائي كما ذكرنا في سردنا للتاريخ الأسطوري لهم، لكنهم لم يحوّلوا تلك الأحداث إلى أعياد أو مناسبات للذكرى الطقسية، أي أنهم لم يجعلوا من التدخل الإلهي في التاريخ مناسبة للعود الأبدي.

مصادر ومراجع الفصل الخامس

١ـ رودولف، كورت: النشوء والخلق في النصوص المندائية. إعداد وترجمة الدكتور صبيح مدلول السهيري، جامعة بغداد، بغداد/١٩٩٤ ص١٨٠

٢ـ الكتاب المقدس: إنجيل يونا ١: ١ ـ ٥

٣ـ كنزا ربّا اليسار: ٣: ٤٢ ص٦٣٢ ـ ٦٣٣

٤ـ نفسه: ٣: ٣٦ ص٦٢٤

٥ـ نفسه: ٢: ٢٣ ص٣٢٥

٦ـ نفسه: ٣: ٤ ص٥٤٨

٧ـ نفسه: ٣: ٥٢ ص٦٥٠

٨ـ نفسه: ٢: ٢١ ص٥٢٠

٩ـ دراور، ليدي: الصابئة المندائيون (الكتاب الأول) ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، الطبعة الثانية/ مطبعة الديواني، بغاداد ١٩٨٧ ص١١٢

١٠. كنزا ربّا اليسار: ٣: ٥٧ ص٦٥٨ ـ ٦٥٩

١١. الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربي/ ط٣/ المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩١ ص٢٦٧

١٢. سباهي، عزيز: أصول الصابئة (المندائيون) ومعتقداتهم الدينية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق ١٩٦٩/ ص١٤٧

١٣. كنزا ربا اليسار: ٢: ٢٧ ص٥٣٤

١٤. نفسه: ٣: ١ ص٥٤٣

١٥. نفسه: ٢: ١٢ ص٤٩٤ ـ ٤٩٥

١٦. إلياد، مرسيا: أسطورة العود الأبدي، ص٧٢

١٧. نفسه ص ٢١٦

١٨. كوندوز، س: معرفة الحياة، ص١١٤ ـ ١١٥

١٩. كنزا ربّا اليسار: ١: ١ ص٤٤١

٢٠. نفسه: ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣

٢١. نفسه: ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤

٢٢. نفسه: ص ٤٤٥

٢٣: نفسه: ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦

٢٤. نفسه: ص ٤٤٦

٢٥. نفسه ١: ٢ ص٤٤٧

٢٦. نفسه: ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨

٢٧. نفسه: ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩

٢٨. نفسه: ص ٤٥٠

٢٩. نفسه: ص ٤٥٠ ـ ٤٥١

٣٠. نفسه: ص ٤٥١

٣١. نفسه: ص ٤٥٣

٣٢. نفسه: ص

٣٣. نفسه: ١: ٣ ص٤٥٧

٣٤. نفسه: ص ٤٥٨

٣٥. نفسه: ١١ ص٢٥٠

٣٦. نفسه: ص ٢٥١

٣٧. نفسه: ص ٢٥٢

٣٨. نفسه

٣٩. نفسه: ص ٢٥٣

٤٠. نفسه

٤١. نفسه: ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

٤٢. نفسه: ص٢٥٥

٤٣. نفسه: ١ ص ٢٨

٤٤. نفسه: ١٨ ص٤٢٨

٤٥. نفسه

٤٦. نفسه

٤٧. نفسه

٤٨. نفسه

٤٩. كوندوز، س: المرجع السابق ص٩٣

٥٠. عليان، رشدي: المرجع السابق ص١٠٤

٥١. نفسه ص١٠٥

٥٢. دراور، ليدي: أساطير مندائية ص ١٩ ـ ٢٠

٥٣. دراشا إد يهيا: ١٢: ص٣٨

٥٤. نفسه: ص ٣٩ ـ ٤٠

٥٥. نفسه: ١٣: ص٤١ ـ ٤٢

٥٦. نفسه: ١٤: ص٤٤ ـ ٤٥

٥٧. نفلسه: ١٢: ص٣٤ ـ ٣٥

٥٨. نفسه: ص٣٥ ـ ٣٦

٥٩. السبتي، رافد عبد الله نجم: مسقثا ص ٩٨ ـ ٩٩

٦٠. العهد القديم: سفر التكوين: ٥: ٢١ ـ ٢٥

٦١. كنزا ربّا اليمين: ٦: ص ٢٠٣

٦٢. نفسه: ص٢٠٥

٦٣. نفسه: ص٢٠٧

٦٤. كوندوز، س: المرجع السابق ص٨٢

٦٥. دراشة إد يهيا: ٥: ص٤٧ ـ ٤٨

٦٦. نفسه: ص٥٢ ـ ٥٣

٦٧. نفسه: ص٩١ ـ ٩٢

٦٨. نفسه: ص٩١ ـ ٩٢

٦٩. كنزا اليمين: ٧: ص٢١١ ـ ٢١٧

٧٠. دراشة إد يهيا: ٢٧: ص٨١

٧١. مفسخ: ص٨١ ـ ٨٢

٧٢. نفسه: ص٨٢

٧٣. نفسه: ٢٣ ص٦٩

٧٤. دراور، الليدي: أساطير مندائية/ ص٤٦ ـ ٤٨ وانظر **W.Brandt,Die Mandaixche Religion, Ausgabe 1889 Leipzig, p.138**

٧٥. سباهي، عزيز: أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية ص١١٨ ـ ١١٩

٧٦. إنجيل مرقس: ٦: ١٧ ـ ٣٠

٧٧. كنزا ربا: كلمة عن الدين المندائي وعن انجاز هذا الكتاب بقلم البروفسور ليدزسباركي: ص٦٨٢

٧٨. دراور، الليدي: المرجع السابق ص٥١ ـ ٥٤

٧٩. دراشة إد يهيا: ٣١ ص٩٨

٨٠. نفسه

٨١. نفسه: ٣٢ ص٩٩

٨٢. نفسه: ص ١٠٣ ـ ١٠٤

٨٣. نفسه: ص١٠٥

٨٤. دراور، الليدي: الصابئة المندائيون ص٤٦

٨٥. نفسه: ص٤٢

٨٦. دراور، الليدي: أساطير مندائية. هامش المترجمين ص٦٤

٨٧. كنزا ريّا اليمين: ١ : ٢ ص٤٩

٨٨. نفسه: ص٥٠

٨٩. نفسه: ١: ص٢٩ ـ ٣٠

٩٠. دراشة إد يهيا: ٧١ ص٢١٩ ـ ٢٢٠

٩١. نلفسه: ص٢٢١ ـ ٢٢٢

٩٢. دراور، ليدي: الصابئة المندائيون ص٤٧

٩٣. كنزا ريا اليمين: ١٨ ص٤٢٩ ـ ٤٣٠

٩٤. نفسه: ص٤٣٠

٩٥. كوندوز، س: معرفة الحياة. هوامش المترجم ص٩٤ ـ ٩٥

٩٦. دراور، ليدي: المرجع السابق ص٤٨

٩٧. كنزا ريا اليمين: ١٨ ص٤٣٠

٩٨. نفسه: ص٤٣٢ ـ ٤٣٣

٩٩. نفسه: ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧

١٠٠.نفسه: / ١٥ : ١٨ ص٣٨٧ ـ ٣٨٨

١٠١. نفسه: ٤ : ١٥ ص٣١٠

١٠٢. نفسه: ص٣١٠ ـ ٣١١

١٠٣. نفسه: ٣ : ١٥ ص٣٠٥ ـ ٣٠٦

١٠٤. نفسه: ص٣٠٦

١٠٥. رودولف، كورت: النشوء والخلق في النصوص المندائية ص١١٧، الأبيات: ترجمة نعيم بدوي.

١٠٦. نفسه: ١٥ : ١٦ ص٣٨٦

١٠٧. نفسه: ص٣٧٥ ـ ٣٧٦

١٠٨. نفسه: ص٣٧٨

١٠٩. نفسه: ص٣٧٨ ـ ٣٧٩

١١٠. نفسه: ١٥ : ١٥ ص٣٦٣

١١١. نفسه

١١٢. نفسه

١١٣. نفسه: ص٣٦٥

١١٤. نفسه: ص٣٦٥ ـ ٣٦٦

١١٥. كنزا ربا اليسار: ١ : ٢ ص٤٥٢

١١٦. نفسه

١١٧. نفسه

١١٨. نفسه: ص٤٥٢ ـ ٤٥٣

١١٩ كنزا ربّا اليمين: ١٨ ص٤٣٧

١٢٠. نفسه

١٢١. نفسه

١٢٢. نفسه: ٥: ص٢٠٠

١٢٣. كنزا ربا اليسار: ٢: ١٦ ص٥٠٨

١٢٤. نفسه: ص٥٠٩

١٢٥. نفسه: ٢ : ١ ص٤٨٩

١٢٦. نفسه: ٣: ٢ ص٥٤٤

١٢٧. نفسه

١٢٨. دراشا إد يهيا: ١٠ ص٣١

١٢٩. كنزا ربا اليسار: ٢ : ١٨ ص٥١٢

١٣٠ كنزا ربّا اليمين: ١٥ : ١٢ ص٣٤٨

١٣١. كنزا ربّا اليسار: ٣: ١ ص٥٤٠

١٣٢. نفسه: ٢ : ٢٢ ص٥٥٢

١٣٣. نفسه: ٣: ١ ص٥٤٠ ـ ٥٤١

١٣٤. نفسه: ص٥٤١

١٣٥. نفسه: ص٥٤٢

١٣٦. نفسه: ص٥٤٣

١٣٧. السبتي، الربي رامذ عبدِ الله نجم: مسقثا (الصعود والارتقاء) ترجمة وشرح وتعليق، ISBN90 ـ 9018165 ـ 2، هولندا/٢٠٠٤ ص٨

١٣٨. نفسه: لاحظ أن المترجم يترجم نشمثا إلى (نفس) وهذا اجتهاد خاص به إذ ثبتنا اختلافنا معه.

١٣٩. كنزا ربّا اليسار: ٣: ٢٨ ص٦٢٧

١٤٠. نفسه: ٢: ٥ ص٤٧٨

١٤١. نفسه: ٢: ٣ ص٤٧٤

١٤٢. نفسه: ٢: ٤ ص٤٧٦

١٤٣. نفسه: ٢: ٧ ص٤٨٢

١٤٤. نفسه: ٢: ١٥ ص٥٠٤

١٤٥. نفسه: ص٥٠٤ ـ ٥٠٥

١٤٦. نفسه: ٢: ٢١ ص٥٢١

١٤٧. نفسه: ٢: ٢٨ ص٥٣٥

١٤٨. نفسه: ٣: ٩ ص٥٥٧ ـ ٥٥٨

١٤٩. نفسه: ٣: ٤٢ ص٦٣٢

١٥٠. نفس: ٢: ١١ ص٤٩٢

١٥١. نفسه: ٣: ٤٩ ص٦٤١

١٥٢. نفسه: ٣: ٤٢ ص٦٣٢ ـ ٦٣٣

١٥٣. نفسه: ٣: ١٠ ص٥٦٢

١٥٤. نفسه: ٢: ٢٦ ص٥٣٢

١٥٥. نفسه: ؛ ٢: ٢٧ ص٥٣٤

١٥٦. نفسه: ٢: ٥ ص٤٧٨ ـ ٤٧٩

١٥٧. نفسه: ٣: ٣٥ ص٦٢١

١٥٨. دراشا إد يهيا: ٩ ص٢٧

١٥٩. كنزا ربّا اليسار: ٣: ٥ ص٥٥٠

١٦٠. نفسه: ٣: ٢١ ص٥٩٣

١٦١. نفسه

١٦٢. نفسه: ٣: ٥٧ ص٦٥٨

١٦٣. نفسه: ٣ب: ٥٨ ص٦٦٠

١٦٤. نفسه: ٣: ٢٧ ص٦٠٥

١٦٥. نفسه: ٣ب: ٥٤ ص٦٥٢

١٦٦. نفسه: ٣: ٧ ص٥٥٤

١٦٧. نفسه: ٣: ٨ ص٥٥٥

١٦٨. نفسه: ١ ٤ ص٤٦٠

١٦٩. نفسه: ٣: ٢٥ ص٦٠١

١٧٠. نفسه ١: ٤ ص٤٦٠

١٧١. نفسه: ٣: ٥ ص٥٥١

١٧٢. نفسه: ٢: ٢١ ص٥١٢

١٧٣. نفسه: ٣: ١٣ ص٥٧١

١٧٤. نفسه: ٢: ١٣ ص٤٩٨ ـ ٤٩٩

١٧٥. إلياد، مرسيا: أسطورة العود الأبدي ص٢١١

١٧٦. أليـاد، مرسـيا: المقـدس والعـادي. ترجمـة د. عـادل العـوّا، صـحارى للصـحافة والنشـر، بـودابس/ هنغاريـا/١٩٩٤ ص٩١ ــ ٩٢. وانظـر (هنـري شـارل بـوش **H.ch. Puech**: الغنـوص والزمـان **Jahr Buch,xx1951 ـ Eranos**

١٧٧. نفسه: ص٩٣

١٧٨. نفسه ص٦

١٧٩. إلياد، مرسيا: أسطورة العود الأبدي ص١٣٨

١٨٠. دراور، ليدي: الصابئة المندائيون (الكتاب الأول) ص١٤٧

١٨١. برنجي، سليم: الصابئة المندائيون (دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين)، ترجمـة جـابر أحمـد/ دار الكنوز الأدبية، بيروت ١٩٩٧ ص٢٠٩

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع
فهرس المخططات والأشكال والجداول
فهرس المحتويات

فهرس المصادر والمراجع

الكتب المقدّسة:

١. القرآن الكريم: سورة البقرة ٦٢، سورة المائدة ٦٩، سورة الحج ١٧

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين: ٥: ٢١ ـ ٢٥، إنجيل يوحنا: ١: ١ ـ ٥، إنجيل مرقس: ٦: ١٧ ـ ٣٠

٣. كنزا ربّا (كنز الربّ العظيم): كتاب المندائيين الكبير نقله عن الألمانية إلى اللغة العربية المعاصرة **Carlos Gelbert**، منشورات الماء الحي، سدني ـ استراليا. الطبعة الثانية/**December 2000**

٤. دراشة إد يهيا (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا عليه السلام): ترجمة عن اللغة المندائية ـ الآرامية إلى اللغة العربية: أمين فعيل حطّاب، أعد الصياغة الأدبية سميع داود سلمان، الطبعة الأولى، طباعة شركة الديوان للطباعة. بغداد/ ٢٠٠١.

المصادر المندائية (المخطوطات):

ملاحظة: هذا جردٌ كاملٌ بالمخطوطات المندائية الأصلية التي تشكل التراث الروحي المندائي وقد ترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية والعربية وكانت جزءاً من مصادرنا في هذا الكتاب (وهي مرتبة حسب الحروف الأبجدية بعناوينها المندائية) والمصادر المطبوعة بالحروف السوداء تحوي رسوماً ظهر بعضها في كتابنا هذا وأصبحت جزءاً من مصادرنا. أما على مستوى النصوص فقد اعتمدنا على المخطوطات المترجمة الى النجليزية أو العربة فقط في هذا الكتاب.

١. ألف ترسر شياله (ألف واثنا عشر سؤالاً). ترجمته الليدي دراور إلى الأنكليزية:

The Alf Trisar Suialia (The Thousand and Twelve Questions) ,in: TRAS 1941, s.101. London. E.S.Drower

٢. آلما ريشايا ربّا (العالم الرئيس الكبير) وآلما ريشايا زوطا (العالم الرئيس الصغير): ترجمتها ليدي دراور:

Apair of Nasoraen Commentaries (The Great 'First world' and the lesser 'First world) translated with notes by E.s. Drower, leiden, Brill,1963

٣. أسفر ملواشا (سفر البروج). ترجمة ليدي دراور:

The Book of the zodiac (sfar Malwasia) , the Royal Asiatic Society, London, 1949

٤. دموث كوشطا (مثال الصدق) غير مترجم

٥. ديوان حرّان كوثيا: ترجمته ليدي دراور:

The Haran Gawaita, E.s. Drower, Citta del Vaticano Biblioteca Apostolica Vatican,1953

٦. ديوان أباثر: ترجمته الليدي دراور:

Diwan Abather, E.S Drower, Rome 1950

٧. ديوان قداها ربا: (الصلاة الكبرى) غير مترجم

٨. ديوان مصبتا د هيبل زيوا: (تعميد هيبل زيوا) وقد نشرته دراور مع كتاب حران كوثيا:

Ziwa, E.s. Drower, Vatican 1953 _ Baptixm of Hibil

٩. ديوان ملكوتا إليتا (المملكة العليا) غير مترجم

١٠. ديوان نهرواثا (النهر) غير مترجم

١١. ديوان تفسير بغرا (تفسير الجسد) غير مترجم

١٢. سيدرا إد نشماثا (كتاب الأرواح) ترجمة عن العبرية والألمانية كارلوس جلبرت إلى العربية عام ٢٠٠٠ ونشره في سدني/ استراليا منشورات الماء الحي.

١٣.شرح طراسة د تاغه د شيشلام ربّا (تتويج شيشلام العظيم). ترجمته ليدي دراور:

The Coronatio of the Great Sislam, Translated with notes by E.s. Drower, Leiden, Brill, 1962

١٤. شرح د برونايا: (عيد الأيام الخمسة) غير مترجم

١٥. شرح د ذخرانا لهدايا زدقا (ذكرى الأوحد بعدله) غير مترجم

١٦. شرح د قابين شيشلام بّا (زواج شيشلام العظيم). ترجمة ليدي دراور:

The Marige of the Great Sislan, Translated with Notes by E.s. Drower, Rome, 1950

١٧. شباني شايي (ساعات النهار) غير مترجم

١٨. قلستا (كتاب الصلوات الأصولي). ترجمته إلى الانكليزية ليدي دراور ١٩٥٩، وترجم إلى العربية في بغداد:

The Canonical Prayerbook of the Mandaeans, Translated with notes by E.S.Drower, Leiden, Brill, 1950

١٩. قماهي وزرستي (التقميط والوقاية). غير مترجم

٢٠. نياني (الأناشيد) وهو جزءٌ من (قلستا) الذي يخص الصلوات على أرواح الموتى/ مترجم

٢١.مسقثا (الصعود والارتقاء) ترجمه وشرحه وعلّق عليه الربي رافد عبد الله نجم السبتي ونشره في هولندا/ ٢٠٠٤

المصادر الإسلامية:

١. البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد ج٧، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت
٢. البيروني، الخوارزمي أبو الريحان محمد بن أحمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى/ بغداد، ١٩٣٢.
٣. الشافعي، محمد بن إدريس: كتاب الأم ج٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨
٤. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤ هجري.
٥. الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤

المراجع الحديثة:

١. إلياد، مرسيا: أسطورة العود الأبدي: ترجمة نهاد خياطة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق/١٩٨٧
٢. إلياد، مرسيا: المقدس والعادس، ترجمة د. عادل العوّا، صحارى للصحافة والنشر، بودابست (هنغاريا) ١٩٩٤/
٣. الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربي، ط٤، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩١
٤. الخيون، رشيد: مندائي أو الصابئة الأقدمون: تأليف عبد الحميد أفندي بن بكر أفندي عبادة، الملحق، دار الحكمة، لندن، ٢٠٠٣
٥. دراور، ليدي: الصابئة المندائيون (الكتاب الأول)، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، ط٢ مطبعة الديواني، بغداد ١٩٨٧
٦. دراور، الليدي: أساطير وحكايات شعبية مندائية، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، بغداد/د.ت.
٧. رودولف، كورت: النشوء والخلق في النصوص المندائية، إعداد وترجمة الدكتور صبيح مدلول السهيري، جامعة بغداد، بغداد ١٩٩٤
٨. سباهي، عزيز: أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى دمشق/ ١٩٩٦
٩. سباهي، عزيز: إلى أيّ قوم ينتمي الصابئة المنداثيون، انترنيت: إتحاد الجمعيات المندائية/ تاريخ/ **orgLHistory ـ www.mandaeanunion**
١٠. السبتي، رافد عبد الله نجم: مسقثا (الصعود والارتقاء) ترجمة وشرح وتعليق: **ISBN90 ـ**

9018165 ـ 2 هولندا/ ٢٠٠٤

١١. عليان، رشدي: الصابئون حرّانيين ومندائيين، جامعة بغداد، مطبعة دار السلام/ بغداد/١٩٧٦

١٢. كوندوز، س: معرفة الحياة، ترجمة الدكتور سعدي السعدي، مركز الحرف العربي/ غوتنبرغ، السويد، ١٩٩٦

١٣. ليدزسبارسكي، مارك: كنزا ربّا (كلمة عن الدين المندائي)، ترجمة كارلوس جلبرت، منشورات الماء الحي، سدني/ استراليا/١٩٩٦

١٤. الماجدي، خزعل: بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان/ ١٩٩٨

١٥. نغرين، جيو وليد: ماني والمانوية، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسّان للطباعة والنشر، دمشق، د.ت.

المراجع الأجنبية

1. Brandt, w. , Die Mandaische Religion, Leipzig, 1889
2. Doresse, Jean, The Secret Books of Egyptian Gnostics, the Viking Press, New York, 1970
3. Drower, E.s, «The Mandaeans today". The Hibber Journal,1930 ـ 39
4. Naveh, Joseph, Early History of the Alphabet, Leiden, Brill 1922
5. Noldeke, Th. , Mandaische Grammatik, Halle. 1875
6. Rudulph,K. , Theoganie, Kosmogonie and Anthropogonie in denmand, Schriften, Gottengen. 1965
7. Rudulph, K., Mandaeism, Leiden, Brill, 1978
8. Yamauche, E. M., Gnostic Ethics and Mandaean Origins, Cambridge, Harvard University Press, 1970

فهرس المخططات والأشكال والجداول

٤٥.تناظر الفردوس والجحيم (الجنة والنار) عند المندائيين

٤٦.رموز سقوط وصعود الملوك

٤٧.دورة الروح (نشمثا)

٤٨.الروح القوية والروح الضعيفة

٤٩.دورة الروح المفصلة

٥٠.صورة لطقوس زدقا بريخا السماوية الجنائزية

٥١.حراس المنازل أو الأعرافيون (مطراتا)

٥٢.شجرة شاترين

٥٣.سفينة شهرات

٥٤.المعمّدون السماويون للأرواح

٥٥.عمر البشرية بأدوارها الأربعة

٥٦.دورات أساطير النزول والصعود من وإلى عالم النور والظلام.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني: أساطير الخليقة (التكوين)

الفصل الثالث: أساطير العمران

الفصل الرابع : أساطير الخراب

الفصل الخامس: أساطير الموت

صدر للمؤلف

أولاً: في حقل التاريخ والمثولوجيا والأديان القديمة

١. سفر سومر ـ دار عشتار. بغداد ١٩٩٠

٢. حكايات سومرية ـ وزارة الإعلام. بغداد/ ١٩٩٥

٣. مثولوجيا الأردن القديم ـ وزارة السياحة والآثار. عان/١٩٩٧

٤. أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ ـ دار الشروق عمان/ ١٩٩٧

٥. جذور الديانة المندائية ـ مكتبة المنصور. بغداد/ ١٩٩٧

٦. الدين السومري ـ دار الشروق. عمان / ١٩٩٧

٧. بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين) ـ الدار الأهلية. عمان/١٩٩٨

٨. متون سومر (التاريخ. المثولوجيا. اللاهوت. الطقوس) الدار الأهلية. عمان/١٩٩٨

٩. إنجيل سومر ـ الدار الأهلية. عمان/ ١٩٩٨

١٠. إنجيل بابل ـ الدار الأهلية. عمان/ ١٩٩٨

١١. الدين المصري ـ دار الشروق. عمان/ ١٩٩٩

١٢. الآلهة الكنعانية ـ دار أزمنة. عمان/ ١٩٩٩

١٣. المعتقدات الآرامية ـ دار الشروق. عمان/١٩٩٩

١٤. موسوعة الفلك عبر التاريخ ـ دار أسامة. عمانُ ٢٠٠١

١٥. المعتقدات الكنعانية ـ دار الشروق. عمان/ ٢٠٠١

١٦. المعتقدات الأمورية ـ دار الشروق. عمان/ ٢٠٠٢

١٧. أدب الكالا.. أدب النار ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمان/ ٢٠٠٢

١٨. مثولوجيا الخلود ـ الدار الأهلية. عمان/ ٢٠٠٢

١٩. المعتقدات الأغريقية ـ دار الشروق. عمان/ ٢٠٠٤

٢٠. تاريخ القدس القديم ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمانُ/ ٢٠٠٥

٢١. المعتقدات الرومانية ـ دار الشروق. عمان/ ٢٠٠٥

ثانياً : في حقل الشعر :

أ . المجاميع الشعرية :

١. يقظة دلمون ـ دار الرشيد. بغداد/ ١٩٨٠
٢. أناشيد إسرافيك ـ دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد/ ١٩٨٤
٣. خزائيل ـ دار الشؤون الثقافية العالمة. بغداد/ ١٩٨٩
٤. عكازة رامبو ـ دار الأمد. بغداد/ ١٩٩٣
٥. فيزياء مضادة ـ دار المنصور. بغداد/ ١٩٩٧
٦. حيّة ودرج ـ دار المنصور، بغداد/ ٢٠٠٦ ، دار أدب وفن ، القاهرة ٢٠٠٨
٧. فلم طويل جداً ـ منشورات بابل ، بغداد/ زيوريخ/ ٢٠٠٨

ب . الأعمال الشعرية :

١ـ المجلد الأول : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت/ ٢٠٠١ ويضم :

١. أطلس شرقي.
٢. فيزياء مضادة
٣. قصائد الصورة
٤. أناهيت
٥. اسمعي رمادي.. اسمعي موسيقا الذهب
٦. مخطوطات غجرية

٢ـ المجلد الثاني : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٥ ويضم :

١. يقظة دلمون.
٢. أناشيد إسرافيل
٣. الياقوتات
٤. موسيقا لهدم البحر
٥. خواتم الأفعى
٦. حزيناً عند عمود السماء
٧. السومرية أحلام في اتضاح جحيمها وفراديسها العالية

٣ـ المجلد الثالث : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٨ ويضم :

١. عكازة رامبو

٢. حيّة ودرج

٣. خيط العبور

٤. حمام النساء في كركوك

٥. ركوكو

٦. فلم طويل جداً

ثالثاً : في حقل نظرية الشعر :

العقل الشعري (جزءان) – دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد/ ٢٠٠٤

رابعاً : المسرحيات المعروضة :

١. عزلة في الكريستال/١٩٩٠

٢. حفلة الماس/ ١٩٩٢

٣. هاملت بلا هاملت/١٩٩٢

٤. الغراب/ ١٩٩٢

٥. مسرحيات قصيرة جداً/١٩٩٣

٦. تموز في الأعالي/ ١٩٩٣

٧. قيامة شهرزاد/ ١٩٩٤

٨. نزول عشتار إلى ملجأ العامرية/١٩٩٤

٩. أكيتو (الليالي البابلية) / ١٩٩٥

١٠. مفتاح بغداد/ ١٩٩٦

١١. أنيما/ ١٩٩٧

١٢. سيدرا/١٩٩٩

١٣. موسيقى صفراء /٢٠٠٨

- مسرحيتا (هاملت بلا هاملت وسيدرا) صدرتا في كتاب واحد عن دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥

خزعل الماجدي
Khazal Al-Maijdi

معلومات عامة:

الجنسية : عراقي"مقيم في هولندا"
مكان وتاريخ الولادة العراق - كركوك - ١٩٥١
الوضع الاجتماعي : متزوج وله أربعة أبناء
العنوان الالكتروني : a_khazal@hotmail.com

المؤهلات العلمية :

الشهادات الاكاديمية

١- شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم من معهد التاريخ العربي للدراسات العليا في بغداد ١٩٩٦
٢- شهادة دكتوراه دولة برتبة (عالم باحث) في فلسفة الديانات القديمة من جامعة الحضارة الاسلامية المفتوحة في بيروت2009 .

شهادات الخبرة العلمية :

١- شهادة من كلية بابل للفلسفة واللاهوت والعلوم الانسانية / بغداد
٢- شهادة من جامعة درنة في ليبيا بتدريس المواد الاتية :
١- التاريخ القديم (تاريخ المشرق القديم ، تاريخ المغرب القديم ، تاريخ الاغريق ، التاريخ الهيلنستي ، الحضارة العربية والاسلامية .)
٢- تاريخ الفن (تاريخ الفن القديم ، تاريخ الفن الوسيط ، تاريخ الفن الحديث ، النقد الفني)
٣- (عمارة واثار اغريقية ورومانية ، مواقع اثرية)

الوظائف التي مارسها

١- دائرة الاذاعة والتلفزيون في بغداد : محرر في القسم الثقافي .
٢- الصحف العراقية (القادسية ، الجمهورية) محرر في القسم الثقافي .
٣- المجلات (الطليعة الادبية . فنون ، الف باء والاديب المعاصر ، الوطن العربي) : محرر في القسم الثقافي .
٤ - اتحاد الادباء والكتاب في العراق مدير النشاط الثقافي (١٩٨١ - ١٩٩٣) .
٥ - دائرة السينما والمسرح في العراق مدير النشاط الاعلامي و الثقافي (١٩٩٠ - ١٩٩٨).
٦ - جامعة درنة في ليبيا استاذ جامعي في قسمي التاريخ والفنون (١٩٩٨ – ٢٠٠٣).
٧ - صحيفة القاصد العراقية : مدير القسم الثقافي (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥)

الاتحادات والنقابات التي ينتمي اليها :

اتحاد الادباء والكتاب العرب
الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق
اتحاد المؤرخين العرب
اتحاد المسرحيين العراقيين

الكتب الفكرية والثقافية :

اولا : في حقل التاريخ والمثولوجيا والأديان القديمة :

١. سفر سومر – دار عشتار بغداد ١٩٩٠
٢. حكايات سومرية – وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٩٥
٣. ميثولوجيا الاردن القديم - وزارة السياحة والاثار. عمان ١٩٩٧
٤. اديان ومعتقدات ماقبل التاريخ - دار الشروق – عمان ١٩٩٧
٥. جذور الديانة المندائية - مكتبة المنصور بغداد ١٩٩٧
٦ الدين السومري – دار الشروق . عمان ١٩٩٧
٧. بخور الالهة (دراسة في الطب والسحر والاسطوزرة والدين) – الدار الاهلية عمان ١٩٩٨
٨. متون سومر (التاريخ ، الميثولوجيا ، اللاهوت ، الصقوس) الدار الاهلية عمان ١٩٩٨
٩. انجيل سومر – الدار الاهلية عمان ١٩٩٨
١٠. الالهة المعانية – دار ازمنة ، عمان ١٩٩٩
١١. انجيل بابل – الدار الاهلية . عمان ١٩٩٨
١٢. الدين المصري – دار الشروق. عمان ١٩٩٩
١٣. الالهة الكنعانية – دار ازمنة. عمان ١٩٩٩
١٤. الفلك عبر التاريخ _ دار اسامة. عمان ٢٠٠١
١٥. المعتقدات الارامية – دار الشروق .عمان ٢٠٠١
١٦. المعتقدات الكنعانية – دار الشروق . عمان ٢٠٠١
١٧. المعتقدات الامورية – دار الشروق. عمان ٢٠٠٢

١٨ ادب الكالا أدب النار – المؤسسة العربية للدراسات والنشر .بيروت ٢٠٠٢
١٩ ميثولوجيا الخلود – الدار الاهلية .عمان ٢٠٠٢
٢٠ المعتقدات الاغريقية – دار الشروق . عمان ٢٠٠٤
٢١ المعتقدات الرومانية – دار الشروق . عمان ٢٠٠٥
٢٢ تاريخ القدس القديم – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٥

ثانيا : في حقل الشعر

(أ) المجاميع الشعرية :

١- يقظة دلمون – وزارة الاعلام . بغداد ١٩٨٠
٢- أناشيد اسرافيل – وزارة الاعلام . بغداد ١٩٨٤
٣- خزائيل – وزارة الاعلام . بغداد ١٩٨٩
٤- عكازة رامبو – دار الامد بغداد ١٩٩٣
٥- فيزياء مضادة – مكتبة المنصور . بغداد ١٩٩٧
٦- حية ودرج / مكتبة المنصور . بغداد ٢٠٠٦ / ادب فن القاهرة ٢٠٠٨
٧- فلم طويل جدا/منشورات بابل .زيورخ- بغداد ٢٠٠٩

(ب) الاعمال الشعرية :

المجلد الاول صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠١ ويحتوي على المجموعات الاتية :

١- أطلس شرقي
٢-فيزياء مضادة
٣-قصائد الصورة
٤-اناهيت
٥-اسمعي رمادي .. اسمعي موسيقا الذهب
٦- مخطوطات غجرية

المجلد الثاني صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ٢٠٠٥ ويحتوي على المجموعات الاتية :

١- يقظة دلمون

٢- اناشيد اسرافيل
٣- الياقوتات
٤- موسيقى لهدم البحر
٥- خواتم الافعى
٦- وحيدا عند عموذ السماء
٧- السومرية أحلام في اتضاح جحيمها وفراديسها العالية

المجلد الثالث صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ٢٠٠٨ ويحتوي على المجموعات الشعرية الاتية :

١- عكازة رامبو
٢- حية ودرج
٣- خيط العبور
٤- حمام لنساء في كركوك
٥- ركوكو
٦- فيلم طويل جدا

ثالثا : في حقل النظرية الشعرية

١- العقل الشعري – الكتاب الاول (العقل الشعري الخالص والمحيط الناطق)
دار الشؤون الثقافية بغداد ٢٠٠٤

٢- العقل الشعري - الكتاب الثاني (العقل الشعري العملي والظاهر والباطن)
دار الشؤون الثقافية بغداد ٢٠٠٤

رابعا : في حقل المسرح : (المسرحيات المعروضة)

١. **عزلة في الكريستال** -اخراج الدكتور صلاح القصب- بغداد ١٩٩٠
٢. **حفلة الماس** -اخراج الدكتور صلاح القصب- بغداد ١٩٩١
٣. **هاملت بلا هاملت**- اخراج ناجي عبد الامير- بغداد ١٩٩٢ودمشق١٩٩٥
-اخراج هيثم عبد الرزاق- باريس٢٠٠٧
-اخراج ميشيل سيردا بترجمة فرنسية -باريس٢٠٠٧
اخراج كمال عطوش بعنوان"صرخة اوفيليا"- الجزائر٢٠٠٨
٤. **قمر من دم** –اخراج الدكتور فاضل خليل- بغداد ١٩٩٢

٥. **الغراب** – اخراج نصير عبد الستار- بغداد١٩٩٢
6. **تموز في الاعالي**-اخراج محسن العلي-بغداد١٩٩٣
٧ **مسرحيات قصيرة جدا** –اخراج جبار المشهداني- بغداد١٩٩٣
٨. **قيامة شهرزاد** –اخراج غانم حميد- بغداد ١٩٩٤
٩ **نزول عشتار الى ملجأ العامرية**-اخراج جبار المشهداني- بغداد ١٩٩٤

١٠. **أكيتو (الليالي البابلية**)اخراج غانم حميد- بابل ١٩٩٥
١١ **مفتاح بغداد** –اخراج غانم حميد وحيدر منعثر- بغداد١٩٩٦
١٢ **أنيما** –اخراج حنين مانع-بغداد ١٩٩٧
١٣ **سيدرا** –اخراج الدكتورفاضل خليل – بغداد وقرطاج١٩٩٩ والقاهرةوعمان٢٠٠٠

- اخراج عبد الكريم الجراح- عمان٢٠٠١
اخراج هاشم غزال بعنوان"الطوفان"- طرطوس٢٠٠٨و٢٠٠٩

14. **موسيقا صفراء**-اخراج علاء النعيمي- الشارقة ٢٠٠٨
١٥. **التيه**"عن حية ودرج" اخراج حسن كاظم الغبيني - بابل٢٠٠٨.

*** مسرحيتا "هاملت بلا هاملت وسيدرا" صدرتا في كتاب واحد عن دار الشروق للنشر والتوزيع\ عمان ٢٠٠٥**

المثولوجيا المندائية



ربما يكون هذا الكتاب هو الأول من نوعه في المكتبة العربية والمكتبة الأجنبية معاً، فهو يتطرق إلى موضوع نادر يتهيّبُ منه كثيرون بسبب حاجته إلى عدة معرفية كبيرة في تاريخ وعلم الأديان التوحيدية وجذورها. إن الديانة المندائية ما زالت محاطة بالكثير من الغموض واللبس فكيف إذا كان الموضوع هو (المثولوجيا) التي تبحث في شرح وتحليل وتأويل الأساطير المندائية التي هي العتبة الأولى للغنوصية والتوحيدية.

سيكون هذا الكتاب، ولزمنٍ طويل جداً، متفرداً في موضوعه وسيوفّر للقراء والباحثين المفاتيح الحقيقية لفهم الديانة المندائية وسبر أغوارها بعيداً عن الكتب السطحية التي وضعت عنها. إنه يضع الأساطير المندائية في دورة كونية شاملة تبدأ بالخليقة ثم العمران ثم الخراب وتنتهي بالموت والفناء، وهو، بذلك يقيم ترابطاً بين موضوع الأساطير وزمن حدوثها.

ورغم غزارة إنتاج المؤلف، في حقل المثولوجيا وتاريخ وعلم الأديان، لكن هذا الكتاب يبدو لنا وكأنه الأهم بين مؤلفاته فرط علميته ودقته وموضوعيته وندرة موضوعه وأسلوبه الأخاذ.

